

الكتاب الأول

مَوتٌ في العَائلَة

كارل أوفه كناوسغارد

«إنها العَظَمة الأدبية من خلال التخلي عن الأدبية المعتادة ... يتحدث عنه الجميع بشغف ويقارنونه بمارسيل بروست»

جوناثان ليثام ـ الغارديان

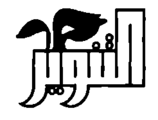
كارل أوفه كناوسغارد



الكتاب الأول

موت في العائلة

ترجمة: الحارث النبهان



كارل أوفه كناوسغارد



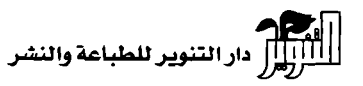
الكتاب الأول

موت في العائلة

الكتاب: كفاحي/ الكتاب الأول: موتٌ في العائلة
المؤلف: كارل أوفه كناوسغارد
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 464 صفحة
الطبعة الأولى لدار التنوير : 2017

الترقيم الدولي: 978-977-828-002-9
رقم الإيداع: 2017/5556

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
MIN KAMP. FØRSTE BOK by Karl Ove Knausgård
MIN KAMP. FØRSTE BOK



دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الأول –
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة – جاردن سيتي 2 شارع فؤاد سراج الدين (السريا الكبرى سابقاً) – الدور الأرضي – شقة رقم 2
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

This translation has been published
with the financial support of NORLA.

القسم الأول

بالنسبة للقلب، الحياة أمرٌ بسيط: ينبض طالما ظل قادراً على النبض. ثم يتوقف! عاجلاً أو آجلاً، ذات يوم، سوف يتوقف هذا الفعل الصاخب من تلقاء نفسه، وسوف يبدأ الدم انسيابه صوْب أخفض نقطة في الجسم حيث يتجمَّع في بركة صغيرة تظهر من الخارج على هيئة بقعة طرية قاتمة على جلد ازداد بياضُه؛ وبينما تنخفض درجة حرارة الجسم سريعاً، تتيبَّس الأعضاء وتُفرِغ الأمعاء ما فيها. تجري هذه التغيرات بطيئةً في الساعات الأولى، وهي تحدث بطريقة عنيدة يكاد يكون فيها شيء شعائري... كما لو أن الحياة تستسلم طبقاً لقواعد محددة... قواعد تكاد تشبه اتفاقاً ودياً يلتزم به ممثلو الموت أيضاً، إذ ينتظرون ريثما تُكمل الحياة انسحابها قبل أن يبدأ غزوهم الميدان الجديد. إلّا أن الغزو يصير عند هذه النقطة أمراً لا رجعة فيه. لا سبيل إلى إيقاف جموع البكتيريا الهائلة التي تبدأ تسللها إلى داخل الجسم. لو أنها حاولت التسلل قبل بضع ساعات فقط لواجهت مقاومةً فورية؛ على أنّ كل شيء يصير هادئاً من حولها الآن عندما تغوص أعمق فأعمق في هذه الظلمة الرطبة. تتقدم إلى أنفاق هافيرس في العظام، وإلى خبايا ليبركوهن وجزر لانغرهانس. تدخل محفظة بومان في الكلية، وعمود كلارك في النخاع الشوكي، والمادة السوداء في الدماغ. ثم تصل إلى القلب. يظل القلب سليماً حتى هذه اللحظة، لكنه مجردٌ من القدرة على أداء العمل المصمَّم من أجله؛ هنالك شيء حزين إلى حد غريب في ما يتعلق بهذا الأمر... يصير القلب مثل مصنع منتجٍ أُرغِم العمال على الفرار منه مستعجلين، أو هو يبدو هكذا... يشعّ لون الآليات الساكنة الأصفر على خلفية الغابة القاتمة والأكواخ المهجورة وصفٌّ من دلاءٍ محمولة على كابل ممتد صاعد على السفح.

يصير الجسد ملكاً للموت لحظة تفارقُه الحياة. يصير شيئاً مثل المصابيح والحقائب والسجاد ومقابض الأبواب والنوافذ. حقولٌ، ومستنقعات، وجداول، وجبال، وغيوم، وسماءٌ. لا شيء من هذا غريب عنا، فنحن محاطون دائماً بأجسام وظاهراتٍ من مملكة الموت. على الرغم من هذا، ليست كثيرة هي الأشياء التي تثير

فينا نفوراً أكثر مما تثيره رؤية كائن إنساني قد أمسك به الموت! هذا إن كان لنا أن نحكم، على أقل تقدير، من خلال الجهد الذي نبذله دائماً حتى نُبقي الجثث بعيدة عن أنظارنا. في المستشفيات الكبرى، لا تكون الجثث مخبّأةً بعيداً في غرف خفية يصعب الوصول إليها فحسب، بل إن الطرق المؤدية إلى تلك الغرف تكون مخفية بدورها ولها مصاعدها الخاصة بها وممراتها في الأقبية. وإذا وصلتَ مصادفة إلى واحد من هذه الممرات، فإنك ترى الجثث التي ينقلونها على العربات مغطاة دائماً، ومحجوبة عن الأعين. وعندما يريدون نقلها من المستشفى، يجري هذا عبر مخرج مخصص لتلك الغاية، وباستخدام سيارات لها زجاج مُعتم.

للجثث في الكنيسة غرفة مستقلة لا نوافذ لها. وفي مراسم الدفن، تكون تلك الجثث قابعة في توابيت مغلقة إلى أن تُدفن في الأرض أو إلى أن تُحرق في الفرن. يصعب تخيل الغاية العملية التي يمكن لهذه التدابير أن تؤديها. يمكن نقل الأجساد مكشوفةً على العربات في ممرات المستشفى على سبيل المثال، ثم يمكن نقلها في سيارة عادية أيضاً من غير أن يشكِّل هذا خطراً على أيٍّ كان. من الممكن أن يظل الكهل الذي يموت خلال عرض فيلم سينما في مقعده حتى ينتهي الفيلم. بل يمكن أن يظل فيه حتى ينتهي العرض التالي أيضاً. ما من ضرورة تدعو إلى الإسراع في نقل المعلّم الذي يموت بنوبة قلبية في ملعب المدرسة؛ وما من ضرر في تركه في مكانه إلى أن يتوفر الوقت لمن سينقلونه، حتى إذا تأخر ذلك إلى ما بعد الظهر، أو إلى المساء. وما المشكلة إذا حطّ عليه طائر ونقره قليلاً؟ فهل ما ينتظره في القبر أحسن من هذا لأننا لا نرى ما يجري هناك؟ مادام أن الموتى لا يعترضون طريق أحد، فما من حاجة إلى أي استعجال لأنهم لا يمكن أن يموتوا من جديد! يجب أن تكون عَضّات البرد التي تحدث في الشتاء هي الأمر الذي يستلزم استعجالاً خاصاً. المتشرد الذي يموت تجمُّداً على مقعد في مدخل بناية، والمنتحر الذي يقفز من مبنى مرتفع أو من جسر، والمرأة العجوز التي تسقط على السلم، وضحايا الحوادث المرورية العالقين في السيارات المحطمة، ورجل في مقتبل العمر يسقط في البحيرة وقد خدّره السكر بعد ليلة أمضاها في المدينة، والفتاة الصغيرة التي ينتهي بها الأمر تحت عجلات حافلة نقل... ما سبب هذا الاستعجال كله من أجل إبعاد جثثهم عن أعين الناس؟ أهي اللياقة؟ ما الشيء الذي يمكن أن يكون لائقاً أكثر من السماح لأم الفتاة، أو لأبيها، برؤيتها ساعة إضافية،

برؤيتها مستلقية في موقع الحادث نفسه، ظاهرةً كلها... رأسها المحطم وبقيةَ جسدها، وشعرها الملطخ بالدم، وسترتها المبطنة النظيفة؟ مرئية للعالم كله، من غير أسرار، مثلما هي! لكن، حتى هذه الساعة الواحدة في الثلج أمر لا مجال للتفكير فيه. المدينة التي لا تحفظ موتاها بعيداً عن الأنظار، التي تترك الناس حيث يموتون... على الطرق السريعة والطرق الفرعية وفي الحدائق ومواقف السيارات، لا تكون مدينة، بل جحيماً. لا يفكر أحد في حقيقة أن هذا الجحيم يعكس خبرتنا الحياتية بطريقة أكثر واقعية، بل بطريقة أكثر صدقاً من حيث الأساس. نعرف أن الأمر هكذا، لكننا لا نحب مواجهته. من هنا، فإن إخفاءنا لموتانا يرمز إلى فعل قمعٍ أو إلى محاولة تكتّمٍ جَمعي.

إلا أنه لا يسهل كثيراً قوْل ما الذي يجري قمعه هنا على وجه التحديد! لا يمكن أن يكون هو الموت نفسه لأن وجود الموت في المجتمع ظاهر إلى حد كبير. إن أعداد الوفيات التي توردها الصحف أو تقدمها الأخبار التلفزيونية كل يوم تتراوح تراوحاً طفيفاً، بحسب الظروف؛ لكن المعدل السنوي مائل إلى الثبات. وبما أن هذه المعلومات متاحة عبر قنوات كثيرة جداً، فإن تجنبها يصبح أمراً غير ممكن من الناحية العملية. لكن هذا النوع من الموت لا يبدو خطيراً. بل على العكس تماماً لأنه شيء نجد أنفسنا راغبين في السماع عنه ومسرورين بدفع المال لمتابعة أخباره. فإذا أضفنا إلى ما سبق ذلك العدد الكبير من الجثث في الروايات والأفلام، يصبح فهم النظام الذي يحرص على إبعاد الموت عن الأنظار أمراً أكثر صعوبة من قبل. إذا كانت ظاهرة الموت لا تخيفنا، فلماذا هذا النفور من أجساد الموتى؟ إما أن يعني هذا وجود نوعَيْن من الموت، أو أن هنالك تفارقاً بين فكرتنا عن الموت وبين الموت في حد ذاته؛ لكن هذا يعود بنا إلى الأمر نفسه من جديد: الأمر المهم هنا هو أن لفكرتنا عن الموت جذوراً عميقة في وعينا لا إلى الحد الذي يجعلنا نصاب بصدمة حين نرى مقدار اختلافها عن الموت الحقيقي، بل إلى حد يجعلنا نحاول إخفاء هذا الموت الحقيقي بكل ما يتوفر لنا من وسائل. لا يحدث هذا نتيجة شكل ما من أشكال التفكير الواعي المُتروّي (مثلما هو الحال في ما يتعلق بالشعائر، كالجنازات مثلاً، التي تجري هذه الأيام مناقشة أشكالها ومعانيها؛ وبالتالي فإنها تنتقل من حَيّز اللامنطقي إلى حيز الأشياء المنطقية، ومن الحيّز الجَمعي، إلى الحيّز الفردي)... لا، لا يخضع هذا الإبعاد للجثث إلى أي نقاش، بل هو ما نفعله دائماً انطلاقاً من ضرورةٍ لا يستطيع أحد أن يحدّد لها سبباً، لكن

الجميع يحسها: إذا مات والدك في الحديقة في يوم أحدٍ خريفي عاصف فإنك تحمله إلى الداخل، إذا استطعت، أو تغطيه ببطانية على أقل تقدير إن لم تستطع حمله. لكن ما يدفعنا إلى فعْل هذا ليس هو الشيء الوحيد المتعلق بالموتى. ليس قيامنا بإخفاء الجثث أمراً مثيراً للريبة بأقل من حقيقة أننا نضع هذه الجثث على مستوى الأرض بأسرع ما يمكننا! لا يمكن لأحد أن يتصور، عملياً، مستشفى ينقل الجثث إلى الأعلى، إلى غرف تبريد موجودة في الطوابق العليا. يجري خزن الجثث أقرب ما يمكن من الأرض. ينطبق المبدأ نفسه على المؤسسات التي تهتم بالجثث: قد تكون مكاتب شركات التأمين في الطابق الثامن، لكنك لا تجد هناك مكتباً لدفن الموتى. تكون مكاتب دفن الموتى كلها أقرب ما يمكن إلى مستوى الشارع. تصعب معرفة السبب الذي يوجب هذا. قد يجد المرء نفسه منساقاً إلى إغراء الاقتناع بأن الأمر قائم على عادة قديمة أو اتفاق عام قديم كانت له غاية عملية في الأصل، وذلك من قبيل أن الأقبية تكون أكثر برودة مما يجعلها أكثر صلاحية لتخزين الجثث، ثم استمر هذا المبدأ في زماننا بعد أن صارت لدينا برّادات وغرف تخزين مبردة. لكن هذا غير متفق مع فكرة أن نقل الجثث إلى الأعلى في المباني شيء يبدو مخالفاً لقوانين الطبيعة... كأن الموت لا يقبل عُلوّاً وكأن العلوّ لا يقبل الموت. كأننا نملك نوعاً من غريزة العالم السفلي... شيء عميق في داخلنا يحثنا على إنزال الموت إلى الأرض حيثما استطعنا!

قد يبدو إذاً أن التعامل مع الموت يجري عبر نظامين مختلفين. الأول مرتبط بالإخفاء وبالجاذبية، بالأرض والظلمة؛ أما الآخر فهو على صلة بالانفتاح والانطلاق، الأثير والضوء. يموت أب وابنه عندما يحاول الأب إبعاد طفله خارج خط النار في بلدةٍ في مكان ما في الشرق الأوسط؛ وتلتقط إحدى الكاميرات صورة لهما متلاصقين معاً عندما يخترق الرصاص اللحم فيرتعد جسداهما. تلتقط الكاميرا هذه الصورة وتبثها إلى واحد من آلاف الأقمار الصناعية الدائرة حول الأرض فتظهر على شاشات التلفزة في أنحاء العالم، ومن هناك تنزلق إلى داخل ضمائرنا لتُكوّن صورة أخرى من صور الموت، من صور موت الناس. ليس لهذه الصور وزن ولا عمق، ليس لها زمان ولا مكان، ولا صلة لها أبداً بالأجساد التي أنتجتها. إنها صور في لا مكان، وفي كل مكان. يعبرنا القسم الأكبر من هذه الصور عبوراً ثم يذهب؛ لكن هنالك صوراً تبقى فينا، لسبب ما، وتستمر حية في خفايا الدماغ المظلمة. تسقط متزلجةٌ على الثلج فيصاب

شريان كبير في فخذها وينفجر الدم مُخلفاً أثراً أحمر على امتداد المنحدر الأبيض. تموت حتى قبل أن يتوقف جسدها. تقلع طائرة فيندلع اللهب في محركاتها عند صعودها، وتكون السماء زرقاء فوق بيوت الضواحي، ثم تنفجر الطائرة وتصير كرة من نار. يغرق قارب صيد بعيداً عن الشاطئ شمال النرويج ذات ليلة، ويغرق الطاقم المكوَّن من سبعة أشخاص. تتحدث الصحف كلها عن تلك الحادثة في الصباح التالي وتعتبرها لغزاً، لأن الطقس كان هادئاً ولأن الزورق لم يبعث بأي إشارة استغاثة... لقد اختفى فحسب... هذه حقيقة تشدّد عليها محطات التلفزيون ذلك المساء من خلال التحليق فوق مسرح تلك الدراما في طائرة هليكوبتر وعرض صور للبحر الخالي. السماء مثقلة بالغيوم، والبحر صقيل، رمادي، أخضر لكنه هادئ كأن له طبعاً مختلفًا عن تلك الأمواج المتلاطمة ذات الأعراف البيضاء التي تندفع هنا وهناك.

أنا جالس وحدي أنظر إلى الشاشة، والوقت ربيع، وقتٌ ما في الربيع على ما أظن لأن أبي يعمل الآن في الحديقة. أحدّق في صفحة البحر من دون الإصغاء إلى ما يقوله المذيع، وفجأة تنبثق أمامي خطوط وجه في الماء. لست أعرف كم من الوقت ظل ذلك الوجه، لعلها بضع ثوانٍ، لكنها كانت زمناً كافياً لأن يترك أثراً هائلاً عليّ. ولحظة اختفاء الوجه أنهضُ واقفاً حتى أجد شخصاً أستطيع إخباره. أمي تعمل في نوبة بعد الظهر اليوم، وأخي يلعب كرة القدم، ولن يُصغي بقية الأطفال في منطقتنا إلى ما أريد قوله. لا بد أن أخبر أبي إذاً، هكذا أقول في نفسي فأندفع نازلاً درجات السلم وأضع حذائي مستعجلاً وأنا أدخل ذراعيَّ في كمَّيْ سترتي ثم أفتح الباب وأجري ملتفاً حول البيت. ليس مسموحاً لنا أن نركض في الحديقة؛ وهذا ما يجعلني أُبطئ قبل أن أصير على مرأى من أبي، أبدأ المشي بدلاً من الركض. إنه واقف عند آخر البيت في ما سوف يكون بقعة لزراعة الخضار. أراه ينهال بمطرقته الثقيلة على صخرة ناتئة. ومع أن عمق تلك الفجوة لا يتجاوز بضعة أمتار فإن التراب الأسود الذي حفره وتراكم ذلك التراب إلى جانب أشجار مغبرة كثيفة نامية خلف السياج يجعل ضوء الغسق أكثر عمقاً. أرى وجهه شبه غارق في الظلمة عندما تنتصب قامته في تلك الحفرة ويستدير صوْبي.

إلا أن لديّ أكثر مما يكفي لمعرفة مزاجه، رغم الظلمة. إنه ظاهر لا في تعبير وجهه بل في هيئته الجسدية، وأنت لا تقرأه بذهنك، بل عن طريق الحدس.

يضع أبي مطرقته ويخلع قفازَيْ العمل.

يقول لي: «ماذا؟».

«رأيت قبل لحظة وجهاً في البحر على شاشة التلفزيون». أقول هذا عندما أتوقف عند حافة المرج، فوقه. لقد قطع جارنا شجرة صنوبر بعد الظهر فملأت الهواء رائحة الصمغ القوية من جذعها المستلقي خلف الجدار الحجري.

يقول أبي: «هل هو غطاس؟» يعرف أنني مهتم بالغطس، وأظنه لا يستطيع تخيل أنني يمكن أن أجد في أي شيء آخر ما يجعلني أخرج من البيت لأخبره به.

«لم يكن شخصاً. كان شيئاً رأيته في البحر».

يقول أبي وهو يخرج علبة السجائر من جيبه: «شيء رأيته، أليس كذلك؟».

أهزّ رأسي وأستدير لكي أذهب.

يقول: «انتظر دقيقة».

يشعل عود كبريت ويحني رأسه إلى الأمام حتى يشعل السيجارة. يقتطع ذلك اللهب مساحة ضوء صغيرة من الغسق الرمادي.

ويضيف: «لا بأس».

وبعد أن يأخذ نفَساً عميقاً من سيجارته، يضع قدمه على الصخرة ويحدِّق صوب الغابة إلى الناحية الأخرى من الطريق. أو لعله يحدق في السماء فوق الأشجار.

يرفع رأسه ناظراً إليَّ ويقول: «هل رأيت المسيح؟». لولا نبرته الودية ولحظة الصمت الطويلة التي سبقت السؤال لظننت أنه يسخر مني. هذا لأنه يجد أن من المحرج بعض الشيء أن أكون مسيحياً. لا يريد مني إلّا أن لا أكون شديد الاختلاف عن بقية الأطفال... ضمن مجموعة الأطفال الكبيرة في هذه المنطقة الريفية، ما من أحد يدعو نفسه مسيحياً إلّا ابنه الأصغر!

لكني أجد أنه يفكر حقاً في ما قلته له الآن.

أحس موجة من السعادة لأنني أراه مهتماً مع أنّي لا أزال أحس إساءة غامضة لأنه يقلل من شأني بهذه الطريقة.

هززت رأسي نفياً.

قلت: «لم يكن المسيح».

يقول أبي مبتسماً: «لطيف أن أسمع هذا». كان صفير خافت لإطار دراجة تسير على الإسفلت آتياً من الأعلى، من السفح. تزايدَ الصوت... وكانت المزرعة كلها

غارقة في هدوء شديد جعل تلك النغمة المغنّية في قلب ذلك الصوت الصافر تتردد مرتفعة جلية؛ ثم لم تلبث الدراجة أن مرت بنا مسرعة على الطريق.

يسحب أبي نفَساً آخر من السيجارة قبل أن يقذف بها من فوق السياج (لم ينهِ نصفها)، ثم يسعل مرتين ويضع قفازيه ويمسك بالمطرقة من جديد.

يقول لي ملتفتاً صوْبي: «لا تفكر في الأمر».

كنت في الثامنة ذلك المساء، وكان أبي في الثانية والثلاثين. رغم هذا، لا أزال غير قادر على القول إنني أفهمه أو أعرف أيّ شخص هو. أما الآن، بعد أن كبرت سبع سنين، فقد صار من الأسهل عليّ أن أفهم بعض الأشياء. من تلك الأشياء مثلاً مقدار الفارق الكبير بين أيامي وأيامه. كانت أيامي حافلة بالمعنى، وكانت كل خطوة تفتح فرصة جديدة وكل فرصة تملؤني كلي بطريقة لا أستطيع فهمها الآن. أما معنى أيامه فما كان مركزاً في الأحداث الفردية بل ممتد على مساحات كبيرة بحيث يتعذر إدراكها إلّا عن طريق مصطلحات مجردة. «الأسرة» واحد من تلك المصطلحات؛ و«المسار المهني» مصطلح آخر. كانت الفرص التي يمكن أن تظهر في مجرى أيامه قليلة، أو غير متوقعة؛ ولا بد أنه لم يكن يعرف ما سوف تأتي به وكيف ستكون استجابته لها إلّا معرفة عامة فقط. كان متزوجاً منذ اثني عشر عاماً، وقد عمل معلِّم مدرسة متوسطة ثماني سنوات من تلك الفترة، وكان له طفلان وبيت وسيارة. لقد انتُخب إلى المجلس المحلي، وجرى تعيينه في اللجنة التنفيذية التي تمثل الحزب الليبرالي. كان يشغل نفسه خلال أشهر الشتاء بهواية جمع الطوابع. وقد حقق تقدماً في هذا: صار خلال فترة قصيرة واحداً من أهم جامعي الطوابع في البلاد كلها؛ أما في أشهر الصيف فكان العمل في الحديقة يستهلك ما لديه من وقت فراغ. ليست لديّ فكرة عمّا كان يشغل تفكيره في هذه الأمسية الربيعية ولا عن نظرته إلى نفسه عندما استقام جذعه في تلك الظلمة الخفيفة حاملاً مطرقته بين يديه. لكن واثق تماماً من أن هنالك إحساساً في داخله يقول له إنه يفهم العالم المحيط به فهماً جيداً.

كان يعرف جيرانه في المزرعة، كلهم؛ ويعرف المكانة الاجتماعية لكل منهم إذا ما قورن به. وأظن أيضاً أنه كان يعرف شيئاً مما يفضلون الاحتفاظ به سراً لأنفسهم لأنه يُعلّم أولادهم، ولأنه ماهر في التقاط نقاط الضعف لدى الآخرين. لقد كان واحداً من أفراد الطبقة الوسطى المتعلمة الجديدة، وكان أيضاً حسن الاطّلاع على أحوال العالم

الذي تأتيه أخباره كل يوم عن طريق الصحف والراديو والتلفزيون. وهو يعرف الكثير عن علم النبات والحيوان لأنه كان مهتماً بهما خلال يفاعته. ورغم قلة معرفته بالموضوعات العلمية الأخرى، فإنه لا يزال ممتلكاً بعض المعرفة الجيدة بمبادئها الأساسية منذ أيام دراسته الثانوية. لكنه كان أفضل في علم التاريخ الذي درسه في الجامعة إلى جانب اللغتين النرويجية والإنكليزية. بكلمات أخرى، ما كان أبي خبيراً في أي شيء، اللهم إلّا في ميدان التعليم، لكنه كان يعرف شيئاً من كل شيء. لقد كان معلم مدرسة اعتيادياً من هذه الناحية، لكنه معلمٌ من ذلك الزمان الذي كان فيه التعليم في المدارس الثانوية لا يزال محتفظاً بشيء من قيمته. كان الجار الذي يعيش إلى الجانب الآخر من الجدار، اسمه برستباكمو، معلماً في المدرسة نفسها، وكذلك كان جارنا أولسن الذي يعيش عند قمة المنحدر الذي تكسوه الأشجار خلف بيتنا. وكان هنالك جار آخر، كنودسن، يعيش عند الناحية البعيدة من الطريق الدائري ويعمل معلماً رئيسياً في مدرسة متوسطة أخرى. وهكذا، عندما كان أبي يرفع مطرقته الثقيلة أعلى من رأسه ثم يهوي بها على الصخرة في تلك الأمسية الربيعية أواسط السبعينيات، كان يفعل ذلك في عالم يعرفه، في عالم أَلِفَهُ. لم أُدرك أن هنالك ثمناً يدفعه المرء مقابل هذا حتى بلغت المرحلة نفسها من العمر. مع اتساع نظرتك إلى العالم لا يتضاءل الألم الذي يلحقه بك فحسب، بل يتضاءل معناه أيضاً. يقتضي فهم العالم أن تحافظ على مسافة محددة منه. فالأشياء التي تكون أصغر من أن تراها العين، كالجزئيات والذرات مثلاً، نُكبّرها، والأشياء التي تكون شديدة الكبر أو الاتساع، كتشكيلات الغيوم، وتفرعات الأنهار عند مصباتها، وكوكبات النجوم، فإننا نُصغّرها. ما نفعله هو أننا نضعها ضمن إطار حواسنا نحن، ثم نُبقيها على تلك الحال باستخدام شيء يثبتها. وعندما تصير ثابتة، ندعوها علماً! نمضي طفولتنا ومراهقتنا مُحاولين التوصل إلى المسافة الصحيحة عن الأشياء وعن الظواهر. إننا نقرأ، ونتعلم، ونكتسب خبرات وتجارب، وندخل تعديلات. ثم نصل ذات يوم إلى حيث تكون المسافات الضرورية مضبوطة كلها، وحيث تكون الأنظمة الضرورية كلها مستقرة في مكانها. وعندها يبدأ ازدياد سرعة الزمن. إنه لا يواجه أي عقبات بعد ذلك لأن كل شيء صار مرتَّباً. يجري الزمن عبر حياتنا، وتمر الأيام بنا مروراً خاطفاً، وقبل أن ندرك ما يحدث نصبح في الأربعين، في الخمسين، في الستين... يستلزم المعنى محتوى، ويستلزم المحتوى زمناً، ويستلزم الزمن مقاومة. المعرفةُ مسافةٌ فاصلة،

المعرفة ركودٌ وتوقف... إنها عدوّ المعنى. بكلمات أخرى، أستطيع القول إن صورة أبي عندي في تلك الأمسية سنة 1976 صورة ثنائية، مزدوجة: من ناحية، أراه مثلما رأيته في ذلك الوقت من خلال عيني صبي في الثامنة... أراه شخصاً لا يمكنني التنبؤ بما يقوله أو يفعله، شخصاً مخيفاً؛ ومن ناحية أخرى، أراه نظيراً لي أمضى حياته يزفر ويكنس كتلاً ضخمة من المعنى، من غير كلل.

ترددت أصوات اصطدام المطرقة الثقيلة بالصخر في أرجاء المزرعة. أتت سيارة تتسلق المنحدر اللطيف قادمة من الطريق الرئيسية، ثم مرت بنا. كانت أنوارها متألقة. انفتح باب البيت المجاور وتوقف برستباكمو على العتبة قليلاً ثم وضع قفازيه وبدا كمن يتنشّق هواء الليل النقي قبل أن يمسك مقبضي العربة اليدوية ويدفعها عبر المرج. أتت من الصخرة التي كان أبي منهالاً عليها رائحة تشبه رائحة البارود، وأتت رائحة الصنوبر من الجذع المستلقي خلف الجدار الحجري ومعه رائحة الغابة ورائحة تربة حُفرت حديثاً. حمل نسيم الشمال اللطيف نفحةً من رائحة الملح.

فكرت في الوجه الذي رأيته في البحر. لم تمض إلّا دقيقتان منذ فكرت فيه آخر مرة، لكن كل شيء تغير. الآن، صار الوجه الذي رأيته وجه أبي!

في الأسفل، في تلك الحفرة، توقف أبي لحظة ليستريح من ذلك الطرق على الصخرة.

«ألا تزال هنا يا ولد؟».

هززت رأسي.

«اذهب إلى البيت».

بدأت أمشي.

قال لي: «وتذكر، يا كارل أوفِه!».

توقفت وأدرت رأسي محتاراً.

«لا تركض هذه المرة».

حدَّقت فيه. كيف عرف أنني ركضت؟

قال لي: «أغلق فمك أيضاً! تبدو كأنك مخبول».

فعلت مثلما قال لي وأغلقت فمي ثم مشيت بطيئاً حول زاوية البيت. عندما صرت أمام بيتنا، رأيت أن الطريق كان مليئاً بالأطفال. كان الأطفال الأكبر سناً واقفين في

مجموعة مع درجاتهم التي بدت في ضوء الغسق كأنها امتدادٌ لأجسادهم. أما الأطفال الأصغر سناً فكانوا يلعبون لعبة «أركُل الصفيحة». كان الأطفال الذين اكتشفت أماكن اختبائهم واقفين ضمن دائرة مرسومة بالطباشير على الرصيف؛ وكان الأولاد الآخرون لا يزالون مختبئين في أماكن مختلفة في الغابة، تحت الطريق، بعيداً عن أنظار الشخص الذي يحرس الأسرى في تلك الدائرة، لكني كنت أراهم من نقطة وقوفي.

تألق ضوء المصابيح الأحمر على أعمدة الجسر من فوق ذرى الأشجار السوداء. جاءت سيارة أخرى متسلقة الهضبة. سقطت أضواؤها الأمامية على راكبي الدراجات أولاً... لمحة خاطفة من المعدن والعواكس الفوسفورية والسترات المنفوخة والعيون السود والوجوه البيض، ثم سقط الضوء على الأطفال الذين لم يفعلوا أكثر من الابتعاد خطوة ضرورية واحدة حتى يسمحوا بمرور السيارة. صاروا الآن واقفين مثل أشباح محدقة.

إنها سيارة آل ترولنز، والدَيْ زميلي في الصف، شفيري. يبدو أنه ليس معهما.

استدرت وتابعت مصابيح السيارة الخلفية الحمراء إلى أن اختفت خلف قمة الهضبة. ثم دخلت البيت. حاولت بعض الوقت أن أستلقي في سريري وأقرأ، لكني لم أستطع البقاء هناك فمضيت إلى غرفة إنغفِه التي أستطيع رؤية أبي منها. عندما أستطيع رؤيته، أحس بأمان أكبر من ناحيته؛ كان ذلك ما يهمني أكثر من غيره، على نحو ما! كنت أعرف تقلبات مزاجه، وتعلمت منذ زمن بعيد كيف أتوقعها، وذلك بنوع من نظام تصنيفي غير واعٍ صرت أدرك وجوده بعد وقت... نظامٌ كانت العلاقة بين بضعة ثوابت فيه أمراً كافياً لتحديد ما يخبئه لي بحيث أستطيع اتخاذ احتياطاتي. إنه نوع من «علم تنجيم العقل»... سرعة السيارة وهي تصعد الطريق الصاعد صعوداً هيِّناً إلى البيت، والزمن الذي يستغرقه أبي حتى يطفئ المحرك ويتناول أشياءه ويخرج من السيارة، وطريقة تلفّته من حوله عندما يقفلها، والتلاوين الدقيقة في الأصوات المختلفة التي تُسمع من الصالة عندما يخلع معطفه... كان كل شيء علامة، كان كل شيء قابلاً للتفسير. تضاف إلى ذلك معلومات المكان الذي كان فيه، ومع مَن، وطول فترة غيابه، قبل التوصل إلى النتيجة التي كانت الجزء الوحيد من العملية الذي يدركه وعيي. وهكذا، كان وصوله من غير سابق إنذار يخيفني أكثر من أي شيء آخر... يحدث هذا عندما أكون، لسبب ما، غير منتبه...

كيف عرف أنني كنت أركض؟

ليست هي المرة الأولى التي يكتشف فيها أمري بطريقة لا أفهمها. في أمسية من أمسيات ذلك الخريف، على سبيل المثال، كنت قد خبّأت كيساً من السكاكر تحت اللحاف لأن حدساً طارئاً قال لي إنه سيأتي إلى غرفتي؛ وما كانت هنالك طريقة أستطيع بها أن أجعله يصدق تفسيري لكيفية حصولي على النقود اللازمة لشراء هذه الحلوى. لقد دخل غرفتي بالفعل ووقف ينظر إليَّ بضع ثوانٍ، ثم سألني: «ما الذي تخفيه في سريرك؟».

كيف يمكن أن يكون قد عرف؟

في الخارج، أضاء برستباكمو المصباح القوي الذي كان مركباً فوق الأرضية المبلطة بالحجارة، حيث يعمل عادة. كشفت جزيرة الضوء الجديدة التي انبثقت من الظلمة تشكيلة كبيرة من الأشياء التي وقف ينظر إليها. أعمدة من علب الطلاء، وأوعية زجاجية فيها فراشي، وعوارض خشبية، وبعض ألواح خشبية، ومشمعات مطوية، وإطارات عجلات السيارة، وهيكل دراجة، وبعض صناديق الأدوات، وعلب معدنية فيها براغي ومسامير من مختلف الأشكال والمقاسات، وصينية فيها علب حليب كرتونية زرعوا فيها زهوراً، وأكياساً من الكلس، وخرطوماً مطاطياً ملفوفاً، ولوحة خشبية مستندة إلى الحائط رسمت عليها أشكال الأدوات اليدوية المختلفة... أظن أنه أعدها من أجل غرفة الهوايات في قبو بيته.

التفتُّ مرة أخرى لأنظر إلى أبي فرأيته يجتاز المرج حاملاً المطرقة في يده ومجرفة في اليد الأخرى. تراجعت عن النافذة بخطوتين سريعتين. وبينما كنت أفعل ذلك سمعت صوت فتح باب البيت الأمامي. إنه إنغفِه. نظرت إلى ساعتي. ثمانٍ وعشرون دقيقة بعد الثامنة. وعندما صعد درجات السلم بعد ذلك مباشرة بتلك الخطوة المألوفة، القافزة قليلاً كأنها مشية بطة (مشية اخترعناها حتى نتمكن من السيْر سريعاً داخل البيت من غير إحداث أي صوت)، كان منقطع الأنفاس متورّد الخدَّين.

سألني فور دخوله الغرفة: «أين أبي؟»

قلت: «في الحديقة. لكنك لم تتأخر. انظر، إنها الثامنة والنصف الآن».

جعلته يرى ساعتي.

تجاوزني؛ مرّ بي ثم سحب كرسياً من تحت طاولة المكتب. لا تزال تفوح منه رائحة خارج البيت: الهواء البارد، والغابة، والحصى، والإسفلت.

سألني: «هل كنت تعبث بأشرطة التسجيل عندي؟».

أجبته: «لا».

«فماذا تفعل في غرفتي إذن؟»

قلت: «لا شيء».

«ألا تستطيع أن تفعل لا شيء في غرفتك؟».

ومن تحتنا، انفتح الباب الأمامي من جديد. كانت خطوات أبي الثقيلة هذه المرة، سمعتها تجتاز أرض الصالة في الأسفل. لقد خلع حذاءه في الخارج، كعادته، وهو في طريقه إلى الحمام ليغيِّر ملابسه.

قلت: «لقد رأيت وجهاً في البحر في الأخبار هذه الليلة. هل سمعت شيئاً عن هذا؟ وهل تعرف إن كان أحد غيري قد رآه؟»

نظر إليَّ إنغفِه وقد ظهر على وجهه تعبير نصفه فضول ونصفه ازدراء.

«بماذا تثرثر؟».

«هل سمعت عن زورق الصيد الذي غرق؟».

هز رأسه هزّة لا تكاد تُرى.

«عندما كانوا يعرضون في الأخبار مكان غرق الزورق، رأيت وجهاً في البحر».

«هل رأيت جسم شخص ميت؟».

«لا. لم يكن وجهاً حقيقياً. لقد اتخذ البحر شكلَ وجهٍ».

ظل لحظة ينظر إليَّ من غير أن يقول شيئاً. ثم دق على صدغه بإصبعه.

قلت: «ألا تصدقني؟ ما أقوله صحيح تماماً».

«الصحيح هو أنك مَضيَعة للمكان».

في تلك اللحظة، أغلق أبي الحنفية في الأسفل فقررت أن من الأفضل أن أذهب إلى غرفتي لكي أتفادى احتمال لقائنا في الفسحة عند أعلى السلم، لكني لم أحب أن أترك عبارة إنغفِه الأخيرة من غير إجابة.

قلت له: «بل أنت مضيعة للمكان!».

لم يهتم حتى بالرد على ما قلته. اكتفى بأن أدار وجهه صوبي ودفع أسنانه العلوية إلى الأمام ثم نفخ الهواء عبرها كما يفعل الأرنب. كانت هذه الحركة إشارة إلى أسناني الناتئة. ابتعدت عنه وخرجت قبل أن يتمكن من رؤية دموعي. لا يزعجني البكاء إذا

كنت وحيداً. وقد نجح الأمر هذه المرة، أليس كذلك؟ نجح لأنه لم يرني باكياً!

توقفت لحظة خلف باب غرفتي وفكرت في الذهاب إلى الحمّام. أستطيع أن أغسل وجهي بماء بارد حتى أزيل آثار البكاء. لكن أبي كان يصعد السلم الآن، فمسحت عينيَّ بكم كنزتي. جعلت طبقة الرطوبة البسيطة التي نشرها النسيج الجاف على عينيَّ شكل الغرفة وألوانها مشوَّشة كأنها غرقت فجأة وصارت تحت الماء. كان هذا الانطباع حقيقياً إلى درجة جعلتني أرفع ذراعيَّ ثم أحرّكهما كأنني أسبح بينما سرت صوب طاولة الكتابة. تصورت نفسي مرتدياً خوذة الغواص المعدنية في أول أيام الغوص عندما كانوا يمشون على قاع البحر بأحذية مثقلة بالرصاص وبدلات غطس سميكة مثل جلد الفيل مع أنبوب أوكسجين متصل برأس الغواص كأنه خرطوم. رحت أنفُث الهواء من فمي وأتجوَّل بتلك الحركات الثقيلة الخرقاء التي كان الغواصون يقومون بها منذ زمن بعيد إلى أن بدأ ذعر هذا الإحساس يتسرب إليَّ بطيئاً مثل ماء بارد.

منذ بضعة أشهر، رأيت مسلسل «الجزيرة الغامضة» التلفزيوني المستند إلى رواية جول فيرن. كان لقصة هؤلاء الرجال الذين حط منطادهم على جزيرة مهجورة في المحيط الأطلسي أثر كبير على نفسي منذ الحلقة الأولى. كان كل شيء مكهرَباً: المنطاد، والعاصفة، والرجال في ملابس القرن التاسع عشر، والجزيرة القاحلة التي عبث الطقس السيء بها حيث كانوا عالقين... الجزيرة التي كان من الواضح أنها ليست مهجورة مثلما تخيلوا، لأن أشياء غريبة لا تفسير لها كانت تحدث من حولهم طيلة الوقت. لكن، من هم الآخرون في تلك الحالة؟ جاءت الإجابة من غير إنذار قبيل نهاية إحدى الحلقات. هنالك أحد ما في كهوف تحت الماء... عدد من الكائنات التي تشبه البشر... رأوا في المصابيح التي كانوا يحملونها رؤوساً مقنّعة صقيلة، وزعانف. كانوا أشبه بنوع من السحالي، لكنهم يسيرون منتصبي القامات وعلى ظهورهم ما يشبه الأوعية. استدار واحد منهم... كان من غير عينين.

لم أصرخ عندما رأيت هذه الأشياء، لكن رعب هذه الصور ما كان قابلاً للزوال... حتى في وضح النهار. كان يفاجئني رعبٌ عندما أفكر مجرّد تفكير في هذه الضفادع البشرية في الكهف. والآن، حوَّلتني أفكاري إلى واحد منهم. صار تنفسي الصافر تنفسهم، وصارت خطواتي خطواتهم، وذراعاي أذرعتهم؛ وعندما أغمضتُ عينيَّ، رأيت أمامي وجوههم التي ليست فيها عيون.

الكهف، والماء الأسود، وسلسلة من الرجال الضفادع حاملين مصابيح في أيديهم... أصابني ذعر شديد إلى حد جعلني غير قادر على التخلص منه حتى بعد أن فتحت عينَيّ. لم يفلتني الذعر من قبضته رغم رؤيتي أنني كنت في غرفتي محاطاً بأشيائي المألوفة. ما كنت أجرؤ أن تطرف عيناي لشدة خوفي من حدوث شيء أثناء ذلك. جلست على السرير متيبساً ومددت يدي إلى حقيبتي المدرسية من غير أن أنظر إليها. نظرت في جدول الدروس، بحثت عن يوم الأربعاء، وقرأت ما فيه: رياضيات، توجيه، موسيقى، ثم حملت الحقيبة فوضعتها في حضني ورحت أقلّب الكتب التي في داخلها بحركة آلية. وبعد أن فرغت من هذا، تناولت الكتاب المفتوح عن الوسادة ثم جلست قبالة الحائط وبدأت أقرأ. كنت أرفع رأسي لأنظر من حولي كل بضع ثوان؛ لكن الثواني سرعان ما صارت دقائق. وعندما صاح أبي معلناً أن وقت العشاء قد حان (الساعة التاسعة تماماً)، لم يكن الرعب هو ما يمسك بي في قبضته، بل الكتاب. كان انتزاع نفسي من الكتاب جهداً غير قليل أيضاً!

ما كان مسموحاً لنا أن نقطّع الخبز بأنفسنا، ولا كان مسموحاً لنا أن نستخدم موقد الطبخ. وهكذا كان أحد والدينا يعد لنا طعام العشاء دائماً. يقوم أبي بكل شيء عندما كانت تعمل أمي في المساء: ندخل المطبخ فنرى في انتظارنا كأسين من الحليب وطبقين في كل منهما أربعة سندويتشات. وكانت القاعدة عنده أن يُحضّر الطعام مسبقاً ثم يضعه في البراد. إن برودة ذلك الطعام تجعل ابتلاعه صعباً حتى عندما تعجبني محتوياته. أما إذا كانت أمي في البيت يتبدّل مجال الاختيار، اختيارنا أو اختيارها، بين أنواع مختلفة من اللحوم ومن الجبن، إضافة إلى الأوعية الموضوعة على الطاولة وتلك اللمسة الصغيرة التي تسمح لنا باختيار ما سيكون موضوعاً على الطاولة أو في سندويتشاتنا. ثم إن الخبز يكون على درجة حرارة الغرفة. كان هذا كافياً لأن يجعلنا نحس شيئاً من الحرية: فإن كنا قادرين على فتح الخزانة وتناول الأطباق التي يصدر عنها دائماً صوت قرقعة عندما يصدم أحدها الآخر ونضعها على الطاولة، وإن كنا قادرين على فتح درج أدوات الطعام الذي يطقطق دائماً، وعلى وضع السكاكين إلى جانب أطباقنا، وإن كنا قادرين على ترتيب الكؤوس وفتح البراد وأخذ الحليب وصبّه، فإن من المؤكد أننا يمكن أن نفتح فاهينا ونتكلم. عندما نتناول العشاء مع أمنا، تؤدي كل خطوة إلى الخطوة التي بعدها بشكل طبيعي. كنا نثرثر ونتحدث معها عن كل شيء يخطر في

بالنا؛ وكانت مهتمة بالأشياء التي نقولها. وإذا أسقطنا بضع قطرات من الحليب، أو نسينا آداب الطعام، أو وضعنا ظرف الشاي المستخدم على مفرش الطاولة (هذا لأنها كانت تعِدّ لنا الشاي أيضاً)، فلا مشكلة كبيرة في هذا. لكن، إذا كانت مشاركتها لنا في الوجبة هي ما يفتح هذه البوابة المؤدية إلى الحرية، فإن مقدار حضور أبي هو ما يضبط أثرها. وإذا كان خارج البيت أو جالساً في مكتبه في الأسفل، فإننا نتكلم بحرية وبصوت مرتفع ونشير بأيدينا وبرؤوسنا بقدر ما نريد؛ أما عندما يكون في طريقه إلى الأعلى فإننا نخفض صوتنا تلقائياً، ونغيّر موضوع الحديث إذا كان الكلام عن شيء نظن أنه يمكن أن يعتبره غير ملائم. وإذا دخل المطبخ فإننا نكف عن الحديث تماماً ونجلس متيبسَيْن كأننا عمودان من الخشب مستغنيين عن كل تعبير خارجي وغارقَيْن في التركيز على الطعام. وعندما يعود إلى غرفة المعيشة فإننا نواصل حديثنا، لكن بمزيد من التحفّظ والقلق.

كان الطبقان، مع السندويتشات الأربعة، في انتظارنا هذا المساء عندما دخلنا المطبخ. واحد بجبن الماعز البنّي، وواحد بجبن عادي، وواحد بالسردين مع صلصة الطماطم، وواحد فيه جبن بنكهة القرنفل. ما كنت أحب السردين، فكنت آكل سندويتش السردين أولاً. لا أحتمل طعم السمك؛ سمك القُدّ المسلوق الذي نتناوله مرة في الأسبوع، على الأقل، كان يصيبني بالغثيان مثلما أشعر بالغثيان أيضاً عندما أشم رائحة البخار الخارج من الوعاء الذي يُسلَق فيه... ويزعجني طعمه وشكله. كان لي الموقف نفسه من سمك البولوك المسلوق، ومن سمك الكولي المسلوق، ومن سمك الهادوك المسلوق، ومن سمك الفلاوندر المسلوق، ومن الماكاريل المسلوق، ومن السمك الوردي المسلوق أيضاً. أما السردين، فما كان الطعم هو الجزء الأسوأ في الأمر (أستطيع ابتلاع صلصة الطماطم عندما أتخيل أنها كاتشب)، بل شكل ذلك السردين نفسه، وفوق ذلك رائحته، وذيوله الزلقة. كانت ذيولاً مقرفة! وحتى أخفي هذه الذيول، كنت أقطعها عادة وأضعها على حافة الطبق ثم أجرف بعض الصلصة فوق قطعة الخبز وأدفن الذيول في وسطها، وبعد ذلك أطويها. بهذه الطريقة، كنت قادراً على المضغ بعض الوقت من غير أن ألمس تلك الذيول؛ وبعدها أبتلع ما في فمي مع جرعة من الحليب. وعندما لا يكون أبي موجوداً في المطبخ، مثلما كان الحال هذا المساء، فمن الممكن أن أدسّ تلك الذيول الصغيرة في جيب بنطلوني.

كان إنغفِه يعبس ويهز رأسه عندما أفعل ذلك. ثم يبتسم. وكنت أردّ على ابتسامته بابتسامة مثلها.

تحرك أبي في كرسيه في غرفة المعيشة. وسُمع صوت خافت لخشخشة علبة الثقاب تبعه صوت الاحتكاك السريع لرأس عود الكبريت على السطح الخشن للعلبة ثم فرقعة انبعاث اللهب، فرقعة بدت كأنها قد اندمجت في الصمت الذي تلاها. وعندما تسرّبت رائحة السيجارة إلى المطبخ، بعد ثواني من ذلك، انحنى إنغفِه إلى الأمام وفتح النافذة بأقصى ما يستطيعه من هدوء. غيَّرت الأصوات المندفعة من الظلمة جو المكان كله. صار المطبخ فجأة جزءاً من ذلك العالم الريفي في الخارج. قلت في نفسي: «كأننا جالسان على رف!» جعلت هذه الفكرة شعر ساعدي يقف منتصباً. اشتدت الريح مهمهمة بين أشجار الغابة وانداحت فوق الشجيرات والشجرات المتمايلة في الحديقة تحتنا. ومن تقاطع الطرق، جاء صوت الأطفال. لا يزالون جاثمين على دراجاتهم، يتحدثون. زادت دراجةٌ آلية سرعتها فوق الهضبة ذاهبة في اتجاه الجسر. ومن بعيد، كأنما فوق هذه الأصوات كلها، جاء هدير مركب ماض في طريقه داخل الفيورْد[1].

آه، بالطبع! ... لقد سمعني في الحديقة! سمع صوت قدمَيَّ تجريان على الألواح الخشبية!

غمغم إنغفِه مشيراً إلى الجبن الذي بنكهة القرنفل: «هل تبادل؟».

قلت: «لا بأس». أسعدني حل تلك المشكلة المزعجة فأزلت أثر اللقمة الأخيرة من السردين برشفة صغيرة من الحليب وبدأت آكل السندويتش الذي وضعه إنغفِه في طبقي. حيلتي الماهرة هي أن أقتصد في الحليب لأنك إذا لم تجد حليباً عندما تصل إلى آخر السندويتش فإن ابتلاعه يصبح مستحيلاً. وأفضل شيء طبعاً أن توفر قطرة حليب حتى ينتهي كل شيء، لأن الحليب لا يبدو أطيب مذاقاً إلّا عندما لا يكون عليه أن يؤدي مهمة، عندما يصير حليباً فحسب... إنه ينساب في حلقك وحده، نقياً، غير ملوَّث بشيء. لكن المؤسف أنني لا أنجح في الوصول إلى هذه النقطة إلّا في حالات نادرة. دائماً، تتغلب حاجات اللحظة الراهنة على وعود المستقبل مهما يكن ذلك المستقبل مغرياً. لكن إنغفِه كان ينجح في أداء هذه الحيلة. إنه معلّم في ما يتعلق بالاقتصاد.

---

(1) الفيورد هو لسان بحري طويل داخل في الأرض تحف به من الجانبين أرض مرتفعة شديدة الانحدار صوب البحر. وهو موجود بكثرة على سواحل البلاد الإسكندنافية.

سمعت صوت خطوات في الأعلى، على درجات بيت برستباكمو. وبعد ذلك اخترقت الليل ثلاث صيحات قصيرة: «غيير! غيير! غيير!».

أتى الرد من مدخل بيت جون بيك بعد تأخير جعل كل من سمعه يستنتج أن غيير كان يفكر خلاله.

أجاب صائحاً: «أنا قادم في الحال».

وبعد ذلك مباشرة، سُمع صوت أقدامه الراكضة. ومع اقترابه من جدار غوستافسن، نهض أبي في غرفة المعيشة. كان هنالك شيء في طريقة اجتيازه تلك الغرفة جعلني أخفض رأسي. خفض إنغفِه رأسه أيضاً. دخل أبي المطبخ ثم سار حتى الطاولة وانحنى من غير أن يقول كلمة واحدة فأغلق النافذة بقوة.

قال لنا: «إننا نبقي النوافذ مغلقة في الليل».

هز إنغفِه رأسه.

نظر أبي إلينا.

قال: «كُلا الآن!»

انتظرت حتى عاد إلى غرفة المعيشة قبل أن ألتفت صوب إنغفِه. همست له: «ها، ها».

أجابني هامساً: «ها، ها، أليس كذلك؟ كان يعنيك أنت أيضاً».

كان يسبقني بشطيرتين، وسرعان ما صار قادراً على مغادرة طاولة المطبخ والعودة إلى غرفته تاركاً إياي أمضغ طعامي بضع دقائق أخرى. كنت أعتزم رؤية أبي بعد العشاء لأقول له إن من المحتمل أن يعيدوا القصة في أخبار الليلة، مع ذلك الوجه الذي في البحر. لكن من الأرجح أن التخلي عن تلك الخطة أمر مستحسن بالنظر إلى الظروف الراهنة.

هل هو مستحسن فعلاً؟

قررت أن أعتمد على أذني. عادة ما أدسّ رأسي عبر باب غرفة المعيشة بعد خروجي من المطبخ لأقول له: «تصبح على خير». إذا كان صوته حيادياً، أو إذا حالفني الحظ فكان صوته ودياً، فسوف أذكر الأمر. وإلا فلن أقول شيئاً.

لسوء الحظ، كان أبي قد اختار الجلوس على الأريكة في آخر الغرفة وليس على أحد الكرسيين الجلديين مقابل جهاز التلفزيون حيث يجلس عادة. لا يمكنني الاكتفاء

بمد رأسي من الباب لأقول «تصبح على خير» سريعاً مثلما أفعل عادة. كان يمكن لي أن أفعل هذا لو أنه جالس على واحد من الكرسيين الجلديَّين. أما الآن، فعليَّ أن أخطو عدة خطوات في الغرفة. من الواضح أن هذا سيجعله يدرك أنني أريد أن أقول له شيئاً، وسوف يحبط ذلك خطتي في الاعتماد على أذني. ومهما تكن نبرة صوته، سأكون مضطراً إلى قول ما عندي.

لم أدرك هذا إلّا بعد خروجي من المطبخ فبقيت معلَّقاً بين فكرتين. توقفت لحظة في مكاني؛ وفجأة ما عاد لديَّ أيّ خيار لأنه سمعني أتوقف، بالطبع؛ وهذا ما سوف يجعله يدرك أنني أريد أن أقول له شيئاً. وهكذا سرت تلك الخطوات الأربع حتى أصير ضمن مجال رؤيته.

كان جالساً مصالباً ساقَيه وقد وضع مرفقيه على مسند الأريكة ومال برأسه إلى الخلف فأراحه فوق أصابعه المتشابكة. كانت نظراته مركزة على السقف فاتجهتْ إليَّ الآن.

قلت له: «تصبح على خير يا أبي».

قال: «تصبح على خير».

قلت: «إنني واثق من أنهم سوف يعرضون ذلك في الأخبار من جديد. فكرت أن أقول لك هذا حتى تراه، أنت وأمي».

«يعرضون ماذا؟»

قلت: «الوجه».

«الوجه؟».

لا بد أنني كنت واقفاً هناك فاغراً فمي، لأنه فتح فمه فجأة ونظر إليَّ بطريقة فهمت منها أنه يقلدني.

قلت: «الوجه الذي أخبرتك عنه».

أغلق فمه واستقام في جلسته من غير أن يحوّل عينيه عني.

قال لي: «والآن... لا أريد أن أسمع منك شيئاً عن ذلك الوجه بعد الآن».

«حاضر».

عندما استدرت لأخرج إلى الممر كنت أحس بنظراته تلاحقني. نظَّفت أسناني

وخلعت ملابسي. ثم لبست بيجامتي وأضأت المصباح فوق سريري، ثم أطفأت المصباح الرئيسي. جلست في السرير وبدأت القراءة.

من المفترض أن تستمر قراءتي نصف ساعة، حتى تبلغ الساعة العاشرة. لكني كنت أقرأ عادة إلى أن تعود أمي إلى البيت في العاشرة والنصف. ما كانت هذه الليلة استثناء من تلك القاعدة. عندما سمعت صوت سيارتها الصغيرة تنعطف من الطريق الرئيسي وتبدأ تسلق الهضبة، وضعت الكتاب على الأرض وأطفأت المصباح ثم رقدت في الظلام مصغياً إليها: صوت إغلاق باب السيارة، وصوت خطواتها على الحصى، ثم فتح الباب الأمامي، ثم أسمعها تخلع معطفها ووشاح رقبتها، ثم صوت خطواتها على درجات السلم... يبدو البيت مختلفاً عند ذلك، أقصد عندما تكون أمي فيه. الشيء الغريب هو أنني أستطيع أن أحسّ هذا... مثلاً، إذا غفوتُ قبل عودتها فإنني أستيقظ في منتصف الليل وأستطيع الإحساس بوجودها في البيت: يتغير شيء في جوّه من غير أن أكون قادراً على تحديده تماماً؛ لا أستطيع تحديد شيء... لكن لوجودها أثراً مطمئِناً. ينطبق الأمر نفسه على حالات عودتها في وقت أبكر من المعتاد، عندما أكون خارج البيت: أعرف أنها في البيت مع أول خطوة لي في الصالة.

من الطبيعي أنني رغبت في الحديث معها، لأنها الشخص الوحيد الذي يمكن أن يفهم قصة ذلك الوجه؛ لكن الأمر لم يبدُ لي ضرورة ملحّة. الأمر المهم هو أنها موجودة هنا. سمعت صوت المفاتيح وهي تضعها على طاولة الهاتف عندما بدأتْ صعود السلم؛ وسمعتها تفتح الباب المنزلق وتقول لأبي شيئاً ثم تغلقه خلفها. من حين لآخر، بعد عملها المسائي في عطلة نهاية الأسبوع خاصة، يكون أبي قد أعدّ وجبة طعام قبل وصولها. وعند ذلك، يمكن أن يستمعا إلى بعض الموسيقى. ومن حين لآخر تكون هنالك زجاجة نبيذ فارغة على طاولة المطبخ... من الماركة نفسها دائماً، نبيذ أحمر يأتون به من المصنع؛ وفي حالات نادرة تكون على الطاولة زجاجتا بيرة فارغتان أو ثلاث زجاجات، ماركة «فين مونوبول» نفسها دائماً، أو تكون هناك زجاجات بيلز من شركة آرندال، تلك الزجاجات البنية سعة 0أ7 لتر التي تحمل شعار السفينة المبحرة الأصفر.

لكن، ليس الليلة! كنت سعيداً! لو تعشيا معاً فلن يشاهدا التلفزيون؛ ويجب أن يشاهدا التلفزيون إذا كان لي أن أنجح في خطتي التي كانت بسيطة بقدر ما هي جريئة:

قبل ثوان قليلة من تمام الساعة الحادية عشرة سأتسلل من السرير وأسير على رؤوس أصابعي في الممر ثم أفتح الباب المنزلق قليلاً وأنظر إلى أخبار آخر الليل. لم أفعل شيئاً كهذا من قبل، بل لم أفكر في فعله إطلاقاً. عندما يكون غير مسموح لي أن أفعل شيئاً فإنني لا أفعله... أبداً! لم أفعل هذا على الإطلاق، لا يمكن أن أفعل شيئاً إذا منعني أبي من فعله. لا أفعل هذا بطريقة مقصودة، على الأقل! لكن الأمر الآن مختلف لأنه غير متعلق بي، بل هو متعلق بهما. لقد رأيت صورة الوجه في البحر، ولست في حاجة إلى رؤيتها من جديد. أردت فقط أن أعرف إن كانا سيريان ما رأيته. هكذا فكرت عندما كنت مستلقياً في الظلمة متابعاً العقرَبَيْن الأخضرَيْن في الساعة المنبهة. عندما يسود الهدوء مثلما هو الآن، أستطيع سماع السيارات مارة على الطريق الرئيسي في الأسفل. تزداد سرعتها عندما تأتي من الجسر مارة بسوبر ماركت «بي ماكس»، السوبرماركت الجديدة، وتستمر منحدرة مروراً بمتجر «هولتيت» ثم تعبر الطريق المؤدي إلى غاملِه تاياكن، وبعد ذلك تسلك الطريق الصاعد حتى الجسر حيث تختفي أصواتها بهدوء مثلما ظهرت قبل نصف دقيقة.

قبل الحادية عشرة بتسع دقائق، انفتح باب البيت المقابل لبيتنا عبر الشارع. ركعتُ في سريري واسترقتُ النظر من النافذة. رأيت السيدة غوستافسن؛ كانت ماشية في الممر أمام البيت وفي يدها كيس قمامة كبير.

لم أدرك نُدرة ظهورها إلّا عندما رأيتها. لا تكاد السيدة غوستافسن تخرج من البيت: إما أن يراها المرء داخل البيت، أو في مقعد سيارتهم الزرقاء من نوع «فورد تاونوس». لكن، ورغم معرفتي بذلك، فإن فكرة ندرة ظهورها لم تفاجئني هكذا من قبل. أما الآن، فقد وقفت قرب حاوية القمامة ورفعت الغطاء عنها فأفرغت الكيس فيها ثم وضعت الغطاء من جديد. فعلت هذا كله بتلك الأناقة الكسول بعض الشيء التي تملكها نساء بدينات كثيراً. لا يراها المرء خارج بيتها أبداً.

كان مصباح الشارع خلف بيتنا يلقي ضوءه البارد عليها. بدا جسدها كأنه يمتص ذلك الضوء، عكس الأشياء المحيطة بها (حاوية القمامة، وبيت الرحلات المتنقل الأبيض، والبلاطات المرصوفة على الأرض، والإسفلت)، الأشياء التي تعكس ذلك الضوء الحاد البارد. لمعت ذراعاها العاريتان لمعاناً كامداً، وتلألأ نسيج كنزتها البيضاء، وبدت كتلة شعرها البنّي الضارب إلى الرمادي شبه ذهبية.

وقفتْ لحظة تنظر من حولها. نظرت صوب بيت آل برستباكمو أولاً ثم رفعت عينيها في اتجاه بيت آل هانسنز، ثم خفضتهما صوْب الغابة إلى الناحية الأخرى من الطريق.

أتت قطة في اتجاهها ثم توقفت وراحت تنظر إليها برهة. رأيتها تمر بكفها على ذراعها بضع مرات، ثم تستدير وتدخل البيت.

نظرتُ إلى الساعة من جديد. أربع دقائق حتى الحادية عشرة. ارتجفت وتساءلت للحظة إن كان عليَّ أن أرتدي سترتي؛ لكنني قررت أن ذلك سيجعل الأمر محسوباً أكثر مما يجب إذا ما ألقي القبض عليّ. ثم إن الأمر لن يستغرق زمناً طويلاً.

تسللتُ قلقاً حتى الباب ووضعت أذني عليه. كان عنصر المخاطرة الوحيد هو أن المرحاض موجود بين الباب الجرّار وغرفتي. وبما أنه هناك، فإنني قادر على الانتباه إليهما والظفر بفرصة التراجع سريعاً إذا قررا النهوض. أما إذا كان الباب الجرّار مغلقاً عندما يأتيان في اتجاهي، فلن أكتشف ذلك قبل أن يفوت الأوان. لكنني أستطيع التظاهر في تلك الحالة بأنني ذاهب إلى المرحاض.

سررتُ بهذا الحل ففتحت باب غرفتي حذراً وخطوت إلى الممر. كان كل شيء هادئاً. سرت على رؤوس أصابعي ومررت بنهاية السلم. أحسست بالسجّادة الجافة الممتدة من الجدار إلى الجدار تحت أخمص قدميَّ المتعرّقتَيْن. توقفت عند الباب. أصغيت فلم أسمع شيئاً. فتحته قليلاً جداً واسترقت النظر عبر ذلك الشق. كان التلفزيون يعمل في الزاوية. ورأيت الكرسيين الجلديين خاليين. إنهما جالسان على الأريكة إذن، كليهما.

ممتاز! ثم ظهرت الكرة الأرضية مع شارة الأخبار المتحركة على الشاشة. دعوت الله أن يعرضوا التقرير الإخباري نفسه حتى يستطيع أبي وأمي رؤية ما رأيته.

استهل المذيع نشرة الأخبار بالحديث عن زورق الصيد المفقود فقفز قلبي في صدري. لكن التقرير الذي عرضوه كان مختلفاً. بدلاً من صور البحر الهادئ، أُجريت مقابلة مع شرطي محلّي عند مرسى القوارب، ثم تلته امرأة تحمل طفلاً صغيراً بين ذراعيها، ثم ظهر المذيع متحدثاً ومن خلفه أمواج البحر العنيفة المتلاطمة.

وبعد انتهاء ذلك الخبر، سمعت صوت أبي، سمعت ضحكته. كان الإحساس بالعار الذي غمر جسدي قوياً إلى حد جعلني غير قادر على التفكير. أحسست أن

أحشائي صارت شاحبة اللون. إن قوة ذلك الإحساس المفاجئ بالعار هي الشعور الوحيد الباقي من أيام طفولتي الذي أستطيع مقارنة شدته بالرعب أكثر من الغضب العنيف المفاجئ، بالطبع. ينتابني إحساس في هذه الحالات الثلاث كلها بأنني أصير ممحوّاً، أنا نفسي. كل ما يهم هو ذلك الإحساس تحديداً، وهكذا لم أرَ شيئاً عندما استدرت عائداً إلى غرفتي. أعرف أن النافذة عند السلم لا بد أن تكون قاتمة بحيث تنعكس صورة الصالة فيها، وأعرف أن باب غرفة نوم إنغفِه لا بد أن يكون مغلقاً، وكذلك باب غرفة والدي وباب الحمام. أعرف أن حزمة مفاتيح أمي ستكون منفلشة على طاولة الهاتف كأنها وحش أسطوري ينال قسطاً من الراحة، وحش برأس جلدي وقوائم معدنية كثيرة. أعرف أن مزهرية السيراميك التي يبلغ ارتفاعها مستوي ركبتي، مزهرية الزهور المجففة والقش، لا بد أن تكون إلى جانب طاولة الهاتف تلك غير منسجمة مع النسيج التركيبي المصنوعة منه السجادة الممتدة من الجدار إلى الجدار. لكني لم أر شيئاً من هذا، ولم أسمع شيئاً، ولم أفكر في شيء. دخلت غرفتي، واستلقيتُ على سريري، وأطفأت الضوء، وعندما أطبقت الظلمة عليّ، استنشقت نفَساً عميقاً راح يضطرب في صدري فتقلصت عضلات معدتي وأطلقت من داخلي أصواتاً منتحبة مرتفعة جعلتني أدس وجهي في وسادتي الطرية التي صارت شديدة الرطوبة بسرعة غريبة. أراحني هذا، تماماً مثلما يكون التقيؤ مريحاً عندما يصيبك الغثيان. ظللت مستلقياً أشهق زمناً طويلاً بعد أن توقف انسكاب دموعي. كان لهذا تأثير مهدّئ. وعندما تعبت من ذلك الشهيق انبطحت على بطني وأرحت رأسي على ذراعي وأغمضت عينَيَّ حتى أنام.

عندما أكتب وأنا جالس هنا، أدرك أن أكثر من ثلاثين سنة مضت. أستطيع رؤية انعكاس وجهي في النافذة أمامي. جانبُ وجهي الأيسر غارق في الظل كله ولا تظهر إلّا عين واحدة ملتمعة مع المنطقة التي تحتها تماماً، إنها تعكس ضوءاً صغيراً خافتاً. يقسم جبهتي تغضّنان عميقان؛ ويقطع كل وجنة تغضن عميق آخر... غضون كأنها مليئة ظلمةً. مع هاتين العينين المُحدقتين الجادتين وزاويتي الفم المتهدلتين يصير من المستحيل عدم اعتبار هذا الوجه حزيناً.

ما الذي انحفر على وجهي؟

اليوم هو السابع والعشرون من شهر شباط/ فبراير. إنها الساعة الحادية عشرة

وثلاث وأربعون دقيقة ليلاً. ولدت، أنا كارل أوفِه كناوسغارد، في كانون الأول سنة 1968. وأنا في التاسعة والثلاثين من عمري وقت كتابة هذه السطور. لديّ ثلاثة أطفال: فانيا وهيدي وجون. وأنا الآن متزوج مرة ثانية من ليندا بوستروم كناوسغارد. إن هؤلاء الأربعة نائمون الآن في الغرف التي من حولي في شقة في مالمو حيث نعيش منذ سنة ونصف. لا نعرف أحداً هنا إلّا بعض أهالي الأطفال الموجودين مع فانيا وهيدي في روضة الأطفال. إنها ليست خسارة، ليست خسارة بالنسبة إليَّ على الأقل لأنني لا أرى فائدة في الاختلاط بالناس أصلاً. أنا لا أقول أبداً ما أفكر فيه حقاً، ولا ما أعنيه حقاً؛ لكنني أتفق دائماً، إلى هذا الحد أو ذلك، مع من أكون في حديث معه في اللحظة المعنية وأتظاهر بأن ما يُقال لي يثير اهتمامي... إلّا عندما أشرب! حينها غالباً ما أذهب بعيداً في الاتجاه الآخر ثم أصحو مذعوراً من أن أكون قد تجاوزت حدّي. كان هذا واضحاً طيلة سنوات، وهي حالة يمكن أن تستمر عدة أسابيع الآن. تظلم الدنيا في عينيَّ عندما أشرب، وأفقد السيطرة على أفعالي سيطرة تامة؛ وهذا ما يكون عادة أمراً غبياً بائساً، لكنه يمكن أن يكون يائساً خطراً بعض الأحيان. هذا ما جعلني أكفّ عن الشرب. لا أحب أن يقترب أحد مني، ولا أحب أن يراني أحد... هكذا جرت الأمور: لا يقترب مني أحد ولا يراني أحد! لا بدّ أن هذا ما انحفر في وجهي، ولا بد أن هذا ما جعله متيبّساً إلى هذه الدرجة فصار أشبه بالقناع؛ إنه ما يجعل من المستحيل عليَّ تقريباً أن أعرف نفسي عندما يصادف أن ألتقط لمحة من شكل وجهي منعكسة على واجهة أحد المتاجر.

العينان هما الشيء الوحيد الذي لا يشيخ في الوجه. لا يكون تألّقهما يوم نموت بأقل مما كان يوم نولد. قد تنفجر الأوعية الدموية فيهما، نعم، وقد تغيم القرنيتان، لكن النور فيهما لا يتغير أبداً. هنالك في لندن لوحة تؤثر في نفسي كثيراً كلما رأيتها. إنها بورتريه متأخر لرامبراندت رسمه بنفسه. عادة ما تتميز لوحاته المتأخرة بخشونة فائقة في ضربات الفرشاة، خشونة تجعل كل شيء خاضعاً لتعبير اللحظة الراهنة، خشونة عبقرية جليلة في الوقت عينه لم يستطع أحد تجاوزها في الفن إلى الآن... ربما مع احتمال استثناء آخر هو قصائد هولدرلين. مهما يكن عدم التشابه بين القصائد واللوحات، ومهما تكن قليلة إمكانية المقارنة بين الاثنين (هذا لأن نور هولدرلين المنبعث عبر اللغة نور أثيري سماوي، أما نور رامبراندت المنبعث عبر اللون فهو

دنيوي، معدني، مادي)، إلّا أن هذه اللوحة المعلقة في المعرض الوطني مرسومة بأسلوب أكثر حياة وواقعية وكلاسيكية، بحيث إنها أقرب إلى رامبراندت الشاب. لكن ما تمثله اللوحة هو رامبراندت كبير السن. إنه في سن متقدمة. تفاصيل الوجه مرئية كلها، ويستطيع المرء رؤية الآثار التي تركتها الحياة عليه. وجه متغضّن، مجعَّد، متهدِّل، أضناه الزمن. لكن العينين لامعتان! عينان، وإن لم تكونا شابّتَيْن، تتجاوزان الزمن الذي ترك علاماته على الوجه. تبدو تلك اللوحة كأن شخصاً آخر ينظر إلينا من مكان ما داخل ذلك الوجه حيث يكون كل شيء مختلفاً. لا يكاد يستطيع المرء أن يكون أكثر قرباً من روح إنسانية أخرى. هذا لأننا (بقدر ما يعنينا شخص رامبراندت) لا نرى في هذه اللوحة عاداته الحسنة أو السيئة، ولا أصوات جسده ولا روائحه، ولا نسمع صوته ولا لغته، ولا نعرف أفكاره ولا آراءه، ولا نبصر شيئاً من سلوكه أو عيوبه ونواقصه الجسدية... لا نرى شيئاً مما يشكل الشخص في أعين الآخرين. يبلغ عمر اللوحة أكثر من أربعمائة عام. مات رامبراندت في السنة نفسها، وهكذا فإن ما هو مصوَّر هنا، ما رسمه رامبراندت، هو كينونة الشخص نفسها التي يستيقظ فيراها كل صباح، الكينونة التي أغرقت نفسها في الأفكار، لكنها لم تكن فكرة. الكينونة التي أغرقت نفسها في المشاعر من غير تردد، لكن لم تكن شعوراً. إنها هي ذاتُه التي يذهب فينام معها آخر الأمر، ينام إلى الأبد. إنها الشيء الذي لا يمسّه الزمن في الإنسان؛ وهي اللحظة التي ينبع فيها الضوء من العينين. الاختلاف بين هذه اللوحة وبقية اللوحات التي رسمها رامبراندت في سنوات عمره الأخيرة هو الفارق بين أن ترى وأن تُرى. أقصد أنه، في هذه اللوحة، يرى نفسه رائياً بينما يكون مرئياً في الوقت عينه؛ ولا شك في أن هذا ما كان ممكناً إلّا في عصر الباروك المولع بالمرايا داخل المرايا، وبالمسرحية داخل المسرحية، وبالمشاهد المركبة وبالإيمان في الاعتماد المتبادل بين الأشياء كلها؛ إنه العصر الذي بلغت فيه المهارة الحرفية ذرى لم تبلغها من قبلُ ولا من بعد. ما كانت لوحة كهذه ممكنة إلّا في ذلك العصر. لكنها باقية، موجودة في زماننا الآن. إنها تَرى من أجلنا.

ليلة ولدت ابنتي فانيا، ظلتْ راقدة تنظر إلينا ساعات طويلة. كانت عيناها مثل شعلتين سوداوين. كان الدم يغطي جسدها وقد التصق شعرها الطويل برأسها. وعندما تحركت كان ذلك يشبه حركات الزواحف البطيئة. بدت كأنها شيء من الغابة راقدٌ

هناك، في بطن ليندا، يحدِّق فينا. لم نكن قادرين على الاكتفاء من نظراتها. لكن، ما الذي كان في هاتين العينين؟ وقارٌ، ثقةٌ بالنفس، ظُلمةٌ! مددت لها لساني، ثم مرت دقيقة، وبعدها مدت لي لسانها. ما كانت حياتي مليئة بالمستقبل مثلما كانت في ذلك الوقت، ولم أعش فرحة مثل تلك. هي في الرابعة الآن؛ صار كل شيء مختلفاً! عيناها يقظتان متنبهتان تتنقلان بين الغيرة والسعادة من غير سابق إنذار، بين الحزن والغضب. صارت عندها خبرة في مسالك هذا العالم، منذ الآن؛ وصارت قادرة على أن تكون وقحة إلى حد يجعلني أخرج عن طوري تماماً، بل أصرخ عليها أحياناً أو أهزها إلى أن تبدأ البكاء. لكنها تكتفي بالضحك عادة. عندما حدث هذا آخر مرة، المرة الأخيرة التي جعلتني حانقاً فهززتها هزاً عنيفاً، اكتفت بالضحك... جاءني نوع من الإلهام فوضعت كفّي على صدرها. كان قلبها ينبض سريعاً. آه، كم كان ينبض!

بقيتْ الآن دقائق قليلة حتى تصير الساعة الثامنة صباحاً. اليوم هو الرابع من مارس 2008. وأنا جالس في غرفة مكتبي محاطاً بالكتب من الأرض إلى السقف؛ أصغي إلى فرقة «دونغين» السويدية وأفكر في ما كتبته وفي ما يؤدي إليه. ليندا وجون نائمان في الغرفة المجاورة، أما فانيا وهيدي ففي روضة الأطفال. أوصلتهما إليها منذ نصف ساعة. وفي الخارج، على واجهة فندق هيلتون الضخم التي لا تزال في الظل، تلمع المصاعد متحركة صعوداً وهبوطاً في ثلاثة أعمدة زجاجية. وإلى جانب الفندق بناية قرميدية حمراء لا بد أنها باقية من أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن العشرين بالنظر إلى نوافذها المقنطرة البارزة، وإلى أقواسها المزينة. ومن خلف ذلك تلوح رقعة صغيرة من منتزه ماجسترات بأشجاره العارية وعشبه الأخضر، حيث يقطع ذلك المنظر بيتٌ بعدّة درجات من اللون الرمادي مبني وفق طراز السبعينيات: يُرغم هذا الانقطاع العين على الصعود صوْب السماء التي صارت زرقاء صافية لأول مرة منذ أسابيع كثيرة.

أعرف هذا المشهد وكل تلاوينه على امتداد اليوم كله وعلى امتداد السنة كلها لأنني أعيش هنا منذ عام ونصف العام؛ لكنني لا أحس أي تعلّق به. لا يعني لي شيئاً أي شيء أراه هنا. لعل هذا ما أبحث عنه طيلة عمري، لأن هنالك شيء ما في انعدام الارتباط هذا، شيء أحبه، بل أحتاجه! لكن سكني هنا ما كان اختياراً مقصوداً. استفدت من منحة في أكاديمية بريغن للكتابة منذ ست سنوات. وبما أنني ما كنت أعتزم العيش بقية حياتي في تلك البلدة، وما كانت لدي (بالتأكيد) خطط للعيش خارج البلاد ولا

لترك المرأة التي كنت متزوجاً منها آنذاك. على العكس تماماً: كنا نفكر في إنجاب أطفال، وربما في الانتقال إلى أوسلو حيث أكتب عدداً من الروايات وحيث تواصل هي عملها في الراديو والتلفزيون. لكن ذلك المستقبل الذي كنا نتقاسمه، المستقبل الذي كان امتداداً للحاضر فحسب بكل ما فيه من أشياء يومية روتينية ومن وجبات مع الأصدقاء والمعارف، ومن رحلات أيام العطلة وزيارات إلى أهلي وأهلها، وذلك كله مشبَّع بحلم إنجاب الأطفال، ما كان شيئاً في طريقه إلى أن يتحقق. حدث شيء ما؛ وبين ليلة وأخرى، انتقلتُ إلى ستوكهولم. كان من المقرر في البداية أن يدوم انتقالي هذا بضعة أسابيع، ثم صار حياتي كلَّها على نحو مفاجئ. لم أغير البلد والمدينة فقط، لكنني غيَّرت الناس جميعاً. إن كان هذا يمكن أن يبدو غريباً، فمن الأغرب أنني لا أفكر فيه إلّا في أحوال نادرة. كيف انتهى بي المطاف هنا؟ ولماذا اتخذتْ الأمور هذا الوجه؟

كنت أعرف شخصين في ستوكهولم عندما وصلت إليها، وما كانت معرفتي وثيقة بأيٍّ منهما: غيير الذي التقيته أول مرة في بيرغن ثم رأيته بضعة أسابيع في ربيع 1990، أي قبل اثنتي عشرة سنة، وليندا التي تعرفت إليها في ندوة للكتّاب المبتدئين في بيسكوبيس آرنو في ربيع 1999. أرسلتُ إلى غيير بريداً إلكترونياً أسأله فيه إن كنت أستطيع الإقامة عنده إلى أن أجد لنفسي مكاناً، فوافق. وبعد ذلك اتصلت بصحيفتين سويديتين لأسأل عن إعلانات تأجير الشقق. تلقيت أكثر من أربعين رداً اخترت اثنين منها. كانت الشقة الأولى في باستوغاتان، والثانية في برانكوركاتان. وبعد أن رأيت الشقتين اخترت الأولى إلى أن وقعت عيناي على قائمة سكان البناية في المدخل: كان اسم ليندا فيها. ما فرصة حدوث هذا؟ كان سكان ستوكهولم أكثر من مليون ونصف المليون! لو جاءتني هذه الشقة عن طريق أصدقاء ومعارف، فلن يكون احتمال مصادفة ليندا كبيراً رغم أن الدوائر الأدبية هنا صغيرة نسبياً بصرف النظر عن حجم المدينة نفسها. أما الآن، فقد حدث هذا نتيجة إعلان عادي قرأه مئات الآلاف من الناس بالطبع. ما كانت السيدة التي اتصلت بي تعرفني، وما كانت تعرف ليندا. غيرتُ رأيي في لحظة واحدة: من الأفضل أن آخذ الشقة الأخرى لأنني إذا أخذت هذه فقد تظن ليندا أنني أتعقبها. لكن ما حدث كان إشارة، كان بشيراً! اتضح أنه بشير محمَّل بالمعنى لأنني متزوج من ليندا الآن، ولأنها أم أطفالي الثلاثة. إنها المرأة التي أقاسمها حياتي الآن. لم تبق من آثار حياتي السابقة إلّا كتب وتسجيلات أتيت بها معي. تركت

خلفي كل شيء آخر. وبينما كنت أمضي الكثير من الوقت مفكراً في الماضي، في ذلك الوقت، الماضي الذي رأيته كأنه كمية من زمن كئيب فاتر (هذا ما أدركه الآن) اتضح لي أن هذا يعني أنني لم أكتفِ بقراءة «البحث عن الزمن المفقود» لمارسيل بروست، بل صرت كأنني تجسيد لتلك الرواية أيضاً... ليس للماضي حضور كبير في أفكاري الآن. أظن أن أطفالنا هم السبب الأول في هذا لأن الحياة معهم، الآن، هنا، تشغل الفراغ كله. بل إنهم يعتصرون من ذاكرتي الماضي القريب أيضاً: اسألوني عما فعلته قبل ثلاثة أيام... لن أستطيع الإجابة! اسألوني كيف كان شكل فانيا قبل سنتين، وكيف كانت هيدي قبل شهرين، وكيف كان جون قبل أسبوعين، لن أستطيع تذكر شيء من هذا! يحدث الكثير في حياتنا اليومية الصغيرة، لكنه يحدث دائماً ضمن الروتين نفسه، بل إنه قد غير نظرتي إلى الزمن أكثر من أي شيء آخر. أقول هذا لأنني كنت أرى في السابق أن الزمن يشبه امتداداً من الأرض لا بد من اجتيازه حيث يكون المستقبل أفقاً بعيداً... هو أفقٌ يأمل الإنسان في أن يكون لامعاً، شيئاً ليس مُملاً أبداً؛ أما الآن فإن المستقبل متداخل مع حياتنا هنا، وذلك بطريقة مختلفة تماماً. لو كان لي أن أمثل ذلك بصورة بصرية لكانت صورة قارب في واحد من أحواض قناة متدرجة الارتفاع. الحياة هي ذلك القارب: ترتفع هذه الحياة وتعلو بشكل حتمي لأن الزمن ينساب في ذلك الحوض من كل اتجاه. اتركوا التفاصيل وسوف تجدون أن الأمر هكذا. وفي كل يوم يمر، تنمو الرغبة في وصول الحياة إلى القمة، ينمو التوق إلى تلك اللحظة التي تنفتح فيها بوابات الحوض فتتحرك الحياة قدماً. وفي الوقت عينه، أرى أن هذا التكرار تحديداً أمر ضروري، هذا الانغلاق، هذه الحالة من عدم التغير... إنها تحميني. كانت أمراضي القديمة تعود كلها في المناسبات القليلة التي ابتعدت فيها عن هذا. فجأة، ومن غير انتظار، أصير تحت وطأة كل فكرة ممكنة عما قيل، وعما شوهد، وعما جرى التفكير فيه، وعمّا جرى قوله في ذلك الحيّز غير المنتج، الحيز الذي لا سبيل إلى ضبطه أو التحكم فيه، الحيز الذي غالباً ما يسبب التدهور والدمار في آخر الأمر، الحيز الذي عشت فيه هذه السنين الكثيرة كلها. التوق شديدٌ هنا مثلما كان هناك، لكن الفرق هو أن هدف التوق هناك قابل للتحقق، إلّا أنه غير قابل للتحقق هنا. عليَّ هنا أن أجد أهدافاً أخرى، وأن أقبل بها. فنُّ العيش هو ما أتحدث عنه. على الورق، ليست هذه مشكلة أبداً: أستطيع بسهولة أن أرسم صورة لهيدي مثلاً وهي تنزل من سريرها ذي

الطابقين عند الخامسة صباحاً فيُسمع صوت طبطبة قدميها الصغيرتين على الأرض في الظلام، ثم تضغط مفتاح النور وأراها واقفة أمامي بعد ثانية واحدة من ذلك. أنظر إليها بعينين نصف مغمضتين، نصف نائمتين، فتقول لي بالسويدية: «مطبخ!» لا تزال لغتها السويدية اصطلاحية: تحمل كلماتها معاني مختلفة عن المألوف لأن كلمة «مطبخ» تعني وجبة من حبوب الإفطار والفاكهة المجففة والمكسرات مع الحليب بنكهة الفراولة. وبالطريقة نفسها، تعني كلمة شموع «كل عام وأنتم بخير» إن لهيدي عينان كبيرتان، وفم كبير، وشهية مفتوحة دائماً، وهي طفلة نهمة بكل ما في الكلمة من معنى؛ لكن سعادتها الكبيرة الصرف التي عاشتها في شهورها الثمانية عشر الأولى طالتها ظلال قاتمة هذا العام، منذ مولد جون، وخالطتها مشاعر وانفعالات ما كانت تعرفها من قبل، خلال الأشهر الأولى. كانت تنتهز كل فرصة تقريباً لكي تحاول إيقاع الأذى به. صارت آثار الخدوش على وجهه قاعدة، لا استثناء. عندما عدت إلى البيت بعد رحلة إلى فرانكفورت استمرت أربعة أيام في الخريف، كان جون يبدو كأنه عائد من الحرب. كان الأمر صعباً لأننا لم نرد إبقاؤه بعيداً عنها. وهذا ما جعلنا مضطرين إلى محاولة قراءة تقلُّبات مزاجها وضبط قدرتها على الوصول إليه تبعاً لذلك. لكن يدها، حتى عندما تكون في مزاج طيب، يمكن أن تندفع فجأة فتصفعه أو تغرس فيه أظافرها. وإلى جانب هذا، بدأت نوبات الغضب تصيبها، نوبات تبلغ حداً عجيباً من العنف، نوبات مجنونة لم أكن قبل شهرين أتوقع أنها قادرة عليها. ظهرت لديها أيضاً نقطة ضعف ما كانت متوقعة حتى ذلك الوقت: يكفي أن يظهر أصغر ملمح من العنف في صوتي أو سلوكي حتى تخفض رأسها وتبتعد خائفة ثم تبدأ البكاء كما لو أنها تريد أن تظهر لنا غضبها مع إخفاء مشاعرها. تملأ نفسي مشاعر الرقة نحوها عندما أكتب الآن. لكن هذا كلامٌ على الورق! أما في الواقع، عندما يحدث هذا وتكون واقفة هناك، أمامي، في وقت مبكر عند الفجر قبل أن تبدأ الحركة في الشوارع وقبل أن يُسمع صوت في البيت، عندما تنهض لبدء يوم جديد وأجد نفسي ألملم إرادتي حتى أنهض واقفاً وأرتدي ملابس الأمس ثم أتبعها إلى المطبخ حيث ينتظرها الحليب الموعود بنكهة الفراولة وحيث تنتظرها وجبتها المفضلة، لا يكون شعوري رقةً أبداً! وإذا تجاوزتْ حدود صبري مثلما يحدث عندما تلحّ وتلحّ حتى أضع لها فيلماً، أو عندما تحاول دخول الغرفة التي ينام فيها جون... باختصار، كلما رفضت كلمة «لا»، وكلما دفعت

الأمور إلى ما لا نهاية له... لا يكون أمراً مفاجئاً أن يتحول انزعاجي إلى غضب فأكلمها بقسوة تجعل دموعها تنساب: تخفض رأسها وتتراجع بكتفين متهدلتين؛ أما أنا فأشعر أنها نالت ما تستحق. ثم يأتي المساء فينامون وأجد نفسي جالساً أتساءل عما أفعله حقاً، أتساءل إن كنت منتبهاً إلى أن عمرها سنتان فقط! لكني أكون، عند ذلك، شخصاً ينظر من الخارج. أما عندما أكون داخل الأمر، فلا فرصة لأن أتصرف تصرفاً مختلفاً. عندما أصبح في الداخل يكون التحدي الماثل أمامي هو الانتهاء من ذلك الصباح، الفراغ من ثلاث ساعات من تبديل الحفاضات واختيار الملابس التي يجب ارتداؤها، والفطور الذي يجب تقديمه، والوجوه التي لا بد من غسلها، والشعر الذي لا بد من تمشيطه ووضع الدبابيس فيه، والأسنان التي يجب تنظيفها، والمشاجرات التي يجب قمعها في مهدها، والصفعات التي يجب تفاديها، والجوارب والأحذية التي لا بد من ارتدائها... ذلك كله قبل أن أخطو صوب المصعد حاملاً عربة الأطفال المطوية بإحدى يدي ودافعاً الفتاتين الصغيرتين إلى الأمام باليد الأخرى، فيردد ذلك المصعد أصداء التدافع والصياح خلال هبوطه. ثم نصير في مدخل البناء فأضعهما في عربة الأطفال، ثم أُلبسهما قبعتيهما وقفازاتهما وأخرج إلى الشارع الذي صار منذ الآن مزدحماً بأناس متوجهين إلى أعمالهم. نصل إلى روضة الأطفال بعد عشر دقائق، وعند ذلك تصير أمامي خمس ساعات بالضبط، خمس ساعات من الكتابة قبل استئناف روتين الأطفال اليومي من جديد.

إن لديّ دائماً حاجة كبيرة إلى الوحدة. تلزمني مساحات ضخمة من الوحدة؛ وعندما لا أحصل عليها (هكذا هي الحال خلال السنوات الخمس الأخيرة)، يمكن أحياناً أن يصير إحباطي مذعوراً، بل عدوانياً أيضاً. عندما يتهدد الخطر بهذه الطريقة الشيءَ الذي جعلني أواصل السير خلال حياتي الناضجة كلها، الطموح في كتابة شيء استثنائي ذات يوم، تتملكني فكرة واحدة تقرض دماغي كأنها فأر: فكرةُ أن عليَّ الفرار! ينزلق الزمن مني، يتسرب عبر أصابعي مثل الرمل، أما أنا... فماذا أفعل؟ أنظف الأرض، وأغسل الملابس، وأحضر العشاء، وأغسل الأطباق، وأذهب للتسوق، وألعب مع الأطفال في الحديقة، وأعود بهم إلى البيت، وأخلع عنهم ثيابهم، وأحممهم، وأعتني بهم إلى أن يأتي وقت النوم، وأضعهم في السرير، وأعلق بعض الملابس لتجف، وأطوي ملابس أخرى ثم أضعها في أماكنها، وأرتب البيت، وأمسح

الطاولات والكراسي والخزانات! هذا نضال مستمر، ورغم هذا فهو ليس بطولياً... إنني في مواجهة قوة أكبر مني! فمهما يكن الجهد الذي أبذله في أعمال المنزل، تظل الغرف سابحة في فوضى الأشياء المتناثرة هنا وهناك، ويصبح الأطفال الذين أعتني بهم في كل دقيقة من وقت يقظتي أكثر عناداً من أي شيء عرفته. أحياناً يصير الوضع هنا أشبه بمستشفى المجانين... لعلنا لم نفلح في العثور على التوازن الضروري بين المسافة الفاصلة والقرب الحميم، التوازن الذي تزداد أهميته كلما نمت شخصية الطفل؟ أرى الآن نتيجة ذلك. عندما بلغ عمر فانيا ثمانية أشهر تقريباً، بدأت تأتيها انفجارات عنيفة، كأنها نوبات في البداية. كانت أشبه بنوبات أول الأمر؛ وكان الاقتراب منها مستحيلاً لفترة من الوقت... كانت تصرخ وتصرخ. ما كنا نستطيع فعل شيء غير احتضانها إلى أن يزول عنها ذلك. ليس سهلاً تحديد الشيء الذي كان يسبب هذه النوبات، لكنها تحدث غالباً عندما يكون لديها انطباعات كثيرة يتعين عليها امتصاصها والتعامل معها... مثلما حدث عندما مضينا بالسيارة إلى بيت جدتها في الريف قرب ستوكهولم فأمضت مع الأطفال وقتاً أكثر مما يجب؛ أو مثلما يحدث عندما نمضي اليوم كله في المدينة. في تلك الحالات، تصير غير قابلة للتهدئة وغير قادرة على ضبط نفسها فتصرخ بأعلى صوتها. ليست الحساسية الزائدة وقوة الإرادة مزيجاً سهلاً. لم تصبح الأمور أكثر سهولة عندما ولدت هيدي. ليتني أستطيع القول إنني كنت مسيطراً على كل شيء، بل يحزنني القول إن الأمر ما كان هكذا لأن غضبي يزداد ومشاعري تُستفز في هذه الحالات، وكثيراً ما يتحول الأمر كله إلى مشهدٍ مُخزٍ: ليس مستغرباً، حين أغضب، أن أرفعها عن الأرض في واحد من مراكز التسوق الكبرى في ستوكهولم فأضعها على كتفي كأنها كيس من البطاطا وأمضي بها عبر المدينة وهي ترفسني وتضربني وتصيح كأن مَسّاً أصابها. أستجيب لصيحاتها أحياناً بأن أصرخ عليها وألقيها على السرير إلى أن تزول النوبة، إلى أن يذهب عنها ما يعذبها. كانت لا تزال صغيرة حقاً عندما عثرتْ على ما يثير جنوني، عندما عثرتْ عليه بالضبط... إنه تشكيلة بعينها من الأصوات الزاعقة، ليست بكاء ولا نحيباً ولا أصواتاً هستيرية بل زعقات عدوانية مركزة تستطيع، بصرف النظر عن الحالة، أن تجعلني أفقد كل سيطرة على نفسي فأقفز وأندفع إلى الطفلة المسكينة فأصرخ بها أو أهزّها إلى أن تتحول زعقاتها إلى دموع ويتراخى جسدها... إلى أن تصير تهدئتها ممكنة.

عندما أتذكر هذا يفاجئني أنها استطاعت أن يكون لها هذا الأثر على حياتنا رغم أنها لم تكد تبلغ سنتين من عمرها. ولأنها استطاعت ذلك، فقد كان هذا الأثر كل ما له أهمية، لبعض الوقت. لكن هذا لا يقول شيئاً عنها، بالطبع... إنه يقول كل شيء عنا! نعيش، ليندا وأنا، على حافة الفوضى، أو على حافة إحساس الفوضى: يمكن لكل شيء أن ينفرط ويتفكك في أي لحظة، وعلينا إرغام أنفسنا على تلبية متطلبات العيش مع أطفال صغار. إننا لا نضع خططاً. تأتي الحاجة إلى التسوق من أجل العشاء مفاجئة لنا كل يوم. وعلى غرار ذلك تأتي ضرورة دفع الفواتير في آخر كل شهر. لولا دفعات مالية متقطعة ترد إلى حسابي المصرفي... رسوم حقوق النشر، أو مبيعات نوادي الكتب، أو مبلغ بسيط يأتي من نشر كتاب مدرسي، أو الدفعة الثانية من حقوقي المالية الناجمة عن نشر كتاب لي في الخارج نسيت أمره كما حدث هذا الخريف... لولا هذا كله لساءت الأمور حقاً.

إلا أن هذا الارتجال المستمر يزيد من ثقل اللحظة الراهنة التي تصير خطيرة إلى حد كبير لأن لا شيء يأتي من تلقاء نفسه. وإذا كانت حياتنا تبدو جيدة (من الطبيعي أنها تبدو كذلك أحياناً)، فلأن فيها معنى كبيراً من معاني وجودنا معاً وما يرافق ذلك من إحساس مكثف بالسعادة. أوه، كم نكون سعداء! الأطفال مفعمون بالحياة كلهم، وهذا ما يجتذب السعادة على نحو غريزي فيمنحك طاقة إضافية وتصير لطيفاً معهم، أما هم فينسون غضبهم وتمرّدهم بعد لحظات قليلة. لكن الجزء الأكّال الذي يُتلف النفس، بالطبع، هو أن كونك لطيفاً معهم ليس مفيداً على الإطلاق عندما تحتدم الأمور، عندما أغرق في مستنقع من الدموع والغضب. ما أن أصير في ذلك المستنقع حتى تجعلني كل حركة أزداد غرقاً. وليس أقل من ذلك إتلافاً للنفس إدراكي أنني أتعامل مع أطفال. أدرك أن «أطفالاً» هم من يغرقني في هذا المستنقع. إن في هذا شيئاً يدعو إلى الخجل، إلى إحساس عميق بالعار. لعلي أصبح في هذه الحالات أبعد ما يكون عن الشخص الذي أطمح إلى أن أكونه. ما كانت عندي أية فكرة عن هذه الأشياء قبل أن يصير عندي أطفال. كنت أظن أن كل شيء سيكون على أحسن حال إذا كنت لطيفاً معهم. هكذا أكون في واقع الأمر، إلى هذا الحد أو ذاك! لكني لم أعش من قبل شيئاً يجعلني أفهم هذا الغزو الشامل لحياة المرء، الغزو الذي يستتبعه إنجاب الأطفال. هذه الصلة الحميمة الهائلة التي تكون لك معهم، وكيف يصير طبعك ومزاجك منسوجاً مع طباعهم وأمزجتهم،

كيف يصير أسوأ نواحيك شيئاً لا تستطيع إخفاءه والاحتفاظ به لنفسك بل يبدو كأنه يتشكل خارجك ثم يعود مسرعاً إليك. ينطبق الأمر نفسه على أفضل ما لدينا أيضاً. وذلك لأن الحياة الانفعالية لمن كان موجوداً في الفترات الأكثر احتداماً، عندما ولدت هيدي، ثم عندما ولد جون، تعرضتُ لانخلاعات بطرق لا يمكن وصفها إلّا بأنها شيء يشبه أزمة... تكون حياتهم هنا مستقرة آمنة من حيث الأساس؛ وحتى عندما أفقد أعصابي معهم أحياناً، فإنهم يظلون طيبين معي ويأتون إليَّ كلما أحسوا حاجة إلى ذلك. مطالبهم أساسية دائماً: لا يحبّون شيئاً أكثر من خروج الأسرة كلها معاً في نزهة. ويكون هذا حدثاً مليئاً بالمغامرات: رحلة إلى الميناء الغربي في يوم مشمس تبدأ بمشوار على الأقدام عبر الحديقة حيث تكفي كومة من جذوع الأشجار لإثارة اهتمامهم وتسليتهم نصف ساعة، ثم نمر باليخوت في المرسى فتجذب اهتمامهم حقاً، وبعد ذلك تناوُل غداء على بعض الدرجات قرب البحر حيث نأكل شطائر البانيني التي نشتريها من مقهى إيطالي... لم يخطر هذا في بالنا من قبل، لكنه يحدث بكل سهولة؛ وبعد ذلك نمضي ساعة أو أكثر من ساعة في الجري هنا وهناك، وفي اللعب والضحك، فانيا بخطوتها الواسعة التي تميزها، خطوتها التي اتضحت منذ كان عمرها ثمانية عشر شهراً، وهيدي بمشيتها الخرقاء المتحمسة تسير متخلفة مترين عن أختها الكبيرة مستعدة لتلقي هدية الصحبة النادرة منها. وبعد ذلك نسلك الطريق نفسه عائدين إلى البيت. إذا نامت هيدي في السيارة فإننا نمضي إلى أحد المقاهي مع فانيا التي تحب تلك اللحظات التي تكون فيها وحدها معنا، تجلس هناك أمام كأس من عصير الليمون وتسألنا عن كل شيء تحت الشمس: هل السماء ثابتة؟ وهل هنالك شيء يستطيع أن يمنع قدوم الخريف؟ وهل للقرود هياكل عظمية؟ حتى إذا كان إحساس السعادة الذي يمنحني إياه هذا كله ليس إحساساً عاصفاً فإنه يظل شيئاً قريباً من الرضا وهدوء النفس... هذا سعادة أيضاً! بل يمكن أن يكون فرحة في بعض اللحظات. و... أليس هذا كافياً؟ أليس كافياً؟ نعم... إن كانت الفرحة هي الهدف فسوف يكون هذا كافياً! لكن الفرحة ليست هدفي، لم تكن هدفي أبداً. ما فائدة الفرحة لي؟ الأسرة ليست هدفي أيضاً! لو كانت هدفي، ولو تمكنت من تكريس طاقتي كلها من أجلها، لكانت لدينا حياة رائعة... إنني واثق من هذا. لو كان الأمر هكذا، لكنا قادرين على العيش في مكان ما في النرويج... نذهب للتزلج في الشتاء مع غداء جاهز وترمس في حقيبة الظهر، نجذف بالقارب في الصيف، ونسبح،

ونصطاد، ونخيّم، ونذهب في عطلات إلى الخارج مع أسر أخرى. لو كان الأمر كذلك لاستطعنا المحافظة على البيت مرتباً، لاستطعنا قضاء الوقت في إعداد طعام جيد وفي الاستمتاع برفقة أصدقائنا، سنكون سعداء إلى أقصى حد. قد يبدو هذا كاريكاتوراً، لكني أرى كل يوم أسراً ناجحة في تنظيم حياتها على هذا النحو. أرى الأطفال نظيفين، ملابسهم جميلة، أهلهم سعداء؛ ومع أنهم يمكن أن يرفعوا أصواتهم عليهم من حين لآخر، لكنك لا تراهم أبداً واقفين هناك كالحمقى يصرخون بهم! يذهبون إلى رحلات في عطلة نهاية الأسبوع، ويستأجرون بيوتاً صيفية في نورماندي، ولا تكون البرادات في بيوتهم خاوية أبداً. يعملون في مصارف ومستشفيات وفي شركات تلفزيون أو في المجلس المحلي، أو تراهم في المسرح أو في الجامعات. لماذا يجب أن يجعلني كوني كاتباً شخصاً مستبعَداً من هذا العالم؟ لماذا يجب أن تعني حقيقة كوني كاتباً أن تبدو عربات الأطفال لدينا كأنها قطع من الخردة عثرنا عليها مصادفة؟ لماذا يجب أن تعني حقيقة كوني كاتباً أن أصل إلى روضة الأطفال بعينين مجنونتين ووجه تيبَّس فصار قناعاً كله إحباط وغضب؟ لماذا يجب أن تعني حقيقة كوني كاتباً أن يفعل أطفالنا كل ما يمكنهم فعله حتى يحصلوا على ما يريدون مهما تكن العواقب؟ من أين تأتي هذه الفوضى كلها في حياتنا؟ أعرف أنني أستطيع تغيير هذا كله، وأعرف أيضاً أننا نستطيع أن نصبح ذلك النوع من الأسر؛ لكن عليَّ أن أكون راغباً في هذا أولاً، وفي تلك الحالة سيكون على حياتنا أن تدور حول هذا تحديداً... لا حول أي شيء آخر. ليس هذا ما أريد! أفعلُ كل ما يتعين عليَّ فعله من أجل الأسرة؛ هذا واجبي! الشيء الوحيد الذي تعلمته من الحياة هو أن أتحمل هذا وألا أحتج عليه أبداً، وأن أحرق التوق المتولد عنه عن طريق هذه الكتابة. ليست عندي أي فكرة عن المكان الذي جاء منه هذا المثل؛ وبما أنني أراه أمامي الآن، بكل وضوح، فإنه يكاد يبدو شيئاً غير سويّ: لماذا يكون الواجب قبل السعادة؟ إن السؤال عن السعادة سؤال مبتذل، لكن السؤال الذي يأتي بعده ليس كذلك، إنه السؤال عن المعنى. تدمع عينايَ عندما أنظر إلى لوحة جميلة، لكن هذا لا يحدث عندما أنظر إلى أطفالي. لا يعني هذا أنني لا أحبهم... فأنا أحبهم كثيراً، أحبهم من كل قلبي؛ إنه يعني فقط أن المعنى الذي يولّده أطفالي في نفسي ليس كافياً لإرضاء حياة بأسرها. ليس كافياً لإرضاء حياتي على أقل تقدير! سوف أبلغ الأربعين قريباً. وعندما أبلغ الأربعين، لن يطول الأمر قبل أن أصبح في الخمسين. وعندما أبلغ

الخمسين لن يطول الأمر قبل أن أصبح في الستين. وعندما أبلغ الستين، لن يطول الأمر قبل أن أصبح في السبعين. هكذا سيكون الأمر. قد يُكتب على شاهدة قبري «هنا يرقد رجل ظل مبتسماً واحتمل كل شيء. ثم فَنِيَ نتيجة ذلك آخر الأمر». أو لعل من الأفضل أن تكون الكتابة هكذا:

هنا يرقد رجل
ما اشتكى أبداً!
حياة سعيدة...
لم ينلها أبداً.
كلماته الأخيرة
قبل أن يموت،
قبل أن يمضي
إلى التابوت،
كانت: يا إلهي،
إن البرد شديد!
هل يعطيني
أحد قرصاً
من أجل عمر
سعيد؟

بل قد يكون هذا أفضل:

هنا يرقد رجل
كان كاتباً.
رجل نبيل
مولود في
الشمال
وا حسرة...
كانت يداه في
الأغلال،

أغـلالٌ حرمَته
طعم الفرح.
كان يكتـب
باندفاع ومرح
وهـو الآن
مدفون في هذا
المطرح.
أيتها الديدان...
تعالـي، تعالي
واشبعي!
تذوَّقي هذا اللحم،
جرّبي هـذه العين
أو هذا الفخذ
لقـد مـات
أخيراً، فتعالي
وتمتعي!

لكن، إن كان لي أن أعيش ثلاثين سنة أيضاً، فليس مؤكداً أن أبقى كما أنا. إذن، قد تكون تلك الكتابة شيئاً من قبيل:

مِنا جميعـاً إليك يا
ربنا.
لقـد صـار لديـك
الآن؛ إنـه تحـت
التراب!
مـات أخيـراً كارل
أوفِه كناوسغارد
مـرّ عليـه زمـن
طويـل لـم يـأكل

خبزاً
تجاوز مع أصدقائه كل شيء، وكلُّ حدٍّ
تجاوزه... في الكتب وفي الجنس!
كان ماهراً في
استخدام قلمه وفي
استخدام قضيبه؛
لكنه ما كان
سعيداً!
ما كان أسلوبه
متقَناً، لكنه حاول
التميز.
كان يأخذ قطعة
حلوى، ثم يأخذ
قطعة أخرى.
كان يأخذ ثمرة، ثم
يأكلها نيئة.
كان يطبخ خنزيراً
فيستغرق ذلك
وقتاً،
ثم يأكله، ثم يتجشأ
تحيةً!
لست نازياً، لكني
أحب القمصان
البنية.
وأكتب نصوصاً
قوطية إلى أن
يستبد بي الألم!

يرفضـون الكتّاب

فيخرج الرجل عن

طوْره:

يسـرف في الطعام والشراب،

ويتجشَّأ، ولا يستطيع التوقف.

صار بطنـه كبيراً،

وصـار حزامـه

ضيقاً عليه.

اشـتعلت عينـاه

وتوقد لسانه:

«أردت فقط أن

أكتـب مـا أراه

صحيحاً!»

كسـا الدهـن قلبه

وشرايينه

إلى أن صاح متألماً

ذات يوم:

سـا عد و ني ،

أنقذوني، استمعوا

إلى صراخي

جـدوا لـي متبرعاً

لأن قلبـي لا

يستطيع العمل!

قـال الطبيـب لا...

إنني أذكر كتابك

سـتموتُ مثل سـمكة،

مثل سـمكة علقت في

صنارة.

هل تحس الألم، هل

اقتربت نهايتك؟

إنهـا الطعنـة فـي

القلب، هذا هو الموت

يا صديقي!

أو لعل الكتابة على قبري تكون ذات طابع شخصي أقل... إن كنت محظوظاً:

هنا يرقد رجل كان

يدخن في الفراش

احتـرق ومات مع

زوجته

الحـق يقـال: لـم

يعثر أحد عليهما!

بعـض الرمـاد

فقط...

هكذا قالوا.

عندما كان أبي في مثل سنّي الآن، تخلى عن حياته القديمة وبدأ من جديد. كان عمري ستة عشر عاماً في ذلك الوقت، وكنت في السنة الأولى في مدرسة كاتدرائية كريستيانساند. كان أبي وأمي لا يزالان متزوجين في بداية ذلك العام الدراسي. صحيح أنهما كانا يعيشان بعض المشكلات، إلّا أنه ما كان لديّ سبب يجعلني أتوقع أن يصيب علاقتهما ما كان موشكاً على الحدوث. كنا نعيش في بلدة تفيت آنذاك، تبعد عشرين كيلومتراً عن كريستيانساند، في بيت قديم واقع على حافة المنطقة المبنية في ذلك الوادي. كان البيت عالياً في الجبل، وكانت الغابة من خلفنا ومشهد النهر من أمامنا. بيتٌ إلى جانبه حظيرة كبيرة فيها شقة خارجية صغيرة مستقلة أيضاً. كنت في الثالثة عشر من عمري عندما انتقلنا إليه في الصيف. اشترى أبي وأمي بضع دجاجات... أظن أنها عاشت ستة شهور. كان أبي يزرع البطاطا في بقعة من الأرض بجانب المرج. وخلف تلك البقعة كانت هنالك كومة من السماد. من بين الأحلام التي كانت لدى أبي حلمٌ

بأن يكون مزارعاً. كان لديه شيء من الموهبة في هذا الاتجاه. كانت الحديقة حول بيتنا في البلدة الصغيرة التي أتينا منها حديقة رائعة. كان فيها بعض العناصر المتميزة حقاً كشجرة الدراق التي زرعها أبي عند الجدار الذي يواجه شمس الجنوب. كم كان شديد الاعتزاز بتلك الشجرة عندما أثمرت! وهكذا، كان الانتقال إلى الريف مفعَماً بالتفاؤل وبأحلام المستقبل... وعندها بدأت السخرية المريرة ترفع رأسها ببطء، لكن بكل ثقة! أقول هذا لأن من الأشياء الملموسة القليلة التي أتذكرها عن حياة أبي هناك خلال هذه السنوات هو شيء يأتيه عندما نكون جالسين حول طاولة الحديقة في مساء صيفي نشوي اللحم... هو وأمي وأنا.

يقول: «الآن نعيش حياتنا حقاً، أليس كذلك!».

كانت نبرة السخرية واضحة في كلامه... حتى أنا كنت قادراً على التقاطها! لكنها كانت معقدة أيضاً لأنني لم أفهم سببها. إن أمسية هانئة كهذه التي نمضيها الآن هي «عيش الحياة» في نظري! أما ما كانت هذه السخرية تُضمره فهو شيء تخلل بقية ذلك الصيف كلها مثلما يجري تيار خفيّ من الماء تحت الماء: كنا نسبح في النهر منذ الصباح الباكر، ونلعب كرة القدم على العشب في الظل، ونقود الدراجات إلى موقع التخييم في هامريساندن حيث نسبح وننظر إلى الفتيات. ونذهب في شهر تموز من أجل «كأس النرويج» حيث نحضر مباريات كرة القدم للشباب. هناك سكرت أول مرة في حياتي. كان هنالك شخص يعرف شخصاً لديه شقة، وشخص آخر يعرف شخصاً يستطيع أن يشتري لنا البيرة. وهكذا جلست هناك أشرب في غرفة معيشة غير مألوفة بعد ظهيرة أحد أيام الصيف. كان ذلك يشبه انفجاراً للسعادة، وما عاد هنالك أي خطر ولا أية مخاوف أبداً. كنت أضحك فقط، وأضحك. وفي وسط هذا كله، وسط هذا الأثاث غير المألوف، وسط فتيات لا أعرفهن، قريباً من حديقة لا أعرفها في الخارج، رحت أقول في نفسي إن هذه هي الحياة التي أريد أن أعيشها. هكذا تماماً! ضحك طيلة الوقت، وجريٌ خلف أي شيء يستهويني. لديَّ صورتان لي من تلك الأمسية: أظهر في الأولى مستلقياً تحت كومة من الأجساد في وسط الغرفة وأنا أحمل جمجمة في إحدى يدي؛ يظهر رأسي كأنه غير متصل باليدين والقدمين البارزتين من الناحية الأخرى. كان وجهي متقلصاً مشدوداً مكشراً بفرح شديد. أما الصورة الأخرى فأظهر فيها وحدي. إنني مستلقٍ على سرير حاملاً زجاجة البيرة في إحدى يدَيّ بينما تمسك اليد الأخرى

بالجمجمة نفسها في حجري. إنني أضع نظارات شمسية؛ فمي مفتوح على اتساعه... يقهقه ضاحكاً. كان ذلك في صيف 1984، وكان عمري خمسة عشر عاماً، وكنت قد حققت اكتشافاً جديداً: إن شرب الكحول أمر رائع!

سارت طفولتي مسارها المعتاد طيلة بضعة أسابيع بعد ذلك. كنا نستلقي على الجروف تحت الشلال ونغفو هناك قليلاً؛ وكنا نغطس في البركة من حين لآخر، ونذهب بالباص إلى المدينة صباحات الأحد حيث نشتري الحلوى ونجول على متاجر التسجيلات الموسيقية، وكانت تلوح في الأفق توقّعاتي فيما يتعلق بالمدرسة الثانوية العليا «جيمناز» التي سأذهب إليها قريباً. ما كان هذا التغيّر الوحيد في الأسرة: حصلت أمي على إجازة طويلة من عملها في روضة الأطفال وكانت على وشك الذهاب لتدرُسَ مدة سنة كاملة في بيرغن حيث يعيش أخي إنغفِه. وكانت الخطة تقضي بأن أعيش مع أبي وحدنا هناك، وهذا ما فعلناه خلال الأشهر الأولى إلى أن أشار (كان يتظاهر بأنه يريد أن يزيحني من طريقه) إلى أنني أستطيع العيش في البيت الذي يملكه جدي وجدتي في إلفيغاته، حيث يعمل جدي في مكتب للمحاسبة أسسه بنفسه منذ سنوات طويلة. يعيش أصدقائي كلهم في تفيت؛ وهذا ما جعلني أرى أنني لا أعرف الأطفال في مدرستي الجديدة معرفة تكفي لأن أمضي الوقت معهم بعد المدرسة. وهكذا كنت أجلس وحدي في غرفة المعيشة، عندما لا أكون في تدريب كرة القدم الذي أذهب إليه خمس مرات، وأشاهد التلفزيون، وأنجز واجباتي البيتية على طاولة المكتب في غرفة العلية، أو أستلقي على السرير المجاور للمكتب فأقرأ وأستمع للموسيقى. كنت أذهب إلى «سانيز»، هكذا كان اسم بيتنا، من وقت لآخر حتى آخذ بعض الملابس أو الكاسيتات أو الكتب. وكنت أيضاً أنام هناك بعض الأحيان، لكني كنت أفضل غرف بيت جديّ لأن لمسة باردة قد استقرت في بيتنا! أظن أن سبب ذلك هو أن شيئاً ما عاد يحدث في هذا البيت: كان أبي يأكل في الخارج بعض الأحيان، ولا يقوم إلّا بالحد الأدنى من الأعمال المنزلية. ترك هذا أثره على جوّ البيت الذي اكتسب مظهر البيت المهمَل المهجور عندما اقترب عيد الميلاد. كانت الأريكة أمام التلفزيون في الطابق الأول ملطخة بكتل يابسة من براز القطط؛ وكان في المطبخ عدد من الأطباق القديمة غير المغسولة. كانت مشعّات التدفئة مغلقة كلها باستثناء المدفئة الكهربائية التي نقلها أبي إلى الغرفة التي يعيش فيها الآن. أما هو نفسه، فكانت روْحه في عذاب. مضيت إلى

البيت ذات مساء أظن أنه كان في أوائل شهر كانون الأول. وبعد أن وضعت حقيبتي في غرفتي الباردة كالصقيع ذهبت إليه في غرفة المعيشة. كان قد عاد من الحظيرة التي حوَّل الطابق السفلي فيها إلى شيء يشبه شقة سكنية. كان شعره مشعثاً وعيناه سوداوين.

سألته: «ألا نستطيع تشغيل التدفئة؟ الغرفة باردة جداً».

قال يقلدني: «بايدة جداً؟ لن نشغل التدفئة مهما تكن الغرفة بايدة». لم أكن أستطيع نطق حرف الراء... لم أستطع أبداً أن أقول «ر». كانت هذه واحدة من مشكلاتي في أواخر طفولتي. وقد اعتاد أبي تقليدي حتى يجعلني أنتبه إلى أنني لا أستطيع نطق هذا الحرف. كانت محاولة غير مجدية لأستجمع قواي وأقول «ر» مثلما ينطق أهالي سورلاند الطبيعيون هذا الحرف. كان أبي يفعل هذا عندما يثير أعصابه شيء من جانبي، مثلما يحدث الآن.

استدرت ومضيت عائداً إلى غرفتي. لم أرد منحه متعة رؤية عينيَّ الدامعتين. كان خجلي من رؤيتي على وشك ذرف الدموع وأنا في الخامسة عشر (على وشك أن أصبح في السادسة عشر) أقوى من خُزي تقليده إياي. لم أعد أبكي عادة؛ لكنني لم أستطع التخلص من تأثير أبي عليّ حتى الآن. إلّا أنني كنت قادراً على تسجيل نوع من الاحتجاج. صعدت إلى غرفتي وأخذت بعض الكاسيتات الجديدة فوضعتها في الحقيبة ثم حملتها ونزلت إلى الغرفة التي بجانب الصالة، حيث كانت خزانة الملابس، فوضعت بضع كنزات ومضيت إلى الصالة فلبست معطفي ووضعت الحقيبة على كتفي ثم انطلقت إلى فناء البيت. كانت قشرة من الصقيع قد تشكلت على الثلج وراحت أضواء المصابيح التي فوق مرآب السيارة تنعكس لامعة على الثلج الذي صبغه مصباح الشارع الكبير بلون أصفر. كان المرج الممتد أسفل الطريق لامعاً أيضاً لأن سماء الليل كانت حافلة بالنجوم ولأن القمر كان بدراً شبه مكتمل فوق التلال إلى الناحية الأخرى من النهر. بدأت السير. كانت قدماي تغطسان في الأثلام التي خلّفتها عجلات السيارات. توقفت عند مكتب البريد. ربما كان عليَّ أن أخبره بذهابي! لكن من شأن هذا أن يفسد الأمر كله. المغزى هو أن أجعله يفكر في ما فعله. كم الساعة الآن؟ هكذا رحت أسأل نفسي.

شددت القفاز حتى منتصف يدي اليسرى ثم رفعت كمي قليلاً ونظرت إلى الساعة. إنها الثامنة إلّا ثلثاً. يأتي الباص بعد نصف ساعة. لا يزال لدي وقت يسمح لي بالعودة لإخباره بذهابي. لكن لا! لن أفعل هذا!

وضعت الحقيبة على كتفي من جديد وتابعت السير نازلاً سفح التلة. التفتُّ لألقي على البيت نظرة أخيرة فرأيت دخاناً يتصاعد من المدخنة. يظنني لا أزال في غرفتي. من الواضح أنه أحس بالندم فجاء ببعض الحطب وأشعل نار الموقد. أصدر جليد النهر طقطقة. وبدا لي أن هذا الصوت راح يمضي متموّجاً فتسلق منحدرات الوادي اللطيف.

ثم سمعت صوت تكسُّر الجليد المُدوّي.

سرت في ظهري قشعريرة ممتعة. يملأني هذا الصوت بالفرحة. رفعت رأسي ونظرت إلى النجوم الكثيرة. نظرت إلى القمر المعلق فوق الجسر. ألقت أضواء سيارة على الناحية الأخرى من النهر دفقات من الضوء في تلك العتمة. وامتد الشارع أمامي، أسودَ، صامتاً، رغم أنه لم يبدُ لي عدائياً على الإطلاق... امتد مُرقّطاً بالثلج إلى جانب ضفة النهر. وعلى صفحة الماء البيضاء، كان مقياسا مستوى النهر الخشبيان عاريين، لامعين. تغمرهما المياه في الخريف، أما الآن... وقت انخفاض المياه، فكانا عاريَيْن.

لقد أشعل الموقد من أجلي. كانت هذه طريقته في التعبير عن أسفه. هذا يعني أن ذهابي من غير قول كلمة له ما عاد له أي معنى.

عدتُّ! دخلت البيت وبدأت أحل شريط حذائي. سمعت صوت خطوات في غرفة المعيشة فرفعت رأسي. فتح الباب واضعاً أصابعه على مقبضه. نظر إليّ. سألني: «هل أنت ذاهب؟».

كان من المستحيل أن أشرح الآن أنني ذهبت بالفعل ثم عدت من جديد. هذا ما جعلني أكتفي بهز رأسي.

قلت: «أظن هذا. يبدأ نهاري في وقت مبكر غداً».

قال: «نعم، بالطبع. أظن أنني سأمر بعد الظهر. أقول هذا حتى تعرف فقط».

قلت له: «لا بأس».

وقف ينظر إليّ بضع ثوانٍ. ثم أغلق الباب وعاد إلى غرفة المعيشة.

فتحتُ الباب من جديد.

قلت: «أبي!» استدار ونظر نحوي من غير أن يقول شيئاً.

«أنت تعرف أن موعد اجتماع أهالي الطلاب في المدرسة غداً، أليس كذلك؟ في الساعة السادسة».

سألني: «هل هو غداً؟ لا بأس، من الأفضل أن أذهب إليه إذن».

استدار وتابع سيره في الغرفة، أما أنا فأغلقت الباب وربطت حذائي من جديد ثم حملت حقيبتي على كتفي وانطلقت في اتجاه موقف الباص فبلغته بعد عشر دقائق. كان الشلال من تحتي متجمِّداً على هيئة أقواس هائلة وشرايين من الجليد؛ وكان ينيره ضوء خافت قادم من مصنع الباركيه. نهضتْ التلال من خلف الشلال، ومن خلفي. كانت محيطةً بنا، مبعثرة؛ وانتشرت فيها تجمُّعات بيوت على امتداد وادي النهر في تلك الظلمة، تجمعات من غير شخصية. وبدت النجوم في الأعلى كأنها مستلقية في قاع بحر متجمد.

جاء الباص ومسحت أنواره الطريق. أظهرت بطاقتي للسائق ثم جلست على المقعد قبل الأخير من جهة اليسار حيث أجلس دائماً إن كان المقعد شاغراً. كانت حركة السيارات قليلة فانطلقنا سريعاً عبر سولسنيتا ورايمسليتا، وسرنا مع الشاطئ في هامريساندن، ثم دخلنا الغابة في طريقنا إلى تايمينس، وسلكنا الطريق رقم «ي 18» فاجتزنا جسر فارود ومررنا بالمدرسة الثانوية العليا في جيمله، ثم دخلنا المدينة.

كانت الشقة في الأسفل، عند النهر، إلى جهة اليمين. أما مكتب جدي ففي الجهة اليسرى عندما تدخل البيت. غرفتان ومطبخ وحمام صغير في تلك الشقة. كان الطابق الذي في الأعلى مقسوماً إلى جهتين أيضاً: غرفة عليّة ضخمة من ناحية، والغرفة التي أعيش فيها من ناحية أخرى. لديّ هنا سرير وطاولة للكتابة وأريكة صغيرة وطاولة قهوة وجهاز تشغيل الكاسيت ورف لأشرطة الكاسيت وكومة من الكتب المدرسية وبضع مجلات من بينها مجلات موسيقية، إضافة إلى كوْمة ملابس في الخزانة.

البيت قديم كان ذات يوم ملكاً لجدة أبي، أي لأم جدتي، التي توفيت فيه. وبقدر ما فهمت، فقد كان أبي قريباً منها في صباه، وكان يمضي وقتاً طويلاً في ذلك المكان. أما بالنسبة إليّ فقد كانت تلك السيدة شخصية أسطورية نوعاً ما... قوية، متسلطة، صلبة الإرادة، أُماً لثلاثة أبناء كان أبي ابن واحد منهم. رأيتها في بعض الصور: كانت تظهر دائماً في فساتين سوداء مزرّرَة حتى ذقنها. وعندما اقتربت حياتها من نهايتها (حياتها التي بدأت في سبعينيات القرن التاسع عشر)، أصابها الخرف عشر سنين تقريباً، أو بدأت «تخلط الأمور» مثلما اعتادت الأسرة أن تقول. كان هذا كل ما أعرفه عنها.

خلعت حذائي وصعدت إلى الأعلى عبر السلم شديد الانحدار، ثم دخلت غرفتي. كانت الغرفة باردة. شغّلت المدفأة الكهربائية. شغّلت آلة الكاسيت أيضاً

ورحت أستمع إلى أغنية «هيفن آب هير» من فرقة «إيكو آند ذا بوني مِن». استلقيت على السرير وبدأت القراءة. كنت في منتصف رواية «دراكولا» لبرام ستوكر. قرأت هذه الرواية مرة قبل الآن، قرأتها في السنة الماضية، لكنني ما زلت أراها مثيرة رائعة. كانت المدينة في الخارج تصدر همهمتها الخفيضة المستمرة من سياراتها ومبانيها، لكنها كانت غائبة عن وعيي. ما كنت أسمعها إلّا على شكل موجات متباعدة مثلما يحدث عندما يكون المرء في حالة حركة. لكنني ما كنت متحركاً. كنت مستلقياً أقرأ ساكناً تماماً إلى أن بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف فنهضت ونظفت أسناني ثم خلعت ملابسي ومضيت إلى الفراش.

كان شعوراً خاصاً جداً أن أستيقظ في الصباح فأجد نفسي وحيداً في الشقة. أحس أن الفراغ ليس من حولي فقط، بل في داخلي أيضاً! قبل أن أبدأ الدراسة في هذه المدرسة الثانوية، كنت أستيقظ دائماً في بيتنا فأجد أبي وأمي مستيقظين قبلي، على وشك الذهاب إلى العمل مع كل ما يشتمل عليه ذلك من دخان السجائر وشرب القهوة والاستماع إلى الراديو وتناول الفطور وصوت محركَيْ سيارتيهما يسخنان في ظلمة الصباح. كان هذا شيئاً آخر، شيئاً أحببته. كنت أحب أيضاً أن أمشي مسافة الكيلومتر، أو قرابة ذلك، عبر المنطقة السكنية القديمة حتى أبلغ المدرسة. يملأني هذا دائماً بأفكار أحبها... من بينها فكرة أنني شخص متميز أيضاً. كان معظم الأطفال في المدرسة من المدينة أو من مناطق قريبة منها. لم يكن فيها أطفال قادمون من الريف سواي وحفنة من الآخرين. كانت هذه نقطة كبيرة في غير صالحنا فهي تعني أن الآخرين جميعاً يعرف بعضهم بعضاً ويلتقون خارج المدرسة ويمضون أوقاتهم معاً في شلل من الأصدقاء. كان مفعول هذه الشلل ظاهراً حتى في أوقات المدرسة نفسها: لا تستطيع أن تقحم نفسك عليها، على الإطلاق! وهذا ما كان يجعلني أواجه مشكلة مع كل استراحة... أين أذهب؟ أين يجب أن أقف؟ كان يمكنني الذهاب والجلوس في المكتبة والقراءة، أو الجلوس في غرفة الصف والتظاهر بأنني أكتب واجباتي البيتية. لكن ذلك كان شيئاً يشبه الإشارة إلى أنني واحد من الغرباء! ليس هذا جيداً على المدى البعيد. وهكذا بدأت التدخين في تشرين الأول من ذلك العام؛ ليس لأنني أحببت التدخين، ولا لأنني ظننته أمراً جذاباً؛ بل لأنه يمنحني مكاناً أستطيع أن أكون فيه: أستطيع الآن أن أتلطّى في الممرات مع بقية المدخنين خلال كل استراحة من غير أن يطرح أحد أي سؤال. تغيب

مشكلتي عندما تنتهي المدرسة وأمشي عائداً إلى البيت. أو أذهب إلى تفيت من أجل تدريب كرة القدم أو من أجل لقاء يان فيدار الذي كان صديقي المفضل من المدرسة السابقة. كان هناك سبب آخر لغياب المشكلة، وهو أن أحداً لا يراني هنا، وأن أحداً لا يستطيع معرفة أنني أجلس وحدي في الشقة طيلة المساء.

كان الوضع مختلفاً خلال الدروس. معي في الصف ثلاثة صبيان آخرين وستاً وعشرين بنتاً! كان لدي دور هنالك... كان لدي مكان، وكنت أستطيع الوجود في ذلك المكان. كنت أجيب على الأسئلة، وأناقش، وأقوم بعملي المدرسي؛ كنت أستطيع أن أكون شخصاً ما هناك. لقد نشأت مع أشخاص آخرين، وهكذا نشأ زملائي جميعاً. ما كان يمكنني أن أفرض نفسي على أحد، وما كان أحد منهم معترضاً على وجودي. كنت أجلس في آخر الغرفة، في الزاوية، وإلى جانبي باسين، وأمامي مولِه، وأمامنا بضعة صفوف يجلس بال. أما بقية من في الغرفة فكانوا فتيات. ستاً وعشرين فتاة في السادسة عشرة! بعضهنّ يعجبني، لكن أياً منهن ما كانت تعجبني إلى حد يجعلني أعتبر نفسي عاشقاً. كانت هنالك فتاة اسمها مونيكا، وكان أبواها من الهنغاريين اليهود. كانت فتاة حادة كالشفرة، واسعة الاطلاع، وكانت مدافعة شرسة عن إسرائيل. عندما ناقشنا النزاع في فلسطين (هذه قضية لم أستطع فهمها)، كان واضحاً لي أن إسرائيل دولة عسكرية وأن فلسطين ضحية. كانت هناك أيضاً حنَّة... فتاة جذابة من فاغسبوغد، وكانت تغنّي في الكورس. كانت مسيحية، وساذجة تماماً، لكنها فتاة تُسرّ العين أيضاً. ثم تأتي سِيف، شقراء لوَّحتها الشمس، لها أطراف طويلة. في الأيام الأولى سمعتها تقول إن المسافة بين مدرسة الكاتدرائية ومدرسة الأعمال تشبه المسافات التي يراها المرء في جامعة أميركية: كلام جعلها تبدو في نظري فتاة تعرف أشياء لا أعرفها، أشياء عن العالم الذي أحب أن أكون جزءاً منه. لقد عاشت في غانا خلال السنوات القليلة الماضية، وكانت تحب المفاخرة كثيراً، وتضحك بصوت مرتفع أيضاً. كانت لدينا أيضاً بينيدكتِه ذات الوجه الحاد الذي تشبه قسماته وجوه الخمسينيات. فتاة مموَّجة الشعر توحي ملابسها بشيء من المنزلة الطبقية العالية. وأيضاً توني الجدية ذات الحركات الرشيقة والشعر الأسود. كانت ترسم، وتبدو أكثر استقلالية من غيرها. ثم هناك آن التي تضع طوقاً معدنياً لتقويم الأسنان. إنها الفتاة التي قبّلتها عندما كانت جالسة في كرسي والدة باسين في حفلة عيد ميلاده في الخريف. وكانت أيضاً هيلدِه ذات الشعر الأشقر

والوجنتين الورديتين والشخصية الصلبة، لكنها كانت لا تزال غير محددة الهوية بعد، وكانت تلتفت إليّ كثيراً! أما الفتاة التي كانت مركز اهتمام البنات جميعاً فهي إيريني. إن لديها تلك الجاذبية التي تستطيع أن تدوّخ المرء وتجعله يذوب بلفتة واحدة. هنالك أيضاً نينا ذات الجسم القوي الذي يشبه أجسام الصبيان، لكنها أيضاً هشة بعض الشيء مَيّالة إلى الخجل. وميتي أيضاً؛ ميتي الصغيرة، العصبية، الخبيثة. كانت معجبة ببروس سبرينغستين، وكانت ترتدي دائماً البنطلون الجينز. كانت قصيرة، تضحك طيلة الوقت. وملابسها مثيرة دائماً، بقدر ما هي مبتذلة، وبقدر ما تفوح برائحة السجائر. كانت لثتاها تظهران كلما ابتسمت، لكنها تظل جذّابة فيما عدا ذلك. كانت لها ضحكة تشبه قهقهة دائمة ترافق كل شيء تقوله وكل السخافات التي تنطق بها. وكانت أيضاً تلثغ بعض الشيء فينتقص ذلك من جمالها بطريقة ما. كنتُ في خضمّ طوفان من الفتيات، شلّالٌ من الأجساد، بحرٌ من الأثداء والأفخاذ. وكانت رؤيتهن في هذا المحيط الرسمي فقط، خلف مقاعدهن المدرسية، تجعل حضورهن أكثر قوة. كان هذا يعطي أيامي شيئاً من المعنى، على نحو ما. وكنت أتشوق دائماً إلى دخول غرفة الصف والجلوس هناك، حيث من حقي أن أجلس، مع هاته الفتيات جميعاً.

نزلت إلى مطعم المدرسة في ذلك الصباح واشتريت سندويتشاً مع كوكاكولا، ثم اتخذت مكاني وبدأت آكل طعامي وأقلب صفحات كتاب بينما راحت الغرفة من حولي تمتلئ بالتلاميذ شيئاً بعد شيء. كانت حركاتهم لا تزال خرقاء بعد ليلة من النوم، وكذلك كانت وجوههم. تبادلت كلمات قليلة مع مولِه الذي يعيش في هامريساندن. كنا في صف واحد في مدرستنا القديمة. ثم جاء المعلم. جاء الأستاذ بيرغ مرتدياً عباءته. إن لدينا الآن درس اللغة النرويجية. كانت اللغة موضوعي المفضل، إلى جانب التاريخ. وكانت درجاتي تتراوح بين (A) و(A+)؛ لكني لم أتمكن من تحقيق الدرجة العليا، إلّا أنني كنت مصمماً على محاولة الحصول عليها في الامتحان. وبالطبع، كانت العلوم الطبيعية أسوأ المواد عندي. كانت درجاتي متدنية في الرياضيات، وكنت دائماً أنال (D)، ولا أنجز واجباتي المنزلية أبداً؛ كما كان ما يقال في الدرس أعلى بكثير مما أستطيع فهمه. كان معلما الرياضيات والعلوم الطبيعية من المدرسة القديمة. فيستبي هو معلم الرياضيات، يتحرّك بحركات لا إرادية كثيرة، وإحدى ذراعيه ترتعش وتهتز طيلة الوقت. كنت أجلس في دروسه واضعاً قدمي على الطاولة وأنا أثرثر مع باسين إلى

أن يصيح فيستبي باسمي وقد احتقن وجهه السمين. أخفض قدمي عند ذلك وأنتظر إلى أن يدير ظهره فأتابع حديثي. أما معلم مادة العلوم، نايغارد، فكان رجلاً نحيلاً قصيراً خبيثاً له ابتسامة شيطانية وحركات تشبه حركات الأطفال. كان يقترب من سن تقاعده. عنده أيضًا حركات لا إرادية. إحدى عينيه تطرف دائماً ويرفع كتفيه ويهز رأسه... كان تجسيداً لشخصية المعلم المُعذِّب. يرتدي بذلة فاتحة اللون في أشهر الصيف، وبذلة داكنة في الشتاء. وقد رأيته مرة يستخدم فرجار السبورة الكبير كأنه بندقية: كنا مُنكبّين على أحد الاختبارات فجالت عيناه في غرفة الصف ثم التقط ذلك الفرجار ووضعه على كتفه ووجهه صوبنا مع ابتسامة شيطانية على وجهه. لم أستطع تصديق عيني! هل فقد عقله؟ كنت أتكلم في درسه أيضاً؛ كنت أتكلم إلى الحد الذي جعلني مستهدفاً بالعقوبة دائماً، فمهما يكن الشخص الذي يتكلم: كناوسغارد، هكذا كان يصيح عندما كان يسمع غمغمة في مكان ما؛ يرفع كف يده بإشارة تعني أن عليَّ أن أظل واقفاً إلى جانب مقعدي طيلة الوقت المتبقي من الدرس. كان يسعدني أن أفعل هذا لأن نزعة التمرد كانت تنمو في داخلي. كنت أزداد مَيلاً إلى عدم الاهتمام بأي شيء، وإلى البدء بالهرب من الدروس، والشرب، وإلقاء الأوامر على الناس من حولي. كنت فوضوياً، وملحداً، ثم صرت معادياً للطبقة الوسطى أكثر فأكثر مع مُضيّ كل يوم. كانت تغريني فكرة حلاقة شعر رأسي كله وثقب أذنَيّ. العلوم الطبيعية!... ما فائدتها لي؟ الرياضيات!... ما فائدتها لي؟ أريد أن أعزف في فرقة موسيقية، وأن أكون حراً وأعيش مثلما أحب لا مثلما يحب لي الآخرون أن أعيش.

كنت وحدي في هذا! ما كان معي أحد في هذا! وذلك ما أبقى هذه الأفكار غير متحققة في ذلك الوقت. كانت أشياء للمستقبل، وغير متبلورة... مثل أشياء المستقبل الأخرى كلها.

كان عدم إنجاز واجباتي المدرسية وعدم الانتباه في الدروس جزءاً لا يتجزأ من هذا الموقف نفسه. لقد كنت دائماً، قبل ذلك، من بين الأفضل في كل مادة مدرسية. وكنت أستمتع دائماً بإظهار ذلك، لكني ما عدت أستمتع به الآن: الآن صار الحصول على درجات جيدة أمراً مخجلاً، لأنه يعني جلوسك في البيت لتكتب واجباتك كأنك عصا مغروسة في الوحل، كأنك شخص فاشل! لكن فيما يتعلق باللغة النرويجية كان الأمر مختلفاً، لأنني أعتبرها متصلة بالكُتّاب وبنمط الحياة البوهيمي، إضافة إلى أن

المهارة فيها لا تأتي نتيجة الاجتهاد! إنها شيء آخر، إنها إحساس، موهبة طبيعية، شخصية.

كنت أمضي وقتي في الدروس لاهياً، وأدخن في الممرات وقت الاستراحة. هكذا كان إيقاع يومي كله منذ أن تصير السماء والأرض التي تحتها سابحتين في ضياء الفجر المتزايد بطيئاً إلى أن يقرع الجرس للمرة الأخيرة في الساعة الثانية والنصف فأصبح قادراً على العودة إلى البيت، إلى غرفتي. كان ذلك اليوم هو الخامس من كانون الأول... يومٌ واحد قبل يوم ميلادي السادس عشر. وكانت أمي آتية من بيرغن. كنت توّاقاً إلى رؤيتها. أن أكون وحيداً مع أبي أمر جيد من نواحٍ كثيرة لأنه يظل بعيداً عني إلى أقصى حد ممكن: يكون في سانز عندما أكون في المدينة، والعكس بالعكس. سينتهي هذا عندما تأتي أمي. سوف نعيش كلنا هنا معاً حتى ما بعد رأس السنة. وهكذا كان حضور أمي تعويضاً تاماً عن مساوئ لقاء أبي كل يوم. كانت أمي شخصاً أستطيع التحدث معه. إنني أستطيع التحدث معها عن كل شيء. لكني ما كنت قادراً على قوْل شيء لأبي... لا شيء أكثر من الأمور العملية تماماً من قبيل «أين كنت؟» و«أين أذهب؟».

رأيت سيارته في الخارج عندما وصلت إلى الشقة. دخلت فوجدت الصالة عابقة برائحة القلي، وسمعت من المطبخ صوت قرقعة مختلطاً بصوت الراديو.

مددت رأسي عبر الباب ونظرت في المطبخ.

قلت له: «مرحباً».

قال: «مرحباً. هل أنت جائع؟».

«نعم، جائع تماماً. ماذا تطبخ؟».

«شرائح اللحم. اجلس؛ إنها جاهزة».

دخلت وجلست إلى طاولة الطعام المستديرة. كانت طاولة قديمة؛ أظنها من أيام جدته.

وضع في طبقي شريحتين من اللحم وثلاث قطع من البطاطا وكومة صغيرة من البصل المقلي. ثم جلس وملأ طبقه.

قال لي: «ماذا لديك؟ هل لديك أخبار من المدرسة؟».

هززتُ رأسي نفياً.

«ألم تتعلم شيئاً جديداً اليوم؟».
«لا».
«لا؟ بالطبع لا!».
ثم بدأنا نأكل صامتَيْن.
لم أكن أريد جرحَه، ولم أكن أريده أن يظن هذا فشلاً... أن يظن أن علاقته بابنه فاشلة. هذا ما جعلني أجلس مفكراً في شيء أقوله. لكني لم أستطع التوصل إلى شيء.
لم يكن مزاجه سيئاً. وما كان غاضباً. كان منشغل البال فقط.
سألته: «هل ذهبت لرؤية جدي وجدتي في الآونة الأخيرة؟».
نظر إليَّ وقال: «نعم، ذهبت. مررت عليهما البارحة بعد الظهر. لماذا تسألني؟».
قلت وقد أنا أحس احمراراً في خدي: «لا يوجد سبب معيّن. أتساءل فقط».
قطعت بالسكين كل ما استطعت قطْعه من اللحم. ثم وضعت العظم في فمي وبدأت أقضم ما بقي عليه. فعل أبي مثلي. وضعت العظم وشربت الماء من الكأس.
قلت له وأنا أنهض واقفاً: «شكراً لأنك أعددت هذه الوجبة».
سألني: «هل كان موعد اجتماع أهالي الطلاب في الساعة السادسة؟ ألم تقل لي هذا؟».
أجبته: «أجل».
«وهل أنت باقٍ هنا؟».
«أظن هذا».
«إذن، سأعود لأخذك بعد الاجتماع. يمكننا الذهاب بالسيارة إلى سانز. هل الوقت مناسب؟».
«نعم، بالطبع».
كنت أكتب موضوعاً عن إعلان تجاري عن أحد المشروبات الرياضية عندما عاد أبي. انفتح الباب ودخلت دفقة من أصوات المدينة. سمعت الخطوات على أرض الصالة. ثم سمعت صوته.
«كارل أوفِه! هل أنت مستعد؟ فلنذهب!».
كنت قد حزمت كل ما قد أحتاجه في حقيبتي وفي حقيبة المدرسة. كانتا على

وشك الانفجار لأنني سأظل هناك شهراً، ولأنني لا أعرف تماماً ما يمكن أن يلزمني خلال تلك المدة كلها.

كان ينظر إليَّ عندما هبطت من غرفتي. هز رأسه. لم يكن غاضباً. كان هنالك شيء آخر.

سألته من غير أن أنظر في عينيه... كان هذا شيئاً يزعجه: «كيف كان الاجتماع؟».

«كيف كان الاجتماع؟ نعم، سأقول لك كيف كان. لقد وبَّخني مدرس الرياضيات توبيخاً شديداً. هكذا كان الاجتماع. اسمه فيستبي، أليس كذلك؟».

«نعم».

«لماذا لم تخبرني بشيء؟ لم أكن أعرف شيئاً. لقد فاجأني ذلك تماماً».

سألته وأنا أرتدي ملابسي: «ماذا قال لك؟» كنت مرتاحاً تماماً لأن أبي لم يفقد أعصابه.

«يقول إنك تضع قدميك على الطاولة في أثناء الدرس، وإنك ثرثار وقح وتتكلم في الدرس. ويقول إنك لا تنجز أعمالك في المدرسة ولا في البيت. لن يعطيك درجة النجاح إذا استمر الأمر هكذا. هذا ما قاله، هل هذا صحيح؟».

قلت وأنا أقف بعد أن أنجزت ارتداء ملابسي وصرت جاهزاً للانطلاق: «نعم، أظن أن هذا صحيح».

«لقد لامني أنا، مثلما تعلم. انتقدني لأن لدي ابناً جاهلاً إلى هذا الحد».

انكمشت: «وماذا قلت له؟».

«وبّخته أيضاً. قلت إن سلوكك في المدرسة من مسؤوليته هو. ليس من مسؤوليتي. لكن ما حدث لم يكن أمراً ساراً أبداً. أنا واثق من أنك تفهم هذا».

قلت له: «نعم، أفهمه. إنني آسف!».

«وما فائدة أسفك؟ هذا آخر اجتماع أحضره في المدرسة. هذا مؤكد. هيا الآن، فلنذهب!»

مضيْنا إلى الشارع، إلى السيارة. جلس أبي في مقعده ثم مال وفتح لي قفل الباب من الداخل.

سألته: «هل يمكنك أن تفتح الصندوق أيضاً؟».

لم يجبني، لكنه فتحه. وضعتُ الحقيبتين في الصندوق ثم أغلقته بهدوء حتى لا أثير انزعاجه. جلست في المقعد الأمامي وسحبت الحزام فوق صدري ثم ثبّته.

قال أبي وهو يشغل المحرك: «كان ذلك محرجاً إلى حد كبير. لا يمكن أن أقول غير هذا». أضاءت لوحة العدادات في السيارة، وسقطت أنوار مصابيحها على السيارة التي أمامنا وعلى قسم من الأرض المنحدرة صوب النهر أيضاً... «لكن، هل هو معلم جيد، هذا الفيستبي؟».

«إنه سيئ جداً. ولديه مشكلة في ضبط التلاميذ. لا أحد يحترمه. ثم إنه فاشل في التعليم أيضاً».

قال أبي: «إنه حائز على أعلى الدرجات في الجامعة. هل تعرف هذا؟».

أجبته: «لا، لم أكن أعرف».

تراجع بالسيارة بضعة أمتار، ثم انعطف متقدِّماً بها صوب الطريق وانطلق في اتجاه المدينة. كان جهاز التدفئة في السيارة يصدر هديره المعتاد، وكانت مسامير العجلات تضرب الإسفلت فتصدر أزيزاً منتظماً مرتفعاً. كان يقود السيارة مسرعاً، كعادته. يد على المقود والأخرى مستريحة على المقعد إلى جانب عصا القيادة. ارتعشت معدتي، وسَرَت في جسدي دفقات صغيرة سريعة من السعادة لأن هذا أمر لم يحدث من قبل. لم يقف في صفي قبل الآن أبداً. ما كان من قبل ليتغاضى عن أي سلوك سيئ من جانبي. كان استلام سجل أدائي المدرسي قبل عطلتَيْ عيد الميلاد والصيف أمراً أترقبه بخوف دائماً خلال الأسابيع التي تسبقه. يكفي وجود أدنى ملاحظة في حقي لأن ينصبَّ غضبه علي. هكذا كان الأمر فيما يتعلق باجتماعات أهالي التلاميذ أيضاً. كانت أدنى ملاحظة عن كثرة كلامي أو قلة اهتمامي تستتبع اشتعال ذلك الغضب. هذا إن لم أذكر المرات القليلة التي جعلوني فيها أحمل رسالة من المدرسة إلى والديّ. كان ذلك يوم القيامة! يوم ينفجر الجحيم!

هل يعاملني بهذه الطريقة الآن لأنني صرت بالغاً تقريباً؟

هل نصير متساويين الآن؟

شعرت برغبة في النظر إليه وهو جالس خلف عجلة القيادة وأنظاره مثبتة على الطريق أمامه ونحن منطلقان، لكني لم أستطع. كان عليَّ أن أقول شيئاً عند ذلك، لكنني لم أجد شيئاً أقوله.

بعد نصف ساعة، تجاوزنا التلة الأخيرة ودخلنا الممر أمام بيتنا. ترك أبي محرك السيارة يعمل ونزل منها ليفتح باب المرآب. مضيت إلى باب البيت الأمامي ففتحته. تذكرت حقائبي فعدت إلى السيارة لحظة أطفأ أبي المحرك وانطفأت الأنوار الخلفية.

سألته: «هل يمكن أن تفتح الصندوق؟».

أومأ برأسه، ثم وضع المفتاح وأداره. ارتفع غطاء صندوق السيارة كأنه ذيل حوت... هكذا بدا لي. دخلنا البيت فأدركت على الفور أن أبي كان ينظفه. فاحت رائحة صابون طازجة، وكانت الغرف مرتبة والأرضيات لامعة. أما براز القطة الجاف على الأريكة في الأعلى فقد اختفى.

من الطبيعي أنه فعل هذا لأن أمي آتية إلى البيت. لكن، رغم وجود هذا السبب المحدد للتنظيف، ورغم أنه قام به كشيء اضطراري (كان البيت قذراً إلى حد لا يصدق، إلى حد مقزّز)، فقد كان ما رأيته مبعث راحة. لقد استعيد بعض النظام. لا أقول هذا لأنني كنت منزعجاً أو لأي شيء من هذا القبيل، بل لأنني رأيت في تلك الفوضى شيئاً مقلقاً... خصوصاً أنها لم تكن علامة وحيدة. تغير شيء ما في أبي خلال هذا الخريف. أظن أن طريقة عيشنا كانت سبباً في ذلك، أنا وهو معاً... نادراً ما كنا معاً، هذا أمر واضح. ما كان لديه أصدقاء أبداً، وما كان أحد يزوره في البيت، عدا أفراد العائلة. كانت دائرة معارفه مقتصرة على الجيران وزملاء العمل عندما كنا نعيش في ترومويا، يجب أن أضيف هذا! أما هنا، فما كان يعرف حتى الجيران. رغم هذا، وبعد أسابيع قليلة من سفر أمي إلى بيرغن للدراسة، نظم أبي لقاء مع بضعة زملاء له في البيت في سانز. كانت حفلة صغيرة؛ وقد تساءل إن كان من الأفضل أن أمضي ليلتي في البلدة. عندما أشعر بالوحدة، يمكنني دائماً أن أذهب إلى بيت جدي إن أردت. لكني بقائي وحيداً ما كان يزعجني على الإطلاق. ثم جاء أبي في الصباح حاملاً بيتزا جاهزة وكوكاكولا وبطاطس مقلية من أجلي. التهمت ذلك كله وأنا جالس أمام التلفزيون.

في الصباح التالي، ركبت الباص وذهبت إلى بيت يان فيدار حيث أمضيت بضع ساعات ثم عدت إلى بيتنا. وجدت الباب مقفلاً. فتحت المرآب لأتحقق من وجود السيارة حتى أعرف إن كان أبي قد ذهب بها أو ذهب في نزهة على الأقدام. كان المرآب خالياً. عدت إلى البيت ففتحت الباب ودخلت. وجدت على طاولة غرفة المعيشة بضع زجاجات نبيذ فارغة. كانت أطباق السجائر مليئة. لكن الوضع لم يبد لي سيئاً

جداً بالنظر إلى أن أحداً لم ينظف شيئاً بعد الحفلة. قلت في نفسي إنها كانت حفلة صغيرة. عادة ما نضع جهاز الستيريو في الحظيرة، لكني وجدته الآن على طاولة قريباً من مشع الحرارة. ركعت أمام تلك الطاولة لأنظر إلى مجموعة التسجيلات المحدودة التي اصطف بعضها مستنداً إلى ساق أحد الكراسي وتناثر بعضها الآخر على الأرض. إنها التسجيلات التي يستمع إليها أبي منذ زمن بعيد: بينك فلويد، وجو داسان، وآريا سايونما، وجوني كاش، وإلفيس برسلي، وباخ، وفيفالدي. لا بد أنه استمع إلى هذين الأخيرين قبل بدء الحفلة، أو لعله استمع إليهما هذا الصباح. لكن بقية التسجيلات لم تكن بدورها أشياء مناسبة تماماً لإقامة حفلة. نهضت ومضيت إلى المطبخ حيث وجدت في المجلى بضعة أطباق وكؤوس غير مغسولة. فتحت البراد الذي كان خالياً إلّا من زجاجتَيْ نبيذ أبيض وعدد من زجاجات البيرة. صعدت السلم إلى الطابق الأول. كان باب غرفة نوم أبي مفتوحاً. دخلت لألقي نظرة. كان السرير الذي في غرفة أمي قد نقل إلى هذه الغرفة؛ رأيته في وسطها، إلى جانب سرير أبي. لقد تأخروا في السهرة إذاً. كانوا يشربون أيضاً. وبما أن البيت بعيد، فإن من شأن أجرة التاكسي إلى المدينة أو إلى فينيسلا حيث يعمل أبي أن تكون مرتفعة كثيراً. وهذا ما جعل أحداً من الزوار ينام في بيتنا. وجدت غرفتي على حالها. أخذت ما كنت في حاجة إليه ثم عدت إلى المدينة رغم أنني كنت أعتزم قضاء الليلة في البيت. هنالك شيء غير مألوف خيَّم على كل شيء في بيتنا.

حدث مرة أخرى أن ذهبت إلى البيت من غير سابق إنذار. كان الوقت مساء. وكنت شديد التعب بعد تدريبات كرة القدم ففضلت عدم الذهاب إلى المدينة. أوصلني شخص معنا في الفريق اسمه توم. وفي ضوء نافذة المطبخ رأيت أبي جالساً مسنداً رأسه إلى إحدى كفيه وأمامه زجاجة من النبيذ. هذا أمر جديد أيضاً لأنه لم يسكر من قبل... لم أره يسكر من قبل! ... وبالتأكيد، لم يكن ليشرب وحيداً أبداً. رأيت هذا الآن، وما كنت أريد أن أعرف شيئاً. لكني لا أستطيع العودة؛ وهكذا رحت أضرب حذائي بالدرجات المفضية إلى باب البيت حتى أنفض الثلج عنه. فعلت ذلك بصوت مرتفع، وفي مكان مرئي له، ثم فتحت الباب وصفقته بقوة من خلفي. وحتى لا يكون لديه أي شك في مكان وجوديْ، فتحت حنفيتي الحمام معاً وجلست على مقعد المرحاض وانتظرت بضع دقائق. عندما ذهبت إلى المطبخ لم أجد فيه أحداً. كانت الكأس عند

المجلى، فارغة. وكانت الزجاجة في الخزانة التي تحت المجلى، فارغة أيضاً. أما أبي فكان في الغرفة التي تحت سقيفة القش. كأن هذا ليس أمراً غامضاً بما فيه الكفاية... رأيته أيضاً ذات مرة يقود سيارته ماراً أمام المتجر في سولسليتا في وقت مبكر بعد الظهر. كنت قد خرجت من المدرسة متخطياً الدروس الثلاثة الأخيرة وذهبت إلى بيت يان فيدار قبل فترة التدريب المسائية في الصالة الرياضية في كجيفيك. كنت جالساً على المقعد الخشبي أمام ذلك المتجر، وكنت أدخن، ثم رأيت أبي في سيارته الأسكونا ذات اللون الأخضر الدخاني. لا يمكن أن أخطئ هذه السيارة. رميت السيجارة لكني لم أر سبباً للاختباء. حدقت في السيارة عند مرورها، بل رفعت يدي ولوّحت بها أيضاً. لم يرني. كان يتحدث مع شخص ما جالس إلى جانبه. ذكرت هذا له عندما رأيته في اليوم التالي. فقال لي إنه كان مع أحد زملائه وإنهما كانا يتحدثان عن أحد المشاريع ثم أمضيا بضع ساعات في بيتنا بعد المدرسة.

صار احتكاكه مع زملائه كبيراً خلال هذه الفترة. ذهب معهم في واحدة من عطلات نهاية الأسبوع لحضور ندوة في هوفدن، وصار يذهب إلى الحفلات أكثر مما أستطيع تذكّره في أي وقت مضى. لاشك في أن ضجره هو السبب، أو لعله لا يحب أن يكون وحيداً إلى هذا الحد. لكني كنت مسروراً فقد صرت أراه بعين مختلفة في ذلك الوقت. ما عادت عين طفل، بل عين شخص يقترب من سن النضج. ومن تلك الزاوية، كنت أفضّل أن أراه يخالط الأصدقاء والزملاء مثلما يفعل بقية الناس. لكني لم أحب ذلك التغيير، في نفس الوقت، لأنه جعل توقّع ما يفعله أبي أمراً أكثر صعوبة.

أسهمتْ في تكوين نظرتي الجديدة إليه حقيقة أنه دافع عني في اجتماع المدرسة. والواقع أن هذه النقطة يمكن أن تكون أهم العوامل في تغير نظرتي إليه.

جمعت الملابس الموجودة في الغرفة، واستبدلت التسجيلات التي كانت معي، وضعتها واحداً فواحداً في رفها على طاولة المكتب، ثم صففت كتبي المدرسية معاً. بني هذا البيت أواسط القرن التاسع عشر. كانت أرضياته تصدر صريراً، وكانت جدرانه لا تكتم الأصوات. وهكذا لم أعرف فقط أن أبي كان في غرفة المعيشة في الأسفل، بل عرفت أنه جالس في الأريكة أيضاً. كنت قد قررت إنهاء رواية دراكولا الآن، لكني لم أشعر بأنني قادر على فعل ذلك قبل اتضاح الوضع بيننا. أي قبل أن يعرف ما كنت أعتزم فعله وقبل أن أعرف ما كان يعتزم فعله. ثم إني ما كنت قادراً على النزول إليه والقول:

«أبي، إنني في الأعلى، أقرأ». سوف يسألني: «لماذا تخبرني بهذا؟» أو أنه سيطرح هذا السؤال في ذهنه على الأقل. لكن لا بد من تصحيح حالة عدم التوازن هذه! نزلت، وقمت بجولة في المطبخ، ربما كنت أريد أن آكل شيئاً قبل أن أخطو الخطوات الأخيرة وأدخل غرفة المعيشة حيث وجدته جالساً يحمل إحدى مجلاتي الفكاهية القديمة في يده.

سألته: «هل ستأكل هذا المساء؟».

رفع رأسه ناظراً إليَّ.

قال: «كلْ ما تريده بنفسك».

قلت: «لا بأس. سوف أكون في غرفتي بعد ذلك!».

لم يجبني بل واصل قراءة «العميل إكس 9» في ضوء المصباح إلى جانب الأريكة. أخذت قطعة كبيرة من النقانق وأكلتها وأنا جالس إلى طاولتي. لعله لم يشتر لي هدية عيد ميلادي، هذا ما خطر في بالي. سوف تحضر لي أمي معها هدية من بيرغن. لكن، أليس عليه أن يطلب الحلوى؟ هل فكر في هذا؟

وجدت أمي في البيت عندما عدت من المدرسة في اليوم التالي. أتى بها أبي من المطار. وكانا جالسَيْن إلى طاولة المطبخ. كانت في الفرن صينية من اللحم المشوي، فأكلنا؛ وكانت على الطاولة شموع. تلقيت شيكاً بخمسمائة كرون وقميصاً اشترته أمي من بيرغن. لم يطاوعني قلبي على القول إنني لن ألبسه أبداً... لقد ذهبت إلى عدد من المتاجر في بيرغن باحثة عن شيء من أجلي، ثم وجدت هذا القميص الذي رأته ممتازاً وظنت أنني سأحبه.

لبست القميص، ثم أكلنا الحلوى وشربنا القهوة في غرفة الجلوس. كانت أمي سعيدة وقالت عدة مرات إنها مسرورة بعودتها إلى البيت. اتصل أخي إنغفِه ليتمنى لي عاماً سعيداً. قال إنه قد لا يتمكن من المجيء إلى البيت قبل ليلة عيد الميلاد. سأتلقى هديتي منه عند ذلك. خرجت من أجل تدريب كرة القدم؛ وعندما عدت في التاسعة تقريباً، كان أبي وأمي في الغرفة التي تحت الحظيرة.

كنت أحب أن أتحدث مع أمي، وحدنا؛ لكن ذلك لم يبدُ لي أمراً ممكناً الآن. وهكذا، مضيت إلى فراشي بعد شيء من الانتظار. كان لَديّ اختبار مدرسي في اليوم التالي. إنهما أسبوعان مليئان بالاختبارات. وكنت أخرج باكراً بعد كل اختبار فأتجول

بين محلات التسجيلات أو المقاهي في المدينة، أتجول مع باسين أحياناً، وفي أحيان أخرى مع بعض الفتيات في صفّنا إذا حدث ذلك مصادفة بحيث لا يمكنهن الظن بأنني أفرض نفسي عليهن فرضاً. لكن الوضع مع باسين كان جيداً، وقد بدأنا نتسكع معاً. كنت في بيته ذات مساء ولم نفعل شيئاً غير الاستماع إلى بعض الأغاني في غرفته، لكني كنت في غاية السعادة لأنني وجدت صديقاً. ليس ولداً من أولاد الريف، ولا واحداً من محبي الموسيقى الصاخبة كثيراً، بل شخص يحب «توك توك» و«يو تو» و«ووتر بويز» و«توكينغ هيدز». كان باسين (اسمه الحقيقي ريد) أسمر اللون وسيماً، وكان شديد الجاذبية للفتيات، رغم أن هذا لم يجعله يفقد عقله لأنه لم يكن واحداً ممن يحبون التظاهر، لم يكن مغروراً، ولم يحاول أبداً أن يحتل المكانة التي يستحقها فعلاً. لكنه ما كان متواضعاً أيضاً... كان لديه جانب انطوائي يحد من انطلاقه. وما كان يبوح بكل شيء أبداً. لست أدري إن كان لا يريد البوح، أو لا يستطيع! غالباً ما يكون الأمران، بالطبع، وجهان لعملة واحدة. أما بالنسبة إلي، فقد كانت السمة الأهم هي أن لديه آراؤه الخاصة في الأشياء. أما أنا فكنت ميالاً إلى التفكير وفق ما هو مألوف... في السياسة مثلاً، حيث يفترض أن يقود موقف من شيء ما إلى موقف من شيء آخر، أو في الذوق والميول الشخصية حيث يعني الإعجاب بفرقة موسيقية إعجاباً بالفرق التي تشبهها، أو في العلاقات الإنسانية حيث لم أتمكن أبداً من تحرير نفسي من المواقف السائدة فيما يتعلق بالآخرين. لقد كان مفكراً مستقلاً يستخدم أحكامه الخاصة. إلّا أنه لم يكن يتشدق بهذا أيضاً. على العكس تماماً: عليك أن تعرفه فترة غير قليلة من الزمن قبل أن تصبح استقلاليته واضحة لك. إذن، لم يكن يستخدم هذه المزية... كانت طبعَه فحسب. وإن كنت فخوراً بقدرتي على اعتبار باسين صديقاً فإن هذا ما كان فقط لأن لديه خصالاً جيدة كثيرة، أو بدافع من الصداقة نفسها، بل أيضاً لأن شعبيته الواسعة يمكن أن يكون لها أثر حسن، بطريقة أو بأخرى. لم أكن أدرك هذا، لكني أراه واضحاً تماماً عندما أفكر في الأمر الآن. إن كنت في الخارج فعليك أن تجد شخصاً يساعدك في الدخول، على الأقل عندما يكون عمرك ستة عشر عاماً. في هذه الحالة، ما كان الاستبعاد أمراً مجازياً فحسب، بل كان حقيقياً، حرفياً. كنت محاطاً بعدة مئات من الأولاد والبنات في سني، لكني لم أستطع دخول الوسط الذي ينتمون إليه. صبيحة كل يوم اثنين كان يقلقني السؤال الذي سيطرح عليَّ: «ماذا فعلت في عطلة نهاية الأسبوع؟»

كان يمكن القول مرة «بقيت في البيت وشاهدت التلفزيون»، أو «استمعت إلى بعض الأغاني في بيت واحد من أصدقائي». تستطيع قول هذا مرة واحدة أيضاً، وأما بعد ذلك فإن عليك أن تأتي بشيء أفضل إذا أردت ألا تبقى وحيداً في البرد، خارج المجموعة. يحدث هذا مع البعض في «اليوم الأول»، ثم يظل الوضع هكذا حتى نهاية المدرسة. لم أرد أن ينتهي بي الأمر على هذا النحو، بأي ثمن؛ أردت أن أكون واحداً من أولئك الموجودين في مركز الأشياء، وأردت أن أكون مدعوّاً إلى حفلاتهم وأن أخرج معهم في المدينة... أن أعيش حياتهم.

كانت ليلة رأس السنة هي الامتحان الكبير، أكبر الحفلات في السنة كلها. لم يكن الناس يتحدثون عن شيء آخر خلال أسابيع. سوف يكون باسين في جوستفيك مع شخص يعرفه، ولا مجال لأن أتعلق بذيل قميصه هذه المرة. وهكذا بدأتْ عطلة عيد الميلاد قبل أن يدعوني أحد إلى أي مكان. جلست بعد عيد الميلاد مع يان ڤيدار الذي يعيش في سولسليتا (على مسافة نحو أربعة كيلومترات من بيتنا، أسفل التل). كان قد بدأ التدريب على صناعة الحلويات في المدرسة الفنية. جلسنا نناقش الاحتمالات المفتوحة أمامنا. كنا نريد الذهاب إلى حفلة، ونريد أن نسكر أيضاً! فيما يتعلق بالسكر، ما كانت في الأمر مشكلة: إنني ألعب كرة القدم مع نادي الناشئين. ولدينا هناك حارس المرمى توم الذي يستطيع تدبير كل شيء. لن يمانع في شراء البيرة من أجلنا. أما الحفلة... أوه... هنالك عدد ممن تركوا المدرسة في الصف التاسع، أشخاص شبه مجرمين يبدو أنهم يرتبون لإقامة حفلة في بيت قريب. لكن الذهاب إليهم ما كان يثير اهتمامي أبداً، أفضل أن ألازم البيت في هذه الحالة. هناك مجموعة أخرى نعرفها جيداً، لكننا لم نكن جزءاً منهم. إنهم موجودون في هامريساندن ومنهم أشخاص يذهبون إلى مدرستنا أو يلعبون كرة القدم معنا، لكننا لسنا مدعوين رغم أننا نستطيع، على الأرجح، الذهاب من غير دعوة... لكني لم أكن أقدرهم كثيراً. إنهم يعيشون في تفيت، ويذهبون إلى المدرسة الفنية، أو لديهم أعمال؛ كما أن من يملكون سيارات منهم يضعون الفراء على مقاعدها ويعلقون في مراياها ملطفات الرائحة باهظة الثمن. لا خيارات أمامنا! يجب أن تكون مدعواً إلى حفلة من حفلات رأس السنة. لكن الناس يخرجون عند منتصف الليل ويتجمعون في الساحة وعند مفترقات الطرق ليطلقوا الألعاب النارية ويستقبلوا العام الجديد وسط الهتاف والصيحات. لا حاجة إلى دعوة حتى يشاركهم

المرء هذا. سيذهب كثير من زملائنا في المدرسة إلى منطقة سوم، أعرف هذا، فلماذا لا نذهب إلى ساحة هناك؟ في تلك اللحظة، تذكر يان فيدار أن عازف الدرامز في مجموعتنا (الشخص الذي قبلناه لأننا لم نجد غيره، وهو فتى في الصف الثامن من هانيس) قال إنه سيذهب إلى سوم في ليلة رأس السنة.

صارت الترتيبات جاهزة بعد اتصالين هاتفيين. سيشتري توم البيرة من أجلنا، وسوف نكون مع فتيان من الصفين الثامن والتاسع فنمضي الوقت في قبو بيتهم حتى منتصف الليل ثم نذهب إلى تقاطع الطرق حيث يحتشد الجميع؛ وسوف أجد أشخاصاً أعرفهم من المدرسة وأتجول معهم بقية السهرة. كانت خطة جيدة. عندما عدت إلى البيت بعد الظهر قلت لأمي وأبي (بعفوية مدروسة) إنني مدعو إلى سهرة رأس السنة، وسوف تكون هنالك حفلة في سوم مع بعض زملائي في الصف، فهل لديكم مانع؟ كان لدينا ضيوف في تلك الليلة: والدا أبي، وكذلك غونار شقيقه مع أسرته... لكن أبي وأمي لم يعترضا على ذهابي.

قالت أمي: «هذا شيء جميل!».

قال أبي: «لا بأس. لكن عليك أن تعود إلى البيت في الساعة الواحدة».

قلت: «لكنها ليلة رأس السنة! ألا أستطيع العودة في الساعة الثانية؟».

«لا بأس. لكن عليك أن تعود في الثانية لا في الثانية والنصف، هل هذا مفهوم؟».

وهكذا ركبت دراجتي صبيحة الحادي والثلاثين وذهبت إلى المتجر في راينسليتا حيث كان توم في انتظاري. أعطيته المال فأعطاني كيسين في كل منهما عشر زجاجات. خبأ يان فيدار الكيسين في حديقة بيته؛ أما أنا فركبت دراجتي وعدت إلى البيت. كان أبي وأمي في حالة نشاط... ينظفان ويرتبان استعداداً للحفلة. اشتدت الريح في الخارج. وقفت في شباك غرفتي أنظر إلى زوابع الثلج تمر أمامي وإلى السماء الرمادية التي بدت كأنها نزلت حتى ذلك الشارع الأسود عبر الغابة. ثم وضعت أغنية وأمسكت كتابي ورحت أقرأ مستلقياً في سريري. قرعت أمي باب غرفتي بعد قليل.

قالت لي: «يان فيدار على الهاتف».

كان الهاتف في الأسفل، في الغرفة التي وُضعت فيها خزانة الملابس. نزلت، وأغلقت الباب، ثم رفعت السماعة.

«مرحباً!».

جاءني صوت يان فيدار: «كارثة! الملعون ليف ريدار...».

كان ليف ريدار شقيقه. إنه في العشرينات من عمره ويقود سيارة أوبل أسكونا بدّل محركها فوضع لها محركاً أكثر قوة. وهو يعمل في مصنع الباركيه في بوين. ما كانت حياته متجهة صوب الجنوب الغربي، صوب المدينة وصوب كريستيانساند، مثلي ومثل معظم الناس، بل كانت متجهة إلى الشمال الشرقي، إلى بيركيلاند وليلزلاند. لم أكن أعرفه بسبب فارق العمر بيننا، ولم أكن أعرف طباعه وما يفعله على وجه التحديد. كان له شارب، وكان يضع معظم الوقت نظارة تشبه نظارات الطيارين، لكنه لم يكن شخصاً يحب التظاهر كثيراً لأن في ثيابه وسلوكه شيئاً يشير إلى عكس ذلك.

سألته: «ماذا فعل؟».

«لقد وجد كيسَيْ زجاجات البيرة في الحديقة. ثم لم يعد يستطيع أن يلزم الصمت، هل تفهم؟ ابن الحرام! إنه قذر منافق. لقد وبّخني كثيراً، تصور... هو... من بين الناس جميعاً! قال إنني في السادسة عشر، وكل تلك التفاهات، ثم حاول أن يجبرني على إخباره باسم الشخص الذي اشترى لنا البيرة، رفضت ذلك طبعاً. لكن هذا زاد في غضبه. قال إنه سيخبر أبي إذا لم أقل له اسم ذلك الشخص. إنه منافق وغد! إن... إنه حقير! أخبرته عن الاسم آخر الأمر. هل تعرف ما الذي فعله بعد ذلك؟ هل تعرف ما الذي فعله ذلك الحقير؟».

«لا».

بين هبات الريح، كان الثلج يظهر مثل حجاب فوق سقف الحظيرة. كان الضوء يأتي ناعماً من نوافذ الطابق السفلي... كأنه يتسلل خلسة في ذلك الغسق المقترب من الظلمة. لمحت حركة في الداخل. قلت إنه لا بد أن يكون أبي. كان أبي حقاً لأن وجهه اتضح خلف إطار النافذة بعد ثانية واحدة. كان ينظر صوبي مباشرة. خفضت عيني وأدرت رأسي قليلاً.

«دفعني إلى السيارة ثم قادها إلى بيت توم، مع الكيسين».

«هل تمزح؟».

«كم هو حقير! كان مستمتعاً بهذا! بدا أنه مسرور جداً بما يفعله. صار صاحب أخلاق عالية، هكذا، فجأة، الحقير. هو...! أغضبني هذا كثيراً، أغضبني كثيراً».

«وماذا فعل؟».

استرقت نظرة إلى النافذة من جديد. لقد اختفى وجه أبي.

«ماذا حدث! ماذا تظن؟ لقد وبّخ توم كثيراً، ثم قال لي أن أعطيه كيسَيْ البيرة. هذا ما فعلته. ثم كان على توم أن يعيد النقود. تصرّف معي كأنني سارق... كأنه لم يفعل الشيء نفسه عندما كان في مثل عمري. كم هو حقير! كان مستمتعاً بالأمر كثيراً، كان مستمتعاً... كان في غاية السعادة. راقته تلك الإهانة، وراقه أن يقود السيارة إلى بيت توم، وأن يوبخه هو أيضاً».

«وماذا نفعل الآن؟ هل نذهب من غير بيرة؟ لا نستطيع هذا».

«صحيح... لا نستطيع. لكني غمزت توم قبل أن نغادر. لقد فهم المقصود. وهكذا اتصلت به عندما عدت إلى البيت وقلت له إنني آسف لما حدث. لا تزال البيرة لديه. قلت له أن يأتي بها إلى البيت. سوف يأتي بالسيارة ويأخذني في طريقه حتى أعيد له النقود».

«هل ستأتيان إلى هنا؟».

«نعم، سوف يصل إلى بيتي بعد عشر دقائق. هذا يعني أننا سنكون عندك بعد ربع ساعة».

«عليّ أن أفكر».

في تلك اللحظة انتبهت أن القطة مستلقية في كرسي إلى جانب الهاتف. كانت تنظر إليَّ، ثم بدأت تلعق ساقها. انبعث صوت المكنسة الكهربائية من غرفة المعيشة. أدارت القطة رأسها في اتجاه الصوت. ثم استرخت بعد ثانية واحدة. اقتربت منها وداعبت صدرها.

«لا تستطيعون الوصول حتى البيت. لن يكون هذا جيداً. لكننا نستطيع ترك الكيسين إلى جانب الطريق في مكان ما. لن يعثر عليهما أحد هنا».

«ربما في أسفل التل؟».

«تحت البيت؟».

«نعم».

«أراك بعد ربع ساعة أسفل التل تحت البيت».

«صحيح».

«لا بأس. تذكر أن تخبر توم بأن عليه ألّا يدخل الممر المفضي إلى بيتنا. عليه ألّا

ينعطف عند صناديق البريد أيضاً. إذا تابع الصعود، فسيجد فسحة صغيرة إلى جانب الطريق. هل يستطيع التوقف هناك؟».

«هذا جيد. أراك بعد قليل».

وضعت سماعة الهاتف ومضيت إلى غرفة المعيشة، إلى أمي. أوقفتْ المكنسة الكهربائية عندما رأتني.

قلت لها: «سأخرج لأرى بير. أريد فقط أن أتمنى له سنة سعيدة».

قالت أمي: «ممتاز! أبلغ والديه تحياتنا إذا رأيتهما».

كان بير أصغر مني بسنة واحدة. وكان يعيش في البيت المجاور على مسافة مئتي متر أسفل التل. إنه الشخص الذي اعتدت قضاء معظم الوقت معه طيلة السنين التي عشناها هنا. كنا نلعب كرة القدم كلما استطعنا، بعد المدرسة وأيام نهاية الأسبوع، وفي العطلات أيضاً. وغالباً ما كنا نبحث عن العدد الكافي من اللاعبين من أجل إقامة مباراة لائقة؛ أما إذا لم نعثر عليهم فإننا نلعب اثنين مقابل اثنين، عدة ساعات. يقف في المرمى وأسدد الكرات في اتجاهه، ثم أقف في المرمى ويسدد الكرات بدوره، أو أمرر له فيمررها لي... كنا نلعب بطريقة «اللاعبَين» مثلما كنا ندعوها. كنا نفعل هذا من يوم لآخر، حتى بعد ذهابي إلى المدرسة الثانوية. وإذا لم نلعب كرة القدم، فإننا نذهب إلى السباحة إما تحت الشلال في الجزء العميق من البركة حيث نقفز من فوق إحدى الصخور، أو في الأسفل حيث يكون مجرى النهر سريعاً فيحملنا التيار مسافة بعيدة. وعندما يكون الطقس سيئاً إلى درجة تمنعنا من أي نشاط في الخارج فإننا نشاهد فيلماً في قبو بيته أو نمضي الوقت معاً متحدثين في المرآب. كنت أحب أن أكون هناك لأن أسرته دافئة كريمة. ومع أن والده ما كان يحبني كثيراً، فإنني كنت أشعر بالترحاب لديهم. لكن، ورغم حقيقة أن بير كان الشخص الذي أمضي معه معظم وقتي، فإنني لم أكن أعتبره صديقاً ولم أكن أذكر اسمه أمام الآخرين لأنه أصغر مني (ليس هذا بالأمر الحسن)، ولأنه ولد ريفي أيضاً. ما كان مهتماً بالموسيقى، وما كان يعرف عنها شيئاً. ما كان مهتماً بالفتيات ولا بالشرب. كان يرضيه تماماً أن يجلس في البيت مع أسرته طيلة عطلة نهاية الأسبوع. ولم يكن يزعجه الذهاب إلى المدرسة في جزمة مطاطية، ولا التجوّل هنا وهناك في كنزة من الصوف وبنطلون من الجينز صار قصيراً عليه. كان يرتدي أيضاً قميصاً خفيفاً عليه شعار حديقة الحيوانات في كريستيانساند. عندما انتقلنا

إلى هذا البيت، لم يكن قد ذهب إلى كريستيانساند بمفرده أبداً. كان لا يكاد يقرأ الكتب أيضاً لأنه يحب المجلات الهزلية التي كنت أقرأها بدوري لكن إلى جانب قائمة لا نهاية لها من كتب ماكلين وباغلي وسميث ولوكاريه وفوليت. كنت ألتهم هذه الكتب التهاماً؛ ونجحت آخر الأمر في جعله مهتماً بها أيضاً. كنا نذهب معاً إلى المكتبة بعض أيام السبت، وإلى صالة الألعاب في نادي ستارت يوم الأحد مرة كل أسبوعين. وكنا نذهب إلى تدريبات فريق كرة القدم مرتين في الأسبوع ونخوض مباريات أسبوعية في الصيف. وبالإضافة إلى ذلك، كنا نمشي معاً إلى باص المدرسة كل يوم، وكنا ننزل من الباص عندما نعود ونمشي معاً. لكننا لم نكن نتشارك المقعد نفسه في الباص: كلما اقتربنا من المدرسة وحياة المدرسة، كلما نقصت صداقتنا، إلى أن ينعدم الاحتكاك بيننا عندما نصل إلى باحة المدرسة. والغريب حقاً أنه ما كان معترضاً على هذا. كان شخصاً سعيداً دائماً، منفتحاً دائماً، ولديه إحساس جيد بالنكتة، كبقية أفراد أسرته... كان شخصاً دافئاً. زرت منزله مرتين في عطلة عيد الميلاد. شاهدنا بعض الأفلام وتزلجنا على المنحدرات خلف بيتنا. لم يخطر في بالي أن أدعوه إلى مشاركتنا ليلة رأس السنة. لم تكن تلك الفكرة موجودة أبداً، حتى بصفتها مجرد احتمال. لم تكن ليان فيدار أي علاقة مع بير. يعرف كل منهما الآخر، بالطبع، لأن الجميع يعرف الجميع هنا؛ لكنه لم يكن وحده معه أبداً وما كان يجد سبباً لذلك أيضاً. عندما انتقلت إلى هذا المكان، كان يان فيدار يمضي أوقاتاً طويلة مع كجيتيل، صبي من عمرنا يعيش في كجيفيل. كانا صديقين حميمين، وكان كل منهما يزور الآخر كثيراً. كان والد كجيتيل في الجيش؛ ومما سمعته، فهمت أن أسرتهما تنتقل كثيراً من مكان لآخر. عندما صار يان فيدار يخرج معي (كان اهتمامنا المشترك بالموسيقى السبب الأقوى في ذلك)، حاول كجيتيل أن يستعيده فظل يتصل به ويدعوه، وكان يروي نكاتاً لا يفهمها غيرهما عندما نكون معاً في المدرسة. وعندما لم تنجح هذه الأساليب صار يعتمد طرقاً أخرى ويدعونا معاً. كنا نقود دراجاتنا حول المطار، ونجلس في مقهى المطار، ونذهب إلى هامريساندن لنزور واحدة من الفتيات هناك، ريتا. كان كل من كجيتيل ويان فيدار مهتماً بهذه الفتاة. وذات مرة كان لدى كجيتيل قطعة كبيرة من الشوكولاتة أعطى نصفها ليان فيدار عندما كنا في الجبل، ولم يعطني شيئاً منها. لكنه فشل في هذا أيضاً لأن يان فيدار أعطاني نصف قطعته. بعد ذلك، كف كجيتيل عن المحاولة وصرف اهتمامه في اتجاه

آخر. لكن، بما أننا نذهب إلى المدرسة نفسها، فإنه لم يستطع العثور على أصدقاء مقربين مثلما كان يان فيدار. كان كجيتيل محط إعجاب الجميع، الفتيات خاصة، لكن أياً منهن لم ترد أن تكون معه. كانت ريتا مَيّالة إليه، وكانت عموماً بنتاً وقحة قاسية لا توقِّر أحداً. كانا يضحكان معاً دائماً، ولديهما طريقتهما الخاصة في الكلام، لكنهما لم يتجاوزا مرحلة الصداقة أبداً. كانت ريتا توفر أشد ما لديها من السخرية من أجله؛ أما أنا فكنت يقظاً دائماً عندما تكون قريبة مني لأنني لا أعرف متى يمكن أن تهاجمني، أو كيف يمكن أن يحدث هذا. كانت فتاة قصيرة رشيقة نحيلة الوجه صغيرة الفم، لكن تقاطيعها متناسقة وعينيها متألقتان دائماً بكثافة نادرة (غالباً ما تنضح هاتان العينان ازدراءً لكل شيء)؛ كانت عيناها لامعتين أيضاً. كانت ريتا فتاةً جذابة، ورغم ذلك ما كان أحداً يعتبرها جذابة، لأنها تستطيع أن تكون مزعجة للآخرين إلى درجة تستبعد أي جاذبية.

اتصلتْ بي ذات أمسية.

قالت: «مرحباً كارل أوفِه. أنا ريتا».

كررت مستفهماً: «ريتا؟».

«نعم يا أبله. ريتا لوليتا».

قلت: «نعم».

قالت: «أريد أن أطرح عليك سؤالاً».

«نعم؟».

«هل تحب أن تخرج في موعد معي؟».

«عفواً!».

«سأقول لك ذلك مرة أخرى: هل تحب أن تخرج في موعد معي؟ إنه سؤال بسيط. عليك أن تقول نعم أو لا».

قلت: «لست أدري إذا...».

«أوه، ماذا بك؟ إذا كنت لا تريد، فعليك أن تقول ذلك».

قلت: «أظن أنني لا أريد...».

قالت: «لا بأس! أراك في المدرسة غداً. إلى اللقاء».

انتهى الاتصال بعد ذلك. وفي اليوم التالي، تصرفتُ كما لو أن شيئاً لم يحدث،

وتصرفت هي أيضاً كأن شيئاً لم يحدث؛ لكني أظنها صارت أكثر حرصاً على اغتنام أي فرصة لمهاجمتي. لم تذكر الأمر أبداً، ولم أذكره من ناحيتي، لم أذكره حتى أمام يان فيدار وكجيتيل، لأنني لم أحب أن أبدو متفوّقاً عليهما.

بعد أن ودعت أمي، وبعد أن شغّلتُ المكنسة الكهربائية من جديد، ارتديت ملابس دافئة وخرجت فسرتُ خافضاً رأسي في مواجهة الريح. كان أبي قد فتح أحد أبواب المرآب. رأيته يجر آلة إزالة الثلج إلى الخارج. كان الحصى داخل المرآب جافاً نظيفاً من الثلج، وهذا ما كان يخلق عندي نوعاً من الانزعاج البسيط، كشأنه دائماً؛ وذلك لأن الحصى ينتمي إلى الخارج، ولأن كل ما في الخارج يجب أن يكون مغموراً بالثلج. كان هذا نوعاً من عدم التوازن بين الداخل والخارج. كنت أفكر في هذا عندما أرى الباب مفتوحاً، لكني لا أفكر فيه بعد إغلاق الباب، لا يخطر في بالي أبداً. أما عندما أراه...

صحت: «إنني ذاهب لرؤية بير».

التفت أبي وأومأ برأسه. كان يخوض معركة صعبة مع آلة إزالة الثلج. ندمتُ بعض الشيء على اقتراحي اللقاء على التل لأن المكان يمكن أن يكون أقرب مما يجب. إن لدى أبي حاسة سادسة عندما يكون الأمر متعلقاً بأي انحراف عما هو مألوف. لكنه، من ناحية أخرى، كفَّ عن الاهتمام بي منذ فترة غير قليلة. عندما بلغت صندوق البريد سمعت صوت تشغيل آلة إزالة الثلج. التفتّ لأرى إن كان يستطيع رؤيتي. إنه لا يراني! تابعت سيري على الطريق المنحدر والتزمت الجانب البعيد من الطريق حتى أقلل من احتمال رؤيتي. وفي الأسفل، توقفت ورحت أحدق في النهر خلال انتظاري. مرت ثلاث سيارات متتابعة في الناحية الأخرى من النهر. كانت أنوار مصابيحها الأمامية كأنها طعنات صفراء صغيرة في اللون الرمادي المخيم على كل شيء. كان الثلج على البيوت قد اكتسب لوناً كلون السماء التي صار ضياؤها حبيس الظلمة المتزايدة. كان الماء في مجرى النهر المتجمد لامعاً أسود. عند ذلك سمعتُ صوت سيارة تخفض من سرعتها على مسافة بضع مئات من الأمتار. كان صوت المحرك مقعقعاً... لا بد أنها سيارة قديمة. إنها سيارة توم، على الأرجح. نظرتُ إلى الطريق ورفعت يدي عندما ظهرت السيارة عند المنعطف. انخفضت سرعة السيارة، ثم توقفت إلى جانبي. أنزل توم زجاج النافذة.

قال: «مرحباً يا كارل أوفِه».

قلت: «مرحباً».

ابتسم توم.

سألته: «هل تلقيتَ توبيخاً شديداً؟».

قال يان فيدار الجالس إلى جانبه: «كم هو حقير أحمق!».

قال توم: «هذه ليست مشكلة. إذن، فأنتم ذاهبون إلى الاحتفال الليلة؟».

«نعم. وماذا عنك؟».

«قد أتجوّل هنا وهناك».

«وهل كل شيء على ما يرام؟»

«نعم، كل شيء جيد».

نظر إليَّ بعينيه الطيبتين ثم ابتسم: «البيرة في صندوق السيارة».

«هل هو مفتوح؟».

«نعم».

فتحت الصندوق وأخذت الكيسين المخططين بالأحمر والأبيض اللذين كانا بين مجموعة أدوات متناثرة وعدد من صناديق الأدوات وتلك الحبال المطاطية ذات الخطاطيف التي يثبتون بها الأشياء فوق سقف السيارة.

قلت: «أخذتهما. شكراً يا توم. لن ننسى جميلك».

ابتسم توم.

قلت ليان فيدار: «نلتقي بعد قليل».

هز رأسه، ثم رفع توم زجاج النافذة وحيّاني مبتهجاً بإصبعين رفعهما إلى صدغه كما يفعل دائماً، ثم أمسك عصا القيادة وسار في الاتجاه الصاعد. خطوت فوق الحافة الثلجية ومضيت بين الأشجار متابعاً الجدول الذي غطاه الثلج. لعلي سرت عشرين متراً صوب الأعلى قبل أن أضع الزجاجات تحت جذع شجرة بتَولا يسهل تمييزه. سمعت صوت السيارة تمر بي نازلة.

وقفت عند حافة الغابة وانتظرت بضع دقائق حتى لا تكون فترة غيابي قصيرة إلى حد مريب. ثم سرت على الطريق الصاعدة إلى حيث كان أبي منشغلاً بإزالة الثلج لتوسعة الممر المفضي إلى بيتنا. ما كان يضع قفازات، ولا قبّعة ويسير خلف الآلة

مرتدياً معطفه القديم المصنوع من جلد الخروف مع وشاح سميك ملفوف حول رقبته من غير إحكام. كانت نافورة الثلج الذي لم تذروه الريح تتدفق على الأرض مثل شلال على مسافة بضعة أمتار. أومأت له برأسي عند مروري. رأتني عيناه، لكن وجهه ظل محايداً. وعند دخولي المطبخ بعد أن علقت ملابسي الخارجية في الصالة، رأيت أمي جالسة هناك تدخّن. رأيت شمعة متراقصة اللهب عند إفريز النافذة. أشارت ساعة المطبخ إلى الثالثة والنصف.

سألتها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

قالت: «نعم! ستكون أمسية لطيفة. ألا تريد أن تأكل شيئاً قبل ذهابك؟».

قلت: «سوف أُعدّ بعض السندويتشات لنفسي».

كانت على طاولة المطبخ لفافة ضخمة بيضاء من لحم السمك المجفف. وكان المجلى ممتلئاً بالبطاطس القاتمة غير المغسولة. كان المصباح الصغير في آلة صنع القهوة مضاء. وكان وعاء الماء فيها نصف ممتلئ.

قلت لأمي: «أظنني سأنتظر قليلاً قبل أن آكل. لست مضطراً إلى الذهاب قبل السابعة أو نحو ذلك. متى يصل الضيوف؟».

«سوف يذهب أبوك ليأتي بجدك وجدتك. أظنه سينطلق بعد قليل. أما غونار فسوف يصل في السابعة تقريباً».

قلت لها: «هذا يعني أنني أستطيع إلقاء التحية عليهم عندما يصلون». ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة ووقفت إلى النافذة محدقاً عبر الوادي. مضيت إلى الطاولة الصغيرة فتناولت برتقالة وجلست على الأريكة ثم بدأت تقشيرها. كانت شموع شجرة عيد الميلاد مشتعلة بلهب متألّق. انعكس ضوء تلك الشموع على كؤوس الكريستال الموضوعة على الطاولة في الناحية البعيدة من الغرفة.

فكرت في إنغفِه، وتساءلت كيف كان يعيش هذه الأشياء خلال سنواته في المدرسة الثانوية. أما الآن، فليست لديه هذه المشاكل: إنه في مسكنٍ في منطقة آوست آغدير مع أصدقائه. ما كان يأتي إلى البيت إلّا في آخر لحظة ممكنة، عشية ليلة عيد الميلاد، ثم يغادر بأسرع ما يستطيع، في السابع والعشرين. لم يعش هنا أبداً. كان على وشك بدء سنته الثالثة، الأخيرة، عندما انتقلنا إلى هذا البيت. لكنه لم يرغب في ترك أصدقائه. هذا ما جعل أبي في غاية الغضب. لكن إنغفِه لم يتراجع... رفض أن ينتقل

معنا، وحصل على قرض دراسي لأن أبي رفض إعطاءه قرشاً واحداً، ثمَ استأجر غرفة في مكان غير بعيد كثير عن بيتنا القديم. لا يكاد أبي يبادله الكلام خلال عطلات نهاية الأسبوع القليلة التي يمضيها معنا. كان الجو بينهما بارداً، جليدياً. وفي السنة التي تلت ذلك، أدى إنغفِه خدمته الوطنية. أتذكره عندما جاء إلى البيت مع صديقته آلفهيلد في واحدة من عطلات نهاية الأسبوع. كانت تلك أول مرة يفعل فيها شيئاً هذا القبيل. ظل أبي بعيداً، بالطبع؛ وما كان في البيت إلّا إنغفِه وآلفهيلد وأمي وأنا. لم يعد أبي إلّا عند انتهاء العطلة، عندما كانوا سائرين على الطريق باتجاه موقف الباص. أوقف أبي السيارة وأنزل زجاج النافذة وألقى على ألفهيلد تحية ودية. كانت الابتسامة التي رافقت تلك التحية شيئاً لم أره على وجهه من قبل. كان وجهاً متوقّد السعادة. من المؤكد أنه لم ينظر إلى أحد منا بهذه الطريقة أبداً. أدار وجهه بعد ذلك ووضع عصا القيادة على السرعة الأولى، ثم تابع صعود التل بينما تابعنا هبوطنا نحو موقف الباص. هل كان هذا والدنا؟

غطت نظرة أبي التي استمرت أربع ثوان على لطف أمي واهتمامها بآلفهيلد وإنغفِه. ربما لأنها تكون لطيفة دائماً في كل عطلة نهاية أسبوع عندما يأتي إنغفِه فيذهب أبي للإقامة في شقة الطابق الأرضي في الحظيرة أطول وقت ممكن ولا يأتي إلّا عند مواعيد الطعام. لا يبقى في الذهن بعد انقضاء العطلة شيءٌ غير رفضه طرح أي سؤال على إنغفِه أو منحه أدنى قدر من الاهتمام رغم جهود أمي لجعل إنغفِه يشعر بشيء من الترحاب. كان أبي هو الذي يحدد المناخ العام المسيطر في البيت؛ وما كان أحد منا يستطيع فعْل شيء.

في الخارج، توقف هدير آلة إزالة الثلج توقفاً مفاجئاً. نهضتُ والتقطت قشور البرتقالة، ثم مضيت إلى المطبخ حيث كانت أمي تقشر البطاطا ففتحت الخزانة وألقيت القشور في سلة القمامة. نظرت إلى أبي وهو يجتاز الممشى ممرراً أصابع يده على شعره بطريقته المميزة. مضيت إلى غرفتي بعد ذلك فأغلقت الباب خلفي وشغّلت أحد التسجيلات ثم استلقيتُ في سريري من جديد.

فكرنا كثيراً في كيفية الذهاب إلى سوم. من الممكن أن يعرض كل من والد يان فيدار وأمي توصيلنا. هذا ما فعلاه في الواقع عندما قلنا لهما أننا ذاهبان إلى سوم. لكن وجود كيسَيْ زجاجات البيرة كان يستبعد هذا الاحتمال تماماً. كان الحل الذي توصلنا إليه هو أن يقول يان فيدار لأهله إن أمي ستأخذنا بينما أقول لأمي إن والد يان

فيدار سوف يأخذنا. كان في هذا شيء من المغامرة لأن أهلنا يلتقون من حين لآخر. لكن احتمال تطرّق الحديث بينهم إلى مسألة إيصالنا إلى سوم كان ضئيلاً جداً... كنا مستعدَيْن لهذا القدر من المغامرة. وبعد حل تلك المسألة، ظلت لدينا مسألة كيفية الذهاب إلى هناك. لا تأتي الباصات إلى ناحيتنا ليلة رأس السنة، لكننا وجدنا أن هنالك باصات تمر عبر تقاطع تيمينيس الذي يبعد عشرة كيلومترات. وهكذا سيكون علينا أن نستوقف سيارة في الطريق... إن كان حظنا طيباً فقد تأخذنا تلك السيارة إلى سوم، وإن لم يكن كذلك فإن علينا أن ننتظر الباص عند ذلك التقاطع. وحتى نتجنب الأسئلة والشكوك، كان من الضروري أن يحدث هذا كله بعد وصول الضيوف، أي بعد السابعة مساء. يكون الباص عند التقاطع في الساعة الثامنة والنصف، وهذا يعني أن قليلاً من الحظ الطيب يكفي لضمان أن يسير كل شيء على ما يرام.

يقتضي السُّكْر تخطيطاً حذراً. لا بد من شراء الكحول بشكل آمن في وقت مسبق، ولا بد من العثور على مكان آمن لإخفائه، ولا بد أيضاً من ترتيب أمر الانتقال ذهاباً وعودة، وينبغي تجنب الأبوَين عند العودة إلى البيت. سكرتُ مرتين فقط بعد تلك المناسبة السعيدة في أوسلو. كادت المرة الثانية تسير بشكل سيئ. كانت ليف، أخت يان فيدار، مخطوبة لشاب اسمه ستيغ، وهو جندي التقته في كجيفيل عندما كان والدها يعمل هناك. أرادت ليف أن تتزوج في سن صغيرة، وأن تنجب أطفالاً وتصبح ربة منزل؛ حلم يمكن اعتباره أمراً غير مألوف بالنسبة لفتاة في سنّها. كانت تعيش في عالم مختلف تمام الاختلاف عن عالمنا رغم أنها أكبر منا بسنة واحدة فقط. وفي أمسية أحد أيام السبت، دعانا كل من ليف وخطيبها إلى سهرة صغيرة مع عدد من أصدقائهما. قبلنا الدعوة: لم تكن لدينا خطط أخرى. وبعد أيام قليلة، كنا جالسَين في بيت ما في مكان ما نشرب نبيذاً بيتيّاً ونشاهد التلفزيون. كان المقصود أن تكون سهرة هادئة في البيت. وكانت هنالك شموع على الطاولة. قدموا لنا اللازانيا أيضاً. كان من الممكن أن تكون سهرة هادئة لولا ذلك النبيذ الذي كان متوفراً بكميات هائلة. شربت، وسرعان ما استبد بي الفرح مثلما حدث في المرة الأولى. لكن حالة من الغياب التام أصابتني فلم أستطع تذكر شيء بين الكأس الخامسة ولحظة استيقاظي في قبو معتم لأجد نفسي مرتدياً بنطلوناً رياضياً وسترة لم أرهما من قبل. وجدت نفسي راقداً فوق اللحاف مغطى بعدد من المناشف. ورأيت ثيابي مكومة إلى جانبي. كانت مبقّعة بالقيء. رأيت غسالة عند

الجدار، وسلة إلى جانبها فيها ملابس متسخة، رأيت براداً صغيراً عند الجدار الآخر تكوَّم فوقه عدد من البنطلونات والسترات. كانت في الغرفة أيضاً شبكة صيد وكومة من أوعية حفظ السرطانات وقصبة صيد ورفّ عليه أدوات وأشياء كثيرة. رأيت هذه الأشياء بنظرة سريعة واحدة، كانت غريبة كلها، فاستيقظت صاحياً صافي الرأس. رأيت باب الغرفة على مسافة خطوات قليلة. كان نصف مفتوح. فتحته وذهبت إلى المطبخ حيث وجدت ستيغ وليف جالسَيْن، متشابكي الأيدي، متألقَيْن سعادة.

قلت: «مرحباً».

قال ستيغ: «حقاً... إنه غارفيلد! كيف حالك؟».

قلت: «لا بأس! ماذا حدث حقاً؟».

«ألا تذكر شيئاً؟».

هززت رأسي نفياً.

«لا شيء؟»

ضحك؛ وفي اللحظة نفسها جاء يان فيدار قادماً من غرفة المعيشة.

قال لي: «مرحباً».

أجبته: «مرحباً».

ابتسم.

قال لي: «مرحباً يا غارفيلد».

سألته: «ما قصة غارفيلد هذا؟».

«ألا تتذكرها؟».

«لا. لا أذكر شيئاً. لكن أظن أنني تقيّأت».

«كنا نشاهد التلفزيون. كان فيلم كارتون من أفلام القط غارفيلد. وعند ذلك، وقفتَ وضربت صدرك وصحت: أنا غارفيلد! ثم جلست من جديد ورحت تضحك. ثم فعلتها مرة ثانية: أنا غارفيلد! أنا غارفيلد! ثم تقيأت. تقيأت في غرفة الجلوس، على السجادة. ثم سقطت نائماً على الفور. هكذا، فجأة ومن غير مقدمات. سقطتُ نائماً في لمح البصر، في بركة من القيء. صار الكلام معك مستحيلاً».

قلت: «أوه، يا للبؤس! إنني آسف!».

قال ستيغ: «لا تنزعج! السجادة قابلة للغسل. علينا الآن أن نعيدكما إلى البيت».

لم يستول عليّ الخوف إلّا عند تلك اللحظة.

سألته: «كم الساعة الآن؟».

«تقترب من الواحدة».

«الواحدة! أوه، لا بأس، هذا جيد. قلت إنني سأعود إلى البيت في الواحدة. لن أكون متأخراً غير دقائق معدودة».

لا يتناول ستيغ الكحول. سرنا خلفه إلى السيارة. جلس يان فيدار في المقعد الأمامي، وجلست في المقعد الخلفي.

سألني يان فيدار بعد انطلاق السيارة بنا: «هل صحيح أنك لا تستطيع تذكر شيء؟».

«نعم، لا أذكر شيئاً، لا أذكر شيئاً على الإطلاق».

جعلني ذلك مزهواً. القصة كلها... ما قلته، وما فعلته، بل حتى التقيؤ... جعلني أشعر بزهوٍ كبير. كان هذا شيئاً قريباً من الشخص الذي أردت أن أكونه. لكن، عندما أوقف ستيغ السيارة عند صناديق البريد فمشيت عبر الممر المظلم مرتدياً ملابس شخص آخر وقد استقرت ملابسي أنا في كيس تدلّى من معصمي... أحسست بالخوف.

آمل أن يكونا في الفراش! آمل أن يكونا في الفراش!

الظاهر أنهما في الفراش حقاً. لم أر ضوءاً في نافذة المطبخ؛ إطفاء ضوء المطبخ هو آخر شيء يفعلانه قبل الذهاب إلى النوم. لكني فتحت الباب وسرت في الصالة على رؤوس أصابعي فسمعت صوتيهما. كانا في الأعلى جالسين على الأريكة قرب التلفزيون، يتحدثان. إنهما لا يفعلان ذلك أبداً!

هل ينتظران عودتي؟ هل يراقباني؟ كان أبي من النوع الذي يمكن أن يشم رائحة أنفاسي. فعل والديه ذلك معه عندما كان في سني... إنهم يضحكون من تلك الحادثة الآن؛ لكنني أراهن أنه لم يجد الأمر مضحكاً في ذلك الوقت.

سيكون التسلل من غير أن ينتبها أمراً مستحيلاً لأن السلم ينتهي في مكان قريب جداً منهما. قد يوبِّخاني كثيراً!

قلت: «مرحباً! هل يوجد أحد هنا؟».

قالت أمي: «مرحبا يا كارل أوفِه».

صعدت ثم توقفت ضمن مجال رؤيتهما.

كانا جالسين متجاورين على الأريكة. رأيت ذراع أبي مستقرة على المسند.

سألتني أمي: «هل كانت سهرتك لطيفة؟».

ألا ترى أمي شيئاً غير طبيعي؟ ما كنت قادراً على تصديق هذا.

قلت وأنا أتقدم بضع خطوات: «لا بأس بها. شاهدنا التلفزيون وأكلنا اللازانيا».

قالت أمي: «شيء لطيف».

قلت: «لكني متعب كثيراً. أظن أنني سأذهب لأنام».

قالت: «اذهب إلى النوم. نحن ذاهبان إلى النوم أيضاً بعد قليل».

كنت واقفاً على مسافة أربعة أمتار منهما مرتدياً بنطلوناً رياضياً يخص شخصاً غيري وسترة تخص شخصاً غيري، بينما كانت ثيابي المتسخة في ذلك الكيس. كانت الرائحة فائحة مني أيضاً. ألم يلاحظا شيئاً؟

قلت لهما: «تصبحان على خير».

قالا: «تصبح على خير».

هذا كل ما في الأمر. لم أفهم كيف نجحت في ذلك! لا بد أن حظي كان طيباً. خبّأت كيس الملابس المتسخة في الخزانة. وفي اليوم التالي، عندما كنت وحيداً في البيت، غسلت ملابسي بالماء في الحمام ثم علقتها في خزانة غرفتي إلى أن جفت. وبعد ذلك وضعتها في سلة الغسيل، كالمعتاد.

لم يقل لي أحد كلمة واحدة!

كان الشرب أمراً جيداً بالنسبة لي. إنه يجعل كل شيء متحركاً، نشطاً. وكنت أجد نفسي مغموراً بشيء ما، بإحساس... ليس بالضبط إحساساً لانهائياً لكنه... شيء غير محدود. شيء أستطيع المضي فيه، أعمق، أعمق. كان ذلك الإحساس حاداً، شديد التميز.

لا حدود! هكذا كان الأمر... نعم، كان إحساساً بعدم وجود شيء يحدّني.

وهكذا، كنت مفعماً بتوقعاتي لتلك الليلة. مع أنّ كل شيء جرى على ما يرام في السابق، إلّا أنني اتخذت بضعة تدابير احتياطية هذه المرة. سوف آخذ معي فرشاة الأسنان ومعجون الأسنان. اشتريتُ أيضاً أقراص الأوكاليبتوس، وسكاكر بالنعناع، وعلكة بالنعناع. سآخذ معي قميصاً احتياطياً أيضاً.

كنت أسمع صوت أبي صاعداً من غرفة المعيشة في الأسفل. جلست في سريري

ومددت ذراعيَّ إلى أقصاهما فوق رأسي ثم أرجعتهما إلى الخلف، مددتهما إلى أقصى ما أستطيع، مددتهما ناحية اليمين أولاً ثم ناحية الشمال، آلمتني مفاصلي؛ إنها تؤلمني طيلة الخريف. هذا لأنني أنمو. في صورة الصف الثامن التي التقطت أواخر الربيع، كان طولي عادياً. أما الآن فقد صار فجأة متراً وتسعين سنتيمتراً. كان مبعث خوفي الكبير هو ألا يتوقف نموي عند هذا الحد، أن أستمر في النمو. كان في صفنا المدرسي ولد يسبقني. يقارب طوله مترين وعشرة سنتيمترات. وهو نحيل مثل عصا المكنسة. أتخيل عدة مرات في اليوم الواحد أنني يمكن أن أسير على خطاه وأصير مثله؛ كان هذا يصيبني بالذعر. ومن وقت لآخر، كنت أدعو الله ألّا يسمح بحدوث هذا، أدعو الله الذي ما كنت مؤمناً به! لكني أتوجه إليه بالدعاء منذ كنت ولداً صغيراً. وعندما أفعل ذلك الآن أحس أن أملي الطفولي قد عاد. يا إلهي العزيز، أرجوك، أوقف نموي! اجعل طولي يظل متراً وتسعين، فليكن متراً وواحد وتسعين أو متراً واثنين وتسعين، لا أكثر! أعدك بأن أكون جيداً كالذهب إذا استجبت إلى دعائي. يا إلهي العزيز، يا إلهي العزيز، هل تسمعني؟

أوه، كنت أعرف أن هذا سخف، لكني أفعله رغم ذلك! ما كانت مخاوفي سخيفة أبداً لأن ذلك أمر لا يحتمل. كان لدي في ذلك الوقت خوف آخر، خوف أكبر من هذا. إنه الخوف الذي عشته عندما اكتشفت أن قضيبي يصير معوجاً إلى الأعلى عندما ينتصب. أنا مُشوّه! كان قضيبي مشوهاً! كنت جاهلاً، ولم أكن أعرف إن كان هناك شيء يمكن فعله لإصلاح هذا التشوه... إجراء عملية جراحية أو أي خيارات أخرى ممكنة. كنت أنهض من فراشي ليلاً وأذهب إلى الحمام فأجعل قضيبي ينتصب لأرى إن تغير فيه شيء. لكن لا، لم يتغير شيء أبداً. إنه يكاد يلمس معدتي! ثم، ألم يكن منحرفاً أيضاً؟ كان منحرفاً مشوَّهاً مثل جذر شجرة معتوه في الغابة. كان معنى هذا أنني لست قادراً على الذهاب إلى الفراش مع أحد. وبما أن هذا هو الشيء الوحيد الذي كنت أريده حقاً، أو الشيء الوحيد الذي أحلم به، فإن قنوطي صار من غير حدود. خطر في ذهني، بطبيعة الحال، أن من الممكن أن أشده إلى الأسفل. حاولت فعل ذلك. دفعته إلى الأسفل بقدر ما استطعت... إلى أن آلمني. صار أكثر استقامة عند ذلك؛ لكن الأمر مؤلم. ثم إنك لا تستطيع ممارسة الجنس مع فتاة وأنت تمسك قضيبك بيدك على هذا النحو. هل يمكن هذا؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ أهنالك ما يمكن فعله؟ كانت

هذه الأفكار تفترس عقلي. وكان اليأس والقنوط يصيبانني كلما انتصب قضيبي. عندما أقبّل فتاة على الأريكة، وقد تمضي يدي تحت قميصها أيضاً، يصير قضيبي متصلِّباً كأنه سيفٌ داخل فردة بنطلوني فأعرف أن هذا أقصى ما يمكن أن أصل إليه، أعرف أن هذا أقصى ما أستطيع الوصول إليه دائماً. كان هذا أمراً أسوأ من العجز الجنسي لأنه أمر شديد الغرابة، إضافة إلى أنه يجعلني عاجزاً عن الفعل. لكن، هل أستطيع أن أدعو الله حتى يخلّصني من هذا الأمر أيضاً؟ نعم، أستطيع فعل ذلك آخر الأمر، وقد فعلته أيضاً. يا إلهي العزيز! يا إلهي العزيز، دع عضوي الجنسي يصير مستقيماً عندما يحتقن دماً. سوف أدعو هذا الدعاء مرة واحدة فقط. كن رحيماً بي؛ حقق أمنيتي!

عندما بدأت الذهاب إلى المدرسة الثانوية اجتمع طلاب السنة الأولى كلهم ذات صباح على منصة صالة المسرح. ما عدت أذكر سبب ذلك الاجتماع، لكن أحد المعلمين (شخص من كريستيانساند اشتهر بأنه يحب العُري، وقيل إنه طلى بيته كله وهو مرتدٍ ربطة عنقٍ فقط؛ شخص وضيع إجمالاً!) كان في ملابس ريفية بوهيمية مهملة، وكان له شعر متموج مشعث أبيض. ألقى هذا المعلم قصيدة وهو يمشي على امتداد صفوف الطلاب فوق المنصة. كانت القصيدة تمتدح انتصاب العضو الذكري، وفجأة راح المعلم يغني تلك المدائح وسط ضحك الجميع.

لم أضحك. أظن أنني فغرت فمي دهشة عندما سمعت ذلك. بفم فاغر وعينين غائمتين، جلست هناك بينما راحت الفكرة تدخل عقلي رويداً رويداً. تكون الأعضاء الذكرية معوجّة دائماً عند انتصابها. أو، إن لم تكن معوجة كلها، فلا بد أن هنالك عدداً من القضبان المعوجة يكفي لقصيدة مديح.

من أين أتى هذا الشعور بالغرابة؟ قبل سنتين فقط، عندما انتقلنا إلى هذا المكان، كنت صبياً صغيراً في الثالثة عشر، وكان جلدي ناعماً... كنت غير قادر على لفظ حرف (ر)، وكنت في غاية السعادة عندما أسبح وأركب الدراجة وألعب كرة القدم في هذا المكان الجديد الذي لا يزعجني فيه أحد. لكن حقيقة الأمر كانت عكس ذلك تماماً. خلال أيامي الأولى في المدرسة، أراد الجميع، أن يتحدثوا معي: إن وجود تلميذ جديد ظاهرة نادرة هنا. وقد تساءل الجميع بالطبع عمن أكون، وعما أستطيع فعله. في الأمسيات، وفي أيام عطلة نهاية الأسبوع، كانت البنات أحياناً يقدن دراجاتهن طيلة المسافة من هامريساندن للقائي. من الممكن أن أكون منهمكاً في لعبة كرة قدم مع بير

وتروغفه وتوم وويليام عندما أنظر فأرى فتاتين آتيتين على دراجتهما. ماذا تريدان؟ كان بيتنا آخر بيت؛ ومن خلفه كانت الغابة، ثم تأتي مزرعتان، ثم غابة، ثم غابة، وغابة أخرى. قفزت الفتاتان عن الدراجتين فوق التل وراحتا تنظران إلينا، ثم اختفتا خلف الأشجار. وبعد ذلك انحدرتا على طول الطريق من جديد، ثم توقفتا تنظران إلينا.

سأل تروغفه: «ماذا تفعل هاتان الفتاتان؟».

قال بير: «إنهما آتيتان لرؤية كارل أوفِه».

قال تروغفه: «أنت تمزح. لا يمكن أن تأتيا على الدراجة هذه المسافة من هامريساندن من أجل هذا فقط. إن المسافة عشرة كيلومترات، أليس كذلك؟».

قال بير: «ولماذا تأتيان إن لم يكن هذا هو السبب؟ من المؤكد أنهما ليستا آتيتين لرؤيتك أنت؟ لقد كنتَ دائماً هنا، أليس هذا صحيحاً؟».

وقفنا ننظر إليهما تتحركان عبر الشجيرات. كانت إحداهما في سترة وردية، والثانية في سترة زرقاء اللون. شعرهما طويل.

قال تروغفه: «هيا الآن، دعونا نلعب!».

واصلنا اللعب على ذلك اللسان من الأرض الممتد داخل النهر حيث أقام والد بير وتوم مَرْمَيَيْن في هذا الملعب. توقفت الفتاتان عندما وصلتا إلى أجمة القصب على مسافة مئة متر منا. عرفتهما. ليس فيهما أي شيء خاص، وهكذا تجاهلتهما. بعد وقوفهما بين القصب عشر دقائق كأنهما طائران غريبان، سارتا عائدتَيْن ثم ركبتا دراجتيهما وانطلقتا. ومرة أخرى، بعد أسابيع قليلة من ذلك، جاءت ثلاث فتيات إلينا بينما كنا نعمل في مستودع مصنع الباركيه الكبير. كنا نجمع ألواح خشب قصيرة ضمن حزم كبيرة ونضع فواصل صغيرة بينها. كانوا يدفعون الأجر بالقطعة. وما إن تعلمت كيف أرمي ملء ذراعي من تلك الألواح دفعة واحدة فتقع في المكان المطلوب حتى صار العمل يدرّ عليَّ بعض المال حقاً. كان في مقدورنا أن نأتي ونذهب على هوانا. وغالباً ما كنا نُعرّج على المصنع في طريق عودتنا من المدرسة فنحزم كومة كاملة ثم نمضي إلى البيت ونأكل أو نشرب الشاي قبل أن نعود ونمضي في العمل بقية المساء. كنا في غاية الجوع إلى المال. كنا مستعدين للعمل كل مساء وكل نهاية أسبوع. لكن، ما كان هنالك شيء نفعله أغلب الأحيان، إما لأننا ملأنا المستودع أو لأن عمال المصنع قاموا بالمهمة خلال ساعات عملهم الطبيعية. كان والد بير يعمل في أحد المكاتب في

المصنع. وهكذا كنا نعرف من خلال بير أو ويليام أن هنالك عملاً (يعمل والده سائق شاحنة في هذه الشركة؛ وكان يترقب دائماً ظهور إعلان عن العمل). في واحد من تلك المساءات جاءت ثلاث فتيات لرؤيتنا في المستودع. إنهن من هامريساندن أيضاً. لكني كنت قد تلقيت إنذاراً هذه المرة إذ إن إشاعة سرت بين التلاميذ وكانت تقول إن واحدة من تلك الفتيات في الصف السابع كانت مهتمة بي. وها هي الآن هنا. كانت أكثر شجاعة بقدر واضح من العصفورتين المترددتين عند أجمَّة القصب، وذلك لأن لينِه (هكذا كان اسمها) أتت إليَّ مباشرة فاستندت بذراعيها إلى الإطار المحيط بحزمة الألواح. وقفت هناك واثقة تمضغ علكتها وتنظر إلى ما أفعله بينما ظلت رفيقتاها إلى الخلف قليلاً. ولما كنت قد سمعت بأنها مهتمة بي فقد فكرت في أن أطرقَ الحديد وهو ساخن. صحيح أنها في الصف السابع فقط، إلّا أن أختها صارت عارضة أزياء! وحتى إذا كانت هي نفسها لم تمض تلك المسافة كلها بعد، فمن المؤكد منذ الآن أنها ستكون فتاة جميلة. هكذا يقول الجميع... ستكون جيدة. هذا ما كان الجميع يمتدحه فيها: إمكانياتها المستقبلية! كانت نحيلة رشيقة طويلة الأطراف، وكان شعرها طويلاً داكناً. وجهها شاحب قليلاً مرتفع الوجنتين، ولها فم كبير بعض الشيء. جعلني طولها الزائد ومظهرها الممطوط متشككاً بعض الشيء. لكن ردفيها كانا جميلين. كان فمها جميلاً أيضاً، وعيناها كذلك. كان أحد العوامل التي في غير صالحها أنها لا تستطيع لفظ حرف «ر»، وكانت فيها أيضاً لمحة من السذاجة الحمقاء أو من تشتت الذهن. كانت معروفة بهذا. لكن شعبيتها كانت كبيرة في صفها، في الوقت نفسه: تريد الفتيات جميعاً مرافقتها.

قالت: «مرحباً! لقد جئت لزيارتك. هل يسعدك هذا؟».

قلت: «هكذا إذن!» استدرت ووضعت كومة من الألواح على ذراعي ثم ألقيت بها ضمن الإطار حيث استقرت في مكانها مقرقعة. دفعت بعض الألواح التي كانت ناتئة قليلاً ثم حملت كمية أخرى.

سألتني: «كم تكسب في الساعة؟».

قلت: «إنه عمل بالقطعة. ننال عشرين كروناً مقابل كل كدس مزدوج، وأربعين مقابل الكدس الرباعي».

قالت: «فهمت».

كان بير وتروغفه من عمرها، لكنهما في صف آخر. وقد عبّرا مرات كثيرة عن عدم إعجابهما بها وبمجموعتها. إنهما الآن يعملان على مسافة أمتار مني. فاجأني أنهما يبدوان كأنهما قزمان. كانا قصيرين، منحنيين إلى الأمام بوجهين كالحين. كانا واقفين في وسط أرضية مستودع المصنع الضخمة ومن حولهما حزم حتى السقف، في كل اتجاه؛ كانا يعملان.

سألتني: «هل أُعجبك؟».

قلت: «حسنٌ، كيف يكون عدم الإعجاب؟».

قررت المضي في هذا الأمر لحظة رأيتها تدخل البوابة؛ أما الآن... عندما صارت واقفة أمامي، عندما صار الطريق مفتوحاً على اتساعه... بقيت غير قادر على فعل ذلك: ما زلت غير قادر على قول ما يجب قوله. لم أفهم الأمر لكنني أحسسته رغم ذلك: إنها أكثر ذكاء مني. لا بأس، قد تكون غبية بعض الشيء، لكنها ذكية أيضاً. هذا الذكاء هو ما لا أستطيع تدبر أمره.

قالت: «أنت تعجبني. لكنك تعرف هذا، ألا تعرفه؟».

انحنيت فصححت وضع أحد الفواصل بين الألواح. احمرّ وجهي من غير توقع.

قلت: «لا».

ظلت واقفة برهة من غير أن تقول شيئاً. ظلت مستندة إلى ذلك الإطار تمضغ علكتها. بدا نفاذ الصبر على صديقاتها الواقفات على مسافة قريبة عند كومة الألواح. شدت قامتها آخر الأمر وقالت: «لا بأس»، ثم استدارت وذهبت.

ما كان ضياع الفرصة مشكلة كبيرة عندي؛ كانت طريقة ضياعها هي المشكلة... مشكلة أكبر بكثير: لم أمتلك الجرأة للقيام بالخطوات الأخيرة، جرأة اجتياز ذلك الجسر. وعندما اضمحل الاهتمام بكوني وافداً جديداً، لم يعد شيء يُقدَّم إليَّ على طبق من فضة. بل على العكس، ظهرت من جديد تلك الأحكام القديمة المتعلقة بي. كنت أستطيع الشعور بها قريبة، ملموسة، وأسمع تردد أصدائها رغم انعدام أي صلة بين المكانين اللذين عشت فيهما. في يومي الأول في هذه المدرسة لفتت نظري فتاة بعينها. كان اسمها إينغِر. كانت لها عينان ضيقتان جميلتان، وبشرة سمراء، وأنف طفولي قصير يناقض بقية ملامحها المتطاولة المدوَّرة. كان شكلها يوحي دائماً بأنها بعيدة، إلّا عندما تبتسم. كانت لها ابتسامة لطيفة متألقة تعجبني كثيراً وأجدها مغرية من غير حدود، لأنها

لم تكن موجهة إليّ ولا إلى الذين يشبهونني. كانت ابتسامة نابعة من جوهر وجودها نفسه، الجوهر الذي لا أحد يعرفه غيرها وغير أصدقائها. كنت معجباً بها أيضاً لأن شفتها العليا معوجّة قليلاً. كنت أسبقها بصف واحد. لم يجر بيننا أي حديث خلال سنتين أمضيتهما في تلك المدرسة... ولا كلمة واحدة. لكني رافقت ابنة عمها سوزانِه. كانت سوزانِه في صفي، وكانت تعيش في بيت واقع على الجانب الآخر من النهر. كان أنفها مدبباً وفمها صغيراً وأسنانها الأمامية تشبه أسنان الأرنب البري؛ لكن ثدييها كانا مكوَّرَيْن مشرئبين؛ وكان حجم ردفيها صحيحاً تماماً. أما عيناها فكانتا مثيرتين كأنهما تعرفان دائماً ما تريدان. كانت تقارن نفسها بالآخرين دائماً. وفي حين كانت إينغر، التي لا تُنال، مليئة بالغموض والأسرار تتمثل جاذبيتها كلها تقريباً في أشياء غير معروفة، في أحلام وتخمينات، كانت سوزانِه مكافئة لي وقريبة من تفكيري. ما يمكن أن أخسره معها أقل، والمخاوف أقل؛ لكن المكاسب أقل أيضاً! كنت في الرابعة عشرة، أما هي فكانت في الخامسة عشر. اندمجنا تماماً خلال أيام قليلة مثلما يحدث كثيراً في هذه السن. وبعد ذلك بفترة قصيرة نشأت علاقة بين يان فيدار وصديقتها مارغريت. كانت هاتان العلاقتان واقعتين في مكان ما بين عالم الطفولة وعالم البلوغ؛ وكانت الحدود بين هذين العالمين لا تزال متحركة، سائلة. نجلس في المقعد نفسه في باص المدرسة عند الصباح، ونجلس متجاورَيْن عندما تجتمع المدرسة كلها صبيحة أيام الجمعة، ونركب الدراجة معاً إلى دروس المعمودية التي تقام في الكنيسة مرة كل أسبوع، ثم نتجول معاً بعد ذلك... في تقاطعات الطرق أو في موقف السيارات أمام المتجر. وفي تلك الحالات كلها، كانت الفوارق بيننا تتضاءل، وكانت سوزانِه ومارغريت مثل أي صديقين لنا. لكن الأمر كان مختلفاً في عطلات نهاية الأسبوع: من الممكن عند ذلك أن نذهب إلى السينما في البلدة أو نجلس في غرفة في قبوٍ ما نأكل البيتزا ونشرب الكولا ونشاهد التلفزيون أو نستمع إلى الموسيقى بينما يحتضن كل منا الآخر. كانت زيادة التقارب هي كل ما نفكر فيه. أما ما كان خطوة هائلة إلى الأمام منذ بضعة أسابيع، القبلات، فقد تحقق بعد دراسة طويلة: ناقشنا هذا «الإجراء»، يان فيدار وأنا، وناقشنا التفاصيل العملية من قبيل المكان الأفضل للجلوس والأشياء التي يجب قولها لإطلاق العملية التي تؤدي إلى القبلة آخر الأمر. ناقشنا أيضاً إمكانية الانتقال إلى الفعل ـ التقبيل ـ من غير قول أي شيء إطلاقاً. لكن الأمر صار مسألة ميكانيكية الآن: بعد أكل البيتزا

أو اللازانيا، تجلس الفتاتان في حضنينا ونبدأ المداعبة والتقبيل. كنا أيضاً نستلقي على الأريكة أحياناً بحيث يكون كل زوج على ناحية منها، وذلك عندما نكون متأكدين من أن أحداً لن يأتي. وفي مساء أحد أيام الجمعة، كانت سوزانِه وحيدة في البيت. جاء يان فيدار على دراجته إلى بيتنا بعد الظهر، ثم انطلقنا مع النهر وعبرنا جسر المشاة الضيق وصعدنا إلى البيت الذي تعيش فيه. كانت الفتاتان في انتظارنا. أكلنا البيتزا التي أعدّها أهلها قبل ذهابهم، ثم جلست سوزانِه في حضني وجلست مارغريت في حضن يان فيدار. كانت فرقة «داير ستريتس» تغني «تلغراف رود» في آلة التسجيل. كنت أقبل سوزانِه، وكان يان فيدار يقبل مارغريت؛ استمر ذلك زمناً أشبه بالأبدية في غرفة المعيشة. همستْ في أذني بعد قليل: «أحبك يا كارل أوفِه. هل نذهب إلى غرفتي؟» هززت رأسي ثم نهضنا بيدين متشابكتَيْن.

قالت لهما: «إننا ذاهبان إلى غرفتي. يمكنكما أن تكونا مرتاحين هنا».

رفعا رأسيهما ناظرين إلينا ثم هزا رأسيهما موافقين وعادا إلى قبلاتهما. كان شعر مارغريت الأسود الطويل يكاد يغطي وجه يان فيدار كله. مضى لسان كل منهما يدور ويدور في فم الآخر. كان يمر بيده على ظهرها، كانت أصابعه تصعد وتهبط، أما بقية جسده فكانت ساكنة تماماً. ابتسمت لي سوزانِه وشدت على يدي بقوة أكبر ثم قادتني عبر الصالة إلى أن دخلنا غرفتها. كانت الغرفة معتمة، وأكثر برودة. دخلت هذه الغرفة من قبل، وكنت أحب أن أكون في بيتها رغم وجود والديها دائماً. من حيث الأساس، كنا نفعل ما نفعله أنا ويان فيدار عادة، هكذا فقط... نجلس ونثرثر ثم نذهب إلى غرفة المعيشة ونشاهد التلفزيون مع أبويها ونذهب إلى المطبخ لنأكل ونمضي في نزهات طويلة على الأقدام عند النهر. أحب هذا المكان لأنه ليس غرفة يان فيدار القاتمة الفائحة برائحة العرق حيث كنا نجلس ومن حولنا مضخم الصوت ومعدات الستيريو وغيتاره وتسجيلاته ومجلاته الموسيقية والهزلية... لا، كانت هذه غرفة سوزانِه التي تفوح برائحة عطر خفيف، غرفتها ذات ورق الجدران الأبيض المزين بأزهار صغيرة والسرير ذي المفرش المطرز والرف الأبيض الذي ملأته كتبها وحُليها، والخزانة البيضاء التي تضم ثيابها المطوية أو المعلقة بعناية. كنت أبلع ريقي كلما رأيت بنطلونها الجينز مطوياً هناك أو متدلياً من ظهر الكرسي، لأنها تشد هذا البنطلون نفسه على فخذيها وردفيها وترفع سحّابه وتزرّره. كانت غرفتها مليئة بهذه الوعود التي ما

كنت قادراً على صياغتها في كلمات لكنها تبعث في كياني موجات من الأحاسيس المبهمة. هنالك أسباب أخرى تجعلني أحب وجودي هنا، أبواها على سبيل المثال: إنهما ودودان دائماً، وهنالك شيء في سلوك الأسرة كلها يجعل من الواضح أنني أعني شيئاً بالنسبة إليهم. كنت شخصاً موجوداً في حياة سوزانِه، كنت شخصاً تُكلّم أبويها وشقيقاتها الصغيرات عنه.

مضت الآن فأغلقت النافذة. كان الضباب كثيفاً في الخارج إلى حد جعل أضواء البيوت القريبة غير مرئية تقريباً في تلك الظلمة الرمادية. وعلى الطريق تحتنا، مرت بضع سيارات وانبعثت منها أصوات الموسيقى. ساد الهدوء عندما أغلقت نافذتها.

قلت: «همم!».

ابتسمتْ.

قالت: «همم»، ثم جلستْ على حافة السرير. ما كانت عندي أي توقعات غير أن نستلقي معاً هناك بدلاً من الجلوس متلاحمين. ذات مرة، أدخلت يدي في سترتها ووضعتها على ثديها فقالت لا... سحبت يدي. ما كانت تلك الـ «لا» حادة ولا لائمة، كانت أقرب إلى تقرير حقيقة كما لو أنها تذكرني بقانون علينا أن نتقيَّد به. تبادلنا القبل والمداعبات على ذلك السرير. كان ذلك كل ما فعلناه. ومع أنني كنت مستعداً دائماً لفعل ذلك كلما التقينا فقد تعبت ومللت الأمر سريعاً، وبعد برهة صرت أحس بشيء يشبه الغثيان لأن في هذه المداعبة شيئاً عقيماً لا نتيجة له. كان كياني كله توّاقاً إلى ما هو أكثر، إلى شيء أعرف أنه موجود. لكن ذلك ما كان طريقاً نستطيع السير فيه. كنت راغباً في التقدم أكثر، لكني كنت مجبراً على البقاء حيث أنا، في لجة دوران اللسانين والشعر المنسدل فوق وجهي.

جلست إلى جانبها. ابتسمت لي. قبّلتها فأغمضت عينيها واستلقت على السرير. زحفت فوقها وأحسست بجسدها الطري تحتي. أنّت قليلاً... هل أنا ثقيل عليها؟ بدلاً من ذلك، استلقيت إلى جانبها وظلت ساقي فوق ساقيها. داعبت كتفها، ثم انحدرت يدي على امتداد ذراعها. شدت على كفي بقوة عندما بلغت أصابعها. رفعت رأسي وفتحت عينيَّ. كانت تنظر إليَّ. كان وجهها جاداً... بدا مُبيضاً في تلك الظلمة الخفيفة. انحنيت صوبها وقبلتها على رقبتها. لم أفعل هذا من قبل. وضعت رأسي على صدرها. مرّرت أصابعها في شعري. كنت أسمع نبضات قلبها. داعبت شفتيها بأصابعي. توتر

جسدها. رفعت بلوزتها ووضعت يدي على بطنها. انحنيت وقبلت بطنها. أمسكتْ بحافة بلوزتها وشدتها إلى الأعلى ببطء حتى خلعتها عنها. لم أستطع تصديق عيني. هناك، أمامي تماماً، كان ثدياها العاريان. في غرفة الجلوس، انبعثت أغنية «تلغراف رود» من جديد. لم أتردد... أطبقت بفمي على ثدييها. ثديٌ، ثم الآخر. مَرّغت وجهي فيهما، لعقتهما، مصصتهما، وأخيراً وضعت كفّي عليهما وقبلتها. نسيتها تماماً خلال بضع ثوانٍ. لم يسبق أبداً أن تجاوزتْ أحلامي، أو مخيلتي، هذه النقطة... وأنا هنا الآن! لكن ذلك الإحساس بالإشباع جاءني مجدداً بعد عشر دقائق. فجأة، ما عاد هذا نفسه كافياً لي، مهما يكن عظيماً! أردت أن أمضي إلى ما بعده مهما يكن ما يقودني إليه ذلك رهيباً. بدأتْ المحاولة، بدأت أعبث بزر بنطلونها. انفتح الزر فلم تقل شيئاً. ظلت مستلقية مغمضة العينين مثلما كانت من قبل، وظلت بلوزتها متجمِّعة تحت ذقنها. فتحت سحاب البنطلون. ظهر سروالها الداخلي الأبيض. ابتلعت ريقي بصعوبة. شددت بنطلونها المحيط بردفيها، أنزلته قليلاً. لم تقل شيئاً. تحركتْ قليلاً فقط حتى يصير إنزال البنطلون أكثر سهولة. وضعت يدي على سروالها الداخلي عندما بلغ البنطلون ركبتيها. أحسست بالشعر الناعم تحت يدي. قالت: «كارل أوفِه». استلقيت فوقها من جديد، وتبادلنا القبلات. وخلال هذه القبلات، أنزلتُ سروالها الداخلي أيضاً. لم أنزله كثيراً... فقط بالقدر الكافي لأن تنزلق أصابعي هناك. تغلغلت أصابعي عبر هذا الشعر. ولحظةَ شعرتُ برطوبتها على أطراف أصابعي جاءني إحساس بأن شيئاً بداخلي قد انكسر مفرقعاً. كان ذلك يشبه ألماً واخزاً في بطني أعقبه نوع من التشنج في منطقة العانة. وفي اللحظة التالية، صار كل شيء غريباً. بين لحظة واللحظة التي أعقبتها، فقد ثدياها العاريان وفخذاها العاريان كل معنى. لكني رأيت أنها لم تكن تمر بما مررتُ به. ظلت مستلقية مثلما كانت، مغمضة العينين، فمها نصف مفتوح، أنفاسها ثقيلة، كانت غارقة في ما كنت غارقاً فيه... لكني لم أعد غارقاً الآن، ليس بعد هذه اللحظة!

سألتني: «ما الأمر؟».

قلت: «لا شيء. لكن، ربما كان من الأفضل أن ننضم إلى الآخرين!».

قالت: «لا. فلننتظر قليلاً».

قلت: «لا بأس».

وهكذا عدنا إلى ما كنا فيه. عدنا إلى تبادل القبل. لكن ذلك لم يُثر شيئاً في داخلي. كان شيئاً عادياً كأنني أقطع رغيفاً من الخبز. قبلت ثدييها فلم يثر ذلك شيئاً. ظل كل شيء محايداً، على نحو غريب: كانت حلمتا ثدييها حلمتي ثديين؛ وكان جلدها جلداً، وكانت سُرّتها سُرّة؛ لكن بعد ذلك... شيء أدهشني وأسعدني... تغير كل شيء، تغير كل ما يتعلق بها فعاد كما كان. ومن جديد، لم يعد هنالك شيء أحب إليّ من الاستلقاء هناك وتقبيل كل ما ألمسه.

عندما بدأ ذلك، قرع الباب أحد ما.

جلسنا. رفعت بنطلونها سريعاً وأنزلت بلوزتها.

كان ذلك يان فيدار.

سألنا: «ألن تأتيا؟».

قالت سوزانِه: «سنأتي. إننا آتيان. انتظر قليلاً».

قال: «صارت الساعة العاشرة والنصف. من الأفضل أن نذهب قبل أن يعود والداك».

بينما كان يان فيدار يجمع تسجيلاته ليأخذها، التقت عيناي بعيني سوزانِه فابتسمت لها. وعندما صرنا في ردهة البيت، في طريقنا إلى الخروج، على وشك وداعهما، غمزت لي بعينها.

قالت لي: «أراك غداً!»

كان هنالك مطر خفيف في الخارج. وبدت أنوار مصابيح الشارع التي سرنا تحتها كأنها تمتزج بكل قطرة مطر فترتسم من حولها هالات كبيرة.

قلت له: «كيف؟ كيف جرت الأمور؟».

قال يان فيدار: «كالمعتاد. تبادلنا القبل والمداعبات. لست واثقاً من أنني راغب في الاستمرار معها».

قلت: «أوه! أنت لست عاشقاً إذاً!».

«وهل أنت عاشق؟».

رفعت كتفي وقلت: «ربما لا».

وصلنا إلى الطريقَ الرئيسي وانطلقنا صاعدَيْن في الوادي. كانت هنالك مزرعة إلى أحد الجانبين، وكانت الأرض التي تسوطها قطرات المطر تلمع تحت الضوء إلى

جانب الطريق ثم تختفي في العتمة فلا تظهر إلّا عند بيت المزرعة المُنار بمصابيح متألقة. وكان إلى الجهة الأخرى بيتان قديمان تنحدر حديقتاهما حتى النهر.

سألني يان فيدار: «كيف جرت الأمور معك أنت؟».

قلت: «كان الوضع ممتازاً. لقد خلعَتْ بلوزتها».

«ماذا؟ حقاً؟».

هززت رأسي.

«إنك تكذب أيها الحقير! لم تخلع بلوزتها».

«بل خلعَتها».

«أتقول لي إن سوازنِه خلعت بلوزتها؟».

«نعم، خلعتها».

«وماذا فعلت أنت عند ذلك؟».

«قبّلت ثدييها. ماذا أفعل غير هذا؟»

«أيها التافه الكاذب الحقير. أنت لم تفعل ذلك».

«بل فعلت».

لم يطاوعني قلبي على إخباره بأنها خلعت بنطلونها وسروالها الداخلي أيضاً. لو حقق بعض التقدم مع مارغريت لأخبرته بذلك. لكن، بما أنه لم يحقق تقدماً فإنني ما كنت راغباً في التباهي. ثم إن من المستحيل أن يصدقني... أبداً.

أنا نفسي لم أكن أكاد أصدق الأمر.

سألني: «وكيف كانا؟».

«ما هما؟»

«ثدياها، بالطبع».

«إنهما ثديان عظيمان. ثديان من الحجم الصحيح تماماً، ثديان صلبان. صلبان جداً. ظلا منتصبين رغم أنها كانت مستلقية على ظهرها».

«يا ابن الحرام! أنت لا تقول الحقيقة».

«هذه هي الحقيقة، أقسم لك».

«أنت تكذب».

لم نقل شيئاً بعد ذلك. عبرنا الجسر المعلق الذي كان النهر يتدفق من تحته أسودَ

لامعاً صامتاً، ثم عبرنا حقل الفراولة وانطلقنا على الطريق الإسفلتي الذي انعطف في منحنى حاد ثم تسلق معبراً منحدراً مالت فوقه أشجار التنّوب السوداء. وبعد منعطفين آخرين عند القمة، مررنا ببيتنا. كان كل شيء ثقيلاً رطباً باستثناء إدراكي لكل ما حدث، إدراكي الذي طغى على كل شيء آخر وارتفع عالياً كأنه فقاعات منيرة. لقد صدّق يان فيدار ما قلته له وصار متحرقاً ليسمع مني أن ثدييها لم يكونا القصة كلها. كان هنالك المزيد، لكني لم أخبره به عندما رأيت وجهه المتجهم. كان هذا أمراً جيداً أيضاً... أن أحتفظ بالسر الذي بيني وبين سوزانِه. لكن ذلك التشنج الذي أصابني أقلقني. لم يكن شعر عانتي قد نبت بعد، شعرتان سوداوان طويلتان فقط. ما كان عندي شيء غير هذا. من بين الأشياء التي أخشاها أن يكون هذا الأمر منفراً للفتيات، لسوزانِه خاصة! كانت معلوماتي تقول إنني لا أستطيع أن أنام مع فتاة قبل أن ينمو شعر عانتي. وهذا ما جعلني أفترض أن ذلك التشنج كان نوعاً من النشوة الكاذبة، وأنني مضيت إلى أبعد مما يستطيع قضيبي أن يفعله في واقع الأمر. هذا هو سبب الألم الذي أصابني. لقد حدث لي نوع من «القذف الجاف». وحسب معلوماتي في ذلك الوقت، فإن هذا أمر خطير. أما من ناحية أخرى، فقد أحسست برطوبة في سروالي الداخلي. قد يكون هذا بولاً، لكنه يمكن أن يكون منياً أيضاً، أو لعله دم؟ استبعدت الاحتمالين الآخرين... لم أكن ناضجاً من الناحية الجنسية، ولم تصبني آلام في منطقة العانة قبل هذه اللحظة. مهما يكن السبب، فقد آلمني ذلك... كنت قلقاً.

وضع يان فيدار دراجته أمام مرآب بيتنا، وقفنا نتحدث هناك. ثم ركب الدراجة متجهاً إلى بيته، أما أنا فدخلت البيت. كان إنغفِه عندنا في عطلة نهاية الأسبوع تلك. إنه جالس الآن مع أمي. رأيتهما عبر النافذة. لا بد أن أبي في الشقة التي في الحظيرة. بعد أن خلعت ملابسي الخارجية، ذهبت إلى المرحاض وأقفلت الباب، ثم أنزلت بنطلوني حتى ركبتي وأنزلت سروالي الداخلي ثم ضغطت بإصبعي على تلك البقعة الرطبة فيه، كانت دبقة. رفعت إصبعي وفركتها بإبهامي. شيء دبق لامع! رائحته كرائحة البحر!

البحر؟

لا بد أن يكون هذا منياً!

بالطبع، إنه المني.

لقد صرت ناضجاً جنسياً.

ذهبت إلى المطبخ مبتهجاً.

قالت أمي: «أتريد بعض البيتزا؟ لقد تركنا لك بضع شرائح منها».

«لا، شكراً. لقد أكلنا هناك».

«هل أمضيت وقتاً طيباً؟».

قلت: «بالطبع». ولم أستطع كبْت ابتسامتي.

قال إنغفِه: «إن خدَّيه متوردان. أهما متوردان من السعادة؟»

قالت أمي: «عليك أن تدعوها إلى بيتنا ذات يوم».

قلت لها: «نعم، سأدعوها». ثم عدت إلى الابتسام من جديد.

انتهت علاقتي بسوزانِه بعد أسبوعين من ذلك. منذ فترة طويلة، أبرمتُ اتفاقاً مع لارس الذي كان أقرب أصدقائي في ترومويا. اتفقنا على تبادل صور أجمل الفتيات هناك مقابل صور أجمل الفتيات هنا. لا تسألوني عن السبب! نسيت الأمر كله إلى أن تلقيت بعد ظهر ذات يوم مغلفاً بريدياً يحتوي على تلك الصور. كانت صوراً من النوع الذي يوضع على جوازات السفر... صور ليني وبيتي وإيلين وسيف وبينتِه ومريانِه وآن ليزبيت، أسماء مختلفة كثيرة. كانت تلك صور أجمل البنات في ترومويا. صار عليَّ الآن أن أحصل على صور أجمل البنات في تفيت. تحدثت في الأمر عدة مرات مع يان فيدار خلال الأيام التي أعقبت ذلك. وضعنا قائمة بالأسماء، وصار عليَّ الآن أن أحصل على الصور. كنت أستطيع أن أطلب الصور مباشرة من بعض الفتيات، ومنهن سوزان التي كانت صديقة أخت يان فيدار. كانت سوزان أكبر مني إلى حد يجعلني غير محتاج إلى القلق بشأن ما يمكن أن تظنه. كنت قادراً أيضاً على الاستعانة بيان فيدار وجعله يطلب من فتيان آخرين إعطائي صور صديقاتهم. وأما أن أفعل ذلك بنفسي... كانت يداي مقيَّدتين حقاً لأن طلب صورة من فتاة سوف يعني نوعاً من إظهار الاهتمام بها. وبما أنني أخرج مع سوزانِه فإن ذلك الاهتمام يمكن أن يكون شيئاً غير لائق. ويمكن أن يؤدي إلى سريان الشائعات. لكن هنالك طرقاً أخرى! بير، على سبيل المثال، ... أليست لديه صور لكريستين التي هي في صفه؟ كانت لديه صورتها. وبهذه الطريقة تمكنت أخيراً من جمع ست صور. كان هذا أكثر من كافٍ. لكن جوهرة التاج، أجمل الفتيات جميعاً، إينغِر، التي أردت كثيراً أن أجعل لارس يرى صورتها... ظلت صورتها غير موجودة عندي. كانت إينغر ابنة عم سوزانِه...

أخرجت دراجتي من المرآب ذات مساء ومضيت إلى سوزانِه. لم نتفق مسبقاً على ذلك اللقاء، لكنها بدت سعيدة عندما نزلت تفتح الباب. ألقيت التحية على أبويها، ثم ذهبنا إلى غرفتها وجلسنا قليلاً. تحدثنا عما سنفعله، ولم نضع أي خطط... ثرثرنا قليلاً عن المدرسة والمعلمين قبل أن أطرح عليها السؤال الذي جعلته يبدو أمراً عارضاً... بقدر ما استطعت. سألتها إن كانت لديها صورة إينغر، وإن كنت أستطيع استعارتها.

كانت جالسة على السرير. توتر جسدها فجأة، وتصلب، نظرت إليَّ غير مصدقة ما سمعته مني.

سألتني بعد لحظات لم تكن قليلة: «أتريد صورة إينغر؟ لماذا تريدها؟»

لم يخطر في بالي أن هذا الطلب يمكن أن يسبب مشكلة. لقد كنت أخرج مع سوزانِه... ألا تكفي حقيقة أنني أطلب الصورة منها، دون الناس جميعاً، للبرهنة على أن دوافعي سليمة تماماً؟

قلت لها: «لا أستطيع إخبارك بالسبب؟»

كان هذا صحيحاً. لو قلت لها إنني أريد إرسال صور البنات الثماني الأكثر جاذبية في تفيت إلى صديق لي في ترومويا فسوف تتوقع أن تكون صورتها واحدة من تلك الصور. لم أكن أعتزم إرسال صورتها، وما كنت قادراً على إخبارها بهذا.

قالت: «لن تحصل على صورة إينغر قبل أن تخبرني ما تعتزم فعله بها».

قلت: «لكني لا أستطيع! ألا يمكنك أن تعطيني تلك الصورة؟ ليست من أجلي إن كان هذا ما تفكرين فيه».

«من أجل من إذن؟».

«لا أستطيع أن أقول شيئاً».

نهضت واقفة. كان واضحاً أنها في غاية الغضب. كانت حركاتها كلها مختصرة، كأنها مبتورة، كأنها ما عادت تريد أن تهبني مسرّة رؤية حركاتها تنساب حرة أمامي فأستمتع بامتلائها.

قالت: «أنت تحب إينغر، أليس هذا صحيحاً؟».

لم أجبها بشيء.

«كارل أوفِه! هل تحبها؟ سمعت أشخاصاً كثيرين يقولون إنك تحبها».

قلت لها: «دعينا ننسى كل شيء عن الصورة. لا أريدها. انسيها!».

«أنت تحبها إذن؟».

قلت: «لا! أحببتها عندما انتقلنا إلى هذا المكان، في لحظة البداية تماماً. لكنني لم أعد أحبها منذ زمن بعيد».

«فلماذا تريد الصورة؟».

«لا أستطيع إخبارك».

بدأت تبكي.

قالت: «أنت... أنت تحب إينغر. أعرف أنك تحبها. أعرف أنك تحبها».

إن كانت سوزانِه تعرف هذا... فاجأتني هذه الفكرة... إذن، لا بد أن إينغر تعرفه أيضاً!

لمع في رأسي شيء يشبه الضوء. إن كانت إينغر تعرف، فقد لا يكون من الصعب كثيراً أن أجد لي سبيلاً معها. في حفلة من حفلات المدرسة مثلاً... يمكن أن أذهب إليها وأطلب منها رقصة، وسوف تفهم المقصود، ستعرف أنها ليست واحدة فقط من بين فتيات كثيرات. من الممكن أيضاً أن تبدأ إظهار بعض الاهتمام من جانبها!

مضت سوزانِه إلى طاولتها في الناحية الأخرى من الغرفة وفتحت درجاً فيها.

قالت لي: «ها هي الصورة. خذها! ولا أريد أن أراك هنا بعد الآن».

رفعت كفها فحجبت به وجهها ومدت لي صورة إينغر باليد الأخرى. رأيت ارتجاف كتفيها.

قلت لها: «إنها ليست لي. أعدك بهذا. لست أنا من يريد الصورة».

قالت: «أنت... أيها القذر... اخرج من هنا».

أخذت الصورة، ثم سألتها: «هل انتهى الأمر بيننا إذن؟».

انقضت سنتان منذ ليلة رأس السنة العاصفة الباردة تلك عندما كنت مستلقياً أقرأ في سريري منتظراً بدء الاحتفال. كانت سوزانِه قد وجدت شخصاً غيري بعد شهور قليلة. وكان اسمه تيرجِه. شخص قصير ممتلئ الجسم له شعر متموج وشارب يوحي بالغباء. في نظري، كان شيئاً لا يصدَّق أن تستطيع سوزانِه السماح لشخص مثله بأن يحل محلّي. لكن عليَّ الاعتراف أنه كان في الثامنة عشرة، أشقر الشعر إلى الحد الكافي، ويملك سيارة كانا يذهبان بها بعد المدرسة وفي عطلات نهاية الأسبوع. لكن... رغم

ذلك: هو، بدلاً مني؟ هذا الأبله القصير السمين ذو الشارب؟ في هذه الحالة يكون من المؤكد أن لا أهمية لسوزانِه. هكذا فكرت، وهكذا لا أزال أفكر وأنا مستلقٍ على سريري. لكني ما عدت طفلاً الآن: صار عمري ست عشرة سنة، ولم أعد في المدرسة المتوسطة بل في مدرسة كاتدرائية كريستيانساند.

ومن الخارج، أتى صوت انفتاح باب المرآب بصريره الذي يشكو قلة التزييت. سمعت صوت اللطمة الخفيفة عندما توقف الباب في الوضع النهائي؛ وسمعت صوت إقلاع محرك السيارة ثم حركتها إلى الخلف. سمعت تقطعاً وجيزاً في صوت المحرك. ذهبت إلى النافذة وانتظرت حتى اختفى مصباحا السيارة الأحمران حول المنعطف. نزلت بعدها إلى المطبخ فغليت بعض الماء وأخذت بعضاً من الطعام الباقي منذ عشية عيد الميلاد... قطعة من اللحم، وبعض اللحم المفروم، وقطعة نقانق من لحم الخروف، وبعض الكبد المطحون، ثم قطّعت بضع شرائح من الخبز وأحضرت الجريدة من غرفة المعيشة ومددتها على الطاولة وجلست أقرأ وأتناول الطعام. الآن، صارت الظلمة دامسة في الخارج. أما هنا، فكان المطبخ لطيفاً دافئاً... مفرش أحمر على الطاولة وشمعات صغيرة يتراقص ضوؤها على إطار النافذة. غلى الماء، فأحضرت وعاء الشاي ثم ألقيت في الوعاء قليلاً من أوراق الشاي وصببت الماء المغلي فوقها وأنا أصيح: «ماما، هل تريدين بعض الشاي؟».

لا إجابة!

جلست وواصلت الأكل. وبعد قليل صببت الشاي لنفسي. انساب الشاي في الفنجان الأبيض بنياً قاتماً كالخشب تقريباً. عامت في الفنجان بضع أوراق صغيرة من الشاي، أما الأوراق الأخرى فرقدت مثل حصيرة سوداء في القعر. أضفت الحليب وثلاث ملاعق سكر صغيرة، ثم حركت المزيج وانتظرت إلى أن غرقت أوراق الشاي كلها، ثم شربت.

في الأسفل، مرت على الطريق سيارة إزالة الثلج. كانت أنوارها تومض. انفتح باب البيت في تلك اللحظة وسمعت صوت خلع حذاء عند العتبة. استدرت فرأيت أمي مرتدية سترة أبي الضخمة المصنوعة من جلد الخروف، رأيتها تدخل المطبخ وبين يديها كمية من الحطب.

لماذا ترتدي هذه الملابس؟ إنها لا تفعل هذا عادة.

مضت إلى غرفة الجلوس من غير أن تلتفت صوبي. رأيت الثلج في شعرها وفي طيَّة السترة عند الصدر. سمعت صوت ارتطام الحطب عندما ألقته في السلة هناك.

سألتها عندما عادت: «أتريدين بعض الشاي؟».

قالت: «نعم، من فضلك، سوف أخلع ثيابي أولاً».

نهضت وأتيت لها بفنجان وضعته على الناحية الأخرى على الطاولة، ثم صببت الشاي.

سألتها عندما جلسَت: «أين كنت؟».

قالت: «كنت في الخارج أجلب بعض الحطب؛ هذا كل شيء».

«لكن، قبل ذلك؟ إنني جالس هنا منذ وقت غير قليل. إحضار الحطب لا يستدعي عشرين دقيقة!»

«أوه، كنت أغيِّر مصباحاً في شجرة عيد الميلاد. إنها تعمل الآن».

استدرت ونظرت عبر النافذة في الغرفة الأخرى. كانت أشجار الصنوبر في نهاية حديقة بيتنا تتلألأ في الظلمة.

سألتها: «هل أستطيع أن أفعل شيئاً لمساعدتك؟».

«لا، كل شيء جاهز الآن. عليَّ أن أكوي قميصاً فقط. وبعد ذلك لن يكون لديّ شيء أفعله إلى أن يحين وقت طهو الطعام. لكن أبوك سيتولى الطهو».

سألتها: «بما أنك ستكوين قميصك، هل يمكنك كيّ قميصي أيضاً؟».

هزت رأسها: «ضعه على طاولة الكَي».

أنهيت طعامي وصعدت إلى غرفتي، ثم شغلت مضخم الصوت ووصلته بالغيتار وجلست حتى أعزف قليلاً. كنت أحب الرائحة التي تنبعث من مضخم الصوت عندما يسخن. وكان من الممكن أن أعزف لهذا السبب وحده! كنت أحب أيضاً كل ما ينطوي عليه عزف الغيتار من ملحقات: علبة الصدى، ومقبض الكورس، ومساند الأوتار، والوصلات، وريشات العزف، ومظاريف الأوتار الصغيرة، وأداة الخنق، وعلبة الغيتار الطويلة بجيوبها وحجراتها الصغيرة الكثيرة، كنت أحب الأسماء التجارية أيضاً: جيبسون، وفندر، وهاجستروم، وريكنباكر، ومارشال، وميوزك مان، وفوكس، ورولاند. كنت أذهب مع يان فيدار إلى متاجر الموسيقى فأتفحص الغيتارات متخذاً هيئة شخص خبير. كان غيتاري تقليداً رخيصاً لماركة ستراتوكاستر اشتريته بالمال الذي جاءني هدية

عند تعميدي الثاني. وقد اشتريت له مساند أوتار جديدة قيل لي إنها من أحدث الأنواع إضافة إلى وجه جديد عثرت عليه في أحد كاتالوجات يان فيدار. كان هذا عظيماً، لكن العزف لم يكن عظيماً جداً! كان تقدمي بطيئاً جداً رغم أنني أعزف بانتظام واجتهاد عنيد منذ سنة ونصف السنة. كنت أستطيع عزف السلم الموسيقي على كل وتر من الأوتار، وقد تمرنت أيضاً على السلالم غير المنتهية كلها، لكني لم أفلح أبداً في تحرير نفسي منها، ولم أتمكن أبداً من الوصول إلى العزف الحقيقي. ما كان هنالك توافق بين عقلي وأصابعي: كانت أصابعي كأنها غير منتمية إلي، بل إلى السلالم الموسيقية التي تستطيع عزفها بكل سهولة، منتمية إلى ما ينبعث من مضخم الصوت، إلى شيء لا علاقة له بالموسيقى. كنت قادراً على إنفاق يوم أو يومين في تعلم لحن منفرد، نغمة بعد نغمة، فأصير قادراً على عزفه؛ لكن لا شيء أكثر من هذا... يتوقف كل شيء عند هذه النقطة دائماً. كان الأمر كذلك أيضاً لدى يان فيدار. لكنه كان أكثر طموحاً مني، وكان يتمرّن كثيراً. أحياناً، لا يفعل شيئاً غير التمرين، لكن مضخم الصوت لديه أيضاً كان لا ينتج شيئاً يتجاوز السلالم الموسيقية ونسخاً مكررة من معزوفات منفردة. لقد بَرَد أظافره حتى تصبح أكثر تلاؤماً مع العزف، وترك ظفر إبهام يده اليمنى ينمو طويلاً حتى يستطيع استخدامه كأنه ريشة للعزف. اشترى أيضاً نوعاً من آلة للتمرين من أجل أصابعه، وكان يستخدمها دائماً لتقوية تلك الأصابع. أعاد بناء غيتاره أيضاً؛ وبمساعدة والده الذي كان مهندس إلكترونيات في كجيفيك، بدأ يتمرن بمساعدة نوع من مازِج صوت للغيتار صنعاه في البيت. كنت كثيراً ما آخذ غيتاري وأذهب إليه فأحمل علبته بيد بينما أقود دراجتي بالأخرى. ومع أن ما نعزفه في تلك الغرفة ما كان يبدو لنا شيئاً لامعاً متألقاً، فإن الأمر كان طيباً في نظري، لأنني كنت أرى نفسي موسيقياً حقاً عندما أحمل علبة الغيتار فيبدو مظهري جذاباً. إذا كنا لم نبلغ بعد النقطة التي أردنا بلوغها، فمن الممكن تماماً أن تتغير الأمور ذات يوم. ما كنا نعرف ما يمكن أن يحمله المستقبل لنا؛ ولا يمكن لأحد أن يعرف مقدار التمرين الضروري حتى يهون علينا العزف. شهر؟ ستة شهور؟ سنة؟ كنا نعزف في انتظار انقضاء ذلك الوقت! نجحنا أيضاً في تشكيل ما يشبه فرقة موسيقية: هنالك شخص اسمه يان هينريك في الصف السابع يستطيع أن يعزف على الغيتار قليلاً. ومع أنه كان يأتي في حذاء يستخدمه هواة اليخوت وفي ملابس أنيقة ويستخدم أيضاً نوعاً من الكريم لشعره، لكننا سألناه إن كان راغباً في العزف معنا. كان

راغباً في ذلك، فكان عليّ (بما أنني أسوأ العازفين) أن أبدأ عزف الدرامز. كان ذلك في الصيف الذي سبق دخولنا الصف التاسع... أخذنا والد يان فيدار بسيارته إلى إيفجيه حيث اخترنا مجموعة درامز رخيصة تعاونّا جميعاً على شرائها فصارت الفرقة جاهزة. تحدثنا مع مدير المدرسة فوافق على السماح لنا باستخدام واحدة من الغرف حيث صرنا نجتمع كل أسبوع فننصب آلاتنا الموسيقية ومضخمات الصوت، ثم نمضي وقتاً طويلاً في العزف.

في السنة الماضية، عندما انتقلنا للسكن هنا، كنت أستمع إلى فرق غنائية من قبيل «كلاش»، و«ذا بوليس»، و«ذا سبيشلز»، و«تيردروب إكسبلودز»، و«ذا كيور»، و«جوي ديفيجن»، و«نيو أوردر»، و«إيكو آند ذا بانيمِن»، و«ذا تشاميليونز»، و«سيمبل مايندز»، و«آلترافوكس»، و«ذي آلرفارستي»، و«توكينغ هيدز»، و«ذا بي فيفتي توز»، و«بيل»، و«ديفيد بوي»، و«ذا بيستشيديليك فورز»، و«إيغي بوب»، و«فيلفت آندركراوند». تعرفت إلى هذه المجموعات كلها من خلال أخي إنغفِه الذي ما كان ينفق نقوده كلها على الموسيقى فحسب، بل يعزف الغيتار أيضاً ويغني بصوته وأسلوبه الخاص، ويكتب كلمات أغانيه بنفسه أيضاً. أما هنا، في تفيت، فلم أجد من سمع بهذه الفرق كلها. يان فيدار، مثلاً، كان يستمع إلى أشخاص وفرق مثل «ديب بيربل»، و«رينبو»، و«جيلان»، و«وايتسنيك»، و«بلاك ساباث»، و«أوزي أوزبورن»، و«ديف لابارد»، و«جوداس بريست». كان التقاء هذين العالَمَيْن أمراً مستحيلاً. وبما أن الاهتمام بالموسيقى هو الشيء الذي يجمعنا، فإن على واحد منا أن يتنازل قليلاً. إنه أنا! لم أشتر أي تسجيلات لهذه الفرق، لكني كنت أستمع إليها في بيت يان فيدار حيث جعلت نفسي تألفُها مع احتفاظي بفرقي المفضلة التي كانت في غاية الأهمية عندي في ذلك الوقت. كنت أحتفظ بذلك التميز لنفسي، عندما أكون وحدي. كانت هنالك بعض «فرق الحل الوسط بيننا» التي أحببناها معاً. وكانت أولاها فرقة «ليد زيبلين»، وأيضاً «دايرستريتس» التي كان يان فيدار يحبها بسبب أنغام الغيتار المتميزة لديها. كانت مناقشاتنا الأكثر تكرراً تدور حول المقابلة بين المشاعر والأسلوب. كان يان فيدار يشتري تسجيلات لمجموعة تدعى باسم «لافا» لأنها تضم موسيقيين جيدين، وما كان لديه شيء ضد فرقة «توتو» التي أصدرت أغنيتين ناجحتين في ذلك الوقت. أما أنا فكنت أحتقر مهارات الأسلوب من كل قلبي لأنها تخالف، كل ما تعلمته من قراءاتي في مجلات

أخي الموسيقية حيث تُعتبر المهارة خصماً لا بد من قهره، وحيث يكون المثل الأعلى منحصراً في الإبداع والطاقة والقوة. لكن، ومهما تحدثنا في هذا الأمر ومهما أمضينا الساعات في متاجر الموسيقى أو في تصفُّح الكاتولوجات، فإننا لم نتمكن من جعل فرقتنا تتقدم، ولو قليلاً! كنا فاشلين في العزف على آلاتنا، وبقينا كذلك؛ ولم تكن لدينا الفطنة التي لا بد منها للتنازل قليلاً وكتابة كلمات أغنياتنا بأنفسنا... أوه، أبداً! كنا نعزف لأكثر الفرق ابتذالاً، نعزف أغانيها الخالية من أي شيء مبتكر: «سموك أون ذي ووتر» لفرقة «ديب بيربل»، أو «بارانويد» لفرقة «بلاك ساباث»، أو «بلاك ماجيك وومن» لـ «سانتانا»، إضافة إلى «سو لونلي» لفرقة «ذا بوليس» التي كان من الضروري أن تكون موجودة في مخزوننا لأن إنغفِه علّمني عزفها.

كنا فاشلين تماماً، لا شيء لدينا! وما كانت فرصتنا في الوصول إلى شيء أكبر من فرصة عيش كرة الثلج في الجحيم. لم نستطع حتى أن نبلغ نقطة نصير عندها قادرَيْن على العزف في أحد الاحتفالات المدرسية! لكن، ورغم أن هذه هي الحقيقة، فإننا لم نعشها بهذا الشكل. على العكس تماماً: كان هذا ما يعطي حياتنا معناها. لم نكن نعزف الموسيقى التي أريدها أنا، بل التي يريدها يان فيدار. وكان ذلك يخالف كل ما أومن به. لكن، هذا ما كنت قادراً على الاطمئنان إليه. كانت مقدمة أغنية «سموك أون ذي ووتر»، ذلك التجسيد الحقيقي للسخف، ذلك النقيض التام لكل ما هو جميل، هي ما أجلس لأتمرن على عزْفه في مدرستنا عام 1983: دندنة على الأوتار في البداية، ثم تأتي الصنوج... تشيكا ـ تشيكا، تشيكا ـ تشيكا، تشيكا ـ تشيكا، تشيكا ـ تشيكا، ثم الطبل الكبير، بوم، بوم، بوم، ثم النقر بالعصا، تيك، تيك، تيك، ثم تبدأ الجملة الموسيقية الأولى حيث ينظر غالباً كل منا إلى الآخر مع ابتسامة كبيرة ونومئ برؤوسنا ونهز سيقاننا بينما تنطلق اللازمة الموسيقية غير المنسجمة على الإطلاق. ما كان لدينا مُغنٍّ. عندما بدأ يان فيدار دراسته في الكلية الفنية، سمع عن عازف درامز من هانيز. كان ذلك الفتى في الصف الثامن فحسب. لكننا كنا مضطرين إلى الاستعانة به، كنا مضطرين إلى الاستعانة بأي شيء. ثم إنه كان قادراً على تأمين غرفة للتمرينات هناك بحيث نستطيع العزف على آلاتنا كلها. وهكذا ذهبنا إليه: أنا، طالب السنة الأولى في المدرسة الثانوية الحالم بحياة في فرقة موسيقية من غير أن يكون لدي حسّ موسيقي؛ وأنا ومعي غيتاري الإيقاعي. ويان فيدار الذي يتعلم صناعة الحلويات، الذي أنفق في

تمريناته الموسيقية وقتاً كافياً لأن يصير المرء عازفاً من مستوى أونغوي مامليمستين أو إيدي فان هالن أو ريتشي بلاكمور، لكنه ظل غير قادر على تحرير نفسه من تمارين الأصابع. كان يان فيدار يعزف على الغيتار الرئيسي. ثم أيضاً يان هينريك الذي كنا نفضل تجنب الوجود معه خارج أوقات التمرين. وكان لدينا أيضاً أوفيند، فتى سمين سعيد من هانيز من غير أي طموح على الإطلاق... إنه يعزف الدرامز معنا. «سموك أون ذي ووتر» و«بارانويد» و«بلاك ماجيك وومن» و«سو لونلي»، وفي آخر الأمر تأتي أغنيتان من بدايات فرقة «بووي»: «زيغي ستاردست»، و«هانغ أونتو يورسيلف». كان إنغفِه قد علمني ألحان هاتين الأغنيتين أيضاً. لم يكن لدينا من يغني... كنا نرافق الموسيقى فحسب. في كل نهاية أسبوع. يحمل كل منا علبة غيتاره وننطلق إلى الباص. أحاديث طويلة على الشاطئ تدور من حول الموسيقى والآلات الموسيقية، أحاديث على المقاعد الخشبية أمام المتاجر، وفي غرفة يان فيدار، في مقهى المطار، في كريستيانساند. وفي وقت لاحق، صرنا نتحدث عن تسجيلات جلسات التدريب ونحللها تحليلاً دقيقاً في محاولة بائسة لا طائل منها لرفع الفرقة إلى المستوى الذي كنا نتخيله في رؤوسنا.

وذات مرة، أخذت إلى المدرسة شريط كاسيت يحتوي على تسجيل لبعض تدريباتنا. وقفت في الاستراحة واضعاً السماعات على أذني، ورحت أصغي إلى موسيقانا وأتساءل في نفسي عمن يمكن أن أطلب منه الاستماع إليها. كان لدى باسين ذوق موسيقي مثل ذوقي، وهذا يعني أنه غير صالح لهذه المهمة لأن تلك الموسيقى مختلفة... لن يفهمها. ربما حنّة؟ إنها مغنية، وهي تعجبني كثيراً! لكن هذا سيكون مغامرة كبيرة. كانت تعرف أنني أعزف في فرقة، وهذا أمر جيد لأنه يعطيني مركزاً متميزاً. لكن هذه المكانة يمكن أن تتهاوى إذا سمعت حنّة عزفنا. هل أطلب ذلك من بال؟ نعم، إنه قادر على الاستماع إلى هذه الموسيقى. كان يعزف في إحدى الفرق أيضاً، اسمها «فانباير». وكان عزفه سريعاً يستلهم الموسيقى الصاخبة الحديثة. كان عادة فتى خجولاً حساساً رقيقاً إلى حد يجعله شبه أنثوي، لكنه يرتدي ملابس من الجلد الأسود ويعزف الغيتار الكبير ويجأر على المسرح كأنه تجسيد للشيطان... سوف يفهم ما نفعله. وهكذا مضيت إليه في الاستراحة التالية وقلت له إننا سجلنا بعض الأغاني في الأسبوع الماضي، وطلبت منه أن يستمع إليها ويقول لي رأيه فيها. بكل سرور!

وضع السماعات على أذنيه وضغط زر التشغيل، أما أنا فرحت أنظر قلقاً إلى وجهه. ابتسم ونظر إليَّ نظرة تساؤل. بدأ يضحك بعد دقائق قليلة، ثم نزع السماعات عن أذنيه.

قال لي: «هذا عديم القيمة يا كارل أوفِه. إنه بائس جداً. لماذا تزعجني به؟ ما الذي يجعلني أستمع إلى هذا الشيء؟ هل تسخر مني؟».

«لا قيمة له؟ ماذا تعني بهذا؟».

«لا تستطيعون العزف. ولا تستطيعون الغناء. لا تستطيعون شيئاً».

قال هذا وفتح ذراعيه.

قلت: «أنا واثق من قدرتنا على التطور».

قال: «اتركوا هذا الأمر!».

هل تظن إذن أن فرقتك عظيمة جداً؟ وددت أن أقول له هذا، لكني لم أقله. قلت بدلاً من ذلك: «لا بأس، لا بأس! أشكرك على أية حال».

ضحك مجدداً ونظر إليَّ نظرة استغراب. لا يستطيع أحد أن يسبر غور بال نتيجة موسيقاه المعدنية السريعة ونتيجة ذلك الطبع الغريب فيه الذي يجعل الصف كله يضحك منه، الطبع غير المنسجم مع خجله على الإطلاق. ثم إن خجله أيضاً غير منسجم أبداً مع ما يستطيع إظهاره أحياناً من انفتاح شبه تام يجعله لا يخاف شيئاً. على سبيل المثال، أرانا ذات مرة قصيدة نشرها في مجلة الفتيات «ديت نوي» التي أجرت مقابلة معه أيضاً. كان طلق اللسان، وقحاً، حساساً، خجولاً، عدوانياً، خشناً.... هذا كله معاً! هكذا هو بال! أستطيع القول من ناحية إن من الحسن أنني جعلت بال يستمع إلى فرقتنا لأنه شخص لا يعني شيئاً، ولأن لا أهمية لضحكه مما سمعه. وهكذا، أعدت الووكمان بهدوء إلى جيبي ومضيت إلى الصف. لعله كان محقاً عندما قال إننا لسنا جيدين جداً في العزف. لكن، متى كانت إجادة العزف أمراً مهماً؟ ألم يسمع بشخص اسمه بونك؟ ألم يسمع بفرقة «نيو ويف»؟ لم يكونوا يتقنون العزف! لكن لديهم شجاعة، لديهم قوة وروح وحضور.

حصلنا على فرصتنا الأولى بعد وقت قصير من هذا، أوائل خريف 1984. لقد رتب أوفيند الأمر من أجلنا. يحتفل مركز هانِه للتسوق بمرور خمس سنين على انطلاقته. وكانوا يعتزمون الاحتفال بهذه المناسبة: إطلاق البالونات، والحلوى، والموسيقى. سوف يغني الأخَوان بوكسلي اللذان اشتهرا منذ عقدين في المنطقة كلها

بأداء أغاني سورلاند الفولكلورية. لكن صاحب المركز التجاري كان يريد تقديم شيء محلي أيضاً، ومن الأفضل أن يكون شيئاً يثير اهتمام الشباب. كنا مناسبين لهذه الغاية تماماً لأننا نجري تدريباتنا في مكان لا يبعد عن مركز التسوق أكثر ثلاثمئة متر. كان علينا أن نعزف مدة عشرين دقيقة، وسوف يدفعون لنا خمسمائة كرون مقابل ذلك. شكرنا أوفيند وعانقناه عندما أخبرنا بهذا. لقد جاءت لحظتنا بعد انتظار طويل.

كان الاحتفال مقرراً في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم السبت بعد أسبوعين من ذلك. مر الأسبوعان سريعاً. أجرينا عدة تدريبات للفرقة كلها، وأجريت تدريبات منفردة مع يان فيدار. ناقشنا ترتيب قائمة الأغاني التي سنقدمها، وغيرنا ذلك الترتيب مراراً. اشترينا أوتاراً جديدة قبل عدة أيام حتى نستطيع العزف جيداً، وقررنا الملابس التي سنرتديها. وعندما جاء ذلك اليوم اجتمعنا باكراً في غرفة التمرين حتى نعزف تلك الأغنيات عدة مرات قبل أن يأتي الموعد. صحيح أننا كنا نغامر بأن يستولي علينا التعب في وقت أبكر مما يجب، لكننا رأينا أن زيادة انسجامنا مع تلك الأغاني أكثر أهمية.

كان إحساسي رائعاً عندما مضيت عبر إسفلت الساحة أمام المركز التجاري حاملاً علبة الغيتار في يدي. كانت معداتنا جاهزة مسبقاً وموضوعة على جانب أحد الممرات المفضية إلى الساحة الوسطى. كان أوفيند يرتب مجموعة الطبول، ويان فيدار يضبط غيتاره مستخدماً أداة ضبط جديدة اشتراها لهذه المناسبة. وقف من حولنا عدد من الأطفال... راحوا ينظرون إليهما. سرعان ما سينظرون إليَّ أيضاً. كنت قد قصصت شعري قصيراً وارتديت سترة عسكرية وبنطلوناً من الجينز الأسود وحزاماً ذا إبزيم معدني عريض، وحذاء كرة السلة الملون بالأبيض والأزرق. وبالطبع، كان الغيتار في يدي.

عند آخر الممر، كان الأخوان بوكسلي يغنيان. وكان مجتمعاً أمامهما حشد صغير من الناس، ربما عشرة أشخاص. كان هنالك تيار مستمر من المارة الداخلين إلى مركز التسوق والخارجين منه. هبت الريح فذكرني شيء فيها بالحفلة التي أقامتها فرقة «بيتلز» على سطح مبنى آبل عام 1970.

سألت يان فيدار: «هل كل شيء على ما يرام؟» ثم وضعت حقيبة الغيتار وفتحتها وأخرجته منها وعلّقت شريطه على كتفي.

قال لي: «نعم. هل حان وقت وَصل آلاتنا إلى مضخّمات الصوت؟ كم الساعة يا أوفيند؟».

«بقي لنا عشر دقائق».

«عشر دقائق حتى نبدأ. فلننتظر قليلاً. فلننتظر خمس دقائق، ما رأيك؟»

مضى إلى مضخم الصوت فأخذ رشفة من علبة الكولا. كان قد حزم رأسه بوشاحٍ ملفوف. كان مظهره عادياً إذا ما استثنينا ذلك الوشاح: قميص أبيض تدلّت حوافّه فوقَ بنطلون أسود.

لا يزال الأخوان بوكسلي مستمرَّيْن في الغناء.

نظرت إلى قائمة الأغاني التي ألصقناها على مضخّم الصوت.

«سموك أون ذي ووتر»

«بارانويد»

«بلاك ماجيك وومن»

«سو لونلي»

سألت يان فيدار: «هل أستطيع استعارة أداة الضبط؟»

ناولني الأداة فوصلتها إلى الغيتار. كان غيتاري مدوزَناً، لكني عبثت بأوتاره قليلاً على أية حال. دخلت ساحة الوقوف عدة سيارات ودارت فيها ببطء باحثة عن أماكن فارغة. وعند انفتاح أبوابها، تدفق منها أطفال جالسون في المقاعد الخلفية وراحوا يقفزون على الأسفلت ثم أمسكوا بأيدي آبائهم وأمهاتهم وأتوا في اتجاهنا. نظروا إلينا كلهم عند مرورهم. لم يتوقف أحد منهم.

وصل يان هينريك غيتاره الكبير إلى مضخم الصوت ونقر أحد الأوتار نقراً قوياً. تردد الصوت في أرجاء الساحة.

بووم.

بووم.

بووم.

نظر الأخوان بوكسلي صوبنا خلال غنائهما. خطا يان هينريك إلى المضخم وأدار مفتاح الصوت ونقرُ الوتر مرتين.

بووم.

بووم.

عدة ضربات على طبول أوفيند. وبضع نغمات من غيتار يان فيدار. كان الصوت شديداً إلى حد لا يُصدَّق. نظر إلينا كل من كان هناك. صاح واحد من الأخوَيْن بوكسلي: «أنتم! اخفضوا الصوت قليلاً!» أشاح يان فيدار بوجهه عنه ثم استدار وأخذ جرعة كولا أخرى. كان هنالك صوت في المضخم المتصل بالكمان الكبير. وهنالك صوت أيضاً في غيتار يان فيدار. لكن ماذا عنّي أنا؟ خفضت صوت الغيتار ونقرت وتراً ثم رحت أرفع الصوت تدريجاً إلى أن بدا مضخم الصوت كأنه يقفز في مكانه، ثم رفعت الصوت أكثر وأنا أحدق طيلة الوقت في عازفَيْ الغيتار المغنيين عند نهاية الممر الأخرى. كانا يتقافزان بوجهين مبتسمين ويغنيان أناشيدهما العتيقة عن النوارس وزوارق الصيد وغروب الشمس. وعندما نظرا صوبي بعيون لا يمكن وصفها إلّا بأنها في غاية الغضب، خفضت الصوت من جديد. تأكدنا الآن من أن كل شيء لدينا يعمل جيداً.

سألت يان فيدار: «كم الساعة الآن؟» كانت أصابعه تتجول على عنق غيتاره صعوداً وهبوطاً. قال لي: «إنها الحادية عشرة وعشرون دقيقة».

قلت: «لقد تأخرا! كان عليهما أن ينتهيا من الغناء».

كان الأخوان بوكسلي يمثلان كل ما أعاديه: العالم البرجوازي الدافئ المحترم. كنت أتمنى أن أقلب مضخم الصوت وأن أرميهما خارج الحلبة. حتى هذه اللحظة، كان عصياني متمثلاً في التعبير عن آراء مخالفة في الصف، وفي وضع رأسي على المقعد والنوم. ذات مرة، عندما رميت كيساً ورقياً مستخدماً على الرصيف وقال لي رجل كهل إن عليَّ أن ألتقطه، قلت له أن يلتقطه بنفسه إذا كان الأمر شديد الأهمية في نظره. عندما سرت مبتعداً عنه، كان قلبي يقفز عنيفاً في صدري، عنيفاً إلى حد جعلني شبه عاجز عن التنفس. أما غير ذلك، فكان عصياني يتجلى في الاستماع إلى الموسيقى التي أحببتها، موسيقى غير مهادنة، معادية للإعلانات، فرق سرّية... هذا ما كان يجعلني متمرداً، هذا ما كان يجعلني شخصاً لا يقبل شيئاً مما اتفق عليه الناس، شخصاً يكافح من أجل التغيير. كلما كان صوت تلك الموسيقى أعلى، كلما صرت أقرب إلى ذلك المثال. اشتريت قبل ذلك وصلة طويلة للغيتار حتى أستطيع الوقوف أمام المرآة الطويلة والعزف هناك مع بقاء مضخم الصوت في الأعلى، في غرفتي،

مدوياً بأقصى قوته. عند ذلك، كانت الأشياء تبدأ الحدوث حقاً، وكان الصوت يصير مشوَّهاً، ثاقباً. وبغض النظر عما كنت أقوله أو أعزفه، فقد كان يبدو لي جيداً. كان البيت كله يمتلئ بصوت غيتاري وبتجاوب غريب بين هذه الأصوات ومشاعري كما لو أنها أنا نفسي، كما أن ذلك كان هو نفسي الحقيقية. كتبت بعض الكلمات عن هذا الأمر. أردتها أن تكون أغنية؛ لكني لم أستطع وضْع لحن لها فاعتبرتها قصيدة وكتبتها في دفتر مذكراتي:

أخفي عن قلبي أشياء كثيرة
لكني أقول كل ما فيه
أنظر إليك وأقول في نفسي:
أنت رفيقة وحدتي
أنت رفيقة وحدتي
أنت وأنا
أنت وأنا، يا حبيبتي

أردت أن أنطلق، أن أخرج إلى العالم الكبير الواسع. كانت الموسيقى الطريقة الوحيدة التي أعرفها لفعل ذلك، الطريقة الوحيدة التي أملكها. هذا ما جعلني أقف هذا اليوم أمام مركز التسوق في هانيز أوائل خريف 1984، ومعي تأكيد هويتي: تقليد لغيتار ستراتوكاستر، بلون أبيض لامع، معلقاً من كتفي، وإصبعي على مفتاح ضبط الصوت مستعداً للضغط عليه لحظة يخبو آخر نغم في أغنية الأخوين بوكسلي.

اشتدت الريح فجأة في تلك الساحة فحملت أوراق الأشجار في زوابع صغيرة مرت قريباً منا كأنها تتصارع أثناء طيرانها، وراح إعلان عن الآيس كريم يدور ويدور في تلك الريح خافقاً مقعقعاً. ظننت أنني أحسست بقطرة مطر على خدي فاسترقت نظرة إلى السماء البيضاء الحليبية.

سألت: «هل بدأت تمطر؟».

فتح يان فيدار راحة يده ثم رفع كتفيه.

قال: «لا أشعر بشيء. لكننا سنعزف بغض النظر عما يحدث... حتى إذا أمطرت».

قلت: «نعم! هلْ أنت متوتر؟».

هز رأسه بشدة.

انتهت أغنية الأخوين عند ذلك. صفق لهما الأشخاص القلائل الواقفين هناك فانحنى الأخوان انحناءة صغيرة.

استدار يان فيدار إلى أوفيند.

سأله: «هل أنت مستعد؟».

أومأ أوفيند برأسه.

«هل أنت مستعد يا يان هينريك؟».

«كارل أوفِه؟».

أومأت برأسي.

قال يان فيدار كأنه يخاطب نفسه: «اثنان، ثلاثة، أربعة»، ثم عزف وحده السطور الأولى من لازمة الأغنية.

انفجر صوت غيتاره عبر الساحة الإسفلتية فقفز الناس في أماكنهم مُجفلين. استدار الجميع صوبنا. رحت أعدّ في سري. وضعت أصابعي على غيتاري. كانت يدي ترتجف.

واحد اثنان ثلاثة ـ واحد اثنان ثلاثة أربعة ـ واحد اثنان ثلاثة ـ واحد اثنان.

كان عليَّ أن أبدأ العزف في تلك اللحظة، لكني لم أسمع صوتاً. حدَّق يان فيدار في اتجاهي... تجمدت عيناه. انتظرت حتى جاء دوري من جديد، رفعت الصوت، ثم بدأت. كان الصوت مصماً عندما انطلق الغيتاران معاً.

واحد اثنان ثلاثة ـ واحد اثنان ثلاثة أربعة ـ واحد اثنان ثلاثة ـ واحد اثنان.

عند ذلك، انضمت الطبول إلينا.

تشيكا ـ تشيكا، تشيكا ـ تشيكا، تشيكا ـ تشيكا، تشيكا ـ تشيكا.

ثم الطبل الصغير. ثم الصنوج.

ثم انضم الطبل الكبير.

بووم ـ بووم ـ بووم ـ بووم بوووم بووم بووم بووم ـ بووم.

بووم ـ بووم ـ بووم ـ بووم بوووم بووم بووم بووم ـ بووم.

في تلك اللحظة، نظرت إلى يان فيدار من جديد. كان وجهه متوتراً، مشوَّهاً، مكشراً وهو يحاول أن يقول لي شيئاً من غير أن يستخدم صوته.

هذا أسرع مما يجب! هذا أسرع مما يجب! هذا أسرع مما يجب!

تمهل أوفيند قليلاً. حاولت مواكبتهما، لكن الأمر كان مربكاً لأن الغيتار الكبير وغيتار يان فيدار تابعا على الوتيرة نفسها. وعندما غيرت رأيي وحاولت مواكبتهما، تباطأ إيقاعهما فجأة فصرت الشخص الوحيد الذي يعزف مسرعاً. لاحظت في خضم هذه الفوضى كيف كانت الريح تعبث بشعر يان فيدار. ولاحظت أيضاً أطفالاً وقفوا أمامنا واضعين أيديهم على آذانهم. بلغنا المقطع الأول من الأغنية عند ذلك. صار عزفنا متوافقاً إلى حد ما. ظهر في تلك اللحظة رجل في بنطلون أسود وقميص مخطط بالأبيض والأزرق وسترة صيفية صفراء. كان قادماً عبر الساحة الإسفلتية. إنه مدير مركز التسوق. كان متجهاً صوبنا مباشرة. عندما صار على مسافة عشرين متراً راح يلوح بذراعيه كأنه يحاول إيقاف سفينة. تابع التلويح بذراعيه. أما نحن فتابعنا العزف. لكنه توقف أمامنا تماماً. كان مستمراً في التلويح بيديه. ما عاد هنالك شك أبداً في أنه يشير إلينا بأن نتوقف. توقفنا.

قال لنا: «بحق الجحيم، ماذا تظنون أنفسكم فاعلين؟».

أجابه يان فيدار: «لقد طُلب منا أن نعزف هنا».

«هل فقدتم عقولكم؟ إنه مركز تسوق. إنه يوم السبت. يريد الناس أن يتسوقوا وأن يمضوا وقتاً طيباً. لا يريدون الاستماع إلى هذا الضجيج الجهنمي».

سأله يان فيدار: «أتظن أن علينا خفض الصوت قليلاً؟ نستطيع أن نفعل هذا بكل سهولة».

قال الرجل: «ليس قليلاً؛ اخفضه كثيراً».

كان عدد من الناس قد اجتمع حولنا الآن، لعلهم خمسة عشر أو ستة عشر شخصاً، بمن فيهم الأطفال، هذا ليس سيئاً!

استدار يان فيدار صوب المضخّم ودفع بمفتاح الصوت إلى الأسفل. نقر على وتر غيتار ثم نظر إلى المدير نظرة مستطلعة.

سأله: «هل هذا مناسب؟».

قال المدير: «أخفَض».

خفض يان فيدار الصوت من جديد، ثم نقر وتراً.

سأل المدير: «هل هو مناسب الآن؟ نحن لسنا فرقة رقص، وأنت تعرف هذا».

قال المدير: «صحيح. حاول أن تبقى على هذا الصوت، أو أخفض قليلاً».

عدل يان فيدار مفتاح الصوت من جديد. بدا أنه يحرك مفتاح الصوت، لكني رأيت أنه يتظاهر بذلك فحسب.

قال: «نحن جاهزون».

خفضنا الصوت، أنا ويان هينريك.

قال يان فيدار: «فلنبدأ من جديد».

بدأنا العزف مجدداً. ورحت أعد في رأسي: واحد اثنان ثلاثة ـ واحد اثنان ثلاثة أربعة ـ واحد اثنان ثلاثة ـ واحد اثنان.

كان المدير عائداً صوب المدخل الرئيس لمركز التسوق. رحت أراقبه أثناء عزفنا. وعندما وصلنا إلى الجزء الذي قوطِعنا عنده. توقف المدير ثم استدار. نظر إلينا، ثم استدار وسار بضع خطوات صوب المدخل، ثم استدار من جديد. عاد إلينا فجأة، عاد يلوِّح بذراعيه غاضباً. لم يره يان فيدار، كانت عيناه مغمضتين. لكن يان هينريك رآه فرفع حاجبه. كان المدير يصيح «لا، لا، لا». توقف قبالتنا: «هذا سيئ جداً! إنني آسف! عليكم أن تكفّوا عن العزف».

قال يان فيدار معترضاً: «ماذا؟ لماذا؟ قلت لنا سنعزف خمساً وعشرين دقيقة».

قال المدير: «هذا سيئ جداً». خفض رأسه وعاد يلوّح بيديه أمامنا... «آسف يا شباب».

كرر يان فيدار سؤاله: «لماذا؟»

قال المدير: «لا أستطيع الاستماع إلى هذا. حتى إنكم لا تغنّون أيضاً! هيا. ستحصلون على مالكم. ها هو».

أخرج من جيب سترته الداخلي مغلفاً قدّمه إلى يان فيدار قائلاً: «هاك! شكراً لقدومكم. لكن هذا لم يكن ما أردته. أرجو ألا تنزعجوا».

أخذ يان فيدار المغلف. استدار مبتعداً عن المدير وفصل غيتاره عن المضخم ثم أطفأه ورفع الغيتار فوق رأسه ثم مضى به ليضعه في علبته. فتح العلبة ووضع الغيتار فيها. كان الناس من حولنا يبتسمون.

قال يان فيدار: «هيا بنا. إننا ذاهبون».

بعد تلك الحادثة، صار وضع الفرقة مشكوكاً فيه. واظبنا على التمرين بضع مرات، لكن قلوبنا لم تكن هناك. وبعد ذلك، قال أوفيند ذات يوم إنه لا يستطيع القدوم

إلى جلسة التدريب التالية. وفي المرة التالية، غابت مجموعة الطبول. وفي المرة التي بعدها، كان لدي تمرين على كرة القدم... في تلك الأثناء، تباعدت اللقاءات بيننا، أنا ويان فيدار، لأننا كنا في مدرستين مختلفتين. وبعد بضعة أسابيع، قال لي مغمغماً إنه التقى شخصاً يعجبه في صف آخر. وهكذا، صرت أعزف وحدي معظم الأحيان... حتى أمضي الوقت!

بدأت أغني «غراوند كنترول تو ميجر توم» وأنقر على الوترين السفليين اللذين أحبهما كثيراً وأفكر في كيسَيْ زجاجات البيرة المنتظرين في الغابة.

عندما جاء إنغفِه لقضاء عطلة عيد الميلاد في البيت، أحضر معه كتاب أغاني بوي، فنسختُ تلك الأغاني في كراسة. أخرجت الكراسة الآن. كان كل شيء موجوداً فيها: الكلمات والرموز الموسيقية. ثم شغلت شريط هانكي دوري ورحت أستمع إلى أغنية «لايف أون مارس» وأرافقها في العزف... عزفت بصوت منخفض حتى أستطيع سماع الكلمات والآلات الأخرى. سرت قشعريرة في ظهري. كانت أغنية رائعة. وبينما كنت أتابع تسلسل النغمات على غيتاري، بدا لي كأن الأغنية تفتح نفسها أمامي... كأنني صرت في قلبها، لا في خارجها. هذا ما كنت أشعر به عندما أستمع إلى الأغنية فقط. لا بد لي من عدة أيام حتى أستطيع أن أفتح أغنية وأدخلها من غير مساعدة لأنني لا أستطيع تمييز النغمات الموسيقية جيداً. كان عليَّ أن أتلمس طريقي بصعوبة كبيرة. وحتى إذا عثرت على نغمات بدت لي مألوفة، فإنني لم أكن أبداً أستطيع الثقة في أنها هي النغمات نفسها حقاً. وضعت قلمي، ورحت أصغي بتركيز شديد، ثم حملت القلم وحاولت تسجيل اللحن. هممم... وضعت القلم وأصغيت من جديد. حاولت عزف اللحن. هل هو اللحن نفسه؟ أو لعله هذا؟ لن أقول شيئاً عن الأساليب المختلفة لعزف الغيتار التي اشتملت عليها تلك الأغنية! لا أمل لي في هذا! أما إنغفِه، على سبيل المثال، فهو لا يحتاج إلى الاستماع أكثر من مرة واحدة ليصبح قادراً على عزف الأغنية كلها من غير أخطاء... بعد محاولتين اثنتين فقط! كنت أعرف أشخاصاً آخرين مثله، وقد بدا لي أنهم موهوبون. ليست الموسيقى شيئاً متميزاً عن تفكيرهم، أو لعلها لا علاقة لها بالتفكير، لأنها تعيش حياتها الخاصة في داخلهم. عندما يعزفون، فإنهم يعزفون فحسب.:. إنهم لا يقدمون تكراراً ميكانيكياً لشيء تعلموه. كانت الحرية في ذلك كله، الحرية التي هي جوهر الموسيقى، شيئاً ليس في متناولي. يصح الأمر

نفسه على الرسم! لا يستطيع الرسم أن يجعلني شخصاً بارزاً، لكني كنت أحبه رغم ذلك وأمضي وقتاً غير قليل في الرسم عندما أكون وحيداً في غرفتي. إن كان لديَّ نموذج محدد، شخصية من أفلام الكرتون مثلاً، فإنني قادر على رسْمها بشكل مقبول. أما عندما لا أنسخ شيئاً محدداً... عندما أترك يدي ترسم على هواها، فإن النتيجة لا تكون جيدة على الإطلاق.

في الرسم أيضاً، كنت أعرف أشخاصاً يملكون الموهبة. لعل تومي، زميلتي في الصف، واحدة من هؤلاء الأشخاص. أقول هذا لأنها تستطيع، من غير بذل جهد كبير، أن ترسم أي شيء تريده: الشجرة التي تراها عبر النافذة، والسيارة الواقفة تحتها، والمعلم واقفاً أمام اللوح في الصف. عندما طُلب منا أن نختار موضوعات دراسية إضافية على هوانا، وددت أن أختار موضوع «الأشكال والألوان». لكني كنت أعرف الوضع، وأدرك أن الطلاب الآخرين يعرفون كيف يرسمون، أدرك أنهم يملكون موهبة، فعدلت عن هذا الاختيار. اخترت بدلاً من ذلك موضوع «السينما». كان التفكير في الأمر ثقيلاً على نفسي أحياناً، لأنني كنت راغباً كثيراً في أن أصير شخصاً متميزاً. أردت كثيراً أن يكون لديَّ شيء خاص.

نهضت، ووضعت الغيتار في مكانه ثم أطفأت مضخّم الصوت ومضيت إلى الأسفل حيث وجدت أمي تكوي. كان الثلج قد غطى دوائر الضوء حول المصابيح فوق الباب وعلى جدران الحظيرة في الخارج.

قلت: «يا لهذا الطقس!»

قالت: «معك حق».

عندما ذهبت إلى المطبخ تذكرت أن سيارة إزالة الثلج عن الطريق قد مرت قرب بيتنا منذ قليل. قد تكون إزالة الثلج من بداية الممر المفضي إلى بيتنا فكرة حسنة.

استدرت صوْب أمي: «أظن أنني سأخرج لأجرف بعض الثلج قبل وصولهم».

قالت: «جيد! بما أنك ستخرج، فهل تستطيع أن توقد المشاعل؟ إنها في المرآب، في كيس كبير معلق على الجدار».

«سأفعل هذا. هل لديك قدّاحة؟».

«إنها في حقيبتي».

ارتديت معطفي وخرجت.

فتحت باب المرآب وأحضرت الجاروف، ثم غطيت وجهي بالوشاح ومضيت إلى نقطة التقاطع بين الطريق وممر بيتنا. ومع أن ظهري كان في اتجاه حركة الثلج الذي تسوقه الريح عبر الحقول، لكنه كان يلسع عيني ووجنتيّ عندما بدأت أجرف كومة من الثلج الجديد ومن تحتها كتل ثلج قديمة. بعد دقائق معدودة، سمعت شيئاً يشبه صوت اصطدام. كان بعيداً، مكتوماً، كأنه داخل غرفة. رفعت رأسي في اللحظة المناسبة لأرى لمعة ضوء ناجمة عن انفجار صغير في أعماق الظلمة التي تكتسحها الريح. لا بد أنهم توم وبير ووالدهما يختبرون الألعاب النارية التي اشتروها. قد يرون ذلك أمراً مثيراً، لكنه أخافني لأن الشيء الوحيد الذي فعلته التماعة الضوء الصغيرة تلك كان تكثيف إحساسي بالخواء بعدها. ما كانت هنالك سيارة ولا أية روح حية من حولي... الغابة المعتمة فقط، والثلج المندفع، وذلك الشريط الثابت من الضوء على امتداد الطريق. كانت الظلمة كثيفة في الوادي من تحتي. وكنت أسمع صوت اصطدام حد الجاروف المعدني بكتل الثلج المضغوط التي صارت صلبة كالحجر، وأسمع صوت تنفُّسي الذي يضخّمه الوشاح الذي يغلف قبعتي وأذني.

عدت إلى المرآب عندما انتهيت. وضعت الجاروف ووجدت المشاعل الأربعة في الكيس فأشعلتها واحداً بعد الآخر في ذلك الظلام. لم يكن ذلك من غير متعة لأن ألسنة اللهب كانت في غاية اللطف. كان اللون الأزرق فيها يرتفع ثم يخبو بحسب اتجاه تيار الهواء. فكرت لحظة في المواضع الأفضل لهذه المشاعل ثم توصلت إلى ضرورة وضْع اثنين منها أمام الدرجات المفضية إلى باب البيت ووضع الاثنين الآخرين في أعلى الجدار أمام الحظيرة.

لم أكد أفرغ من تثبيت المشاعل في أماكنها، اثنان على الجدار مع سياج ثلجي واقٍ صغير من خلفها، ومن إغلاق باب المرآب، حتى سمعت صوت سيارة آتية عبر المنعطف تحت البيت. فتحت باب المرآب من جديد وأسرعت إلى البيت. عليَّ أن أكون جاهزاً تماماً قبل وصولهم من غير أي إشارة توحي بما كنت أفعله. تنامى هذا الهاجس الصغير سريعاً في داخلي، فجريت إلى الحمام بأقصى سرعتي. أخذت منشفة وجففت حذائي حتى لا يظهر الثلج عليه في الغرفة. وبعد ذلك خلعت معطفي وقبعتي ووشاحي وقفازي. وضعتها كلها في غرفتي.

نزلت فرأيت السيارة تتوقف في الخارج. رأيت أنوارها الخلفية الحمراء. رأيت جدّي واقفاً ويده ممسكة بباب السيارة بينما كانت جدتي تخرج منها.

عندما أكون وحيداً في البيت، تمتلك كل غرفة شخصيتها الخاصة بها. ومع أن تلك الشخصيات لا تكون عدائية تجاهي بشكل مباشر لكنها ليست مرحّبة أيضاً! يبدو الأمر كأنها لا تريد أن تسلم نفسها لي بل تفضل أن تكون موجودة بطريقتها الخاصة، بجدرانها هي، وأرضياتها، وسقوفها، والألواح الخشبية التي تغلف جدرانها، ونوافذها الفاغرة أفواهها. كنت أحس شيئاً من الموت في هذه الغرف... لا أقصد القول إن ذلك يجعلني أشعر بأنني غير مرتاح فيها... لا أقصد الموت بمعنى توقف الحياة، بل غياب الحياة، مثلما تكون الحياة غائبة عن صخرة أو كأس من الماء، أو عن كتاب. وما كان حضور قطّنا، نيفستو، قوياً إلى الحد الكافي لتبديد هذا الإحساس: كنت أرى قطاً فحسب في تلك الغرفة الخاوية! أما إذا دخل شخص ما، حتى لو كان طفلاً رضيعاً، فإن الغرفة الخاوية تختفي. يملأ أبي الغرف بشعور مزعج، وتملؤها أمي باللطف والصبر والكآبة، وأيضاً بلمسة خفيفة (لكنها واضحة) من القلق إن كانت عائدة متعَبة من عملها. وأما بير الذي ما كان يتجاوز الصالة الأمامية، فكان يملأ المكان سروراً وترقُّباً، وخضوعاً أيضاً. كان يان فيدار الشخص الوحيد من خارج العائلة الذي يدخل غرفتي. وكان يملأ تلك الغرفة بالطموح والمعاندة وروح الصداقة. من المثير حقاً أن يجتمع عدة أشخاص معاً لأن الغرفة لا تتسع لأكثر من أثر شخص واحد، إرادتان على الأكثر في غرفة واحدة، وما كانت الإرادة الأقوى هي التي تحقق الظهور الأكبر دائماً. تكون مَسْكنة بير، على سبيل المثال، والأدب الشديد الذي يظهره أمام الكبار، أقوى أحياناً من طبيعة أبي الذئبية: يظهر ذلك عند الباب عندما يكتفي أبي بهزة رأس في اتجاه بير وهو مارّ به. لكن وجود أشخاص غيرنا في البيت يظل أمراً نادراً. وأما الاستثناء من ذلك فهو زيارات والدَيْ أبي وشقيقه غونار مع أسرته. إنهم يأتون كثيراً... ربما سبع أو ثماني مرات في السنة. كنت أترقب زياراتهم مسروراً، وذلك عائد في جزء منه إلى أن شخصية جدتي بالنسبة إليَّ عندما كنت صغيراً لم تتغير بما يتناسب مع الشخص الذي صرته الآن. ثم هنالك الإشعاع المنبعث منها... ليس بسبب الهدايا التي تأتي بها دائماً، بل هو نابع من حبها الأصيل للأطفال. لا أزال أرى ذلك الإشعاع في صورتها التي أحملها في ذاكرتي. لكن السبب الآخر لسعادتي هو أن أبي يتغير دائماً في هذه

المناسبات. يصبح أكثر وداً تجاهي كأنه يغدو أكثر ثقة بي... ينظر إليَّ كما لو أنني شخص محسوبٌ حسابه. لكن هذا لم يكن أهم شيء أيضاً، لأن الروح الودية التي يظهرها تجاه ابنه ما كانت إلّا جانباً واحداً من رحابة الصدر التي تحل عليه في هذه المناسبات: يبدو ساحراً، مرحاً، متوقداً، مسلياً. إن هذا يفسر، بطريقة ما، حقيقة أن لديّ مشاعر مختلطة تجاهه وأنني كنت منشغل البال بتلك المشاعر دائماً.

عندما وصلوا إلى مدخل البيت، فتحت أمي الباب لملاقاتهم.

قالت: «مرحباً. ما أجمل أن نراكم!».

قال جدي: «مرحباً يا سيسيل».

قالت جدتي: «ما هذا الطقس؟ هل رأيت في حياتك طقساً كهذا؟ لكن عليَّ القول إن تلك المشاعل رائعة».

قالت أمي: «دعوني آخذ معاطفكم».

كانت جدتي تضع قبعة داكنة مدوَّرة من الفرو. نزعتْها ثم ضربتها على كف يدها عدة مرات حتى تنفض الثلج عنها. وبعد ذلك أعطت معطفها الفرائي الداكن لأمي، مع القبعة.

قالت ملتفتةً صوب أبي: «أمر حسن أنك أتيت لأخذنا. من المؤكد أننا لم نكن قادرين على قيادة السيارة في هذا الطقس».

قال جدِّي: «أوه، لست أدري. لكنها مسافة بعيدة حقاً. كما أن الريح عنيفة في الطريق أيضاً».

دخلت جدتي الصالة وهي تسوّي فستانها بيديها. صححتْ وضع شعرها أيضاً.

قالت لي بابتسامة سريعة: «ها أنت إذن!».

رحّبتُ بها.

جاء جدي من خلفها حاملاً معطفه الرمادي بيده. خطَت أمي متجاوزة جدتي فأخذت المعطف منه وعلَّقته على مشجب الصالة إلى جانب المرآة تحت السلم. وفي الخارج، ظهر أبي قادماً وهو ينفض الثلج عن حذائه ويضربه على حافة الدرجة عند المدخل.

قال لي جدي: «مرحَّباً، أنت! يقول أبوك إنك ذاهب إلى حفلة ليلة رأس السنة».

قلت: «هذا صحيح».

قالت جدتي: «كيف كبرتم سريعاً أيها الأولاد! تخيلوا فقط... حفلة ليلة رأس السنة!».

قال أبي من الصالة: «نعم... يبدو أنه لم يعد يرى السهر معنا أمراً طيباً». مرر أصابعه في شعره ثم هز رأسه مرتين.

قالت أمي: «ألا نذهب إلى غرفة المعيشة؟».

تبعتهم إلى تلك الغرفة وجلست في كرسي القصب القريب من باب الحديقة. أما هم فجلسوا على الأريكة. كان صوت الوقع الثقيل لخطوات أبي مسموعاً وهو صاعد إلى الطابق العلوي، ثم صار فوق القسم الداخلي من غرفة المعيشة، إن غرفته هناك.

قالت أمي وهي تنهض: «سأذهب لإعداد القهوة». صار الصمت الذي خيم على الغرفة بعد خروجها من مسؤوليتي.

قلت: «سمعت أن إيرلينغ يعيش في تروندهيم، فهل هذا صحيح؟».

قالت جدتي: «نعم، أظنه يعيش هناك. لا بد أنهم في البيت الآن». كانت في فستان حريري أزرق عليه رسوم سوداء عند الصدر. تدلت من أذنيها لؤلؤتان بيضاوان، وكانت سلسلة ذهبية تلف عنقها. وبدا شعرها قاتم اللون. لا بد أنه مصبوغ؛ لكني لم أكن واثقاً من هذا: إن كان مصبوغاً، فلماذا لم تصبغ تلك الخصلة الرمادية فوق جبهتها؟ ما كانت بدينة، وما كانت حتى ممتلئة الجسم؛ لكن شكلها يوحي بالامتلاء. كانت حركاتها شديدة الحيوية دائماً في تناقض واضح مع هذا المظهر. لكن ما تلاحظه عندما ترى جدتي، ما يفاجئك فيها قبل كل شيء آخر، هو عيناها! كان لونهما أزرق خفيفاً شديد الصفاء. كانتا تبدوان كأنهما عينان اصطناعيتان، كما لو أنهما حجريتان، إما بسبب لونهما غير المألوف أو لأنهما تناقضان مظهرها العام الداكن. كانت عينا أبي مثل عينيها تماماً، وتعطيان الانطباع نفسه. وإضافة إلى حبها للأطفال، كانت أصابعها الخضراء صفة بارزة لديها. كنا نراها في الحديقة عادة عندما نزورها في الصيف. وعندما أفكر فيها، فإنني غالباً ما أتصورها ضمن هذا الإطار، أراها مرتدية قفازيها، والريح تعبث بشعرها وهي ماشية عبر المرج حاملة ملء ذراعيها من أغصان الأشجار الصغيرة لحرْقها، أو راكعة عند حفرة صغيرة حفرتها قبل قليل وهي تزيل برفق الكيس البلاستيكي عن جذور شجرة صغيرة تريد زرعها، أو ملتفتة لتتأكد أن رشاشة الماء قد بدأت الدوران عندما تفتح الصنبور تحت الشرفة ثم تقف واضعة كفيها على ردفيها

مستمتعة بمنظر الماء المقذوف في الهواء يتلألأ في ضياء الشمس. أو أراها جاثية على المنحدر خلف البيت تنتزع الأعشاب الضارة من الأحواض التي أنشأتها في كل شق وحفرة في السفح الجبلي الصخري. كانت تلك الأحواض تشبه البرك التي يشكلها الماء على الصخور التي تضربها أمواج البحر في الأرخبيل... برك معزولة عن بيئتها الأصلية. أذكر كيف كنت أشعر بالحزن على هذه النباتات. المعزولة فوق هذه الجروف، وحيدة، مكشوفة... لا بد أنها تحنّ كثيراً إلى الحياة التي تراها تحتها. هناك، في الأسفل، تمتزج النباتات كلها وتتداخل متخذة تشكيلات مختلفة دائماً في كل ساعة من ساعات النهار وفي كل وقت من أوقات السنة. أذكر شجرتَيْ الخوخ والإجّاص العجوزين التي أتت بهما من كوخ والديها الريفي ذات مرة حيث تجري الظلال على العشب بينما تهب الريح عبر النباتات المختلفة في يوم كسول من أيام الصيف وتغيب الشمس خلف الأفق عند فم الفيورد، وتُسمع من بعيد أصوات المدينة تعلو وتهبط كأنها موجات تطفو في الهواء ممتزجة بدندنة اليعاسيب والنحلات المنهمكة في عملها بين أجمات الزهور عند الجدار، حيث يتألق بياض البتلات الشاحبة تألقاً هادئاً وسط تلك الخضرة كلها. كان لتلك الحديقة مظهر القِدَم، وكان فيها وقار وامتلاء لا يستطيع شيء غير الزمن أن يخلقهما. ما من شك في أن السبب الذي جعلها تضع البيت الزجاجي في الأسفل، نصف مختبئ خلف إحدى الصخور حيث تستطيع مواصلة عملها وزراعة أشجار ونباتات نادرة، هو أنها أرادت عدم تشويه منظر الحديقة بالمظهر العملي الموقت لذلك البيت. كنت نلمحها هناك في الخريف وفي الشتاء، ونرى شبحها الملون الباهت يلوح من خلف الجدران الزجاجية اللامعة. وكانت تظهر عليها لمحة من الاعتزاز عندما تقول (بطريقة عادية تماماً) إن الطماطم والخيار على الطاولة ليست آتية من المتجر بل من ذلك البيت الزجاجي.

كان جدي غير مهتم بالحديقة إطلاقاً. عندما تكون جدتي مع أبي أو مع غونار، أو عندما تكون جدتي مع شقيقها آلف يتحدثان عن النباتات المختلفة، أو عن الأزهار، أو الأشجار، يدرك المرء أن عائلتنا تهوى كل شيء ينمو. وكان جدي عند ذلك يتناول صحيفة ويقرأ فيها إلّا إذا كان في ذلك الوقت يبحث عن كوبونات برك السباحة وجداول نتائج مباريات دوري كرة القدم. كنت أظن دائماً أن من الغريب تماماً أن يمضي هذا الرجل الذي تشكل الأرقام محتوى عمله اليومي أوقات فراغه مع الأرقام

أيضاً، وليس في الاهتمام بالحديقة أو ممارسة النجارة أو غير ذلك من الهوايات التي تنطوي على رياضة للجسم كله. لكن لا! إنها الأرقام خلال وقت العمل، والجداول والأرقام من جديد خلال وقت الراحة. السياسة هي الشيء الوحيد الذي كنت أعرف إنه يحبه أيضاً. إذا تطرق الحديث إلى السياسة فإنه ينتعش دائماً! كانت لديه آراء قوية، لكن ولعه بالمناقشة كان أقوى. ولهذا يجده المرء مسروراً إذا عارضه أحد في رأي من آرائه. لكن عينيه لم تعبرا عن شيء غير اللطف في المرات القليلة التي عبرت فيها أمي عن آرائها اليسارية، رغم أن صوته كان يغدو أكثر ارتفاعاً وأكثر حدة. أما جدتي، من جانبها، فكانت تطالبه في هذه المناسبات بأن يتكلم في شيء آخر، أو بأن يخفض صوته. وكانت كثيراً ما تدلي بتعليقات ساخرة، بل يمكن أن تكون لاذعة تماماً بعض الأحيان؛ لكنه كان يتقبلها جميعها. وإذا كنا حاضرين عند ذلك فإنها تغمز لنا بعينها بحيث نفهم أن لا شيء جدياً في الحديث كله. كانت تضحك بسهولة وتحب أن تروي الحوادث الطريفة التي مرت في حياتها أو التي سمعت عنها. كانت تحب تذكر الأشياء المضحكة التي فعلها إنغفِه عندما كان صغيراً. كان هنالك تقارب من نوع خاص بينهما، هي وإنغفِه، لأنه عاش عندها ستة أشهر عندما كان طفلاً صغيراً، ولأنه ظل يأتي إليها بعد ذلك. كانت تخبرنا عن الأشياء الغريبة التي يمر بها إيرلينغ في مدرسته في تروندهيم، لكن مخزون القصص الأكثر غنى كان حكاياتها عن فترة الثلاثينيات عندما عملت سائقة لدى زوجة رأسمالي متقدمة في السن مصابة بشيء من الخرف.

إنهما في السبعينيات الآن: جدتي أكبر من جدي ببضع سنين، لكنهما في صحة جيدة. لا يزالان يسافران إلى الخارج في الشتاء، مثلما اعتادا أن يفعلا دائماً.

مرت بضع ثوان لم يتحدث أحد خلالها. أجهدت رأسي في العثور على شيء أقوله. نظرت من النافذة لأجعل ذلك الصمت أقل فظاظة.

سألني جدي بعد قليل: «ما رأيك بمدرستك الجديدة؟ هل لدى معلمكم ستراي شيء منطقي يقوله لكم؟».

كان ستراي معلم اللغة الفرنسية لدينا. رجلاً حيوياً قصيراً ممتلئ الجسم أصلع الرأس في السبعين تقريباً، ويملك بيتاً قريباً من مكتب جدي. وبقدر ما فهمت، فقد كان هنالك خلاف بينهما على شيء ما... لعله مسألة متعلقة بالحدود بين العقارين. لا أعرف على وجه التحديد إن كان ذلك الخلاف قد وصل إلى

المحكمة، ولا أعرف أيضاً إن كانت تلك المسألة قد سوّيت، لكنهما كفا عن تبادل التحية منذ زمن بعيد.

قلت: «الحقيقة... إنه يدعوني بعبارة المشاغب الذي في الزاوية».

قال جدي: «نعم، لا بد أنه يدعوك كذلك! وماذا عن نوغارد العجوز؟».

رفعت كتفي ثم قلت: «إنه جيد، كما أظن. يواصل فعل الأشياء القديمة نفسها. إنه من أنصار المدرسة القديمة، هكذا هو. كيف تعرفه؟».

قال جدي: «أعرفه من خلال آلف».

قلت: «أوه، بالطبع».

نهض جدي وسار حتى النافذة حيث وقف ينظر إلى الخارج واضعاً يديه خلف ظهره. كان كل شيء مظلماً خارج بيتنا باستثناء أنوار قليلة ظهرت في نوافذ بعض البيوت.

سألته جدتي وهي تغمز لي بعينها: «هل تستطيع رؤية شيء في الخارج أيها الأب؟».

قال جدي: «إن موقع هذا البيت جميل جداً».

في تلك اللحظة، دخلت أمي غرفة المعيشة حاملة أربعة فناجين. استدار جدي نحوها: «كنت أقول لكارل أوفِه إن موقع هذا البيت جميل جداً».

توقفت أمي كما لو أنها غير قادرة على قول شيء خلال سيرها.

قالت: «نعم. إننا سعداء جداً بهذا الموقع». وقفت هناك حاملة الفناجين بيديها. راحت ابتسامة صغيرة تتراقص على شفتيها عندما نظرت إلى جدي. كان هنالك شيء ما... نعم كأن وجهها موشكٌ على الاحمرار. لا أقول إن وجهها احمرَّ فعلاً، ولا أقول إنها كانت محرَجة... لم يكن الأمر هكذا. بل إنها لم تكن تحاول الاختباء خلف أي شيء. إنها لا تفعل ذلك أبداً. كلما تكلمت يكون كلامها مباشراً، نابعاً من القلب؛ لا تقول شيئاً لمجرد الكلام.

قالت: «البيت قديم. إن في هذه الجدران سنين كثيرة. هذا حسن وسيئ في وقت واحد. لكن العيش هنا أمر لطيف».

هز جدي رأسه وتابع النظر إلى الظلمة في الخارج. مضت أمي إلى الطاولة لتضع الفناجين عليها.

قالت جدتي: «أين اختفى مضيفنا؟».

أجابها أبي: «إنني هنا».

التفت الجميع. كان واقفاً عند الطاولة العامرة في غرفة الطعام. كان منحنياً قليلاً تحت عوارض السقف الخشبية وفي يده زجاجة نبيذ. من الواضح أنه كان يقرأ ما هو مكتوب عليها.

كيف وصل إلى هناك؟

لم أسمع له صوتاً. إن كان هنالك شيء أنتبه إليه دائماً في هذا البيت فهو حركة أبي!

قال لي: «هل تأتي ببعض الحطب قبل ذهابك يا كارل أوفِه؟».

أجبته: «نعم».

نهضت ومضيت إلى الصالة. وضعت حذائي وفتحت الباب الخارجي. صفعت الريح وجهي. لكن هطول الثلج توقف أخيراً. عبرت الباحة أمام البيت ومضيت إلى سقيفة الحطب تحت الحظيرة. كان ضوء المصباح الكهربائي العاري المعلق من سقفها منعكساً على الجدران القرميدية الخشنة. وكانت أرضها كلها مغطاة بلحاء الأشجار وشظايا الخشب. رأيت الفأس مغروسة في كتلة تقطيع الحطب. وفي إحدى الزوايا، يرقد منشار كهربائي ملون بالأسود والبرتقالي. اشترى أبي هذا المنشار عند انتقالنا. كانت هنالك شجرة أراد قطعها. وعندما صار مستعداً لبدء العمل، لم يستطع تشغيل المنشار. ظل ينظر إليه فترة طويلة، ويشده، ثم مضى فاتصل بالمتجر الذي اشتراه منه. سألته عندما عاد: «ما المشكلة؟» فأجابني: «لا شيء! إنه مجرد أمرٍ لم يوضحوه لي عندما اشتريته». لا بد أن ذلك كان واحدة من تلك النصائح المتعلقة بالسلامة... لمنع الأطفال من استخدام المنشار، هذا ما استنتجته. لكنه، تمكن من تشغيله الآن. وبعد قطع الشجرة، أمضى أبي طيلة فترة بعد الظهر في تقطيعها إلى أجزاء صغيرة. يمكنني القول إنه كان يحب العمل. وبعد انتهائه، لم يعد لديه شيء يستخدم ذلك المنشار من أجله فتركه على أرض السقيفة منذ ذلك الوقت.

جمعت قطع الحطب وحملت أقصى كمية استطعت حملها، ثم فتحت الباب بقدمي وعدت عبر الباحة مترنحاً بحملي الثقيل. سيطرت على عقلي فكرة أنهم سوف يذهلون لضخامة الكمية التي أتيت بها. رميتُ حذائي وتابعت السير وأنا مائل إلى

الخلف قليلاً، بل كنت موشكاً على الانهيار تحت ذلك الثقل. دخلت غرفة المعيشة.

قالت جدتي عندما دخلت: «انظروا إليه! لقد أتى بكمية ضخمة من الحطب».

توقفت أمام صندوق الحطب.

قال أبي: «انتظر لحظة، سوف أساعدك». جاء وأخذ بعض قطع الخشب من قمة تلك الكومة بين ذراعي فوضعها في الصندوق. كانت شفتاه مضغوطتين، وعيناه باردتين. ركعت وتركت بقية الحطب تسقط في الصندوق.

قال أبي: «صار لدينا الآن حطب يكفينا حتى الصيف».

نهضت واقفاً والتقطت بعض نثرات الخشب عن قميصي، ثم جلست على الكرسي بينما جثا أبي عند الموقد. فتح بابه ووضع فيه قطعتين كبيرتين من الحطب. كان يرتدي بذلة قاتمة اللون مع ربطة عنق حمراء داكنة وحذاء أسود وقميص أبيض. كان ذلك على تضاد مع عينيه الزرقاوين الباردتين ولحيته السوداء وبشرته المسمرة قليلاً. كان يمضي الصيف كله في الشمس كلما استطاع ذلك فيصير جلده شديد السمرة في شهر آب/ أغسطس. لكن، لا بد أنه يذهب إلى صالون التسمير هذا الشتاء... فاجأتني هذه الفكرة... إلّا إذا كان، آخر الأمر، قد تلقّى كمية من أشعة الشمس كافية لجعل اسمراره دائماً.

كان الجلد حول عينيه قد بدأ يتشقق قليلاً مثلما يتشقق الجلد الجاف. كان يشكل غضوناً دقيقة متقاربة.

نظر إلى ساعته وقال: «على غونار أن يصل سريعاً إن كان لنا أن نتناول طعامنا قبل منتصف الليل».

قالت جدتي: «إنه الطقس السيء. سوف يضطر إلى القيادة بحذر هذه الليلة».

التفت أبي صوبي: «ألم يحن وقت ذهابك؟».

قلت له: «يجب أن أذهب، لكني كنت أريد أولاً إلقاء التحية على غونار وتوفِه».

أطلق أبي ضحكة صغيرة ساخرة تشبه النخير.

«اذهبْ واستمتع بوقتك. لستَ مضطراً إلى الجلوس معنا. أنت تعرف هذا».

نهضت واقفاً.

قالت أمي: «إنّ قميصك معلّق عند الخزانة في الغرفة الأخرى».

أخذت قميصي وصعدت إلى غرفتي حيث بدلت ملابسي. ارتديت بنطلوناً

قطنياً أسود عريضاً عند الفخذين ضيقاً في الأسفل وله جيوب على جانبيه مع قميص أبيض وسترة سوداء. لففت الحزام المرصع بالمسامير المعدنية الذي كنت أعتزم ارتداءه فوضعته في الحقيبة. صحيح أن من المحتمل ألّا يمنعوني من ارتدائه، لكنهم سيلاحظونه. ما كنت أريد المرور بهذا كله الآن. أضفت إلى الحقيبة الحذاء الأسود ذي العقبين الطريين، وقميصاً إضافياً، وعلبتين من سجائر بول مول الخفيفة، وبعض العلكة والأقراص التي تزيل رائحة الفم. وقفت أمام المرآة عندما انتهيت من ذلك. صارت الساعة السابعة وخمس دقائق. يجب أن أكون في طريقي الآن. لكن يجب أن أنتظر وصول غونار أطول فترة ممكنة. إذا لم يصل قبل خروجي، فهناك احتمال مصادفته في الطريق. وبما أنني سأكون حاملاً كيسين من زجاجات البيرة فلن تكون مصادفة حسنة.

لم يكن أي شيء يتحرك في الخارج عدا الريح وقمم الأشجار عند حافة الغابة. لا يكاد المرء يستطيع تمييزها على أطراف فسحة الضوء المنبعثة من البيت.

إذا لم يصلا خلال خمس دقائق فعليَّ أن أنطلق. ارتديتُ معطفي ووقفت إلى جانب النافذة برهة محاولاً التقاط صوت سيارة قادمة. رحت أحدق في النقطة التي يجب أن تظهر أضواء السيارة عندها. وبعد ذلك استدرت فأطفأت المصباح ونزلت.

كان أبي في المطبخ. رأيته يصب الماء في مقلاة ضخمة. رفع رأسه ونظر نحوي.

سألني: «هل أنت ذاهب؟».

هززتُ رأسي.

قال: «استمتع بليلة طيبة».

عند أسفل التلة، غطى الثلج والريح الآثار التي تركتها في الصباح. وقفت هناك من غير حركة ورحت أصغي بضع ثواني. وعندما تأكدت من عدم وجود سيارة قادمة، تسلَّقت المنحدر ودخلت بين الأشجار. وجدت الكيسين كما تركتهما وقد غطتهما طبقة رقيقة من الثلج انزلقت عن البلاستيك الصقيل عندما حملت الكيسين. عدت حاملاً كيساً في كل يد وتوقفت خلف إحدى الأشجار لأصغي من جديد. لم أسمع شيئاً فمضيت حتى حافة الطريق التي غمرها الثلج ثم سرت نازلاً في اتجاه المنعطف. لا يعيش هنا أشخاص كثيرون، كما أن السيارات العابرة تستخدم الطريق الذي على الجهة الأخرى من النهر. إذا أتت سيارة الآن فهنالك احتمال كبير لأن تكون سيارة

غونار. عبرت المنعطف ووصلت إلى حيث تعيش أسرة ويليام. كان بيتهم متراجعاً عن الطريق قليلاً، كان عند حافة الغابة التي ترتفع بحدة من خلفه. انبعث من نافذة غرفة المعيشة ضوء التلفزيون المتراقص. كان بيتاً مبنياً في السبعينيات. والفسحة أمامه مهملة مليئة بالحجارة والصخور العارية. رأيت فيها أرجوحة مكسورة وكومة من الحطب تحت مشمع كبير وأنقاض سيارة وبعض الإطارات المطاطية. لا أفهم السبب الذي يجعلهم يعيشون هكذا. ألا يريدون العيش مثلما يعيش الناس العاديون؟ أم لعلهم غير قادرين على ذلك؟ ألا يخطر هذا في بالهم؟ أم لعلهم يظنون حقاً أنهم يعيشون مثلما يعيش الناس الآخرون؟ كان الأب لطيفاً بعض الشيء، وكانت الأم غاضبة دائماً. أما الأطفال الثلاثة فكانوا دائماً في ملابس أصغر أو أكبر مما يجب.

عندما كنت في طريقي إلى المدرسة ذات صباح، رأيت الأب مع ابنته يتسلقان كومة من الصخور إلى الناحية الأخرى من الطريق. كان الدم ينزف من جبهتيهما. رأيت الفتاة تلف جبينها بوشاح تَشرَّب دماً. كان في مظهرهما شيء حيواني (أذكر أن هذا ما فكرت فيه) لأنهما لم يكونا يقولان شيئاً، ولا يصرخان، كانا يتسلقان الصخور بصمت. كانت شاحنتهم الصغيرة واقفة في الأسفل وقد لامس غطاء محركها إحدى الأشجار. ومن تحت تلك الأشجار كان النهر القاتم اللامع ماضياً في طريقه. سألتهما إن كانا يحتاجان إلى مساعدة فأجابني الأب: إنهما بخير! صاح بهذه الكلمات من فوق الصخور. كان منظرهما غير متوقع إلى درجة تجعل من الصعب على المرء أن ينتزع نفسه ويمضي. لكنني أحسست أن من غير اللائق أن أقف هناك وأنظر إليهما. وهكذا تابعت سيري في اتجاه موقف الباص. وعندما استدرت لأنظر إليهما (سمحت لنفسي باستدارة واحدة فقط) رأيتهما سائرين على الطريق. كان مرتدياً أوفرولاً، كعادته دائماً، وكانت ذراعه ملتفة حول كتفي ابنته ذات البنية الهشة. إنها في الحادية عشرة من عمرها.

كنا نضايقها كثيراً، هي وأخيها ويليام. كان إغضابهما أمراً سهلاً؛ وكان جعلهما يلتزمان حدودهما أمراً سهلاً كذلك. لم يكونا قويين في ميدان الكلمات والأفكار؛ لكني لم أدرك أن ما نفعله كان ذا أثر عليهما إلى أن جاء يوم من أيام الصيف العادية المملة عندما ذهبت مع بير فقرعنا جرس باب بيت ويليام لنطلب منه الخروج ولعب كرة القدم معنا فجاءت أمه إلى الشرفة ووبَّختنا كثيراً (أنا خاصة لأنني أرى نفسي أحسن من الجميع، وأحسن من ابنها وابنتها على نحو خاص). أجبتها ببعض الكلمات

فاتضح أنها غير ماهرة في الكلام أيضاً. لكن غضبها كان شديداً ولا سبيل إلى تهدئته. وهكذا كان كل ما جنيته من ذلك هو إعجاب بير الضاحك بفطنتي. نسينا الأمر كله بعد ساعات من ذلك. لكن هؤلاء الناس الذين يعيشون عند منعطف الطريق لم ينسوا شيئاً. كانت مصادفة الأب في الطريق أمراً لطيفاً، لكن مصادفة الأم ما كانت كذلك أبداً... كانت عيناها تظلمان كلما رأتني. كان هؤلاء الناس في نظري أشخاصاً يمكنني التعالي عليهم، لا أكثر. إذا جاء ويليام إلى المدرسة مرتدياً بنطلوناً قصير الساقين فإنه يصير موضع سخريتي؛ وإذا أخطأ في كلمة، فما من سبب يدعوني إلى تفويت ذلك وعدم التعليق عليه. إنه يخطئ. هذه حقيقة، أليست كذلك؟ إن من مسؤوليته هو أن يوقف سخريتنا أو أن يجد طريقة للتغلب عليها. لكني لم أكن منيعاً بدوري لأن لدي ضعفاً يستطيع الجميع رؤيته واستغلاله. ليست مشكلتي، بالتأكيد، أنهم لا يفعلون ذلك لأنهم لا يتمتعون بالبصيرة الكافية لرؤية نقطة ضعفي. كانت الشروط متماثلة بالنسبة للجميع. وكان ويليام يصاحب في المدرسة مجموعة من الأولاد الذين يدخّنون في السقيفة عندما يهطل المطر... إنهم أولئك الذين اعتادوا استخدام الدراجات الآلية الصغيرة منذ كانوا في الثالثة عشر وراحوا يتركون المدرسة عندما صاروا في الرابعة عشر... أولاد يتشاجرون ويشربون الكحول ويسخرون من ويليام أيضاً، لكن بطريقة يستطيع احتمالها لأن هنالك دائماً شيء يستطيع مقارنة نفسه به: لديه دائماً وسيلة تجعله يستعيد اعتباره بينهم. أما معنا، أي الأولاد الذين يعيشون في هذه البيوت هنا، فقد كان الأمر مختلفاً. السخرية القاتلة هي ما يسيطر هنا، والنكات والملاحظات الجارحة أيضاً... أشياء قادرة على دفعه إلى الجنون لأنها واقعة خارج قدراته. ثم إنه كان في حاجة إلينا أكثر مما كنا في حاجة إليه. وهذا ما جعله يعود إلينا دائماً. في نظري، كانت هذه مسألة متعلقة بالحرية. ما كان أحد يعرفني عندما انتقلنا إلى هذا المكان. ورغم أنني كنت الشخص نفسه الذي كنته من قبل، إلّا أن قدومي منحني فرصة فعل أشياء لم أفعلها قبل ذلك أبداً. فمثلاً، كان هنالك متجر ريفي على الطراز العتيق عند موقف الباص. وكان هذا المتجر يشتري البضائع ويبيعها من غير سجلات. كانت تملكه امرأتان شقيقتان بلغتا السبعين تقريباً. كانتا لطيفتين؛ وكانتا بطيئتي الحركة والتفكير خاصةً. إذا طلبت منهما شيئاً على أحد الرفوف المرتفعة فإنهما تديران ظهرَيْهما إليك دقيقة أو دقيقتين بحيث تكون قادراً على اغتنام الفرصة ودس ما تريده من الشوكولاته والسكاكر

في جيوبك. وتزداد الفرصة عندما يطلب منهما المرء شيئاً موجوداً في القبو. عندما كنت في ترومويا، لم أكن أحلم بفعل شيء من هذا القبيل؛ أما هنا فلم أتردد: لم أكن هنا الشخص الوحيد الذي يسرق الشوكولاته والسكاكر من العجوزين فحسب، بل الشخص الذي يشجع الآخرين على فعل ذلك أيضاً. كان هؤلاء الأولاد أصغر مني بسنة واحدة. أولاد لم يغادروا منطقتهم قط، إذا قارنت نفسي بهم، أرى أنني أشبه رجلاً جاب العالم كله. كانوا، كلهم، يأكلون الفراولة المهروسة، على سبيل المثال. لكني أدخلت لمسة من التطوير على ذلك فجعلتهم يأخذون الأطباق والملاعق والحليب والسكر إلى حقل الفراولة.

وعندما اشتغلنا في معمل الباركيه، كان علينا أن نسجل قوائم بالعمل الذي ننجزه. كانوا يدفعون لنا بموجب هذه القوائم. ومن الواضح أنهم لم يفكروا أبداً في احتمال التلاعب بالنظام. هذا ما جعل الغش ممكناً. وهذا ما كنا نفعله! على أن أهم تغير في سلوكي كان متعلقاً باللغة: لقد اكتشفت القوة التي تستطيع الكلمات أن تمنحك إياها حتى تتنمّر على الآخرين. كنت أستهزئ بهم وأضايقهم، وكنت أتلاعب بهم وأسخر منهم؛ ولم يخطر لهم أبداً، ولا حتى مرة واحدة، أن أساس هذه القوة التي امتلكتها كان أساساً غير مستقر، لم يخطر في بالهم أن ضربة واحدة موجهة توجيهاً جيداً يمكن أن تهدمه كله. لقد كانت عندي إعاقة كلامية كما تعرفون! لم أكن قادراً على نطق حرف «ر». بعد أن ظهر ذلك لهم، كان يكفي أن يسخروا مني حتى أفقد قوّتي تماماً. لكنهم لم يفعلوا هذا أبداً.

إلا أن شقيق بير الذي كان أصغر مني بثلاث سنوات فعل ذلك مرة في واقع الأمر. كنت أتحدث مع بير في إسطبلهم الذي أقامه والده فوق المرآب من أجل المهر الذي اشتراه لابنته. أمضينا فترة بعد الظهر كلها في الخارج، بير وتوم وأختهما الصغيرة مارتي وأنا، ثم انتهى بنا الأمر هنا، في هذه الغرفة الصغيرة الدافئة التي تفوح برائحة الحصان والقش. وعند ذلك راح توم يسخر مني فجأة. ما كان يحبني؛ وأظن أن ذلك لأنني أخذت منه أخاه الذي كان تحت تصرُّفه طيلة الوقت قبل ظهوري.

قال توم: «فوود سيوا؟ ما معنى فوود سييا؟ ما معنى أن تكون سيارة فوود سييا في البيت؟».

قال بير موبخاً أخاه: «كفاك الآن يا تومّ».

قلت له: «هل فوود سيبا اسم سيارة؟ لم أسمع بها أبداً؟».

قال: «لم أسمع بأي نوع من السيارات اسمه فوود. وبالتأكيد لم أسمع بسيارة من نوع فوود سيبا».

صاح بير: «توم!».

قال توم: «أوه، أنت تعني سيارة فورد!».

أجبته: «نعم، بالطبع».

قال: «لماذا لم تقل هذا؟ فورررررد سييرررررا!».

قال بير: «اذهب من هنا يا توم». وعندما لم يتحرك توم لكمه بير على كتفه.

صاح توم: «آوو! كفّ عن هذا!».

قال بير: «اذهب أيها المشاغب!» ثم لكمه من جديد.

ذهب توم فتابعنا حديثنا كما لو أن شيئاً لم يحدث.

من الملفت حقاً أن تلك كانت المرة الوحيدة التي يسخر فيها واحد من الأولاد هنا من ضعفي هذا، وخاصة عندما أتذكر أني كنت أزعجهم طيلة الوقت. لكنهم لم يسخروا. هناك، كنت ملكاً، ملكاً على الأطفال الصغار. لكن سلطاتي كانت محدودة. إذا ظهر شخص في مثل سني، أو شخص يعيش في مكان أبعد في الوادي، فإن سلطتي تكف عن الوجود. وهكذا كنت على حذر دائم من الأشخاص الذين حولي؛ كنت هكذا، ولا أزال هكذا إلى الآن.

وضعتُ الكيسين على الطريق لحظة، وفتحت سترتي لأخرج وشاحي وألفّه حول وجهي. ثم حملت الكيسين من جديد وتابعت السير. كانت الريح تصفر حول أذنيّ وتدس ندف الثلج من كل ناحية، تدفعها في الهواء وتجعلها تدور من حولي. تبلغ المسافة إلى بيت يان فيدار أربعة كيلومترات. يعني هذا أن عليّ أن أسرع. سرت بخطوات سريعة، كأنني أجري. كان الكيسان معلقَيْن بذراعي كأنهما ثقلان رصاصيان. ظهر أمامي على الطريق، عند نهاية المنعطف، ضوء سيارة قادمة. اخترقت أشعة الضوء الغابة. بدت الأشجار هناك كأنها تشتعل مضيئة، واحدة بعد أخرى. توقفت، ووضعت قدمي على حافة الخندق إلى جانب الطريق، ثم وضعت الكيسين في الخندق، تحتي. مشيت بعد ذلك. التفتّ عندما مرت بي السيارة. كان يقودها شخص متقدم في السن لم أعرفه. عدت مسافة العشرين متراً واستعدت الكيسين من الخندق وتابعت المشي

حتى عبرت المنعطف ومررت بالبيت الذي يعيش فيه عجوز وحيد، ثم خرجت من الغابة فرأيت أنوار المصنع تلوح ضبابية في الظلمة الثلجية. تجاوزت المزرعة الخَرِبة التي كانت غارقة في الظلام هذه الليلة، وكدت أبلغ آخر بيت قبل التقاطع مع الطريق الرئيسي عندما ظهرت سيارة أخرى. فعلت ما فعلته في المرة الأولى: أسرعت فأخفيتُ الزجاجات في الخندق وتابعت السير فارغ اليدين. لم يكن غونار هذه المرة أيضاً. جريتُ عائداً بعد عبور السيارة فحملت الكيسين وانطلقت بسرعة أكبر. صارت الساعة السابعة والنصف الآن. مضيت مسرعاً وصرت على مسافة قريبة من الطريق الرئيسي عندما ظهرت ثلاث سيارات. وضعت الكيسين من جديد. فليكن غونار هذه المرة، هكذا قلت في نفسي لأنني لن أكون مضطراً إلى التوقف وإخفاء زجاجات البيرة بعد مروره. مضت سيارتان من فوق الجسر، أما الثالثة فانعطفت صوبي وتجاوزتني. إنه ليس غونار. حملت الكيسين وانطلقت صوب الطريق الرئيسي حتى تجاوزت موقف الباص ومتجر العجوزين والمرآب والبيوت القديمة. كانت تلك البيوت مغمورة بالضوء تعصف بها الريح. إنها الآن مهجورة كلها. عندما اقتربت من أعلى ذلك المنحدر البسيط، رأيت سيارة أخرى قادمة في اتجاهي. لا يوجد خندق هنا. وهكذا كان عليَّ أن أضع الزجاجات في الثلج. كانت مرئية، وهذا ما جعلني أسرع حتى تزداد المسافة بيني وبينها.

نظرت في السيارة عند مرورها. إنه غونار هذه المرة. التفتّ في تلك اللحظة وعرفني، فضغط على مكابح السيارة. أبطأت حركة السيارة ثم توقفت في موجة من ندف الثلج المتطايرة خلفها وقد لوَّنتها مصابيح الفرامل الخلفية بالأحمر. توقفتْ على مسافة عشرين متراً مني، ثم بدأت ترجع في اتجاهي. كان صوت محركها صاخباً.

فتح غونار الباب عندما صار إلى جانبي.

صاح بي: «هل هذا أنت؟ خارج البيت في هذا الطقس؟».

أجبته: «بررر، نعم».

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«إلى حفلة».

«اقفز إلى السيارة، وسوف آخذك إلى حفلتك».

قلت: «لا. لا تزعج نفسك بهذا. كدت أصل تقريباً. إنني بخير».

قال غونار: «لا، لا، لا. اقفز إلى السيارة».

هززت رأسي.

«أنت متأخر أيضاً. تكاد الساعة تبلغ الثامنة».

قال غونار: «لا مشكلة في هذا أبداً. هيا، إنها ليلة رأس السنة. لا أستطيع أن أتركك تمشي في هذا البرد الشديد. سوف نأخذك إلى حفلتك. انتهت المناقشة».

لم أعد قادراً على الاعتراض من غير إثارة الشكوك.

قلت: «لا بأس إذن. هذا لطف كبير منك».

ضحك ساخراً.

قال لي: «اركب في الخلف. وقل لي أين أذهب».

فتحت باب السيارة وجلست في المقعد الخلفي. السيارة دافئة، الجو لطيف! كان ابنهما هارالد ذو السنوات الثلاث جالساً في مقعد الأطفال ينظر إليَّ صامتاً.

قلت له بابتسامة: «مرحباً يا هارالد».

استدارت توفِه صوبي؛ كانت جالسة في المقعد الأمامي. قالت: «مرحبا يا كارل أوفِه. جميل أن نراك».

قلت لها: «مرحباً. سنة سعيدة».

قال غونار: «فلننطلق. أظن أن علينا أن نستدير!».

هززت رأسي.

مضينا حتى موقف الباص، ثم انعطفنا وعدنا أدراجنا. عندما مررنا بالمكان الذي تركت فيه الكيسين قاومت رغبتي في الانحناء صوب النافذة والنظر لأرى إن كانا لا يزالان هناك. إنهما سليمان كما تركتهما.

قال غونار: «أين تذهب؟».

«سأذهب أولاً إلى صديق لي في سوليسليتا. ثم سنذهب معاً إلى سوم... إلى حفلة هناك».

قال: «أستطيع أخذكم جميعاً إذا أردتم ذلك».

نظرت إليه توفه نظرة سريعة.

قلت: «لا حاجة لذلك. سوف نلتقي أصدقاء آخرين في الباص».

كان غونار أصغر من أبي بعشر سنوات. وكان يعمل محاسباً في شركة كبيرة

في المدينة. إنه الوحيد بينهم الذي سار على خطى أبيه. كان أخواه معلمين: أبي في المدرسة الثانوية في فينيسلا، وإيرلينغ في المدرسة المتوسطة في تروندهيم. كان إيرلينغ الوحيد الذي ندعوه بلقب «العم» لأن التعامل معه سهل ولأنه غير متمسك كثيراً بما يمنحه إياه سنه تجاهنا. لم نكن نرى شقيقَيْ أبي كثيراً عندما كنا صغاراً، لكن كنا نحبهما. إنهما دائما التنقل، إيرلينغ خاصة. لكن غونار يتنقل كثيراً، كما أنه كان أثيراً لدينا، أنا وإنغفِه، ربما لأنه أقرب إلينا من حيث السن. كان له شعر طويل، وكان يعزف الغيتار، لكنه يملك أيضاً زورقاً له محرك من نوع ميركوري بقوة عشرين حصاناً. كان ذلك القارب في كابينة قرب مانْدال حيث كان غونار يقيم فترات طويلة في الصيف عندما كنا أصغر سناً. وفي ذهني، كان أصدقاؤه الذين يتحدث عنهم مغلفين بنوع من التألق الأسطوري تقريباً... لأن أبي ما كان لديه أصدقاء، من ناحية، ولأننا لم نكن نرى أولئك الأصدقاء إلّا نادراً من ناحية ثانية: كانوا أشخاصاً يذهب بقاربه لرؤيتهم. وكنت أتخيل حياتهم إبحاراً لا نهائياً بين الجزر الصغيرة والصخور المتناثرة في البحر في قواربهم السريعة طيلة النهار حيث يتطاير شعرهم الطويل الأشقر في الريح وتبتسم وجوههم التي لوحتها الشمس؛ يلعبون الورق ويعزفون الغيتار في الليالي والأمسيات عندما يكونون بصحبة الفتيات.

لكنه متزوج الآن، ولديه أطفال. صحيح أنه لا يزال يملك القارب، لكن هالة رومانسية الجُزر قد اختفت. اختفى شعره الطويل أيضاً. كانت زوجته توفِه من عائلة فيها كثير من أفراد الشرطة في مكان ما في تروندِيلانغ، وكانت تعمل مُعلمة في مدرسة ابتدائية.

سألني وهو يلتفت صوبي: «هل أمضيت عيد ميلاد طيباً؟».

قلت: «نعم، كان عظيماً».

قال: «سمعت أن إنغفِه كان عندكم أيضاً».

هززت رأسي.

كان إنغفِه الشخص المفضَّل عنده، ولا شك في أن سبب ذلك هو أنه مولود قبلي، إضافة إلى قضائه وقتاً طويلاً في بيت جدي وجدتي عندما كان غونار لا يزال يعيش معهما. لكني أظن أن هنالك سبباً آخر: لم يكن إنغفِه ضعيفاً ولا كثير البكاء مثلما كنت في صغري. كان غونار يلعب مع إنغفِه كثيراً. عندما أراهما معاً، أجد نفسي مستميتاً

لتعزيز موقعي فأحاول أن أكون ومرحاً، وألقي نكاتاً كثيراً حتى أظهر لهما أنني حلو المعشر مثلهما، وأنني أحب المرح أيضاً... حتى يريا أنني واحد من أهل سورلاند مثلهما تماماً.

قلت: «لا، لقد سافر منذ يومين. ذهب إلى مكان ما مع أصدقائه».

قال غونار: «نعم، أعرف أنه يتحول الآن إلى واحد من شباب آريندال».

مررنا بالكنيسة واجتزنا المنعطف عند الوادي الذي لا تطاله أشعة الشمس أبداً، ثم عبرنا الجسر الصغير. كانت ماسحات الزجاج تعمل بإيقاع سريع. وكانت مروحة جهاز التدفئة في السيارة تصدر طنيناً خفيضاً. وكان هارالد الصغير جالساً إلى جانبي يطرُف بعينيه كثيراً.

قال غونار: «حفلة مَن هي؟ هل هي حفلة يقيمها شخص في صفك؟»

قلت: «في الحقيقة هي حفلة تقيمها فتاة في صف موازٍ لصفي».

قال: «نعم، يتغير كل شيء عندما يصبح المرء في المدرسة الثانوية».

سألته: «لقد ذهبتَ إلى مدرسة الكاتدرائية، أليس كذلك؟».

قال: «نعم، كانت مدرستي». قال هذا والتفت صوبي حتى التقت أعيننا قبل أن يستدير مركزاً انتباهه على الطريق. كان وجهه ضيقاً طويلاً مثل وجه أبي، لكن زرقة عينيه داكنة أكثر. كانت عيناه أكثر شبهاً بعيني جدّي من عيني جدتي. كان رأسه كبيراً من الخلف، مثل رأس جدي، ومثل رأسي؛ أما شفتاه الحساستان اللتان تفصحان عما في داخله أكثر مما تفعل عيناه، فكانتا مثل شفتَيْ جدّي ومثل شفتي إنغفِه.

تركنا الغابة خلفنا. الآن صارت أنوار السيارة الأمامية تجد فسحة أكبر أمامها بعد أن ظلت مسافة طويلة تسقط على الأشجار والصخور والبيوت والجروف.

قلت: «المكان في آخر هذا الشارع. يمكنك التوقف عند ذلك المتجر».

قال غونار: «لا بأس». تباطأت حركة السيارة ثم توقفت.

قلت لهما: «أتمنى لكم وقتاً طيباً وسنة سعيدة».

قال غونار: «سنة سعيدة لك أيضاً».

أغلقت الباب وبدأت السير صوب بيت يان فيدار، بينما استدارت السيارة ومضت عائدة في الطريق الذي جئنا منه. بدأت الجري عندما اختفت السيارة. الآن صار الوقت ضيقاً بالفعل. قفزت من فوق صخرة فصرت في حديقة بيت يان فيدار. رأيت نافذة

غرفته مضاءة فمضيت إليها ونقرت على الزجاج. ظهر وجهه بعد ثانية واحدة وراح يحدق في الظلمة. أشرت في اتجاه الباب. أومأ برأسه عندما رآني أخيراً فمضيت إلى الجهة الأخرى من البيت حيث كان الباب.

قلت: «إنني آسف. لكن البيرة ظلت بالقرب من متجر كراغيبو. علينا أن نذهب لإحضارها».

سألني: «وماذا تفعل البيرة هناك؟ لماذا لم تجلبها معك؟».

قلت له: «جاء عمي بينما كنت أسير هناك. لم يتح لي من الوقت أكثر مما يلزم لكي أضع الكيسين في الخندق قبل أن يتوقف. ثم أصر على إيصالي. لم أستطع الرفض لأن هذا سيجعله يشك في أمري.

قال يان فيدار: «معك حق. شيء مزعج. يا له من تأخير».

قلت: «لقد تأخرنا، لكن هيا! فلننطلق».

بعد دقائق قليلة، كنا نتسلق المنحدر الصخري لنصل إلى الطريق. كان يان فيدار قد أنزل قبعته حتى غطت جبهته ولفّ وشاح رقبته حول فمه ورفع ياقة سترته ليحمي خدَّيه. كانت عيناه الجزء الوحيد الظاهر من وجهه. كان ذلك لأن نظارته المدورة التي تشبه نظارة جون لينون قد غطَّتها غشاوة من الرطوبة.

قال: «فلنحضر البيرة!».

قلت: «أظن أن علينا أن نفعل هذا».

بدأنا الجري في الطريق. جرينا بخطى منتظمة من غير أن نرفع أرجلنا كثيراً حتى لا نستنفد طاقتنا. كانت الريح في وجهنا، وكان الثلج يطير معها. دمعت عيناي، وبدأت أشعر بخدر في قدمَيّ... ما عادتا تفعلان ما أريد أن تفعلاه: كانتا مستقرتين في فردتي حذائي فحسب، متصلبتين كأنهما قطعتان من خشب.

مرت بنا سيارة فجعلتنا حركتها نرى كم كانت سرعتنا منخفضة إلى حد مؤلم لأننا رأيناها تجتاز المنعطف بعد لحظة واحدة ثم اختفت عن أنظارنا.

سألني يان فيدار: «هل نمشي قليلاً؟».

هززت رأسي.

قلت: «آمل أن تكون البيرة حيث تركتها».

صاح يان فيدار: «ماذا؟».

قلت: «أقصد الكيسين! آمل أن أحداً لم يأخذهما».

قال يان فيدار: «لا أحد في الشارع».

ضحكنا. وأخيراً وصلنا إلى منطقة مستوية فبدأنا الجري من جديد. عبرنا الطريق المرصوف بالحصى، الطريق المؤدي إلى ذلك البيت الغريب الذي يشبه بيت مزرعة عند النهر، ثم عبرنا الجسر الصغير، وبعده الوادي، وورشة إصلاح السيارات، ثم عبرنا الكنيسة والبيوت الصغيرة البيضاء المبنية منذ الخمسينيات على جانبَيْ ذلك الطريق. وأخيراً وصلنا إلى موقف الباص حيث تركت الكيسين. حمل كل منا كيساً وبدأنا نمشي عائدَيْن.

عندما وصلنا الكنيسة، سمعنا صوت سيارة قادمة خلفنا.

قال يان فيدار مقترحاً: «هل نشير لسيارة عابرة لتأخذنا؟».

أجبته: «لمَ لا».

رسمنا ابتسامتين على وجهينا ووقفنا يحمل كل منا كيسه بيده اليسرى ويرفع إبهام يده اليمنى مشيراً للسيارة. لم تكترث السيارة بنا. تابعنا سيرنا السريع.

سألني يان فيدار بعد قليل: «ماذا نفعل إذا لم تتوقف أية سيارة؟».

أجبته: «سوف تتوقف إحدى السيارات من أجلنا».

قال: «السيارات قليلة، ربما سيارتان كل ساعة».

قلت: «بما أنك أنت الذي طرحت السؤال، فهل لديك أي اقتراحات أفضل؟».

قال: «لا. لكن هنالك بعض الأشخاص في بيت ريتشارد».

قلت: «كف عن هذا أيها الغبي!».

قال لي: «كما أن ستيغ وليف يسهران اليوم في كجيفيك مع بعض أصدقائهما. هذا احتمال بالنسبة لنا أيضاً».

قلت: «لقد قررنا الذهاب إلى سوم، أليس كذلك؟ لا يمكنك أن تبدأ الآن اقتراح أماكن جديدة من أجل ليلة رأس السنة! إنها ليلة رأس السنة».

«صحيح؛ ونحن واقفان إلى جانب الطريق. كم هو ممتع وقوفنا هذا!».

ظهرت سيارة جديدة خلفنا.

قلت له: «انظر، سيارة أخرى».

لم تتوقف تلك السيارة أيضاً.

صارت الساعة الثامنة والنصف عندما بلغنا بيت يان فيدار من جديد. تجمدت قدماي. مرت لحظة قصيرة كنت فيها على وشك أن أقترح رمي البيرة ودخول بيته والاحتفال برأس السنة مع والديه: سنأكل الفطائر ونشرب بعض المشروبات غير الكحولية، ونأكل الآيس كريم والحلويات ونطلق الألعاب النارية. هذا ما كنا نفعله دائماً. التقت أعيننا ففهمت أن تلك الفكرة قد راودته أيضاً. لكننا تابعنا السير. خرجنا من المنطقة السكنية ووصلنا إلى الكنيسة الكبيرة، ثم اجتزنا منعطف الطريق حتى وصلنا إلى تجمُّع البيوت هناك حيث يعيش كاري الذي في صفّنا، وعدد من الطلاب الآخرين أيضاً.

سألته: «هل تظن أن كاري يسهر خارج البيت الليلة؟».

قال يان فيدار: «نعم، إنه يسهر في بيت ريتشارد».

قلت: «هذا سبب آخر حتى لا نذهب إلى بيت ريتشارد».

لم يكن لدى كاري شيء لا يعجبنا، وما كان لديه أي شيء يعجبنا أيضاً. إن له أذنان كبيرتان وشفتان غليظتان، وشعر كثيف بلون الرمل، وعينان غاضبتان. كان شخصاً غاضباً على الدوام، ولعل لديه سبباً وجيهاً لهذا الغضب. في الصيف الذي أتيت إلى هذه المدرسة في نهايته، كان كاري في المستشفى لإصابته بكسور في الأضلاع وفي معصم اليد. لقد كان في المدينة مع والده لجلب بعض مواد البناء. وقد وضعا ألواح تغليف الجدران على مقطورة خلف السيارة لكنهما لم يثبتا تلك الألواح جيداً. وعندما اقتربا من جسر فارود، طلب منه والده أن يخرج من السيارة ويجلس في المقطورة حتى يمسك بتلك الألواح حتى لا تتحرك من مكانها. انقلبت المقطورة به وبالألواح معاً ففقد الوعي. ظللنا نضحك من تلك الحادثة طيلة الخريف؛ ولا تزال أول ما نتذكره كلما رأينا كاري.

أما الآن فقد اشترى دراجة آلية صغيرة وبدأ يتجول برفقة بقية عصبة الدراجات.

كان بيت ليف في نهاية ذلك المنعطف. إنها ليف التي تحتل دائماً حيزاً من اهتمام يان فيدار. كنت قادراً على ضبط نفسي تجاهها. إن لها جسداً جميلاً، لكن هنالك شيء صبياني في مزاحها وتصرفاتها التي أحس أنها تلغي الانطباع اللذيذ الذي يتركه ثدياها وردفاها. ثم إنني كنتُ أجلس أمامها في الباص ذات مرة عندما راحت تلِّوح بيديها لفتاة أخرى. لوحت بيديها تلويحاً مجنوناً ثم قالت: «أووف! إنهما مخيفتان! يا لهاتين اليدين

الطويلتين لديه! هل رأيت في حياتك شيئاً مثلهما؟» رأيت الفتيات اللواتي تخاطبهن تنظرن إليّ بشكل مباشر. فوجئتْ ليف بعدم صدور أي رد فعل منهن فالتفتتْ صوْبي واحمر وجهها بطريقة لم أرها من قبل. عرفتُ أنها تتحدث عن يدي آنّا.

كان المركز الاجتماعي تحتنا الآن، وكان الطريق بعده منحدراً حتى المتجر في بداية سهل راين المتسع الذي ينتهي عند المطار.

«أظن أنني سأدخن سيجارة». قلت هذا وأنا أشير برأسي صوب موقف الباص على الجانب الآخر من المركز الاجتماعي... «هل نتوقف هنا؟».

قال يان فيدار: «هيا، يمكنك أن تدخن. إنها ليلة رأس السنة!».

قلت مقترحاً: «ما رأيك بأن نشرب زجاجة بيرة أيضاً؟».

«هنا؟ ما الغاية من ذلك؟».

«هل أنت في مزاج سيئ أم ماذا؟».

«يعتمد هذا على ما تعتبره سيئاً».

قلت: «أوه، ماذا بك الآن؟ هيا!» أنزلت حقيبتي عن ظهري وبحثت فيها عن القداحة وعلبة السجائر، ثم أخرجت سيجارة وأشعلتها وأنا أحميها من الريح بكفِّي.

مددت علبة السجائر إليه وسألته: «أتريد سيجارة؟».

هز رأسه نفياً.

سعلت، جعلني الدخان الذي أحسست أنه انحبس في أعلى بلعومي أشعر بشيء من الغثيان في معدتي.

قلت: «آه، اللعنة».

سألني يان فيدار: «هل التدخين جيد؟».

قلت: «إنني لا أسعل عادة. لكني ابتلعت الدخان بطريقة خاطئة. ليس هذا لأنني غير معتاد على التدخين».

قال يان فيدار: «لا. كل من يدخن يبتلع الدخان بطريقة خاطئة ثم يسعل بعد ذلك. هذه ظاهرة معروفة. ظلت أمي تدخن ثلاثين عاماً. وكلما دخنت، يذهب الدخان في الطريق الخاطئ ويجعلها تسعل».

«ها ها ها».

ظهرت سيارة آتية عبر المنعطف، أتت من الظلمة. تقدم يان فيدار خطوة إلى

الأمام ورفع يده. توقفت السيارة! اندفع إليها وفتح الباب، ثم استدار صوبي ولوّح بيده. رميت سيجارتي ووضعت حقيبتي على ظهري وحملت الكيس ثم مضيتُ إليه. خرجت سوزانِه من السيارة. انحنت وجذبت عتلة صغيرة ثم زلقت مقعدها إلى الأمام. نظرت إليّ بعد ذلك.

قالت: «مرحباً يا كارل أوفِه».

قلت: «مرحباً سوزانِه».

انزلق يان فيدار داخل عتمة السيارة. قرقعت الزجاجات في كيسه.

قالت سوزانِه: «هل تريد أن تضع الحقيبة في الخلف؟».

قلت: «لا، شكراً! سأضعها معي».

دخلت السيارة ووضعت حقيبتي بين ساقي. جلست سوزانِه في مقعدها. كان تيرجه خلف المقود. التفت ونظر إليَّ.

سألني: «لماذا تقفان هنا وتشيران للسيارات العابرة في ليلة رأس السنة؟».

قال يان فيدار معترضاً كأنه يريد الزعم بأننا لم نكن نستوقف السيارات في حقيقة الأمر: «الحقيقة... لقد كنا سيئي الحظ هذا المساء». وضع تيرجه عصا القيادة على السرعة الأولى فدارت العجلات في مكانها ثم تحركت السيارة وهبطت سفح التلة إلى أن صرنا على الطريق المستوي.

سألنا تيرجه: «وأين تذهبون، يا أولاد؟».

أولاد!

ما هذا الأحمق اللعين.

كيف يتجوّل بشعره المجعّد هنا وهناك ويظن أنه حسن المظهر؟ أيظن أنه يبدو شخصاً قوياً بهذا الشارب وهذا الشعر؟

اكبَر قليلاً! انقِص وزنك عشرين كيلوغراماً! تخلص من هذا الشارب! قص شعرك! وعند ذلك، يمكن أن نقبل الحديث معك.

ما الذي تجده سوزانِه فيه؟

قلت له: «إننا ذاهبان إلى سوم، إلى حفلة هناك. إلى أين أنتما ذاهبان؟».

أجاب: «إننا ذاهبأن إلى هامريه فقط. سنذهب إلى حفلة هيلغه. لكننا نستطيع أن نوصلكما إلى تقاطع تيمينيز إذا أردتما».

قال يان فيدار: «عظيم! هذا لطف منك».

التفتّ إليه، لكنه كان ينظر من النافذة فلم ينتبه إلى نظرتي.

سأل يان فيدار تيرجه: «من لديكم في حفلة هيلغه؟».

قال تيرجه: «إنهم المشبوهون المعتادون: ريتشارد، إيكسِه، مولِه، جوغِه، هيبِه، تجادي. وكذلك فروديه، ويوماس، وبجورن».

«من غير فتيات؟».

«لدينا فتيات بالطبع. هل تظننا حمقى؟».

«من هن؟».

«كريستين، وراندي، وكاثرينِه، وهيلدِه... إينغِر، وإيلين، وآنِه كاثرينِه، وريتا، وفيبيك... لماذا؟ هل تريدان الانضمام إلينا؟».

قلت قبل أن يتمكن يان فيدار من قول أي كلمة: «لا، إننا ذاهبان إلى حفلة أخرى. كما أننا تأخرنا أيضاً».

قال تيرجِه: «تأخرتما... خصوصاً إذا كنتما تعتمدان على استيقاف السيارات العابرة!».

ظهرت أنوار المطار أمامنا. وإلى الناحية الأخرى من النهر، خلف الجسر الذي عبرناه بعد ثانية واحدة، كان منبسط سلالوم الذي خلف المدرسة غارقاً في الضوء. كان الثلج لامعاً بلون شبه برتقالي.

سألت: «كيف تجدين المدرسة التجارية يا سوزانِه؟».

قالت من مقعدها الذي صار الآن شديد البعد عني: «جيدة! وكيف هي مدرستك؟».

قلت: «إنها جيدة أيضاً».

قال تيرجِه: «أنت في صف مولِه نفسه، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

«هل هو الصف الذي فيه ستٌّ وعشرون بنتاً؟».

«نعم».

ضحك عند ذلك، وقال: «هذا يعني أن لديكم عدداً طيباً من الحفلات في الصف!»

ظهر موقع التخييم إلى جانب الطريق. إنه مهجور، وقد غطاه الثلج الآن. ظهرت أيضاً الكنيسة الصغيرة والسوبرماركت، وورشة إيثو لإصلاح السيارات على الجهة الأخرى. وكانت الأضواء وانفجارات الألعاب النارية الملونة تشق سماء الليل فوق سطوح البيوت المتجمعة على سفح التلة. كان حشد من الأطفال مجتمعاً من حول آلة إطلاق الألعاب النارية في موقف السيارات. اندفعت منها سلسلة من كرات مضيئة صغيرة راحت تنفجر مطلقة ملايين الشرارات. وعلى امتداد الطريق الموازي لطريقنا، امتدت على مسافة طويلة سلسلة متدفقة من السيارات المتزاحمة حتى تكاد واحدتها تلمس الأخرى. كان الشاطئ إلى الناحية الأخرى من الطريق. غطت الخليج طبقة رقيقة من الجليد الأبيض، طبقة متشققة تنقلب إلى بحر من السواد على بعد مائة متر.

سأل يان فيدار: «كم الساعة الآن؟».

قال تيرجِه: «الثامنة والنصف».

قال يان فيدار: «اللعنة! هذا يعني أننا لن نستطيع أن نسكر قبل منتصف الليل».

«وهل أنت مضطر إلى العودة إلى بيتك عند منتصف الليل؟».

أطلق يان فيدار ضحكة: «ها ها ها».

بعد بضع دقائق، توقف تيرجِه عند موقف الباص على تقاطع تيمينيز فنزلنا من السيارة وانتظرنا تحت مظلة الموقف حاملين حقيبتينا.

سألني يان فيدار: «ألم يكن موعود وصول الباص في الثامنة وعشر دقائق؟»

أجبته: «صحيح، لكنه يمكن أن يتأخر رغم ذلك».

ضحكنا معاً.

قلت: «يا إلهي... لا بأس، يمكننا الآن أن نشرب زجاجة بيرة على الأقل».

لم أكن أعرف كيف أفتح الزجاجات باستخدام القداحة. وهكذا ناولت يان فيدار القداحة ففتح الزجاجتين من غير أن يقول كلمة واحدة. ناولني زجاجتي.

«أوووه، هذا جميل». قلت هذا وأنا أمسح فمي بظهر يدي... «إذا شربنا الآن زجاجتين أو ثلاث زجاجات، فإننا نكون قد حضّرنا أنفسنا جيداً لما سيأتي بعد ذلك».

قال يان فيدار: «إن قدميّ متجمدتان. ماذا عن قدميك أنت؟».

قلت: «إنهما متجمُدتان أيضاً».

وضعت الزجاجة على فمي وواصلت الشرب بقدر ما استطعت. عندما أنزلت

الزجاجة، ما كان باقياً فيها إلّا قطرة واحدة. امتلأت معدتي رغوة وهواء. حاولت التجشُّؤ، لكن الهواء لم يخرج... مجرد فقاعات من رغوة البيرة صعدت إلى فمي.

قلت: «ألا نفتح زجاجة أخرى؟»

قال يان فيدار: «لا بأس. لكننا نستطيع الوقوف هنا طيلة الليل».

فتح الزجاجة وأعطاني إياها. وضعتها على فمي وأغمضت عينيّ مركزاً على ابتلاع البيرة. ابتلعت نصف الزجاجة. أعقب ذلك تجشؤ جديد كله رغوة.

قلت بصوت خافت: «أوه، يا ربي! ربما لا يكون الشرب بهذه السرعة فكرة حسنة».

كان الطريق الذي نقف عليه الآن المعبر الرئيسي بين مختلف البلدات في سورلاند. عادة ما يكون مزدحماً بالسيارات. لكننا وقفنا هناك عشر دقائق ولم تمر غير سيارتين. كانتا متجهتين صوْب ليلساند.

كان الثلج المدوّم في دوائر يملأ الهواء تحت مصابيح الشارع الساطعة. صارت الريح مرئية بفعل الثلج، تعلو وتهبط مثل الأمواج، وتندفع اندفاعات بطيئة طويلة بعض الأحيان، لكنها تنحرف أو تدور بشكل مفاجئ من وقت لآخر. كان يان فيدار يضرب قدمه اليسرى بقدمه اليمنى، ثم قدمه اليمنى بقدمه اليسرى، ثم قدمه اليسرى بقدمه اليمنى...

قلت له: «هيا، اشرب!» أفرغت ما بقي في زجاجتي ورميت بها في الغابة خلف موقف الباص.

قلت مطالباً من جديد: «زجاجة أخرى!».

قال يان فيدار: «ستسكر سريعاً. عليك أن تتمهَّل».

قلت: «ماذا بك؟ أعطني واحدة أخرى! كادت الساعة تبلغ العاشرة، أليس كذلك؟».

نزع غطاء زجاجة أخرى وأعطاني إياها.

سألني: «ماذا نفعل؟ لا نستطيع الذهاب مشياً لأن المسافة بعيدة. وقد ذهب الباص. وليست هنالك سيارات حتى نستوقفها. بل حتى لا وجود لعلبة هاتف في مكان قريب حتى نتصل بأحد ليأتي ويأخذنا».

قلت: «سوف نموت هنا».

صاح يان فيدار: «انظر! إنه باص. إنه باص آريندال».

قلت: «هل تمزح؟» ثم نظرت صوب أعلى التلة. لم يكن يمزح لأنني رأيت باصاً طويلاً رائعاً يجتاز المنعطف متقدماً صوبنا.

قال يان فيدار: «أسرع، تخلَّص من الزجاجة وابتسم ابتسامة لطيفة».

مد يده مشيراً للباص فأجابه السائق بومضةٍ من المصابيح الأمامية. توقَّف الباص وانفتح الباب.

قال يان فيدار وهو يناول السائق ورقة نقدية من فئة مئة كرون: «اثنان، إلى سوم». نظرت في الباص فرأيته مظلماً، خالياً تماماً.

قال السائق وهو يخرج بقية النقود من حقيبته: «عليكما الانتظار بعض الوقت حتى تشربا بهذا المال كله!»

قال يان فيدار: «بالطبع».

جلسنا وسط الباص. استند يان فيدار بظهره إلى المقعد ووضع قدمه على اللحاجز الذي يفصلنا عن الباب الأوسط.

قلت: «آآآه... كم هذا لطيف، مريح ودافئ».

علّق يان فيدار موافقاً: «مممم».

انحنيت وبدأت أفك سيور حذائي.

سألته: «هل لديك عنوان البيت الذي سنذهب إليه؟».

قال: «إنه في شارع إلغشتاين، أو شيء من هذا القبيل. لكني أعرف كيف نذهب إليه».

نزعت الحذاء من قدمَيَّ ورحت أدلكهما بين يدَيّ. عندما وصلنا إلى ورشة إصلاح السيارات الصغيرة التي لا اسم لها (الورشة الموجودة هنا منذ زمن لا أذكره... التي كانت دائماً علامة أعرف منها أننا نقترب من كريستيانساند عندما نكون ذاهبين في طريقنا إلى بيت جدي)، لبست الحذاء من جديد وشددت سيوره. انتهيت من ذلك عندما توقف الباص على موقف جسر فارود.

«سنة سعيدة»... صاح يان فيدار مخاطباً السائق قبل أن يقفز في الظلمة خلفي.

رغم أنني مررتُ بالسيارة بهذا المكان مرات لا تُحصى، فإن قدمي لم تطأه قبل الآن، إلّا في أحلامي. كان جسر فارود واحداً من الأماكن التي أراها في المنام كثيراً

كنت أقف في الأسفل من حين لآخر وأحدِّق في السارية المرتفعة، أو أسير صاعداً تلك السارية. وخلال سيري، كان الدرابزين يختفي عادة فأجلس محاولاً العثور على شيء أتمسك به، أو كان الجسر ينفرط فجأة فأنزلق صوب الحافة انزلاقاً مخيفاً. عندما كنت أصغر سناً، كان جسر ترومويا يقوم بهذا الدور في أحلامي، أما الآن فقد حل محله جسر فارود.

قلت وأنا أشير برأسي صوب الجسر بينما كنا نجتاز الطريق: «لقد حضر والدي افتتاحه».

قال يان فيدار: «إنه محظوظ».

سرنا صامتين بخطًى سريعة صوب المنطقة المبنية. عادة ما يكون المشهد رائعاً من هذا المكان لأنك تستطيع رؤية كجيفيك والفيورد الداخل في الأرض من أحد طرفيه والممتد بعيداً إلى البحر من طرفه الآخر. أما الليلة، فكل شيء أسود اللون... كأنك جالس في كيس مغلق.

سألت بعد صمت طويل: «هل هدأت الريح قليلاً؟».

قال يان فيدار ملتفتاً صوبي: «يبدو أنها هدأت. بالمناسبة، هل تحس بتأثير زجاجات البيرة التي شربتها».

هززت رأسي نفياً: «لا شيء. يا للخسارة».

بدأت البيوت تظهر مع تقدمنا. كان بعضها خاوياً مظلماً، وبعضها الآخر مليئاً بأشخاص في ملابس احتفالية. وهنا وهناك، كان أناسٌ يطلقون الصواريخ من الشرفات. رأيت في أحد الأماكن جمهرة من الأطفال يلوّحون في الهواء بقضبان الألعاب النارية المشتعلة. تجمدت قدماي من جديد. كوّرتُ داخل قفازي أصابع يدي التي لا تحمل كيس الزجاجات، لكني لم أستفد شيئاً. سوف نصل سريعاً، بحسب ما قاله يان فيدار الذي توقف فجأة في منتصف الشارع عند تقاطع الطريقين.

قال مشيراً بيده: «هذا شارع إلغشتاين، وهناك أيضاً. وهناك أيضاً، وهناك أيضاً. اختر واحداً منها. في أي شارع نمضي؟»

«هل هي أربعة شوارع تحمل اسم إلغشتاين؟».

«هكذا يبدو. لكن في أي واحد منها نذهب؟ استخدم حدسك الأنثوي!».

أنثوي؟ لماذا يقول هذا؟ أيظن أنني امرأة؟.

سألته: «ما الذي تقصده بهذا؟ لماذا تظن أن لديَّ حدساً أنثوياً؟».

قال: «هيا يا كارل أوفه! أي شارع؟».

أشرت إلى جهة اليمين. بدأنا نسير في ذلك الاتجاه. كنا ننظر إلى أرقام البيوت. كان رقم البيت الأول ثلاثة وعشرين، والذي بعده واحد وعشرون. هذا يعني أننا في الاتجاه الصحيح.

صرنا أمام البيت المقصود بعد دقائق قليلة. كان بيتاً مبنياً في السبعينيات، وقد بدا مهلهلاً بعض الشيء. كان الثلج متراكماً في الممر المفضي إلى الباب الأمامي. من الواضح أن أحداً لم ينظفه منذ زمن طويل، وهذا ما يتضح عندما ينظر المرء إلى آثار الخطوات الغائصة في الثلج حتى الركبة... خطوات تمضي متعرِّجة حتى باب البيت.

سألته عندما بلغنا الباب: «ماذا كان اسمه؟ الفتى صاحب الحفلة هنا؟».

قال يان فيدار: «اسمه يان روني». ثم قرع الجرس.

كررت من خلفه: «يان روني؟».

«صحيح، هذا هو اسمه».

انفتح الباب وظهر الصبي الذي يجب أن يكون صاحب الحفلة. وقف أمامنا. كان شعره قصيراً أشقر. وكانت له غمازتان على خديه وأشياء تشبه الغمازات عند قمة أنفه. كانت حول عنقه سلسلة ذهبية، وقد ارتدى بنطلوناً من الجنيز الأسود وقميصاً قطنياً وجوارب تنس بيضاء. ابتسم لنا وأشار إلى بطن يان فيدار.

«أنت يان فيدار!».

أجابه يان فيدار: «هذه أول مرة تتذكر اسمي بشكل صحيح».

قال مشيراً إليَّ بإصبعه: «وأنت... كاي أولاف».

صححت له: «كارل أوفِه».

«فليكن. هيا ادخلا! لقد بدأنا منذ قليل».

خلعنا ملابسنا الخارجية في مدخل البيت ومضينا خلفه إلى غرفة في القبو فوجدنا خمسة أشخاص. كانوا يشاهدون التلفزيون وأمامهم طاولة غاصة بزجاجات البيرة وأطباق من المعجنات المالحة، وعلب السجائر وأكياس التبغ. كان أوفيند جالساً على الأريكة واضعاً ذراعيه حول صديقته ليني التي كانت في الصف السابع، لكنها تبدو رائعة متفتحة بطريقة تجعلك تنسى فارق السن. ابتسم أوفيند لنا عندما دخلنا.

قال أوفيند: «مرحباً! شيء عظيم أنكما استطعتما القدوم!».

بدأ يعرفنا على الآخرين: روني وجينس وإلين. كان روني في الصف التاسع وجينس وإلين في الصف الثامن؛ أما يان روني (هو ابن عم أوفيند) فكان في المدرسة الفنية... يتعلم ليصير ميكانيكياً. ما كان أحد منهم قد ارتدى ملابس أنيقة. لم تتجاوز أناقة بعضهم ارتداء قميص أبيض.

سأل يان فيدار وهو يجلس على الأريكة ويتناول زجاجة بيرة: «ماذا تشاهدون؟».

اتكأت إلى الجدار تحت نافذة القبو المنخفضة التي غطاها الثلج تماماً من الخارج.

أجابه أوفيند: «فيلم لبروس لي. كاد ينتهي تقريباً. لكن لدينا فيلم حفلة العازبين أيضاً، وكذلك فيلم هاري القذر. كما أن يان روني أحضر بعض الأفلام من عنده أيضاً. ماذا تريد أن تشاهد؟ سنقبل باختيارك».

رفع يان فيدار كتفيه: «أنا أقبل باختياركم أيضاً. ماذا تقول يا كارل أوفِه؟».

رفعت كتفي: «هل لديكم أداة فتح الزجاجات؟»

انحنى أوفيند وتناول قداحة عن الطاولة ثم رماها صوبي. لكني لا أستطيع فتْح الزجاجات بالقداحة. ولا أستطيع أيضاً أن أطلب من يان فيدار أن يفتحها لي. يبدو هذا شيئاً غريباً.

أخذت زجاجة من الكيس ووضعت قمتها بين أسناني ثم حركتها حتى صار غطاؤها فوق أحد أنيابي ثم عضضت بقوة. انفتحت الزجاجة مطلقة هسيساً.

قالت ليني: «لا تفعل هذا!».

قلت: «لا مشكلة».

أفرغت الزجاجة في جرعة واحدة. إضافة إلى غاز الكربون الذي ملأ معدتي، مع الهواء، مما يعني أنني كنت مضطراً إلى كتم التجشؤ، بقيت لا أشعر بأي تأثير للبيرة على الإطلاق. لا أستطيع شرب زجاجة أخرى بعد هذه مباشرة.

آلمتني قدماي عندما بدأ الدفء يعود إليهما.

سألت: «هل لديكم مشروبات أقوى؟».

هزوا رؤوسهم، وقال أوفيند: «ليس لدينا غير البيرة. لكنك تستطيع أن تأخذ زجاجة إذا أردت».

قلت: «لقد شربت واحدة الآن. شكراً لك».

رفع أوفيند زجاجته وقال: «في صحتكم».

أجابه الآخرون: «في صحتك». وقرعوا زجاجاتهم. وضحكوا جميعاً.

أخرجت علبة السجائر من حقيبتي، ثم أشعلت واحدة. بول مول... من النوع الخفيف. ليست أفضل السجائر! كنت واقفاً هناك حاملاً السيجارة البيضاء كلها في يدي (كان الفلتر أبيض اللون أيضاً، فأسفت لأنني لم أشتر سجائر برينس). لكن تفكيري كان منصبّاً على الحفلة التي سنذهب إليها بعد منتصف الليل. الحفلة التي تقيمها إيرينه التي في صفنا. لن تكون سجائر بول مول الخفيفة شيئاً مستهجناً هناك. ثم إن إنغفِه يدخن هذا النوع من السجائر أيضاً. على الأقل كان ذلك ما يدخنه عندما كنا في الحديقة ذات مساء وكان أبي وأمي في حديقة آلف، عم والدي.

حان وقت زجاجة أخرى. ما كنت أريد استخدام أسناني من جديد. شيء ما أخبرني بأنني سأفقد بعضاً منها عاجلاً أو آجلاً؛ أو سينكسر نابي. ثم إنني أظهرت أمامهم أنني قادر على فتح الزجاجات بأسناني... ربما لن يبدو شيئاً سخيفاً أن أطلب من يان فيدار أن يفتحها من أجلي.

مضيت إليه والتقطت بعض قطع المعجنات المالحة من طبق على الطاولة: «هل تفتح لي هذه الزجاجة؟»

هز رأسه من غير أن ينتزع عينيه من الفيلم.

لقد كان يمارس نوعاً من الفنون القتالية خلال العام الماضي. لكنني أنسى ذلك دائماً! وكان يفاجئني كلما دعاني إلى حضور جلسة تدريب، أو شيء من هذا القبيل. وبالطبع، كنت أرفض الذهاب. لكنه يشاهد الآن فيلماً لبروس لي... إنه فيلم قتالي. كان يتابعه باهتمام شديد.

حملت زجاجة البيرة في يدي وعدت إلى مكاني عند الجدار. لم يقل أحد شيئاً. نظر إليَّ أوفيند وقال: «أرِح قدميك يا كارل أوفِه».

قلت: «إنني مرتاح هكذا».

قال: «لا بأس، كما تريد». ثم رفع زجاجته في اتجاهي. سرت خطوتين صوْبه وقرعت زجاجتي بزجاجته.

قال: «فلنشربها دفعة واحدة!» بدأت تفاحة آدم في رقبته تعلو وتهبط كأنها مكبس محرك بينما راح يفرغ الزجاجة في فمه.

كان أوفيند ضخماً بالنسبة إلى سنه، وكان قوياً بشكل غير مألوف. كان له جسد رجل ناضج. كان حسن الطبع أيضاً، ولم يكن ينتبه كثيراً إلى ما يحدث من حوله، أو أنه لا يعبأ كثيراً بما يدور من حوله. كأنما يشعر بأنه منيع تجاه العالم الخارجي. كان يعزف الدرامز معنا، نعم، لمَ لا؟ يمكنه أن يفعل هذا! ويخرج مع ليني، لمَ لا؟ يمكنه أن يفعل هذا أيضاً! ما كان يكلمها كثيراً، بل يجرجرها معه هنا وهناك لرؤية أصدقائه أغلب الأحيان؛ لكن ذلك كان أمراً حسناً لأنها تريد أن تكون معه أكثر مما تريد أي شيء آخر. لقد جرّبت حظي معها ذات مرة، منذ شهرين تقريباً، فقط حتى أجس نبضها. لكنها لم تظهر أي اهتمام رغم أنني أكبر منهما بسنتين. أوه، كم كان ذلك سخيفاً! كنت محاطاً بالفتيات في مدرستي، لكني حاولت معها. حاولت مع فتاة في الصف السابع! لكن ثدييها يبدوان شهيَّن تحت قميصها. لا تزال عندي رغبة في نزع ذلك القميص. لا تزال عندي رغبة في تحسس هذين الثديين بيدي، مهما يكن عمرها. لا شيء في جسدها أو سلوكها يوحي بأنها في الرابعة عشرة فقط.

وضعت الزجاجة على شفتي وشربت جرعة كبيرة. لن أستطيع المتابعة على هذا النحو في حقيقة الأمر. هكذا قلت في نفسي عندما وضعت الزجاجة الفارغة على الطاولة وفتحت زجاجة أخرى بأسناني. كادت معدتي تنفجر تحت ضغط الغاز. إذا شربت المزيد فسوف تتسرب رغوة البيرة من أذني! لحسن الحظ، قاربت الساعة الحادية عشرة الآن. علينا أن نخرج في الحادية عشرة والنصف لنذهب إلى الحفلة الأخرى حيث نمضي بقية الليلة. سأشرب كثيراً عند ذلك.

فجأة، نهض الصبي الذي اسمه جنيس قليلاً عن الأريكة وأخذ القداحة عن الطاولة فأمسك بها تحت مؤخرته.

قال: «الآن!».

ضرَط وضغط على القداحة في الوقت نفسه فاشتعلت كتلة من اللهب خارجة من مؤخرته. ضحك، وضحك الآخرون أيضاً.

قالت ليني: «كف عن هذا!».

ابتسم يان فيدار. أحسست أنه حريص على عدم التقاء نظراتنا. سرت صوب

الباب الذي في نهاية الغرفة حاملاً زجاجتي في يدي. وجدت مطبخاً صغيراً خلف ذلك الباب. انحنيت صوب نافذة المطبخ. كان البيت مشرفاً على منحدر مما جعل تلك النافذة مرتفعة عن الأرض مطلة على حديقة البيت الخلفية. شجرتا سرو تتمايلان في الريح. رأيت أيضاً عدداً من البيوت في الأسفل، بعد الحديقة. رأيت في نافذة واحد من تلك البيوت ثلاثة رجال وامرأة. كانوا واقفين وكؤوسهم في أيديهم، يتحدثون. كان الرجال في بدلات سوداء، وكانت المرأة عارية الذراعين في فستان أسود. ذهبت إلى الباب الآخر في الغرفة وفتحته. إنه حمام صغير. رأيت ملابس السباحة معلقة على الجدار. لا بأس، هذا جيد... هكذا قلت في نفسي، ثم أغلقت الباب وعدت إلى غرفة المعيشة. كان الآخرون جالسين، مثلما كانوا من قبل.

سألني يان فيدار: «هل تشعر بأي شيء؟».

هززت رأسي: «لا! لا أشعر بشيء أبداً. وأنت؟».

ابتسم: «قليلاً».

قلت: «علينا أن نخرج قريباً».

سأل أوفيند: «أين تذهبان؟».

«سنذهب إلى تقاطع الطرق. إلى حيث يذهب الجميع عند منتصف الليل».

«لكن الساعة لا تزال الحادية عشرة الآن. إننا ذاهبون أيضاً. يمكننا الذهاب معًا».

نظر إليَّ وسألني: «لماذا تريد الذهاب الآن؟».

رفعت كتفي: «سوف أرى شخصاً هناك».

قال يان فيدار: «سوف ننتظركم، لا تقلق».

خرجنا عندما بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف. كانت المنطقة السكنية التي وجدناها خاوية تماماً قبل نصف ساعة فقط وما كان فيها إلّا بعض الأشخاص على شرفة ما أو في الطريق، قد امتلأت الآن حياة وحركة. تدفق الناس من البيوت، متأنقين، ماضين إلى الاحتفال. نساء بشالات على أكتافهن وكؤوس في أيديهن وأحذية السهرة العالية في أقدامهن؛ ورجال في معاطف فوق أكتافهم، وأحذية جلد غالية، حاملين أكياساً من المفرقعات والألعاب النارية؛ وأطفال مبتهجون يتراكضون بينهم. كانت في أيدي كثير منهم ألعاب نارية تطلق الشرر. امتلأ الهواء بصيحاتهم وضحكاتهم. سرت مع يان فيدار حاملين الكيسين الأبيضين بما فيهما من زجاجات البيرة. مشينا مع

الفتيان المرتدين ملابس من كل لون، أصحابنا الذين أمضينا الجزء الأول من السهرة معهم. لم نكن إلى جانبهم في حقيقة الأمر! سرت متأخراً عنهم بضع خطوات تحسباً لاحتمال مصادفة أحد أعرفه من المدرسة. تظاهرت بأنني أنظر إليهم مهتماً بحيث يكون مستحيلاً أن يتخيل من يرانا أننا كنا معاً قبل قليل. لم نكن معاً! يبدو مظهري جيداً... قميص أبيض طوَيت أكمامه مثلما علمني إنغفِه ذلك الخريف. كنت في معطف رمادي فوق سترتي الرسمية والبنطلون الأسود. وكان حذائي الضخم الأنيق في قدمي، وأطواق جلدية على معصمي. كان شعري طويلاً من الخلف، وقصيراً، شبه منتصب، من الأمام. الشيء الوحيد الذي كان يفسد أناقتي هو كيس البيرة في يدي. كنت مدركاً تلك الحقيقة تماماً، إلى حد الألم. كان ذلك الكيس صلة وصل أيضاً بيني وبين مجموعة الفتيان ذوي المظهر المهلهل السائرين أمامي لأنهم يحملون أكياساً أيضاً... كل واحد منهم!

كانت الفوضى شاملة عند تقاطع الطرق الذي كان مرتفعاً على الأرض المحيطة به. إنه نقطة التجمع لأنك تستطيع رؤية الخليج كله من هناك. اجتمع الناس، مزدحمين، أكثرهم سكارى، ويطلقون الألعاب النارية. انفجارات وأضواء من كل ناحية، ورائحة البارود الواخزة في الأنوف، والدخان تسوقه الريح. وتحت السماء الغائمة، كانت الصواريخ تنفجر تباعاً. كانت السماء تهتز بتلك الالتماعات الضوئية فتبدو كأنها على وشك الانفجار في أي لحظة.

وقفنا عند حافة ذلك الضجيج. كان أوفيند قد جلب معه ألعاباً نارية أيضاً فأخرج إصبعاً ضخماً يشبه إصبع الديناميت ووضعه أمامه، عند قدميه. بدا مترنحاً بعض الشيء عندما فعل ذلك. أما يان فيدار فكان يثرثر كثيراً مثلما يفعل عندما يصيبه السكر فترتسم ابتسامة دائمة على شفتيه. كان يتحدث مع روني في تلك اللحظة. لقد وجدا موضوعاً مشتركاً بينهما: « كيك بوكسينغ »! لا تزال نظارة يان فيدار تبدو مبللة غائمة، لكنه ما عاد مستعداً لأن يزعج نفسه بمسْحها. كنت واقفاً على مسافة خطوات قليلة منهما فسمحت لعيني بالتجول في ذلك الحشد من الناس. قفزت مذعوراً عندما انفجر ذلك الإصبع أول مرة واندفع منه ضوء أحمر إلى جانبي. انفجر أوفيند ضاحكاً.

صاح: «هذا ليس سيئاً! فلنشعل واحداً آخر بما أنه أعجبك، ما رأيك؟» قال هذا وهو يضع إصبعاً آخر ويشعله من غير أن ينتظر إجابتي. وعلى الفور، راحت تنطلق

نفثات من كرات مضيئة. أثاره هذا التتابع المستمر للانفجارات، أثاره كثيراً إلى حد جعله يسرع فيشعل إصبعاً ثالثاً قبل أن ينتهي الثاني.

راح يضحك بصوت مرتفع.

إلى جانبنا، كان رجل في بذلة خفيفة زرقاء وقميص أبيض وربطة عنق جلد حمراء قد تعثر فسقط على وجهه في كومة من الثلج. جرت إليه امرأة في حذاء عالي الكعب وشدته من يده. لم تشده بقوة كافية لرفعه بل بما يكفي لدفعه إلى الوقوف بقواه الذاتية. وقف الرجل ونفض الثلج عن وجهه وهو ينظر أمامه كما لو أنه كان قد توقف لحظة حتى يلقي نظرة أفضل على الوضع، كما لو أنه لم يكن مستلقياً على وجهه في الثلج قبل لحظة واحدة فقط. رأيت ولدين واقفين على سقف مظلة موقف الباص يحمل كل منهما صاروخاً في يده المائلة قليلاً. أشعلا الصاروخين وأشاحا بوجهيهما عنهما. ظلا ممسكين بهما وهما يهسّان ويطلقان النار، ثم أفلتاهما فانطلق الصاروخان وطارا بضعة أمتار ثم انفجرا بصوت شديد جعل الواقفين يلتفتون جميعاً.

قلت: «اسمع يا يان فيدار! هل تفتح لي هذه الزجاجة أيضاً؟»

بابتسامة عريضة، فتح يان فيدار الزجاجة التي مددتها إليه. صرت أشعر بشيء من تأثير البيرة آخر الأمر، لكن ذلك لم يكن سروراً ولا انزعاجاً. كان شيئاً من تبلّد الحواس الذي راح يزداد سريعاً. شربت، وأشعلت سيجارة، ونظرت إلى ساعتي. بقيت عشر دقائق حتى منتصف الليل.

قلت: «بقيت عشر دقائق فقط!».

هز يان فيدار رأسه ثم تابع حديثه مع روني. كنت قد قررت عدم البحث عن إيرينه قبل منتصف الليل. إن الذين في حفلتها سيظلون معاً حتى الثانية عشرة، كنت واثقاً من هذا؛ ثم سيتعانقون ويتمنى كل منهم للآخر سنة سعيدة. يعرف بعضهم بعضاً منذ زمن، وهم أصدقاء... لديهم عصبتهم الخاصة بهم مثل بقية الأولاد في المدرسة. أما أنا فكنت خارج هذه العصبة، كنت غريباً عنها لا أستطيع الاندماج بها. أما بعد منتصف الليل، فسوف تتراخى الأمور، وسوف يقفون هنا وهناك، يشربون، ولن يعودوا إلى الاجتماع معاً على الفور. عندما تكون عصبتهم في هذه الحالة العفوية الغامضة، غير المتماسكة تماماً، سأكون قادراً على تبادل الحديث مع إيرينه وسأكون قادراً أيضاً على

شق طريقي إلى حفلتها من غير أن أبدي اهتماماً كبيراً بذلك، أو من غير أن أظهر أي قصد واضح على الأقل، ثم أظل هناك.

مشكلتي هي يان فيدار. هل سيرغب في المجيء معي؟ إنه لا يعرف أحداً منهم، وهم أشخاص تجمعني بهم أشياء لا تجمعهم به. بدا لي أنه مستمتع تماماً، حيث هو، أليس كذلك؟ أوه، لا بد من طرح الأمر عليه. إذا لم يكن راغباً في المجيء معي فهذا شأنه. لكني لن أضع قدمي في ذلك القبو البائس من جديد، لن أضعها أبداً... هذا ما كنت متأكداً منه تماماً.

ها هي إيرينه!

على مسافة مني، ربما على مسافة ثلاثين متراً، كانت محاطة بضيوف حفلتها. حاولت إحصاء عددهم؛ لكنني فشلت في هذا لأن التمييز بين ضيوف حفلتها والناس الآخرين كان مستحيلاً.

كنت واثقاً من أن عددهم يتراوح بين عشرة أشخاص واثني عشر شخصاً. رأيت معظم هذه الوجوه من قبل. إنها تتجول معهم خلال الاستراحات في المدرسة. لم تكن إيرينه جميلة على ما أظن... إن لها ذقناً تكاد تكون مزدوجة؛ وخدين سمينين أيضاً (رغم أنها ليست سمينة على الإطلاق)... شعر أشقر وعينان زرقاوان. إنها قصيرة القامة، ولديها شيء يذكرك بالبطة! لكن هذا كله لا تأثير له على رأيي فيها لأن لديها شيئاً آخر أهم من هذا كله: إنها في مركز اهتمام الجميع دائماً. أينما ذهبتْ، ومهما فعلت وقالت، فإن الناس يلتفتون إليها. إنها تخرج إلى السهرة كل عطلة نهاية أسبوع، في كريستانساند أو في حفلات خاصة، إلّا إذا ذهبت إلى شاليه جبلي في أحد مراكز التزلج أو إذا ذهبت إلى مدينة أخرى. تكون مع أفراد عصبتها دائماً. كنت أكره هذه العصبة، أكرهها حقاً. وعندما وقفت أصغي إليها تتحدث عن الأشياء التي فعلتها أخيراً، كنت أحس أنني أكرهها هي أيضاً.

إنها ترتدي الليلة معطفاً بلون أزرق داكن يصل إلى ركبتيها. لمحت تحته فستاناً بلون أزرق خفيف وبنطلوناً ضيقاً بلون الجلد. وعلى رأسها كان لديها... لا بأس، نعم، إنه تاج من قماش، أليس تاجاً؟ كأنها أميرة ملعونة!

ازداد الحماس من حولي شيئاً بعد شيء. الآن، ما عاد يُسمع شيء غير الصيحات والانفجارات من كل جهة. وعندها، كما لو أنه آت من الأعلى، كما لو أن الله نفسه

يحتفل بقدوم السنة الجديدة، انطلقت صفارات السفن. ازدادت شدة الصياح من حولي. نظرتُ إلى ساعتي. إنها الثانية عشرة.

تلاقت أنظارنا، أنا ويان فيدار.

صاح قائلاً: «إنها الثانية عشرة! سنة سعيدة!».

بدأ يسير في اتجاهي.

لا، اللعنة، أيظن أنه آتٍ لمعانقتي؟

لا، لا، لا!

لكنه جاء إليّ، ولفّني بذراعيه ضاغطاً خدَّه على خدِّي.

قال لي: «سنة سعيدة يا كارل أوفِه. أشكرك على كل شيء في السنة التي مضت!».

قلت: «سنة سعيدة».

احتكت شعرات ذقنه النابتة قليلاً بخدي الأملس. مسح بكف يده على ظهري مرتين، ثم تراجع خطوة إلى الخلف.

قال: «أوفيند!».

ثم مضى نحوه.

لماذا يظن أن عليه أن يعانقني؟ ما الغاية من هذا؟ نحن لا نتعانق أبداً. لسنا من النوع الذي يحب العناق، لسنا كذلك.

ما هذا الخراء!

قالت ليني: «سنة سعيدة يا كارل أوفِه».

ابتسمتْ لي فانحنيتُ صوبها وعانقتها.

قلت لها: «سنة سعيدة. أنت في غاية الجمال».

تجمَّد وجهها الذي كان متوهجاً قبل ثوانٍ قليلة، كان جزءاً من كل ما يحدث هنا من حولنا.

سألتني: «ماذا قلت؟»

أجبتها: «لا شيء. أشكرك على السنة الماضية».

ابتسمت لي وقالت: «لقد سمعت ما قلته. سنة سعيدة لك أيضاً».

عندما ابتعدت عني اكتشفتُ أنني انتصبت.

أوه، ليس هذا أيضاً!

شربت ما بقي في زجاجة البيرة. لم يعد في الكيس غير ثلاث زجاجات. كان عليَّ أن أحافظ على البيرة أكثر مما فعلت، لكني أحسست أنني في حاجة إلى شيء أشغل به نفسي. وهكذا أخرجت زجاجة صغيرة وفتحتها بأسناني ثم أخذت منها جرعة كبيرة. أشعلت سيجارة أيضاً. كانت هذه وسائلي: سيجارة في يد وزجاجة بيرة في اليد الأخرى... كنت جاهزاً، مستعداً للانطلاق. كانت السيجارة في يدي اليسرى وزجاجة البيرة في اليمنى، ووقفت هناك أرفعهما إلى فمي، الأولى ثم الثانية. سيجارة، بيرة، سيجارة، بيرة.

بعد عشر دقائق، دققت بكفي على ظهر يان فيدار وقلت له إنني ذاهب لرؤية بعض الأصدقاء، وإن عليه أن ينتظرني لأنني سأعود بعد قليل. هز رأسه فشققت طريقي صوب إيرينه. لم تلاحظني أول الأمر. كانت واقفة تتحدث مع بعض الناس وظهرها في اتجاهي.

قلت لها: «مرحباً يا إيرينه!»

لم تستدر. أظن أن صوتي ما كان مسموعاً في هذه الضجة المحيطة بنا. أحسست بأن عليَّ أن أنقر بإصبعي على كتفها. لم يكن هذا أمراً حسناً لأنه أسلوب شديد المباشرة... أن تدق على كتف شخص ليس شيئاً شبيهاً بأن تصطدم به صدفة أثناء سيرك. لكن عليَّ أن أغامر.

فعلت ذلك، فاستدارت صوْبي.

قالت: «كارل أوفِه! ماذا تفعل هنا؟».

«إننا في حفلة في مكان قريب من هنا. ثم... رأيتك فأحببت أن أتمنى لك سنة سعيدة. سنة سعيدة يا إيرينه».

قالت: «سنة سعيدة! هل أنت مستمتع بوقتك هنا؟».

قلت: «بكل تأكيد! وماذا عنك أنت؟».

«بالطبع، إنني أمضي وقتاً رائعاً».

حل بيننا صمت قصير.

قلت لها: «إنك تقيمين حفلة، أليس هذا صحيحاً؟».

«صحيح».

«وهل هي في مكان قريب؟».

«نعم. إن بيتي هناك». أشارت بيدها إلى مكان في أعلى التلّة.

قلت: «في ذلك البيت؟» وأشرت بإصبعي في الاتجاه نفسه.

«لا، إنه خلفه. لا تستطيع رؤيته من الطريق».

قلت: «أظن أنني لا أستطيع الذهاب معكم، أليس كذلك؟ إذا ذهبت، فمن الممكن أن نتحدث أكثر قليلاً. سيكون هذا شيئاً لطيفاً».

هزّت رأسها وجعّدت أنفها.

قالت: «لا أظن هذا. أنت تعرف أنها ليست حفلة من حفلات الصف».

قلت: «أعرف. لكنني يمكن أن أذهب لنتحدث قليلاً فقط! لا شيء أكثر من هذا. إنني في إحدى الحفلات في مكان قريب من هنا».

قالت: «اذهب إلى حفلتك إذن! يستطيع كل منا رؤية الآخر في المدرسة في السنة الجديدة».

لقد تفوقت عليَّ تماماً في فن المناورة. ما عاد عندي شيء أستطيع قوله.

قلت: «كان لطيفاً أن أراك هنا. إنني معجب بك دائماً».

استدرت بعد ذلك وسرت مبتعداً. كان من الصعب تفسير ما قلته لها من أنني معجب بها لأن هذا ليس صحيحاً! لكن، من الممكن أن يكون ذلك مفيداً في تشتيت انتباهها عن حقيقة أنني حاولت أن أتسوّل دعوة إلى حفلتها. سوف تظن الآن أنني طلبت ذلك لأنني أميل إليها. وستظن أيضاً أنني أحسست بالميل إليها لأنني ثمل. من الذي لا يثمل ليلة رأس السنة؟

العاهرة! العاهرة الملعونة!

نظر يان فيدار إليّ عندما رآني عائداً.

قلت له: «لن تكون هنالك حفلة. لسنا مدعوّين».

«لمَ لا؟ ظننت أنك تعرفهم. ألم تقل لي ذلك؟»

«إنها حفلة مقتصرة على الضيوف المدعوّين. نحن لسنا مدعوّين. إنهم حمقى».

نخَرَ يان فيدار ضاحكاً: «سوف نعود إلى حفلتنا. كان كل شيء رائعاً هناك، ألم يكن رائعاً؟»

نظرتُ إليه نظرة فارغة من أي معنى ثم تثاءبتُ حتى أجعله يعرف كم كانت تلك الحفلة رائعة في نظري. لكن لم نكن نملك خياراً آخر. لا نستطيع الاتصال بوالده

قبل الساعة الثانية. لا نستطيع أبداً أن نتصل بعد منتصف ليلة رأس السنة بعشر دقائق! إذن، ما عاد لدي الآن إلّا هذه المجموعة من فتيان المدرسة الذين جاؤوا في ملابسهم اليومية العادية. مضيت معهم عبر تلك المنطقة السكنية في سوم وسط عصف الريح في ليلة رأس السنة 1984/ 1985.

في الثانية وعشرين دقيقة توقفت سيارة والد يان فيدار عند البيت. كنا جاهزين، منتظرين. جلست في المقعد الأمامي لأنني أقل سكراً من يان فيدار الذي كان منذ ساعة فقط يقفز هنا وهناك حاملاً مصباح الطاولة المظلل على رأسه، أما الآن فجلس في المقعد الخلفي مثلما اتفقنا. ولحسن الحظ، كان قد تقيأ ما بجوفه بعد أن شرب عدة كؤوس من الماء فغسل وجهه وصار قادراً على الاتصال بأبيه لإخباره بمكان وجودنا. لم يكن أداؤه مقنعاً تماماً! وقفت إلى جانبه وسمعته ينطق النصف الأول من كل كلمة، ثم يبتلع بقيتها. لكنه أفلح في قول العنوان آخر الأمر. لا أظن أهلنا يتخيلون أننا سنبقى بعيدين تماماً عن الكحول في مناسبة كهذه!

قال والده عندما دخلنا السيارة: «سنة سعيدة يا أولاد! هل قضيتم وقتاً طيباً؟»

قلت له: «نعم. كان في الشارع بشر كثيرون عند الساعة الثانية عشرة. مشهد جميل. كيف كانت سهرتكم في تفيت؟».

أجابني: «جيدة»، ثم وضع يده خلف مقعدي وأدار رقبته إلى الخلف وهو يرجع بالسيارة... «بيت من هذا؟».

«إنه شخص من معارف أوفيند الذي يعزف الدرامز معنا».

قال الأب وهو يضع السيارة على السرعة الأولى وينطلق بها في طريق العودة: «أوه، نعم». كان الثلج في بعض الحدائق مبقعاً ببقايا الألعاب النارية. وكان أشخاص قلائل يسيرون أزواجاً في الطريق. تمر سيارة تاكسي من وقت لآخر. وما عدا ذلك، كان كل شيء هادئاً مسالماً. هنالك شيء أحبه دائماً في هذا الانزلاق عبر الظلمة ولوحة العدادات في السيارة مضاءة وإلى جانبي رجل واثق هادئ الحركات. كان والد يان فيدار رجلاً طيباً، وكان يبدي كل مودة واهتمام. لكنه كان يتركنا من غير أي مشكلة عندما يشير يان فيدار إلى أننا اكتفينا من وجوده. كان يأخذنا في رحلات لصيد السمك. وكان يصلح الأشياء من أجلنا (عندما ثقب إطار دراجتي ذات مرة في طريقي إليهم، أصلح ذلك الإطار من غير أن يقول كلمة واحدة. كانت الدراجة جاهزة عندما حان

وقت ذهابي). كانوا يدعونني إلى مرافقتهم عندما يذهبون في عطلاتهم العائلية. وكان يسألني عن والديّ، مثلما تفعل أم يان فيدار أيضاً. وكلما أعادني بالسيارة إلى بيتي (ما كان هذا نادر الحدوث)، يقف ويتحدث بعض الوقت مع أبي أو مع أمي إذا كان أحد منهم موجوداً؛ وكان يدعوهما إلى بيته. ليست غلطته إن كانا لم يذهبا أبداً في زيارة إلى بيته. لكنه كان يفقد أعصابه بعض الأحيان أيضاً. أعرف هذا رغم أنني لم أر دليلاً عليه أبداً: كان الكره واحداً من المشاعر الكثيرة التي يكنّها يان فيدار لوالده.

قلت عندما سلكنا الطريق رقم إي 18 عند جسر فارود: «إنها الآن سنة 1985».

قال والد يان فيدار: «صحيح... ما رأيك أيها الجالس في الخلف؟».

لم يقل يان فيدار شيئاً. لم يكن قد قال شيئاً عندما نزل أبوه من السيارة أيضاً؛ نظر أمامه فقط، ثم دخل السيارة. استدرت في مقعدي ونظرت إليه. كان جالساً كأنه مذهول، وكانت عيناه محدقتان في نقطة في مسند الكرسي.

قال أبوه وهو يبتسم لي: «هل أضعت لسانك؟».

رغم ذلك، ظل صامتاً تماماً.

تابع أبوه الحديث معي: «والداك... هل ظلا في البيت الليلة؟».

هززت رأسي: «جاء جدّي وجدتي وعمي إليهما. أكلوا ليوتفيسك وشربوا الأكوافيت».

«هل أنت مسرور لأنك لم تكن معهم؟».

«نعم».

عبرنا طريق تجيفيك، ومررنا بهامريساندن، ثم سرنا على امتداد راينسليتا. ظلام، وهدوء، وجو لطيف، ودفء. قلت في نفسي إنني أستطيع الجلوس هكذا طيلة ما بقي من حياتي. مررنا ببيتهم، ثم دخلنا منطقة المنعطفات صعوداً حتى كراغيبو، ثم انحدرنا صوب الجسر وعبرناه إلى الجهة الأخرى، ثم سرنا في الطريق الصاعد. لم ينظفوا الطريق هنا. إنه الآن مغطى بخمسة سنتيمترات من الثلج الجديد. قاد والد يان فيدار السيارة بسرعة أقل في المرحلة الأخيرة من طريقنا. مررنا بالبيت الذي تعيش فيه سوزان وإليز، الشقيقتان اللتان انتقلتا إلى هذه البلدة قادمتين من كندا واللتان لم يستطع أحد أن يفهمهما تماماً. تجاوزنا المنعطف حيث يعيش ويليام، ثم انحدرنا، ثم تابعنا الصعود قليلاً.

قال لي: «سوف أنزلك هنا حتى لا يوقظ صوت السيارة والديك إن كانا نائمين. ما رأيك؟».

قلت: «لا بأس. أشكرك كثيراً لأنك أوصلتني. أراك قريباً يا يايفي!».

رفرف يان فيدار بعينيه، ثم فتحهما على اتساعهما وقال: «أراك قريباً، نعم».

قال والد يان فيدار: «هل تأتي إلى المقعد الأمامي؟».

قال يان فيدار: «لا حاجة إلى هذا».

أغلقت الباب ولوّحت بيدي مودّعاً، ثم سمعت ورائي صوت السيارة ترجع إلى الخلف بينما سرت في الممر المؤدي إلى البيت... «يايفي!» لماذا قلت هذا؟ إنه اسم التصغير الذي يشير إلى صداقة ما كنت مضطراً إلى الإشارة إليها. لم أستخدم هذه الكلمة من قبل... إننا صديقان.

لم أر ضوءاً في نوافذ البيت. لا بد أنهم قد مضوا إلى النوم. كنت سعيداً... لا لأن لدي شيئاً أخفيه، بل لأنني أردت أن أُترك وحدي بسلام. علقت ملابسي الخارجية في الصالة ومضيت إلى غرفة الجلوس. كانت آثار السهرة قد أزيلت كلها. سمعت آلة غسل الأطباق تصدر همهمة ناعمة في المطبخ. جلست على الأريكة وقشرت برتقالة. لقد خبت النار في الموقد لكني لا أزال أستطيع الإحساس بحرارته. إن أمي محقة: العيش في هذا البيت أمر جيد. كان القط راقداً على كرسي القصب. رفع رأسه متكاسلاً. نهض عندما رآني أنظر إليه ومشى على أرض الغرفة ثم قفز في حضني. أبعدت قشور البرتقال التي يكره رائحتها.

قلت له: «تستطيع الجلوس هنا بعض الوقت. نعم، تستطيع ذلك. لكنك تعرف أن هذا لن يدوم طيلة الليل لأنني سأذهب إلى الفراش قريباً».

بدأ الهرير عندما تكوّر في حضني. انخفض رأسه ببطء فاستقر فوق إحدى قائمتيه؛ أما عيناه اللتان أغمضهما سعيداً قبل قليل فقد صار النوم هو ما يغمضهما بعد ثوانٍ قليلة.

قلت: «هنالك من يعجبه النوم في حضني!».

استيقظت في الصباح التالي على صوت الراديو في المطبخ، لكني بقيت حيث أنا. ما كان لديّ اليوم ما يجعلني أنهض. سرعان ما غرقت في النوم من جديد. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف عندما استيقظت بعد ذلك. ارتديت ملابسي ونزلت.

وجدت أمي جالسة إلى طاولة المطبخ تقرأ كتاباً. رفعتْ رأسها عندما دخلت.

قالت: «مرحباً. هل كانت سهرتك لطيفة الليلة الماضية؟».

قلت: «نعم، كانت سهرة مسلية».

«متى عدت إلى البيت؟».

«في الثانية والنصف تقريباً. أعادنا والد يان فيدار».

جلستُ ووضعت قليلاً من باتيه الكبد على شريحة من الخبز، ثم نجحت بعد عدة محاولات في توزيع قطع المخلل الصغيرة فوقه مستخدماً شوكة. وضعت قطعة الخبز على الطاولة ورفعت إبريق الماء الساخن لأرى إن كان فارغاً.

سألتني أمي: «هل بقي فيه شيء؟ يمكنني أن أسخّن لك بعض الماء».

قلت: «لا يزال فيه ما يكفي من أجل فنجان صغير. لكن، يمكن أن يكون الماء بارداً».

نهضت أمي واقفة فقلت لها: «ابقي حيث أنت! أستطيع أن أفعل هذا بنفسي».

قالت: «لا. إنني جالسة إلى جانب الموقد».

ملأت أمي وعاء التسخين الصغير بالماء ووضعته على الموقد فبدأ يصدر فرقعة خفيفة.

سألتني: «ماذا أكلتم؟».

قلت: «كان لديهم بوفيه من المأكولات الباردة. أظن أن والدة الفتاة قد حضّرته. كانت فيه الأشياء المعتادة... تعرفين... الجمبري مع الخضار في حساء اللحم المغلي، وبعض الهلام...».

سألتني أمي: «هل كان الجمبري مطبوخاً بمرق اللحم؟»

«نعم، كان هكذا. وكان هنالك جمبري عادي، وبعض السرطانات. وكركند... لم يكن ذلك كافياً للجميع، لكننا تناولنا بضع لقمات. ثم أيضاً... أوه، نعم... بعض قطع اللحم، وهكذا».

قالت أمي: «يبدو هذا جيداً».

قلت: «نعم، كان جيداً. وبعد ذلك خرجنا عند منتصف الليل ومضينا إلى تقاطع الطرق حيث احتشد الجميع وأطلقوا الصواريخ. لم نطلق الصواريخ بأنفسنا لأننا لم نجلب صواريخ معنا، لكن الناس كانوا يفعلون ذلك، معظمهم».

«وهل تعرفت إلى أشخاص جدد هناك؟».

ترددت في الإجابة. تناولت قطعة خبز أخرى ونظرت إلى الطاولة لأجد شيئاً أضعه عليها... السلامي مع المايونيز... سيكون ذلك لذيذاً.

قلت: «ليس تماماً! بقيت معظم الوقت مع الأشخاص الذين أعرفهم».

نظرت إليها: «أين أبي؟».

«إنه في الحظيرة. سيذهب إلى جدتك اليوم. هل تحب الذهاب معه؟».

قلت: «لا، لا أظن. كان هنالك الكثير من الناس الليلة الماضية. أحب أن أكون وحدي الآن. ربما أذهب بعد ذلك إلى بيت بير. لكن، هذا كل شيء. ماذا ستفعلين أنت؟»

«لا أعرف تماماً. ربما أقرأ قليلاً. وقد أبدأ حزم حقائبي بعد ذلك. تقلع طائرتي في وقت مبكر صباح الغد».

قلت لها: «لا بأس. متى يذهب إنغفِه؟»

«بعد أيام قليلة على ما أظن. وبعد ذلك ستظل مع أبيك فقط».

قلت: «صحيح».

وقعت عيناي على اللحم المحفوظ الذي أعدته جدتي. قد يكون اللحم المحفوظ فكرة جيدة من أجل شريحة الخبز التالية! وبعد ذلك شريحة أخرى عليها سجق الغنم.

بعد نصف ساعة، كنت أدق جرس بيت بير. فتح والده الباب. بدا لي أنه في طريقه إلى الخروج من البيت: كان مرتدياً سترة عسكرية خضراء مبطنة فوق بيجامة رياضية زرقاء لامعة وحذاء ملون مرتفع الساق. رأيت حبل الكلب في يده ثم رأيت كلبهم العجوز ذا اللون الذهبي واقفاً خلفه يهز ذيله بين ساقيه.

«آه، هذا أنت، سنة سعيدة».

قلت: «سنة سعيدة».

قال: «إنهم جالسون في غرفة المعيشة. ادخل إليهم».

سار خارجاً فتجاوزني وهو يصفر لحناً. مضى إلى ساحة البيت الأمامية ثم اجتازها صوب المرآب المفتوح. خلعت حذائي ودخلت البيت. كان بيتاً كبيراً مفتوحاً من الداخل مبنياً منذ سنوات قليلة. بناه والد بير بحسب ما فهمت. تكاد غرف هذا البيت كلها تطل في اتجاه النهر. يأتي المطبخ بعد المدخل مباشرة. رأيت والدة بير تعمل في

المطبخ. التفتت صوْبي عند مروري فابتسمت وحيَّتني. دخلت غرفة الجلوس فوجدت بير مع أخيه توم وأخته ماريت وصديقها المفضل تريغفِه.

سألتهم: «ماذا تشاهدون؟».

قال بير: «فيلم مدافع نافارون».

«هل بدأتم منذ زمن بعيد؟».

«لا، منذ نصف ساعة. نستطيع إعادته من البداية إذا أردت».

قال تريغفِه: «إعادته؟ لا نريد أن نرى البداية من جديد».

قال بير: «لكن كارل أوفِه لم يشاهده. لن يستغرق الأمر طويلاً».

قال تريغفه: «لن يستغرق طويلاً! سوف يستغرق نصف ساعة».

مضى بير إلى مشغّل الفيديو وركع إلى جانبه.

قال توم: «لا تستطيع أن تقرر هذا وحدك».

قال بير: «أوه؟».

ضغط على مفتاح الإيقاف، ثم على مفتاح العودة إلى الخلف.

نهضت ماريت واتجهت صوب السلم الصاعد إلى الطابق الثاني. قالت: «نادوني عندما تصلون إلى حيث كنا».

هز بير رأسه. صدرت عن آلة الفيديو عدة أصوات بينما انبعث منها أنين هيدروليكي خافت إلى أن صارت جاهزة فراح الشريط يكُرُّ راجعاً إلى أوله بسرعة متعاظمة وصوت يزداد ارتفاعاً إلى أن توقف قبل البداية بقليل، وراح القسم الباقي يتحرك ببطء بالغ على نحو يذكّر بالطائرة التي تقترب من الأرض بسرعة منخفضة بعد طيرانها بسرعات شديدة الارتفاع ثم تفرمل على مدرج الهبوط وتسير ببطء وحذر صوب مبنى المطار.

قلت ناظراً إلى تريغفه: «أظنكم سهرتم في البيت مع أبيكم وأمكم الليلة الماضية».

قالت تريغفِه: «صحيح! وأظن أنك خرجت وشربت؟».

قلت: «نعم. لقد كنت أشرب، لكنني أتمنى لو بقيت في البيت. لم تكن لدينا حفلة أذهب إليها، وهكذا تجولنا هنا وهناك في العاصفة يحمل كل منا كيساً من زجاجات البيرة. مشينا الطريق كُله إلى سوم. لكن، انتظر فقط! سرعان ما يأتي دورك لتتجول على غير هدى حاملاً كيس زجاجات البيرة في الليل».

قال بير: «صحيح».

«أوه، هذا ممتع». قال تريغفِه هذه الكلمات عندما ظهرت على الشاشة صور الفيلم الأولى. وفي الخارج، كان كل شيء هادئاً هدوءاً لا يستطيعه غير الشتاء. ومع أن السماء كانت رمادية ملبدة بالغيوم، فإن الضياء في ذلك المشهد الريفي كان متلألئاً، كان كل شيء أبيض تماماً. أتذكر تفكيري في أنني لم أكن أريد فعل شيء غير الجلوس هناك، في بيت مبني حديثاً، في دائرة من الضوء وسط الغابة حيث أستطيع أن أكون غبياً أحمق بقدر ما أريد.

أوصل أبي أمي إلى المطار في الصباح التالي. وعندما عاد، كان وجودها (ذلك العازل الذي يفصل بيننا) قد زال، فاستأنفنا من غير تأخير تلك الحياة التي عشناها طيلة الخريف. عاد إلى تلك الشقة الصغيرة في الحظيرة، وعدت أركب الباص إلى بيت يان فيدار حيث نُشغّل مضخّم الصوت لديه ونجلس بالقرب منه فنعزف بعض الوقت إلى أن يصيبنا الملل فنذهب إلى المتجر حيث لا يحدث شيء، ثم نسير عائدين ونشاهد قفزات المتزلجين في التلفزيون، ونستمع إلى بعض التسجيلات ونتحدث عن البنات. في الخامسة تقريباً ركبت الباص عائداً فلاقاني أبي عند الباب وسألني إن كنت أريد أن يأخذني بالسيارة إلى المدينة. قلت له إن هذا ممتاز. وفي الطريق، اقترح أن نمر قليلاً على بيت جدي وجدتي. قد أكون جائعاً؛ يمكننا أن نأكل هناك.

مدت جدتي رأسها من النافذة عندما أوقف أبي السيارة عند المرآب.

قالت: «أوه، هذا أنت!».

فتحت الباب الأمامي بعد دقيقة من ذلك.

قالت: «لطيف أن أراكم من جديد! كانت سهرة جميلة في بيتكم».

نظرت إليَّ: «سمعت أنك قضيت وقتاً ممتعاً أيضاً؟».

«نعم، كان وقتاً طيباً».

«عانقني إذن! لقد صرت ولداً كبيراً الآن، لكنك لا تزال تستطيع أن تعانق جدتك قليلاً، أليس كذلك؟»

انحنيتُ وأحسستُ بخدها المجعد الجاف يمس خدي. كانت رائحتها طيبة، رائحة العطر الذي تستخدمه دائماً.

سألها أبي: «هل أكلتم؟».

«لقد تناولنا طعامنا قبل قليل، لكني أستطيع تسخين بعض الطعام من أجلكما. هل أنتما جائعين؟»

قال أبي: «أظن أننا جائعين، ألسنا جائعين؟» قال هذا وهو يبتسم لي ابتسامة متخابثة.

قلت: «إنني جائع نوعاً ما».

سمعت بأذني الداخلية كيف بدا ذلك الذي قلته بالنسبة إليهما... «نوعاً ما».

في مدخل البيت، وضعت حذائي بطريقة أنيقة في أسفل الخزانة المفتوحة، ثم علقت سترتي على واحدة من علاقات الملابس المذهّبة العتيقة. ظلت جدتي واقفة عند أول السلم تنظر إلينا وقد اكتسى جسدها مظهر نفاد الصبر الذي يظهر عليها دائماً. وضعت إحدى يديها على خدها، ومال رأسها قليلاً. كان ثقل جسدها ينتقل من قدم إلى أخرى. لكنها ظلت تتحدث مع أبي من غير أن يتأثر حديثها بهذه التغيرات الصغيرة. سألته إن كان هنالك ثلج كثير في المرتفعات. وسألته إن كانت أمي قد سافرت. سألته أيضاً متى تعود. «ممم، تماماً»... هكذا كانت تكرر كلما قال شيئاً... «تماماً».

قالت وهي تركز نظراتها في اتجاهي: «وماذا عنك أنت يا كارل أوفِه، متى تبدأ المدرسة من جديد؟».

«خلال يومين».

«سيكون هذا جيداً، أليس كذلك؟».

«نعم، سيكون جيداً».

ألقى أبي نظرة على نفسه في المرآة. كان وجهه هادئاً، لكن ظلاً من الانزعاج كان ظاهراً في عينيه. بدت عيناه باردتين، حزينتين. سار خطوة في اتجاه جدتي التي استدارت لتبدأ صعود السلم بخطوات خفيفة باردة. تبعها أبي بساقين ثقيلتي الحركة، وسرت خلفهما مثبتاً عينيَّ على كتلة الشعر الأسود الكثيف على رقبته.

قال جدي عندما دخلنا المطبخ: «لم أتوقع قدومكما!» كان جالساً على كرسي قريب من الطاولة مائلاً بظهره إلى الخلف مباعداً بين ساقيه.

كانت حمالات بنطلونه السوداء ممتدة فوق قميصه الأبيض المزرر حتى العنق. تهدلت على وجهه خصلة شعر دفعها بيده فأعادها إلى مكانها. تدلت من فمه سيجارة غير مشتعلة.

سأل: «كيف كانت الطرقات؟ هل فيها جليد كثير؟».

قال أبي: «ليست سيئة كثيراً. كانت أسوأ في يوم عيد الميلاد. لا يوجد الآن زحام أيضاً».

قالت جدتي: «اجلسا!».

قال أبي: «لا، لن يبق لك مكان إذا جلست».

قالت: «سوف أقف. عليّ أن أسخن الطعام لكما. إنني أجلس طيلة النهار، كما تعلم. هيا، اجلس!».

تناول جدي القداحة وأشعل سيجارته. أخذ منها عدة أنفاس مطلقاً الدخان في المطبخ.

شغّلت جدتي موقد الطبخ وراحت تنقر بأصابعها على حافته وتصفِّر بهدوء مثلما تفعل دائماً.

على نحو ما، كان أبي أكبر من أن يجلس إلى طاولة المطبخ، هكذا قلت في نفسي. لا أقصد أن جسده كبير أكثر مما يجب لأن المكان كان يتسع له بسهولة... لكن... بدا لي كأنه جالس في مكان ليس مكانه. كان فيه شيء، أو كان ينبعث منه شيء يجعله بعيداً عن هذه الطاولة.

أخرج سيجارة وأشعلها.

هل يمكن أن يبدو متناسباً أكثر مع غرفة الجلوس؟ أقصد، لو أننا جلسنا لنأكل هناك.

نعم، سيكون ذلك مناسباً أكثر. سيكون ذلك أفضل.

قلت حتى أكسر الصمت الذي استمر بضع ثواني: «إنها سنة 1985!»

قالت جدتي: «نعم، إنها سنة جديدة يا ولدي».

قال جدي: «ماذا فعلت مع أخيك؟ هل عاد إلى بيرغن؟».

قلت: «لا، لا يزال في آريندال».

قال جدي: «آه، نعم. لقد صار واحداً من شباب آريندال».

قالت جدتي: «نعم، لم يعد يأتي كثيراً في الآونة الأخيرة. لقد استمتعنا كثيراً بوجوده معنا عندما كان صغيراً».

نظرت إلي: «أما أنت فتأتي إلينا».

سأل جدي: «ماذا يدرس الآن؟».

قال أبي متسائلاً وهو ينظر إلي: «ألا يدرس العلوم السياسية؟».

قلت: «لا، لقد بدأ دراسة الصحافة».

قالت جدتي مبتسمة: «ألا تعرف ما الذي يدرسه ابنك؟».

قال أبي: «نعم، أعرف. أعرف جيداً».

سحق سيجارته التي دخن نصفها في منفضة السجائر ثم استدار صوب جدتي: «أظن أن الطعام جاهز الآن

يا أمي. لا حاجة إلى تسخينه كثيراً. لا بد أنه سخن بما فيه الكفاية، ألا تظنين هذا؟»

قالت جدتي: «ربما»، ثم أحضرت طبقين من الخزانة ووضعتهما أمامنا وأخرجت أدوات الطعام من الدرج فوضعتها إلى جانب الطبقين.

قالت: «سأسكب الطعام من القدر مباشرة اليوم».

أخذتْ طبق أبي وملأته بالبطاطس والبازلاء واللحم المقلي وصلصة اللحم الكثيفة.

قال أبي عندما وضعتْ طبق أمامه وتناولتْ طبقي لتملأه: «يبدو هذا لذيذاً».

أعرف شخصين فقط يأكلان بسرعة شديدة مثلما أفعل أنا: إنغفِه وأبي. ما كاد الطبقان يستقران على الطاولة أمامنا حتى صارا فارغين، نظيفين. استند أبي إلى الخلف وأشعل سيجارة أخرى، أما جدتي فصبَّت له فنجاناً من القهوة وناولته إياه. نهضتُ وذهبت إلى غرفة الجلوس ونظرت إلى المدينة بأنوارها المتلألئة، وإلى الثلج الرمادي، الأسود تقريباً، المكوم عند جدران المستودعات على امتداد المرسى. كانت أضواء الميناء منعكسة على صفحة الماء اللامعة السوداء كالقار.

ملأني في تلك اللحظة الإحساس ببياض الثلج في مواجهة هذا الماء الأسود. كيف يمحو البياض التفاصيل كلها حول بحيرة أو نهر في الغابة بحيث يصبح الاختلاف بين اليابسة والماء اختلافاً مطلقاً، وحيث يرقد الماء هناك كأنه شيء غريب تماماً، كأنه ثقب أسود في هذا العالم؟

استدرت. كانت غرفة المعيشة الثانية مرتفعة درجتين عن الغرفة التي كنت فيها. يفصلها عنها باب منزلق. كان الباب نصف مفتوح فدخلت. لم أدخل الغرفة لأي سبب

محدد... ببساطة، كنت غير قادر على الجلوس. هذه هي غرفة الاستقبال الفاخرة التي لا يستخدمانها إلّا في المناسبات الخاصة. لم يكن دخول هذه الغرفة وحدنا مسموحاً لنا أبداً.

كان فيها بيانو إلى جانب أحد الجدران ومن فوقه لوحتان تمثلان مشاهد من العهد القديم. وفوق البيانو، كانت هناك ثلاثة صور لأبنائهما أبي وإيرلينغ وغونار... صور تخرّجهم في المدرسة. كان شيئاً غريباً دائماً أن أرى أبي من غير لحيته. كان مبتسماً وقد استقرت بمرح على رأسه قبعة التخرج المدرسية السوداء. عيناه مشعَّتان سعادة.

في منتصف تلك الغرفة أريكتان إلى جانبَيْ الطاولة. وفي الزاوية، في آخر تلك الغرفة الفخمة التي تهيمن عليها أريكتا الجلد السوداوان والخزانة الوردية ذات الطراز القديم في الزاوية، كان هنالك موقد أبيض.

صاح أبي من المطبخ: «كارل أوفِه!».

أسرعت فاجتزت الخطوات الأربع إلى غرفة المعيشة العادية، ثم أجبته: «هل نحن ذاهبان؟».

«نعم».

عندما دخلت المطبخ كان أبي قد نهض واقفاً على قدميه. قلت لجديَّ: «كونا بخير، إلى اللقاء».

قالت جدتي: «مع السلامة». وكعادتها دائماً، نزلت معنا حتى الباب.

قال أبي عندما صرنا في المدخل وبدأنا نرتدي معاطفينا: «أوه، كدت أنسى. لقد أحضرت لك شيئاً». خرج ففتح باب السيارة ثم أغلقه. عاد بعد ذلك حاملاً بيده علبة وقدمها إليها قائلاً: «سنة سعيدة يا أمي».

قالت: «أوه، ما كان يجب أن تحضر شيئاً. لا حاجة لشراء الهدايا من أجلي يا عزيزي».

قال لها: «بل يجب أن أقدم لك هدية. هيا، افتحيها الآن».

لم أعرف أين أنظر! كان هنالك شيء حميم في هذا كله، شيء لم أره من قبل ولم أكن أعرف بوجوده.

وقفت جدتي حاملة مفرشاً للطاولة في يديها. قالت معجبة: «ياه، ما أجمله!».

قال أبي: «رأيت أنه سيكون متناسباً مع ورق الجدران في الأعلى. ألا تظنين ذلك؟».

قالت جدتي: «جميل جداً».

قال أبي بنبرة ما عادت فيها أي زينة: «حسناً، سنذهب الآن».

جلسنا في السيارة، وأدار أبي المحرك فغمر باب المرآب شلال من الضوء. لوّحت جدتي بيدها مودِّعة عند درجات الباب الأمامي بينما كانت السيارة تتراجع بنا إلى الخلف في ذلك المنحدر الصغير. وكعادتها دائماً، أغلقت الباب من خلفها عندما استدرنا. كانت قد اختفت عندما بلغنا الطريق.

فكرت عدة مرات خلال الأسبوع الذي تلا ذلك بالمشهد الصغير الذي رأيته في المدخل عند جدتي. كانت مشاعري هي نفسها كل مرة: لقد رأيت شيئاً ما كان يجب أن أراه. لكن الأمر مر سريعاً. لم أكن كثير الانشغال بأبي ولا بجدتي، إضافة إلى أن أشياء كثيرة حدثت خلال تلك الأسابيع. في الدرس الأول في المدرسة بعد العطلة، دعت سيف الجميع إلى حفلة للصف تقيمها في بيتها يوم السبت التالي. كان هذا خبراً جيداً لأن حفلة الصف شيء من حقي أن أذهب إليه فلا يستطيع أحد اتهامي بأنني أقحم نفسي إقحاماً. هناك، يمكن أن تمتد الألفة مع الآخرين لتشمل عالماً أكبر. تسمح لي حفلة الصف بالتصرف بطريقة قريبة من الشخص الذي كنته فعلاً. باختصار، يمكنني أن أشرب وأرقص وأضحك، وقد أقبّل إحداهن وأداعبها عند جدار في مكان ما. أما من ناحية أخرى، فإن حفلات الصف تتمتع بسوية أدنى لهذا السبب تحديداً: «ليست هي الحفلات التي يدعونك إليها لأنهم يجدون فيك شيئاً محدداً، بل لأنهم يجدونك في مكان محدد... صفُّنا في هذه الحالة. لكني لم أسمح لتلك الفكرة بأن تفسد عليَّ مسرّتي. صحيح أن الحفلة ليست مجرد حفلة، لكنها حفلة بعد كل حساب. ظلت مشكلة الحصول على الكحول مثلما كانت في ليلة رأس السنة. فكرت في الاتصال بتوم من جديد. لكني قررت أن أغامر بنفسي. قد أكون في السادسة عشر فقط، لكني أبدو أكبر من سني. إذا تصرفت بشكل طبيعي، فلن يفكر أحد في رفضي. أما إذا رفضوا، فسيكون هذا محرجاً؛ لكن هذا كل ما في الأمر، وسوف أظل قادراً على الاستعانة بتوم عند ذلك. وهكذا، مضيت يوم الأربعاء إلى السوبرماركت ووضعت اثني عشر زجاجة بيرة في عربة التسوق، ووضعت معها خبزاً وطماطم كنوع من التمويه؛ ثم وقفت في

الصف، ووضعت مشترياتي على الطاولة وناولت الفتاة النقود. أخذَتها من غير أن تلتفت صوبي. فأسرعت عائداً إلى البيت، مستثاراً، وأنا أحمل في كل يد كيساً تقرقع الزجاجات فيه. كان أبي في شقته الصغيرة عندما عدت من المدرسة بعد ظهر يوم الجمعة فوجدت رسالة على الطاولة.

كارل أوفِه،

سوف أكون في ندوة دراسية طيلة عطلة نهاية الأسبوع. أعود ليلة الأحد. هنالك جمبري طازج في البراد، وهنالك خبز في سلة الخبز.

استمتع بوقتك.

أبوك.

وفوق تلك الرسالة، وجدت قطعة نقدية من فئة مائة كرون.

أوه، هذا ممتاز إلى أقصى حد!

كنت أحب الجمبري أكثر من أي شيء آخر. أكلته أمام التلفزيون ذلك المساء. مضيت بعد ذلك فتمشيت في المدينة وأنا أستمع إلى الووكمان. استمعت إلى أغنية إيغي بوب «لَست فور لايف»، ثم إلى واحدة من أحدث أغاني روكسي ميوزك... أغنية تتحدث عن التباعد بين العالم الداخلي والعالم الخارجي، ثم رأيت شيئاً أعجبني كثيراً... رأيت تلك الوجوه السكرى للناس المجتمعين عند البارات كأنها موجودة في عالم مختلف عن عالمي. كان الشيء نفسه منطبقاً على السيارات التي تمر بي، وعلى السائقين الذين ينزلون من سياراتهم في محطات الوقود، وعلى عاملات المتاجر الواقفات خلف طاولاتهن بابتساماتهن المتعبة وحركاتهن الآلية، وعلى الرجال المتنزِّهين مع كلابهم.

عَرّجت على بيت جديَّ في الصباح التالي فأكلت معهم بعض السندويتشات الطازجة ثم مضيت إلى المدينة واشتريت ثلاثة تسجيلات جديدة وكيساً كبيراً من السكاكر، إضافة إلى بعض المجلات الموسيقية وكتاباً لجين جينيه، «يوميات لص». عدت إلى البيت وشربت زجاجتين من البيرة خلال مشاهدة مباراة إنكليزية لكرة القدم. شربت زجاجة أخرى عندما كنت أستحم وأغيِّر ملابسي. ثم أخرى وأنا أدخن السيجارة الأخيرة قبل الخروج من البيت.

كنت قد اتفقت مع باسين على اللقاء عند تقاطع أوسترفين في الساعة السابعة.

رأيته واقفاً هناك مبتسماً بينما سرتُ صوبه حاملاً كيس زجاجات البيرة بيدي. كان قد وضع زجاجاته كلها في حقيبة ظهر. عندما رأيت تلك الحقيبة أحسست أن شيئاً ضربني في وجهي. بالطبع! هكذا يجب حملها!

سرنا في ذلك الشارع فمررنا ببيت جديٍّ، ثم تسلقنا المنحدر وسرنا في المنطقة السكنية حول الملعب الرياضي حيث كان بيت سيف.

بعد بحث استمر بضع دقائق، عثرنا على ذلك البيت وقرعنا الجرس. فتحت سيف الباب. وحيَّتنا بزعيق مرتفع.

حتى قبل أن أستيقظ، عرفت أن شيئاً جيداً قد حدث. كان ذلك مثل يد تمتد صوْبي حيث أرقد عند قاع الوعي أنظر إلى صور تمر بي مندفعة، واحدة تلو أخرى. أمسكت تلك اليد فرفعتني ببطء، وعدت إلى نفسي أكثر فأكثر إلى أن استطعت فتح عيني.

أين أنا؟ أوه، نعم، إنها غرفة المعيشة في بيتهم، في الأسفل. كنت مستلقياً على الأريكة بملابسي كلها.

جلست وأسندت رأسي النابض بالصداع إلى كفيّ.

فاحت رائحة عطر من قميصي. عطر ثقيل، غريب.

لقد كنت أعانق مونيكا وأقبّلها. لقد رقصنا قبل ذلك، ثم تنحينا جانباً ووقفنا تحت السلم حيث قبَّلتها. قبَّلتني أيضاً.

لكنه ليس هذا!

نهضت ومضيت إلى المطبخ فسكبت ماء في الكأس وشربته جرعة واحدة.

لا، ليس هذا هو الأمر.

لقد حدث شيء استثنائي، رائع، لقد أضاء نور... لكن تلك لم تكن مونيكا. هنالك شيء آخر.

ما هو؟

كانت كمية الكحول الكبيرة قد خلقت عندي شيئاً من عدم التوازن. لكني أدركت ما يجب فعْله حتى أستعيد توازني. عليّ أن آكل الهامبرغر ورقائق البطاطا والهوت دوغ. وأن أشربَ الكثير من الكولا أيضاً. هذا ما يلزمني. هذا ما يلزمني الآن.

مضيت إلى الصالة، وألقيت نظرة على نفسي في المرآة وأنا أمرر أصابعي في

شعري. لم يكن منظري سيئاً... عيناي محمرّتان قليلاً. أستطيع بكل تأكيد أن أظهر أمام الناس هكذا.

ربطت شريط حذائي وأخذت سترتي فارتديتها.

لكن... ماذا كان ذلك الأمر؟

شارة تعلق على الصدر؟

على الصدر؟

وعليها كلمة «ابتسم»؟

نعم... هذا ما كان!

هذا هو الشيء الجيد!

ظللنا نتحدث وقتاً طويلاً. كانت تضحك، وكانت سعيدة جداً. ما كان لديها شيئاً تشربه. لكني جلبت البيرة فكنت قادراً على الوجود حيثما توجد هي... في ذلك الحيز السعيد خالي البال. وبعد ذلك رقصنا معاً.

رقصنا على أنغام أغنية «قوة الحب» لفرقة «فرانكي غوز تو هوليوود».

إنها «قوة الحب»! لكنها كانت حنّة، حنّة.

أحسست بأنها شديدة القرب. كانت واقفة على مقربة شديدة مني، وكنا نتحدث. ضحكاتها، عيناها الخضراوان. أنفها الصغير.

قبل أن نترك المكان، عندما كنا في طريقنا إلى الخروج، ثبتت حنّة تلك الشارة على صدري.

هذا ما حدث. لم يكن شيئاً كثيراً! لكن القليل الذي حدث كان في غاية الروعة.

أغلقت سترتي وخرجت. خيَّمت فوق البلدة غيوم منخفضة، واكتسحت الشوارع ريح باردة ماضية إلى البحر. كان كل شيء رمادياً، أبيض، بارداً، غير ودّي. لكن الشمس كانت مشرقة في داخلي. كنت أسمع أغنية «قوة الحب» من جديد. أسمعها مرة بعد مرة خلال سيري على امتداد النهر صوب المطعم الصغير.

ما الذي حدث؟ حنّة كانت حنّة... لم تتغير. إنها الشخص نفسه الذي كانته في الصف طيلة الخريف وطيلة الشتاء. كانت تعجبني، لكن من غير أي مشاعر خاصة نحوها... حتى الآن! ثم حدث هذا!

كنت كمن أصابته صاعقة. على فواصل زمنية منتظمة، كانت السعادة تسري

مندفعة في أعصابي كلها. اضطرب قلبي، وتألَّقت روحي. وفجأة، صرت غير قادر على الانتظار حتى يوم الإثنين. لا أستطيع انتظار الذهاب إلى المدرسة من جديد.

هل أتصل بها؟

هل أدعوها إلى الخروج معي؟

من غير تفكير، طلبت لنفسي تشيزبرغر مع البطاطس، إضافة إلى كأس كبيرة من الكولا. سوف تخرج مع أحد ما الليلة. هكذا أخبرتني... شخص في الصف الثالث في مدرسة فاغسبيغد الثانوية. إنهما معاً منذ فترة طويلة. لكن طريقة نظرها إليّ، وذلك القرب الذي ظهر فجأة من غير انتظار، لا يمكن أن يكونا من غير معنى، لا يمكن أبداً! كان لذلك معنى. كان لديها اهتمام بي، وكانت لديها رغبة بي أيضاً. لا بد أن ذلك كان لديها.

يوم الإثنين، يوم الإثنين... سأراها يوم الإثنين من جديد.

لكن، ماذا أفعل حتى يوم الإثنين؟

لا يزال أمامي يوم كامل قبل أن يأتي الإثنين!

ابتسمَت عندما رأتني. ابتسمت بدوري.

قالت لي: «أرى أنك لا تزال محتفظاً بهذه الشارة».

قلت: «نعم! أتذكرك كلما رأيتها».

خفضت عينيها. راحت تعبث بزر سترتها.

قالت لي: «لقد كنت ثملاً تماماً». نظرتْ إليَّ من جديد.

قلت: «أظن أنني كنت ثملاً. في الحقيقة، إنني لا أتذكر الكثير».

«ألا تتذكر؟».

«لا، لا لم أقصد هذا، أتذكر، أتذكر! أتذكر مثلاً كيف رقصنا على تلك الأغنية...».

من آخر الممر، جاء تونيسن، معلم الجغرافيا الشاب الملتحي الذي يتكلم بلهجة منطقة مانذال. إنه معلمنا.

سألنا وهو يفتح الباب الذي كنا واقفين خارجه: «ماذا، أنتما الاثنان، هل أمضيتما عطلة نهاية أسبوع جيدة؟».

ابتسمت حنّة: «لقد كانت لدينا حفلة للصف».

يا لهذه الابتسامة!

قال: «أوه! لماذا لم أكن مدعواً؟» قال هذا من غير أن يتوقع إجابة. لم ينظر إليها بل دخل الغرفة ومضى إلى الطاولة التي في آخرها حيث وضع كومة صغيرة من الكتب كان يحملها.

ما كنت قادراً على التركيز على ما يحدث في الصف. كنت أفكر في حنّة فقط رغم كونها جالسة معي في الغرفة نفسها. أو... هل كنت أفكر؟ كان الأمر كأنني امتلأت بمشاعر لم تترك متسعاً لأي تفكير. ظل الأمر هكذا طيلة الشتاء، وطيلة الربيع. كنت عاشقاً. لم يكن ذلك حالة من حالات الهوى الهامشية... كان حالة من حالات «الحب الكبير»، تلك الحالات التي يمكن أن يعيشها المرء ثلاث مرات، أو ربما أربع مرات، في حياته كلها. كانت هي المرة الأولى. وبما أن كل شيء فيها كان جديداً، فلعلها كانت أروعها. كان كل شيء في داخلي متركزاً على حنّة. كنت أستيقظ كل صباح مشتاقاً إلى المدرسة لأنها ستكون فيها. وإذا لم تكن هناك، إذا كانت مريضة أو مسافرة مثلاً، فإن كل شيء يفقد معناه وتصبح بقية اليوم كلها معاناة مستمرة. لماذا؟ ما الذي كنت أرجوه خلال انتظاري هذا؟ ما كنت أنتظر؟ معانقات حارة ولا قبلات عميقة لأن العلاقة بيننا بهذا المعنى ما كانت موجودة. لا!... ما كنت أنتظره، ما كنت أعيش من أجله، هو تلك اليد التي تمس كتفي مسّاً خفيفاً، والابتسامة التي تضيء وجهها عندما تراني أو عندما أقول شيئاً طريفاً. إنها تلك المعانقة عندما نلتقي كصديقين بعد المدرسة. تلك الثواني القليلة عندما أضع ذراعي حولها وأحس بوجنتها قرب وجهي وأشم رائحتها، أشم رائحة الشامبو التي استخدمته... نكهة التفاح الخفيفة فيه. كانت منجذبة إليّ، وكنت أعرف هذا. لكن لديها حدوداً صارمة من حولها ومما ترى أنها تستطيع فعله. لم يكن مطروحاً أبداً أن نكون حبيبين. لكن، عليَّ أن أكون صادقاً الآن: ما كنت واثقاً من أنها منجذبة إليَّ فعلاً. قد يكون الأمر ببساطة هو أنها تشعر بنوع من الإطراء لكثرة اهتمامي بها. لعلها تجد هذا أمراً مسلياً. رغم هذا، كانت لديّ آمالي. كنت أعود إلى البيت وأفسر كل شيء قالته وكل شيء فعلته خلال يومنا المدرسي. كان ذلك يقذف بي في هاوية البؤس العميقة أو يرفعني إلى أعلى ذرى السعادة... لا وجود لشيء وسط بين هذين الاثنين.

بدأت أبعث برسائل صغيرة إليها في المدرسة. ملاحظات صغيرة، وتحيات صغيرة، ورسائل قصيرة. كنت أؤلفها في الليلة السابقة غالباً. كلما أتاني رد منها أقرأه

وأكتب رسالة أخرى رداً عليه ثم أمرر ذلك الرد إليها وأراقب بكل انتباه ردود أفعالها عندما تقرأ ما كتبت. وعندما تمتنع عن متابعة موضوع بدأت الحديث فيه، يغدو كل شيء أسود أمام عيني، أما إذا استجابت فإن جوفي يرتجف كله ويرن كما لو أنني جرس كبير. في مرحلة لاحقة، حل محل القصاصات الورقية دفتر صغير صار يروح ويأتي بيننا (لم يكن يأتي ويروح كثيراً لأنني لم أرد المخاطرة بجعلها تمل ذلك)، لكن ذلك كان يحدث مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. كنت كثيراً ما أسألها إذا كانت تود الذهاب إلى السينما أو إلى المقهى معي. وكانت تجيبني كل مرة «تعرف أنني لا أستطيع».

كنا نناقش بعض الأمور خلال الاستراحات، نتحدث قليلاً في السياسة، وكثيراً في الدين، لأنها كانت مسيحية أما أنا فكنت معادياً عنيفاً للمسيحية. كانت تنقل حججي إلى قائد مجموعتها الشاب في الكنيسة وتعود إليَّ بإجاباته في اليوم التالي. كان حبيبها واحداً من أعضاء تلك الجماعة. صحيح أنني لم أكن أشكل خطراً مباشراً على علاقتهما، إلّا أنني كنت (على الأقل) أمثل نقيضاً لحياتها الأخرى تلك. لكن حيز لقاءاتنا القصيرة في الاستراحات (ما كان ذلك اللقاء يحدث كل يوم)، كان يتوسع بحذر وتأنٍ ليشمل أشياء من الحياة خارج المدرسة. كنا صديقَيْن، زميلين في المدرسة، فلماذا لا يكون طبيعياً أن نستطيع تناول فنجان من القهوة في المقهى بعد المدرسة من حين لآخر؟ ألم يكن شيئاً طبيعياً تماماً أن نسير معاً إلى موقف الباص من وقت لآخر؟

كنت أعيش من أجل هذا، أعيش من أجل الالتفاتات الخاطفة، والابتسامات الصغيرة، والملامسات الخفيفة. و... آه... كنت أعيش من أجل ضحكاتها أيضاً. أعيش عندما أستطيع أن أجعلها تضحك.

كنت أعيش من أجل هذا. لكني أردت أكثر، أردت أكثر بكثير من هذا. أردت أن أراها طيلة الوقت، وأن أكون معها دائماً، وأن تدعوني إلى بيتها، وأن ألتقي أبوَيْها، وأن أخرج معها ومع أصدقائها، وأن أذهب لقضاء العطلات معها، وأن آخذها إلى بيتي...

«تعرف أنني لا أستطيع!».

السينما! إن للذهاب إلى السينما صلة بالعلاقات وبالحب، لكن هناك ترتيبات أخرى لا علاقة لها بذلك. وهكذا دعيت حنّة ذات يوم إلى واحدة من تلك المناسبات. كان ذلك أوائل شهر شباط: كان لقاء للناشطين السياسيين الشباب في مكان ما في مركز المدينة. وقد رأيت إعلاناً عن ذلك اللقاء في المدرسة فكتبت لها ذات صباح أسألها إن

كانت تريد الذهاب معي. بعد قراءة رسالتي الصغيرة، التفتتْ صوبي من غير ابتسامة، ثم كتبتُ شيئاً وأرسلت ما كتبته. فتحت الورقة وقرأتها. «نعم»! لقد قالت نعم.

قلت في نفسي، نعم!

نعم! نعم! نعم!

كنت جالساً أنتظرها عندما قرعت الباب في السادسة تقريباً.

قلت لها: «مرحباً! أتريدين الدخول ريثما أرتدي ملابسي؟».

قالت: «لمَ لا؟».

كانت وجنتاها محمرّتين من البرد. وتضع على رأسها قبعة صوفية بيضاء شدتها حتى بلغت عينيها. وعلى رقبتها وشاح طويل كبير أبيض.

قالت لي: «هذا هو بيتك إذن».

أجبتها وأنا أفتح باب غرفة المعيشة: «نعم. هذه غرفة المعيشة. وها هو المطبخ هناك. وغرفة النوم في الأعلى. وهذا مكتب جدّي في واقع الأمر. هناك». قلت هذا وأنا أشير صوب الباب الذي في الجهة الأخرى.

«ألا يجعلك العيش وحيداً هنا تشعر بالوحدة؟».

قلت: «لا، لا أشعر بالوحدة إطلاقاً. أحب أن أكون وحيداً. كما أنني أمضي كثيراً من الوقت في تفيت».

ارتديت سترتي التي لا تزال تزيّنها الشارة التي وضعتها عليها بنفسها. وضعت وشاحي وانتعلت حذائي.

قلت: «عليّ أن أذهب إلى المرحاض، ثم ننطلق».

أغلقت باب المرحاض خلفي. سمعتها تغني لنفسها بصوت منخفض. كانت جدران هذا البيت رقيقة لا تحجب الأصوات؛ ولعلها كانت تحاول الإصغاء إلى ما يجري هنا... أو لعلها أحبت أن تغني قليلاً فحسب!

رفعت غطاء المرحاض وحاولت التبول.

أدركت على الفور أنني لن أستطيع التبول إن كانت واقفة في مكان قريب. الجدران رقيقة، والصالة صغيرة جداً. بل ربما يمكنها أيضاً أن تسمع أنني لم أفعل شيئاً.

أوه، يا للبؤس!

ضغطت على نفسي بأقصى ما أستطيع.

ولا قطرة واحدة!

كانت تغني وتمشي جيئة وذهاباً.

ماذا تقول في نفسها الآن؟

أقلعت عن المحاولة بعد ثلاثين ثانية. فتحت الصنبور وتركت الماء يجري بضع لحظات... حتى يكون قد حدث شيء هنا، على الأقل. ثم أغلقته وفتحت الباب وخرجت لأجدها محرَجة مسبلة العينين.

قلت: «فلننطلق الآن!»

كانت الشوارع مظلمة والريح عاصفة كما هي أمسيات الشتاء في كريستيانساند أكثر الأحيان. لم نتكلم كثيراً في الطريق. تحدثنا قليلاً عن المدرسة وعن الأشخاص الذين يذهبون إليها: باسين ومولِه وسيف وتوني وآن. ولسبب ما، راحت تحدثني عن أبيها. قالت إنه رائع جداً. قالت إنه ليس مسيحياً. فاجأني هذا. هل صارت مسيحية من تلقاء نفسها؟ قالت إنني كنت سأحب أباها. كنت سأحبه؟ ما هذا التعبير؟ حيرني هذا. بدا لي من كلامها أنه شخص لطيف. متحفِّظ. سألتني عن معنى كلمة متحفظ، نظرت عيناها الخضراوان إليَّ. أشعر كأنني أتفكك كلما نظرت إليَّ بهذه الطريقة. أستطيع تحطيم النوافذ التي من حولنا كلها، وأستطيع إلقاء السائرين في الشارع أرضاً والقفز عليهم حتى تنطفئ كل علامات الحياة فيهم... كانت عيناها تملآني بهذه الطاقة كلها. أستطيع أيضاً أن أطوّق خصرها فأرقص معها في الشارع؛ وأستطيع أن أرمي الزهور على كل من نراه، وأن أغني بأعلى صوتي. قلت لها: «متحفظ؟» يصعب شرح هذا. جاف قليلاً وعملي... ربما عملي إلى حد المبالغة. ليس قول هذا جيداً، لكن ذلك هو معنى الكلمة، أليس كذلك؟

قال الإعلان إن مكان اللقاء في درونينغينز غيت. نعم، هذا هو! كانت هنالك ملصقات على ذلك الباب. دخلنا المكان. كانت غرفة الاجتماعات في الطابق الأول: كراسي، ومنصة للمتحدثين في نهاية الغرفة، وجهاز إسقاط ضوئي إلى جانبها. حفنة من الشباب والشابات، ربما عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصاً.

كان هنالك إبريق كبير تحت النافذة وإلى جانبه وعاء صغير فيه قطع من البسكويت، وكذلك كؤوس بلاستيكية.

سألتها: «أتريدين بعض القهوة؟».

هزت رأسها وابتسمت.

قالت: «ربما بعض البسكويت».

صببتُ لنفسي بعض القهوة، وأخذت قطعتَيْ بسكويت ثم عدت إليها. جلسنا في واحد من صفوف الكراسي الأخيرة. دخل خمسة أو ستة أشخاص آخرين، ثم بدأ اللقاء الذي كان يجري تحت رعاية الشباب الاشتراكيين. كان ذلك نوعاً من مناسبة لاستقطاب أعضاء جدد. جرى عرض بعض سياسات الحزب الاشتراكي المتعلقة بالشباب، ثم كان هنالك نقاش عن السياسة الشبابية بشكل عام وعن أهمية أن يكون لدى المرء التزام، وعن الأشياء التي يستطيع المرء إنجازها في حقيقة الأمر. وإضافة إلى هذا (كما لو كان الأمر نوعاً من الترضية)، نوقشت مسألة ما يمكن للمرء أن يحققه من فوائد نتيجة ذلك.

لو لم تكن حنّة جالسة معي، واضعة ساقاً فوق الأخرى، قريبة مني إلى حد جعل النار تشتعل في داخلي، لنهضت وغادرت المكان من غير تردد. قبل أن نأتي، تخيّلتُ ترتيبات أكثر تقليدية، تخيلت قاعة مزدحمة، ودخان السجائر، ومتحدثين فطنين، وموجات من الضحك تجتاح القاعة، ونوعاً من الحيوية الجذّابة... شباب وشابات متحمسون، تَوّاقون لفعل شيء ما يشتعلون شوقاً وحماسةً للاشتراكية، هذه الكلمة التي كانت سحرية في الخمسينيات؛ لكني لم أجد شيئاً مما تخيلت: صبيان مملون في كنزات وقمصان مملة وبنطلونات فظيعة المظهر يتحدثون إلى مجموعة صغيرة من الصبيان والبنات الذين يشبهونهم، يتحدثون عن أشياء مضجرة لا تبعث في النفس أي قدر من الإلهام.

من عساه يهتم بالسياسة عندما تكون ألسنة اللهب مضطرمة في داخله؟

من عساه يبالي بالسياسة إذا كان يشتعل رغبة في الحياة؟... يشتعل رغبة في أن يعيش؟

إنه ليس أنا على أية حال!

بعد المتحدثين الثلاثة، جاءت فترة استراحة قصيرة كان من المقرر أن تعقبها ورشة عمل ومناقشة جماعية؛ هكذا قالوا لنا! وعندما بدأت تلك الاستراحة سألت حنَّة إن كانت تريد الذهاب، فقالت إننا نستطيع أن نذهب. وهكذا خرجنا إلى الليل البارد من جديد. خلال وجودنا في المكان، كانت حنَّة قد علقت سترتها على ظهر الكرسي.

كانت كنزتها صوفية سميكة نافرة عند صدرها بطريقة جعلتني أبتلع ريقي عدة مرات. كانت شديدة القرب مني، وما كان يفصل بيننا إلّا القليل.

في طريق عودتنا قلت لها رأيي في السياسة. قالت إن لدي آراء عن كل شيء، فكيف يتسنَّى لي الوقت لأعرف هذا كله؟ قالت عن نفسها إنها لا تكاد تعرف ما هو رأيها في أي شيء تقريباً. قلت لها إنني لا أكاد أعرف شيئاً أنا أيضاً. سألتني: «لكنك فوضوي، ألست كذلك؟» من أين أتت بهذه الفكرة؟ لا أظنني أعرف معنى كلمة فوضوي. قلت لها: «لكنك مسيحية. فكيف حدث هذا؟ ليس أبواك مسيحيين! أختك ليست مسيحية أيضاً. أنت فقط! ليس عندك أي شك في تلك القناعة أيضاً!».

قالت: «صحيح. أنت على حق. لكن، يبدو عليك أنك تمضي وقت طويلاً في التفكير. عليك أن تعيش».

قلت لها: «إنني أفعل كل ما أستطيع».

توقفنا بالقرب من بيتي. سألتها: «أين يتوقف باصك؟».

قالت مشيرة إلى الطريق: «هناك، في الأعلى».

«هل أذهب معك؟».

هزت رأسها: «سأذهب وحدي. لقد جلبت الووكمان معي».

«حسناً».

قالت: «أشكرك على هذه الأمسية».

أجبتها: «لم يكن فيها ما يستحق الشكر».

ابتسمت ثم وقفت على رؤوس أصابعها وقبَّلتني على فمي. جذبتها بقوة، فاستجابت واحتضنتني للحظات ثم ابتعدت عني. نظر كل منا في عيني الآخر لحظة قصيرة ثم ذهبت.

لم تعرف نفسي سكينةً في تلك الليلة. رحتِ أسير في البيت، أمشي في غرفتي جيئة وذهاباً، أصعد السلم ثم أهبط، أدخل الغرف في الأسفل ثم أخرج منها. أحسست كما لو أنني أكبر من الدنيا كلها، أحسست كأن لدي كل شيء في داخلي، وأنه ما عاد هنالك شيء أتوق إليه. صارت البشرية صغيرة، وصار التاريخ صغيراً، وصارت الأرض صغيرة، نعم، بل حتى الكون نفسه، الكون الذي قالوا لنا إنه من غير نهاية،

صار صغيراً أيضاً. كنت أكبر من كل شيء. كان إحساساً رائعاً، لكنه جعلني مضطرباً لا أعرف الهدوء، إنه ذلك التوْق إلى ما سيحدث وليس إلى شيء فعلته من قبل.

كيف أستطيع أن أحرق هذه الطاقة كلها الآن... كل ما في داخلي؟ كيف أستنفده؟

أرغمت نفسي على الذهاب إلى السرير، وأرغمت نفسي على الاستلقاء من غير حركة، من غير تحريك عضلة واحدة مهما يطل بي الوقت قبل أن يأتي النوم. لكن الغريب أن النوم أتى بعد دقائق قليلة فقط. لقد تسلل فدخلني مثلما يتسلل صياد مقترباً من فريسة غيرَ مرتابة في شيء... لم أكن لأشعر بالطلقة لولا رجفة مفاجئة في قدمي نبهتني إلى أفكاري، أفكاري التي كانت في عالم آخر... كنت واقفاً على سطح قارب، وكان حوت عملاق يغوص في الأعماق قريباً مني؛ رأيت هذا رغم استحالة أن أراه من ذلك الموقع. أدركت أنها كانت بداية حلم، وأن ذراع ذلك الحلم تشد نفسي لتغرق فيه وتحوّلَ كل ما حوله ليصير جزءاً منه... أقول هذا لأن ذلك ما حدث حقاً عندما حركت قدمي، كنت حلماً، وكان الحلم أنا.

أغمضت عينيَّ من جديد.

لا تتحرك، لا تتحرك، لا تتحرك...

كان اليوم التالي يوم سبت، وكانت لدي فترة تدريب صباحية مع فريق كرة القدم المتقدم في المدرسة.

لم يفهم أشخاص كثيرون السبب الذي جعلني ألعب مع ذلك الفريق. ما كنت لاعباً جيداً في حقيقة الأمر! إن في الفريق ستة لاعبين على الأقل، بل ربما سبعة أو ثمانية لاعبين، أفضل مني بكثير. ورغم ذلك، تمت ترقيتي مع لاعب آخر اسمه بجورن لنلعب في الفريق المتقدم ذلك الشتاء.

إنني أعرف السبب!

كان لهذا الفريق مدرّب جديد أراد أن يتعرف على مستوى لعب أفراد الفريق الثاني جميعاً. وهكذا كان على كل منا أن يشارك في الفترات التدريبية المخصصة للفريق المتقدم مدة أسبوع. كان هذا يعني إتاحة ثلاث فرص لكل لاعب حتى يظهر قدراته. وكنت قد مارست الجري طيلة ذلك الخريف مما جعل لياقتي البدنية جيدة إلى حد جعل المدرسة تختارني لتمثيلها في سباق 1500 متر رغم أنني لم أشارك في أي سباق رسمي للجري من قبل، ولا في أي مباراة من أي نوع. وعندما جاء دوري

للتدرّب مع الفريق المتقدم أتيت إلى الملعب الذي غطته الثلوج قرب كجويتا، وكنت أعرف أن عليَّ أن أجري. كان الجري فرصتي الوحيدة. وهكذا جريت وجريت. كنت الأول في كل سباق جرى في ذلك الملعب. وكل مرة، كنت أبذل كل ما أستطيع بذله. حدث الأمر نفسه عندما بدأنا نلعب كرة القدم: جريت وجريت، جريت لأعوّض عن كل شيء، طيلة الوقت، كنت أجري كشخص أصابه مَسّ من جنون. وبعد انقضاء فترات التدريب الثلاث أدركت أن أدائي كان جيداً فلم يفاجئني إعلان ضمي إلى الفريق المتقدم. لكن بقية اللاعبين في ذلك الفريق فوجئوا بالأمر. ما كانوا يفوّتون أية فرصة لجعلي أدرك أنني لاعب سيئ. كلما فشلت في السيطرة على الكرة وكلما نفذت تمريرة خاطئة كانوا يقولون لي: كيف صرت في الفريق المتقدم؟ لماذا اختاروك أنت؟

كنت أعرف السبب: لأنني أجري.

ليس عليك إلّا أن تجري!

وبعد انتهاء التدريب، عندما كانوا الآخرون يضحكون كالعادة من حزامي ذي المسامير في غرفة تبديل الملابس، طلبت من توم أن يأخذني بالسيارة إلى سانز. أنزلني عند صناديق البريد ثم استدار بالسيارة عائداً بينما تابعت سيري إلى البيت. كانت الشمس منخفضة في السماء. كان يوماً أزرق صافياً. وكان الثلج يتلألأ في كل مكان من حولي.

لم أخبر والدي بأنني قادم، بل لم أكن أعرف إن كان في البيت.

دفعت الباب متردداً. كان مفتوحاً.

جاء صوت الموسيقى من غرفة المعيشة. لقد رفع الصوت كثيراً فملأت الموسيقى البيت كله. إنها النسخة السويدية من أغنية «غراتسياس آلا فيدا» بصوت آريا سايونما.

قلت: «مرحباً!».

لعله لم يسمعني لأن صوت الموسيقى شديد الارتفاع. هكذا قلت في نفسي. خلعت معطفي وحذائي.

لم أرغب في اقتحام الغرفة عليه؛ وهكذا صحت من جديد قرب غرفة المعيشة: «مرحباً!»... لا إجابة.

دخلت غرفة المعيشة.

كان جالساً على الأريكة مغمضاً عينيه. رأيت رأسه يتحرك إلى الأمام والخلف متناغماً مع الموسيقى؛ كانت دموعه منسابة على خديه.

تراجعت بصمت فعدت إلى المدخل حيث أخذت معطفي وحذائي وأسرعت خارجاً قبل أن ينتهي ذلك المقطع من الأغنية.

ركضت طيلة الطريق حتى موقف الباص حاملاً حقيبتي على ظهري. ومن حسن حظي، وصل الباص بعد دقائق قليلة. وخلال الدقائق الأربع أو الخمس التي استغرقها الباص حتى يصل إلى سولسليتا، كنت أناقش في عقلي إن كان عليَّ أن أنزل هناك لأرى يان فيدار أو أتابع الطريق إلى المدينة. لكن الإجابة كانت واضحة في حقيقة الأمر: لست أريد البقاء وحيداً! أردت أن أكون مع أحد، أن أكلم أحداً، أن أفكر في شيء آخر. سوف يتحقق لي هذا في بيت يان فيدار وسط ذلك اللطف الذي يبديه أهله تجاهي.

لم يكن يان فيدار في البيت. لقد ذهب إلى كجيفيك مع والده. لكنهما سيعودان سريعاً، هكذا قالت الأم. سألتني إن كنت أحب أن أجلس في غرفة المعيشة وأنتظر عودتهما.

نعم، سأنتظر. جلست هناك باسطاً الجريدة أمامي وإلى جانبها سندويتش وفنجان من القهوة. وصل يان فيدار وأبيه بعد ساعة.

عدت إلى البيت مع اقتراب المساء فلم أجد أبي. لم أحب أن أكون هناك أيضاً، لا لأن البيت قذر وفي حالة فوضى (لابد أن ضياء الشمس منعني من رؤية ذلك عندما كنت هنا في النهار)، بل لأنني اكتشفت أن أنابيب المياه متجمدة. لا بد أن الأنابيب متجمِّدة منذ بعض الوقت لأن أبي وضع عدداً من الدلاء المليئة بالثلج. رأيت بعض تلك الدلاء في المرحاض. كان الثلج فيها قد ذاب قليلاً. لا بد أنها هناك لسكبها في المرحاض بعد استخدامه. وجدت عند موقد الطهي أيضاً دلواً فيه ثلج شبه ذائب. أظنه يستخدمه في الطهي.

لا، ما كنت أريد البقاء هناك. ما كنت أريد الاستلقاء في سريري في غرفة خاوية في بيت خاوٍ في الغابة، محاطاً بتلك الفوضى كلها، ومن غير ماء أيضاً.

عليه أن يرتب ذلك كله بنفسه.

بالمناسبة... أين هو؟

رفعت كتفي عاجزاً على الإجابة على هذا السؤال، رفعتهما رغم أنني كنت

وحدي. وضعت سترتي وذهبت إلى موقف الباص عبر ذلك المشهد الطبيعي الذي بدا كأنه منوَّم مغناطسياً تحت ضوء القمر.

بعد تلك القبلة عندما خرجنا من بيتي، ابتعدت حنّة عني بعض الشيء. ما عادت تجيب سريعاً على رسائلي الصغيرة، وما عدنا نجلس معاً تلقائياً فنتحدث في الاستراحات بين الدروس. رغم ذلك، لم يكن هنالك منطق محدد، لم يكن هنالك نظام محدد لهذا: وافقت ذات يوم، هكذا... فجأة، على واحد من اقتراحاتي؛ قالت نعم، تستطيع الذهاب معي إلى السينما. سنلتقي في السابعة وعشر دقائق في ردهة السينما.

عندما جاءت مجتازة الباب باحثة عني، أحسست كيف يكون طعم العلاقة معها. عندها، ستكون أيامي كلها مثل هذا اليوم.

قالت لي: «مرحباً. هل أنت منتظر منذ زمن طويل؟».

هززت رأسي نفياً. أدركت أن الوضع قد استقر أخيراً وأن عليَّ أن أخفي كل ما من شأنه الإيحاء لها بأن ما نفعله شيء من النشاط لا يمارسه إلّا زوج من العشاق. مهما يكن الثمن... يجب ألا تندم على وجودها هنا معي! لا يجوز أن أجعلها تتلفت مضطربة لتتأكد إن كان بالقرب منا أحد يعرفنا. لن أضع ذراعي على كتفيها، ولن أمسك بيدها.

كان فيلماً فرنسياً يعرضونه في الصالة الصغيرة. كانت تلك فكرتي. اسم الفيلم «بيتي بلو»... شاهد إنغفِه هذا الفيلم وكان شديد الحماسة له. إنهم يعرضونه في مدينتنا الآن، ومن الواضح أن عليَّ أن أراه لأنهم لا يقدمون أفلاماً جيدة هنا إلّا نادراً؛ أما في الأحوال العادية، فإن كل شيء يكون أميركياً.

جلسنا في مقعدينا، وخلعنا ستراتنا. بدا عليها شيء من التوتر، نعم، كانت متوترة!... كأنها لا تريد حقاً أن تكون هنا. تعرقت راحتا يدي. أحسست أن كل ما في جسمي من قوة قد تفكك واختفى كأنه غار في داخلي. ما عادت لديَّ طاقة أبداً.

بدأ الفيلم. مشهد رجل وامرأة يتضاجعان.

أوه، لا. لا، لا، لا.

لم أجرؤ على النظر إلى حنّة، لكنني أظن أنها شعرت بمثل شعوري ولم تجرؤ على النظر إليَّ. أطبقت يديَّ على ذراعي الكرسي وشددت عليهما... أريد أن ينتهي هذا المشهد.

لكنه لم ينته! كان الرجل والمرأة مستمرين في المضاجعة على الشاشة أمامنا من غير توقف.

يا للجحيم!

ما أسوأ هذا!

كنت أفكر في ذلك طيلة وقت الفيلم، وكنت أفكر في حقيقة أن حنَّة تفكر فيه أيضاً. عندما انتهى الفيلم، ما عدت أريد شيئاً غير العودة إلى البيت.

كانت العودة إلى البيت أمراً طبيعياً أيضاً. ينطلق باص حنَّة من محطة الباصات. أما أنا فعليَّ أن أمضي في الاتجاه المعاكس.

سألتها عندما خرجنا من السينما: «هل أعجبك الفيلم؟».

قالت حنة: «نعم، كان فيلماً جيداً».

قلت: «نعم، كان جيداً. إنه فرنسي على أية حال».

لقد تلقى كلاً منا دروساً في اللغة الفرنسية كلغة أجنبية اختيارية في المدرسة.

سألتها: «هل فهمت شيئاً مما كان يقال؛ أقصد... من غير قراءة الترجمة؟».

قالت: «فهمت القليل».

ساد الصمت.

قلت لها: «لا بأس، أظن أن عليَّ أن أنطلق إلى البيت. أشكرك لأنك أتيت هذا المساء».

«أراك غداً، إلى اللقاء». وغادرت. واستدرتُ لأنظر إليها، لأرى إن كانت ستستدير، لكنها لم تستدر.

إنني أحبها. ما كان هنالك شيء بيننا، وما كانت تريد أن تكون حبيبتي، لكني أحببتها. ما كنت أفكر في أي شيء آخر. كانت تظهر أمامي حتى عندما ألعب كرة القدم... المكان الوحيد الذي لا تستطيع أية أفكار أن تغزوني فيه، المكان الذي يتعلق كل شيء فيه بالنشاط الجسدي. يجب أن تكون حنَّة هنا لتراني! هكذا كنت أقول في نفسي... سيفاجئها ذلك. عندما يحدث شيء حسن، كلما قلت شيئاً ناجحاً يثير ضحك الآخرين... كنت أفكر في أن من الضروري أن أجعل حنَّة تراه. يجب أيضاً أن ترى قطّنا مفيستو. يجب أن ترى بيتنا، أن تعرف الجو هناك. أمي أيضاً، يجب أن تجلس وتتحدث معها. يجب أن ترى النهر القريب من البيت، يجب أن ترى ذلك. وتسجيلاتي! يجب أن

تستمع إليها، كلها! لكن علاقتنا ما كانت ذاهبة في هذا الاتجاه. لم تكن هي التي تريد أن تدخل عالمي، بل أنا الذي أردت دخول عالمها. كنت أفكر أحياناً في أن هذا لا يمكن أن يحدث أبداً، وأفكر في أن هبة ريحة واحدة يمكن أن تغير كل شيء. كنت أراها طيلة الوقت لكن ليس كمن يتابع أحداً ويدقق في تحركاته، لا، لم يكن الأمر كذلك، لا، كان ذلك لمحة من هنا ولمحة من هناك... هذا يكفيني. وكل مرة، يكون الأمل كامناً في المرة التالية التي سأراها فيها.

وفي خضم هذه العاصفة الروحية، جاء الربيع.

قليلة هي الأشياء التي يكون تصورها أصعب من تصوّر تحول هذا المشهد البارد الغارق في الثلج، الهادئ، المتجمد حتى أعماقه، وكيف يمكن أن ينقلب في شهور فقط إلى دفء وخضرة وارفة تضج بأشكال الحياة كلها، من الطيور المغردة المتقافزة بين الأشجار إلى سُحابات من الحشرات معلقة في الهواء. لا شيء في هذا المشهد الشتوي ينبئ برائحة الأرض والطحالب التي تدفئها الشمس وتفجر البراعم في الأشجار والبحيرات التي تذوب فتستعد للربيع ثم الصيف... لا شيء ينبئ بمشاعر الحرية التي تستولي عليك عندما لا ترى من حولك لوناً أبيض غير الغيوم السابحة في السماء الزرقاء فوق مياه زرقاء في الأنهار المنسابة رويداً صوب البحر، صوب ذلك السطح الثقيل الجميل الذي لا تقطع انبساطه غير صخور ناتئة، وخلجان، وأجساد السابحين. أما في الشتاء فلا وجود لهذا كله، لا وجود له... كل شيء أبيض، كل شيء ساكن. وإذا كان لشيء أن يكسر الصمت فهو عصف الريح الباردة أو نعيق غراب وحيد. لكن الربيع قادم... إنه قادم... يصبح الثلج مطراً ذات مساء في شهر أيار، وتتهاوى أكوام الثلوج. وذات صباح في شهر نيسان، تظهر براعم على الأشجار وتلوح آثار من الخضرة في العشب الأصفر. تظهر أزهار النرجس البري، وتتفتح زنابق زرقاء وبيضاء. عندها، ينتصب الهواء الدافئ مثل عمود بين الأشجار على المنحدرات. تتفجر البراعم متفتِّحة في المنحدرات المشمسة، وتظهر هنا وهناك أشجار الكرز المزهرة. إذا كان عمرك ستة عشر عاماً، فإن هذا كله يترك في نفسك انطباعاً عميقاً، يترك آثاره عليك، لأنه الربيع الأول الذي تعرف أنه ربيع، تعرف هذا بكل حواسك، تعرف أنه الربيع، وتعرف أنه آخر ربيع أيضاً لأن كل ربيع يأتي بعده يكون شاحباً إذا ما قورن بربيعك الأول. أما إذا كنت فوق هذا كله عاشقاً، أوه... نعم، عندها... عندها يصير التماسك مشكلة. إنه التشبث

بتلك السعادة كلها، بذلك الجمال كله، بذلك المستقبل الكامن كله... المستقبل الكامن في كل شيء. سرت عائداً من المدرسة إلى البيت ولاحظت بقع الثلج الذائبة على الأسفلت. كانت كأنها تلقت طعنة في القلب. رأيت صناديق الفاكهة تحت مظلة أمام أحد المتاجر. تحركت بقرة في مكان غير بعيد. نظرتُ إلى السماء... كانت جميلة. مضيت عبر المنطقة السكنية. هطلت زخة مطر قصيرة. امتلأت عيناي دموعاً. وفي الوقت نفسه، كنت أفعل الأشياء كلها التي أفعلها دائماً: أذهب إلى المدرسة، وألعب كرة القدم، وأتسكع مع يان فيدار، وأقرأ الكتب، وأستمع إلى الموسيقى، وألتقي أبي من حين لآخر... يحدث هذا مصادفة أحياناً مثلما التقيته ذات مرة في السوبر ماركت فبدا محرَجاً عندما رأيته هناك... أو لعله حرجه كان استجابة لوضع بدا غريباً مصطنَعاً، لحقيقة أن كلاً منا كان يدفع عربة التسوُّق أمامه غير منتبهٍ أبداً لوجود الآخر (مضى كل منا في طريقه بعد ذلك). صادفته مرة أخرى عندما كنت في طريقي إلى البيت فرأيته قادماً بالسيارة مع زميل له جالس إلى جانبه. كان شعر ذلك الزميل رمادياً كله رغم أنه لا يزال شاباً. كان الأمر كأنه خطة وضعناها معاً: إما أن يمر فيأخذني من البيت لنذهب ونأكل في بيت جدي وجدتي، أو نكون في البيت معاً فيتجنبني بقدر ما يستطيع. لقد أرخى قبضته علي، هكذا بدا لي رغم أنه لم يرخِها تماماً. لا يزال قادراً على قطع رأسي بكلمة حادة مثلما حدث عندما ثقبت أذني. التقينا في مدخل البيت ذات يوم فقال إنني أبدو مثل شخص أحمق. قال إنه لا يستطيع فهْم السبب الذي يجعلني راغباً في أن أبدو مثل الحمقى. قال إنه يخجل من كونه أباً لي.

في وقت مبكر من بعد ظهر ذات يوم في آذار/ مارس، سمعت صوت سيارة تتوقف عند البيت. نزلت ونظرت من النافذة. كان ذلك أبي. رأيته يحمل كيساً في يده. بدا لي مرحاً. صعدت إلى غرفتي مسرعاً لأنني لم أحب أن أبدو فضولياً. سمعت جلبته في المطبخ، ثم سمعته يضع شريط فرقة «دورز» الذي استعرته من يان فيدار. كنت أود الاستماع إليه بعد قراءة كتاب «بيتلز» للارس سابي كريستنسن. أتيت بكومة قصاصات الجرائد التي تتحدث عن قضية «جاسوس تريهولت» التي جمعتها لأنني كنت واثقاً من أنها ستأتي في الامتحان. جلست أقرأ هذه القصاصات ثم سمعت صوت خطواته صاعدةً إلى الطابق العلوي.

التفتُّ صوب الباب عندما دخل. كان في يده شيء بدا كأنه قائمة تسوّق.

قال لي: «هل يمكنك أن تذهب إلى المتجر من أجلي؟».

أجبته: «لا بأس».

سألني: «ماذا تقرأ؟»

قلت: «لا شيء خاصاً. إنها بعض قصاصات الجرائد من أجل امتحان اللغة النرويجية».

نهضت. كانت أشعة الشمس تغمر الغرفة. كانت النافذة مفتوحة، جاءت زقزقة عصافير من الخارج، كانت تقفز على أغصان شجرة التفاح العجوز على مسافة أمتار منا. ناولني أبي القائمة.

قال لي: «لقد قررنا الانفصال أنا وأمك».

قلت: «ماذا؟».

«نعم. لكن هذا لن يكون له أثر عليك. لن تلاحظ أي فرق. ثم إنك لم تعد طفلاً. بعد سنتين من الآن سوف تنتقل إلى مكان آخر وتعيش بمفردك».

قلت: «نعم، هذا صحيح».

«نسيت تسجيل البطاطس في القائمة. ربما علينا أن نشتري بعض الحلوى أيضاً. أوه، صحيح، إليك المال».

ناولني خمسمائة كرون فوضعتها في جيبي ونزلت إلى الشارع. سرت مع النهر حتى بلغت السوبر ماركت. تجوَّلت بين الرفوف، ورحت أضع الأشياء في السلة. لم يفلح شيء مما قاله أبي في التغطية على الحقيقة. سوف ينفصلان، جيد، لا بأس، فلينفصلا! ربما كان الأمر مختلفاً لو كنت أصغر سناً، لو كنت في الثامنة أو في التاسعة، هكذا قلت في نفسي؛ لو كنت صغيراً لعنَى لي الأمر شيئاً، أما الآن فلا أهمية له: إن لي حياتي.

عدت إلى البيت وأعطيته المشتريات فأعدّ الطعام وأكلنا من غير أن نتكلم كثيراً.

وبعد ذلك خرج.

كنت مسروراً لأنه خرج. سوف تغني حنَّة في إحدى الكنائس هذا المساء. كانت قد سألتني إن كنت أريد الذهاب لرؤيتها. أريد ذلك طبعاً. سوف يكون صديقها هناك، وهذا ما منعني من إخبارها بأنني سآتي. لكن، عندما رأيتها واقفة هناك، رائعة الجمال، رائعة النقاء، كانت فتاتي أنا... لا تستطيع مشاعر أحد غيري أن تشعل شمعة لمن أحبها.

في الخارج، كانت الأوساخ تغطي إسفلت الطريق، وكان الثلج الباقي راقداً مختبئاً في الحفر والشقوق وفوق المنحدرات الظليلة إلى الجانبين. غنّت حنّة، وكنت سعيداً. وفي طريق العودة، قفزتُ من الباص عند الموقف ومشيت المسافة الباقية عبر المدينة لكن هذا لم يفلح في تقليل اضطرابي لأن مشاعري كانت متنوعة، مشدودة، متوترة إلى حد جعلني غير قادر على التعامل معها. وصلت إلى البيت فاستلقيت في سريري وبكيت. ما كانت في دموعي لوعة ولا يأس، ما كان فيها حزن ولا غضب... سعادة فقط.

كنا وحدنا في غرفة الصف في اليوم التالي. لقد ذهب الآخرون، أما نحن فتأخرنا عنهم. لعلها تعمدت التأخر لأنها أرادت أن تسمع رأيي في غنائها. قلت لها إنه كان رائعاً، وقلت إنها كانت رائعة. تورّدت وأضاء وجهها وهي واقفة تضع كتبها في حقيبتها. ثم دخل نيلز. أحسست بانزعاج شديد؛ ألقى حضوره ظلاً علينا. كنا معاً في صف اللغة الفرنسية، وكان مختلفاً عن بقية الصبيان في الصف الأول لأنه يمضي وقته مع أشخاص أكبر منه بكثير، يجلس معهم في حانة البلدة. كان شخصاً مستقلاً في آرائه وفي حياته كلها. كان كثير الضحك يسخر من الجميع، ويسخر مني أيضاً. أُحسّ نفسي صغيراً دائماً عندما يفعل ذلك، ولا أعرف أين أنظر أو ماذا أقول. أما الآن، فقد بدأ يتحدث مع حنّة. كان كأنه يطوّقها، ينظر في عينيها، ويضحك، ويقترب منها، كان شديد القرب منها الآن. ما كنت لأتوقع منه شيئاً مختلفاً، وما كان هذا ما يزعجني... أزعجتني ردة فعل حنّة. لم ترفضه ولم تسخر من تقرّبه منها. انفتحت أمامه رغم وجودي هناك. ضحكت معه، ونظرت في عينيه، بل إنها باعدت ركبتيها قليلاً وهي جالسة على المقعد عندما كان يقترب منها. كأنه ألقى سحراً عليها. وقف برهة هناك محدقاً في عينيها؛ كانت لحظة متوترة حافلة بالقلق، ثم ضحك ضحكته الخبيثة الكريهة وتراجع بضع خطوات، قال شيئاً من تلك الأشياء التي تجعل المرء عاجزاً عن الإجابة ثم رفع يده بالتحية في اتجاهي، وذهب. نظرتُ إلى حنّة والغيرة تقتلني. عادت إلى وضع كتبها في حقيبتها؛ لكن ذلك لم يكن كأن شيئاً لم يحدث... صارت محبوسة داخل نفسها الآن، بطريقة مختلفة تماماً!

ماذا حدث؟ حنّة الشقراء الجميلة المرحة السعيدة التي يرتسم على شفتيها دائماً سؤال حائر، بل ساذج أيضاً في أحيان كثيرة، كيف تغيرت؟ ما هذا الذي كنت أراه؟

جانب قاتم، عميق، بل ربما عاطفي أيضاً... أهو حقيقتها؟ لقد استجابت، كان ذلك لمحة خاطفة فقط، لكنها استجابت رغم ذلك! إذن، في تلك اللحظة... كنت لا أحد! لقد سُحقتُ. أنا، وتلك الأوراق كلها التي أرسلتها إليها، والأحاديث كلها التي كانت لي معها، آمالي البسيطة كلها ورغباتي الطفولية... كنتُ لا شيء، كنت صرخة في ملعب كبير مفتوح، حجراً في كومة من الركام، كنت شيئاً لا أثر له كأنني صدى بوق سيارة عابرة.

هل أستطيع أن أفعل بها هذا؟ هل يمكن أن يكون لي هذا التأثير عليها؟

هل يمكن أن يكون لي هذا التأثير على أي إنسان؟

لا!

بالنسبة إلى حنّة ، كنت لا أحد... وسوف أظل هكذا.

أما بالنسبة لي فقد كانت حنّة كل شيء.

حاولت أن أفهم شيئاً مما رأيت، وأن أفهم شيئاً من موقفي تجاهها أيضاً، وذلك من خلال الاستمرار مثلما كنت لأنني، عندما أفعل هذا، أتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. لكن، ليس كل شيء على ما يرام أبداً! كنت أعرف هذا! ما كان عندي شك على الإطلاق. كان أملي الوحيد ألا تعرف شيئاً. لكن، ما هذا العالم الذي كنت أحيا فيه؟ ما حقيقة الأحلام التي آمنت بها؟

بعد يومين من ذلك، عندما بدأت عطلة عيد الفصح، جاءت أمي إلى البيت.

عندما حدثني أبي، فهمت منه أن الطلاق قد حصل. أما عندما جاءت أمي إلى البيت، فقد كان واضحاً لي أنها لا ترى الأمر كذلك. قادت سيارتها إلى البيت مباشرة حيث كان أبي في انتظارها. ظلا هناك يومين، أما أنا فأمضيت تلك الفترة متجولاً في المدينة حتى أقتل الوقت.

أوقفت سيارتها إلى جانب شقتي يوم الجمعة. رأيتها من النافذة. رأيت كدمة كبيرة حول إحدى عينيها. فتحت الباب.

سألتها: «ماذا حدث؟».

قالت: «أعرف ما تظنه؛ لكن الأمر ليس هكذا. لقد سقطت. فقدت الوعي. يحدث لي هذا منْ وقت لآخر كما ترى؛ وهذه المرة اصطدمت بحافة الطاولة، في الطابق العلوي، الطاولة الزجاجية».

قلت: «لست أصدق هذا».

قالت: «إنه صحيح. لقد أغميَ عليَّ. لا شيء أكثر من ذلك».

أفسحت لها الطريق فدخلت.

سألتها: «هل أنتما مطلقان الآن؟».

وضعت حقيبتها على الأرض، وعلقت معطفها ذا اللون الفاتح على المشجب.

«نعم، إننا مطلقان».

«وهل أنت آسفة لذلك؟».

«آسفة!»

نظرت لي بدهشة حقيقية كما لو أن احتمال الأسف كان فكرة مفاجئة لها.

قالت: «لست أدري. قد أكون حزينة! ما رأيك أنت؟ كيف سيكون الأمر بالنسبة إليك؟».

قلت: «لا بأس، جيد. إنه جيد طالما لا أكون مضطراً للعيش مع أبي».

«لقد تحدثنا عن هذا أيضاً. لكنني في حاجة إلى فنجان من القهوة أولاً».

تبعتها إلى المطبخ. ورحت أنظر إليها وهي تضع الماء على النار حتى يغلي. جلست على الكرسي ووضعت حقيبتها في حجرها. راحت تبحث فيها عن علبة السجائر (من الواضح أنها بدأت تدخين سجائر بارتلي في بيرغن). أخرجت سيجارة وأشعلتها.

نظرت إلي: «سوف أنتقل إلى البيت. سوف نعيش معاً هناك، أنا وأنت. وفي تلك الحالة، يستطيع أبوك أن يعيش هنا. أظن أنني سوف اضطر إلى شراء حصته في ذلك البيت. في الحقيقة، لا أعرف كيف سأتمكن من شرائها. لكن، لا تقلق، سأجد طريقة».

قلت مغمغماً: «ممم».

سألتني: «وماذا عنك؟ كيف حالك؟ لطيف أن أراك، تعرف هذا».

قلت: «كل شيء على حاله هنا. لم أرك منذ عطلة عيد الميلاد. لقد حدثت أشياء كثيرة».

«أشياء كثيرة!».

نهضت فجلبت منفضة السجائر من الخزانة. تناولت علبة القهوة ووضعتها على الطاولة. بدأ الماء يصدر هسيساً. كان ذلك الصوت يشبه صوت البحر عندما تكون قريباً منه.

قلت لها: «نعم».

قالت مبتسمة: «يبدو أنها أشياء جيدة!».

قلت: «نعم. إنني عاشق. إنني عاشق تماماً».

«رائع. هل أعرفها؟».

«وكيف تعرفينها؟ لا، إنها في صفّي في المدرسة. قد يكون هذا أمراً غير ذكي تماماً، لكن هذا ما حدث. لا تستطيعين التخطيط لهذه الأمور، أليس كذلك؟».

قالت موافقة: «أنت محق. ما اسمها؟».

«حنّة».

قالت وهي تنظر إليّ مبتسمة ابتسامة واهنة: «حنّة! متى أستطيع رؤيتها؟»

«هذا سؤال صعب. إننا لا نخرج معاً. لديها شخص آخر».

«الموقف ليس سهلاً إذاً!»

«لا، ليس سهلاً».

تنهَّدت أمي.

«لا، لا يكون الأمر سهلاً دائماً. لكنك تبدو في حالة جيدة. تبدو سعيداً».

«لم أكن سعيداً هكذا في حياتي كلها... أبداً».

لأسباب جنونية ما، نبعت دموع من عيني عندما قلت هذه الكلمات. لم تصبح عيناي نديتين فحسب، مثلما يحدث كثيراً عندما أقول شيئاً يثير مشاعري... لا... راحت دموعي تجري على وجنتي.

ابتسمتُ.

قلت: «إنها دموع الفرح». لكني شهقت بعد ذلك، وكان عليَّ آخر الأمر أن أستدير وأخفي وجهي. من حسن حظي أن الماء بدأ يغلي في تلك اللحظة فصرت قادراً على التذرّع بأنني ذاهب لأخذه عن الموقد ووضع القهوة ثم إغلاق العلبة وسكب فنجانين.

عندما وضعت الفنجانين على الطاولة كنت قد استعدت السيطرة على نفسي من جديد.

بعد ستة أشهر، ذات مساء في أواخر شهر تموز، نزلت من الباص عند الموقف الأخير قرب الشلال. كنت أحمل حقيبة بحارة على كتفي لأنني عائد من الدانمارك حيث أمضيت فترة في معسكر تدريبي لكرة القدم. ذهبت بعد عودتي من المعسكر إلى

حفلة لصفنا في إحدى الجزر من غير أن أذهب إلى البيت أولاً. كنت سعيداً. تجاوزت الساعة العاشرة والنصف ببضع دقائق؛ وخيَّمت على المنطقة ظلمة كأنها وشاح رمادي. كان الشلال يهدر من تحتي. سرت صاعداً في الطريق ذي الحواف الحجرية. وفي الأسفل، كان المرج منحدراً سابحاً صوب صف من الأشجار العارية التي نَمَت عند ضفة النهر. أما في الأعلى، فكانت المزرعة العتيقة بحظيرتها المتداعية. كانت الأنوار مطفأة في بيت المزرعة الكبير. سرت حول المنعطف فوصلت إلى البيت التالي حيث يعيش الرجل المتقدم في السن الذي رأيته من نافذته جالساً في غرفة المعيشة يشاهد التلفزيون. هدر صوت شاحنة على الناحية الأخرى من النهر. كان ذلك الصوت يصلني متأخراً قليلاً لأنني لم أسمع صوت تغيير السرعة عندما اندفعت الشاحنة هابطة المنحدر الصغير قبل أن تبلغ قمة التل. وفوق ذرى الأشجار، على خلفية السماء الرمادية الشاحبة، رأيت خفّاشَيْن فتذكرت حيوان الغرير الذي أصادفه كثيراً في طريق عودتي عندما أسير من موقف الباص إلى البيت. اعتدت أن أسير في ذلك الطريق من ناحية الجدول عندما أكون في اتجاه الصعود. وحرصاً على السلامة كنت أحمل حجراً في كل يد. وفي بعض الأحيان، كنت أصادف ذلك الحيوان على الطريق أيضاً فيقف وينظر إليَّ قليلاً قبل أن يتراجع بقفزاته المتميزة.

توقفت، وأنزلت حقيبتي، ثم وضعت قدمي على حجر حافة الطريق وأشعلت سيجارة. لم أكن أريد الذهاب إلى البيت مباشرة. كنت راغباً في إطالة الوقت قليلاً. بضع لحظات. عشت مع أمي طيلة الربيع ونصف الصيف، لكنها في سوربوفاغ الآن. لم تشتر حصة أبي في البيت حتى الآن مما جعله يتمسك بحقوقه ويعيش فيه مع صديقته الجديدة أوني إلى أن تبدأ المدرسة من جديد.

جاءت من فوق الغابة طائرة ضخمة. مالت قليلاً بحركة متباطئة، ثم اعتدل سيرها ومرت فوق رأسي بعد لحظة من ذلك. رأيت المصابيح الوامضة على طرفَيْ جناحَيْها، ورأيت عجلاتها تنفتح. تابعتها حتى غابت عن أنظاري ولم يبق من خلفها إلّا صوت الهدير الذي صار يضعف ويضعف إلى أن اختفى تماماً قبل أن تحط في مطار كجيفيك. كنت أحب الطائرات. لقد أحببتها دائماً. وحتى بعد عيشي ثلاث سنوات تحت مسار الطائرات، لا أزال أرفع رأسي لأنظر إليها مسروراً كلما مرت واحدة منها.

كان النهر يتلألأ في الظلمة الصيفية. لم يرتفع دخان سيجارتي في الهواء بل

اندفع جانباً ثم استقر ساكناً في الفضاء الفسيح. سكنت الريح تماماً، وما عاد هنالك أي صوت بعد ذهاب هدير الطائرة. لا، كان هنالك صوت الخفافيش المحلِّقة المندفعة في كل اتجاه.

مددت لساني فأطفأت السيجارة، ثم رميت عقبها في المنحدر ووضعت حقيبتي على كتفي من جديد ثم تابعت طريقي. كانت الأنوار مضاءة في البيت الذي يعيش فيه ويليام. وفوق المنعطف الذي صار قريباً، كانت قمم الأشجار المتعرية من أوراقها متقاربة كثيراً إلى حد جعل السماء غير مرئية. جاء نقيق بضعة ضفادع من المنطقة التي تشبه المستنقع بين الطريق والنهر. وبعد ذلك لمحت حركة عند قمة التلة. إنه الغرير. لم يرني. كان يسير قافزاً عبر الأسفلت. اتجهت إلى الناحية الأخرى من الطريق حتى أتيح له حرية المرور، لكنه رفع رأسه وتوقف. كم كان جميلاً بوجهه المخطط بالأبيض والأسود! كان فراؤه رمادياً، وكانت عيناه صفراوين، ماكرتين. بلغت الناحية الأخرى من الطريق فعبرت الحافة الحجرية ووقفت على الأرض المنحدرة تحتها. أصدر الحيوان صوتاً كالهسيس، لكنه ظل ينظر صوْبي. من الواضح أنه كان يقيّم الوضع الآن لأنه كان معتاداً على الاستدارة والجري بعيداً عندما صادفته في المرات السابقة. أما الآن فقد تابع وثباته ثم اختفى في الأعلى. لم أعد إلى الطريق إلّا بعد ذلك. وعندها، سمعت أصواتاً خافتة لموسيقى لا بد أنها كانت هناك طيلة الوقت لكني لم أنتبه إليها.

هل هذا الصوت آتٍ من بيتنا؟

سرت مسرعاً فاجتزت القسم الباقي من المنحدر ونظرت إلى المنحدر الآخر حيث كانت أنوار بيتنا مشعة متلألئة كلها. نعم، كانت الموسيقى آتية من هناك. أظنها منبعثة من نافذة غرفة المعيشة المفتوحة. أدركت أن هنالك حفلة جارية في البيت لأنني لمحت أشباح أشخاص داكنة غامضة تتحرك على العشب في ذلك الضوء الضارب إلى اللون الرمادي في الليل الصيفي. عادة ما أسير على امتداد الجدول حتى أصل الناحية الغربية من البيت. أما الآن، مع وجود هذه الحفلة هنا، ومع امتلاء المكان بأشخاص غرباء، فلم أجد نفسي راغباً في الوصول إليهم فجأة، خارجاً من الغابة. هذا ما جعلني أتابع سيري على الطريق.

رأيت سياراتٍ واقفة على امتداد الممر المفضي إلى البيت. كانت عجلاتها اليمنى على العشب. كانت هنالك سيارات إلى جانب الحظيرة، وفي فناء البيت أيضاً.

توقفت عند قمة التلة حتى أستجمع أفكاري. سار رجل في قميص أبيض عبر الفناء من غير أن يراني. وأتت أصوات أشخاص كثيرين من الحديقة خلف البيت. وعلى طاولة المطبخ التي كنت أستطيع رؤيتها عبر النافذة، كان هنالك رجل مع امرأتين وأمام كل منهم كأس من النبيذ. وكانوا يضحكون ويشربون. أخذت نفساً عميقاً ثم سرت في اتجاه الباب الأمامي. رأيت طاولة كبيرة موضوعة في الحديقة بالقرب من الغابة. كانت الطاولة مغطاة بمفرش أبيض يلمع في الظلمة الثقيلة تحت ذرى الأشجار. رأيت ستة أشخاص، أو سبعة، جالسين إلى تلك الطاولة. ومن بينهم كان أبي. نظر إليَّ مباشرة. وعندما التقت أعيننا، نهض ولوَّح لي بيده. أنزلت الحقيبة عن كتفيّ ووضعتها إلى جانب الدرجة التي عند الباب، ثم مضيت إليه. لم أره هكذا من قبل. كان في قميص أبيض فضفاض يزيِّنه تطريز حول ياقته المفتوحة، وبنطلون من الجينز الأزرق، وحذاء جلدي خفيف بني اللون. كانت على وجهه الذي لوَّحته الشمس كثيراً هالةٌ مشعة. لمعت عيناه أيضاً.

قال لي وهو يضع يده على كتفي: «إذن، ها أنت هنا يا كارل أوفِه. ظننا أنك ستصل في وقت أبكر. إننا نقيم حفلة مثلما ترى. يمكنك تستطيع الانضمام إلينا بعض الوقت، أليس كذلك؟ اجلس».

فعلت مثلما قال لي وجلست إلى تلك الطاولة. صار ظهري في اتجاه البيت. كانت أوني الشخص الوحيد الذي رأيته قبل ذلك. هي أيضاً كانت في قميص أبيض، أو بلوزة بيضاء، أو شيء من هذا القبيل.

قلت لها: «مرحباً يا أوني».

ابتسمت لي ابتسامة دافئة.

قال أبي وهو يجلس قبالتي، إلى جانب أوني: «هذا هو كارل أوفِه، ابني الأصغر». أومأت برأسي في اتجاه الخمسة الآخرين.

قال أبي: «انظر يا كارل أوفِه! هذه ابنة عمي بوديل».

لم أسمع باسمها قبل الآن. رحت أنظر إليها. ربما كنت أنظر إليها بطريقة متفحّصة أكثر مما يجب لأنها ابتسمت لي وقالت: «كنت أمضي وقتاً طويلاً مع أبيك عندما كنا أطفالاً».

قال أبي: «وعندما كنا مراهقين أيضاً». أشعل سيجارة وعبَّ منها نفساً ثم نفث

الدخان وقد ارتسم على وجهه تعبير راضٍ... «ولدينا هنا أيضاً ريدار وإيلين ومارثا وإيرلينغ وآجِه. إنهم زملائي، كلهم».

قلت لهم: «مرحباً».

كانت الطاولة مغطاة بالكؤوس والزجاجات والأطباق الكبيرة والصغيرة. كان عليها أيضاً طبقان كبيران عميقان مليئان بقشور الجمبري التي لم تترك مجالاً للتساؤل عما كانوا يأكلون. كان زميل والدي آجِه رجلاً في الأربعين تقريباً ويضع نظارة كبيرة ذات إطار رقيق. راح ينظر إليَّ وهو يرشف البيرة من كأسه. وضع الكأس وقال: «أظن أنك كنت في معسكر تدريبي».

هززت رأسي وقلت: «في الدانمارك».

«أين في الدانمارك؟».

«في نيكوبينغ».

قال مستفهماً: «نيكوبينغ، في منطقة مورز؟».

قلت: «نعم. أظن هذا. إنها جزيرة في ليمثيورد».

ضحك وراح ينظر من حوله وقال: «إنها المنطقة التي جاء منها آكسيل سانديموزِه!».

ثم نظر إليَّ مباشرة من جديد: «هل تعرف اسم القانون الذي ابتكره سانديموزِه لوصف نوع من أنواع السلوك الاجتماعي؟ إنه قانون أوحت به إليه البلدة التي زرتها في ذلك المعسكر».

ما هذا؟ هل نحن في المدرسة أم ماذا؟

قلت له وقد أسبلت عيني: «نعم، أعرفه». لم أكن راغباً في ذكر اسم ذلك القانون. لم أرغب في إخباره شيئاً.

لكنه ظل مصراً: «إنه قانون... ما اسمه؟».

رفعت عيني فقابلت نظرته. كانت عيناه متحديتين. ظهر فيهما نوع من الحرج أيضاً.

قلت: «قانون جانتي».

صاح: «هذا صحيح».

سألني أبي: «هل أمضيت وقتاً طيباً هناك؟».

قلت: «نعم. ملاعب ممتازة. بلدة رائعة».

نيكوبينغ: كنت قد سرت عائداً إلى المدرسة حيث ننام بعد أن قضيت المساء والليل كله في الخارج مع فتاة التقيتها هناك. كانت مجنونة بي! أما الأربعة الآخرون من الفريق الذين كانوا معي فقد عادوا في وقت أبكر. بقينا وحدنا، هي وأنا. وعندما سرت عائداً إلى مكان إقامتنا، ثملاً أكثر من المعتاد، توقفت قرب بيت من بيوت البلدة. اختفت التفاصيل كلها. لم أستطع أن أتذكر كيف تركتها، ولم أتذكر كيف ذهبتُ إلى البيت. لكن، عندما صرت هناك، واقفاً عند الباب... كأنني عدت الآن إلى نفسي من جديد. أوه، لقد نزعت السيجارة المشتعلة من فمي، ورفعت غطاء فتحة البريد في الباب، ثم ألقيت السيجارة على الأرض في الداخل. ثم تشوش كل شيء من جديد؛ لكن لا بد أنني استطعت بطريقة ما أن أجد طريق العودة إلى المدرسة. فنمت حتى أيقظوني من أجل الإفطار وبعده فترة التدريب الصباحية التي تستمر ثلاث ساعات. وعندما كنا جالسين نتحدث تحت واحدة من الأشجار العملاقة حول ساحة التمرين. تذكرت تلك السيجارة فجأة، تذكرت السيجارة التي رميتها عبر ذلك الباب. نهضت واقفاً، تجمدت روحي. رميت كرةً في الملعب ورحت أجري خلفها. ماذا لو احترق ذلك البيت؟ ماذا لو مات أشخاص في الحريق؟ ماذا أكون في تلك الحالة؟

أفلحت في كبت هذه المشاعر وهذه الأسئلة عدة أيام، أما الآن، عندما صرت جالساً عند هذه الطاولة في الحديقة في أول أمسية لي في البيت، فقد عاودني الذعر من جديد.

سألني واحد من الضيوف الآخرين: «في أي فريق تلعب يا كارل أوفِه؟».

قلت: «فريق تفيت».

«وفي أي مستوى أنت؟».

قلت: «ألعب في فريق الناشئين. لكن فريق الشباب في نادينا في المستوى الخامس».

قال: «إذن، أنت لست من أنصار نادي آي كي ستارت». استنتجت من لهجته أنه من فينيسلا. وهكذا كان من السهل عليَّ أن أجاريه.

قلت له: «لا، إنني ميال أكثر إلى نادي فيندتجارد». كان هذا نادياً من فينيسلا. الفئة الثانية، المجموعة الثالثة.

ضحكوا لما قلته. خفضت رأسي. أحسست كما لو أنني اجتذبت اهتماماً أكثر مما يجب. لكن، بعد ذلك مباشرة، سمحت لعيني بالنظر إلى أبي فوجدته يبتسم لي.

نعم، كانت عيناه متألِّقتين.

«أتحب أن تشرب بيرة يا كارل أوفِه؟».

هززت رأسي وقلت: «أحب ذلك بالتأكيد».

مسحت عيناه الطاولة.

قال لي: «يبدو أن ما لدينا من البيرة هنا قد انتهى. لكن هنالك صندوق في المطبخ. يمكنك أن تأخذ واحدة من هناك».

نهضت. وعندما سرت صوب الباب، خرج منه شخصان: رجل وامرأة متشابكا الذراعين. كانت في فستان صيفي أبيض وقد لوحت الشمس ساقيها وذراعيها العاريتين. كان ثدياها ثقيلين، ولها معدة كبيرة وردفان بارزان. كانت عيناها لطيفتين في ذلك الوجه الذي يبدو عليه نوع من الإشباع. أما الرجل، فكان في قميص خفيف أزرق وبنطلون أبيض. كان له كرش صغير، لكن جسمه بدا لي رشيقاً. ورغم أنه كان مبتسماً، بل بدت عيناه الثملتان عائمتين بعض الشيء، إلّا أنني لاحظت في تعبير وجهه جموداً وتيبساً. كأنه وجه اختفت منه الحركة كلها ولم يبق عليه إلّا أثر لها، مثل ضفة نهر أصابها الجفاف.

قالت المرأة: «مرحباً! هل أنت الابن؟».

قلت: «نعم، مرحباً».

قالت: «إنني أعمل مع أبيك».

قلت لها: «هذا شيء لطيف».

من حسن الحظ أنني لم أكن مضطراً إلى قول المزيد لأنهما تابعا سيرهما من غير توقف. وعندما تجاوزت باب البيت رأيت باب المرحاض ينفتح. خرجت منه امرأة قصيرة ممتلئة داكنة الشعر تضع نظارة. لم تنظر إليَّ تقريباً بل أسبلت عينيها ومرت بجانبي ذاهبة إلى مكان ما في البيت. تشممت عطرها سراً قبل أن أسير خلفها. عطر نضر، رائحة الأزهار. وفي المطبخ الذي دخلته بعد ثانية من ذلك، رأيت الأشخاص الثلاثة الذين شاهدتهم من النافذة عند اقترابي من البيت. كان الرجل في حدود الأربعين أيضاً. رأيته يهمس شيئاً في أذن المرأة التي على يمينه. ابتسمت تلك المرأة،

لكن ابتسامتها كانت مهذبة. أما المرأة الأخرى فكانت تبحث في حقيبتها التي وضعتها في حجرها. رفعت رأسها صوْبي وهي تضع علبة سجائر غير مفتوحة على الطاولة.

قلت لهم: «مرحباً. أتيت لآخذ بيرة فقط».

رأيت صندوقين مليئين موضوعين واحداً فوق الآخر، عند الجدار قرب الباب. أخذت زجاجة من الصندوق العلوي.

سألت: «هل لدى أحد هنا أداة فتح زجاجات؟».

انتصب الرجل في جلسته، وراح يبحث في جيب بنطلونه، ثم قال: «إن لديَّ قداحة. خذ!».

حرك يده ببطء أول الأمر حتى أستعد لالتقاطها ثم قذف بها فطارت في الهواء. اصطدمت بإطار الباب ثم بالباب نفسه. لكني لم أعرف كيف أتصرف عند ذلك رغم أنني لا أريد أن أتنازل فأطلب منه أن يفتح لي الزجاجة. لكنه كان صاحب المبادرة بتقديم القداحة التي فشلت في التقاطها. إنه وضعٌ مختلف إذاً.

قلت له: «لا أستطيع فتحها بالقداحة. هل تفتحها من أجلي؟».

ناولته القداحة والزجاجة. كان يضع نظارة مدورة، وكان نصف رأسه عارياً في حين كان الشعر في النصف الآخر طويلاً منتصباً مثل موجة عند حافة شاطئ لا نهاية له، شاطئ لا تستطيع بلوغه أبداً، وهذا ما أعطاه نوعاً من مظهر شخص يائس. على الأقل، هذا هو الانطباع الذي أحدثه في نفسي. كانت أصابعه القابضة على القداحة بإحكام الآن مكسوة بالشعر. تدلَّت من معصمه ساعة لها سلسلة فضية.

انفتحت الزجاجة بفرقعة خافتة.

قال لي: «ها هي». ثم ناولني الزجاجة. شكرته ومضيت إلى غرفة الجلوس حيث رأيت أربعة أشخاص يرقصون. ثم عبرت الباب من جديد فخرجت إلى الحديقة. كانت مجموعة صغيرة من الأشخاص واقفة أمام سارية العلم. وكان كل واحد من تلك المجموعة يحمل كأسه بيده. كانوا جميعاً ينظرون إلى الجهة الأخرى عبر وادي النهر، ويثرثرون.

كانت البيرة رائعة. لقد كنت أشرب كل ليلة في الدانمارك. كنت أشرب في كل يوم من الأيام السابقة، وفي كل ليلة أيضاً. وهذا يعني أنني أستطيع الآن أن أشرب كثيراً قبل أن أثمل. ثم إنني لم أكن أريد الثمل أيضاً. إذا سكرت، فسوف أنزلق إلى عالمهم

وأسمح له بأن يبتلعني بالكامل فلا أعود قادراً على رؤية الفرق... بل ربما أبدأ في الميل إلى النساء في هذا العالم أيضاً. كان هذا آخر شيء أريده.

تجولت عيناي في المشهد الذي أمامي. نظرت إلى النهر المتدفق عبر منعطفه اللطيف حول الرأس الصغير الذي كساه العشب حيث كان مَرمَيا كرة القدم. نظرت بين الأشجار العارية عند ضفة النهر. كانت هذه الأشجار تبدو سوداء الآن على صفحة الماء الفضية الداكنة اللامعة. وكانت التلال الناهضة على الضفة الأخرى، التلال التي تنحدر بعد ذلك صوب البحر، سوداء أيضاً. رأيت أنوار تجمعات البيوت بين النهر والجبل تشع متألقة بقوة، أما النجوم في السماء فلا تكاد تُرى (كانت النجوم القريبة من الأرض ضاربة إلى اللون الرمادي، أما تلك المرتفعة في قبة السماء فلها مسحة زرقاء).

كان الأشخاص الواقفون عند سارية العلم يضحكون من شيء ما. لا يبعدون عني إلّا بضعة أمتار، لكن وجوههم لا تزال غير واضحة في تلك الظلمة الخفيفة. ظهر صاحب الكرش الصغير قادماً عند زاوية البيت. بدا كأنه ينزلق على الأرض. لقد التُقطتْ صورتي يوم تعميدي الثاني هناك، في ذلك المكان أمام سارية العلم، وكنت واقفاً بين أبي وأمي. أخذت رشفة أخرى من الزجاجة ومضيت حتى نهاية الحديقة حيث بدا لي أن أحداً من الضيوف لم يذهب في تلك الناحية. جلست هناك متربِّعاً على الأرض تحت شجرة البتولا. صارت الموسيقى أكثر بعداً الآن، وكذلك أصوات الناس وضحكاتهم. صرت أقل قدرة على تمييز حركاتهم أيضاً. كانوا كأنهم أشباح تعوم في الظلمة حول البيت المُنار. فكرت في حنّة. كان ذلك كأن لها مكاناً يخصها في داخلي؛ كأنها موجودة مثل موقع حقيقي أجد نفسي فيه دائماً. أستطيع الذهاب إلى ذلك المكان كلما أحببت أن أحظى بشيء من العطف. كنا في حفلة الصف الليلة الماضية فجلسنا على صخرة عند البحر وتحدثنا. لم يحدث شيء، تحدثنا فقط. الصخرة، وحنّة، وذلك الخليج بجزره الصخرية المنخفضة الصغيرة... والبحر. كنا قد رقصنا، ولعبنا ألعاباً، ونزلنا الدرجات المنحدرة من مرسى القوارب وسبحنا في الظلام. كان ذلك رائعاً. كانت روعته شيئاً لا يمحى... بقيت تلك الروعة كلها معي طيلة اليوم التالي، وهي لا تزال معي الآن. كنت شخصاً خالداً. نهضت واقفاً وأنا أشعر بقوتي وطاقتي في كل خلية من خلايا جسدي. كنت في قميص رمادي قصير الكمين، وبنطلون عسكري أخضر يصل حتى منتصف الساقين، وحذاء تدريب رياضي أبيض من صنع أديداس.

كان ذلك كل شيء، لكنه كان كافياً. لست قوياً، لكني نحيل رشيق وسيم كأنني واحد من الآلهة.

هل أتصل بها؟

قالت إنها ستكون في البيت هذا المساء.

لكن، لا بد أن الساعة اقتربت من الثانية عشرة الآن. صحيح أنها لن تنزعج إذا أيقظتها من نومها. لكن رأي بقية أفراد الأسرة سيكون مختلفاً على الأرجح.

ماذا لو أن ذلك البيت احترق؟ ماذا لو أن شخصاً فيه مات في الحريق؟

يا للبؤس، يا للبؤس!

بدأت أسير عبر المرج محاولاً إبعاد تلك الفكرة إلى مكان قصيّ في عقلي. جرت عيناي على امتداد حافة النهر، جرت فوق البيت، فوق السقف، وبلغت أجمات الليلك الكبيرة عند نهاية المرج. كانت رائحة أزهارها الوردية الكثيفة تصل حتى الطريق. شربت آخر جرعة في زجاجتي خلال سيري ورأيت وجهين متوردين لامرأتين جالستين على الدرجات عند الباب. كانت كل منهما جالسة ضامة ركبتيها، وسيجارة في يدها. إنهما المرأتان اللتان كانتا جالستين إلى الطاولة. ابتسمت لهما ابتسامة صغيرة عند مروري، ثم اجتزت الباب فدخلت غرفة الجلوس، ثم عبرت إلى المطبخ الذي وجدته خالياً الآن. أخذت زجاجة ثانية، وصعدت إلى غرفتي حيث جلست على الكرسي عند النافذة وأسندت ظهري ثم أغمضت عينيَّ.

كانت مكبرات الصوت في غرفة المعيشة تحتي مباشرة. يسري الصوت في هذا البيت بسهولة شديدة، مما جعلني أسمع كل نغمة بوضوح تام.

ما هذه الأغنية؟

أغنيسا فالتسكوغ. إنها أغنيتها الشهيرة في الصيف الماضي. ما اسم هذه الأغنية؟

ثمة شيء غير لائق في ملابس أبي الليلة! إنه القميص الأبيض، أو لعله ليس قميصاً... مهما يكن! لقد كان دائماً (طيلة المدة التي أستطيع تذكرها) يرتدي ثياباً بسيطة، لائقة، مناسبة: ملابس فيها لمسة محافظة. كانت مجموعة ملابسه مكوَّنة من قمصان وبدلات وسترات... كثير منها من صوف التويد، وبنطلونات من النسيج التركيبي أو القطني أو الصوفي، وكنزات صوفية أيضاً. كان أكثر شبهاً بمدرّس من النوع القديم منه بالمدرسين الجدد الشباب. لكنه لم يكن تقليدياً... لا، لا يكمن الفارق

هنا. إنه الخط الفاصل بين الرقة والقسوة، بين من يحاولون تحطيم المسافة الفاصلة وبين من يحاولون الحفاظ عليها. كانت تلك مسألة متعلقة بالقيَم. عندما بدأ فجأة يرتدي قمصاناً مطرزة، أو قمصاناً لها زخارف مثل التي رأيته يرتديها الصيف الماضي، أو أحذية لا شكل لها من النوع الذي يمكن أن يعجب أي واحد من الإسكندنافيين القدماء، ظهر تناقض ضخم بين الشخص الذي كانه، الشخص الذي أعرفه، والشخص الذي أراه أمامي الآن. من ناحيتي، أفضل الأشخاص اللطفاء غير المتصلبين، وأنا ضد الحرب وضد السلطات الغاشمة والتراتبية الهرمية وكل أشكال الشدة، وما كنت مهتماً بأن أبذل جهداً كبيراً في المدرسة لأنني أردت أن يتطور ذكائي بطريقة عضوية. أما من ناحية تفكيري السياسي، فقد مضيت إلى اليسار شوطاً بعيداً، وكان التوزيع غير المتساوي للثروة في العالم يغضبني... أردت أن يحظى كل إنسان بقسط من مسرات الحياة. وهذا ما كان يجعل الرأسمالية وحكم الأثرياء من أعدائي. كنت أرى أن للناس جميعاً قيمة متساوية، وأن خصال الشخص الداخلية أثمن دائماً من المظهر الخارجي. بكلمات أخرى، كنت مهتماً بما هو عميق، وكنت معادياً لكل ما هو ظاهري أو سطحي؛ كنت مع الخير وضد الشر، كنت مع اللين وضد التصلب. إن كنت هكذا، ألا يجب أن أكون مسروراً الآن لأن أبي قد ازداد بعداً عن التصلب؟ لا... لست مسروراً بهذا لأنني أمقت طريقة تعبير من يميلون إلى اللين عن أنفسهم: النظارات المدورة، والبنطلونات القصيرة، والأحذية التي لا شكل لها، والكنزات الصوفية المحبوكة... أقول هذا لأنه كانت لي أفكار أخرى إلى جانب أفكاري السياسية، أفكار مستمَدة من عالم الموسيقى تجعلني أنظر بطريقة مختلفة إلى ما يجب فعله حتى يبدو المرء في هيئة حسنة، حتى يبدو جذاباً، وهذا مرتبط أيضاً بالزمن الذي كنا نعيشه. ذلك ما يجب التعبير عنه، لكن ليس إلى هذا الحد! ليس بألوان الباستيل وجِلّ الشعر... لأن هذا شيء مُنتمٍ إلى التسويق التجاري، إلى عالم السطحية التبسيطية. لا... كانت الموسيقى التي يجب التعبير عنها تجديدية، لكنها مدركة لما هو تقليدي... موسيقا يحسها المرء إحساساً عميقاً، لكنها موسيقى بارعة ذكية رغم بساطتها، موسيقى تحب المظاهر لكنها جنس أصيل لا يمنح نفسه لأي كان، موسيقى لا تحقق مبيعات جيدة، لكنها تعبر عن تجارب جيل، تجارب جيلي أنا. أوه، إنه الجديد! إنني في صف الجديد. وكان إيان ماكولوخ من فرقة «إيكو آند ذا بانينين» نموذجاً لهذا كله، هو قبل الجميع: المعاطف الطويلة،

والسترات العسكرية، والأحذية الرياضية، والنظارات الشمسية. إنه يبعد أميالاً عن قميص أبي المطرز وحذائه الذي لا شكل له. لكن، من ناحية أخرى... قد يكون الأمر شيئاً آخر لأن أبي من جيل آخر؛ كما أن فكرة أن يبدأ هذا الجيل ارتداء ملابس تشبه ما يرتديه ماكولوخ، وأن يبدأ الاستماع إلى الموسيقى التجديدية البريطانية، وأن يهتم بما يحدث على المشهد الأميركي، وأن يكتشف أغنيات مثل «REM» أو «Green» في الألبوم الأول لفرقة «Red»... بل قد ينتهي به الأمر إلى ارتداء ربطات عنق مصنوعة من رباطات الأحذية... ليس هذا كله إلّا كابوساً! بل الشيء الأكثر من هذا أهمية هو أن القميص المطرز والحذاء الذي لا شكل له ليسا منسجمين مع أبي. لقد انزلق في هذا مصادفة، دخل هذا العالم الذي لا شكل له، العالم غير المحدد الذي يكاد يكون أنثوياً كأنه فقد السيطرة على نفسه. حتى نبرة القسوة في صوته اختفت!

فتحتُ عينيّ واستدرت لأنظر عبر النافذة إلى الطاولة التي عند حافة الغابة. لم أر هناك الآن إلّا أربعة أشخاص: أبي ويوني والمرأة التي قال إن اسمها بوديل، وشخص آخر معهم. وخلف أجمة الليلك، بعيداً عن أنظارهم لكن مكشوفاً أمامي، رأيت رجلاً يبول وهو يحدِّق صوب الضفة الأخرى من النهر.

رفع أبي رأسه واتجهت أنظاره صوب نافذتي. أسرعت نبضات قلبي لكنني لم أتحرك... إن قد رآني حقاً، وهو ليس أمراً مؤكداً تماماً، فسيكون الأمر كأنه اعتراف مني بأنني أسترق النظر. بدلاً من ذلك، انتظرت بضع لحظات إلى أن صرت واثقاً من ملاحظته أنني رأيته ينظر صوبي (إن كان ينظر صوبي حقاً)، ثم تراجعت وجلست إلى مكتبي.

ما كان التجسس على أبي أمراً حسناً لأنه يلاحظ الأمر دائماً... إنه يرى كل شيء... دائماً يرى كل شيء.

رشفت بعض البيرة. ستكون السيجارة أمراً عظيماً الآن. لم يرني أبي أدخن قبل اليوم، وقد تحدث مشكلة إذا رآني. لكن، من ناحية أخرى، ألم يقل لي إن في وسعي أن أشرب البيرة؟

هذا هو مكتبي، مكتبي الذي أملكه منذ زمن ما عدت أذكره، مكتب برتقالي بلون السرير وبلون أبواب خزانتي. لقد كان في غرفتي القديمة طيلة الوقت، لكنه الآن خالٍ تماماً إلّا من رف أشرطة التسجيل. لقد رتبت الأشياء كلها وأزلتها عن المكتب

عند نهاية السنة الدراسية، ثم لم آت إلى هذه الغرفة إلّا نادراً... إلّا لكي أنام. وضعت زجاجة البيرة واستعرضتُ رف التسجيلات عدة مرات ورحت أقرأ أسماءها المكتوبة على العلب بأحرف كبيرة، بخطّي الطفولي: «بويي ـ هانكي دوري»؛ «ليد زيبلين ـ 1»؛ «توكينغ هيدز ـ 77»؛ «ذا كاميليونز ـ سكريبتز أوف ذا بريدج»؛ «ذي ذي ـ سول ماينينغ»؛ «ذا سترانغلارز ـ راتوس نورفيجيكوس»؛ «ذا بوليس ـ أوتلاندوس دامور»؛ «توكينغ هيدز ـ ريمين إن لايت»؛ «بويي ـ سكيري مونسترز»؛ «إينو بايرن ـ ماي لايف إن ذا بوش أوف كوستس»؛ «يو تو ـ أكتوبر»؛ «ذا بيتلز ـ رابر سول»؛ «سيمبل مايندز ـ نيو جولد دريم».

نهضت واقفاً وتناولت الغيتار، ثم أسندت قدمي إلى مضخّم الصوت الصغير المكعَّب وعزفت بعض النغمات. وضعت الغيتار في مكانه ونظرت إلى الحديقة من جديد. لا يزالون هناك تحت ظلمة قمم الأشجار التي لم يبددها المصباحان الكبيران بل خففاها قليلاً فاتخذت وجوه الجالسين لون ذلك الضوء. بدت بشراتهم نحاسية داكنة. بوديل... لا بد أنها ابنة الأخ الثاني لوالد أبي، شخص لم أره أبداً. لسبب ما، كان هذا العم مطروداً من العائلة، منذ زمن بعيد. سمعت عنه للمرة الأولى مصادفة منذ سنتين. كان هنالك زفاف في العائلة، فقالت أمي إنه كان موجوداً أيضاً وإنه ألقى كلمة حماسية. كان واعظاً مدنياً من خارج الكنيسة يلقي عظاته في الكنيسة البروتستانتية التجديدية في البلدة. ويعمل ميكانيكياً. وكان كل شيء فيه مختلفاً عن أخويه، حتى اسمه! عند دخولهما الجامعة والعالم الأكاديمي (بعد مشاورات مع أمهما ذات الشخصية الميالة إلى فرض آرائها)، قررا تغيير لقبَيْهما من اسم بيدرسن الشائع إلى كناوسغارد الأقل شيوعاً، لكنه رفض هذا التغيير. لعل هذا ما سبب القطيعة!

خرجت من الغرفة ونزلت السلم. عندما دخلت الصالة رأيت أبي واقفاً عند الخزانة. كان المصباح مطفأ، وكان أبي ينظر إلي.

قال لي: «أأنت هنا؟ ألا تحب أن تنضم إلينا؟».

قلت: «نعم، بالطبع! كنت ألقي نظرة فقط».

«إنها حفلة ممتازة». قال.

مال برقبته ورفع يده فصحح وضع خصلة من شعره. كانت هذه حركة مألوفة لديه، لكن كان هنالك شيء في ما يتعلق بذلك القميص والبنطلون... شيء غريب عنه

تماماً، شيء أعطاه مظهراً أنثوياً بشكل مفاجئ. كأن هذه النزوة استشعرت ما فيه من ميل إلى المحافظة، وكأنها استشعرت أسلوب لباسه المتحفظ دائماً فأصرت على إظهاره.

سألني: «هل كل شيء على ما يرام يا كارل أوفِه؟».

قلت: «نعم، كل شيء بخير. سوف أخرج وأنضم إليكم».

حرّكت هبة ريح هواء الحديقة عندما خرجت. ارتجفت أوراق الأشجار عند حافة الغابة؛ ارتجفت متثاقلة كأنها لا تريد الحركة... كأنها تستيقظ من نوم عميق.

لعل ذلك كله لأنه ثمل؟ هكذا قلت في نفسي لأنني لم أكن معتاداً على رؤيته ثملاً. لم يكن أبي واحداً ممن يشربون كثيراً. لم أره يسكر إلّا مرة واحدة قبل الآن. كانت أمسية قبل شهرين عندما زرت الشقة التي يعيش فيها الآن مع أوني في إلفيغيت. قُدّم لي لحماً مشوياً... شيء آخر لم يكن من الممكن أبداً أن يفكر فيه أبي في بيته في ليلة يوم جمعة. كانا يشربان قبل وصولي؛ ورغم أنه كان في غاية الرقّة معي فإن الوضع كان خطيراً بعض الشيء. لا أقصد الخطر المباشر بالطبع لأنني لم أحس خشية منه خلال جلوسي هناك، لكنه خطر غير مباشر لأنني ما عدت قادراً على قراءته. كان ذلك كأن كل ما عرفته عنه خلال طفولتي، أي كل ما يسمح لي بالاستعداد لأي طارئ... صار ذلك كله غير صالح الآن... صار كذلك في لحظة واحدة. ما الشيء الصالح إذن؟

عندما استدرت وسرت صوب الطاولة التقطتُّ نظرة أوني. ابتسمت لي فأجبتها بابتسامة. هبة ريح أخرى، أقوى هذه المرة. اهتزت أوراق الشجيرات المرتفعة عند درجات الحظيرة. وراحت الأغصان الصغيرة في أعالي الأشجار فوق الطاولة تتأرجح صعوداً وهبوطاً.

سألتني أوني عندما اقتربت منهم: «هل أنت بخير؟».

قلت لها: «نعم. لكنني متعب قليلاً، أظن أنني سأنام بعد قليل».

«وهل تستطيع النوم في هذه الضوضاء؟».

«أوه، لا يزعجني هذا أبداً!»

قالت بوديل منحنية صوْبي فوق الطاولة: «لقد تحدث أبوك عنك بحرارة هذا المساء».

لم أعرف ما الذي يجب قوْله فاكتفيت بابتسامة خفيفة.

«أليس هذا صحيحاً يا أوني؟»

هزت أوني رأسها. كان شعرها طويلاً رمادياً كله رغم أنها في أوائل الثلاثينيات. لقد كان أبي مشرفاً عليها خلال فترة التدريب قبل أن تصير معلمة. كانت في بنطلون أخضر فضفاض وقميص يشبه قميص أبي، وحول رقبتها عقد من كرات خشبية.

قالت: «قرأنا مقالة لك هذا الربيع. لعلك لا تعرف هذا؟ آمل ألا يزعجك اطلاعي عليها! إن أباك فخور بك كثيراً كما تعرف».

كان هذا أمراً سيئاً. لماذا تقرأ الأشياء التي كتبتها؟ لكن هذا الإطراء أغراني أيضاً... بالتأكيد.

قالت بوديل: «أنت مثل جدك يا كارل أوفِه».

«جدّي؟»

«نعم. شكل الرأس نفسه. والفم كذلك».

سألتها: «أنت ابنة عم أبي، أليس كذلك؟».

قالت: «هذا صحيح. عليك أن تأتي لزيارتنا ذات يوم. إننا نعيش في كريستيانساند أيضاً، كما تعلم».

لم أكن أعرف هذا! قبل الليلة لم أكن أعرف حتى بوجودها. كان عليَّ أن أقول هذا، لكني لم أقله. قلت بدلاً من ذلك إن هذا شيء لطيف. سألتها عن عملها؛ وسألتها بعد قليل إن كان لديها أطفال. كان هذا موضوع حديثها عندما عاد أبي. جلس وراح ينظر محاولاً أن يفهم موضوع الحديث، لكنه لم يلبث أن أسند ظهره إلى الخلف واضعاً قدمه فوق ركبة ساقه اليسرى. وأشعل سيجارة.

نهضتُ واقفاً.

سألني: «هل تذهب الآن بعد عودتي؟»

قلت: «لا! إنني ذاهب لأجلب شيئاً فقط». فتحت حقيبتي التي تركتها عند درجات المدخل. أخرجت علبة السجائر. فتحت علبة السجائر ووضعت سيجارة في فمي خلال عودتي. توقفت لحظة حتى أشعلها... حتى أكون قد بدأت تدخينها عندما أجلس من جديد. لم يقل أبي شيئاً. استطعت رؤية أنه فكر في قول شيء ما لأن لمحة من عدم الرضا ظهرت عند فمه لكنها اختفت بعد لحظة قصيرة كأنه قال لنفسه إنه لم يعد ذلك الأب الذي كانه من قبل.

هذا ما ظننته... على الأقل.

قال أبي: «في صحتكم إذن». رفع أمامنا كأس النبيذ الأحمر. نظر عندها إلى بوديل وأضاف: «نخب هيلين».

قالت بوديل: «نخب هيلين».

شربا وكل منهما ينظر في عيني الآخر.

من هي هيلين بحق الجحيم؟

سألني أبي: «أليس لديك ما تشربه يا كارل أوفِه؟».

هززت رأسي.

قال لي: «خذ تلك الكأس. إنها نظيفة. أليست نظيفة يا أوني؟».

أومأت أوني برأسها. ناولتني زجاجة النبيذ الأبيض. ملأت كأسي.

قلنا: «في صحتكم من جديد».

سألتهم وأنا أنظر إليهم: «من هي هيلين؟».

قالت بوديل: «كانت هيلين أختي. إنها متوفية الآن».

قال أبي: «لقد كانت هيلين... نعم، كنا متقاربين كثيراً خلال صبانا. كنا معاً طيلة الوقت. ظللنا معاً حتى فترة المراهقة. وعند ذلك مرضت».

أخذت رشفة أخرى. ظهر الرجل والمرأة اللذان رأيتهما سابقاً قادمَيْن من خلف البيت... المرأة الممتلئة في الفستان الأبيض والرجل صاحب الكرش الصغير. جاء رجلان خلفهما. عرفت واحداً منهما. إنه الرجل الذي رأيته في المطبخ.

قال صاحب الكرش: «ها أنت هنا! لقد كنا نتساءل عنك. عليّ القول إنك لا تهتم بضيوفك جيداً». ربتت يده على كتف أبي... «أنت الذي نريد رؤيته بعد أن أتينا هذه المسافة كلها».

همست بوديل لي: «هذه أختي إليزابيث وزوجها فرانك. إنهما يعيشان في راين عند النهر. إنه وكيل عقاري».

هل كان هؤلاء الناس الذين يعرفهم أبي يعيشون حولنا دائماً؟

جلسوا إلى الطاولة فانتعش الجو فجأة. صارت الوجوه التي رأيتها عندما وصلت، الوجوه التي كانت خالية من أي معنى أو محتوى فلم أنتبه إليها إلّا من ناحية الشكل والسن... كأنها وجوه حيوانات، أو كأنها نماذج عتيقة لأشخاص في الأربعينيات مع كل ما يستتبعه هذا من عيون لا حياة فيها وشفاه متيبِّسة وأثداء متدلية وكروش مهتزة

وطيات وتجاعيد... رأيت الآن في هذه الوجوه أشخاصاً لأنني اكتشفت أنني على صلة بهم واكتشفت أن الدم الذي يجري في عروقهم مثل دمي... صارت لهم أهمية على نحو مفاجئ.

قال أبي: «كنا نتحدث عن هيلين».

قال الرجل الذي اسمه فرانك: «هيلين، نعم... لم ألتق هيلين أبداً. لكنني سمعت عنها الكثير. كانت خسارة كبيرة».

قال أبي: «كنت أجلس إلى جانبها على سرير موتها».

حدقتُ بنظرة فارغة. ما معنى هذا كله؟

«كنت مغرماً بها كثيراً. كنت مغرماً بها كثيراً».

قالت بوديل لي: «كانت أجمل فتاة يمكنك تخيلها»... لا تزال تحدثني همساً.

قال أبي: «وعند ذلك ماتت... أوووه!».

هل يبكي أبي؟ نعم، كان يبكي. كان جالساً هناك واضعاً مرفقيه على الطاولة طاوياً ذراعيه على صدره. وراحت الدموع تجري على خديه.

«وكان ذلك في الربيع. كان ربيعاً عندما ماتت. كان كل شيء مزهراً. أوووهه. أوووهه».

خفض فرانك عينيه وراح يدير كأسه بين أصابعه. وضعت أوني يدها على ذراع أبي. جلست بوديل ناظرة إليهما.

قالت: «لقد كنتَ شديد القرب منها. كنت أعزّ شيء لديها».

قال أبي منتحباً: «أوووهه. أوووهه». أغمض عينيه وأخفى وجهه خلف كفَّيْه.

عصفت بحديقة البيت هبة ريح مفاجئة. رفرفت أطراف غطاء الطاولة. وطار منديل عبر المرج. هفهفت أوراق الأشجار من فوقنا. حملت كأسي وشربت. ارتعدت عندما أحسست بالطعم الحامض في فمي. ومن جديد، أدركت ذلك الإحساس الواضح الصافي الذي يظهر مع اقتراب السُّكر... لكن السُّكر لم يأتِ بعد، ولم تظهر تلك الرغبة في متابعة الشرب، الرغبة التي تلي هذه اللحظة دائماً.

القسم الثاني

وجدت أواخر عام 2003 مكتباً في قلب المدينة بعد سكني عدة أشهر في واحدة من البلدات الكثيرة المحيطة بمدينة ستوكهولم اسمها آكيشوف، حيث كنت أكتب ما آمل أن يكون روايتي الثانية، وحيث كان المترو يمر على مسافة أمتار قليلة من نافذتي فأرى عرباته كل مساء بعد حلول الظلام منسابة عبر الأشجار كأنها صف من غرفٍ مُنارة متتابعة. هذا المكتب ملكٌ لأحد أصدقاء ليندا؛ مكانٌ مثاليّ! كان في الحقيقة مؤلفاً من غرفة واحدة فيها زاوية للمطبخ وحمام صغير وأريكة يمكن جعلها سريراً، إضافة إلى طاولة للكتابة ورفوف للكتب. نقلت أشيائي... كمبيوتر وكومة من الكتب، نقلتها في الأيام الفاصلة بين عيدَيْ الميلاد ورأس السنة، وبدأت العمل هناك في أول عطلة نهاية أسبوع في السنة الجديدة. كانت روايتي منتهية في واقع الأمر... قصة حب غريبة في مئة وثلاثين صفحة: حكاية قصيرة عن أب وولديه الاثنين عندما خرجوا معاً في ليلة صيف لاصطياد الكابوريا؛ وهذا ما قاد إلى موضوع طويل عن الملائكة، قاد بدوره إلى قصة عن واحد من الولدين (صار بالغاً الآن) والأيام التي أمضاها على جزيرة عاش فيها وحيداً وكتب أشياء، وآذى نفسه أيضاً.

كانت دار النشر قد أخبرتني بأنها ستصدر هذا الكتاب. أغراني هذا القرار، لكنني كنت غير واثق إلى حد كبير خاصة بعد أن جعلت إيريك تورِه يقرأ ما كتبت. اتصل بي في وقت متأخر ذات مساء، وكان مزاجه غريباً مثل طريقة اختياره كلماته... كأنه احتسى بضع كؤوس من الشراب حتى يصير قادراً على أن يقول لي ما أراد قوله. كان ما أراد قوله بسيطاً: إنها ليست جيدة؛ وهي ليست رواية! قال لي عدة مرات: عليك أن تروي قصة يا كارل أوفه. عليك أن تروي قصة! كنت أعرف أنه محق، وكان هذا ما بدأت فعله عندما شرعت في كتابة هذه الرواية في عام 2004 عندما جلست أمام مكتبي الجديد ناظراً إلى الشاشة الخالية أمامي. بعد تفكير استمر نصف ساعة، استندت بظهري إلى الكرسي ونظرت إلى الملصق الذي خلف طاولة المكتب. كان ملصقاً من معرض بيتر غريناوي ذهبت إليه في برشلونة مع تونجه منذ سنوات

كثيرة... في وقت ما في حياتي السابقة. كان في ذلك الملصق أربع صور: صورة لما اعتبرته زمناً طويلاً طفلاً بريئاً يبول، وصورة لجناح طائر، وأخرى لطيار من العشرينيات، وصورة لكفّ إنسان ميت. وبعد ذلك نظرت عبر النافذة. كانت السماء فوق المستشفى على الناحية الأخرى من الطريق صافية زرقاء. لمعت أشعة الشمس الواطئة على الألواح والإشارات والقضبان وأجسام السيارات. كانت الأنفاس المتجمدة المتصاعدة من عابري السبيل السائرين على الرصيف تجعلهم يبدون كأنهم يحترقون. كانوا جميعاً متدثرين بإحكام بملابسهم الدافئة. قبعات وأوشحة وقفازات وسترات سميكة. حركات سريعة مستعجلة، ووجوه جامدة. تجوَّلت عيناي على أرضية الغرفة. كانت أرضية من الباركيه جديدة بعض الشيء، لكن لونها البني المحمر غير منسجم كثيراً مع محتويات الشقة بالغة الحداثة. لاحظت أن عُقد الخشب وعروقه، ربما على مسافة مترين من الكرسي الذي كنت جالساً عليه، تشكل صورة للمسيح وعلى رأسه إكليل من الشوك.

لم تبدر عني أي ردة فعل تجاه هذه الصورة... لاحظتها فحسب؛ وذلك لأن صوراً من هذا القبيل يجدها المرء في كل بناء إذ إنها ناتجة عن عدم الانتظام في الأرضيات أو الجدران أو الأبواب: هنا بقعة رطبة في السقف تبدو كأنها كلب يجري، وهناك طبقة مهترئة من الطلاء عند درجات المدخل تبدو مثل وادٍ تغطيه الثلوج وسلسلة جبلية فوقه في البعيد حيث يظهر ما يشبه غيوماً مندفعة... لكن، لا بد أن هذه الصورة الآن قد أحدث في نفسي شيئاً لأنني نهضت بعد عشر دقائق ومضيت إلى وعاء التسخين وسكبت فيه الماء، فتذكرت شيئاً حدث ذات مساء منذ زمن بعيد، حدث في زمن يغوص عميقاً في طفولتي عندما رأيت صورة مثل هذه على صفحة الماء في خبر تلفزيوني يتحدث عن قارب صيد مفقود. وخلال الثانية التي استغرقها صب الماء في السخان، رأيت غرفة معيشتنا أمامي، وصندوق التلفزيون الخشبي البني، ولمحات من ندف الثلج المنفردة على خلفية الجبل المعتم خارج النافذة... رأيت البحر على الشاشة، ورأيت الوجه الذي ظهر على صفحة الماء. ومع تلك الصورة، تذكرت جوَّ ذلك الوقت، جو الربيع في تلك المنطقة السكنية في السبعينيات، جو الحياة الأسرية مثلما كانت في ذلك الزمان. ومع ذلك الجو جاءني حنين لا أكاد أستطيع ضبطه.

رن الهاتف في تلك اللحظة. أجفلني. من المؤكد أن أحداً لا يعرف رقم هاتفي هنا.

رنّ خمس مرات قبل أن يستسلم ويتوقف. اشتد هسيس الماء في الوعاء، بدأ يغلي. كثيراً ما خطر لي من قبل أنه يشبه صوت شيء يقترب، ويزداد اقتراباً.

نزعت غطاء علبة القهوة، ووضعت ملء ملعقتين في فنجاني، ثم صببت الماء فارتفع في الفنجان أسود اللون يتصاعد منه البخار. وعند ذلك مضيت فارتديت ملابسي. وقبل أن أخرج، وقفت بطريقة أستطيع معها رؤية ذلك الوجه في الأرضية الخشبية من جديد. كان هو المسيح حقاً: الوجه نصف مُعوجّ، كأنه يتألم، والعينان مسبلتان، وإكليل الشوك على رأسه.

ليس الشيء الذي يلفت النظر هو ظهور هذا الوجه الآن في هذا المكان، ولا أنني رأيت ذات مرة وجهاً في البحر في وقت ما أواسط السبعينيات... إنه نسياني لما رأيته طيلة هذا الزمن كله ثم تذكره الآن. باستثناء حادثة أو حادثتين منفردتين تحدثنا فيهما كثيراً، أنا وإنغفه، وكانت لهما أبعاد دينية ما، لا أكاد أتذكر شيئاً من طفولتي. أقصد أنني لا أكاد أتذكر أي حدث خلال تلك الطفولة. لكنني أتذكر الغرف التي جرت فيها الأحداث. أستطيع تذكر الأماكن التي كنت فيها كلها، والغرف التي عشت فيها كلها. لكنني لا أذكر ما حدث هناك.

مضيتُ إلى الشارع حاملاً الفنجان في يدي. جاءني إحساس بشيء طفيف من عدم الراحة عندما رأيت الفنجان في الخارج. ينتمي الفنجان إلى الداخل لا إلى الخارج؛ ينتمي إلى داخل البيت لأن فيه شيئاً مكشوفاً، عارياً. عندما كنت أجتاز الشارع، قررت أن أشتري قهوة من محل «سيفن إيلفن» في الصباح التالي حتى أستخدم فنجانهم المصنوع من الورق المقوّى... حتى أستخدمه دائماً لأنه مصنوع للاستخدام في الخارج. كان هنالك مقعدان أمام المستشفى فمضيت إليهما وجلست على ألواحهما التي كساها الجليد. أشعلت سيجارة ونظرت إلى الشارع. صارت القهوة فاترة الآن. كان مقياس الحرارة خارج نافذة المطبخ في بيتي قد أشار إلى درجة ناقص عشرين ذلك الصباح. ومع أن الشمس ساطعة الآن، فإن الجو لا يمكن أن يكون أدفأ من ذلك. لعله ناقص خمس عشرة درجة.

أخرجت هاتفي المحمول من جيبي ونظرت لأرى إن كان قد اتصل بي أحد.

في الحقيقة، لم أكن أنتظر اتصالاً من أحد لا على التعيين. إنني أنتظر اتصالاً بعينه: كنا نتوقع طفلاً خلال فترة أسبوع. وهكذا كنت مستعداً لتلقي اتصال من ليندا في أية لحظة تخبرني فيه بأنها على وشك الولادة. عند تقاطع الطرق في قمة المنحدر اللطيف، بدأت إشارة المرور تصدر صوت التكتكة. بعد لحظة صار الشارع أمامي خالياً من السيارات. خرجت امرأتان في منتصف العمر من المدخل المقابل. أشعلت كل منهما سيجارة. كانتا في ثياب المستشفى البيضاء. وكانت كل منهما تضغط بذراعيها على خصرها وتخطو بخطوات صغيرة قافزة لتحافظ على الدفء. بالنسبة لي، بدت هاتان المرأتان مثل نوع غريب من البط. بعد ذلك، توقفت تكتكة إشارة المرور. وفي اللحظة التي تلتها اندفعت السيارات هابطة منطقة الظل في أعلى المنحدر كأنها قطيع من كلاب الصيد ثم سارت تحت ضوء الشمس في الشارع الذي أمامي. كانت عجلاتها المزودة بالمسامير تجلد إسفلت الطريق. أعدت هاتفي إلى جيبي وأحطت فنجاني بكفي. كان البخار يتصاعد من القهوة بطيئاً فيختلط بالأنفاس الخارجة من فمي. جاءت من باحة المدرسة المحشورة بين مبنيين سكنيين على مسافة عشرين متراً من مكتبي صيحات الأطفال فملأت ذلك الهدوء فجأة. لم ألاحظ ذلك إلّا الآن. لقد رن الجرس. كانت الأصوات هنا جديدة غير مألوفة عندي. يصح الأمر نفسه على إيقاع ظهورها. لكني سوف أعتادها سريعاً، سوف أعتادها إلى درجة تجعلها تذوي مضمحلة في خلفية المشهد من جديد. أنت تعرف القليل القليل، وهو غير موجود! أنت تعرف الكثير الكثير، وهو غير موجود أيضاً! الكتابة هي رسم جوهر ما نعرفه وإخراجه من الظل. هذا هو معنى الكتابة. ليس المعنى ما يحدث هناك، وليس هو الأفعال التي تجري، إنه ذلك الـ «هناك» نفسه. هناك... إنه موقع الكتابة وهدفها. لكن، كيف السبيل إلى هناك؟

كان هذا هو السؤال الذي طرحته على نفسي وأنا جالس في حي من أحياء ستوكهولم أشرب القهوة وتتقلص عضلاتي من البرد ويتبدد دخان سيجارتي في كتلة الهواء الضخمة فوقي.

كانت الصيحات تأتي من باحة المدرسة على دفعات محددة، وكانت واحداً من الإيقاعات الكثيرة التي تعبُر ذلك الحي كل يوم منذ أن يبدأ اشتداد حركة السيارات في الصباح إلى أن يبدأ تضاؤلها وهدوؤها في وقت متأخر بعد الظهر. مثلما يلوح الآن

على الجهة الأخرى من الشارع. يتجمَّع العمال في المقاهي ومحلات المعجَّنات من أجل الإفطار في السادسة والنصف؛ يأتون بأحذيتهم الواقية الضخمة وأكفّهم القوية المتسخة، يأتون حاملين مساطرهم المطوية في جيوب بنطلوناتهم ومعها هواتفهم المحمولة التي ترنّ دائماً. أما الرجال والنساء الذين يملأون الشوارع في الساعة التي تلي ذلك فإن تحديد هواياتهم أقل سهولة: أشخاص لا يقول مظهرهم الخارجي الناعم وملبسهم الحسن عنهم شيئاً أكثر من إنهم يمضون أيامهم في مكتب ما، وإنهم يمكن أن يكونوا محامين أو صحفيين يعملون في التلفزيون أو معماريين، ويمكن أيضاً أن يكونوا عاملين في الإعلانات أو موظفين في شركات التأمين. وهنالك أيضاً الممرضات وعاملي المستشفيات الذين تفرغهم الباصات من جوفها أمام المستشفى... أكثرهم في أواسط العمر، وأكثرهم نساء رغم وجود شاب بينهم هنا وهناك. يأتون في مجموعات يزداد حجمها مع اقتراب الساعة الثامنة ثم يتناقص من جديد إلى أن يقتصر على متقاعد ما، يجرّ على الرصيف حقيبة تسوّق ذات عجلات خلال الصباحات الهادئة عندما يبدأ ظهور الأمهات الوحيدات والآباء الوحيدين دافعين عربات الأطفال. في ذلك الوقت تهيمن على حركة الشارع سيارات النقل والشاحنات والباصات وسيارات التاكسي.

في هذا الوقت، مع ضياء الشمس المتراقص على النوافذ في الجانب الآخر من الشارع قبالة مكتبي، ومع انقطاع صوت الخطوات أو ندرته على سلم البناء خارج الشقة، تعبر مجموعات من الأطفال: تمر بالمكان جماعات من روضة الأطفال لا يزيد طول الواحد منهم عن ارتفاع الخروف... يرتدون كلهم سترات متماثلة من النوع الذي تسهل رؤيته، وتكون وجوههم جادة أكثر الأحيان كأنهم واقعون تحت سحر الطبيعة الخطيرة لمشروع الذهاب إلى روضة الأطفال؛ أما الجدية الظاهرة على وجوه المشرفين عليهم، أولئك السائرين بينهم كأنهم رعاة، فتبدو أقرب إلى الضجر. في هذه الفترة أيضاً، تظفر الأصوات المنبعثة من مختلف الأعمال الجارية في الجوار بفسحة كافية حتى تطفو على سطح وعي المرء: جماعة من عمال إدارة الحدائق في ستوكهولم تجمع أوراق الأشجار عن العشب، أو تقلم أشجاراً هنا وهناك، أو عمال إدارة الطرق يكشطون طبقة من الإسفلت في الشارع، أو صاحب عقار يقوم بتجديد مبنى للشقق السكنية في مكان قريب. وبعد ذلك تأتي موجة من العاملين أصحاب الياقات البيضاء

ورجال وسيدات الأعمال، تندفع إلى الشوارع وتملأ المطاعم والمقاهي: إنه وقت الغداء! وعندما تنسحب تلك الموجة، بطريقة مفاجئة مثلما ظهرت، تترك خلفها فراغاً يشبه الفراغ الذي كان في الصباح، لكنه فراغ ذو هوية خاصة. صحيح أن الإيقاع يتكرر الآن، لكنه يتكرر بصورة معكوسة: الأطفال المتفرقون الذين يمرون بنافذتي عائدين إلى بيوتهم الآن، تظهر عليهم ملامح شيء منطلق عاصف. عندما مروا في الصباح ذاهبين إلى المدرسة كانت آثار النوم الصامتة لا تزال متعلِّقة بهم ومعها ذلك القلق الدفين الذي نحسه تجاه الأشياء التي لم تبدأ بعد. تسقط أشعة الشمس الآن على الجدار داخل النافذة. وفي الممر، يمكن سماع صوت الخطوات الأولى لأشخاص عائدين من أعمالهم آتياً من السلم. وعند موقف الباص أمام مدخل المستشفى صار حشد المنتظرين يبدو أكبر فأكبر كلما نظرت من النافذة. ازدادت السيارات في الشارع الآن، وكان عدد المشاة الماضين على الرصيف المؤدي إلى المنطقة المرتفعة في تزايد أيضاً. تبلغ هذه الحركة المتزايدة ذروتها عند الخامسة تقريباً؛ وبعد ذلك تصير المنطقة هادئة إلى أن تبدأ حياة الليل نحو الساعة العاشرة حين تظهر جموع من شبان صغار صاخبين وصبايا بأصوات صادحة. يُسمع صخبهم من جديد قرابة الساعة الثالثة صباحاً عندما تنتهي سهراتهم. وفي السادسة تقريباً، يبدأ عمل الباصات من جديد، وتزداد كثافة حركة السيارات، ويتدفق الناس خارجين من البوابات والطرق الفرعية: يبدأ يوم جديد.

إن الحياة هنا منظّمة محدَّدة على نحو دقيق صارم يمكن فهمه على نحو هندسي وبيولوجي في الوقت نفسه. يصعب تصديق أن لهذا صلة بنوع من الازدحام والكثرة كالذي نراه في الشروط الفوضوية غير المُدَجّنة لدى الأجناس الأخرى كالتجمعات الضخمة من فراخ الضفادع أو بيوض الأسماك أو الحشرات، حيث تبدو الحياة كأنها تنبع من بئر لا ينفذ ما فيها. لكن الأمر هكذا! إن الفوضى والمفاجآت التي لا يمكن توقعها جزءٌ من الخصائص الأساسية للحياة، ولنهاية الحياة أيضاً... فالواحدة غير ممكنة من غير الأخرى. ورغم أن كل ما نقوم به يكاد يكون متّجهاً إلى إبعاد لحظة نهاية الحياة، فإن الأمر لا يقتضي أكثر من لحظة يأس وجيزة قبل أن نعيش في ضوء تلك النهاية لا في ظلها مثلما نفعل الآن. الفوضى نوع من الجاذبية، أشبه بالجاذبية الأرضية، ولعل الإيقاع الذي يمكنك أن تحسّه في التاريخ، في نهوض المدنيات وسقوطها، ناتج عن هذا. يلفت النظر حقاً أن النهايات القصوى تبدو متشابهة، بمعنى من المعاني على الأقل؛ وذلك لأن الفرد

لا يكون شيئاً في حالة الفوضى الشاملة ولا يكون شيئاً في عالم دقيق التنظيم والتحديد على حد سواء... الحياة هي كل شيء. وعلى النحو نفسه الذي يجعل القلب غير مهتم بالحياة التي ينبض من أجلها، لا تهتم المدينة بمن يؤدون وظائفها المتنوعة الكثيرة. عندما يموت كل من يتحرك في المدينة الآن، لنقل بعد مائة وخمسين عاماً من هذا اليوم، يظل صوت مجيء الناس وانصرافهم هو نفسه، يظل جارياً وفق النماذج القديمة نفسها. الشيء الجديد الوحيد الذي يتغير هو وجوه من يؤدون هذه الوظائف؛ لكن هذا أيضاً ليس بالشيء الجديد تماماً لأنهم سيكونون أناساً يشبهوننا. رميت عقب السيجارة على الأرض وشربت آخر قطرات القهوة التي صارت باردة الآن.

لقد رأيتُ الحياة؛ وفكرتُ في الموت.

نهضت ودلَّكت فخذي بكفي عدة مرات ثم مشيت نازلاً حتى تقاطع الطرق. كانت السيارات العابرة تخلف وراءها دوامات ثلج. جاءت شاحنة ضخمة من أعلى التل. كانت السلاسل على عجلاتها تقعقع. فرملت وتمكنت من التوقف قبل ممر المشاة عندما تغيرت الإشارة إلى اللون الأحمر. لدي دائماً شعور مزعج عندما تضطر سيارة إلى الوقوف بسببي؛ ينشأ نوع من عدم التوازن وأشعر بأنني مدين بشيء ما لتلك السيارات. كلما كانت السيارة أكبر حجماً كلما ازداد إحساسي بالذنب. حاولت التقاط عيني السائق عندما عبرت حتى أستطيع أن أهز له رأسي فأستعيد ذلك التوازن. لكن عينيه كانتا مشغولتين تتابعان حركة يده التي ارتفعت لالتقاط شيء داخل القمرة. لعل ذلك الشيء خريطة لأن الشاحنة تحمل لوحة بولونية. لم يرني، لكن لا أهمية لهذا، لأن تلك الفرملة لا يمكن أن تكون قد أزعجته كثيراً.

توقفت عند مدخل البناء، وأدخلت الرقم ففتحت الباب وبحثت في جيبي عن مفتاحي بينما كنت أصعد الدرجات القليلة إلى الطابق الأول حيث كان مكتبي. سمعت طنين المصعد، ففتحت قفل الباب بأسرع ما استطعت واندفعت داخلاً ثم أغلقته من خلفي.

جعلتني الحرارة المفاجئة أحس وخزاً في يدي وفي وجهي. في الخارج، مرت إحدى سيارات الإسعاف. كانت صفارتها تنوح. صببت بعض الماء من أجل فنجان قهوة آخر. وفي انتظار غليان الماء، رحت أتصفح ما كتبته حتى الآن. كانت دقائق الغبار تحوم في أعمدة الضياء العريضة المائلة، تسبح قلقة وتتابع كل حركة صغيرة في الهواء.

بدأ الجار في الشقة المجاورة يعزف البيانو. هسهس الماء قبل غليانه. لم يكن ما كتبته جيداً. ليس سيئاً، لكنه ليس جيداً أيضاً. مضيت إلى خزانة المطبخ، ورفعت الغطاء عن علبة القهوة، ثم وضعت ملء ملعقتين من القهوة في الفنجان وصببت الماء فارتفع في الفنجان سريعاً أسود اللون يتصاعد منه البخار.

رُنَّ الهاتف.

وضعت الفنجان على الطاولة وتركت الهاتف يرن مرتين قبل أن أجيب.

قلت: «مرحباً!».

«مرحباً، هذه أنا».

«أهلاً».

«كنت أتساءل كيف تجري الأمور معك؟ هل أنت على ما يرام هناك؟».

بدا لي من صوتها أنها سعيدة.

قلت: «لست أدري! لم يمض على وجودي هنا غير ساعات قليلة».

صمت.

«هل تعود إلى البيت في وقت قريب؟».

قلت: «لا تلحِّي عليّ هكذا! أعود عندما أعود».

لم تجبني.

سألتها بعد هنيْهة: «هل أشتري شيئاً في طريق عودتي؟».

«لا، لقد اشتريت ما يلزم».

«لا بأس. أراك في البيت».

«جيد. إلى اللقاء. انتظر. نريد كاكاو».

قلت: «كاكاو؟ أتريدين شيئاً آخر؟».

«لا، هذا كل شيء».

«لا بأس. إلى اللقاء».

«إلى اللقاء».

بقيت جالساً في الكرسي فترة طويلة بعد أن أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها. كنت غارقاً في شيء لا هو أفكار ولا هو مشاعر... شيء كأنه جَوّ ما، مثلما يمكن أن يكون لغرفة فارغة جو ما. وعندما رفعت الفنجان إلى شفتي، شارد الذهن، شربت

جرعة كبيرة، لكن القهوة كانت فاترة. حرَّكت فأرة الجهاز حتى يعود إلى الحياة وأتأكد من الوقت. الثالثة إلّا ست دقائق. وبعد ذلك، أعدت قراءة النص الذي كتبته. قصصت ما هو مكتوب ولصقته في ملف احتياطي. كنت أعمل على هذه الرواية منذ خمس سنوات. هذا يعني أن أي شيء أكتبه لا يمكن أن يكون باهتاً. لكن ما كتبته الآن لم يكن لامعاً بما فيه الكفاية. إلّا أن الحل كامنٌ في هذا النص الموجود؛ أعرف هذا؛ هنالك شيء فيه لا زلت أبحث عنه. بدا لي أن كل ما أريده موجود هناك، لكنه في صيغة مضغوطة أكثر مما يجب. بذرة الفكرة التي حرّكت النص كله كانت ذات أهمية خاصة: إنها تحديداً أحداث تجري في ثمانينات القرن التاسع عشر بينما تنتمي الشخصيات وما يحيط بها إلى ثمانينات القرن العشرين. أحاول منذ سنوات كثيرة أن أكتب عن أبي، لكنني لم أصل إلى شيء. لعل هذا لأن الموضوع شديد القرب من حياتي... قريب إلى درجة تجعل من الصعب عليَّ أن أرغمه على اتخاذ صيغة أخرى، وهو بالطبع شرط ضروري للكتابة الأدبية، بل هو شرط الكتابة الأدبية الوحيد: يجب أن يخضع كل شيء لصيغة الكتابة. إذا كان أي عنصر آخر من عناصر الأدب أقوى من الصيغة، كالأسلوب مثلاً أو الحبكة أو الفكرة... إذا استطاع أي من هذه العناصر أن يتحكم بصيغة الكتابة فإن النتيجة بائسة. هذا ما يجعل الكتاب أصحاب الأسلوب القوي يكتبون كتباً ضعيفة أكثر الأحيان. إنه أيضاً ما يجعل الكتّاب أصحاب الأفكار القوية يكتبون كتباً سيئة أغلب الأحيان. لا بد من تحطيم الأفكار القوية والأسلوب القوي حتى يتمكن الأدب من الوجود. هذا التحطيم هو ما يطلق عليه اسم «الكتابة». الكتابة قائمة على التحطيم أكثر مما هي قائمة على الخلق. لم يدرك أحد هذا الأمر أكثر من رامبو. ليس الأمر المتميز عند رامبو هو أنه توصل إلى هذه البصيرة العميقة في سن مبكرة إلى حد مقلق بل إنه طبّقها على حياته أيضاً. عند رامبو، كان كل شيء متعلقاً بالحرية، في حياته كما في كتاباته. ولأن الحرية تأتي أولاً، تمكن رامبو من وضع كتاباته خلف ظهره، بل لعله وجد أن عليه أن يضع الكتابة خلف ظهره أيضاً لأنها تصبح بدورها قيداً لا بد له من تحطيمه. الحرية تشبه التدمير مضافاً إليه الحركة. هنالك كاتب آخر أدرك الحركة. إنه آكسل سانديموز. كانت مأساته هي أنه قادر على فعل التدمير في الأدب وحده، لا في الحياة. لقد دمّر ثم لم يفارِق ما دمره. أما رامبو فذهب إلى أفريقيا.

جعلني دافع مفاجئ غير واعٍ أرفع رأسي لأنظر فالتقت عيناي نظرة امرأة. كانت جالسة في الباص مقابل نافذتي. بدأت عتمة الليل، وصار مصباح المكتب مصدر الضوء الوحيد في غرفتي. لا بد أن هذا يجتذب انتباه من في الخارج مثلما يجتذب الحشرات. عندما أدركت المرأة أنني رأيتها حوّلت نظرتها عني. نهضت ومضيت إلى النافذة فأرخيت الستارة وأنزلتها بينما كان الباص يتحرك ماضياً في طريقه. حان وقت الذهاب إلى البيت. لقد قلت لها إنني قادم «قريباً»؛ وكان هذا قبل ساعة.

كانت في مزاج مبتهج تماماً عندما اتصلت.

سَرَت في نفسي موجة من الحزن. كيف استطعت أن أقابل قلقها وتوقها بانزعاج؟

وقفت جامداً في وسط الغرفة كأن الألم المشع من جسدي يمكن أن يختفي من تلقاء نفسه. لكنه لم يختف أبداً. لا بد من فعل لإزالته. سيكون عليَّ أن أصالحها. كانت تلك الفكرة نفسها أمراً مفيداً لي، لا لأنها وعد بالمصالحة فحسب، بل أيضاً من خلال ما تتطلبه من متابعة عملية... فكيف أصالحها؟ أغلقت حاسوبي ووضعته في حقيبتي، ثم غسلت الفنجان ووضعته إلى جانب المغسلة. وضعت الكابل الكهربائي في الحقيبة، وأطفأت الضوء، ثم لبست معطفي وقبعتي في ضوء القمر المتسلل عبر شق الستارة. وطيلة الوقت، كنت أراها بعين عقلي في تلك الشقة الكبيرة.

صفع البرد وجهي عندما خطوت إلى الشارع. رفعت قبعة الواقي المطري فوق قبعتي وحنيت رأسي إلى الأمام حتى أحمي عينيَّ من شذرات الثلج الدقيقة المدوّمة في الهواء، ثم بدأت السير. عندما يكون الطقس جيداً، أذهب في شارع تيغنيرغاتان حتى إلى شارع ترودتنينغاتان فأتابع السير فيه حتى حيٍّ هوتورغ حيث أسير صاعداً التلة حتى كنيسة القديس يوهان، ثم أهبط من جديد إلى شارع ريغيرينغزغاتان حيث تقع شقتنا. هذا الطريق مليء بالمتاجر ومراكز التسوق والمقاهي والمطاعم ودور السينما، وهو مزدحم بالناس دائماً. تغلي الشوارع هناك بأناس من مختلف الأنواع. وفي واجهات المحلات المتألّقة نوراً يرى المرء تشكيلة متنوعة واسعة من السلع. تدور السلالم الكهربائية في الداخل كأنها عجلات في آلة غامضة هائلة الحجم، وتلمع المصاعد صاعدة هابطة، وتعرض شاشات التلفزة أناساً جميلين يتحركون كالأشباح. وأمام مئات صناديق المحاسبة يقف الناس صفوفاً... صفوف يتناقص حجمها ثم يزداد، ثم يتناقص ثم يزداد على نحو لا يمكن توقعه مثلما لا يستطيع المرء أن يتوقع حركة

الغيوم في السماء فوق قمم البنايات في هذه المدينة. كنت أحب هذا في أيام الطقس الجيد: تيار البشر بوجوههم الجذابة على نحو ما، الناس الذين تعبّر عيونهم عن حالة ذهنية ما... بشر أمرُّ بينهم وأنظر إليهم. أما في أيام الطقس السيئ، فإن للسيناريو نفسه، أثر مختلف، أثر معاكس. إن كان ذلك ممكناً، فإنني أختار مسلكاً مختلفاً أكثر بعداً عن المسار المزدحم. أسلك معظم الأحيان شارع رادمانسغاتان، ثم أسير في شارع هولاندرغاتان حتى تيغنيرغاتان حيث أعبر إلى سفيفاغن وأسير في شارع دوبلنزغاتان حتى أصل كنيسة القديس يوهان. تغلب على هذا الطريق بيوت منفردة؛ وأكثر من يقابلهم المرء هناك أشخاص يمضون وحدهم مسرعين في الطريق؛ كما أن المتاجر والمطاعم الموجودة فيه ليس فيها شيء متميز. مدارس لتعليم القيادة يكسو نوافذها هباب عوادم السيارات، ومتاجر لبيع الأشياء المستعملة تصطف أمامها صناديق فيها مجلات فكاهية وعليها لوائح أسعار، ومحلات لتنظيف الملابس، وحلاقون، ومطعم صيني، وحانتان رخيصتان.

الطقس سيء اليوم. سرت عبر الشوارع خافضاً رأسي لأتجنب الثلج المندفع. سرت عبر الشوارع التي تشبه ودياناً ضيقة بين تلك الجدران العالية وسطوح المباني السكنية التي كساها الثلج. ومن حين لآخر، كنت أنظر عبر النوافذ التي أمرّ بها: ردهة استقبال خالية في فندق صغير، وسمكة صفراء تسبح أمام خلفية خضراء في حوض الأسماك، وإعلان كبير لشركة تنتج البروشورات والملصقات واللوحات الإعلانية، وثلاثة حلّاقين سود منكبين على رؤوس زبائنهم السود الثلاثة في محل حلاقة أفريقي. يلتفت أحدهم صوب شابين جالسين على درجات السلم في آخر المحل، يضحكان معاً، ثم يدير رأسه عائداً إلى عمله بانزعاج ونفاذ صبر.

على الناحية الأخرى من الشارع، هنالك حديقة كبيرة تدعى باسم «حديقة المرصد». بدت الأشجار فيها كأنها نبتت من قمة رابية شديدة الانحدار. وبما أن ضوءاً خافتاً كان يأتي من صف المباني تحت تلك الرابية، فقد بدت قمم الأشجار كأنها هي التي تخلق الظلمة فوقها. كانت مظلة الأشجار هذه كثيفة إلى حد يجعل الأنوار عند قمة المرصد الذي بني في وقت ما في القرن الثامن عشر أيام ازدهار المدينة غير مرئية. هنالك مقهى في الأعلى الآن. وقد فوجئت عندما ذهبت إليه أول مرة بمدى قرب القرن الثامن عشر إلى زماننا هذا في السويد بالمقارنة مع ما هو موجود في النرويج، ربما في

الريف خاصة حيث يبدو بيت ريفي نرويجي مبني عام 1720 مثلاً شيئاً عتيقاً حقاً بينما تعطي المباني الرائعة كلها في ستوكهولم، العائدة إلى الفترة نفسها، انطباعاً بأنها تكاد تكون معاصرة. تذكرت بورغيلد، شقيقة جدتي لأمي، التي كانت تعيش في بيت صغير في المزرعة نفسها التي أتت عائلتي منها. تذكرتها جالسة على الشرفة تحكي لنا أن تلك البيوت ظلت موجودة هناك منذ القرن السادس عشر حتى ستينيات القرن العشرين عندما هُدمت لتقوم محلها منشآت أكثر عصرية. إن هذا الكلام العاطفي يخالف تمام المخالفة التجربة اليومية للمرور بمباني ذلك الزمن هنا. لعل الأمر كله كان متعلقاً بالقرب من عائلتنا، وبالتالي مني أنا؟ أقصد أن الماضي في جولستر يخصني بطريقة مختلفة تماماً عن ماضي ستوكهولم! قلت في نفسي لا بد أن يكون الأمر هكذا. ثم أغمضت عيني لحظة حتى أتخلص من إحساسي بأنني أحمق، الإحساس الذي أثاره تسلسل الأفكار هذا، وذلك لأن من الواضح تماماً أنه قائم على وهم. لم يكن لديّ تاريخ أبداً؛ وهكذا صنعت لنفسي تاريخاً... تماماً مثلما يمكن أن يفعل الحزب النازي في منطقة خاضعة له.

تابعت سيري في الشارع ثم انعطفت عند الزاوية ودخلت شارع هولاندرغاتان. كان شارعاً ذا أرصفة مهجورة وصفين من السيارات التي غمرها الثلج. شارع محشور بين اثنين من أهم شوارع المدينة، سفيفاغن ودروتمينغاتان، فكان عليه أن يصير بمثابة شارع خلفي لهما. نقلت الحقيبة إلى يدي اليسرى، ثم أمسكت قبعتي باليمنى ونفضت عنها الثلج المتراكم عليها. خفضت رأسي في الوقت نفسه لأتجنب الاصطدام بالسقالات التي نصبوها فوق الرصيف. وبعيداً في الأعلى، كانت مساحات كبيرة من النايلون تخفق في الهواء. تقدم رجل فقطع طريقي عندما خرجت من الممر الذي يشبه النفق، فعل ذلك بطريقة جعلتني مجبراً على التوقف.

قال لي: «انتقل إلى الرصيف الآخر. هنالك حريق هنا. وبحسب معرفتي، يمكن أن تكون في الداخل مواد قابلة للانفجار».

وضع هاتفه المحمول على أذنه لحظة ثم أنزله.

قال لي: «إنني جاد في كلامي. اجتز الشارع إلى الرصيف الآخر».

سألته: «أين الحريق؟»

قال: «هناك»، وهو يشير إلى نافذة تبعد عنا عشرة أمتار. كان القسم العلوي من

النافذة مفتوحاً، ورأيت دخاناً يتسرب منه. عبرت الشارع حتى منتصفه لأرى النافذة بشكل أفضل، وأيضاً حتى ألبي مطالبته الشديدة لي بالابتعاد. كانت الغرفة في الداخل منارة بمصباحين اثنين، وكانت مليئة بالمعدات والكابلات. دلاء الدخان، وصناديق الأدوات، والمثاقب، ولفافات من المواد العازلة، وسلّمان قابلان للطي. كان الدخان يتلوى بطيئاً بين هذه الأشياء كلها ويشق طريقه.

سألته: «هل اتصلت بالإطفاء؟»

هز رأسه بالإيجاب: «إنهم قادمون».

رفع هاتفه إلى أذنه من جديد لكنه عاد فأنزله بعد لحظة.

كنت قادراً على رؤية الدخان يرسم أشكالاً جديدة في الداخل ويملأ الغرفة تدريجاً بينما كان الرجل يجيء ويذهب بحركة عصبية على الجانب الآخر من الشارع.

قلت له: «لا أستطيع رؤية اللهب. هل تراه أنت؟»

قال: «إن الدخان يخنق النار».

وقفت هناك بضع دقائق، لكني أحسست بالبرد ولم يبدُ لي أن هنالك شيء يحدث حقاً فتابعت سيري في اتجاه البيت. وعندما بلغت إشارة المرور في سفيفاغن، سمعت صفارات سيارات الإطفاء قبل أن تظهر أمامي عند قمة التل. استدارت الرؤوس كلها من حولي. كان ما في صوت صفارات الإطفاء من إيحاء بالإلحاح والاستعجال متناقضاً بشكل غريب مع تقدمها البطيء هابطة ذلك التل. صارت الإشارة خضراء في تلك اللحظة فعبرتُ الشارع في اتجاه السوبرماركت.

لم أستطع النوم تلك الليلة. عادة أغفو خلال دقائق بصرف النظر عما يكون في اليوم الذي انقضى من تعب أو اضطراب، وبغض النظر عما قد يكون في اليوم التالي من توقعات مزعجة. وإذا تناسيت فترة أصبت فيها بحالة المشي خلال النوم، فإنني أنام دائماً نوماً عميقاً إلى أن يأتي الصباح. لكني عرفت في تلك الليلة، عندما وضعت رأسي على الوسادة وأغمضت عينَيّ، أن النوم لن يأتي أبداً. كنت مستيقظاً تماماً فظللت راقداً أصغي إلى أصوات المدينة تعلو وتنخفض بالتوافق مع النشاط البشري في الخارج. رحت أصغي أيضاً إلى الأصوات المنبعثة من الشقق التي فوقنا والتي تحتنا؛ أصوات خفتت شيئاً بعدَ شيء إلى أن صرت لا أسمع غير صوت مكيفات الهواء بينما راح عقلي يندفع أماماً وخلفاً. كانت ليندا نائمة إلى جانبي. وكنت أعرف أيضاً أن للجنين

الذي تحمله في رحمها تأثير كبير على أحلامها التي كانت متعلقة بالماء بشكل متكرر يدعو إلى القلق: موجات هائلة تتحطم على شواطئ بعيدة حيث ترى نفسها سائرة؛ ومياه تغرق شقتنا أو تملؤها كلها أحياناً... تتصبب على الجدران أو ترتفع خارجة من المغاسل والمراحيض؛ وبحيرات في أماكن جديدة في المدينة، تظهر تحت محطة السكة الحديدية حيث يمكن أن تكون قد تركت طفلتها في واحدة من خزائن الأمتعة وما عادت قادرة على الوصول إليها، أو حيث تختفي الطفلة بكل بساطة بينما تكون يداها مشغولتين بحمل أكياس كثيرة. كانت أيضاً تأتيها أحلام ترى فيها أنها ولدت طفلاً له وجه شخص بالغ، أو أنه تبين عدم وجود طفل على الإطلاق وأن كل ما خرج منها خلال الولادة ما كان إلّا ماء.

وأحلامي أنا؛ كيف كانت أحلامي؟ لم أحلم بالطفل على الإطلاق، ولا مرة واحدة! وكان هذا يرهق ضميري أحياناً. أقول هذا لأنك إذا اعتبرت أن ما يجري في أنحاء عقلك الواعي من غير إرادة منك شيئاً أكثر تعبيراً عن الحقيقة من تلك الأفكار التي تستطيع التحكم فيها، وهذا ما أفترضه، يصبح من الواضح تماماً أن مغزى انتظار ولادة الطفل ما كان ذا أهمية خاصة عندي. لكن، يمكنني القول من ناحية أخرى إن لا شيء كان ذا أهمية خاصة عندي. بعد أن بلغت العشرين، لم يحدث إلّا نادراً أن حلمت بأي شيء له صلة بحياتي. كان ذلك كأنني، في أحلامي، لم أكبر أبداً: كنت لا أزال طفلاً محاطاً بالأشخاص أنفسهم الذين عرفتهم في طفولتي وبالأماكن نفسها التي أحاطت بي في طفولتي. ومع أن الأحداث التي كانت تجري هناك كانت جديدة كل ليلة فإن الإحساس الذي تتركه في نفسي ظل على حاله دائماً. كان إحساساً مستمراً بالخزي. وكثيراً ما كانت ساعات كثيرة تمضي بعد استيقاظي قبل أن يفارق ذلك الإحساس جسدي. ثم إنني عندما أكون واعياً لا أكاد أتذكر شيئاً من طفولتي كلها؛ كما أن الشيء القليل الذي أتذكره لا يثير شيئاً في نفسي؛ وبالطبع، كان هذا يخلق نوعاً من التوازي أو الازدواج بين الماضي والحاضر ضمن نظام غريب يرتبط فيه الليل والأحلام بالذاكرة ويرتبط النهار والصحو بالنسيان.

كان الأمر مختلفاً منذ بضع سنين فقط. قبل انتقالي إلى ستوكهولم؛ كنت أحس بأن هنالك استمرار وتواصل في حياتي كما لو أنها ممتدة من الطفولة إلى الزمن الحاضر من غير انقطاع. متماسكة بفعل صلات جديدة ضمن نماذج معقدة ذكية حيث تستطيع

كل ظاهرة أراها أن تثير ذكريات تحرك مشاعر كثيرة في نفسي: مشاعر بعضها معروف المصدر وبعضها الآخر من غير مصدر معروف. كنت ألتقي أشخاصاً من بلدات ومدن زرتها أو عشت فيها. وكانوا يعرفون أشخاصاً التقيتهم من قبل. كانت تلك شبكة من العلاقات، بل شبكة وثيقة الترابط أيضاً. أما عندما انتقلت إلى ستوكهولم، فقد صار هذا الانبعاث للذكريات قليلاً، ثم صار نادراً. ثم اختفى تماماً ذات يوم. أقصد القول إنني ظللت قادراً على التذكر، لكن ما حدث هو أن الذكريات ما عادت تثير شيئاً في داخلي، لا تَوْقاً، ولا رغبةً في العودة... لا شيء. إنها ذكريات فحسب مع أثر لا يكاد يُحَسّ من إحالةٍ إلى أشياء مرتبطة بها.

جعلتني هذه الفكرة أفتح عينيّ. رقدت ساكناً تماماً ورحت أنظر إلى كرة المصباح المصنوعة من ورق الأرز كأنها قمر مصغّر متدلٍّ من السقف في تلك الظلمة فوق رأس السرير. ما كان ذلك التحول شيئاً أسفتُ لحدوثه. أقول هذا لأن الحنين إلى الماضي ليس أمراً عديم الحياء فحسب، بل هو خداع أيضاً. ما الذي يمكن أن يخرج به أي شخص في العشرينات من توقه وحنينه إلى سنوات طفولته؟ ... أو من حنينه إلى شبابه؟ هذا شيء أشبه بالمرض.

استدرت ونظرت إلى ليندا. كانت مستلقية على جانبها ووجهها إلى ناحيتي. كان بطنها كبيراً إلى حد يجعل من الصعب إدراك صلته ببقية أجزاء جسدها رغم أنها كانت منتفخة أيضاً. البارحة فقط كانت واقفة أمام المرآة تضحك من ثخانة فخذيها.

كان الجنين راقداً مسنداً رأسه في حوضها. وسوف يظل مستلقياً هكذا إلى أن تأتي لحظة الولادة. قالوا لنا في وحدة التوليد إن من الطبيعي تماماً أن يمتنع الجنين عن الحركة لفترات طويلة. كان قلبه ينبض؛ وعما قريب، عندما يشعر أن الوقت قد حان، سيبدأ مرحلة الولادة بنفسه بالتعاون مع جسدها الذي ما عاد يتسع له.

نهضت بحذر ومضيت إلى المطبخ لأشرب كأساً من الماء.

كانت عدة جماعات من أشخاص متقدمين في السن واقفة أمام مدخل صالة نالين للموسيقى. كانوا واقفين يتحدثون. يجري مرة في كل شهر تنظيم حفلة راقصة من أجلهم فيأتون إليها جماعات. يأتون رجالاً ونساء بين الستين والتسعين في أفضل ملابسهم. عندما أراهم مصطفّين، متحمسين، سعداء، يؤلمني هذا في مكان عميق في روحي. لفت واحد منهم نظري بشكل خاص. كان في بدلة صفراء شاحبة

اللون وحذاء رياضي أبيض وقبعة من القش على رأسه. رأيته يظهر أول الأمر ماشياً على قدمين غير ثابتتين قرب تقاطع الطرق عند بوابة دافيد باغارس ذات مساء في شهر أيلول؛ لكن ملابسه لم تكن الشيء الذي جعله متميزاً عن الآخرين: كان تميزه نابعاً من الحضور الذي يشعّ منه. ففي حين كنت أنظر إلى الآخرين باعتبارهم جزءاً من مجموع... رجال متقدمون في السن آتون لقضاء وقت طيب مع زوجاتهم، أي أشخاص يتركون ذهنك لحظة تفارقهم عيناك... كان ذلك الرجل وحيداً هنا حتى عندما وقف خارج الصالة متحدثاً مع الآخرين. إلّا أن الشيء الأكثر إثارة للارتياب فيما يتعلق بهذا الرجل كان قوة الإرادة الظاهرة عليه... قوة فريدة ضمن هذه المجموعة من الناس. عندما خطا داخلاً الردهة المزدحمة فاجأني أنه كان يبحث عن شيء ما وأنه لن يعثر عليه هناك ولن يعثر عليه في أي مكان آخر. لقد تجاوزه الزمن، مر به، ومعه تجاوزه العالم أيضاً.

في الخارج، توقفت سيارة تاكسي على الرصيف. أغلق أفراد المجموعة الأكثر قرباً مني مظلاتهم ونفضوا الثلج عنهم بحركات مازحة ثم دخلوا. ومن آخر الشارع كانت سيارة شرطة تقترب من المكان. كانت أضواؤها الزرقاء تدور، لكن من غير صفارة. أكسب الصمت هذا المشهد لمسة موحية بالشؤم. ثم جاءت سيارة شرطة أخرى. تباطأت حركة السيارتين عند مرورهما أمام نافذتي، وعندما سمعتهما تتوقفان في الخارج وضعت كأس الماء على طاولة المطبخ ومضيت إلى النافذة في غرفة النوم. رأيت سيارتَيْ الشرطة متوقفتين واحدة خلف الأخرى عند «يو إس فيديو». كانت الأولى سيارة دورية عادية، أما الثانية فكانت سيارة مغلقة. رأيت باب تلك السيارة الخلفي ينفتح عند وصلت إلى تلك النافذة. جرى ستة من رجال الشرطة إلى مدخل المحل ثم اختفوا داخل البناء، وبقي اثنان منتظرَيْن أمام سيارة الدورية. رأيت رجلاً في الخمسينيات يمشي متجاوزاً سيارتي الشرطة. لم يلق إلّا نظرة عابرة. أحسست أنه كان يعتزم دخول المحل لكنه ذعر عندما رأى الشرطة في الخارج. طيلة النهار، يتدفق تيار منتظم من الرجال داخلاً إلى «يو إس فيديو»، وخارجاً منه. وبما أنني أعيش هنا منذ قرابة سنة كاملة فإنني أستطيع أن أخمن بنسبة تسعة من عشرة مَن من الرجال سيدخل ومن منهم سيتابع السير. كانت لهم جميعاً لغة جسد واحدة. يمشون مثلما يفعلون عادة. وعندما يصلون يفتحون الباب بحركة يقصدون جعلها تبدو كأنها امتداد طبيعي

لما حدث قبل ذلك. كانوا شديدي الحرص على عدم النظر حولهم... هذا ما يلاحظه المرء. كان يبدو من مظهرهم أنهم يحاولون أن يظهروا طبيعيين، لا عندما يدخلون فقط، بل عندما يخرجون أيضاً. ينفتح الباب، ومن غير توقف، يبدون كأنهم ينزلقون خارجاً ويسيرون على الرصيف منضمين إلى حركة الناس بطريقة يفترض أن تعطي انطباعاً بأنهم يتابعون سيرهم العادي الذي بدأ قبل بنايتين. كانوا رجالاً من مختلف الأعمار. من السادسة عشرة إلى السبعين. وكانوا من مختلف الشرائح الاجتماعية. يبدو على بعضهم كأن ارتياد هذا المكان المهمة الوحيدة في حياته؛ ويبدو غيرهم كأنهم يأتون إليه في طريق عودتهم من العمل أو عند الصباح بعد قضاء ليلة في الخارج. لم أدخل ذلك المكان بنفسي، لكني أعرف طبيعته تماماً: السلم الطويل الهابط، وصالة القبو العميقة المعتمة حيث يدفع المرء رسم الدخول، وصف المقصورات السوداء المزودة بشاشات تلفزيونية، والأفلام الكثيرة التي يختار المرء من بينها ما يعجبه (بحسب تفضيلاته الجنسية)، والمقاعد السوداء المصنوعة من الجلد الصناعي، ولفافات ورق المرحاض على المقعد المجاور.

ذات مرة، زعم أوغست تسريندبرغ بجديته العميقة المختلّة أن النجوم في السماء ليست إلّا ثقوباً لاستراق النظر في جدار. كنت أتذكر هذا أحياناً عندما أراقب تيار الأنفس البشرية غير المنتهي الذي يهبط هذا السلم للاستمناء في ظلمة مقصورات القبو خلال مشاهدة الشاشات المضاءة. كان العالم مغلقاً من حولهم. كانوا معزولين عن العالم، وكان النظر عبر هذه الشاشات واحداً من طرق النظر إلى الخارج. ما كانوا يخبرون أحداً عما يرونه لأنه شيء مُنتمٍ إلى ما لا يصُحّ ذكره؛ إنه غير متسق مع أي شيء من الأشياء التي تنطوي عليها الحياة العادية، إلّا أن معظم من يذهبون إلى ذلك المكان رجال عاديون. على أي حال، وإذا كان للمرء أن يحكم على سلوكهم، حيث لا يتكلم أحد منهم ولا ينظر إلى الآخرين، حيث يكون كل منهم منفرداً بنفسه... من لحظة هبوط السلم، إلى رفوف الأفلام، إلى طاولة الدفع، إلى المقصورة، ثم عودة إلى الدرج. لا يمكن أن تغيب عن أذهانهم حقيقة أن هنالك شيء عميق يدعو إلى الضحك من هذا كله: هذا الصف من الرجال الجالسين وقد أنزل كل منهم بنطلونه حتى الركبتين، كل في مقصورته؛ يلهث ويئن ويشد قضيبه بينما يشاهد أفلاماً لنساء يضاجعن خيولاً أو كلاباً أو لرجال مع رجال آخرين كثر؛ لكن أحداً

منهم ما كان ليستطيع أخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار لأن الضحك الحقيقي والرغبة الحقيقية أمران غير منسجمين... الرغبة هي ما دفعهم إلى هذا المكان. لكن، لماذا إلى هذا المكان؟ كل فيلم تستطيع مشاهدته في «يو إس فيديو» تستطيع أن تجده على الإنترنت! وهذا يعني أنك تستطيع مشاهدته في عزلة كاملة من غير أن يراك أشخاص آخرون. إذن، لا بد من وجود شيء في هذا الوضع نفسه، في هذا الوضع الذي لا يصح ذكره أمام أحد، شيء يبحثون عنه. قد يكون ذلك الشيء هو وضاعته أو بشاعته أو وساخته، أو حالة الانعزال عن العالم. ليست لدي فكرة أبداً لأن هذا ميدان غريب بالنسبة لي؛ لكنني لم أكن أستطيع الامتناع عن التفكير فيه لأنني أرى دائماً أحداً ما نازلاً إلى ذلك القبو كلما نظرت في ذلك الاتجاه.

ما كان ظهور الشرطة أمراً غير معتاد. لكنهم يظهرون عادة نتيجة المظاهرات التي تقام خارج هذا المكان بشكل منتظم. كانوا يتركون القبو وشأنه مثيرين سخطاً كبيراً لدى المتظاهرين الذين ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً غير الوقوف هناك حاملين لافتاتهم مطلقين شعاراتهم مصحوبة بصيحات الاستنكار كلما دخل القبو أحد أو خرج منه. يفعلون ذلك تحت رقابة يقظة من رجال الشرطة الواقفين كتفاً لكتف بدروعهم وخوْذاتهم وهراواتهم.

سمعت صوت ليندا تسألني من ورائي: «ما هذا؟».

استدرتُ ونظرتُ إليها.

«هل أنت مستيقظة؟».

قالت: «إلى حد ما».

قلت لها: «لا أستطيع النوم. وهناك سيارات شرطة في الخارج. عودي إلى نومك».

أغمضتْ عينيها. وفي الشارع، انفتح باب القبو. ظهر اثنان من رجال الشرطة ثم اثنان من خلفهما. كانا ممسكين برجل بينهما بطريقة محكمة شديدة جعلت قدماه لا تطالان الأرض. بدا المشهد وحشياً، لكنني أظن أنه كان شيئاً ضرورياً لأن بنطلون الرجل كان عند ركبتيه. تركوه عندما خرجوا فسقط على ساقيه ويديه. خرج رجلا شرطة آخران. نهض الرجل واقفاً ورفع بنطلونه. قيد أحد رجال الشرطة يديه من الخلف، ثم سار به شرطي آخر إلى السيارة. وبينما

كان بقية رجال الشرطة يحتلون أماكنهم في السيارتين، خرج إلى الشارع اثنان من العاملين في القبو. وقفا ينظران إلى السيارتين تتحركان وتسيران في الشارع ثم تختفيان بعيداً. كانت يدا كل منهما في جيبي بنطلونه بينما راح لون شعرهما يبيضّ شيئاً فشيئاً تحت الثلج المتساقط.

ابتعدت عن نافذة غرفة النوم. كان ضوء المصابيح المعلقة بالكابلات فوق الشارع ينعكس خافتاً على الجدران والأرض. جلست فترة أنظر إلى التلفزيون. لكني كنت أقول في نفسي إن من الممكن أن تقلق ليندا إذا استيقظت وأتت. تستطيع كل حالة عدم انتظام، أو كل ما يوحي بإفراط ما، أن يذكرها بالفترات الجنونية التي كانت تمر بأبيها عندما كانت صغيرة. أطفأت التلفزيون وتناولت بدلاً من ذلك أحد الكتب الفنية عن الرف الذي فوق الأريكة، ثم جلست أتصفحه. كان كتاباً عن كونستابل اشتريته منذ فترة وجيزة. وكان أكثر محتوياته من الرسوم التجريبية ودراسات للغيوم والطبيعة الريفية والبحر.

لم يقتض الأمر أكثر من ترك عيني تتجولان بين هذه الصور حتى بدأت أذرف الدموع. كان الأثر الذي تركه بعض هذه الصور في نفسي كبيراً جداً. وعلى العكس تماماً، تركتني صور أخرى بارد الحس تماماً. كان هذا دليلي الوحيد في عالم الفن... المشاعر التي يثيرها في نفسي! إنه الإحساس بشيء لا تستطيع استنفاذه. الإحساس بالجمال. الإحساس بالحضور. ذلك كله مضغوط ضمن لحظات حادة يمكن أن تكون صعبة الاحتمال أحياناً. هذا غير قابل للشرح أبداً. إذا رحت أدرس الصورة التي كان لها أعظم تأثير عندي، لوحة زيتية لتشكيلة من الغيوم رسمت في السادس من أيلول 1922، فإنني لا أجد فيها شيئاً يمكن أن يفسر قوة أحاسيسي. في أعلى اللوحة رقعة من سماء زرقاء. وتحتها ضباب خفيف مُبيّض. ثم تأتي الغيوم الملتفة. بيضاء حيث يصيبها ضياء الشمس، وخضراء شاحبة في الأجزاء الظليلة قليلاً، وخضراء داكنة أو شبه سوداء عندما تبلغ كثافتها أقصاها وتكون الشمس بعيدة عنها. أزرق وأبيض وتركواز وأسود مخضرّ. هذا كل شيء. قال النص المكتوب تحت الصورة إن كونستابل رسمها في هامستيد وقت الظهيرة، لكن شخصاً اسمه ويلكوكس شكك في دقة التاريخ لأن هنالك لوحة أخرى مرسومة في اليوم نفسه وقت الظهر بين الثانية عشرة والواحدة لكن السماء فيها تبدو مختلفة ويبدو الجو ماطراً. إلّا أن حجته تلك تفقد قيمتها عند التدقيق في

سجلات الطقس في لندن لذلك اليوم لأن ما ورد فيها عن الغيوم يمكن أن يصحّ على اللوحتين معاً.

لقد درست تاريخ الفن؛ وكنت معتاداً على وصف الأعمال الفنية وتحليلها. لكني لم أكتب أبداً عن تجربة الفن نفسها، وهذا هو كل ما له أهمية الآن. لم أكتب لا لأنني لم أستطع الكتابة فحسب، بل أيضاً لأن الأحاسيس التي تثيرها اللوحات في نفسي مخالفة لكل ما تعلمته عن معنى الفن وغايته. وهذا ما جعلني أحتفظ بأحاسيسي لنفسي. لقد تجولت في المعرض الوطني في ستوكهولم، وفي المعرض الوطني في أوسلو، وكذلك في لندن، ونظرت إلى الأعمال الفنية هناك. كان هنالك نوع من الحرية في هذا الأمر. لم أر حاجة إلى تبرير مشاعري، وما كان هنالك أحد يتعين عليَّ تقديم حساب أمامه ولا أسئلة أجيب عنها. حرية، لكنها ليست سلاماً؛ وذلك لأنني كنت أشعر باضطراب كلما ابتعدت عن تلك اللوحات مع أن من المفترض أنها لوحات فرحة جميلة (مثل المناظر الطبيعية القديمة التي رسمها كلاود). كان ذلك بسبب ما تمتلكه تلك اللوحات، بسبب جوهر وجودها، ولأنها لانهائية، غير قابلة للاستنفاذ، وكذلك لأن ما تطبعه في نفسي كان نوعاً من الرغبة. لا أستطيع شرح الأمر بأفضل من هذا. عندي رغبة في أن أكون داخل هذا الشيء الذي لا يُستنفذ، الشيء الذي لا آخر له. هكذا كان إحساسي في هذه الليلة. جلست أتصفَّح كتاب كونستابل نحو ساعة تقريباً. وظللت أعود إلى صورة الغيوم المخضرّة فكانت تستدعي المشاعر نفسها كل مرة. كان ذلك كأنّ شكلين مختلفين من الانعكاس ينبثقان ثم يتهاويان في وعيي: واحدٌ متصل بما في الوعي من أفكار ومناقشة منطقية، وآخر متصل بما فيه من أحاسيس وانطباعات. حالتان مختلفتان، متعارضتان، لكن كلاً منهما تلغي ما تأتي به الأخرى. كانت لوحة رائعة ملأتني بالمشاعر كلها التي تملأني بها اللوحات الرائعة. لكني، عندما أحاول أن أشرح السبب، أن أحدد «الرائع» فيها، أجد نفسي عاجزاً عن فعل ذلك. جعلتني تلك اللوحة أرتعش في داخلي، لكن لماذا؟ لقد ملأتني حنيناً... لكن، إلى ماذا؟ هنالك غيوم كثيرة من حولي. وهنالك ألوان كثيرة من حولي. وهنالك ما يكفي من المعلومات التاريخية المحددة. هنالك أيضاً كثرة من التركيبات المشتملة على الغيوم والألوان والمعلومات التاريخية. إن الفن المعاصر (أي الفن الذي يجب أن يكون له مغزى بالنسبة لي من حيث المبدأ) لا يعتبر الأحاسيس التي يثيرها أمراً ذا قيمة. إن

للأحاسيس قيمة ثانوية، بل لعلها منتَج جانبي غير مرغوب فيه، نوع من منتَج زائد أو، في أحسن الأحوال، مادة طيّعة قابلة للتلاعب بها. ليس لتصوير الطبيعة أي قيمة أيضاً، بل ينظر إليه على أنه شيء ساذج أو مرحلة من التطور تم تجاوزها منذ وقت طويل. ما عاد هنالك كبير معنى في هذا الأمر. لكن هذه المناقشة كلها تختفي في لحظة واحدة عندما أركز عينيَّ على اللوحة من جديد، تختفي في فورة الطاقة والجمال التي تنبثق في داخلي. أسمع صوتاً يقول: نعم، نعم، نعم. هنالك هو الأمر. هنالك حيث يجب أن أذهب. لكن، لمن أقول نعم؟ وأين يتعيّن عليَّ الذهاب؟

كانت الرابعة صباحاً. يعني هذا أن الوقت لا يزال ليلاً. ما كنت قادراً على الذهاب إلى المكتب في الليل. أما عندما تصبح الساعة الرابعة ونصف، فمن المؤكد أنه وقت الصباح!

نهضت ومضيت إلى المطبخ. سكبت لنفسي طبقاً من كرات اللحم والسباغيتي ثم وضعته في الفرن لأنني لم آكل منذ وقت الغداء يوم أمس. أخذت حماماً سريعاً حتى تمر الدقائق اللازمة لتسخين الطعام. ارتديت ملابسي، ثم أخرجت شوكةً وسكيناً وصببت كأساً من الماء. أخرجت الطبق من الفرن وجلست حتى آكل.

كان كل شيء هادئاً في الخارج، في الشوارع. الساعة التي تسبق الخامسة هي الوقت الوحيد الذي تنام فيه المدينة. في حياتي السابقة، خلال اثني عشر عاماً عشتها في بيرغن، كنت أسهر طيلة الليل كلما استطعت ذلك. لم أفكر في الأمر أبداً... كان شيئاً أحبه فحسب، ولهذا كنت أفعله. كان ذلك في البداية نوعاً من فكرة مثالية لدى الطلاب، فكرة أن الليل متصل بالحرية. ليس المقصود أنه كذلك بنفسه، بل من حيث أنه ردٌ على واقع يوم العمل الممتد من التاسعة إلى الرابعة، ذلك الواقع الذي كنت أعتبره مع عدد من رفاقي شيئاً متنمياً إلى الطبقة الوسطى، شيئاً يحمل قدراً كبيراً من الانصياع. أردنا أن نكون أحراراً، فكنا نسهر ليلاً. لكن استمراري في ذلك أمر له لا علاقة له بالحرية بل بحاجتي المتنامية إلى أن أكون وحدي. أفهم الآن أنني أشاطر أبي هذه النزعة. في بيته، حيث كان يعيش، كانت لديه شقة صغيرة لنفسه يمضي فيها أمسياته كلها، تقريباً... كان الليل ملكاً له وحده!

أزلت البقايا من الطبق ووضعته في آلة غسل الأطباق، ثم دخلت غرفة النوم. فتحت ليندا عينيها عندما توقفت عند السرير.

قلت لها: «إن نومك خفيف فعلاً».

سألتني: «كم الساعة الآن؟».

«الرابعة والنصف».

«وهل سهرت طيلة الليل؟».

أومأت برأسي.

«أظن أنني سأذهب إلى المكتب. هل يزعجك هذا؟».

أنهضت جسمها قليلاً: «الآن؟».

قلت: «لا أستطيع النوم. من الأفضل أن أنفق هذا الوقت في العمل».

قالت: «حبيبي... تعال واستلق إلى جانبي».

قلت: «ألا تسمعين ما أقوله لك؟»

قالت: «لكني لا أريد أن أكون وحيدة هنا. ألا تستطيع الذهاب إلى المكتب في الصباح الباكر؟»

قلت: «إنه الصباح الباكر الآن».

قالت: «ليس بعد، لا نزال في منتصف الليل. ثم إنني يمكن أن ألد في أي لحظة. يمكن أن يحدث ذلك بعد ساعة، وأنت تعرف هذا».

قلت لها: «وداعاً»، ثم أغلقت باب الغرفة من خلفي.

وفي الصالة، وضعت معطفي وقبعتي وحملت الحقيبة وخرجت. ارتفع هواء بارد من الرصيف الذي يكسوه الثلج. كانت آلية إزالة الثلج تعمل في آخر الشارع وكان صوت اصطدام شفرتها المعدنية الثقيلة بإسفلت الطريق مدوياً. تريد ليندا مني أن أبقى دائماً في البيت! لماذا يكون مهماً أن أبقى هناك عندما تكون نائمة فلا تلاحظ وجودي أصلاً؟

كانت السماء معلقة فوق سطوح البنايات، سوداء، ثقيلة. لكن هطول الثلج توقف. بدأت السير. مرت بي آلية إزالة الثلج. كان محركها يزمجر وسلاسلها تقعقع وشفرتها تكسح ثلج الشارع. جحيم صغير من الضجيج. استدرت صوب بوابة دافيد باغارز المهجورة الهادئة، وبعدها صوب مالمسكيلنادغاتان حيث تشد عينيك دائماً الحروف على لافتة مطعم «KGP». توقفت أمام مدخل بيت العجزة. كان ما قالته ليندا صحيحاً. يمكن أن تبدأ الولادة في أي لحظة. وهي لا تحب أن تكون وحيدة. فما الذي

أفعله هنا؟ ما الذي أنا ذاهب لفعله في المكتب عند الرابعة والنصف صباحاً؟ الكتابة؟ هل أنا ذاهب لأفعل اليوم ما لم أنجح في فعْله منذ خمس سنوات؟

ما أشد حماقتي! إنها تنتظر ولادة طفلنا ـ ولادة طفلي. لا يجوز أن تمر بذلك وحدها. استدرت عائداً. وعندما وضعت حقيبتي وبدأتُ أخلع معطفي، سمعت صوتها آتياً من غرفة النوم.

«أهذا أنت يا كارل أوفه؟».

قلت: «نعم». ثم دخلت الغرفة لأراها. نظرت إليَّ متسائلة.

قلت لها: «أنت محقة. آسف لأنني ذهبت».

قالت: «أنا التي يجب أن تعتذر. عليك أن تذهب إلى عملك طبعاً».

قلت: «سوف أذهب في وقت لاحق».

قالت لي: «لكني لا أريد تعطيلك. سأكون على ما يرام هنا. أعدك بهذا. اذهب. سأتصل بك إذا حدث شيء».

قلت وأنا أستلقي إلى جوارها: «لا».

ابتسمت: «لكن، يا كارل أوفه...»

أحببت طريقة نطقها اسمي. أحب هذا دائماً.

قالت: «أنت الآن تقول ما كنت أقوله لك، أما أنا أقول ما كنت تقوله أنت. لكني أعرف أنك تقصد العكس في حقيقة الأمر».

قلت: «هذا أكثر تعقيداً مما أستطيع فهمه. أليس من الأفضل أن ننام. وبعد ذلك نفطر معاً ثم أذهب».

قالت وهي تدس نفسها فيّ: «لا بأس». كانت حارة كأنها فرن. مررت أصابعي في شعرها وقبَّلتها قبلة خفيفة على فمها. أغمضتْ عينيها ومالت برأسها إلى الخلف.

«ماذا قلتِ؟».

لم تجبني. أمسكت بيدي ووضعتها على بطنها.

قالت: «هذا هو. هل تحس به؟».

أحسستُ بشيء يدفع بجلدها تحت كفي.

قلت: «أوووه!» ثم رفعت كفي لأنظر. رأيت ما كان يتحرك ويدفع كفي... أهو

ركبة أم قدم أم مرفق أم يد؟ هذا يشبه مراقبة شيء يتحرك تحت سطح ماء هادئ. اختفى من جديد.

قالت ليندا: «إنها نافذة الصبر. أستطيع أن أحس هذا».

«هل كانت تلك قدماً؟».

«مممم».

قلت: «كان ذلك كأنها تجرب لترى إن كانت تستطيع الخروج بهذه الطريقة».

ابتسمت ليندا.

«هل يؤلمك هذا؟» سألتها.

هزت رأسها.

«أستطيع الإحساس بها، لكنها لا تؤلمني. الأمر غريب فحسب».

«أفهم هذا».

التصقتُ بها ووضعت كفي على بطنها من جديد. سمعت صوت شيء يلقَى في علبة البريد في الصالة. سارت شاحنة في الخارج. لا بد أنها كبيرة لأن النوافذ اهتزت. أغمضتُ عيني. وعندما بدأت الأفكار والصور الواعية كلها تتحرك في اتجاهات لا سلطة لي عليها وأحسست أنني راقد أنظر إليها كأن عقلي صار كلبَ راعٍ كسولاً، عرفت أن النوم قد صار قريباً مني. ما عاد عليَّ إلّا أن أدخل سراديبه المظلمة.

استيقظت على صوت ليندا في المطبخ. قالت الساعة الموضوعة على الرف إنها الحادية عشرة الآن. اللعنة! لقد ضاع يوم العمل.

ارتديت ملابسي وذهبت إلى المطبخ. كان البخار يتصاعد من وعاء القهوة الصغير على المدفأة. وكان على الطاولة طعام وعصير. رأيت قطعتين من الخبز المحمص موضوعتين في طبق. قفزت قطعتان ثانيتان من آلة التحميص.

سألتني ليندا: «هل نمت جيداً؟».

قلت وأنا أجلس إلى جانبها: «كان نوماً عميقاً». وضعت الزبدة على الخبز المحمص فذابت على الفور وملأت المسام الصغيرة على السطح. تناولت ليندا وعاء القهوة وشغلت موقد الطهي. كانت ضخامة بطنها تجعلها تبدو كأنها مائلة إلى الخلف دائماً. وعندما تفعل شيئاً بيديها يبدو كأنها تفعله في الناحية الأخرى من جدار غير مرئي.

كانت السماء رمادية في الخارج. لكن لا بد أن هنالك بعض الثلج الباقي على أسطح البيوت، لأن الغرفة كانت أكثر إضاءة من المعتاد.

صبت القهوة في الفنجانين اللذين أخرجتهما، ثم وضعت واحداً أمامي. كان وجهها منتفخاً.

«هل تشعرين أن الوضع صار أسوأ؟».

هزت رأسها: «يؤلمني جسدي كله. ولدي بعض الحرارة أيضاً».

جلست متثاقلة وصبت بعض الحليب في قهوتها.

قالت: «شيء عادي! لا أجد غير هذا الوقت لكي أمرض... عندما أكون في أقصى حاجة إلى طاقة جسمي».

قلت: «قد تتأخر الولادة. لن يفعل جسمك شيئاً إلى أن يكون مستعداً تماماً».

نظرت إليَّ محدّقة. ابتلعت آخر قطعة من الخبز وصببت العصير في الكأس. إن كان هنالك شيء تعلمته في الأشهر الأخيرة هو أن كل ما تسمعه عن تقلب مزاج المرأة الحامل واستحالة التنبؤ بمزاجها كان صحيحاً.

قالت: «ألا تفهم أن هذه مصيبة؟».

نظرت في عينيها. شربت جرعة من العصير.

قلت: «نعم، نعم، بالطبع. لكن، كل شيء سيجري بخير. سيكون كل شيء على ما يرام».

قالت: «سيكون كل شيء على ما يرام طبعاً. لكن ليس هذا ما أقصده. أتحدث عن أنني لا أريد أن أكون مريضة ولا ضعيفة عندما ألد».

قلت: «أفهم هذا. لكنك لن تكوني مريضة. لا تزال أمامك بضعة أيام».

تابعنا الأكل صامتين.

نظرت إليَّ من جديد. إن لها عينان رائعتان. عيناها خضراوان رماديتان قليلاً؛ وأحياناً... عندما تكون متعبة، يظهر فيهما شيء من الحَوَل. هذا الحول ظاهر في الصورة التي وضعتها على غلاف مجموعتها الشعرية التي أصدرتها منذ فترة... عينان توحيان بهشاشة لا تتفق مع تعبير الثقة بالنفس على وجهها، لكنها لا تطغى عليه أيضاً... عينان تجعلانني كُالمنوَّم مغناطيسياً.

قالت: «إنني آسفة. لكني متوترة الأعصاب بعض الشيء».

قلت: «لا حاجة إلى الأسف. أنت مستعدة تماماً للولادة».

لقد كانت مستعدة حقاً. كرست نفسها بالكامل لهذه المهمة: قرأت أكواماً من الكتب، واشترت شريط تسجيل للمساعدة في التأمل. إنها تستمع إليه كل ليلة. في ذلك الشريط صوت يكرر بطريقة تخدر الأعصاب أن الألم ليس خطراً، وأن الألم جيد، وأن الألم ليس خطراً، وأن الألم جيد... وأن الألم ليس خطراً، وأن الألم جيد. ثم إننا ذهبنا معاً إلى دورة جعلونا فيها نتجول في قسم الولادة الذي من المقرر أن تلد فيه. كانت تستعد لكل جلسة مع الممرضة المختصة بالولادة فتحضّر أسئلتها وتسجل، بكل أمانة، كل ما تسمعه منها من معلومات. كما أرسلت إلى قسم الولادة (مثلما طلبوا منها) قائمة بالأشياء التي تفضلها قالت فيها إنها متوترة، وإنها في حاجة إلى قدر كبير من التشجيع لكنها في الوقت نفسه قوية وراغبة في الولادة من غير استخدام أي نوع من أنواع التخدير.

فاجأني هذا وأزعجني. لقد ذهبتُ بالطبع إلى قسم الولادة. ورغم محاولتهم خلق جو بيتي... الأرائك والسجاد واللوحات على الجدران ومشغّل الموسيقى في الغرفة التي ستجري فيها الولادة، إضافة إلى غرفة لمشاهدة التلفزيون ومطبخ حيث تستطيع إعداد طعامك بنفسك، مع غرفة إضافية لما بعد الولادة... رغم ذلك كله، ما كان ممكناً إخفاء حقيقة أن امرأة أخرى قد ولدت في الغرفة نفسها قبل وقت قصير. ورغم تنظيف الغرفة بعد الولادة على الفور، وتغيير مفارش السرير والمناشف، فإن هذا قد حدث مرات كثيرة جداً إلى حد جعل مسحة من رائحة معدنية تظل عالقة في الهواء، رائحة دم وبراز. رأينا في الغرفة اللطيفة التي ستكون غرفتنا مدة أربع وعشرين ساعة بعد الولادة رجلاً وامرأة مع طفلهما المولود حديثاً. كانا مستلقيين في السرير نفسه. إن ما كان بالنسبة إلينا أمراً جديداً يحمل تغييراً في حياتنا، كان دورة لا تنتهي بالنسبة إلى العاملين في هذا المستشفى. تكون الممرضات مسؤولات دائماً عن عدة ولادات في وقت واحد؛ وهن يدخلن ويخرجن دائماً إلى عدد من الغرف التي فيها نساء مختلفات يصرخن ويتألمن ويزعقن ويطلقن الأنين، كل واحدة بحسب المرحلة التي بلغتها في ولادتها. يستمر هذا من غير انقطاع: ليلاً نهاراً، سنة بعد سنة. يعني هذا أنه إذا كان هنالك شيء لا تستطيع هذه الممرضات القيام به فهو العناية بشخص صاحب مطالب وتوقّعات متشددة على النحو الذي عبرت عنه رسالة ليندا.

نظرتْ من النافذة فتابعتُ نظرتها. على سطح البناية المقابلة، ربما على مسافة عشرة أمتار منا، كان رجل يجرف الثلج وقد أحاط بخصره حبل للأمان.

قلت: «إنهم مجانين في هذه البلاد».

«ألا تفعلون هذا في النرويج؟».

«لا. هل فقدت عقلك؟».

قبل مجيئي إلى هذه المدينة بسنة واحدة، قتل صبي عندما سقطت عليه كتلة جليد من أحد السطوح. ومنذ ذلك الوقت، صاروا ينظفون السطوح كلما هطل الثلج، تقريباً. وكانت لهذا عواقب وخيمة: عندما يأتي الطقس المعتدل، تحاط الأرصفة كلها بشرائط ملونة بالأحمر والأبيض طيلة أسبوع كامل. فوضى في كل مكان.

قلت لها: «إلا أن هذا الخوف كله يؤدي إلى خلق وظائف كثيرة». قلت هذا وأنا أن أنتهي من قطعة الخبز الثانية. نهضت وشربت الجرعة الباقية من قهوتي... «إنني ذاهب».

قالت ليندا: «مع السلامة. ألا تحب استئجار بعض الأفلام في طريق عودتك؟».

وضعت الفنجان على الطاولة ومسحت فمي بظهر يدي: «بالطبع. هل تريدين أن آتيَ بأي شيء، من غير تحديد؟»

«نعم. اختر الأفلام أنت».

نظَّفت أسناني في الحمام. لحقت بي ليندا عندما ذهبت إلى الصالة لأرتدي معطفي.

سألتها وأنا أتناول المعطف من الخزانة بإحدى يديّ وألف الوشاح حول رقبتي باليد الأخرى: «ماذا ستفعلين اليوم؟».

«لا أدري! قد أذهب وأمشي قليلاً في الحديقة. قد أستحم أيضاً».

«هل تشعرين بأنك على ما يرام الآن؟».

«نعم. إنني بخير».

انحنيت لأربط حذائي فمالت فوقي وهي تسند ظهرها بذراعها.

قلت: «لا بأس إذن. إنني ذاهب».

وضعت قبعتي على رأسي وحملت حقيبتي.

قالت: «لا بأس، مع السلامة».

«اتصلي بي إن كان هنالك أي شيء».
«سأتصل».
تبادلنا قبلة الوداع، ثم أغلقت الباب خلفي. كان المصعد صاعداً إلى الأعلى فلمحت جارتنا في الطابق الذي فوقنا عندما مرت أمامي. كان وجهها منكساً قليلاً أمام مرآة المصعد. إنها محامية ترتدي عادة بنطلوناً أسود أو تنورة سوداء قصيرة تصل إلى الركبة وتحيِّي الآخرين بطريقة جافّة مقتضبة... يكون فمها معوجاً دائماً، ناطقاً بالكره، تجاهي أنا على الأقل! كان شقيقها ينام عندها من وقت لآخر. إنه رجل نحيل داكن العينين كثير الحركة خشن المظهر، لكنه رجل جذاب لفت انتباه إحدى صديقات ليندا فوقعت في غرامه. إن بينهما علاقة من النوع الذي يبدو لي قائماً على احتقاره لها بقدر ما تعبده من ناحيتها. وتبدو حقيقة أنه يعيش في بناية صديقتها مزعجة له. كانت تبدو في عينيه نظرة شخص محاصر عندما نتوقف أحياناً ونبادله بعض الكلمات. إلّا أنني أظن، رغم ذلك، أن لإحساسي هذا علاقة بكوني أعرف عنه أكثر مما يعرف عني؛ وقد تكون هنالك أسباب أخرى... من بينها أنه مدمن مخدرات على سبيل المثال.

لا أعرف أي شيء عن هذا، ولا علم لي بهذه العوالم. إنني ساذج في هذا المجال مثلما يقول عني غيير، صديقي الحقيقي الوحيد في ستوكهولم، عندما يزعم أنني أشبه الطرف المخدوع في لوحة «غشاشو الورق» للرسام كارافاجيو.

عندما صرت في مدخل البناء قررت أن أدخن سيجارة قبل أن أتابع طريقي. سرت في الممر وعبرت غرفة الغسيل ثم خرجت إلى الفناء الخلفي حيث وضعت حقيبتي على الأرض واستندت إلى الجدار ورفعت رأسي ناظراً إلى السماء. كان أنبوب للتهوية يمر من فوقي مباشرة وقد ملأ الهواء القريب من البناء برائحة الملابس الدافئة المغسولة. ومن غرفة الغسيل، كان يمكن سماع طنين الآلات الخافت الذي يبدو غاضباً بشكل غريب بالمقارنة مع الغيوم الرمادية البطيئة السابحة عبر الهواء في الأعالي. وهنا وهناك، كانت السماء الزرقاء تظهر من خلف الغيوم كأنها سطح تنزلق عليه.

مضيت حتى السياج الذي يفصل الجزء الداخلي من الفناء عن ملعب الأطفال الذي كان مهجوراً الآن لأنهم في الداخل يأكلون في هذه الساعة من النهار. استندت بمرفقي على السياج ودخنت سيجارتي مستمتعاً بالنظر إلى البرجين المرتفعين من

كونغسغاتان. كانا مبنيَّين بأسلوب باروكي جديد، وكانا شاهدين على العقد الثالث من القرن العشرين. ملأتني رؤيتهما توقاً مثلما حدث كثيراً من قبل. كان البرجان يضاءان في الليل؛ وخلال النهار يمكنك أن تميز التفاصيل المختلفة تمييزاً واضحاً فتستطيع رؤية مقدار اختلاف المواد في الجدران عن المواد في النوافذ والتماثيل المذهبة والسطوح النحاسية المخضرة. أما الضوء الصناعي ليلاً فكان يمزج هذه الأشياء معاً. لعل الضوء نفسه هو ما يفعل ذلك، أو لعل الأمر نتيجة الامتزاج بين الضوء والخلفية كلها. مهما يكن السبب، كانت التماثيل تبدو كأنها «تتكلم» في الليل. لا أقصد أنها تصبح حية، فهي تظل عديمة الحياة مثلما كانت من قبل، بل أن تعبيرَ انعدام الحياة فيها كان يتغير... كأنه يزداد على نحو ما. خلال النهار، لا وجود لشيء؛ وخلال الليل، يعثر هذا اللاشيء على تعبير عنه.

أو لعل السبب هو أن النهار مليء بأشياء كثيرة أخرى تشتت الانتباه. حركة السيارات في الشوارع، والناس على الأرصفة وعلى السلالم وفي النوافذ، وطائرات هليكوبتر تنطلق في السماء كأنها يعاسيب، وأطفال يمكن أن يخرجوا راكضين في أي لحظة وأن يدبّوا دبيباً في الوحل أو الثلج أو يركبون الدراجات أو يطلقون الزلاجة الضخمة وسط هذا الملعب أو يتسلقون جسر «السفينة» المجهَّزة تجهيزاً كاملاً إلى جانب ملعبهم أو يلعبون في حوض الرمل أو في «البيت» الصغير أو يقذفون الكرات أو يكتفون بالجري هنا وهناك صائحين زاعقين، فيمتلئ الفناء بأصوات متضاربة من الصباح حتى الظهيرة كأنه جرف تتوالد فيه الطيور. ولا تقطع هذا كله إلّا سكينة وقت الطعام مثلما يحدث الآن. عندما يكونون هنا يصبح الخروج مستحيلاً، لا بسبب الضجيج الذي لا ألاحظه إلّا نادراً، بل لأن الأطفال مَيّالون إلى التجمهر حولي. حاولت المجيء إلى هذا المكان مرات قليلة في الخريف فبدأ الأطفال يتسلقون السياج المنخفض الذي يفصل الفناء إلى قسمين. كانوا يتعلقون بذلك السياج، أربعة أو خمسة منهم، ويسألونني عن أشياء كثيرة، أو يستمتعون باجتياز ذلك الخط المحرَّم ثم تجاوزي مندفعين ضاحكين. كان أهل الصبي الأكثر اندفاعاً بينهم لا يأتون إلّا في وقت متأخر. وكان من المألوف كلما عدت إلى البيت من ذلك الطريق أن أراه جالساً يلعب في حوض الرمل، وحده أو مع بعض الأطفال الذين تأخر أهلهم، أو أراه متعلقاً بالسياج عند المدخل. كنت ألقي عليه التحية أحياناً. وإذا لم يكن هنالك أحد حولنا فإنني أرفع إصبعين إلى حاجبي عندما أمر

به، أو يمكن أن أرفع له «قبّعتي». لم أكن أفعل هذا من أجله، لأنه غالباً ما يرميني بنظرة حانقة كل مرة، بل من أجلي أنا.

أسلّي نفسي أحياناً بالتفكير في أنه إذا كانت إزالة المشاعر اللطيفة الناعمة كلها أمراً ممكناً، مثلما يزال الغضروف التالف من ركبة رياضي مصاب، فكم من الحرية والانعتاق يمكن لذلك الأمر أن يأتي به. لا مزيد من النزعة العاطفية، ولا من التعاطف والشفقة...

شقت الهواء صرخة مدوية.

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآهههه

أجفلتني تلك الصرخة. صحيح أنني سمعتها مرات كثيرة من قبل لكنني لم أستطع اعتيادها. كانت الشقق السكنية في البناية التي جاءت منها، في الجهة المقابلة لملعب الأطفال، جزءاً من بيت المسنّين. تخيّلت شخصاً راقداً في سريره من غير حركة، مفصولاً عن العالم تماماً، لأن من الممكن سماع هذا الصراخ في وقت متأخر من الليل أو في الصباح الباكر أو خلال النهار. بمعزل عن تلك الصرخة، وعن رجل يدخن على إحدى الشرفات تأتيه نوبات سعال شديدة يمكن أن تستمر عدة دقائق، كان بيت المسنّين هادئاً كله. وعندما أكون عائداً من مكتبي، يحدث أحياناً أن أرى بعض العاملين في هذا المكان عبر النوافذ في الناحية الأخرى من البناء (لديهم ما يشبه غرفة استراحة هناك)؛ كما أرى مصادفة بعض النزلاء يسيرون في الشارع، مع رجال شرطة يرافقونهم إلى البيت بعض الأحيان، أو متجوّلين وحدهم في أحيان قليلة أخرى. لكنني، رغم ذلك، لم أكن ألقي كبير انتباه إلى هذا المكان.

يا للصيحة المدوّية!

كانت الستائر كلها مسدَلة، بما فيها الستارة التي خلف باب الشرفة المفتوح قليلاً الذي كان الصراخ يأتي منه. نظرت إلى تلك الشرفة بعض الوقت، ثم استدرت متجهاً صوب الباب. رأيت من نوافذ غرفة الغسيل أحد جيراننا الذين يعيشون في الطابق الذي تحتنا يطوي شراشف سرير بيضاء. أخذت حقيبتي ومضيت عبر الممر الضيق الشبيه بالسرداب، حيث كانت حاويات القمامة، ثم فتحت البوابة المعدنية وخرجت إلى الشارع مسرعاً في اتجاه مطعم «KGP» ثم عبر درجات السلم المنحدر إلى النفق.

صرت في مكتبي بعد عشرين دقيقة. علّقت معطفي ووشاحي على المشجب، ووضعت حذائي على الحصيرة الصغيرة، وصنعت لنفسي فنجاناً من القهوة، ووصلت حاسوبي بالكهرباء، وجلست أشرب القهوة وأنظر إلى صفحة العنوان في الملف إلى أن ظهرت شاشة التوقف فامتلأت الشاشة نقاطاً بيضاء لا عَدّ لها.

أميركا الروح. هكذا كان العنوان. في واقع الأمر، كان كل شيء في الغرفة يشير إلى هذا العنوان، أو إلى ما يثيره في نفسي. كانت معلقة على الجدار خلفي نسخة من لوحة «نيوتن» الشهيرة لويليام بليك التي تبدو كأنها تحت الماء. كانت إلى جانب تلك اللوحة لوحتان مؤطّرتان من رحلات تشرشل في القرن التاسع عشر اشتريتهما من لندن ذات يوم. كان في إحداهما حوت ميت وفي الأخرى خنفسة يجري تشريحها. تبيّن اللوحتان كلتاهما مراحل كثيرة. وعلى الجدار المقابل لوحة ليلية من أعمال بيدار بالكي بما فيها من سواد وخضرة. وملصق كرينواي. وخريطة المريخ التي وجدتها في عدد قديم من مجلة ناشيونال جيوغرافيك. وإلى جانبها صورتان بالأبيض والأسود لثوماس واغستروم: واحدة لفستان طفلة لامع، والأخرى لبحيرة سوداء يستطيع المرء أن يميز تحت سطحها عيني قندس. الدلفين المعدني الصغير الأخضر، والخوذة الصغيرة المعدنية الخضراء اللذين اشتريتهما ذات مرة في كريت، يقفان الآن على مكتبي. والكتب: باراكيلسوس، وباسيليوس، ولوكريتوس، وثوماس براون، وأولوف رودبيك، وأوغسطين، وتوما الأكويني، وألبيرتوس سيبا، وويرنر هيزنبرغر، ورايمون روسيل، والكتاب المقدس بالطبع، وأعمال عن النزعة الرومانسية القومية وعن خزائن الأعاجيب وعن أتلانتيس وألبريخت دورر وماكس إيرنتس والحقبتين الباروكية والقوطية، وكذلك عن الفيزياء النووية وأسلحة الدمار الشامل وعن الغابات والعلم في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ما كان هذا كله متعلقاً بالمعرفة، بل بالهالة المتولدة عنها، بالأماكن التي جاءت منها، والتي تكاد كلها تقريباً تكون خارج العالم الذي نعيش فيه الآن لكنها، رغم ذلك، كانت ضمن الحيّز الملتبس حيث تقيْم الموضوعات التاريخية والأفكار كلها.

في السنوات الأخيرة، ازدادت عندي قوة الإحساس بأن العالم صغير وبأنني أفهم كل شيء فيْه على الرغم من أن الحس السليم الذي لا يفتأ يخبرني أن العكس هو الصحيح في واقع الأمر: العالم غير محدود، ولا يُسبر غوره، وعدد الأحداث لانهائي،

والزمن الحاضر باب مفتوح يتأرجح في ريح التاريخ. لكن هذا لم يكن ما أشعر به. كنت أشعر أن العالم معروف، مكتشَف مشروح كله، وأنه ما عاد يمكن أن يتحرك في اتجاهات لا يمكن التنبؤ بها، وأن لا شيء جديداً أو مفاجئاً يمكن أن يحدث. كنت أفهم نفسي. وأفهم ما يحيط بي، وأفهم المجتمع من حولي، وإذا بدت لي ظاهرة غامضة فإنني أعرف كيفِ أتعامل معها.

لا يجوز الخلط بين الفهم والمعرفة، فأنا لا أكاد أعرف شيئاً في واقع الأمر. لكن إذا حدثت اضطرابات في أطراف جمهورية سوفياتية سابقة في آسيا على سبيل المثال، منطقة لم أسمع بمدنها وبلداتها من قبل، أماكن يكون سكانها أغراباً عني في كل شيء، من الملابس إلى اللغة إلى الحياة اليومية إلى الدين، وإذا تبين أن لهذا النزاع جذور تاريخية عميقة تعود لأحداث جرت قبل ألف عام، فإن جهلي المطبق، وانعدام معرفتي لا يحولان بيني وبين فهم ما يحدث لأن للعقل قدرة على التعامل مع أكثر الأفكار غرابة. ينطبق هذا على كل شيء. إذا رأيت حشرة لم أصادفها من قبل، فأنا أعرف أن أحداً قد رآها قبلي وصنّفها. وإذا رأيت جسماً مضيئاً في السماء أعرف أنه ظاهرة فلكية نادرة أو طائرة من نوع ما، أو ربما منطاد لمراقبة الطقس؛ وإذا كان شيئاً مهماً غير ذلك كله، فسوف تتحدث عنه الصحف في اليوم التالي. وإذا نسيت شيئاً حدث أيام طفولتي فمن الأرجح أن يكون ذلك النسيان نتيجة كبت ما؛ إذا غضبت حقاً من شيء فالأرجح أن يكون ذلك نتيجة إسقاطٍ ما، كما إن حقيقة أنني أحاول دائماً إسعاد الناس الذين ألتقيهم لها صلة بأبي وبعلاقتي معه. لا يوجد إنسان لا يفهم عالمه. فمن يكون فهمه شديد المحدودية، طفل مثلاً، يتحرك ضمن عالم أكثر محدودية وتقييداً من الشخص الذي يفهم الكثير. على أن فكرة وجود حدود للفهم هي على الدوام جزء من فهم الكثير: الاعتراف بأن العالم الذي في الخارج، أي تلك الأشياء كلها التي لا أفهمها، ليست موجودة فحسب بل أكبر دائماً من العالم الذي في الداخل. أفكر من وقت لآخر في أن ما قد حدث، ما حدث لي أنا على الأقل، كان «عالم الأطفال» حيث يكون كل شيء معروفاً، وحيث يعتمد المرء على الآخرين فيما يتعلق بالأشياء غير المعروفة: الآخرون الذين لديهم معرفة وقدرة. يعني هذا أن عالم الأطفال لم يكف عن الوجود أبداً، بل كبر واتسع فقط عبر هذه السنين كلها. عندما واجهتني في التاسعة عشرة من عمري فكرة أن العالم إنشاء لغوي، رفضت تلك الفكرة مستنداً إلى ما أدعوه

حساً سليماً، فقد كان من الواضح لي أنها فكرة لا معنى لها: القلم الذي أمسكه بين أصابعي... هل هو لغة؟ النافذة التي تلمع في الشمس؟ الفناء الذي تحت النافذة بما فيه من طلبة يجتازونه مرتدين ملابسهم الخريفية؟ أذنا المعلم؛ ويداه؟ الرائحة الواهية لتراب وأوراق أشجار على ملابس امرأة دخلت منذ لحظة وهي جالسة إلى جانبي الآن؟ صوت آلات الحفر العاملة بالهواء المضغوط التي يستعملها عمال الطرق الذين نصبوا خيمتهم عند الجهة الأخرى من كنيسة القديس يوهان؟ الهدير المنتظم لمحولات الكهرباء؟ الضجيج القادم من المدينة في الأسفل... هل يفترض أن يكون هذا الضجيج ضجيجاً لغوياً؟ سُعالي... هل هو سعال لغوي؟ لا، إنها فكرة سخيفة. العالم هو العالم الذي ألمسه وأعتمد عليه، الذي أتنفس وأبصق فيه، الذي آكل وأشرب فيه وأنزف وأتقيأ. لم أبدأ النظر إلى هذه المسألة بطريقة مختلفة إلّا بعد سنوات كثيرة. في كتاب عن الفن والتشريح قرأته منذ زمن، كان هنالك مقتطف من نيتشه يقول إن «الفيزياء أيضاً تفسير للعالم وترتيب للعالم، وهي ليست شرحاً للعالم»، ويقول إننا «نقيس قيمة العالم باستخدام تصنيفات معتمدة على عالم مختلق تماماً».

عالم مختلَق؟

نعم، العالم كبناء فوقي، العالم كروح، عديم الوزن، مجرد، من المادة نفسها التي تُنسج منها الأفكار فتتحرك فيه من غير عوائق. عالم ما عادت فيه أسرار بعد ثلاثمئة سنة من علوم الطبيعة. كل شيء مشروح، كل شيء مفهوم، كل شيء واقع ضمن آفاق الفهم البشري، من أكبر الأشياء، من الكون الذي يعود أقدم أنواره، أنوار أبعد حدوده، إلى أيام مولده قبل خمسة عشر بليون سنة، إلى أصغر الأشياء، إلى البروتونات والنترونات والميزونات داخل الذرة. حتى الظواهر التي تقتلنا نفهمها ونعرفها، كالبكتيريا والفيروسات التي تغزو أجسادنا وتهاجم خلايانا فتجعلها تتضخم وتموت. لزمن طويل، كانت هذه الطبيعة وحدها وقوانينها هي ما جُعِل مجرداً شفافاً بهذه الطريقة؛ أما الآن، في زماننا المتمرد هذا، فإن ذلك لا يسري على قوانين الطبيعة وحدها بل على مواضع فعل هذه القوانين أيضاً، وعلى البشر. لقد رُفع العالم المادي كله إلى هذا المجال، وجرى إدراج كل شيء ضمن مملكة الخيال الواسعة، من الغابات المطيرة في أميركا الجنوبية والجزر في المحيط الهادي إلى صحارى شمال أفريقية والمدن الرمادية المتعبة في شرق أوروبا. تغمر عقولنا صور أماكن لم نزرها قط، لكننا نعرفها،

وأناس لم نلتق بهم أبداً، لكننا نعرفهم؛ ونحن نعيش حياتنا، إلى حد غير قليل، بما يتفق مع هذه الصور كلها. يكاد يكون فاحشاً منطوياً على ذاته هذا الإحساس بأن العالم صغير منغلق بإحكام على نفسه من غير منافذ إلى أي مكان آخر. ورغم معرفتي بأن هذا كاذب بشكل عميق (لأننا في حقيقة الأمر لا نكاد نعرف شيئاً عن أي شيء)، فإنني غير قادر على الإفلات منه. هنا يكمن منبع التوق الذي أحسه دائماً، التوق الذي يكون بعض الأيام كبيراً إلى حد يجعلني شبه عاجز عن ضبطه. جزئياً، أكتب حتى أخفف هذا الإحساس، أكتب لأنني أفتح هذا العالم المغلق عن طريق الكتابة، أكتب من أجل نفسي. وفي الوقت نفسه، هذا ما يجعلني أفشل! يعني الإحساس بأن المستقبل غير موجود، وأن ما سيأتي ليس إلّا ما هو كائن، وأن اليوتوبيات كلها عديمة المعنى. الأدب مرتبط باليوتوبيا دائماً؛ وعندما تفقد اليوتوبيا معناها يفقد الأدب معناه أيضاً. ما كنت أحاول فعله، وربما ما يحاول كل كاتب فعله (... ماذا أعرف أنا؟) هو مقارعة القصة بالقصة، مقارعة الخيال بالخيال. ما يتعين عليَّ فعله هو تأكيد ما هو موجود، تأكيد حالة الأشياء مثلما هي. بكلمات أخرى، عليَّ أن أحلم بالعالم الذي في الخارج بدلاً من البحث عن سبيل إليه، وذلك لأنني سأعيش حياة أفضل على هذا النحو، من غير شك؛ لكني لم أستطع فعل ذلك، لا أستطيع! تجمَّدَ شيء في داخلي وترسخت قناعة في داخلي... أشياء لا أستطيع تجاوزها رغم أنها بدائية عفا عليها الزمن، بل هي رومانسية أيضاً. لا أستطيع تجاوزها لسبب بسيط هو أنها ليست أفكاراً فحسب بل خبرات عشتها أيضاً، عشتها في هذه الحالات المفاجئة من وضوح البصيرة، اللحظات التي لا بد أن كل إنسان يعرفها، عندما تقبض لثواني معدودة على صورة من عالم آخر غير العالم الذي كنت فيه قبل لحظة واحدة، حين يبدو ذلك العالم كأنه يخطو صوبك ويريك من نفسه لمحة خاطفة قبل أن يتراجع ويترك كل شيء كما كان من قبل...

عشت هذا الإحساس آخر مرة عندما كنت في قطار بين ستوكهولم وغنيستا قبل بضعة شهور. كان المشهد من النافذة بحراً من البياض، وكانت السماء رمادية رطبة. مضينا عبر منطقة صناعية فيها عربات سكة حديدية خاوية، وصهاريج للغاز، ومصانع. كان كل شيء رمادياً وأبيض، وكانت الشمس تغيب في الأفق الغربي فتخبو أشعتها الحمراء في الضباب الباهت. لم يكن القطار واحداً من تلك القطارات العتيقة الكسيحة المتداعية التي تعمل على هذا الخط عادة، بل قطار جديد تماماً، لامع صقيل.

وكان المقعد جديداً فائحاً برائحة الجِدّة. أما الأبواب التي أمامي فكانت تنفتح وتغلق من غير احتكاك. ما كنت أفكر في أي شيء محدَّد بل أحدّق فقط في تلك الكرة الحمراء المشتعلة في أقصى السماء. كانت المسرة التي ملأتني حادة... أتت بكثافة وبشدة جعلتها أشبه بالألم. بدا لي أن ما عشته في تلك اللحظات كان ذا أهمية هائلة. لم يتضاءل ذلك الإحساس بالأهمية عندما مضت اللحظة، بل اختفى فجأة كأنه لم يكن: ما الذي كان مهماً على وجه التحديد؟ ولماذا يكون مهماً؟ قطار، منطقة صناعية، شمس، ضباب؟

أعرف هذا الإحساس. إنه قريب من الإحساس الذي تثيره بعض الأعمال الفنية في نفسي. البورتريه الذي رسمه رامبرانت لنفسه عندما كان عجوزاً واحدة من تلك اللوحات. إنها في المعرض الوطني في لندن. ومثلها لوحة تيرنر التي تصوّر غروب الشمس على البحر عند ميناء عتيقة. ولوحة المسيح أمام جبل الزيتون لكارافاجيو. وتخلق لوحات فيرنير الإحساس نفسه عندي، وكذلك بضعة أعمال لكلاود، وبعض ما رسمه روزديل وغيره من رسّامي الطبيعة الهولنديين، بعض أعمال ج. س. داهل، وكل أعمال هيرتفيغ تقريباً... لكن ليس أي عمل من أعمال روبين ولا مونيه، ولا أي عمل للرسامين الفرنسيين أو الإنكليز في القرن الثامن عشر، باستثناء تشاردين. لا أحس بهذا عندما أنظر إلى أي لوحة من لوحات ويستلر ولا مايكل أنجلو... لوحة واحدة لليناردو دافنشي. لا يميل هذا الإحساس إلى أي حقبة بعينها، ولا يميل إلى أي رسام بعينه، لأنه يمكن أن يكون مرتبطاً بلوحة واحدة لرسام ما ويزيح جانباً كل ما رسمه عداها. وهو لا علاقة له أيضاً بما نطلق عليه عادة اسم الجودة: قد أقف جامد الشعور أمام لوحة من القرن الخامس عشر لمونيه وأشعر بالدفء يتخلل جسدي أمام لوحة لفنان انطباعي من فنلنده لا يعرفه إلّا قلة من الناس خارجها.

لا أعرف ما يجعل هذه اللوحات تترك هذا الانطباع العميق في نفسي. لكنها من المفاجئ أنها مرسومة كلها قبل القرن العشرين، أي تحت ظل ذلك المثال أو النموذج الفني الذي يحتفظ دائماً ببعض العلاقة مع الواقع المرئي. ومن هنا، فإن فيها دائماً قدراً أكيداً من الموضوعية؛ وأعني بهذا المسافة بين الواقع وتمثيل الواقع، المسافة الكامنة من غير شك في هذا الحيز الوسيط حيث «يحدُث» الأمر، حيث يبين، حيث يظهر ما أراه، مهما يكن... عندما يبدو العالم كأنه يتقدم صوبك خارجاً من العالم. عندما لا

ترى فيه غير المفهوم فحسب، بل تصير شديد القرب منه أيضاً. شيء لا يتكلم، شيء لا وجود لكلمات تستطيع بلوغه، شيء يكون دائماً خارج المتناول، لكنه ضمن المتناول أيضاً، لأنه ليس محيطاً بنا فحسب بل إننا جزء منه... نحن أنفسنا شيء منه.

كانت حقيقة أن هنالك أشياء أخرى وأشياء غامضة لها أثر علينا قد ساقت أفكاري إلى الملائكة، إلى هذه المخلوقات الروحانية التي ليست مرتبطة أو متصلة بالمقدس فحسب، بل بالبشر أيضاً؛ وبالتالي فإنها تعبّر عن ازدواجية طبيعة الشيء المختلف بأفضل مما تعبَّر عنها أي صورة أخرى. لكن، كان هنالك في الوقت نفسه شيء غير مرضٍ أبداً فيما يتعلق باللوحات والملائكة معاً لأنها منتمية كلها انتماء أساسياً إلى الماضي، إلى ذلك الجزء من الماضي الذي وضعناه خلف ظهورنا، أي الذي ما عاد ملائماً لهذا العالم الذي خلقناه بأنفسنا حيث ما عاد العظيم والمقدس والجليل والسامي والجميل والحقيقي كيانات صالحة للعمل، بل على العكس تماماً... صارت أشياء مشكوكاً فيها، أو حتى أشياء مضحكة! يعني هذا أن العَظَمة الواقعة ما وراء وجودنا، وهي ما كانت عظمة المقدس حتى عصر الأنوار، تحضر إلينا من خلال التجلّي. كانت الطبيعة هي ذلك المتعالي في الحقبة الرومانسية حين صار يجري التعبير عن فكرة التجلي بأنها «السامي» أو «العلي»؛ لكنها ما عادت تجد أي تعبير لها. وفي الفن، كان الشيء الواقع خلف حدود الذات مرادفاً للمجتمع، الذي كان يعني جماهير البشر، المجتمع المحيط بنا تماماً بأفكاره ومفاهيمه عن «الصحيح». وبقدر ما يتعلق الأمر بالفن النرويجي، فإن هذه القطيعة جاءت مع مونخ: ففي لوحاته، وللمرة الأولى، يسيطر الإنسان على المساحة كلها. في حين كان الإنسان ملحقاً بالمقدس خلال عصر الأنوار، وبالمناظر الطبيعية التي كان يصوَّر فيها خلال حقبة الرومانسية (الجبال كبيرة ضخمة، والبحر واسع عميق، بل الأشجار نفسها هائلة كثيفة، في حين يكون البشر صغاراً، من غير استثناء)، فإننا نجد الوضع معكوساً عند مونخ. صار الإنسان كأنه يبتلع كل ما عداه، ويجعل كل شيء له، للإنسان نفسه: الجبال، والبحر، والأشجار، والغابات، كل شيء ملون بألوان بشرية. ليست الأفعال البشرية والحياة الخارجية وحدها، بل مشاعر البشر وحياتهم الداخلية أيضاً. وما إن صار الإنسان في الصدارة حتى بدا أنّ لا عودة إلى الوراء، مثلما لم تعد هنالك عودة إلى الوراء عندما راحت المسيحية تنتشر كالحريق عبر أوروبا كلها في القرون الأولى من زماننا. الإنسان مُعظَّمٌ عند مونخ؛ ويجري إعطاء

حياته الداخلية شكلاً خارجياً... يجري هزّ العالم، ولا يبقى شيء بعد أن فُتح هذا الباب إلّا العالم باعتباره محل هذا التعظيم: عند الرسامين الذين جاؤوا بعد مونخ، يكون هذا من خلال الألوان نفسها، ومن خلال الصور نفسها، لا من خلال ما تمثله... هي ما يحمل الانفعالات. إننا هنا في عالم الصور حيث التعبير نفسه هو كل شيء، وهذا ما يعني بالطبع أنه ما عادت هناك أي دينامية بين الخارجي والداخلي، إنه الانقسام بينهما فحسب. في حقبة الحداثة، صار الانقسام بين الفن والعالم أقرب إلى المطلق؛ أو يمكن القول بطريقة أخرى إن الفن صار عالماً في ذاته. وأما ما يؤخذ به في هذا العالم فهو، بالطبع، شيء متعلق بالذائقة الفردية، سرعان ما صارت هذه الذائقة لبَّ الفن نفسه، وصار الفن بالتالي قادراً على الاعتراف بمواضيع من العالم الحقيقي، بل صار عليه أن يعترف بها حتى يتمكن من الاستمرار. وفي الوضع الذي وصلنا إليه الآن، حيث لم يعد لدعائم الفن أي دلالة، صار التركيز كله منصباً على ما يعبّر عنه هذا الفن. أي أنه ما عاد منصبّاً عليه هو نفسه، على الفن، بل على ما يفكر فيه وعلى الرؤى التي يحملها... كأن هذا آخر بقايا الموضوعية، أو كأنه الآثار الأخيرة لشيء في الخارج، لشيء هجره عالم البشر. لقد وصل الفن إلى أرض غير ممهَّدة: آلتان لطباعة الصور في الصالة، ودراجة آلية في الممر. وصل الفن إلى أن يصير متفرجاً على نفسه، وعلى طريقة استجابته، وعلى ما تكتبه الصحف عنه. صار الفنان مؤدياً! هكذا هو الأمر. لا يعرف الفن حدوداً، ولا يعرف العلم حدوداً، ولا يعرف الدين حدوداً، ليس بعد الآن! إن عالمنا منغلق على نفسه، منغلق من حولنا، وما من طريق للخروج منه. لا يفهم شيئاً أولئك الذين يجدون أنفسهم في هذا الوضع فيدعون إلى مزيد من العمق الثقافي وإلى مزيد من الروحانية، لأن المشكلة هي أن الذكاء قد استولى على كل شيء. صار كل شيء ذكياً، حتى أجسامُنا ما عادت أجساماً أبداً بل أفكار عن الأجسام، صارت شيئاً متوضعاً في سماء الصور والمفاهيم في داخلنا، وفوقنا أيضاً، هناك حيث نعيش جزءاً متنامياً من حياتنا. ما عادت موجودة تلك الحدود، حدود ما لا يستطاع التكلم عن معناه، حدود ما لا يمكن سبر غوره. نحن نفهم كل شيء... نفهم كل شيء لأننا حولنا كل شيء إلى ذواتنا. في أيامنا هذه، مثلما يمكن للمرء توقّعه، نجد أن كل من شغلوا أنفسهم بما هو محايد، سلبي، غير بشري، قد تحولوا إلى اللغة. يجري البحث هناك عن الشيء الذي لا يمكن فهمه، عن الآخر المغاير، كما لو أن من الممكن العثور عليه في هوامش

التعبير البشري، أي على هوامش ما نفهمه. هذا منطقي بالطبع: أين يمكن العثور عليه غير هناك، في هذا العالم الذي ما عاد يعترف بوجود شيء ما ورائي؟

في هذا الضوء علينا أن نرى الدور الذي يضطلع به الموت، ذلك الدور الملتبس إلى حد غريب. فمن جهة أولى، يحيط بنا الموت من كل جهة، وتغمرنا أخبار الموت وصور الموتى. من هذه الناحية، ليس للموت حدود، إنه موجود في كل مكان، لا آخر له. لكن هذا هو الموت باعتباره فكرة، الموت من غير جسد، الموت مثلما نفكر فيه ونتصوره، الموت باعتباره مفهوماً عقلياً. إن هذا الموت مماثل لكلمة «موت»؛ إنه الكيان الذي لا جسد له، الكيان الذي يشار إليه عند استخدام اسم شخص مات. وذلك أنه عندما يكون الشخص على قيد الحياة، فإن الاسم يشير إلى الجسد، إلى جسده، إلى حيث يكون ذلك الجسد موجوداً وإلى ما يفعله. لكن الاسم يصير منفصلاً عن الجسد عندما يموت ويبقى مع الأحياء الذين يعنون دائماً، عندما يستخدمون الاسم، الشخص الذي كانه هذا الاسم، ولا يعنون أبداً الشخص الذي هو الآن، لا يعنون الجسد الذي يرقد متحللاً في مكان ما. هذا الوجه للموت، الوجه المنتمي إلى الجسد، الوجه الذي هو شيء مادي فيزيائي ملموس، هذا هو الموت الذي يجري إخفاؤه بتلك العناية الكبيرة كلها التي تبلغ حد السُّعار. لكن هذا ينجح دائماً: استمعوا فقط إلى الناس الذين كانوا، من غير قصد منهم، شهوداً على حوادث قاتلة أو جرائم قتل. استمعوا إليهم كيف يعبّرون عن أنفسهم. إنهم يقولون الأمر نفسه دائماً: كان أمراً غير حقيقي على الإطلاق! يقولون هذا رغم أنهم يقصدون العكس تماماً. لقد رأوه بأعينهم... لقد كان حقيقياً جداً! لكنا ما عدنا نعيش في الواقع الحقيقي. لقد انقلب كل شيء عندنا، وصار الحقيقي غير حقيقي... صار غير الحقيقي حقيقياً. والموت... الموت هو آخر الأشياء الماورائية الكبيرة. هذا ما يوجب علينا إخفاءه وتخبئته دائماً لأن الموت قد يكون شيئاً يتجاوز القاعدة، شيئاً يتجاوز الحياة، إلّا أنه ليس شيئاً يتجاوز العالم.

كنت في الثلاثين تقريباً عندما رأيت أول جسد ميت. كان ذلك في صيف 1998، في عصر يوم من أيام تموز، في كنيسة صغيرة في كريستيانساند. لقد مات أبي. كان ممدداً على طاولة في وسط الغرفة، وكانت السماء مدلهمّة بالغيوم والضوء في الغرفة شحيحاً. وخلف النافذة، كانت آلة جز العشب تدور بطيئةً في المرج. كنت في الغرفة مع أخي. لقد تركَنا الشخص الذي يدير ترتيبات الجنازة والدفن في

الغرفة حتى نستطيع أن نكون وحدنا مع المتوفى الذي كنا ننظر إليه من مسافة عدة أمتار. كانت العينان مغمضتين، والفم مغلقاً. وكان الجزء الأعلى من الجسم مرتدياً قميصاً أبيض، أما الجزء الأسفل فكان في بنطلون أسود. كنت غير قادر تقريباً على تحمُّل فكرة أنني أستطيع إلقاء نظرة متفحّصة على هذا الوجه للمرة الأولى من غير أن يمنعني شيء من ذلك. أحسست أن هذا شيء يكاد يكون فعل تدنيس له. لكني أحسست في الوقت نفسه جوعاً، حالة لا تعرف الشبع تطالبني أن أواصل النظر إليه، إلى هذا الجسد الميت الذي كان أبي قبل أيام قليلة. كنت أعرف ملامح هذا الوجه، لقد ترعرعت وكبرت مع هذا الوجه. ومع أنني ما عدت أراه كثيراً خلال السنوات الأخيرة، لكن الليالي التي لم أحلم فيها به كانت نادرة. أعرف هذه الملامح، لكني لا أعرف التعبير الذي اكتسته الآن. البشرة الصفراء القاتمة، ومرونة الجلد التي اختفت، جعلا وجهه يبدو كأنه منحوت من الخشب. حالت هذه الطبيعة الخشبية بين مشاعري وبين الإحساس بالألفة. لم أكن أنظر إلى شخص، بل إلى شيء يمثل شخصاً. لقد أُخِذ منا؛ وأما ما كانه فقد ظل موجوداً في داخلي. إنه راقد في داخلي مثل غلالة من الحياة فوق الموت.

مشى إنغفِه ببطء إلى الجهة الأخرى من الطاولة. لم أنظر إليه. اكتفيت بالإحساس بحركته بينما رفعت رأسي ناظراً من النافذة إلى الخارج. كان البستاني الذي يقود آلة جزّ العشب يلتفت إلى الخلف وهو جالس في مقعده ليتأكد من أنه يسير في خط ملاصق لمشواره السابق. كانت أنصال العشب القصيرة التي تفلت من الآلة تدوّم في الهواء من حوله. لا بد أن بعض هذا العشب قد علق بأسفل الآلة، لأنها تترك الآن خلفها بقعاً من العشب الرطب المضغوط على الأرض. كان لون هذه البقع أخضر داكناً أكثر من لون المرج الأصلي. وعلى الممر المفروش بالحصى خلف المرج، وقفت مجموعة صغيرة من ثلاثة أشخاص، كانت رؤوسهم جميعاً محنية، وكان أحدهم في عباءة حمراء تبدو متألقة على خلفية العشب الأخضر والسماء الرمادية. ومن خلفهم، كانت السيارات تمضي منطلقة صوب مركز المدينة.

وعند ذلك، تردد صوت محرك الآلة بين جدران الكنيسة. كان التوقع الذي خلقته هذه الضجة المفاجئة، توقع أن يفتح أبي عينيه، إحساساً غريباً قوياً إلى حد جعلني أتراجع من غير إرادة مني.

التفت إنغفه صوبي مع ابتسامة صغيرة على شفتيه. أكنت أظن حقاً أن الموتى يمكن أن يستيقظوا؟ أكنت أؤمن حقاً بأن الخشب يمكن أن يصبح بشرياً من جديد؟

كانت لحظة مرعبة! لكنها مرت، وظل أبي من غير حركة رغم الصوت والاضطراب اللذين من حوله، فأدركت أنه ما عاد موجوداً. كانت السيطرة على الإحساس بالحرية الذي علا في صدري صعبة مثلما كانت صعبة السيطرة على موجات الحزن في وقت سابق. وجد هذا الإحساس لنفسه المخرج ذاته الذي وجده سابقه... نشيج أفلت، رغماً عني، في اللحظة التالية تماماً.

قابلتُ نظرة إنغفه، وابتسمتُ. جاء ووقف أمامي. جعلني حضوره أحس اطمئناناً تاماً. كنت سعيداً جداً بأنه موجود هناك، وكان عليَّ أن أكافح حتى لا أفقد السيطرة على نفسي من جديد فأفسد كل شيء. كان عليَّ التفكير في شيء آخر... كان عليَّ أن أترك انتباهي يجد لنفسه أرضاً محايدة.

كان شخص ما يقوم بأعمال الترتيب في الغرفة المجاورة. وكانت الأصوات القادمة من تلك الغرفة خفيضة، لكنها شوشت الجو في غرفتنا... كانت أصواتاً غريبة، أجنبية، تماماً مثلما تتسلل أصوات الواقع إلى أحلام شخص نائم فتبدو أجنبية غريبة.

نظرت إلى أبي. نظرت إلى أصابعه التي كانت متشابكة، مستقرة على بطنه؛ رأيت بقعة النيكوتين الصفراء على سبابته... بقعة تغير لونها مثلما يتغير لون سجادة. كانت الغضون العميقة إلى حد غير متناسب في الجلد على مفاصل أصابعه تبدو كأنها منحوتة نحتاً الآن. ثم الوجه... ما كان فيه راحة أو سكينة. صحيح أنه كان مسالماً، هادئاً، إلّا أنه ليس خالياً من التعبير: لا تزال فيه آثار لشيء لا أستطيع وصفه إلّا بالتصميم. فاجأني أنني كنت أحاول دائماً تفسير التعبير الذي على وجهه، وفاجأني أنني لم أكن أبداً قادراً على النظر إلى ذلك الوجه من غير محاولة قراءته في الوقت نفسه.

لكنه صار الآن وجهاً مغلقاً.

استدرت صوب إنغفه.

قال لي: «هل نذهب؟».

أومأتُ برأسي.

كان موظف مكتب الدفن ينتظرنا في الردهة. تركت الباب مفتوحاً من خلفي. رغم علمي بأن هذا غير منطقي، لم أحب أن أترك أبي راقداً وحده هناك.

بعد مصافحة الموظف وتبادل بضع كلمات عما سيحدث في الأيام التالية قبل الدفن، خرجنا إلى موقف السيارات وأشعل كل منا سيجارة. استند إنغفه إلى السيارة، أما أنا فاستندت إلى حافة جدار. كان في الهواء مطر. وكانت الأشجار في الأجمة خلف المقبرة تنحني تحت ضغط الريح التي تزداد شدة. ولبضع ثوانٍ، غطى صوت حفيف الأوراق على ضجيج السيارات الآتي من الجهة الأخرى من المنخفض. ثم هدأت الريح.

قال إنغفه: «نعم، كان هذا غريباً».

قلت: «صحيح. لكنني مسرور لأننا أتينا».

«وأنا أيضاً. كان عليَّ أن أرى حتى أصدق».

«وهل تصدق الآن؟».

ابتسم: «ألا تصدق أنت؟».

أردت أن أرد على ابتسامته بابتسامة، لكنني بدأت أبكي من جديد.

وضعت يدي على وجهي وخفضت رأسي. راح النشيج يهز جسدي. وبعد أن هدأ، نظرت إليه وضحكت.

قلت: «يشبه هذا ما كان يحدث عندما كنا صغاراً... أنا أبكي وأنت تنظر إليَّ».

سألني: «هل أنت متأكد...؟» راح يبحث في عيني... «هل أنت متأكد من أنك قادر على تدبّر ما يبقّى بنفسك؟».

قلت: «بالطبع، هذه ليست مشكلة».

«أستطيع أن أتصل وأقول إنني باقٍ هنا».

«لا! عليك أن تعود! سوف نقوم هنا بما اتفقنا عليه».

«لا بأس. سأذهب إذن».

رمى سيجارته، وأخرج مفتاح السيارة من جيبه.

نهضت واقفاً واقتربت منه، لكني لم أقترب إلى حد يسمح بالعناق أو بالمصافحة. فتح باب السيارة وجلس فيها ثم رفع رأسه ونظر إليَّ بينما كان يدير مفتاح التشغيل. انطلق محرك السيارة.

نظر إليّ: «أراك قريباً».

«إلى اللقاء. قُد بانتباه. وسلم على الجميع».

أغلق باب السيارة ووضع حزام الأمان. سارت السيارة ببطء في اتجاه الطريق الرئيسي. تابعتها بأنظاري. لكن السيارة توقفت وأضاءت مصابيحها الخلفية، ثم بدأت تتراجع.

قال لي: «من الأفضل أن تأخذ هذا».

مد يده عبر النافذة المفتوحة. كان في يده مغلف بنّي أعطانا إياه مدير ترتيبات الدفن.

قال إنغفه: «لا معنى لأن آخذه معي طيلة الطريق إلى ستافانغر. من الأفضل أن يبقى هنا. ما رأيك؟».

أجبته: «لا بأس».

قال: «أراك إذن». رفع زجاج النافذة فصارت الموسيقى التي كانت تغمر موقف السيارات منذ ثواني قليلة كأنها آتية من تحت الماء الآن. لم أتحرك حتى استدارت السيارة داخلة الطريق الرئيسي وغابت عن عيني. كان هذا شيئاً غريزياً من أيام الطفولة: سوف تحل كارثة إذا تحركت. وضعت المغلّف في جيب سترتي الداخلي وانطلقت في اتجاه المدينة.

اتصل بي إنغفه، منذ ثلاثة أيام، في الثانية بعد الظهر تقريباً.

أدركت على الفور من صوته أن شيئاً قد حدث. وكانت أول فكرة جاءتي هي أن أبي قد مات.

قال لي: «مرحباً. هذا أنا. إنني أتصل بك لأقول إن شيئاً قد حدث. نعم... ما حدث هو...».

قلت أستحثه: «نعم؟» كنت واقفاً في الصالة مستنداً إلى الجدار بكفي. وكانت السماعة في كفي الأخرى.

«مات والدنا».

قلت: «أوه!»

«اتصل غونار قبل قليل. وجدته جدَّتي ميتاً في كرسيه هذا الصباح».

«وما سبب الوفاة؟».

«لست أدري. لعله القلب».

لم تكن للصالة نوافذ. كان مصباحها غير مضاء مما جعل الضوء الخافت الذي

فيها آتياً من المطبخ ومن باب غرفة النوم المفتوح من الجهة الأخرى. كان الوجه الذي نظر إليّ في المرآة قاتماً، كان يراقبني من مكان بعيد.

«وماذا نفعل الآن؟ أقصد... من الناحية العملية؟».

«يريد غونار أن نتولى ترتيب كل شيء. وهذا يعني أن علينا الذهاب إلى هناك. علينا الذهاب بأسرع ما يمكن».

قلت: «صحيح. كنت ذاهباً إلى جنازة بورغيلد. كنت على وشك المغادرة في الحقيقة. وهكذا فإن حقيبتي جاهزة. أستطيع الانطلاق الآن. هل نلتقي هناك؟».

قال إنغفه: «جيد جداً. سوف أذهب بالسيارة غداً». ثم أضاف: «غداً! دعني أفكر قليلاً! لماذا لا تأتي إليّ بالطائرة، ثم نذهب معاً؟».

«فكرة حسنة. سأفعل هذا. سأتصل بك عندما أعرف موعد طائرتي. اتفقنا؟».

«اتفقنا. أراك قريباً».

وضعت السماعة، وذهبت إلى المطبخ فملأت غلاية الماء وأخذت ظرف شاي من الخزانة ووضعته في الفنجان. انحنيت فوق طاولة المطبخ ونظرت إلى الزقاق خارج البيت. ما كان ظاهراً منه إلّا بقع رمادية بين الشجيرات الخضراء التي تشكل أجمة كثيفة ممتدة من آخر الحديقة الصغيرة حتى الطريق. وإلى الناحية الأخرى، كانت هنالك أشجار ضخمة عالية تعرت من أوراقها وتحتها ممر معتم صغير يؤدي إلى الطريق الرئيسي حيث يقع مستشفى هاوكيلاند. لم أستطع التفكير وقتها إلّا في أنني غير قادر على التفكير في ما يجب التفكير فيه. لم أكن أشعر بما ينبغي أن أشعر به. مات أبي، هكذا قلت في نفسي...هذا شيء كبير، حدث كبير، ويجب أن أكون ممتلئاً به تماماً. لكن هذا لا يحدث لأنني واقف هنا أنظر إلى غلاية الماء منزعجاً من أنها لم تبدأ الغليان بعد. ها أنا ذا واقف هنا أنظر من النافذة وأفكر في حسن حظنا الذي جعلنا نحصل على هذا البيت. هذا ما أفكر فيه كلما نظرت إلى الحديقة لأن صاحبة البيت التي بلغت سن الكهولة مستمرة في العناية بها. لكنني لا أفكر في أن أبي قد مات رغم أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يحمل معنى الآن. فكرت في أنني لا بد أن أكون في حالة صدمة. صببت الماء في الفنجان رغم عدم غليانه. كانت غلاية الماء، وهي من نوع فاخر لامع، هدية من إنغفه عند زواجنا. وكان الفنجان أصفر اللون من صنع هوغانز. لا أستطيع تذكُّر الشخص الذي أهدانا هذا الفنجان، لكنني أذكر أنه كان على رأس قائمة

هدايا الزواج التي أعدتها تونجِه. هززت كيس الشاي الصغير عدة مرات ثم رميته في المجلى فاصطدم بأرضه مُصدراً صوتاً يشبه الصفعة. ثم مضيتُ إلى غرفة الجلوس حاملاً فنجاني. الشكر للرب لأنه ليس في البيت غيري الآن.

بقيت بضع دقائق أسير في الغرفة ذهاباً وإياباً محاولاً إيجاد شيء من المعنى في حقيقة أن أبي قد مات. لكني فشلت. لا معنى لهذا. لقد فهمته، وقبلته، وما كان انعدام معناه آتياً من أن حياة قد انتزعت وكان يمكن ألا تنتزع، بل بمعنى أن هذه كانت حقيقة من بين حقائق أخرى، وأنها لم تحتل في وعيي المكان الذي يجب أن تحتله.

تجولت في الغرفة حاملاً فنجان الشاي في يدي. كان الجو رمادياً معتدلاً في الخارج، وكانت المنطقة المنحدرة قليلاً بعد البيت مليئة بالسقوف وبأجمات خضراء كثيرة. نعيش هنا منذ بضعة أسابيع فقط، فقد جئنا من فولدا حيث كانت تونجه تدرس الصحافة الإذاعية، وحيث كتبتُ رواية من المتوقع أن تنشر خلال شهرين. إنه البيت الأول الذي نعيش فيه لأن الشقة في فولدا لا تدخل في الحسبان. هذه شقة حقيقية. إنها تمثل شيئاً دائماً، بيتاً. لا تزال رائحة الطلاء تفوح من الجدران. لون أحمر دموي في غرفة الطعام بناء على نصيحة أم تونجة الفنانة التي تمضي معظم وقتها في الطبخ والتصميم الداخلي (صاحبة سوية رفيعة في الأمرين معاً). كان بيتها يشبه البيوت التي يراها المرء في مجلات التصميم الداخلي. وكان الطعام الذي تقدمه لذيذاً معداً بعناية دقيقة على الدوام. غرفة نومنا مطلية بالأبيض الناصع، ومثلها بقية الغرف. لكن هذا ما كان شيئاً يشبه مجلات التصميم الداخلي... أثاث كثير، وملصقات كثيرة، ورفوف كتب تشهد على الحياة الطلابية التي تركناها خلفنا منذ فترة وجيزة فقط. عشنا على القروض الدراسية عندما كنت أكتب تلك الرواية، لأنني، رسمياً، كنت أدرس العلوم الأدبية كتخصص رئيسي لي حتى نفذت نقودي في عيد الميلاد فكان عليَّ أن أطلب سلفة مالية من دار النشر. كانت هذه السلفة كافية حتى وقت قريب. وبالتالي، كان موت أبي منّة من السماء لأن لديه مالاً. بالتأكيد، لا بد أن يكون لديه مال. لقد باع الأشقاء الثلاثة ذلك البيت في إلفيفيت واقتسموا المال بينهم منذ أقل من سنتين. من المؤكد أنه ما كان قادراً على بعثرة حصته كلها في هذا الوقت القصير.

مات أبي؛ وأنا أفكر في المال الذي سيجلبه لي هذا!

وماذا إذاً؟

إنني أفكر في ما أفكر فيه، ولا أستطيع منع نفسي من التفكير في ما أفكر فيه... هل أستطيع؟ وضعت الفنجان على الطاولة، وفتحت الباب الصغير فخرجت إلى الشرفة ووقفت مستنداً بقوة على الدرابزين محدقاً من حولي بينما رحت أستنشق هواء الصيف الدافئ المشبع بروائح النباتات والسيارات والمدينة، أدفعه إلى رئتيَّ. عدت إلى غرفة المعيشة بعد لحظة قصيرة ووقفت أنظر من حولي. هل آكل شيئاً؟ هل أشرب شيئاً؟ هل أخرج لأتسوَّق؟

دخلت الصالة، ومنها إلى غرفة النوم حيث كان السرير العريض غير مرتب ومن خلفه باب الحمام. يمكنني أن أفعل هذا، يمكنني أن أستحم، فكرة طيبة، لأن عليَّ أن أسافر بعد قليل.

خلعت ملابسي، وفتحت الماء فانسكب حاراً على رأسي وعلى جسدي.

هل أستمني؟

لا... بحق السماء... مات أبي.

لقد مات أبي، مات مات مات.

لقد مات أبي، مات مات مات.

لم ينفعني الاستحمام أيضاً، فأغلقت الماء وجففت نفسي بمنشفة كبيرة، ثم وضعت قليلاً من مزيل الرائحة تحت إبطي وارتديت ملابسي ومضيت إلى المطبخ لأتأكد من الساعة. عدتُ لأجفف شعري بمنشفة صغيرة.

إنها الثانية والنصف.

ستعود تونجه إلى البيت بعد ساعة.

لا أحتمل فكرة إخبارها بالأمر دفعة واحدة عندما تدخل من الباب. وهكذا ذهبت إلى الممر وقذفت بالمنشفة عبر باب غرفة النوم المفتوح، ثم أمسكت بسماعة الهاتف وطلبت الرقم. أجابت على الفور.

قالت: «تونجه تتكلم؟».

«مرحباً يا تونجه. هذا أنا. هل كل شيء بخير؟».

«نعم، إنني أقوم بتحرير نص في هذه اللحظة. لكنني دخلت المكتب لأجلب شيئاً. سأعود إلى البيت عندما أنتهي».

قلت: «عظيم».

سألتني: «ماذا ستفعل أنت؟»

قلت: «لا شيء! لكن إنغفه اتصل بي. لقد مات أبي».

«ماذا؟ أتقول إنه مات؟».

«نعم».

«أوه، يا عزيزي المسكين! أوه يا كارل أوفه...»

قلت: «إنني بخير. لم يكن الأمر غير متوقع في حقيقة الأمر، أليس كذلك. لكنني سأذهب إلى هناك هذا المساء على أية حال. سأذهب إلى بيت إنغفه ثم نذهب بالسيارة إلى كريستيانساند في صباح الغد».

«أتريد أن أذهب معك؟ أستطيع أن أذهب».

«لا، لا. عليك أن تعملي! ابقِ هنا، ثم تأتين وقت الجنازة».

قالت من جديد: «أوه، يا عزيزي المسكين. أستطيع أن أطلب من أحد غيري أن يقوم بالعمل. وعندها أستطيع الانطلاق معك. متى تغادر؟».

قلت: «لا مبرر للاستعجال. سوف أسافر بعد ساعات. ليست فكرة سيئة أن أكون وحدي بعض الوقت».

«هل أنت متأكد؟».

«متأكد تماماً. لا أشعر بأي شيء في حقيقة الأمر. لكننا مررنا بهذا مرات كثيرة. أليس كذلك. كنا نقول إذا استمر هكذا سوف يموت قريباً. وهكذا كنت مستعداً للأمر».

قالت تونجه: «لا بأس. سوف أنتهي مما أفعله الآن وأسرع عائدة إلى البيت. انتبه لنفسك. أحبك».

قلت: «وأنا أحبك أيضاً».

بعد أن وضعت السماعة، فكرت في أمي. يجب إخبارها بالطبع. رفعت السماعة من جديد وطلبت رقم إنغفه. قال إنه اتصل بها وأخبرها.

كنت في غرفة الجلوس مرتدياً ملابسي عندما سمعت صوت تونجه عند الباب. اندفعت إلى الغرفة كأنها نسمة صيف منعشة. نهضت واقفاً. كانت حركاتها مضطربة، وكانت عيناها متعاطفتين. احتضنتني وقالت إنها تريد أن تكون معي، لكني مُحق... من الأفضل أن تظل هنا. وبعد ذلك، طلبتُ سيارة تاكسي بالهاتف ووقفت على الدرجة أمام باب البيت منتظراً طيلة الدقائق الخمس التي استغرقها وصول

السيارة. فكرت في أننا متزوجان، في أننا زوج وزوجة. زوجتي واقفة خارج البيت تلوّح لي مودّعة... فكرت في هذا وابتسمت. ابتسمت لأنني عجبت من أين أتى هذا الملمح غير الواقعي لتلك الصورة؟ هل نمثل دور الزوج والزوجة... ألسنا شخصين متزوجين فعلاً؟

«لماذا تبتسم؟».

قلت: «لا شيء. فكرة خطرت في ذهني».

شددت على يدها.

قالت: «ها هي السيارة».

نظرت على امتداد صف البيوت. رأيت سيارة سوداء تشبه الخنفساء. كانت تصعد الطريق المنحدر؛ وكالخنفساء توقفت مترددة عند تقاطع الطرق قبل أن تنعطف بحماسة إلى اليمين حيث يحمل الشارع اسم شارعنا نفسه.

سألتني تونجه: «هل أجري خلفها؟».

«لا، لماذا؟ أستطيع أن أجري خلفها بنفسي».

حملت الحقيبة ونزلت إلى الطريق. تبعتني تونجه.

قلت لها: «سوف أسير حتى تقاطع الطرق. سوف انتظرها هناك. لكني سأتصل بك هذا المساء».

تبادلنا قبلة. وعندما صرت عند تقاطع الطرق. وكانت سيارة التاكسي عائدة في اتجاهي، لوّحت لي تونجه بيدها.

قال السائق متسائلاً عندما فتحت باب السيارة ونظرت في الداخل: «كناوسغارد».

قلت: «هذا صحيح. مطار فليسلاند».

«اصعد وسوف آخذ حقيبتك».

جلست في المقعد الخلفي واتكأت على المسند. سيارات التاكسي... أحب سيارات التاكسي. لا أحب سيارات التاكسي التي تعيدني ثملاً إلى البيت. بل السيارات التي تأخذني إلى المطارات وإلى السكك الحديدية. أيوجد ما هو أفضل من أتجلس في المقعد الخلفي لسيارة تاكسي وأن تؤخذ عبر البلدات والضواحي قبل انطلاقك في رحلة طويلة؟

قال السائق بعد أن جلس في مقعده: «هذا الشارع يخدِع المرء لأنه يتشعَّب هنا.

لقد سمعت عنه، لكني أراه للمرة الأولى بعد عشرين عاماً من العمل. أمر غريب، أليس كذلك؟»

قلت: »ممم».

«أظن أنني صرت أعرف الشوارع كلها الآن. وأظن أن هذا الشارع لا بد أن يكون الأخير».

ابتسم لي في المرآة وسألني: «هل أنت ذاهب في عطلة؟».

قلت: «لا. ليس بالضبط. لقد توفيَ أبي وعليَّ أن أذهب لترتيب أمر الجنازة في كريستيانساند».

وضعت إجابتي نهاية لذلك الحديث القصير. جلست من غير حركة أنظر إلى البيوت على طول الطريق من غير أن أفكر في أي شيء محدد... أنظر فقط. مررنا بمينِدِه، فانتوفت، وهوب. مررنا بمحطات الوقود ومعارض السيارات والمتاجر وببيوت منفصلة وبغابة وبحيرة وتجمع سكني. عندما اقتربنا من المرحلة الأخيرة من الطريق صرت قادراً على رؤية برج المراقبة في المطار فأخرجت بطاقتي المصرفية من جيبي الداخلي، وملت إلى الأمام لأرى عداد السيارة. ثلاثمائة وعشرون كروناً. لم تكن فكرة سيارة التاكسي فكرة حسنة. لأن كلفة باص المطار تبلغ عُشر هذا الرقم. إن كان هنالك شيء لا أملك كفاية منه الآن، فهو النقود.

قلت: «هل يمكنك إعطائي إيصالاً بثلاثمائة وخمسين؟» ثم ناولته البطاقة المصرفية.

قال: «يمكنني بالطبع».

أخذ البطاقة من يدي. مررها على الجهاز فخرج إيصال مطبوع. وضع الإيصال على لوحة صغيرة مزودة بقلم وناولني إياها فوضعت توقيعي. أعطاني السائق الإيصال الآخر الذي طبعه الجهاز.

قلت له: «أشكرك جزيل الشكر».

قال: «شكراً لك. سوف أنزل الحقيبة».

مع أن حقيبتي كانت ثقيلة، فإنني حملتها من مقبضها عندما سرت داخلاً صالة المطار. إنني أمقت تلك العجلات الصغيرة... أمقتها قبل كل شيء لأنها أمر أنثوي لا يليق برجل. على الرجل أن يحمل، لا أن يجرّ! ثم إنني أمقتها أيضاً لأنها توحي

بخيارات سهلة، بطرق مختصرة، بالتوفير والعقلانية اللذين أكرههما وأبتعد عنهما ما استطعت، حتى في أمور قليلة الأهمية إلى أقصى حد. لماذا ينبغي علينا أن نعيش في عالمٍ من غير الإحساس بثقله؟ هل نحن صورٌ فحسب؟ ثم، لأي شيء نوفِّر طاقتنا ونستخدم هذه الأشياء التي توفر الطاقة؟

وضعت حقيبتي في المدخل الصغير ونظرت إلى لوحة الطائرات المغادرة. هنالك طائرة إلى ستافانغر في الساعة الخامسة. أستطيع الذهاب بهذه الطائرة، بكل سهولة. لكن هنالك طائرة أخرى في السادسة. بما أنني أحب الجلوس في المطارات (ربما أكثر من الجلوس في سيارة التاكسي) فقد اخترت طائرة الساعة السادسة.

استدرت ونظرت إلى مكاتب تسجيل الدخول. كان الزحام قليلاً باستثناء المكاتب الثلاثة في الناحية البعيدة عني حيث بدت لي صفوف المسافرين فوضوية ممتدة مسافة طويلة. استنتجت من ملابس هؤلاء المسافرين التي كانت خفيفة من غير استثناء، ومن كمية الأمتعة معهم، التي كانت ضخمة، وكذلك من مزاجهم الذي كان مبتهجاً مثلما يكون مزاج المرء بعد أن يشرب بضع كؤوس... استنتجت أنهم مسافرون إلى جنوب أوروبا. اشتريت بطاقتي، وحجزت مقعدي، ثم سرت متمهلاً صوب الهواتف في الناحية الأخرى واتصلت بإنغفه. رفع السماعة على الفور.

قلت: «مرحباً، أنا كارل أوفه. تقلع الطائرة في السادسة والربع. هذا يعني أنني سأكون في سولا في السابعة إلّا ربعاً. هل ستأتي لتأخذني أم ماذا؟».

«أستطيع أن آتيَ لآخذك، لا مشكلة».

«هل سمعت أي شيء جديد؟»

«لا. اتصلت بغونار وقلت له إننا آتيان. ليست لديه أخبار جديدة. أظن أننا نستطيع الانطلاق في الصباح الباكر لكي نصل قبل موعد إغلاق مكتب الدفن. إنه يوم السبت غداً، مثلما تعلم».

قلت: «لا بأس. يبدو هذا حسناً. إلى اللقاء».

«نعم، إلى اللقاء».

وضعت السماعة وصعدت إلى المقهى فاشتريت صحيفة وفنجاناً من القهوة، وبحثت عن طاولة مطلّة على الصالة. علّقت سترتي على ظهر الكرسي بينما كنت أنظر في أنحاء المقهى لأرى إن كان فيه أحد أعرفه، ثم جلست.

كانت أفكارٌ عن أبي تأتي على فترات منتظمة مثلما ظلت تفعل منذ أن اتصل بي إنغفه. لكنها كانت أفكاراً لا صلة لها بالمشاعر: حقائق جامدة دائماً. لعل الأمر هكذا لأنني كنت مستعداً لتلقي النبأ. منذ أن ترك أمي في ذلك الربيع صارت حياته ماضية في اتجاه واحد فقط. لم ندرك الأمر آنذاك؛ لكنه اجتاز خطاً ما في لحظة ما؛ ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، صرنا نعرف أن أي شيء يمكن أن يصيبه، حتى أسوأ الأشياء. أو لعل موته أفضل شيء له!... هذا معتمد على كيفية نظرتك للأمور. طالما تمنيت أن يموت أبي، لكني بدأت آمل في موته فعلاً منذ اللحظة التي أدركت فيها أن حياته يمكن أن تنتهي قريباً. كلما ظهرت في التلفزيون أنباء عن حوادث فيها قتلى في المنطقة حيث يعيش، سواء كانت تلك الحوادث حرائق أم اصطدام سيارات أم جثة وجدوها في الغابة أو على البحر، كان الأمل هو الإحساس الفوري الذي ينتابني: قد يكون أبي. لكنه لم يكن أبي أبداً... كان يتدبَّر أمره؛ كان ينجو!

ظل ينجو حتى الآن. هكذا فكرت وأنا أنظر إلى حشد الناس المتحرك في الصالة في الأسفل. خلال خمسة وعشرين عاماً، سيكون ربع هؤلاء في عداد الموتى. وفي غضون خمسين عاماً، سيموت الثلثان. وسيموت الجميع قبل انقضاء مئة سنة. ما الذي سيتركونه خلفهم؟ كم كانت قيمة حياتهم؟ سيتركون أفواهاً فاغرة ومحاجر عيون فارغة في مكان ما تحت التراب.

لعل يوم الحساب آتٍ حقاً؟ هذه العظام والجماجم كلها التي ظلت مدفونة آلاف السنين التي عاشها الإنسان على الأرض سوف تجمع نفسها مقرقعة وتقف مبتسمة في الشمس. وسيأتي الرب القدير ذو الوجود الكلي، سيأتي ومعه صفان من الملائكة، في الأعلى وفي الأسفل، فيصدر حكمه عليهم من عرشه السماوي. ستصدح أبواقٌ فوق هذه الأرض، البالغة الجمال، البالغة الخضرة. ومن الحقول والوديان كلها، من السهول والشواطئ كلها، من البحار والبحيرات كلها، سينهض الموتى ويأتون إلى السيد، إلى ربهم، سيرتفعون إليه فيتلقون حكمه ويُلقَى بهم في نار الجحيم؛ سيتلقوْن حكمه ويرتفعون إلى حيث النور القدسي. من يسيرون هنا أيضاً، من يسيرون بحقائبهم ذات العجلات وبحقائبهم المعفاة من الرسوم، بمحافظهم وبطاقاتهم المصرفية، بآباطهم المعطَّرة ونظاراتهم الداكنة، بشعرهم المصبوغ وعكازاتهم، سوف يوقَظون جميعاً، ولن يكون ممكناً التمييز بينهم وبين من ماتوا في العصور الوسطى أو في

العصر الحجري... سيكونون موتى كلهم، والموتى هم الموتى! وسوف يتلقى الموتى أحكامهم في ذلك اليوم الأخير، يوم الحساب.

في آخر الصالة، حيث يجري تسليم الأمتعة، ظهرت مجموعة من اليابانيين. لعلهم عشرون شخصاً. وضعت سيجارتي المشتعلة في صحن السجائر وأخذت رشفة من قهوتي وأنا أنظر إليهم يتقدمون. تلك اللمحة الأجنبية فيهم، تلك اللمحة التي ليست نتيجة لثيابهم أو مظهرهم بل لسلوكهم، تجعل المرء مجبراً على النظر إليهم، تجعله راغباً في العيش في اليابان محاطاً بهذه المسحة الأجنبية كلها، بالأشياء كلها التي يراها المرء لكنه لا يفهمها، بالأشياء التي قد يحدس المرء معانيها من غير أن يكون واثقاً منها... كان ذلك حلماً أحمله في داخلي منذ زمن بعيد. أن أجلس في بيت ياباني مؤثث بأسلوب بسيط متقشف؛ بيت له أبواب جرّارة وقواطع ورقية؛ بيت مصنوع من أجل الأناقة التي هي غريبة عني وعن طبعي المهمِل المنتمي إلى شمال أوروبا... سيكون هذا رائعاً. أن أجلس هناك وأكتب رواية وأرى كيف تبدأ الأشياء المحيطة بي، كيف تبدأ بشكل بطيء على نحو غير ملحوظ، تشكيل ما أكتبه... لأن طريقة تفكيرنا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما يحيط بنا تحديداً، بما نكون جزءاً منه وبالناس الذين نحدثهم والكتب التي نقرأها. اليابان، لكن أيضاً الأرجنتين حيث تكتسب المظاهر الأوروبية المألوفة لمسة مختلفة تماماً تنقلها إلى مكان مختلف تماماً... وإلى الولايات المتحدة في البلدة الصغيرة في ولاية مِين على سبيل المثال، حيث تكون الطبيعة شديدة الشبه بسواحل النرويج الجنوبية... ما الذي يمكن أن يعجز عن التدفق على صفحة الكتابة هناك؟

وضعت فنجاني وتابعت التدخين، ثم استدرت في مقعدي لأنظر إلى البوابة حيث يقف منذ الآن عدد من المسافرين رغم أن الساعة لم تبلغ الخامسة بعد.

لكنه دور طائرة بيرغن الآن.

سَرَت في جسدي ريح قارسة البرد.

لقد مات أبي!

للمرة الأولى منذ إن اتصل بي إنغفه، استطعت الآن رؤية أبي بعين عقلي. لم أر الرجل الذي كانه في السنوات الأخيرة، بل الرجل الذي عرفته عندما كنت أكبر، عندما كنا نذهب معه إلى الصيد أيام الشتاء، في البحر قرب جزيرة ترومويا حيث تُعوِل الريح

في آذاننا ويرتفع رذاذ الماء عالياً في الهواء عند تكسّر الأمواج الرمادية الضخمة على الصخور من تحتنا. كان يقف هناك حاملاً قصبة الصيد في يده، يقف محدقاً في البحر، ضاحكاً في اتجاهنا. شعر كثيف أسود، ولحية سوداء، ووجه فيه شيء من عدم التناظر الطفيف... تكسوه قطرات ماء صغيرة. ملابس زرقاء واقية من الماء، وحذاء مطاطي أخضر مرتفع الساق.

هكذا كانت الصورة.

من الطبيعي أنني أستدعي زماناً كان فيه أبي رجلاً جيداً. من الطبيعي أن يختار اللاوعي عندي حالة كانت لدي فيها مشاعر دافئة نحو أبي. كانت هذه محاولة للتلاعب بالأمر، ومن الواضح أنها ترمي إلى تمهيد الطريق أمام نزوع عاطفي لا عقلاني لا يلبث، عند انفتاح الباب أمامه، أن يطفح من غير قيد فيستولي عليّ. هكذا يعمل اللاوعي؛ فهو يرى نفسه نوعاً من قوة تصحيحية تمارس أثرها على الأفكار والرغبات وتهدم كل ما قد يمكن اعتباره معادياً للحس السليم المهيمن. لكن أبي وصل إلى ما كان سائراً إليه بقدميه. أمر حسن أنه مات!. سيكون كاذباً أي شيء في نفسي يقول غير هذا. لا تصح هذه النتيجة على الرجل الذي كانه أبي عندما كنت أكبر فحسب، بل هي صحيحة أيضاً على ذلك الرجل الذي قطع الروابط القديمة كلها عند منتصف العمر وبدأ من جديد. صحيح أنه تغير (تغير أيضاً موقفه مني) لكن هذا لم يفد في شيء، ولم أكن راغباً في معرفة شيء عما صاره أيضاً. لقد بدأ الشرب في الربيع عندما ذهب، ثم استمر ذلك طيلة الصيف. هذا ما كانا يفعلانه، أمي وأبي... كانا يجلسان في الشمس ويشربان، يمضيان أياماً ثملة رائعة. استمر الشرب عندما بدأت المدرسة من جديد، لكنه اقتصر على فترات العصر والمساء، وأيام نهاية أسبوع أيضاً. انتقلا إلى شمال النرويج وعملا معاً في مدرسة هناك. في ذلك المكان، صارت لدينا أول فكرة واضحة عن حالته لأننا، أنا وإنغفه وصديقته، طرنا إلى الشمال مرة لزيارته. أخذنا أبي من المطار في سيارته. كان شاحباً، وكانت يداه مرتجفتين. لم يكد يخاطبنا بكلمة واحدة. وعندما وصلنا إلى شقته، شرب ثلاث زجاجات من البيرة على وجه السرعة في المطبخ فبدا كأنه يعود إلى الحياة، وتوقف ارتجافه، صار منتبهاً إلى وجودنا وبدأ يتحدث معنا، وتابع الشرب أيضاً. خلال تلك الأيام القليلة (كان ذلك في عطلة الشتاء)، كان يشرب من غير توقُّف، وكان يواصل

التأكيد أمامنا على أنه في عطلة الآن، وأن في وسعنا أن نسمح لأنفسنا بشيء من الشراب، في هذا المكان خاصة حيث يسود الظلام طيلة الشتاء.

كانت أوني حبلَى في ذلك الوقت، وهذا ما جعله يشرب وحيداً. ثم عمل مُمتحِناً خارجياً في مدرسة في منطقة كريستيانساند خلال الربيع، ودعاني مع إنغفه وصديقته إلى الغداء في فندق كاليدونيان. لكننا وصلنا إلى بهو الاستقبال في الفندق حيث اتفقنا على اللقاء، فلم نجده. انتظرنا نصف ساعة، ثم سألنا موظف الاستقبال فأجابنا بأنه في غرفته. صعدنا إلى غرفته، وطرقنا الباب، فلم نتلق إجابة، لا بد أنه نائم! قرعنا الباب بأشد من قبل وناديناه، لكنه لم يجبنا. غادرنا الفندق خائبَين. وبعد يومين، احترق فندق كاليدونيان فصار أنقاضاً. قتل إثنا عشر شخصاً. قدت السيارة إلى ذلك المكان مع باسين في استراحة الغداء (كنت في الصف الثاني في المدرسة الثانوية آنذاك)، ورأينا رجال الإطفاء يخمدون النار. لو كان أبي هناك، لكان واحداً من الضحايا من غير أي شك نظراً إلى الحالة التي كان فيها. هكذا قلت لباسين. لكني لم أفهم، ولم يفهم إنغفه أيضاً، ما كان يحدث له. ما كانت لدينا تجربة مع مدمني الكحول، لأن أحداً في العائلة كلها ما كان مدمناً، وذلك رغم إدراكنا أنه صار يشرب كثيراً. سرعان ما صرنا نشهد ليالي شرب كثيرة تنتهي بدموع ومشاجرات وغيرة... تتبعثر فيها الكرامة الشخصية في كل اتجاه. لكن ذلك ما كان يستمر طويلاً لأن كل شيء يعود إلى مكانه في صباح اليوم التالي. كان أبي يقوم بعمله على الوجه السليم دائماً. وكان فخوراً بذلك. هذا ما منعنا من إدراك أنه صار غير قادر على التوقف؛ بل لعله ما كان راغباً في التوقف أيضاً. إنها حياته الآن، إنه ما يفعله بنفسه... رغم كونه أنجب طفلاً منذ فترة قليلة. كان يستيقظ في حالة بائسة بعض الأيام عندما يكون عليه أن يذهب إلى العمل، لكنه ما كان يثمل في المدرسة على الإطلاق. ما كان لبضع زجاجات من البيرة خلال النهار أي أثر عليه. انظروا إلى الدانماركيين: إنهم يشربون وقت الغداء، لكن أمورهم تسير جيداً في الدانمارك، أليس كذلك؟

اعتادا أن يذهبا جنوباً في الشتاء، وأن يقدما شكاوى كثيرة. رأيت هذا في رسالة وجدتها مصادفة عندما كنت عندهما ذات مرة. كانت هنالك قضية أمام المحكمة لأن أبي انهار ذات مرة وأخذوه إلى المستشفى بسيارة إسعاف. داهمته آلام صدرية شديدة، فأقام دعوى قضائية ضد شركة السفر لأنه اعتبر أن المعالجة الطبية التي تلقاها أدت إلى

إصابته بنوبة قلبية. لكن الشركة قدمت رداً جافاً مفاده؛ أن ذلك لم يكن نوبة قلبية: لقد انهار نتيجة الكحول والأدوية.

تركا شمال النرويج أخيراً وانتقلا عائدين إلى سورلاند حيث بدأ أبي يشرب من غير توقف. صار الآن بديناً منتفخاً، وصار يأكل كثيراً. صار بقاؤه صاحياً بضع ساعات حتى يتمكن من جلبنا من المطار بسيارته أمراً غير مطروح في هذه المرحلة. انفصل عن أوني، وانتقل إلى بلدة في أوستلاند حيث صار لديه عمل جديد. إلّا أنه فقد تلك الوظيفة بعد بضعة شهور، لم يعد لديه شيء: لا زواج، ولا وظيفة... تقريباً، لم يبق لديه طفل أيضاً رغم أن أوني كانت تريد أن يمضيا بعض الوقت معاً، بل سمحت له بذلك في واقع الأمر، لكن هذا أيضاً لم يجر بشكل جيد. ثم انتهى الأمر بأن سُحب منه حق زيارة الطفل. لكن تأثير هذا عليه ما كان كبيراً. كان في غاية الغضب، رغم ذلك. وأظنه غضب لأن ذلك كان حقاً له، ولأنه صار شديد التمسك بحقوقه في كل فرصة تسنح له الآن. حدثت أشياء فظيعة، ولم يبق لأبي غير شقته في أوستلاند حيث يجلس فيها ويشرب عندما لا يكون في الحانات في أنحاء البلدة. صار سميناً مثل برميل. ومع أن جلده ظل أسمر ملوَّحاً مثلما كان من قبل، إلّا أنه اكتسب مسحة كامدة. صار كأنه مغلف بغشاء كامد اللون. ومع كل ذلك الشعر على وجهه ورأسه، إضافة إلى ثيابه المهملة، صار يبدو مثل رجل متوحش عندما يتجول هنا وهناك باحثاً عن شيء يشربه. وذات مرة اختفى؛ ظل ضائعاً عدة أسابيع كأنه ذاب في أحشاء الأرض. اتصل غونار بإنغفه وقال إنه أبلغ الشرطة باختفائه. ظهر أبي من جديد في مستشفى في مكان ما في أوستلاند. كان يلازم الفراش هناك غير قادر على المشي. إلّا أن هذا الشلل ما كان دائماً فقد تمكن من الوقوف على قدميه من جديد. وبعد بضعة أسابيع قضاها في مصحة للمدمنين على الكحول، عاد إلى متابعة حياته من حيث تركها. لم تكن لي صلة معه خلال هذه المرحلة. لكنه كان يزور أمه كثيراً، ثم ازدادت زياراته لها وصار يمضي لديها أوقاتاً أطول، ثم أكثر طولاً. وفي النهاية، انتقل للعيش معها وأقام لنفسه معقِلاً هناك. خبأ ممتلكاته كلها في المرآب، وطرد المساعِدة المنزلية التي جاء بها غونار لتعمل من أجل جدتي التي لم تعد قادرة على رعاية نفسها. أغلق الأبواب وظل داخل البيت مع أمه حتى يوم وفاته. كان غونار قد اتصل بإنغفه ذات مرة وأخبره بحقيقة الوضع. قال له، من بين أشياء أخرى، إنه ذهب إلى بيت أمه مرة فوجد أبي مستلقياً على الأرض في غرفة

المعيشة. لقد كسر ساقه، وبدلاً من أن يطلب من جدتي أن تتصل بالإسعاف لأخذه إلى المستشفى، أمرها بألا تخبر أحداً على الإطلاق، ولا غونار. وهكذا لم تخبر العجوز أحداً. فظل أبي راقداً محاطاً بأطباق فارغة وبقايا طعام وكؤوس وزجاجات من البيرة والكحول كانت تحضرها له من مخزونه الوافر. لم يكن غونار يعرف كم من الوقت مر عليه مستلقياً هناك. لعله ظل هكذا يوماً، أو لعله ظل يومين. كان التفسير الوحيد لاتصاله مع إنغفه هو أنه يرى من واجبنا أن نتدخل في الأمر، وننقل والدنا من البيت لأنه سيموت هناك. ناقشت الأمر مع إنغفه، لكننا قررنا ألا نفعل شيئاً. عليه أن يتدبر أمره بنفسه، وأن يعيش الحياة التي يريد، وأن يموت الموت الذي يريد.

وقد مات الآن! نهضت ومضيت إلى طاولة البيع في المقهى حتى أصب مزيداً من القهوة. كان هنالك رجل في بدلة داكنة أنيقة ووشاح حرير حول رقبته ونثار من قشرة الرأس على كتفه يصب القهوة لنفسه عندما وصلت. وضع الفنجان الأبيض، وملأه بالقهوة السوداء حتى حافته، ثم وضعه على الصينية الحمراء ونظر إليَّ متسائلاً وهو يرفع الإبريق بيده.

قلت: «سوف أصب قهوتي بنفسي. شكراً لك».

قال: «كما تريد». ثم أعاد الإبريق إلى مكانه فوق الموقد. خمّنت أنه أكاديمي من نوع ما. مدت النادلة يدها عندما رفعت فنجاني. كانت امرأة ضخمة في الخمسينيات؛ لا بد أنها من بيرغن... كنت أرى هذا الوجه في أنحاء البلدة كلها خلال السنوات التي عشتها هناك، كنت أراه في الباصات وفي الشوارع وخلف القضبان وفي المتاجر... هذا الشعر القصير المصبوغ نفسه والنظارات المربعة التي لا يمكن أن تعجب أحداً غير النساء في هذه السن.

قلت: «أريد أن أملأ الفنجان».

قالت بلهجة بيرغن العريضة: «خمسة كرونات».

وضعت الكرونات الخمسة في كفها وعدت إلى طاولتي. كان فمي جافاً. وكان قلبي يخفق سريعاً كما لو أنني في حالة انفعال، لكني لم أكن كذلك! على العكس تماماً: كنت أحس نفسي هادئاً بطيء الحركة عندما جلست أنظر إلى الطائرة الصغيرة المعلقة من السقف الزجاجي الضخم، وأنظر إلى لمعان الضوء من تحتها كأنه منعكس على شيء ما. ألقيت نظرة صوب بوابة المغادرين فرأيت الساعة تشير إلى الخامسة

والربع. ثم نظرت إلى الأسفل، إلى الناس المصطفين، وإلى السائرين في الردهة، إلى الجالسين يقرأون صحفهم، وإلى الواقفين الذين يثرثرون. كان الوقت صفياً، وكانت الملابس خفيفة هفهافة، والأجساد قد لوَّحتها الشمس، والمزاج طيب خفيف مثلما يكون الناس دائماً عندما يتجمعون من أجل السفر. عندما أجلس هكذا، مثلما أفعل أحياناً، أستطيع أن أرى الألوان متألقة، والخطوط حادة، والوجوه متمايزة مختلفة إلى حد لا يصدق. يكون كل شيء محمّلاً بالمعاني. أما من غير تلك المعاني (هذا ما أعيشه الآن) فإن الوجوه تبدو لي بعيدة غائمة على نحو ما، وجوه يستحيل تمييزها كأنها ظلال، لكن من غير ظلمة الظلال.

استدرت في الكرسي ونظرت إلى البوابة. كان جمع من المسافرين الذين لا بد أنهم وصلوا الآن يشق طريقه عبر الجسر الذي يشبه نفقاً ممتداً من الطائرة. ثم فُتح باب صالة المغادرين فبدأ المسافرون يدخلونها حاملين ستراتهم مطوية على أذرعهم وحقائب من كل نوع. كانوا ينظرون إلى الإشارة الدالة على مكان تسليم الأمتعة ثم يستديرون يميناً ويختفون عن مجال نظري.

مر بالقرب مني صبيان يحملان فنجانين ورقيين من الكوكاكولا مع مكعبات جليد. كان لأحدهما بعض الزغب على شفته العليا وذقنه. لا بد أنه في الخامسة عشر تقريباً. كان الصبي الثاني أقصر منه قامة، وكان وجهه من غير شعر، رغم أن هذا لا يعني بالضرورة أنه أصغر منه سناً. كانت شفتا الولد الطويل كبيرتين، ظلتا مفتوحتين. جعلته تلك الشفتان، مع العينين الخاليتين من أي تعبير يبدو غبياً. كانت عينا الصبي قصير القامة أكثر يقظة وانتباهاً، لكنه الانتباه الذي يمكن أن يكون في عيني صبي في الثانية عشرة من العمر. قال شيئاً فضحكا، لا بد أنه كرر ذلك الشيء من جديد عندما بلغ تلك الطاولة لأن الجالسين هناك ضحكوا أيضاً.

فاجأني قصر قامة هذين الصبيين. كان من المستحيل عليَّ تقريباً تخيل أنني كنت قصيراً هكذا عندما كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمري. لكن، لا بد أنني كنت مثلهما. دفعت فنجان القهوة عني، وحملت سترتي مطوية على ذراعي، ثم أخذت حقيبتي وسرت إلى البوابة. جلست عند الطاولة حيث كان رجل وامرأة في ملابس رسمية يعملان على شاشة الحاسوب. استندت بظهري وأغمضت عيني بضع ثوانٍ. ظهر لي وجه أبي من جديد. كان كأنه يطفو في البياض. حديقة يلفها

ضباب خفيف، وعشب داسته الأقدام ملوث بالطين قليلاً، وسلم مستند إلى شجرة، ووجه أبي يلتفت صوبي. إنه يحمل السلم بيديه الاثنتين. رأيته مرتدياً حذاء طويل الساق وكنزة صوفية سميكة. إلى جانبه وعاءان كبيران في هذا الحقل، ودلو معلق بخطاف إلى قمة السلم.

فتحت عينيّ. لا أذكر أنني رأيت هذا من قبل. هذه ليست ذكرى. لكن، إن لم تكن ذكرى، فما عساها تكون؟

أوه، لا... لقد مات أبي!

أخذت نفساً عميقاً، ثم نهضت. كان صف صغير من الناس قد تشكل عند المدخل. وفي ذلك الصف، كان المسافرون ينظرون إلى حركات الموظفين، يحاولون تفسيرها: صاروا موجودين هناك فور ظهور ما يشير إلى أن الإقلاع صار وشيكاً.

لقد مات!

اتخذت مكاني خلف الشخص الأخير في الصف. كان رجلاً عريض الكتفين أقصر مني بمقدار نصف الرأس. رأيت الشعر النامي على رقبته من الخلف وعلى أذنيه. فاحت منه كولونيا الحلاقة. أتت امرأة وانضمت إلى الصف، خلفي. استدرت برأسي لأنظر إليها نظرة سريعة. رأيت وجهها فبدا لي أكثر شبهاً بالقناع منه بملامح وجه بشري... أحمر شفاه أنيق، وحمرة على الخدود، وكحل يحدِّد العينين، وبودرة، لكن رائحتها طيبة.

رأيت العاملين يبعدون الجسر عن الطائرة. ورأيت المرأة ذات اللباس الرسمي تتكلم في الهاتف. وبعد أن وضعت السماعة، حملت ميكروفوناً صغيراً فأعلنت أن الطائرة مستعدة لاستقبال المسافرين. فتحتُ الجيب الخارجي في حقيبتي وأخرجت التذكرة. عاد قلبي يخفق سريعاً من جديد كأنه ذاهب في رحلة، وحده! كان الوقوف هناك أمراً لا يطاق. لكن عليَّ أن أقف. رحت أنقل ثقل جسدي من قدم إلى أخرى، وملت برأسي إلى الأمام لأرى مدرج الإقلاع عبر النافذة. مرت آلية صغيرة تقطر عربات الأمتعة. مر بنا رجل في ملابس العمل يضع واقيات الأذنين. كان يحمل تلك الأشياء التي تشبه مضارب كرة الطاولة، الأشياء التي يستخدمونها للإشارة من أجل حركة الطائرة. بدأ الرتل يتحرك إلى الأمام. كان قلبي يخفق سريعاً. تعرقت راحتا يدي. كنت مشتاقاً إلى المقعد، مشتاقاً إلى أن أصير عالياً في الهواء وأنظر نحو

الأسفل. كانت تذكرة الرجل القصير الذي أمامي قد أعيدت إليه. قدمت تذكرتي إلى المرأة ذات الملابس الرسمية. ولسبب ما، نظرت مباشرة في عينيّ عندما أخذتها مني. كانت امرأة جذابة بطريقة عنيفة، وكانت ملامحها عادية... لعل أنفها كان مدبباً بعض الشيء، ولعل فمها أصغر من المعتاد. كانت عيناها زرقاوين لامعتين، وكانت الدائرتان حول حدقتيهما واضحتين على نحو غير معتاد. بادلتها النظر لحظة قصيرة، ثم خفضت عيني. ابتسمت المرأة وقالت: «أتمنى لك رحلة طيبة».

أجبتها: «شكراً». ثم لحقت بالآخرين حتى الطائرة عبر الممر الشبيه بالنفق. أومأت مضيفة في منتصف العمر برأسها مرحّبة بالقادمين. سرت عبر ممر الطائرة حتى آخر صف من المقاعد. وضعت حقيبتي في الخزانة العلوية الصغيرة ومعها معطفي، ثم جلست في المقعد الضيق ووضعت الحزام. مددت ساقي واستندت بظهري إلى المقعد.

هكذا يجري الأمر.

أفكار تشبه الأفكار، تتزايد... أنا جالس في الطائرة، في طريقي إلى دفن أبي، في حين أفكر في أنني جالس في الطائرة في طريقي إلى دفن أبي. كل شيء أراه: الوجوه والأجساد التي تتحرك في الطائرة، يضعون أمتعتهم هنا، ويجلسون، ويضعون أمتعتهم هناك ويجلسون... كان يعقب ذلك ظل منعكس لا يكف عن إخباري بأنني أرى هذا الآن بينما أفكر في أنني أرى هذا الآن، وهكذا دواليك، ما أسخف هذا!... حضور هذه الفكرة الظل، أو لعل من الأفضل أن أقول حضور هذه الفكرة المرآتية... كان حضورها يتضمن انتقاداً، يشير إلى أنني ما كنت أحس أكثر مما أحسه. لقد مات أبي! هكذا قلت في نفسي تظهّرت أمامي صورة له كأنني في حاجة إلى صورة توضح كلمة «أبي». وأنا جالس في الطائرة، في طريقي إلى دفنه، أتعامل ببرودة مع هذا الأمر، هكذا أظن، وأنظر إلى فتاتين في العاشرة تجلسان في أحد صفوف المقاعد، وأنظر إلى من لا بد أنهما والد الفتاتين ووالدتهما يجلسان إلى الناحية الأخرى من الممر، في الصف نفسه، وأفكر في أنني أفكر في أنني أفكر! كانت الأحداث تندفع عبري بسرعة عظيمة، ولا شيء منها يحمل معنى. بدأت أشعر بالغثيان. وضعت امرأة حقيبتها في الخزانة التي فوقي، ثم خلعت معطفها ووضعته إلى جانب الحقيبة، ثم التقت عينانا فابتسمت تلقائياً وجلست إلى جانبي. كانت في الأربعين تقريباً، وكان وجهها لطيفاً، وعيناها دافئتين،

وشعرها أسود. إنها امرأة قصيرة القامة، ممتلئة قليلاً، لكنها ليست بدينة. كانت ترتدي ما يشبه بذلة، بنطلوناً وسترة من اللون نفسه. ما الاسم الذي تطلقه النساء على هذه الملابس؟ كانت ترتدي بلوزة بيضاء أيضاً. نظرت أمامي، لكن انتباهي ما كان منصباً على ما أراه أمامي بل على ما أراه من زاوية عيني. هناك كانت «آنـا»، قلت هذا في نفسي وأنا أسترق النظر إليها. لا بد أنها كانت تضع نظارة لم ألاحظها في البداية لأنها ثبتتها الآن على حافة أنفها ثم فتحت كتاباً. كان فيها شيئاً يشبه موظفي المصارف، أليس كذلك؟ لا أقصد لطفهم، رغم ذلك، ولا بياضهم. فخذاها اللذان رأيتهما ينفرجان قليلاً تحت قماش البنطلون عندما جلست في مقعدها... كم يكون بياضهما في ساعة مظلمة متأخرة ذات ليلة في غرفة فندق في مكان ما؟

حاولت أن أبلع ريقي، لكن فمي كان جافاً إلى درجة جعلت اللعاب القليل الذي فيه غير كافٍ لتبليل المسافة كلها إلى حلقي. توقف مسافر آخر عند صفنا. كان رجلاً في أواسط العمر، شاحباً، صارم المظهر، نحيلاً، يرتدي بذلة رمادية. جلس الرجل في المقعد المجاور إلى الممر من غير أن يلقي نظرة جانبية في اتجاهي أو في اتجاهها. أعلنوا في مكبِّر الصوت الداخلي أن الطائرة على وشك الإقلاع. اكتمل عدد المسافرين.

انحنيت إلى الأمام لأنظر إلى السماء فوق المطار. إلى جهة الغرب، كانت حزمة من الغيوم قد انفرجت قليلاً فأنارت الشمس قسماً من الغابة... خضرة لامعة، متألقة تقريباً. علا صوت المحركات. اهتز زجاج النافذة اهتزازاً واهناً. وضعت المرأة الجالسة إلى جانبي إصبعها عند الصفحة التي وصلت إليها في الكتاب ونظرت أمامها.

كان لدى أبي خوف دائم من الطيران. إنها المرات الوحيدة في طفولتي التي أذكر أنه كان يشرب فيها. كان يتجنب الطيران، كقاعدة عامة. وكنا نسافر بالسيارة إذا أردنا الذهاب إلى مكان ما، مهما تكن المسافة بعيدة. لكنه كان مضطراً للطيران عندما يكون سفره بعيداً، وفي تلك الحالة كان يبتلع ما يجده من مشروبات كحولية في مقهى المطار. كانت لديه أشياء أخرى يتجنَّبها أيضاً، لكنني لم أفكر فيها أبداً، ولم أرها أبداً، لأن ما يفعله الشخص منا يغطي دائماً على الأشياء التي لا يفعلها. ثم إن الأشياء التي لم يكن أبي يفعلها ما كانت أشياء تثير الريبة... ربما لأنه لم يكن شخصاً عُصابياً أبداً. لكنه لم يكن يذهب إلى الحلاق أبداً؛ كان يقص شعره بنفسه. لم يكن يستخدم الباص في تنقلاته. وما كان يقوم بالتسوق في المتاجر المحلية إلّا نادراً... كان يذهب دائماً

إلى المتاجر الكبيرة خارج المدينة. تلك الحالات كلها التي يمكن أن تجعله على احتكاك بالناس، أو التي يمكن أن تجعل الناس يرونه، كان يتجنبها كلها رغم كونه معلماً من حيث المهنة، أي أنه كان يقف أمام تلاميذه كل يوم، وكان يستدعي أهلهم إلى بعض الاجتماعات أحياناً، كما يتحدث أيضاً مع زملائه في غرفة المدرسين كل يوم؛ لكنه ظل يحاول دائماً أن يتجنَّب حالات الاحتكاك الاجتماعي هذه. ما الأمر الذي يجمع بين هذه الحالات كلها؟ أيكون الجامع بينها أن أبي كان يخاف الذوبان في المجتمع، بحيث لا تكون لديه فرصة الإفلات منه؟ هل كان يخشى أن يُرى بطريقة لا سيطرة له عليها؟ هل كان يشعر أنه في وضع هش مهدد عندما يكون في الباص، أو عندما يجلس على كرسي الحلاق، أو عندما يقف أمام صندوق المحاسبة في المتجر؟ هذا كله ممكن تماماً. لكني لم ألاحظ شيئاً عندما كنت هناك. لم يحدث لي إلّا بعد سنوات كثيرة، سنوات كثيرة جداً، أن فوجئت عندما تذكرت أنني لم أره في الباص يوماً. ثم إنه ما كان يشارك أبداً في أي نشاط من المناسبات الاجتماعية المتعلقة بنشاطات إنغفه ونشاطاتي. أتى مرة لحضور مسرحية في نهاية الفصل، وجلس قريباً من الجدار ليرى العرض الذي تدرّبنا من أجله. كنت أؤدي الدور الرئيسي لكني، لسوء حظي، لم أدرس ذلك الدور كما ينبغي... بعد النجاح الذي حققته في السنة التي قبلها صرت أعاني غروراً طفولياً فلم أر حاجة إلى دراسة دوري وحفظه. قلت في نفسي إن كل شيء سيكون في أحسن حال؛ لكني وقفت هناك (أظن أن حضور أبي كان له أثر في هذا)، ووجدت نفسي لا أكاد أستطيع تذكر شيء مما يجب أن أقول. راح معلمنا يستحثني ويساعدني طيلة العرض الذي كان يتحدث عن بلدة يُفترض أنني عُمدتها. وعندما صرنا في السيارة عائدين إلى البيت قال أبي إنه لم يشعر بحرج كهذا طيلة حياته، وإنه لن يحضر أي عرض لي بعد الآن. وقد التزم بهذا القول. لم يذهب أيضاً إلى أي مباراة هامة من مباريات كرة القدم التي كنت أخوضها، ولم يكن أبداً واحداً من الآباء الذين يأخذون أبناءهم بالسيارة من أجل المباريات البعيدة. لم يكن أبداً واحداً من الآباء الذين يحضرون المباريات التي تقام في المدينة. لم تكن لي بدوري ردة فعل على ذلك، بل إنني لم أر في الأمر شيئاً غير مألوف... لأن أبي كان هكذا، وهنالك آباء كثر مثله. كان ذلك أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات عندما كانت الأبوّة شيئاً مختلفاً، عندما كانت لها دلالة أقل شمولاً واتساعاً مما هي الآن، من

الناحية العملية على أقل تقدير. لا، ليس ما قلته صحيحاً!... لقد ذهب لرؤيتي ألعب ذات مرة.

حدث ذلك في الشتاء عندما كنت في الصف الثامن. أخذني بالسيارة إلى الشاطئ الرملي في كجيفيك. وكان يعتزم مواصلة الطريق إلى كريستيانساند. كانت لدينا مباراة تدريبية في مواجهة فريق من منطقة بعيدة عن البحر. جلسنا في السيارة صامتين كشأننا دائماً. كان يضع يداً واحدة على مقود السيارة ويترك الأخرى مستندة إلى الباب. أما أنا فكانت يداي مضمومتين في حجري. وعند ذلك، جاءتني فكرة مفاجئة فسألته إن كان يريد متابعة المباراة. لا يستطيع... عليه أن يتابع السفر إلى كريستيانساند، أليس كذلك؟ نعم، قلت له إنني لم أكن أتوقع أن يوافق. ما كان في ما قلته أي شعور بالخيبة. ولا معنى لأن أكون قد رغبت حقاً في أن يرى هذه المباراة التي هي مباراة لا أهمية لها على أيّ حال. كانت كلمات قلتها فحسب، ولم أظن حقاً أنه يمكن أن يكون راغباً في مشاهدة المباراة. عند اقتراب الشوط الثاني من نهايته، رأيت سيارته عند آخر الملعب خلف أكوام الثلج المرتفعة. استطعت تمييز شكله الذي يبدو غامضاً من خلف زجاج السيارة الأمامي. لم تكن قد بقيت إلّا دقائق قليلة على نهاية المباراة عندما تلقيت تمريرة من هارالد، وما كان عليَّ إلّا أن أمدَّ قدمي إلى الكرة. فعلت ذلك، لكني مددت قدمي اليسرى التي لم أكن أتحكم بها كثيراً. انطلقت الكرة طائرة، لكني أخطأت الهدف. علق على ذلك عندما كنا في السيارة عائدين إلى البيت. قال لي: «أنت لم تستفد من الفرصة جيداً. كانت لك فرصة عظيمة في تلك اللحظة. لم أتوقع أن تخطئ الهدف». أجبته: «أوه، صحيح، لكننا فزنا على أيّ حال». سألني: «ما النتيجة؟» أجبته: «اثنان إلى واحد». قلت هذا وأنا ألتفت إليه لأنني أردت منه أن يسألني عمن سجل هذين الهدفين. والمعجزة أنه سألني حقاً. قال لي: «هل أنت من سجل الهدفين؟» أجبته: «نعم. أنا من سجَّل الهدفين».

أسندت جبهتي إلى النافذة. كانت الطائرة ساكنة عند حافة مدرج الإقلاع. بدأت محركاتها تعمل بقوة الآن، وبدأت أبكي. لا أدري من أين جاءت دموعي! عرفت بها عندما انهمرت... هذا غباء، هكذا قلت في نفسي، وهو شيء مفرط العاطفية، إنه حماقة! لكن هذا لم يفدني في شيء لأنني وجدت نفسي عالقاً في مشاعر ناعمة غامضة لا حدود لاتساعها، ولم أستطع تخليص نفسي منها إلّا بعد مضي عدة دقائق، بعد أن

أقلعت الطائرة ثم بدأت تتسلق مسارها الصاعد مزمجرة. عند ذلك، صفا ذهني من جديد، صفا أخيراً، فخفضت رأسي حتى قميصي ومسحت عيني بحافّته التي أمسكتها بين إبهامي وسبابتي. ظللت أنظر من النافذة وقتاً طويلاً إلى أن صرت غير قادر على الإحساس بنظرات جارتي مسلطة علي. أسندت جذعي وأغمضت عينيّ. لكن الأمر لم ينتهِ. أحسست أن هذه بدايته فقط.

لم تكد الطائرة تستوي في طيرانها بعد صعودها حتى خفضت مقدمتها وبدأت مرحلة الهبوط. مضت المضيفات مسرعات بعرباتهن في الممر جيئة وذهاباً محاولات تقديم الشاي والقهوة إلى الجميع. صار المنظر في الأسفل جميلاً وعراً بعد أن كان هضبة معزولة فقط ظاهرة عبر فتحات في الغيوم. الآن بدت الجزر الخضراء والبحر الأزرق والأوجه الصخرية المنحدرة والجبال الثلجية البيضاء. لكن ذلك لم يلبث أن بدأ ينزاح ويتراجع مع اختفاء الغيوم، إلى أن صار سهل روغالاند المستوي يحتل المشهد كله. كان ما في داخلي يعيش عذاباً. ذكريات لم أعرف أنها موجودة عندي بدأت تفيض وتجري في داخلي، صاخبة، فوضوية؛ أما أنا فحاولت تخليص نفسي منها لأنني لم أكن أريد أن أجلس باكياً هناك، وأن أحلِّل كل شيء... رغم قلة نجاحي في ذلك التحليل. رأيته بعين عقلي عندما مضينا إلى التزلج معاً ذات يوم في هوفِه، عندما رحنا ننزلق خارجين من الأشجار وعائدين إليها فنرى البحر خلف كل فسحة، نراه رمادياً ثقيلاً واسعاً، ونشم رائحته أيضاً، نشم عبق الملح والأعشاب البحرية الذي يبدو كأنه يعيش جنباً إلى جنب مع عبق الثلج وأشجار السرو. كان أبي يتقدمني بعشرة أمتار، أو لعلها عشرين متراً، لأنه لا يتقن التزلّج (رغم حقيقة أن معدّاته كانت جديدة كلها، من أحزمته من ماركة روتافيلا إلى زلاجتيه من ماركة سبليت كين، إلى سترته الزرقاء) بل يترنح مندفعاً إلى الأمام كأنه عجوز خرف، من غير توازن، ومن غير انسجام ولا إيقاع؛ إن كان هنالك شيء لا أريده، فهو الربط بيني وبين هذا الشخص المتزلج أمامي! هذا ما كان يجعلني أتأخر عنه دائماً... كانت تملأ رأسي أفكار عن نفسي وعن أسلوبي الذي يمكن (وماذا أعرف عن ذلك؟) أن يمضي بي بعيداً ذات يوم. باختصار، كان وجوده محرجاً لي! ما كانت عندي أية فكرة في ذلك الوقت عن أنه اشترى معدات التزلج هذه كلها وجاء بنا بالسيارة إلى الناحية القصية من ترومويا في محاولة لأن يكون قريباً مني. أما الآن، وأنا جالس هنا بعينين مغمضتين متظاهراً بالنوم، بينما بدأ يبث الإعلان

عن ضرورة وضع الأحزمة وإعادة المقاعد إلى وضعها العمودي، كانت هذه الفكرة تهددني بنوبة أخرى من البكاء. وعندما ملت إلى الأمام من جديد وقرَّبت رأسي من جدار الطائرة حتى أختبئ، كان ذلك من غير حماسة كبيرة لأن من حولي من المسافرين لا بد أن يكونوا قد عرفوا، منذ الإقلاع، أنهم برفقة شاب باكٍ. آلمني حلقي، وما عدت قادراً على ضبط نفسي. عام كل شيء مندفعاً في داخلي، وكنت مفتوحاً على اتساعي، لكن ليس في اتجاه العالم الخارجي الذي ما عدت قادراً على رؤيته، بل صوب داخلي حيث استولت مشاعري عليّ. كان الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله حتى أنقذ آخر بقية من كرامتي هي أن أمنع نفسي من إصدار صوت. لا نشيج، ولا تنهَّد، ولا أنين. فقط دموع تجري على هواها، ووجه تشوِّهه تكشيرة كلما بلغت فكرة أن أبي قد مات ذروةً جديدة.

آآآه.... آآآه.

عند ذلك، على نحو مفاجئ تماماً، صفا كل شيء في رأسي وبدا كما لو أن كل ما ملأني من انفعالات وتشوش طيلة ربع ساعة كاملة قد تراجع مثلما يتراجع المد. جعلتني هذه الفسحة الواسعة التي فزت بها نتيجة ذلك أنفجر ضاحكاً.

سمعت نفسي مُقهقهاً... ها ها ها.

رفعت ذراعي ودلكت بها عينيّ. جاءت نوبة ضحك جديدة سببها أن المرأة الجالسة إلى جانبي قد رأتني جالساً هناك بوجه تشوّهه تكشيرات مستمرة مخيفة، لكنها الآن تستمع إلى موجة من الضحك.

ها ها ها. ها ها ها.

نظرت إليها. لم تحول اتجاه عينيها. كانت محدقة في صفحة الكتاب أمامها. وخلفنا مباشرة، كانت مضيفتان جالستين على مقعدين قابلين للطي تثبتان حزاميهما حول وسطيهما. وخارج النافذة، كان كل شيء أخضر مشمساً. صار الظل الذي يتبعنا فوق الحقل يقترب من الطائرة أكثر فأكثر كأنه سمكة يشدها الخيط إلى الصنارة، إلى أن صار ذلك الظل تحت جسم الطائرة لحظة لمست عجلاتها أرض المهبط، وظل جاثماً هناك كأنه مثبَّت إليها حتى توقفت حركتها تماماً.

بدأ الناس ينهضون من حولي. استنشقت نفساً عميقاً. كان إحساسي بأنني أفرغت ما في رأسي شديد القوة. لم أكن سعيداً، لكنني كنت مرتاحاً مثلما يحدث دائماً عندما

ينزاح عبء ثقيل من غير توقّع. أما المرأة التي إلى جانبي فقد أغلقت كتابها الآن فأتاحت لي فرصة معرفة ما كانت تقرأه. نهضت حاملة الكتاب في يدها، ثم وقفت على أطراف أصابعها حتى تأخذ أشياءها من الخزانة. إنه كتاب «المرأة والقرد» لبيتر هويغ. هذا ما كان يشغلها. لقد قرأت هذا الكتاب ذات مرة، فكرة جيدة، وتنفيذ رديء. هل يمكن، في ظل ظروف طبيعية، أن أبدأ حديثاً معها عن الكتاب؟ أي... عندما يكون فعل ذلك أمراً شديد السهولة مثلما هو الآن. لا، لن أفعل هذا؛ لكنني كنت سأجلس مفكراً في أن عليَّ أن أفعله. هل حدث من قبل أن بادرت إلى بدء حديث مع شخص غريب؟

لا، لم يحدث هذا أبداً!

وما كان هنالك ما يشير إلى أنني يمكن أن أفعله.

انحنيت إلى الأمام حتى أنظر من النافذة، حتى أنظر إلى أسفلت المدرج المغبر مثلما فعلت مرة قبل عشرين عاماً عندما نويت، نية غريبة لكنها واضحة، أن أتذكر ما أراه إلى الأبد. كنت على متن طائرة، مثلما أنا الآن، في مطار سولا، مثلما أنا الآن؛ لكنني كنت في طريقي إلى بيرغن في ذلك الوقت، ومن هناك إلى بيت جديّ في سوبورفاغ. أستدعي هذه الذكرى كلما سافرت بالطائرة، أستدعي هذه الذكرى التي فرضتها على نفسي. كانت هي بداية الرواية التي فرغت من كتابتها قبل وقت قصير، التي تقبع الآن في حقيبة تحتي، في بطن الطائرة، على هيئة مخطوط من ستمئة صفحة عليَّ أن أراجعه خلال أسبوع.

ها هو شيء جيد على الأقل!

كنت تواقاً إلى رؤية إنغفه أيضاً. بعد أن انتقل من بيرغن إلى باليستراند في البداية حيث التقى كاري آن التي صار له طفل منها، ثم إلى ستافانغر حيث ولد له طفل آخر، عرفت العلاقة بيننا تغيراً: لم يعد شخصاً أستطيع أن أذهب لرؤيته عندما لا يكون لدي شيئاً آخر أفعله، أذهب معه إلى المقهى أو إلى حفلة موسيقية؛ لقد صار الآن شخصاً أزوره من حين لآخر وأظل عنده أياماً مع كل ما يستتبعه هذا بالنسبة للحياة العائلية. لكنني كنت أحب هذه الزيارات، وقد أحببت دائماً قضاء الليل مع أسرٍ أخرى حيث تكون لنا غرفتنا بسريرها الذي وضعت عليه مفارش جديدة، وبأشيائها الكثيرة التي لم نألفها، ومنشفة للاستحمام وأخرى صغيرة للوجه مطويَّة بشكل لطيف... ومن هنالك إلى قلب الحياة العائلية مباشرة رغم وجود جانب غير مريح على الدوام، مهما يكن الشخص الذي أزوره. وذلك أنه رغم محاولة الناس دائماً إخفاء ما لديهم من توترات

وإزاحتها إلى الخلف كلما كان لديهم ضيوف، فإن تلك التوترات تظل ظاهرة دائماً ولا يمكنك أبداً معرفة إن كان وجودك هو ما يسبِّبها أو أنها موجودة في الأصل لكن حضورك يساعد في كبتها. وهنالك بالطبع احتمال ثالث: أن تكون هذه التوترات كلها مجرد «توترات»، توترات تعيش حياتها الخاصة في رأسي أنا.

صار الممر أقل ازدحاماً الآن، فنهضت وسحبت حقيبتي وسترتي، ثم خرجت متوجهاً إلى الممر المفضي إلى صالة المطار التي كانت صغيرة لكنها حسنة الترتيب ببواباتها الكثيرة وأكشاك البيع والمقاهي. كان المسافرون مندفعين، دخولاً وخروجاً، أو واقفين، أو جالسين يأكلون ويقرأون. أستطيع تمييز إنغفه والعثور عليه بين أي حشد من الناس. لست في حاجة إلى رؤية وجهه حتى أعرفه... يكفيني أن أرى رأسه من الخلف، أو كتفه، بل لعل ذلك ليس ضرورياً أيضاً... يكون لديك نوع من الإحساس تجاه من ترعرعت معهم وكنت قريباً منهم خلال فترة تكوّن شخصيتك واستقرارها. أنت تتلقاهم مباشرة من غير المرور بمصفاة التفكير. يكاد يكون كل ما تعرفه عن أخيك آتياً من خلال الحدس. لم أكن أعرف أبداً ما يفكر إنغفه فيه؛ ونادراً ما تكون لديَّ فكرة عن السبب الذي جعله يتصرف بهذا الشكل أو ذاك، وأظن أنني لا أشاركه قدراً كبيراً من آرائه رغم قدرتي على تخمين ما يفكر فيه. من هذه الناحية، كان إنغفه مجهولاً بالنسبة لي، مثل أي شخص آخر. لكنني أعرف لغة جسده، أعرف حركاته وإيماءاته، أعرف رائحته، وأدرك تلاوين صوته كلها، وأعرف مصدرها أيضاً. لا أستطيع التعبير بالكلمات عن شيء من هذا، ونادراً ما أفكر في شيء من هذا، لكنه يعني كل شيء. وهكذا، ما كنت مضطراً إلى أن أجول بعيني على الطاولات في محل البيتزا، ولا النظر إلى وجوه الجالسين عند البوابات أو السائرين عبر الصالة، وذلك لأنني عرفت مكانه مع أول خطوة خطوتها. اتجهت عيناي إلى تلك النقطة أمام المقهى ذي المظهر الإيرلندي القديم الزائف. رأيته واقفاً هناك مُصالباً ذراعيه مرتدياً بنطلوناً أخضر اللون، لكنه ليس عسكرياً، وقميصاً أبيض عليه صورة «سونيك يوثز غو» وسترة بلون أزرق خفيف وحذاء بوما بلون بني داكن. لم يرني بعد. نظرت إلى وجهه الذي أعرفه أكثر من أي شيء آخر. الوجنتان المرتفعتان اللتان ورثهما عن والدنا، والفم المعوجّ قليلاً... لكن شكل وجهه كله كان مختلفاً، وكانت المنطقة حول عينيه أكثر شبهاً بأمنا، وبي.

التفت فالتقت نظراتنا. كنت موشكاً على الابتسام، لكن شفتيَّ اعوجَّتا في تلك اللحظة، وتحت ضغط كانت مقاومته مستحيلة، عادت الانفعالات نفسها، وجدت طريقها... بدأت أبكي.

رفعت ذراعي إلى وجهي ثم أنزلتها فجاءت موجة أخرى وتقلص وجهي من جديد. لن أنسى أبداً التعبير الذي ظهر على وجه إنغفه. كان ينظر إليَّ غير مصدّق. ما كان في نظرته حكم على ما رآه، بل كان كأنه ينظر إلى شيء لا يستطيع فهمه، إلى شيء لم يتوقعه، إلى شيء ما كان مستعداً له على الإطلاق.

قلت من خلال دموعي: «مرحباً».

أجابني: «مرحباً. السيارة في الأسفل. هل نذهب؟».

سرت خلفه عبر السلم ثم عبر صالة الدخول فبلغنا موقف السيارات. لعلها تلك الحدّة الخاصة في هواء فيستلاند التي تظهر دائماً بصرف النظر عن درجات الحرارة والتي كانت ملحوظة على نحو خاص عندما سرنا في البداية تحت ظل سقف كبير... لعلها هي ما جعل رأسي يصفو... أو لعله ذلك الإحساس الشديد بالفسحة والفضاء الذي يتيحه المشهد الطبيعي المحيط بنا... لا أستطيع التحديد، لكن تلك الحالة فارقتني عندما بلغنا السيارة فانحنى إنغفه الذي وضع نظارته الشمسية الآن، وأدخل المفتاح في باب السائق.

قال وهو يشير إلى حقيبتي الصغيرة: «هل هذا كل ما لديك من أمتعة؟».

قلت: «أوه! يا للجحيم! سوف أذهب جرياً لإحضار حقيبتي؛ نسيتها!»

كان إنغفه وكاري آن يعيشان في ستورهوغ، وهي ضاحية تبعد مسافة بسيطة عن مركز مدينة ستافانغر، في بيت في نهاية صف من البيوت يشبه شرفة طويلة ممتدة، مع طريق يمر أمام تلك البيوت من الناحية الأخرى، ومن خلفه غابة منحدرة حتى الفيورد الذي يبعد بضع مئات من الأمتار. وعلى مقربة من هذا البيت، كان هنالك تجمع سكني، وضمن ضاحية أخرى من خلفه يقع بيت آسبجورن الذي هو صديق قديم لإنغفه بدأ معه منذ فترة وجيزة عملاً في مجال التصميم البصري. كان مكتبهما في علّية البيت؛ وكان مجهزاً بالمعدات التي اشترياها وباشرا تعلم استخدامها. لم يتلق أي منهما تدريباً في هذا المجال عدا دروس الإعلام في جامعة بيرغن، ولم تكن لهما أيّ صلات ذات قيمة بمن يعملون في هذا القطاع. لكنهما يجلسان في ذلك المكان، كل منهما وراء حاسوبه القوي من نوع ماكنتوش، ويعملان على المشاريع القليلة التي لديهما. ملصق من أجل

مهرجان هوندفادغ، وبضعة ملفات ومنشورات دعائية... هذا كل ما لديهما حالياً. لقد وضعا البيض كله في سلة واحدة، وكنت قادراً على فهْم ذلك عند إنغفه: بعد فراغه من الدارسة، عمل مستشاراً ثقافياً في مجلس ناحية باليستراند بضع سنين. لم يكن عالم التصميم عالمه، لكنها كانت مخاطرة، وما كان عليهما إلّا أن يستفيدا من ذائقتهما التي كانت قائمة على أرضية متينة ثم صارت متقدمة حقاً بعد أن تطورت بعد عشرين عاماً من تشكيلة واسعة من ثقافات البوب... من أغلفة الأفلام وأشرطة التسجيل، إلى الملابس، إلى الموسيقى، إلى المجلات وألبومات الصور... من الأشياء الغامضة المجردة إلى الأشياء المتسمة بطابع تجاري. كانا قادرين دائماً على التميز بين ما هو جيد وما هو غير جيد، سواء كان منتمياً إلى الماضي أو الحاضر. أذكر أننا ذهبنا مرة إلى بيت آسبجورن، وظللنا نشرب البيرة ثلاثة أيام؛ كان إنغفه يعزف لنا أغنيات بيكسيز التي كانت فرقة أمريكية جديدة غير معروفة في تلك الأيام، وكان آسبجورن مستلقياً على الأريكة غارقاً في الضحك لأن ما يُسمعنا إياه إنغفه كان جيداً حقاً... هذا جيد جداً! هكذا صرخ في غمرة صوت الموسيقى المرتفع. ها ها ها! هذا جيد جداً! عندما ذهبت إلى بيرغن، كنت في الثامنة عشرة، زارني مع إنغفه في غرفتي الصغيرة في واحد من أيامي الأولى هناك، فلم ترق لهما صورة جون لينون التي علقتها فوق مكتبي، ولا الملصق الذي يظهر فيه حقل من حقول الذرة وبقعة تلتمع بكثافة عجائبية، ولا ملصق فيلم «ذا ميشن» من بطولة جيرمي آيرونز. لا فرصة أبداً لأن يعجبهما هذا! كانت صورة لينون تذكاراً من سنتي الأخيرة في مدرستي الثانوية عندما كنت أناقش مع ثلاثة أصدقاء آخرين مسائل الأدب والسياسة ونستمع إلى الموسيقى ونشاهد الأفلام ونشرب النبيذ، عندما كنت غارقاً في الحياة الداخلية مبعداً نفسي عن كل ما هو خارجي. هذا ما جعل صورة نبيّ الصدق العاطفي، جون لينون، معلقة على جداري الآن رغم أنني أفضل حلاوة ماكارتني الشديدة دائماً، منذ طفولتي. لكن فرقة «بيتلز» لم تكن أيقونة بالنسبة إليهما في أيّ حال من الأحوال. لم يطل الأمر قبل أن تترك صورة لينون مكانها على الجدار. لكن ثقتهما فيما يتعلق بالذوق ما كانت في ميدان ثقافة البوب وحده: كان آسبجورن أول من امتدح توماس بيرنهارد بعد أن قرأ روايته «كونكريت» في سلسلة فيتا الصادرة عن دار غيلدندال. ظهرت هذه الرواية قبل عشر سنوات من الوقت الذي بدأ عنده مثقفو النرويج يمتدحون ذلك الكاتب. أما أنا، فأذكر أنني كنت غير قادر على

فهم افتتان آسبجورن بهذا الكاتب النمساوي، ولم أستطع اكتشاف عظمته إلّا بعد عشر سنوات، أي في الوقت الذي لقي فيه اعتراف مثقفي النرويج. كانت لدى آسبجورن «حاسة شم» حقيقية، وتلك كانت موهبته الكبرى. لم أعرف أحداً على الإطلاق لديه هذه الذائقة الواثقة... لكن، ما فائدتها من غير أن يكون صاحبها مركزاً تدور الحياة الطلابية من حوله؟ جوهر امتلاك الأنف الذكي هو القدرة على الحكم؛ وحتى تصدر أحكاماً عليك أن تقف في الخارج، لكن الإبداع لا يحدث هناك. كان إنغفه في الداخل أكثر من آسبجورن، وكان يعزف الغيتار في إحدى الفرق، ويكتب أغنياته بنفسه، ويستمع إلى الموسيقى من هناك... ثم إن لديه أيضاً جانباً تحليلياً أكاديمياً لم يكن آسبجورن يمتلكه، أو لم يكن آسبجورن يستخدمه. كان التحليل البصري ممتازاً عند كليهما، من نواحٍ كثيرة.

قبلتْ دار النشر روايتي في الوقت نفسه الذي شهد بداية عملهما هذا. وما كان هنالك أبداً مجال للتساؤل عن خيار آخر غير جعلِهما يصممان غلاف الكتاب فيخطوان الخطوة الأولى في عالم النشر. لكن من الطبيعي أن دار النشر لم تكن تنظر إلى الأمور بهذه الطريقة. قال الناشر، وكان اسمه غيير غوليكسن، إنه سوف يتصل بأحد مكاتب التصميم، وسألني إن كانت لديَّ أفكار بخصوص الغلاف. أجبته بأنني أريد أن يتولى أخي تصميمه.

«أخوك؟ هل هو مصمم؟».

«نعم... لقد بدأ ذلك منذ فترة وجيزة. لقد بدأ مع صديق له في ستافانغر. إنهما جيدان. أستطيع أن أشهد لهما بهذا».

قال غيير غوليكسن: «إذن، هكذا سنقوم بالأمر: سوف يقدمان اقتراحاً. وسوف ننظر فيه. إذا كان جيداً فلا بأس، ولن تكون هنالك أدنى مشكلة».

هذا ما حدث بالفعل. ذهبت لرؤيتهما في شهر حزيران/ يونيه. كان لديَّ كتاب من الخمسينيات عن الرحلات الفضائية. كان هذا الكتاب لأبي في الأصل، وكانت فيه رسوم كثيرة بأسلوب الخمسينيات المستقبلي المتفائل. كانت لدي أيضاً فكرة عن لون الغلاف... لون أبيض يشبه لون القشدة رأيته على غلاف كتاب «عالم الأمس» لستيفان سفايغ. كما أن إنغفه كان قد أفلح في الحصول على صورتين لمناطيد زيبلن رأيتهما مناسبتين للكتاب. جلس الصديقان على كرسييهما المكتبيين الجديدين في

العليّة مع انحدار الشمس صوب الغروب، وراحا يحضّران التصميم المقترح، بينما جلست أنا في كرسي خلفهما أنظر إلى ما يحدث أمامي. وفي الأمسيات، كنا نشرب البيرة ونتابع مباريات كأس العالم في كرة القدم. كنت سعيداً، متفائلاً. كان الإحساس أن حقبة قد انتهت وبأنني أدخل حقبة جديدة إحساساً قوياً في داخلي. انتهت تونجه من دراستها وحصلت على وظيفة في مؤسسة الإذاعة النرويجية في هوردالاند، أما أنا فأخطو خطوة البداية لكي أكون روائياً. انتقلنا قبلها بقليل إلى شقتنا الحقيقية الأولى في بيرغن، المدينة التي التقينا فيها أول مرة. كان إنغفه وآسبجورن (الذين تعلقت بأذيالهما خلال أيام دراستي كلها) قد انطلقا في طريقهما، وكان غلاف كتابي أول عمل حقيقي لهما. كان كل شيء مترعاً بإمكانات كثيرة، كل شيء متجهاً إلى الأمام، ولا بد أنها المرة الأولى التي أعيش فيها هذا الشعور. أنتجت تلك الأيام حصاداً طيباً لأننا حصلنا على ستة أو سبعة أغلفة رائعة. كنت راضياً تماماً، لكنهما أرادا تجريب شيء آخر فأحضر آسبجورن كيساً فيه مجلات تصوير أميركية رحنا ننقب فيها. جعلني أرى بعض الصور لجوك ستورغز. كانت صوراً استثنائية تماماً لأنني لم أر أبداً أي شيء يشبهها. اخترنا واحدة منها، صورة لفتاة طويلة الساقين والذراعين تبلغ الثانية عشرة تقريباً، أو الثالثة عشرة، تقف عارية مديرة ظهرها لنا وهي تنظر عبر بحيرة أمامها. كانت صورة جميلة لكنها محمَّلة بالمعاني، نقية لكنها تحمل تهديداً... كانت تملك ما يشبه طبيعة أيقونية. وفي مجلة أخرى، كان هنالك إعلان فيه كتابة بيضاء داخل شريطين أو مستطيلين أزرقين. قررا أن يأخذا هذه الفكرة، لكنهما اختارا اللون الأحمر. صار الغلاف الجديد جاهزاً لدى إنغفه بعد نصف ساعة من ذلك. قدمنا للناشر خمسة اقتراحات مختلفة، لكننا لم نكن مترددين كثيراً في الاختيار بينها لأن الغلاف الذي اعتمد على صورة ستورغز كان هو الأفضل. سوف يحمل الكتاب الذي سيصدر بعد شهور قليلة صورة الصبية الصغيرة على غلافه. كان في ذلك شيء من البحث عن المشاكل، لأن ستورغز كان مصوّراً موضع جدال. فتش عملاء التحقيقات الفيدرالي بيته فقلبوه رأساً على عقب. وعندما فتشت عن اسمه في الإنترنت وجدت أن بعض الروابط كان يؤدي دائماً إلى مواقع صور أطفال إباحية. لكني، رغم ذلك، لم أر من قبله أي مصور قادر على تقديم عالم الطفولة الغني بطريقة مؤثرة إلى هذا الحد، بمن فيهم سالي مان. وهكذا، كنت سعيداً بذلك الغلاف. وكنت سعيداً أيضاً بأن إنغفه وآسبجورن صمّماه.

لم نقل الكثير في السيارة في طريقنا من مطار سولا في أمسية الجمعة الغريبة هذه. تحدثنا قليلاً عن التفاصيل العملية لما ينتظرنا. وعن الجنازة نفسها... أمور لم يكن أي منا يملك أي تجربة سابقة فيها. كانت سطوح البيوت التي نمر بها تلتمع تحت الشمس المنخفضة. وكانت السماء عالية هناك، والأرض مسطحة خضراء. أعطاني هذا الاتساع كله إحساساً بأرض مقفرة لا يمكن لأكبر تجمع بشري أن يفلح في ملئها كلها. وبالمقارنة مع هذا، كنت أرى الناس صغاراً... واقفين خارج حظيرة ما، أو منتظرين الباص الذاهب إلى المدينة، أو راكبين دراجاتهم على الطريق خافضين رؤوسهم فوق مقاودها، أو جالسين على مقاعد القيادة في الجرارات منطلقين عبر الحقول، أو مغادرين المتاجر عند محطات الوقود حاملين السندويتشات وزجاجات المياه الغازية. كانت المدينة مقفرة أيضاً، والشوارع خالية. لقد انتهى النهار، ولما يبدأ المساء بعد.

شغل إنغفه أغنية لبجورك في ستيريو السيارة. ومن النافذة، كان عدد المتاجر ومباني المكاتب مستمراً في التراجع. صارت تحل محلها أبنية سكنية. حدائق صغيرة، وأجَمات، وأشجار فاكهة، وأطفال على دراجاتهم، وأطفال يتزلجون.

قلت: «لا أعرف ما جعلني أبدأ البكاء هناك. لكن شيئاً أصابني عندما رأيتك. أدركت فجأة أنه قد مات».

قال إنغفه: «نعم... لست واثقاً من أنني أستوعب الأمر حتى الآن».

خفف السرعة عند المنعطف، ثم بدأت السيارة تتسلق المرتفع الأخير. كان هنالك ملعب للأطفال إلى جهة اليمين؛ ورأيت فتاتين جالستين على مقعد تحملان في أيديهما ما بدا كأنه ورق اللعب. وإلى الأعلى قليلاً، إلى الناحية الأخرى من الطريق، رأيت الحديقة أمام بيت إنغفه. ما كان فيها أحد، لكن الباب المنزلق المفضي إلى غرفة المعيشة كان مفتوحاً.

قال إنغفه هو يقود السيارة ببطء ليدخل المرآب: «ها نحن هنا».

قلت له: «سوف أترك حقيبتي في السيارة. سننطلق غداً على أية حال».

انفتح الباب الأمامي وخرجت كاري آن حاملة تورجه بين ذراعيها. كانت إيلفا واقفة إلى جانبها، ممسكة بساقها، وراحت تنظر إليَّ عندما أغلقت باب السيارة وسرت صوبهما. قرَّبت كاري آن خدَّها لأقبِّله ولفّتني بذراعها فاحتضنتها وعبثت بشعر إيلفا.

قالت لي: «يؤسفني أن أباك قد توفَى. تعازيّ الحارة».

قلت: «شكراً لك. لم يكن الأمر مفاجئاً تماماً».

أغلق إنغفه صندوق السيارة وجاء حاملاً كيساً في كل يد. لا بد أنه قام ببعض التسوق في طريقه إلى المطار.

قالت كاري آن: «هيا ندخل؟».

هززت رأسي ولحقت بها إلى غرفة المعيشة.

قلت: «ممم، رائحة الطعام لذيذة».

قالت: «إنه ما أعده دائماً. سباغتي مع اللحم والبروكولي».

ظلت تحمل تورجه بذراع واحدة، ونقلت قدر الطبخ إلى الناحية الأخرى من الموقد بيدها الأخرى، ثم أطفأت الموقد وانحنت وأخرجت مصفاة كبيرة من الخزانة بينما دخل إنغفه المطبخ ووضع كيسي التسوق على الأرض ثم بدأ يضع محتوياتهما في أماكنهما. أما إيلفا التي كانت عارية إلّا من حفاض الأطفال، فقد وقفت من غير حركة في وسط الغرفة تنقِّل عينيها بيني وبين والديها. ثم ذهبت مسرعة إلى سرير لعبتها خلف أحد رفوف الكتب فحملت اللعبة وجاءت إليّ ومدّتها صوبي.

قلت وأنا أركع أمامها: «ما أجمل لعبتك، هل أستطيع النظر إليها؟».

ضمت لعبتها إلى صدرها وارتسم على وجهها تعبير مصمم حاسم، ثم استدارت مبتعدة عني قليلاً.

قالت كاري آن: «دعي كارل أوفه يرى لعبتك».

نهضت واقفاً ثم قلت: «سوف أخرج وأدخن سيجارة».

قال إنغفه: «سأنضم إليك. لكن عليَّ أن أنتهي من هذه الأشياء أولاً».

عبرت باب الشرفة وأغلقته من خلفي، ثم جلست على واحدة من الكراسي البلاستيكية البيضاء الثلاث المصفوفة على الأرض الحجرية. رأيت ألعاباً مبعثرة في أنحاء المرج كله. وفي آخر المرج، عند الأجمة، رأيت بركة سباحة بلاستيكية مدورة مليئة بالماء الذي تناثرت على سطحه أعشاب وحشرات. كان مضربا غولف مستندين إلى الجدار القصير، وإلى جانبهما زوج من مضارب لعبة الريشة الطائرة وكرة قدم. أخرجت علبة السجائر من جيبي الداخلي وأشعلت واحدة وملت بظهري على مسند الكرسي. كانت الشمس قد اختفت خلف سحابة فصار العشب الأخضر اللامع المتألّق رمادياً كامداً على نحو مفاجئ، صار من غير حياة. جاءني صوت متقطع لآلة

جزّ العشب اليدوية التي تتحرك جيئة وذهاباً في حديقة الجيران. وكانت قعقعة الأطباق وأدوات الطعام مسموعة من المطبخ.

أوه، كم أحب أن أكون هنا!

نحن كل شيء في بيتنا، في شقتنا الصغيرة، لا مسافات أبداً. إذا كنت منزعجاً، فإن الشقة كلها تصير منزعجة. أما في هذا البيت، فإن هنالك مسافة. هنا، لا علاقة لما هو حولي بي ولا بما في داخلي؛ كما أن المسافة نفسها يمكن أن تحميني مما قد يكون مزعجاً.

انفتح الباب من خلفي، إنه إنغفه، كان يحمل فنجاناً من القهوة في إحدى يديه.

قلت له: «تونجه تهديك تحياتها».

«شكراً، كيف حالها؟».

«إنها بخير. لقد بدأت العمل يوم الاثنين. لديها مادة في الأخبار يوم الأربعاء، حادث فيه قتلى».

«هذا ما تقوله أنت».

ما هذا؟ هل هو غاضب؟

جلسنا برهة من غير كلام. وفي السماء، فوق البنايات السكنية إلى اليسار منا، مرت طائرة هليكوبتر. جاء هدير مروحتها الدوارة مكتوماً. ظهرت الفتاتان اللتان كانتا جالستين في ملعب الأطفال آتيتين في الطريق. وصاح شخص من إحدى الحدائق البعيدة ينادي اسم شخص آخر. بجورنار... هكذا بدا لي الاسم.

أخرج إنغفه سيجارة وأشعلها.

قلت له: «هل بدأت تلعب الغولف؟».

هز رأسه بالإيجاب: «عليك أن تجرب ذلك. ستكون جيداً. إنك طويل القامة. وكنت تلعب كرة القدم، كما أن لديك غريزة في التسديد. هل تشعر برغبة في تجربة ذلك الآن؟ لديَّ بعض كرات التمرين هناك، في مكان ما».

«الآن؟ لا أظن هذا!».

قال: «كانت هذه مزحة يا كارل أوفه».

«هل كانت المزحة هي أن ألعب الغولف، أم أن نلعب الآن؟».

«أن نلعب الآن».

توقف الجار الذي كان واقفاً فوق الحافة الفاصلة بين الحديقتين، وشد ظهره ومر بيده على جمجمته العارية المتعرِّقة. وعلى إحدى الشرفات، جلست امرأة ترتدي قميصاً خفيفاً وبنطلوناً قصيراً. كانت تقرأ مجلة.

قلت: «هل تعرف شيئاً عن حالة جدتنا؟».

«لا، لا أعرف. لكنها هي مَنْ عثر عليه ميتاً. وأستطيع تخيُّل أنها ليست في أحسن حال الآن».

«وجدَته في غرفة المعيشة، أليس كذلك؟».

«نعم». ثم أطفأ سيجارته في منفضة السجائر ونهض واقفاً وقال: «لا بأس الآن. هل ندخل لنأكل قليلاً؟».

استيقظت في الصباح التالي على صوت إيلفا واقفة في أسفل الدرج في الصالة. كانت تبكي. أنهضت جسمي قليلاً في الفراش، وأزحت الستائر لأرى إن كنت أستطيع معرفة الوقت. إنها الخامسة والنصف. تنهدت، ثم عدت إلى الاستلقاء. كانت الغرفة مليئة بالحقائب الفارغة، والملابس وأشياء كثيرة لم تجد بعد أماكنها في البيت. كان لوح الكَيّ واقفاً عند أحد الجدران وعليه كومة من الملابس المرتبة بعناية. وإلى جانبه ستارة تبدو كأنها آسيوية؛ كانت مطوية مستندة إلى الجدار أيضاً. ومن خلف الباب، استطعت سماع صوتي إنغفه وكاري آن، ثم سمعت صوت أقدامهما على درجات السلم الخشبي العتيقة. انبعث صوت الراديو من الأسفل. لقد قررنا أن ننطلق في الساعة السابعة تقريباً، وذلك حتى نكون في كريستيانساند في الحادية عشرة؛ لكن لا شيء يمنعنا من الانطلاق في وقت أبكر. عندما فكرت في هذا نهضت من السرير وارتديت بنطلوني وقميصي، ثم انحنيت أمام المرآة ومررت أصابعي في شعري وتفقدت مظهري. لا أثر الآن لانفعالات الأمس! أبدو متعَباً فحسب. هذا يعني أنني عدت كما كنت، لأن الأمس لم يترك آثاراً داخلية أيضاً. المشاعر كالماء. إنها تتكيف دائماً مع ما يحيط بها. حتى أشد الأحزان لا يترك أثراً خلفه... عندما يبدو الحزن طاغياً ويستمر زمناً طويلاً جداً، فإن هذا ليس لأن مشاعر الحزن قد استقرت هناك، وليس لأنها تستطيع أن تستقرّ. إنها تقف ساكنة في مكانها مثلما يقف الماء ساكناً في بركة في الغابة.

اللعنة! هكذا قلت في نفسي. كانت تلك الكلمة واحدة من عاداتي العقلية التلقائية. اللعنة، وبضع كلمات أخرى. إنها تومض في وعيي في لحظات غريبة، ولا أستطيع إيقافها، لكن لماذا أوقفها؟ إنها لا تؤذي أحداً! لا يمكن للمرء أن يرى في وجهي أن هذه الكلمات تخطر الآن في ذهني. اللعنة، فليكن، قلت هذا في نفسي ثم فتحت الباب. وقع نظري مباشرة داخل غرفة نومهما فخفضت رأسي لأن هنالك أشياء لا أريد معرفتها. دفعت باب السلم الخشبي الصغير ونزلت إلى المطبخ. كانت إيلفا جالسة في كرسي الأطفال الصغير ذي القوائم الثلاث حاملة في يدها قطعة خبز وأمامها كأس من الحليب. رأيت إنغفه واقفاً عند الموقد يقلي البيض بينما كانت كاري آن تروح وتجيء بين الطاولة والخزانات. إنها تحضر طاولة الإفطار. كان مصباح آلة صنع القهوة مضاء. وكانت آخر القطرات تنزل في الإبريق. صوت شفّاط الهواء يهدر، والبيض يبقبق ويقذف قطرات من حوله في المقلاة، والراديو يذيع شيئاً عن حالة الطرق.

قلت لهما: «صباح الخير».

ردت كاري آن: «صباح الخير».

قال إنغفه: «مرحباً».

نادتني إيلفا: «كارل أوفه!» مشيرة إلى الكرسي المقابل لها.

سألتها: «هل أجلس هنا؟».

أومأت برأسها... حركات الرأس الناعمة هذه!... فسحبت الكرسي وجلست عليه. كانت تبدو أكثر شبهاً بإنغفه. لها أنفه وعيناه؛ والغريب فعلاً أن الكثير من تعابير عينيه كان ظاهراً في عينيها. لم يتجاوز جسدها بعد مرحلة الامتلاء الطفولي، ولا يزال هنالك شيء من الطراوة والاستدارة في أطرافها وأجزاء جسمها كلها. وهذا ما كان يجعل عينيها تتخذان هيئة إنغفه العارفة عندما تعبس. من الصعب ألّا يبتسم المرء عندما يرى ذلك. ما كان هذا يجعلها تبدو أكبر سناً، لكنه يجعل أباها أصغر: ترى فجأة أن واحداً من تعابير وجهه المعتادة لا علاقة له بالخبرة أو النضج أو الحكمة الدنيوية، بل هو شيء يعيش حياته الخاصة من دون تغير، وباستقلال عن بقية الوجه أيضاً، يعيش هكذا منذ بداية تشكل هذا الوجه أوائل الستينيات.

أمسك إنغفه بالمعلقة الخشبية المسطحة وبدأ ينقل البيضات، واحدة فواحدة، إلى طبق متسع. ثم وضع الطبق على الطاولة إلى جانب سلة الخبز وأحضر إبريق

القهوة وصب ثلاثة فناجين. عادة ما أشرب الشاي على الإفطار. هذا ما أفعله منذ كنت في الرابعة عشر، لكن قلبي لم يطاوعني لطلب ذلك الآن. تناولت شريحة خبز ووضعت عليها بيضة باستخدام المعلقة الخشبية التي وضعها إنغفه مستندة إلى الطبق.

جُلت بنظري فوق الطاولة بحثاً عن الملح، لكنني لم أجد ملحاً.

سألت: «أليس لديكم ملح؟».

قالت كاري آن: «ها هو»، ثم ناولتني المملحة من فوق الطاولة.

قلت: «شكراً»، ثم فتحت غطاء المملحة البلاستيكي الصغير ورحت أنظر إلى حبيبات الملح الصغيرة تغرق في صفار البيض وتفتح ثقوباً بالغة الصغر في سطحه، بينما كانت الزبدة تذوب وتتغلغل في قطعة الخبز.

قلت: «أين هو تونجِه؟»

قالت كاري آن: «إنه نائم في الأعلى».

قضمتُ قطعة من الخبز. كان بياض البيض المقلي مقرمشاً في الأسفل. تهشَّمت قطع كبيرة منه، بنية اللون، في فمي عندما بدأت أمضغ اللقمة.

قلت: «لا يزال ينام كثيراً، أليس كذلك؟».

«نعم... ربما ينام ست عشرة ساعة في اليوم! لست أدري. ماذا تظن؟».

التفتت إلى إنغفه مستفهمة.

قال: «لا فكرة عندي».

قضمت قطعة ثانية فانساب صفار البيضة في فمي. كان فاتراً، أصفر اللون. رشفت جرعة من القهوة.

قلت: «أصابه ذعر شديد عندما سجلت النرويج هدفاً».

ابتسمت كاري آن. لقد تابعنا هنا مباراة النرويج الثانية في كأس العالم. كان تورجه نائماً في مهده في الناحية الأخرى من الغرفة. وعندها، سمعنا صوت بكائه الحاد عندما انتهت صيحاتنا التي انطلقت احتفالاً وفرحاً بالهدف الذي سجله فريقنا.

قال إنغفه: «بالمناسبة، كانت المباراة مع إيطاليا مخجلة، هل تحدثنا عن هذا؟».

قلت: «لا! لكن الإيطاليين كانوا يعرفون ما يفعلون. يكفي أن يتركوا الكرة لفريقنا حتى ينهار كل شيء!».

قال إنغفه: «لا بد أنهم راكعون على ركبهم الآن بعد المباراة مع البرازيل».

قلت: «لقد ركعت على ركبتي أنا أيضاً. كانت ضربات الجزاء مخيفة. وكانت متابعة المباراة أمراً مرهقاً».

لقد رأيت هذه المباراة في مُولدِه مع والد تونجه. اتصلت بإنغفه فور انتهائها. كنا على وشك البكاء لشدة انفعالنا. ومن خلف صوتينا المختنقين، كانت طفولتنا كلها التي أمضيناها في تشجيع فريقنا الوطني الذي لم يقترب من النجاح مرة واحدة في تلك الفترة. وبعد المباراة، ذهبت إلى مركز المدينة مع تونجه فكان مزدحماً بالسيارات التي راحت تطلق أبواقها وبالناس الملوِّحين بالأعلام. كان أشخاص غرباء يتعانقون، وكانت أصوات الصياح والغناء آتية من كل زاوية. كان الناس يجرون هنا وهناك بوجوه متوردة... لقد هزمت النرويج البرازيل في مباراة حاسمة من مباريات كأس العالم؛ ولا أحد يعرف إلى أين يمكن أن يصل هذا الفريق. قد يستطيع الوصول إلى المباراة النهائية!

انزلقت إيلفا عن كرسيها وأمسكت بيدي.

قالت لي: «تعال!».

قال لها إنغفه: «يجب أن يتناول كارل أوفه طعامه أولاً، يا إيلفا».

قلت: «لا، لا تقلق!» ثم ذهبت معها. جرتني حتى الأريكة، ثم تناولت كتاباً عن الطاولة وجلست. لم تكن ساقاها القصيرتان تبلغان الحافة.

قلت لها: «هل أقرأ لك؟».

هزت رأسها فجلست إلى جانبها وفتحت الكتاب. كانت قصة عن دودة تأكل كل شيء تراه. وبعد انتهائي من القراءة، زحفت إيلفا وتناولت كتاباً آخر عن الطاولة. كان هذا الكتاب قصة تتحدث عن فأر اسمه فريدريك. خلافاً لبقية الفئران، لم يجمع فريدريك الطعام في الصيف بل فضل أن يظل جالساً يحلم. قالت بقية الفئران إنه كسول، لكن الشتاء جاء وصار كل شيء أبيض اللون بارداً، وكان فريدريك الفأر الوحيد الذي استطاع أن يُدخِل اللون والضياء إلى حياة بقية الفئران، هذا ما كان يجمعه طيلة الصيف، وهذا ما كانوا في حاجة إليه الآن: الألوان والضوء. كانت إيلفا جالسة إلى جانبي، هادئة تماماً، تنظر إلى صفحات الكتاب بتركيز شديد وتشير من حين لآخر إلى شيء ما فتسألني عن اسمه. كان الجلوس معها رائعاً،

لكنه ممل بعض الشيء. رغبت في الخروج إلى الشرفة لأكون وحدي مع السيجارة وفنجان القهوة.

في الصفحة الأخيرة من القصة صار فريدريك بطلاً منقذاً متورِّد الوجه.

قلت لإنغفه وكاري آن بعد نهاية القصة: «كان هذا أمراً منعشاً. رائع!».

قال إنغفه: «كانت هذه القصة لدينا عندما كنا أطفالاً، ألا تذكرها؟».

قلت كاذباً: «لا أذكرها بوضوح. هل هو الكتاب نفسه؟».

«لا. لقد أخذته ماما».

كانت إيلفا في طريقها إلى كوْمة الكتب من جديد. نهضتُ وتناولتُ فنجان القهوة عن طاولة المطبخ.

قالت كاري آن وهي عائدة إلى آلة غسل الأطباق لتضع طبقاً فيها: «هل اكتفيت؟».

قلت: «نعم اكتفيت. شكراً لك. كان فطوراً لطيفاً».

نظرتُ إلى إنغفه: «متى ننطلق في رحلتنا؟».

«عليّ أن أستحم أولاً. وبعد ذلك سأجهز حقيبتي. ربما تلزمني نصف ساعة».

قلت: «لا بأس، فليكن!».

كانت إيلفا قد اقتنعت بأن وقت القراءة لهذا اليوم قد انتهى فذهبتْ إلى الصالة حيث جلست على الأرض تحاول ارتداء حذائي. فتحتُ باب الشرفة وخرجت. كان الجو معتدلاً، غائماً. وكانت على الكراسي قطرات من الندى مسحتها بيدي قبل أن أجلس. لا أستيقظ في هذا الوقت المبكر في الأحوال المعتادة، لأن صباحاتي ميالة إلى البدء في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، أو في الواحدة. كان كل ما تتنفَّسه حواسي الآن يذكرني بصباحات الصيف في طفولتي عندما كنت أذهب على الدراجة إلى وظيفة في بعض أعمال البستنة في السادسة والنصف صباحاً. كان ضباب مرتفع يحجب السماء معظم الأوقات، وكان الطريق الذي أسلكه رمادياً، خالياً، والهواء يندفع صوبي صقيعياً. كان شيئاً لا يصدَّق تقريباً أن ترتفع درجات الحرارة في الحقل لاحقاً إلى حد يجعلنا نشعر بالحر الشديد، فننطلق على درّاجاتنا إلى بحيرة كجيرستاد في استراحة الغداء حتى نسبح قليلاً قبل استئناف العمل. رشفت قليلاً من القهوة وأشعلت سيجارة، لا أستطيع القول إنني كنت مستمتعاً بطعم القهوة أو بالشعور بدخول الدخان إلى رئتي. لا أستطيع التفريق بين الأمرين، لكن يجب

التفريق بينهما لأن هذا صار روتيناً معتاداً؛ ومثلما تكون الحالة في كل روتين، فإن الشكليات تكون كل شيء.

كم كنت أكره رائحة الدخان عندما كنت طفلاً! رحلات في مقعد السيارة الخلفي الحار مع وجود أب وأم ينفثان الدخان في المقعدين الأماميين. الدخان الذي كان يتسلل من المطبخ عبر شق في باب غرفتي كل صباح، قبل أن أعتاد رائحته، عندما كان يملأ منخريّ النائمين فيجعلني أتألم تقريباً... إزعاج الدخان الذي استمر كل يوم إلى أن بدأت التدخين بنفسي وصرت منيعاً أمام هذه الرائحة. الاستثناء الوحيد هو الفترة التي تحوّل فيها أبي إلى تدخين الغليون.

متى كان ذلك؟

تلك الأشياء الكثيرة كلها: تفريغ الغليون من التبغ المُسْودّ، ثم تنظيفه بأدوات التنظيف البيضاء المرنة، ثم حشوه بتبغ جديد والجلوس هناك، وإشعاله، والسحب حتى تدب الحياة فيه، وعود الكبريت في صحن السجائر، والسحب من جديد، وعود كبريت آخر، وآخر، ثم يسند أبي جذعه إلى الخلف ويضع ساقاً فوق ساق ويدخن. من الغريب حقاً أنني أربط تدخين الغليون بالمرحلة التي صار أبي فيها يمضي معظم وقته خارج البيت. كنزات صوفية محبوكة، وسترة خارجية واقية، وحذاء طويل الساق، ولحية... وغليون. نزهات طويلة في البرية على الأقدام لجمع توت الأرض من أجل الشتاء، ورحلات متفرقة إلى الجبال بحثاً عن الكلدبيري، أهم أنواع توت الأرض؛ لكن أكثر تلك الرحلات كان في الغابات بعيداً عن الطريق: نترك السيارة واقفة عند حافة الغابة، ويحمل كل منا أداة التقاط الثمار بيد ودلواً في اليد الأخرى، ثم نمشط المنطقة كلها بحثاً عن تلك الثمار. الاستراحات عند منحنيات الأنهار أو على قمم الجروف المطلة على ما حولها. كنا نستريح أحياناً فوق وجه صخري ما عند النهر، وأحياناً على جذع شجرة في غابة الصنوبر. وكنا نوقف السيارة فجأة عندما تلوح لنا أجمات من توت العلّيق إلى جانب الطريق. نخرج حاملين دلاءنا لأن تلك كانت النرويج في السبعينيات، عندما كان المرء يرى أسراً كثيرة متوقفة عند كل فسحة في الغابة تلتقط ثمار الأرض في عطلات نهاية الأسبوع، ومعها طعامها في أكياس بلاستيكية مربعة ضخمة في صندوق السيارة. في تلك الفترة أيضاً بدأ أبي يذهب لاصطياد الأسماك في الناحية البعيدة من الجزيرة؛ يذهب وحده بعد انتهاء المدرسة، أو معنا في عطلات نهاية الأسبوع. وكنا

نصطاد أسماك القُدّ الكبيرة في تلك المياه خلال الشتاء. كان ذلك في شتاء 1974 - 1975. ومع أن والديَّ كليهما لا علاقة لهما بـ «متمردي الستينيات» (فقد أنجبا أطفالاً عندما كانا في العشرين، ثم عملا منذ ذلك الوقت)، ورغم أن تلك الإيديولوجية كانت غريبة بالنسبة إلى أبي، فإن روحية ذلك الزمن قد أصابته بعض الشيء، وكانت حيَّة فيه أيضاً. عندما يراه المرء جالساً هناك، حاملاً غليونه في يده، ملتحياً، وعندما يرى شعره الكثيف (وإن لم يكن طويلاً)، وعندما تراه مرتدياً كنزته الصوفية المحبوكة وبنطلوناً من الجينز الأزرق المتوهج... عندما ترى عينيه المبتسمتين لك، فمن الممكن أن تظنه واحداً من الآباء «المتراخين» الذين بدأ ظهورهم وإعلانهم عن أنفسهم في ذلك الوقت: أولئك الذين ما كانوا ضد دفع عربات الأطفال وتغيير حفاضاتهم والجلوس على الأرض واللعب معهم. لكن ما من شيء يمكن أن يكون أبعد عن حقيقة أبي من هذا الظنّ! كان الغليون الشيء الوحيد الذي يجمعه إلى هذا الصنف من الناس.

أوه، أبي... هل تركتني الآن؟

جاء صوت بكاء من النافذة المفتوحة في الطابق الأعلى. استدرت لأنظر. كانت كاري آن جالسة في المطبخ تفرغ آلة غسل الأطباق. كانت قد وضعت كأسين على الطاولة. أسرعت تجتاز الغرفة راكضة في اتجاه السلم. أما إيلفا التي كانت تدفع عربة صغيرة وضعت دميتها فيها، فقد استدارت تنظر في الاتجاه نفسه. وبعد ثوانٍ قليلة، سمعت من النافذة صوت كاري آن تهدئ طفلها. توقف صوت البكاء. نهضت وفتحت الباب ثم دخلت. كانت إيلفا واقفة في أسفل السلم تنظر إلى الأعلى. سمعت صوت خرخرة الماء في أنبوب في الجدار.

سألت الصغيرة: «هل تريدين أن تجلسي على كتفيّ؟»

قالت: «نعم». قرفصت ووضعتها على كتفي، ثم أمسكت ساقيها الصغيرين بيدي ورحت أجري إلى الأمام وإلى الخلف بين غرفة الجلوس والمطبخ. قطعت المسافة عدة مرات، وكنت أصهل كالحصان. كانت تضحك؛ وكانت تزعق كلما توقفت وانحنيت إلى الأمام قليلاً متظاهراً بأنني أريد رمْيها. اكتفيت من هذا بعد دقيقتين، لكنني تابعت الجري بها دقيقتين إضافيتين قبل أن أقرفص من جديد وأنزلها عن كتفي.

قالت لي: «أريد المزيد!».

قلت لها: «في مرة قادمة»، ونظرت من النافذة عبر الطريق حيث رأيت باصاً يتوقف لتصعد إليه مجموعة صغيرة من المسافرين الذين يقيمون في الجوار.

قالت لي: «الآن!».

نظرت إليها وابتسمتُ.

قلت: «لا بأس. مرة واحدة إذن». اعتلت كتفي من جديد، وجريت بها من جديد، وتوقفت وتظاهرت برميها، وصهلت. من حسن حظي أن إنغفه نزل بعد ذلك مباشرة فصار التوقف عما كنا نفعله طبيعياً.

قال لي: «هل أنت مستعد؟».

كان شعره رطباً ووجه صقيلاً بعد الحلاقة. وكان يحمل في يده حقيبة الأديداس الزرقاء والحمراء التي يحتفظ بها من أيام المدرسة.

قلت: «جاهز».

«هل كاري آن في الأعلى؟».

«نعم، لقد استيقظ تورجِه».

قال إنغفه: «سأدخن سيجارة ثم نذهب. هل يمكنك البقاء مع إيلفا خلال ذلك؟».

أومأت برأسي. من حسن الحظ أنها كانت قد وجدت شيئاً تشغل نفسها به. وهكذا صرت قادراً على الجلوس على الأريكة وتصفح واحدة من المجلات الموسيقية هناك. لكنني لم أكن مولعاً بقراءة مقالات عن الأغاني والتسجيلات ومقابلات مع الفرق الموسيقية، فوضعت المجلة وتناولت بدلاً منها الغيتار الموضوع على الرف إلى جانب الأريكة أمام مضخِّم الصوت وصناديق التسجيلات الموسيقية. كان الغيتار أسود اللون من صنع «فيندر تيليكاستر». وكان جديداً إلى حد ما، بينما كان مضخم الصوت ذو الشكل الأنبوبي قديماً من صنع «ميوزيك مان». إضافة إلى هذا الغيتار، كان لدى إنغفه غيتار آخر من صنع «هاغستروم» لكنه يحتفظ به في مكتبه. عزفت عليه بضعة أنغام من غير تفكير. كانت افتتاحية أغنية «سبيس أوديتي» لفرقة «بوبي». بدأت أغني كلمات الأغنيات بصوت منخفض. بعد هذه السنوات كلها، لم أفلح في تحصيل ما يتجاوز المهارات الأساسية التي يمكن لأي صبي متوسط الموهبة في الرابعة عشر أن يتعلمها في شهر واحد. لكنني احتفظت بمجموعة الطبول التي دفعت فيها مبلغاً غير

قليل قبل خمس سنوات. لا تزال تلك المجموعة في علّية البيت. ربما تسنح لي فرصة استخدامها من جديد بما أننا عدنا إلى الإقامة في بيرغن.

لا بد أن المرء يستطيع حقاً في هذا المنزل أن يعزف أغنية «بيبي ذات الجوربين الطويلين» هكذا قلت في نفسي.

أعدت الغيتار إلى مكانه وتناولت المجلة الموسيقية من جديد عندما نزلت كاري آن حاملة تورجه بين ذراعيها. كان متعلقاً بها مبتسماً ابتسامة واسعة. نهضت وذهبت إليهما، ثم انحنيت فوق الصغير وقلت له «بووو». ما كان ذلك شيئاً معتاداً ولا طبيعياً من جانبي، وسرعان ما شعرت بأنني بدوت غبياً. لكن من الواضح أن ذلك لم يزعج تورجه الذي شهق ضاحكاً ثم نظر إليَّ مترقباً بعد أن توقف عن الضحك... كان يريد أن أفعلها من جديد.

قلت: «بوو».

ضحك الصغير: «إيها إيها إيها!».

لا تشتمل الطقوس كلها على شعائر؛ وليست الشعائر كلها محددة تحديداً صلباً. يتكون بعضها في خضم الحياة اليومية، ويتبدى من خلال ما يمنحه من وزن وشحنة للأحداث التي تكون عادية من غير ذلك. عندما خرجت من البيت ذلك الصباح وسرت خلف إنغفه إلى السيارة، كنت كأنني أدخل قصة أكبر من قصتي أنا، لوهلة فقط. الأبناء يغادرون المنزل لدفن والدهم. تلك هي القصة التي وجدت نفسي فيها فجأة عندما توقفت عند باب السيارة وفتح إنغفه صندوقها فوضع حقيبته ووقف كل من كاري آن وإيلفا وتورجِه ينظرون إلينا من باب البيت. كانت السماء بيضاء مائلة إلى اللون الرمادي، سماء هادئة. كانت المنطقة هادئة أيضاً. بدا صوت غطاء صندوق السيارة عند إغلاقه حاداً واضحاً كأنه يعتدي على ذلك الهدوء... تردد صدى الصوت على جدار البيت المقابل. فتح إنغفه باب السيارة وجلس في المقعد ثم مال وفتح قفل الباب الآخر. لوحت بيدي لكاري آن والطفلين قبل أن أحشر نفسي في المقعد وأغلق الباب. لوّحوا لنا. أدار إنغفه محرك السيارة، ثم وضع ذراعه خلف مقعدي وتراجع بها منعطفاً إلى اليمين. وبعد ذلك، لوَّح لهم أيضاً، ثم انطلقنا في الطريق.

سألني إنغفه: «هل أنت متعب؟ نم إذا أردت».

«هل أنت متأكد؟».

«بالطبع. أستطيع أن أضع موسيقى».

هززت رأسي وأغمضت عيني. سمعته يضغط مفتاح تشغيل جهاز الأقراص، ثم يبحث عن شيء في الرف الضيق تحت لوحة العدادات. سمعت صوت هدير السيارة المنخفض. وسمعت صوت دخول القرص وبعده مباشرة صوت مقدمة أغنية فولكلورية على الماندولين.

سألته: «ما هذه؟».

قال: «إنها سكستين هورسباور. هل تحبها؟».

قلت: «تبدو جيدة». ثم أغمضت عينيَّ من جديد.

لقد زال إحساسي بالقصة الكبيرة. نحن لسنا ابنين... إننا إنغفه وكارل أوفه؛ ونحن لسنا عائدين إلى البيت، بل إلى كريستيانساند. وهذا ليس والداً نذهب لدفنه... إنه والدنا.

لم أكن متعباً، ولم أستطع النوم. لكن الجلوس بعينين مغمضتين كان أمراً لطيفاً... على الأرجح لأنه يجعلني غير مطالَب بشيء. عندما كنا نكبر، كنت أتحدث مع إنغفه طيلة الوقت، وما كانت بيننا أسرار أبداً. لكن هذا تغير في وقت ما، ولعل ذلك التغير بدأ منذ دخولي المدرسة الثانوية: منذ ذلك الوقت فصاعداً، صرت شديد الانتباه إلى ما كانه وإلى ما كنته عندما نتحدث. اختفت العفوية كلها، وصرت أخطط لكل جملة أقولها أو أحللها بعد قولها، أو أفعل الأمرين معاً معظم الأحيان، إلّا عندما أشرب... عند ذلك، أستعيد تلك الحرية القديمة. كان هذا ما أفعله مع الجميع، باستثناء تونجه وأمي، لم أكن قادراً على الجلوس والثرثرة مع الناس لأن انتباهي للوضع المحيط بي كان مفرط الشدة؛ وهذا ما كان يضعني خارجه. لا أعرف إن كان الأمر هكذا عند إنغفه، لكنني لا أظن ذلك. لم يكن الأمر يبدو لي كذلك عندما أرى إنغفه مع أشخاص آخرين. ولا أعرف أيضاً إن كان يعرف شعوري تجاه هذا الأمر، لكن شيئاً ما أخبرني بأنه يعرف. كنت في أحيان كثيرة أشعر بأنني زائف، أو مخادع، لأنني ما كنت ألعب بأوراق مفتوحة أبداً. كنت أحسب وأقيّم دائماً. لم يعد هذا مزعجاً لي لأنه صار حياتي، أما الآن تحديداً، في مستهل سفرة طويلة بالسيارة، الآن بعد موت أبينا وتلك الأشياء كلها، أحسستُ بتوقٍ إلى

الهرب من نفسي، أو على الأقل الهرب من ذلك الجزء من نفسي الذي يحرسني بكل حرص.

اللعنة، اللعنة!

أنهضت جسمي قليلاً وبدأت أبحث في التسجيلات التي لديه: «ماسيف آتاك»، «بورتيشيد»، «بلار»، «لفتفيلد»، «بوبي»، «سوبرغراس»، «ميركوري ريف» لفرقة كوين.

فرقة كوين؟

كان يحب هذه الفرقة منذ كان صغيراً، وقد ظل مخلصاً لها على الدوام. كان مستعداً للدفاع عنها في أي وقت. أتذكره الآن جالساً في غرفته ينسخ موسيقى أغاني برايان ماي المنفردة، يعزفها على غيتاره الجديد الأسود، نسخة مقلدة من غيتار ليس بول اشتراها بالمال الذي تلقاه عند تعميده الثاني. كانت لديه مجلة نادي هواة فرقة كوين التي تأتيه عن طريق البريد. منتظراً أن يعود العالم إلى رشده ويعترف بقيمة هذه الفرقة... الاعتراف الذي هو حق لها!

ابتسمت.

عندما مات فريدي ميركوري، ما كان الشيء الصادم هو الكشف عن أنه كان مثلياً، بل إنه هندي.

من كان قادراً على تخيل هذا؟

صارت المباني متباعدة الآن. وكانت كثافة حركة السيارات على الجهة الأخرى من الطريق قد ازدادت بعض الشيء لأن ساعة الذروة تقترب. لكن ذلك الازدحام لم يلبث أن تراجع عندما خرجنا من المنطقة المأهولة بين تلك البلدات. مررنا بحقول ذرة صفراء ضخمة، ومساحات واسعة من حقول الفراولة، وبقع من المراعي الخضراء، وحقول محروثة حديثاً تبدو تربتها بنية داكنة، سوداء تقريباً. ومن حين لآخر، كنا نمر بأجمات، وقرى، ونهر ما، وبحيرة. وبعد ذلك تغيرت طبيعة الأرض تماماً وصارت شبه جبلية، أراضي المرتفعات الخضراء غير المزروعة، الخالية من الأشجار أيضاً. دخل إنغفه محطة وقود فملأ خزان السيارة، ثم مد رأسه داخل النافذة وسألني إن كنت أريد شيئاً فهززت رأسي بالنفي، لكنه ناولني زجاجة مياه غازية وقطعة شوكولاته عندما عاد.

قال لي: «هل ندخن؟».

أومأت برأسي وخرجت من السيارة متثاقلاً. سرنا حتى مقعد عند نهاية موقف السيارات. ومن خلف ذلك المقعد، كان جدول صغير يجري وعليه جسر على مقربة من مقعدنا. زمجر محرك دراجة عابرة، ثم مرت شاحنة، وبعدها شاحنة أخرى.

قلت: «ما الذي تقوله ماما؟».

قال إنغفه: «لا تقول الكثير. إنها في حاجة إلى وقت حتى تفكر في ما جرى. لكنها بدت لي حزينة. لعلها كانت تفكر فينا... هكذا أظن».

قلت: «إنهم يدفنون بورغيلد اليوم».

قال: «نعم».

دخلت المحطة شاحنة قادمة من جهة الغرب فتوقفت بزفرة كبيرة في الناحية الأخرى من المحطة وقفز منها سائق في أواسط العمر. أعاد شعره الذي بعثرته الريح إلى مكانه وهو يسير صوب باب الدخول.

قلت مبتسماً: «عندما رأيت أبي آخر مرة، حدثني عن أنه يعتزم أن يصير سائق شاحنة».

قال إنغفه: «أوه! متى كان ذلك؟».

«في الشتاء... منذ سنة ونصف. عندما كنت في كريستيانساند... عندما كنت أكتب في كريستيانساند».

نزعت غطاء زجاجة المياه الغازية وأخذت جرعة منها.

قلت وأنا أمسح فمي بظهر يدي: «متى رأيته أنت آخر مرة؟».

حدق إنغفه في الأرض المنبسطة إلى الناحية الأخرى من الطريق، ثم أخذ نفَسين من سيجارته الموشكة على الانتهاء.

«لا بد أن ذلك كان عند تعميد إيغيل. السنة الماضية، في شهر أيار. لكنك كنت هناك أيضاً، أليس كذلك؟»

قلت: «فعلاً، كنت هناك! كانت تلك آخر مرة. أو ربما كانت آخر مرة». الآن، ما عدت واثقاً من أي شيء.

أنزل إنغفه قدمه عن المقعد وأعاد غطاء زجاجته، ثم اتجه إلى السيارة بينما خرج سائق الشاحنة من الباب حاملاً جريدة تحت ذراعه وفي يده سندويتش ضخم الحجم.

قذفت بسيجارتي على الإسفلت ولحقت بإنغفه. عندما بلغت السيارة، كان محركها قد بدأ يعمل.

قال إنغفه: «والآن... أمامنا ساعتان، شئنا أم أبينا، نستطيع أن نأكل عندما نصل، ما رأيك؟»

قلت: «لا بأس».

«أتحب أن تسمع شيئاً محدداً؟».

توقف برهةً عند التقاطع والتفت عدة مرات إلى الأمام والخلف، ثم سرنا على الطريق من جديد. تسارعت السيارة.

قلت: «لا، اختر أنت».

اختار أغاني «سوبرغراس». إنه التسجيل الذي اشتريته في برشلونة التي رافقت تونجه إليها عندما ذهبت لحضور ندوة خاصة بمحطات الراديو المحلية الأوروبية. حضرنا عرضاً حياً لتلك الفرقة هناك. ومنذ ذلك الوقت صرت أستمع إلى أغانيها دائماً، إلى جانب بعض التسجيلات الأخرى، بينما كنت أكتب روايتي. وفجأة، امتلأت بجو تلك السنة. عجبتُ لأنها قد صارت ذكرى. لقد صارت إذاً «ذلك الوقت في فولدا عندما كنت أكتب طيلة الوقت تاركاً تونجه تشغل نفسها بالتوافه».

لن يحدث هذا بعد الآن... قالت لي هذا في وقت لاحق، في أول ليلة لنا في الشقة الجديدة في بيرغن. كنا على وشك الذهاب إلى عطلة في تركيا في الصباح التالي... قالت لي: «سوف أتركك».

قال إنغفه: «في الحقيقة، لقد رأيته مرة بعد ذلك أيضاً. رأيته الصيف الماضي في كريستيانساند مع بنديك وآتله. كان جالساً على مقعد عند الكشك إلى جانب متجر روندنجن عندما مررنا بالسيارة من هناك. كان شكله كأنه واحد من الأوغاد، هكذا قال بنديك عندما رآه. لقد كان محقاً بالطبع».

قلت: «مسكين أبي».

نظر إنغفه إليّ. وقال: «إن كان هنالك أحد لا يستحق أن تشعر بالأسف عليه، فهو أبوك».

«أعرف، لكنك تفهم ما أعنيه».

لم يجبني. تحول الصمت، الذي كان في البداية مشحوناً ببعض التوتر، إلى صمت فحسب. رحت أنظر إلى المشهد من حولنا. كانت منطقة جرداء معرضة للريح هنا، في هذا المكان القريب إلى البحر. حظيرة حمراء أو اثنتان، وبيت مزرعة أبيض أو اثنان، وجرار أو اثنان مع آلة جز العشب في الحقل. سيارة قديمة من غير إطارات في فناء بيت، وكرة بلاستيكية صفراء قذفت بها الريح تحت أجمة، وأغنام ترعى على المنحدر، وقطار يسير بطيئاً متثاقلاً على سكته المرفوعة التي تبدو على بعد مائتي متر من الطريق.

كنت أشك دائماً في أن لكل منا علاقة مختلفة مع أبينا. لم تكن الفوارق كبيرة، لكن، لعلها كانت ذات دلالة. ما الذي أعرفه أنا؟ خلال فترة من الزمن، كان أبي يحاول أن يكون قريباً مني، أذكر هذا جيداً. كان ذلك خلال السنة التي ذهبت أمي فيها من أجل دورة دراسية إضافية في أوسلو ثم أنجزتْ القسم العملي منها في مودوم. أما نحن فبقينا في البيت معه. كان يبدو كأنه قد صرف النظر عن إنغفه الذي كان في الرابعة عشر آنذاك، لكنه لا يزال يحتفظ ببعض الأمل في أن يتمكن من التواصل معي. على أية حال، كان عليَّ أن أجلس في المطبخ عصر كل يوم لأكون معه بينما يحضّر الطعام. كنت أجلس على الكرسي، أما هو فيقف عند الموقد ويقلي شيئاً ما ويسألني أسئلة كثيرة. يسألني عما قاله المعلم، وعما تعلمته في درس اللغة الإنجليزية، وعما سأفعله بعد الطعام، وعما إذا كنت أعرف أسماء الفرق التي ستلعب في نهاية الأسبوع. كنت أجيب إجابات مقتضبة وأتململ في جلستي. كان ذلك أيضاً الشتاء الذي صار يأخذني فيه للتزلج. كان إنغفه يستطيع أن يفعل ما يريد شريطة أن يقول إلى أين يذهب وأن يعود في التاسعة والنصف. كنت أحسده على هذا. طالت تلك الفترة أكثر من السنة التي غابتها أمي لأن أبي بدأ في الخريف التالي يأخذني إلى الصيد في الصباح قبل المدرسة. كنا نخرج في السادسة صباحاً، ويكون الظلام لا يزال مخيماً في الخارج كما لو أننا في قعر بئر، ويكون الطقس بارداً، في البحر خاصة. كنت أتجمد وأتمنى أن أعود إلى البيت، لكنني كنت مع أبي وما كان للتذمر معنى. ما كان هنالك معنى لقول أي شيء... لا بد من تحمُّل الأمر. نعود بعد ساعتين، تماماً عندما يجب أن أركب الباص للذهاب إلى المدرسة. كنت أكره هذا، وكنت أشعر بالبرد دائماً... كان البحر شديد البرودة بالطبع، وكانت مهمتي أن أمسك بطوافات شبكة الصيد وأشد القسم الأول منها بينما يتولى أبي

المناورة بالقارب. كان يوبّخني إذا فشلت في التقاط تلك الطوافات؛ وكان الأمر كثيراً ما ينتهي بأن تتدفق الدموع من عيني وأنا أحاول الإمساك بتلك الأشياء اللعينة بينما يجدِّف أبي إلى الأمام وإلى الخلف محدّقاً صوبي بتلك العينين المتوحشتين في ظلمة الخريف على مقربة من ساحل ترومويا. لكني أعرف أنه كان يفعل هذا من أجلي وأنه لم يفعله من أجل إنغفه.

أما من ناحية أخرى، فأنا أعرف أيضاً أن السنوات الأربع الأولى من عمر إنغفه كانت جيدة (عندما كانوا يعيشون في بوابة ثيريسيس في أوسلو وكان أبي يدرس في الجامعة ويعمل مراقباً ليلياً أيضاً. وكانت أمي تدرس التمريض، وكان إنغفه يذهب إلى حضانة الأطفال)، بل لعلها كانت سنوات سعيدة أيضاً. أعرف أيضاً أن أبي كان سعيداً، وأنه كان يحب إنغفه. عندما ولدت، انتقلنا إلى ترومويا، إلى بيت عسكريٍّ سابق قديم في هوفِه أول الأمر، كان بيتاً في الغابة عند البحر؛ ثم انتقلنا إلى بيت في تجمع سكني في توباكين. الشيء الوحيد الذي قيل لي عن تلك الفترة هو أنني سقطت على السلم وبكيت كثيراً حتى أغمي علي، وإن أمي حملتني بين ذراعيها وجرت إلى بيت الجيران لتتصل بالمستشفى لأن وجهي كان يزداد زرقة. قالوا لي إنني زعقت زعيقاً شديداً إلى حد جعل أبي يضعني في حوض الحمام ويصب الماء البارد عليَّ حتى يجعلني أكف عن الزعيق. أما أمي (هي من أخبرني بهذه الحادثة) فقد جعلته يكف عن ذلك وحذرته تحذيراً شديداً: إذا كرر هذا الفعلة فسوف تتركه. لم يكرر فعلته! بقيت أمي معه ولم تتركه.

ما كانت محاولات أبي للتقرب مني تعني أنه لم يكن يضربني أو يصرخ عليّ غاضباً أو يخترع طرقاً شديدة الابتكار لمعاقبتي، لكنها كانت تعني أن صورته عندي لم تكن محددة تحديداً قاطعاً، بينما كانت أكثر تحديداً لدى إنغفه. كان يكرهه كرهاً شديداً؛ وكان هذا أمراً أكثر بساطة من حالتي أنا. ليست لديَّ فكرة عن العلاقة التي كانت بين إنغفه وأبي فيما يتجاوز ذلك الكره. وما كانت فكرة إنجاب أطفال ذات يوم فكرةً خالية من التعقيدات في ذهني. عندما أخبرني إنغفه بأن كاري آن حبلى، كان من المستحيل تصور أي نوع من الآباء يمكن لإنغفه أن يكونه، وما إذا كان الشيء الذي انتقل إلينا من أبينا مستقراً في نقيّ العظم أو أنه شيء يمكن التخلص منه، أو حتى شيء يمكن الإفلات منه من غير صعوبة. صار إنغفه نوعاً من حالة تجريبية بالنسبة لي: إذا

جرى كل شيء على ما يرام، فسوف يجري على ما يرام عندي أيضاً. وقد جرى على ما يرام بالفعل. ما كان في إنغفه شيء من أبي فيما يتعلق بموقفه من الأطفال. كان كل شيء مختلفاً، وبدا الأمر جزءاً متكاملاً مع بقية أجزاء حياته. لم ينفر من الأطفال أبداً، وكان يجد وقتاً لهم كلما جاؤوا إليه أو كلما نشأت حاجة إلى ذلك. لم يحاول التقرّب منهم أبداً، وأعني بهذا أنه لم يجعل منهم تعويضاً لشيء في نفسه أو في حياته. كان يتعامل بيسر مع حالات من قبيل صراخ إيلفا أو رفسها المستمر، أو عدم رغبتها في ارتداء ثيابها. لقد ظل في البيت معها ستة أشهر، ولا يزال هذا القرب بينهما ظاهراً إلى الآن. إنغفه وأبي هما النموذجان الوحيدان عندي.

تغيرت الطبيعة من حولنا مرة أخرى. صرنا نعبر غابة الآن. إنها غابات سورلاند بصخورها وجروفها المنتصبة بين الأشجار هنا وهناك، وبتلالها التي تكسوها أشجار الصنوبر والبلوط والحور والبتولا، وسبخاتها القاتمة المتفرقة، ومروجها التي تظهر فجأة، وأراضيها المنبسطة المزدحمة بأشجار الصنوبر. عندما كنت فتى صغيراً، كنت أتخيل ارتفاع البحر حتى يملأ الغابات فتصير قمم التلال جزراً صغيرة يمكنك أن تبحر بينها، وأن تقفز منها لتسبح. من بين خيالات الطفولة كلها، كان هذا أكثر ما يأسرني... كانت تسحرني فكرة أن يغطي الماء كل شيء، فكرة أن تصبح قادراً على السباحة حيث تمشي الآن، على السباحة فوق مواقف الباصات وفوق سقوف البيوت، بل ربما تغطس أيضاً لتنزلق عبر باب ما وتصعد سلماً وتدخل غرفة معيشة. أو يمكنك أن تكتفي بالسباحة عبر الغابة بمنحدراتها وجروفها وجلاميدها وأشجارها العتيقة. عند نقطة بعينها في طفولتي، كان بناء السدود في الجداول أكثر الألعاب إثارة عندي حيث أراقب الماء وهو يفيض ويغطي الأرض المنخفضة الرطبة والجذور والعشب والحجارة والدرب الترابي المطروق إلى جانب الجدول. كان هذا يسحرني، ويخدّرني. ثم كان هنالك أيضاً القبو الذي اكتشفناه في بيت لم يكتمل بناؤه. كان مغموراً بماء أسود لامع نبحر فيه مستخدمين صندوقَيْن من البوليسترين. كان عمرنا عند ذلك خمسة أعوام تقريباً. شيء ساحر شيء مخدّر. كنت أعيش هذه الحالة في الشتاء أيضاً عندما نتزلج على امتداد الجداول المتجمدة فأرى العشب والعصيّ والأغصان الدقيقة ونباتات صغيرة واقفة كلها منتصبة في الجليد الشفاف من تحتنا.

ما الذي كانت له هذه الجاذبية كلها؟ أين ذهبت؟ وما الذي جرى لها؟

كان من بين خيالاتي الأخرى في ذلك الوقت أن يكون للسيارة نَصلَيْ منشار كبيرين بارزين من جانبيها يقطعان كل شيء نمر به. الأشجار وأعمدة المصابيح والبيوت والحظائر، لكن أيضاً الناس والحيوانات. إن كان أحد واقفاً ينتظر الباص، فسوف يُقطع من وسطه فيسقط نصفه العلوي مثل ساق شجرة مقطوعة، ويظل جزؤه الأسفل من قدميه إلى وسطه واقفاً ينزف الدم من سطحه.

لا أزال قادراً على عيش ذلك الإحساس.

قال إنغفه: «من هنا يذهبون إلى سوغنِه. إنه مكان سمعت عنه كثيراً لكنني لم أذهب إليه أبداً. هل ذهبت إليه أنت؟».

هززتُ رأسي نفياً.

«كان معنا في المدرسة بناتٌ يعشن هناك. لكنني لم أذهب».

ما عدنا بعيدين عن وجهتنا.

سرعان ما بدأ المكان من حولنا يتغير إلى أشكال أحسست بشكل غامض أنني أعرفها. صار ما أراه مألوفاً، أكثر فأكثر، إلى أن تطابقت الصور التي تبدو لي من النافذة مع صور محفوظة في عين عقلي... كان ذلك كأن السيارة تمضي بنا إلى داخل الذاكرة. كان كأننا نتحرك عبر قطعة من أيام صباي. دخلنا منطقة الضواحي، فاغزبايغد، حيث كانت تعيش حنّة، وحيث مصنع هينينغ أولسن، ومصانع فالكونبريدج للنيكل المعتمة الكالحة التي تحيط بها جبال ميتة. ثم انعطفنا إلى اليمين، صوب ميناء كريستيانساند، موقف الباص، محطة العبّارات البحرية، وفندق كاليدونيان، وصوامع الحبوب على جزيرة أوديرويا. وإلى يسارنا كان ذلك الجزء من المدينة الذي عاش فيه عم أبي حتى وقت قريب، قبل أن يأخذه الخَرَف إلى بيت للمسنين في مكان ما.

قال إنغفه: «هل نأكل أولاً أم نذهب مباشرة إلى مكتب دفن الموتى؟».

قلت: «أظن أن علينا أن نذهب إلى المكتب أولاً».

قال: «هل تعرف مكانه؟».

«إنه في إلفغيت. لكني لا أذكر الرقم».

«علينا إذن أن نعثر على الطريق من بدايته. هل تعرف أين يبدأ؟».

«لا. لكن قدْ السيارة فحسب! سوف نجده أمامنا».

وقفنا عند إشارة المرور فانحنى إنغفه عند عجلة القيادة وراح ينظر يميناً ويساراً.

تغيرت الإشارة إلى اللون الأخضر فسار بطيئاً بالسيارة خلف شاحنة صغيرة عليها مشمع رمادي متسخ. ظل إنغفه ينظر يميناً ويساراً، لكن سرعة السيارة الشاحنة ازدادت. زاد إنغفه السرعة عندما لاحظ أن المسافة التي بيننا صارت كبيرة.

قال إنغفه مومئاً برأسه ناحية اليمين: «لقد كان هنا. علينا أن نعبر النفق الآن».

قلت: «وما المشكلة؟ سنصل ذلك الشارع من الجهة الأخرى».

لكن، كانت هنالك مشكلة! عندما خرجنا من النفق وجدنا أنفسنا على جسر، وكانت الشقة الصغيرة التي عشت فيها فيما مضى إلى يميننا الآن؛ رأيتها من الطريق. وبعدها بأمتار قليلة، إلى الناحية الأخرى من النهر، في مكان مختفٍ عنا الآن، كان بيت جدتي حيث توفيَ أبي البارحة.

لا يزال هنا في هذه المدينة، في قبو ما في مكان ما، يتولى أمره غرباء بينما نحن جالسان هنا في السيارة منطلقين إلى مكتب دفن الموتى. لقد ترعرع في هذه الشوارع التي نراها من حولنا، وظل يسير فيها حتى أيام قليلة مضت. وفي الوقت نفسه، استيقظت ذكرياتي عن هذه الشوارع، لأن مدرستي الثانوية هناك، وهناك أيضاً المنطقة السكنية التي كنت أعبرها ماشياً صباح كل يوم وعصر كل يوم، المنطقة التي أصابني الحب فيها وكان شديداً إلى حد الألم، وهناك كان البيت الذي عشت فيه كثيراً، وحدي.

بكيت، لكن ذلك ما كان شيئاً كبير الأهمية... دمعات قليلة انسابت على وجنتيّ. لم يلاحظ إنغفه هذه الدموع إلى أن نظر إلي. قللت من شأنها بتلويحة من يدي، وسررت لأن صوتي ظل طبيعياً: «انعطف يساراً هنا!» سرنا في الشارع المنحدر حتى توريندالسفين، وتجاوزنا ملعبي كرة القدم حيث كنت أتمرن بجد كبير مع أولاد أكبر مني في الشتاء الذي شهد بلوغي السادسة عشر؛ ثم مررنا بتكجويتا وصعدنا حتى تقاطع الطرق عند أوسترفيين. تابعنا ذلك الطريق فعبرنا الجسر، ثم انعطفنا يميناً من جديد فدخلنا إلفغيت.

قلت: «ماذا كان الرقم؟».

بدأ إنغفه ينظر إلى أرقام البيوت وهو يقود السيارة بطيئاً.

قال: «ها هو. علينا الآن أن نجد مكاناً لركن السيارة».

رأيت لافتة سوداء عليها كتابة بحروف ذهبية معلقة على واجهة بيت خشبي إلى يسار الشارع. لقد حصل إنغفه على اسم الشخص الذي يدير هذا المكتب من غونار.

إنه المكتب نفسه الذي استعانوا به عندما توفي جدنا. وبحسب معرفتي، فإنه هو نفسه الذي تستعين به عائلتنا دائماً. كنت في أفريقيا في ذلك الوقت، في زيارة لمدة شهرين إلى والدة تونجِه وزوجها، ولم يخبرني أحد عن وفاة جدي إلّا بعد جنازته. قال لهم أبي إنه سيبلغني، لكنه لم يفعل ذلك أبداً. لكنه قال في الجنازة إنه تحدث معي فأجبته بأنني لا أستطيع الحضور. كنت أحب أن أحضر هذه الجنازة. ورغم أن ذلك كان صعباً من الناحية العملية، إلّا أنه لم يكن مستحيلاً. وحتى لو اتضح أنه مستحيل، فقد كنت أحب أن يبلغني أحد بوفاة جدي عندما حدثت، لا بعد ثلاثة أسابيع من ذلك، بعد أن صار تحت التراب. غضبت كثيراً. لكنني لم أكن أستطيع فعْل شيء.

دخل إنغفه شارعاً فرعياً صغيراً وتوقف إلى جانب الرصيف. نزعنا أحزمة المقاعد في اللحظة نفسها تماماً، وفتحنا البابين في اللحظة نفسها تماماً. ثم نظر كل منا إلى الآخر وابتسمنا. كان الهواء في الخارج لطيفاً، لكنه أكثر ملوحة من هواء ستافانغر، وكانت زرقة السماء داكنة أكثر قليلاً من السماء هناك. مضى إنغفه إلى عَدّاد موقف السيارات، أما أنا فأشعلت سيجارة. لم آت إلى جنازة جدتي لأمي أيضاً. كنت في فلورنسا مع إنغفه في ذلك الوقت. ذهبنا بالقطار إلى تلك المدينة ونزلنا في بنسيون ما هناك. وبما أن ذلك حدث قبل أن يصبح الهاتف المحمول شيئاً مألوفاً، فقد كان من المستحيل تحديد مكاننا والاتصال بنا. كان آسبجورن هو من أخبرنا ليلة وصولنا بما حدث. جلسنا معاً نشرب الكحول الذي أتينا به من سفرتنا. وهكذا كانت الجنازة الوحيدة التي حضرتها جنازة جدي لأمي. ساهمتُ في حمل نعشه أيضاً. كانت جنازة جيدة، وكانت المقبرة على تلة مشرفة على الفيورد. كانت الشمس ساطعة. بكيت عندما تحدثت أمي في الكنيسة. بكيت بعد أن انتهى ذلك كله وصار جدي في الأرض، عندما سارت أمي إلى جانب القبر الجديد. وقفتْ هناك وحدها خافضة رأسها. كان العشب أخضر اللون، وكان لون الفيورد الأزرق يلوح في الأسفل صقيلاً كالزجاج، وكانت الجبال ضخمةً مرتفعة داكنة. أما تراب القبر فكان أسود لامعاً، متألِّقاً.

تناولنا حساء اللحم بعد ذلك. خمسون شخصاً يلتهمون الطعام ويشربون. لا شيء أفضل من اللحم المملح من أجل تهدئة المشاعر المضطربة، أو من الحساء الحار من أجل الانفعالات المتفجرة. تحدث ماغنِه، والد جون أولاف، لكنه كان يبكي إلى حد جعل فهم ما يقوله شديد الصعوبة. حاول جون أولاف أن يلقي كلمة في الكنيسة،

لكنه اضطر إلى التخلي عن المحاولة... كان شديد القرب من جده، وكان عاجزاً عن نطق كلمة واحدة.

سرت بضع خطوات بساقين متيبستين ونظرت في الشارع الذي كان شبه مهجور إلّا في آخره حيث يتقاطع مع شارع التسوق الرئيسي في المدينة. ومن تلك المسافة، بدا لي ذلك المكان أسودَ لكثرة الناس فيه. اندفع الدخان إلى رئتيَّ عنيفاً مثلما يحدث دائماً عندما يمر عليَّ بعض الوقت من غير تدخين. توقفت سيارة على مسافة خمسين متراً أمامنا وخرج منها رجل. انحنى ولوَّح لمن بقوا فيها. كان له شعر متموج أسود، وفي رأسه بقعة صلعاء. لعله في الخمسين تقريباً. كان مرتدياً بنطلوناً مخملياً خفيفاً بني اللون وسترة سوداء أنيقة ونظارة مربعة ضيقة. استدرت حتى لا يستطيع رؤية وجهي عند اقترابه مني لأنني عرفته. كان معلم اللغة النرويجية خلال سنتي الأولى في مدرستي الثانوية. ماذا كان اسمه؟ فجيل؟ بيرغ؟ لست أبالي... هكذا قلت في نفسي واستدرت من جديد بعد مروره. كان شخصاً دافئ الطبع شديد الحماسة، لكنه كان يظهر شيئاً من الحدَّة أيضاً. لم يكن يظهرها كثيراً، لكني كنت أراها شيئاً خبيثاً شريراً كلما ظهرت. رفع يده التي تحمل كيساً لكي ينظر إلى ساعته، ثم أسرع في سيْره واختفى خلف الزاوية.

قال إنغفه وهو ينضم إلي: «يجب أن أدخن سيجارة أيضاً».

قلت: «هذا الرجل الذي مر بنا الآن... كان معلمي».

قال إنغفه، هو يشعل سيجارته: «حقاً؟ ألم يعرفك... أم ماذا؟».

«لست أدري، لقد أخفيت وجهي عنه».

قذفت بعقب السيجارة بعيداً. وبحثت عن العلكة في جيب بنطلوني. أظن أن لدي علكة في جيبي. نعم، ها هي.

قلت لإنغفه: «ليست لديَّ إلّا قطعة واحدة. لو كان لديَّ غيرها لأعطيتك».

قال: «لو كان لديك غيرها لأعطيتني بالتأكيد».

كادت دموعي تنهمر من جديد! أحسست بها فاستنشقت بضعة أنفاس عميقة وأنا أفتح عينيَّ على اتساعهما كأنني لا أرى جيداً. كان مدمن كحول جالساً عند عتبة بيت قبالتنا. لم ألاحظه قبل الآن. كان مسنداً رأسه إلى الجدار. بدا أنه نائم. بدا وجهه داكناً، بدا كأنه مصنوع من الجلد. كانت فيه جروح كثيرة. وكان شعره متسخاً مدهِناً، كان منتصباً. إنه في سترة شتاء ثقيلة رغم أن الحرارة تبلغ عشرين درجة على الأقل،

ومعه كيس حشاه بسقط المتاع ووضعه إلى جانبه. رأيت ثلاثة نوارس واقفة على حافة السطح فوقه. وعندما نظرت إليها، رفع واحد منها منقاره زاعقاً.

قال إنغفه: «هيا! هل ندخل الآن؟».

هززت رأسي.

رمى عقب سيجارته وتحركنا.

قلت: «بالمناسبة، هل لدينا موعد معهم؟».

«لا. لم يكن ذلك ممكناً. لكن الأمر ليس مستعجلاً، أليس كذلك؟».

قلت: «أنا واثق من أن أمورنا ستجري على ما يرام».

رأيت بين بعض الأشجار لمحات سريعة من النهر، وعندما انعطفنا عند الزاوية، ظهر أمامنا كل ما في درونغنز غيت من لافتات وواجهات متاجر وسيارات. إسفلت رمادي، وبنايات رمادية، وسماء رمادية.

فتح إنغفه باب مكتب الدفن ودخل. تبعته، وأغلقت الباب من خلفي. وعندما استدرت رأيت شيئاً يشبه غرفة انتظار فيها أريكة وبضعة مقاعد وطاولة عند أحد الجدران ومكتب استقبال عند الجدار الآخر. لم يكن هنالك أحد خلف مكتب الاستقبال، فمضى إنغفه لينظر في الغرفة المجاورة. وبلطف، قرع الباب الزجاجي بأصابعه بينما بقيت أنا واقفاً في وسط غرفة الاستقبال. كان في الغرفة باب نصف مفتوح رأيت من خلاله رجلاً في بذلة سوداء يمر من خلفي. بدا صغير السن، أصغر مني. جاءت امرأة شقراء الشعر عريضة الردفين، في الخمسين تقريباً، فجلست خلف مكتب الاستقبال. قال لها إنغفه شيئاً لم أسمعه... سمعت صوته يتحدث فقط. استدار صوبي وقال:

«سيكون أحد ما هنا بعد قليل. علينا أن ننتظر خمس دقائق».

عندما جلسنا، نظرت في الغرفة من حوْلي وقلت: «أحسُّ كأننا عند طبيب الأسنان».

قال إنغفه: «إن كان الأمر كذلك، فسوف يحفر أرواحنا بدلاً من أسناننا». ابتسمت وتذكرت العلكة التي أخرجتها من فمي وأخفيتها في يدي ريثما أجد مكاناً أرميها فيه. لا مكان لرميها هنا. مزقت قطعة من زاوية صحيفة على الطاولة أمامي فلففت العلكة بها ووضعتها في جيبي. راح إنغفه ينقر بأصابعه على مسند الكرسي.

لقد ذهبت إلى جنازة أخرى في حقيقة الأمر. كيف استطعت نسيان ذلك؟ كانت

جنازة صبي صغير، وكان الجو هستيرياً في الكنيسة. كان فيها بكاء، وكان فيها نحيب، وكان فيها صراخ وأنين ونشيج. لكن، كان فيها ضحك وقهقهة أيضاً. كان ذلك كله يأتي أمواجاً، كانت صيحة واحدة كافية لإطلاق سيل مندفع من الانفعالات والعواطف. كانت هنالك عاصفة؛ وانصبّت تلك المشاعر كلها على نعش أبيض عند المذبح، نعش رقد فيه صديقي كجيتيل. لقد قتل في حادث سيارة: أغفى خلف المقود في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، فانحرفت السيارة عن الطريق واصطدمت بسياج. اخترق رأسه قضيب معدني. كان في الثامنة عشر، وكان صبياً يحبه الجميع، كان صبياً حسن المزاج دائماً ولا يشكل خطراً على أيٍّ كان. عندما تركنا المدرسة في السادسة عشر، اختار كجيتيل المسار نفسه الذي اختاره يان فيدار، وهذا ما جعله يستيقظ في وقت مبكر جداً. كان عمله في المخبز يبدأ في الرابعة صباحاً. عندما استمعت إلى أخبار الحوادث في الراديو ذلك اليوم، ظننت أن شيئاً قد أصاب يان فيدار فارتحت عندما اكتشفت أن الأمر كان غير ذلك. لكني حزنت أيضاً رغم أن حزني لم يكن في شدة حزن الفتيات في صفّنا. عبّرت الفتيات عن مشاعرهن إلى أقصى حد؛ وقد عرفت ذلك لأنني مررت على الجميع مع يان فيدار في الأيام التي أعقبت الوفاة لجمع المال وتسجيل الأسماء من أجل إكليل الزهور المقدم باسم صفنا. لم أكن شديد الارتياح لهذا الدور لأنه أشعرني بأنني أدَّعي علاقة خاصة تربطني بكجيتيل، وهذا لم يكن صحيحاً. وهكذا تعمدت عدم الظهور كثيراً واحتللت أصغر مساحة ممكنة عندما رحت أتجوَّل في القرية مع يان فيدار الذي كان يشعّ حزناً وغضباً وإحساساً بوخز الضمير.

أذكر كجيتيل جيداً. أستطيع أن أستدعي صورته وأن أسمع صوته في أذني، في الداخل، رغم أن ذاكرتي لا تحتفظ من السنوات الأربع التي عرفته خلالها إلّا بحادثة واحدة، فضلاً عن أنها حادثة عديمة الأهمية إلى أقصى حد: وضع أحد ما أغنية «بيتنا» لفرقة مادنيس في ستيريو باص المدرسة، فراح كجيتيل الجالس إلى جانبي يضحك لأن الغناء كان شديد السرعة. لقد نسيت كل شيء آخر. لكنني لا أزال أحتفظ في القبو بكتاب استعرته منه: «امتحان قيادة السيارة، من الألف إلى الياء». إن اسمه مكتوب على صفحة الكتاب الأولى بذلك الخط الطفولي الذي يتميز به جيلنا كله. كان عليَّ أن أعيد ذلك الكتاب. لكن، إلى مَن أعيده؟ من المؤكد أن هذا الكتاب كان آخر ما يمكن أن يرغب والده في رؤيته.

تقع المدرسة التي كنت أذهب إليها معه ومع يان فيدار على مسافة بناية واحدة من النقطة التي أقف فيها الآن منتظراً مع إنغفه. بمعزل عن عدة أسابيع قضيتها في كريستيانساند منذ سنتين، لم أكد أزور المدينة منذ ذلك الوقت. أمضيت سنة في شمال النرويج، وستة أشهر في آيسلاندا، وقرابة ستة أشهر في إنكلترا، وسنة واحدة في فولدا، وتسع سنوات في بيرغن. وما عدا باسين الذي لا أزال أراه في أوقات متباعدة، لم تعد لي أي علاقة بأحد من ذلك الزمن في هذه المدينة. أقدم أصدقائي الآن هو إيسبن ستيولاند الذي التقيته في قسم العلوم الأدبية في جامعة بيرغن منذ عشر سنوات. ما كان ذلك اختياراً، بل مجرد مصادفة... هكذا جرى الأمر. بالنسبة لي، كانت كريستيانساند قد اختفت عن وجه الأرض. في عقلي، كنت أدرك أن كل من عرفتهم في تلك الفترة تقريباً لا يزالون أحياء يعيشون حياتهم هنا، لكن الأمر لم يكن كذلك من الناحية العاطفية! كأن الزمن في كريستيانساند قد توقف بي عند ذلك الصيف الذي تركت فيه المدرسة وتركت هذه المدينة إلى الأبد.

الذبابة التي كانت تئز طائرة عند النافذة منذ دخولنا، اتجهت فجأة إلى وسط الغرفة. راقبتها تدور تحت السقف بضع مرات ثم تستقر على الجدار الأصفر ثم تنطلق من جديد وتنزلق في قوس صغيرة من حولنا لتحط على ذراع المقعد الذي توقفت أصابع إنغفه عن النقر عليه. رأيت قائمتيها الأماميتين تتقدمان وتتراجعان ثم تتصالبان كما لو أنها تنفض عنهما شيئاً. ثم تقدمت وقفزت في الهواء. طنت أجنحتها واستقرت على يد إنغفه الذي رفع يده على الفور، بطبيعة الحال، حتى يطردها ثم وضعها من جديد فراحت الذبابة تطير أمامنا كأنها في غاية الانزعاج. وأخيراً، عادت إلى نافذتها حيث واصلت التجول هناك صاعدة هابطة. ولا تزال منزعجة.

قال إنغفه: «في الواقع، لم نتحدث عن نوع الجنازة التي يجب أن نقيمها له. هل فكرت في شيء؟».

«تقصد إن كانت جنازة في الكنيسة أو لا؟».

«على سبيل المثال».

«لا، لم أفكر في هذا الأمر. هل نحن مضطرين إلى تقرير هذا الآن؟».

«لا نستطيع أن نقرر الآن. لكن علينا أن نتخذ قراراً في وقت قريب».

لمحت الشاب صاحب البدلة عندما مر خلف الباب نصف المفتوح من جديد. صدمتني فكرة أن جثث الميتين يمكن أن تكون مخزونة هناك. لعلهم يتلقون الجثث لتحضيرها في تلك الغرفة. أين يمكن أن يفعلوا ذلك في غير هذا المكان؟

كأن أحداً في الداخل أحس بالوجهة الذي اتخذها تفكيري لأن الباب أغلق. بدا لي أن حركات الأبواب منسقة ضمن نظام سري ما لأن الباب المقابل لنا انفتح في اللحظة نفسها. خرج من ذلك الباب رجل سمين قد يكون في أواسط الستينيات. كان في بذلة سوداء متقنة وقميص أبيض. نظر الرجل إلينا.

قال متسائلاً: «كناوسغارد؟».

هززنا رؤوسنا ونهضنا واقفين. قال لنا اسمه وصافحنا واحداً بعد الآخر.

قال الرجل: «تعالا معي!».

لحقنا به إلى غرفة مكتب كبيرة نسبياً لها نوافذ مطلة على الشارع. أشار لنا إلى كرسيين أمام طاولة مكتبه. كان الكرسيان مصنوعين من خشب داكن اللون ومغلفين بجلد داكن اللون أيضاً. كان المكتب الذي جلس الرجل خلفه عميقاً متسعاً، وكان قاتم اللون أيضاً. رأيت على يساره صينية للأوراق والرسائل لها عدة طبقات، وإلى جانبها جهاز الهاتف. ما كان على المكتب شيء آخر.

في الحقيقة، لم يكن الأمر كذلك تماماً، لأن علبة من المناديل الورقية كانت على حافة المكتب، من ناحيتنا. أمر عملي من غير شك... لكن، كم بدا وجودها أمراً ساخراً، متهكماً! عندما تراها، ترى معها كل الأقارب الحزانى الذين جاؤوا إلى هذه الغرفة وبكوا طيلة اليوم، وتدرك أن حزنك ليس شيئاً فريداً، بل ليس شيئاً استثنائياً أيضاً، وبالتالي فإنه ليست له قيمة خاصة. كانت علبة المناديل الورقية علامة تشير إلى كثرة البكاء، وإلى كثرة الموت.

نظر الرجل إلينا وقال: «بماذا أستطيع أن أخدمكما؟».

كانت طيات اللحم التي لوحتها الشمس تحت ذقنه متدلية فوق ياقة قميصه البيضاء. وكان شعره رمادياً مسرحاً بعناية ومن تحته ظلٌّ داكن يحوم حول وجنتيه وذقنه. لم تكن ربطة عنقه السوداء متدلية من رقبته بل مستقرة على امتداد منحنى كرشه المنتفخ. كان بديناً، لكنه منتصب القامة أيضاً... ليس فيه شيء مترهل... لعل الكلمة المناسبة هي أنه رجل دقيق في مظهره، وبالتالي فهو واثق، آمن. أعجبني هذا الرجل.

قال إنغفه: «لقد توفيَ والدنا البارحة. ونحن نتساءل... إن كان من الممكن أن تهتموا بالتفاصيل العملية. الجنازة، وهكذا».

قال الرجل: «نعم. سأبدأ إذن بملء استمارة».

فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منه وثيقة.

«لقد استفدنا من خدماتكم عندما توفي جدي. وقد قمتم بالأمر على نحو جيد».

قال المدير: «أذكر هذا. أظنه كان محاسباً. كنت أعرفه معرفة جيدة».

مد يده إلى قلم موضوع إلى جانب الهاتف، ثم رفع رأسه ونظر إلينا.

قال: «لكني في حاجة الآن إلى بعض المعلومات منكما. ما اسم أبيكما؟».

قلت له اسمه فانتابني إحساس غريب. ليس لأنه كان ميتاً، بل لأنني لم أقل اسمه منذ سنوات طويلة.

التفت إنغفه صوْبي. قال بنبرة حذرة: «نعم... لقد غير والدنا اسمه قبل بضع سنوات».

قلت: «آه... لقد نسيت هذا. بالطبع».

لقد اختار لنفسه اسماً غبياً!

كم كان غبياً!

أطرقت برأسي ورفرفت عيناي عدة مرات.

قال المدير: «هل لديكم رقم التأمين الوطني لوالدكم؟».

قال إنغفه: «لا، ليس معنا الآن. إنني آسف. لكنه مولود في السابع عشر من نيسان 1944. يمكننا العثور على تتمة الرقم فيما بعد إذا كان ذلك ضرورياً».

«هذا جيد. والعنوان؟».

أعطاه إنغفه عنوان جدتنا. ثم التفت إليَّ.

قلت: «لست واثقاً من أن هذا عنوانه الرسمي. لقد توفي في بيت أمه. كان يعيش عندها».

«سوف أتولى هذا أيضاً. لكني في حاجة إلي تسجيل اسميكما. أريد أيضاً رقم هاتف لأستطيع الاتصال بكما».

قلت: «اسمي كارل أوفه كناوسغارد».

قال إنغفه: «إنغفه كناوسغارد». ثم أعطاه رقم هاتفه. وبعد تسجيل ذلك كله، وضع الرجل القلم ونظر إلينا من جديد.

«هل تسنَّى لكم التفكير في الجنازة نفسها؟ أين سيكون من المناسب أن نقيمها، وكيف تريدون أن يكون شكلها؟».

قال إنغفه: «لا. لم نفكر. لكني أظن أن من الطبيعي أن تقام الجنازة بعد أسبوع من الوفاة».

«هذه هي العادة. هل سيكون الجمعة القادم موعداً مناسباً؟».

قال إنغفه: «مناسب... على ما أظن. ما رأيك؟».

قلت له: «يوم الجمعة مناسب».

«لا بأس إذن، فلنقل إننا اتفقنا في الوقت الحاضر على يوم الجمعة. أما فيما يتعلق بالتفاصيل العملية فإننا نستطيع اللقاء من جديد، أليس كذلك؟ وفي تلك الحالة، إذا أردتم إقامة الجنازة يوم الجمعة فإن علينا أن نلتقي في بداية الأسبوع. أظن أن ذلك يجب أن يكون يوم الإثنين على الأكثر، هل هذا مناسب لكما؟».

قال إنغفه: «بالطبع! هل يمكن أن نلتقي في وقت مبكر من يوم الإثنين؟».

«ممكن، ما رأيك في التاسعة صباحاً؟».

«الساعة التاسعة توقيت مناسب».

سجل الرجل هذا الموعد في دفتره، ثم وقف عندما انتهى من ذلك.

«سوف أبدأ ترتيباتي منذ الآن. إذا كانت لديكم أية أسئلة فأرجو ألا تترددوا في الاتصال. اتصلوا في أي وقت تشاؤون. إنني ذاهب إلى بيتي الريفي بعد الظهر وسأظل هناك طيلة نهاية الأسبوع. لكنني آخذ هاتفي المحمول معي. وهكذا ليس عليكما إلّا الاتصال. لا تقلقا. سوف نلتقي من جديد يوم الاثنين».

مد يده فصافحناها، إنغفه ثم أنا، قبل أن نخرج من الغرفة. أغلق الرجل الباب من خلفنا مع ابتسامة وهزة خفيفة من رأسه.

كان شيء ما قد تغير عندما صرنا في الشارع من جديد وسرنا عائدين إلى سيارتنا. لم يعد ما رأيته آنذاك، لم يعد ما كان محيطاً بنا، واضحاً مثلما كان من قبل. كان كأنه قد أزيح إلى الخلف... كأن منطقة خالية قد أقيمت من حولي، منطقة فارغة من كل معنى. لقد اختفى العالم، هكذا أحسست، لكني لم أكن أبالي... لأن أبي قد مات. وفي حين

كان مكتب دفن الموتى بكل تفاصيله حياً واضحاً في ذهني، فإن المدينة الممتدة من حوله كانت رمادية مشوَّشة. سرت فيها لأنني لم أكن أملك خياراً آخر. لكنني لم أكن أفكر بطريقة مختلفة، لم يتغير شيء في داخل عقلي؛ الفارق الوحيد هو أنني صرت الآن في حاجة إلى مزيد من المساحة، إلى مزيد من الفسحة حولي، مما جعلني أزيح الواقع الخارجي لأبعده قليلاً. لا أعرف... لست قادراً على شرح الأمر بكلمات أخرى.

دار إنغفه حول السيارة ليفتح الباب. لاحظت شريطاً أبيض معقوداً على القضيب فوق سطح السيارة. كان لامعاً يشبه الشريط الذي تلف الهدايا به... لكن من المؤكد أنه ليس كذلك!

فتح إنغفه الباب لي فجلست في السيارة.

قلت له: «جرى الأمر بطريقة جيدة، أليس كذلك؟».

قال: «صحيح. هل نذهب إلى بيت جدَّتنا الآن؟».

قلت: «فليكن». شغّل إنغفه إشارة الانعطاف يساراً، ثم انطلقت السيارة فانضمت إلى حركة المرور في الشارع. انعطف في أول شارع إلى اليسار، ثم انعطف إلى اليسار مرة أخرى صوب درومينغينز غيت، وسرعان ما رأينا بيت جدتنا من الجسر، كان أصفر اللون مشرفاً على مرسى القوارب الصغير وعلى حوض الميناء. صعدنا مرتفع كوهولمسفين، ثم دلفنا إلى الزقاق الذي كان شديد الضيق إلى درجة تجعلك مضطراً إلى القيادة إلى الأسفل مسافة قليلة، ثم التراجع بالسيارة عبر بداية درب المشاة الصغير قبل أن تستطيع المتابعة في اتجاه البيت والتوقف عند مدخله. رأيت أبي في طفولتي يقوم بهذه العملية مرات كثيرة، لعلها مائة مرة؛ ورأيت إنغفه الآن يفعل الشيء نفسه تماماً فأحسست بدموعي موشكة على الانهمار من جديد. عقلي وحده هو الذي تمكن من إيقافها هذه المرة.

عندما تقدمت السيارة في الممر الصاعد قليلاً، طار نَوْرسان كبيران كانا واقفَيْن عند مدخل البيت. كانت في الفسحة أمام المدخل أكياس قمامة كثيرة. هذا ما كان يشغل النورسَيْن. لقد أخرجا من الأكياس مختلف أنواع القمامة البلاستيكية ونثراها من حولهما بحثاً عن الطعام.

أوقف إنغفه محرك السيارة، لكنه لم يتحرك. أنا أيضاً بقيت في مكاني. كانت الحديقة مهملة تماماً. العشب فيها يبلغ الركبة كما في فسحة في الغابة... عشب لونه

أصفر ضارب إلى الرمادي متكسِّر في بعض الأماكن بفعل المطر. كان ممتداً في كل مكان، وكان يغطي أحواض الزهور كلها. لو لم أكن أعرف أماكن أحواض الزهور لما كنت قادراً على رؤيتها لأنه لم يكن ظاهراً غير لمحات ملونة قليلة هنا وهناك. كانت عربة يدوية صدئة راقدة على جانبها عند الشجيرات. بدت كأنها شيء نبت هناك، والأرض تحت الأشجار بنية لكثرة ما عليها من ثمار الخوخ والإجاص المتعفنة. الهندباء تنمو بغزارة في كل مكان، وظهرت في بعض المواضع شجرات فتيَّة. كان ذلك كأننا توقفنا في فسحة في قلب الغابة لا أمام بيت في وسط كريستيانساند.

انحنيت لأنظر إلى البيت. كانت الألواح الخشبية متعفنة، وطلاؤها متقشّراً في أماكن كثيرة. لكن البيت بدا أقل تدهوراً من الحديقة.

سقطت على زجاج السيارة بضع قطرات من المطر، واصطدمت قطرات أخرى بسقف السيارة وغطاء المحرك مصدرةً صوت قرع خفيف.

قال إنغفه وهو يفك حزام المقعد: «غونار ليس هنا على أية حال. لكني أظنه سيأتي آخر الأمر».

«لا بد أنه في العمل».

أجابني إنغفه بنبرة جافة: «لا يعرف المرء ما يفعله هؤلاء المحاسبون». سحب المفتاح من السيارة ووضعه في جيبه، ثم فتح الباب وخرج.

كنت أفضل البقاء جالساً في مكاني، لكن هذا غير ممكن بالطبع. وهكذا لحقت به وأغلقت الباب ثم رفعت رأسي ناظراً إلى نافذة المطبخ في الطابق الأول، حيث كنا نجد جدتي واقفةً تنظر إلينا كلما أتينا.

لا يظهر أحد في البيت اليوم.

قال إنغفه وهو يصعد الدرجات الست التي كانت مطلية بلون أحمر داكن ذات يوم لكنها صارت الآن رمادية فحسب: «آمل أن يكون الباب مفتوحاً... الآن بعد أن وصلنا».

كان النورَسان قد عادا فاستقرا على حافة سطح بيت الجيران. جلسا هناك يراقبان حركتنا.

أدار إنغفه مقبض الباب ودفعه فانفتح.

قال: «أوه، يا ربي!».

صعدت الدرجات خلفه، وعندما تبعته إلى الداخل وصرت في المدخل، كان عليَّ أن أستدير سريعاً. في الداخل رائحة لا تطاق. يفوح المكان كله برائحة العفن والبول.

وقف إنغفه في الصالة ينظر إلى ذلك المشهد. غطت السجادة الزرقاء الممتدة من الجدار إلى الجدار لطخٌ وبقعٌ قاتمة. كانت خزانة الملابس الجدارية المفتوحة مليئة بزجاجات مبعثرة، وبأكياس تلك الزجاجات. وكانت الملابس مرمية في أنحاء المكان كلها. زجاجات أخرى، وعلّاقات ملابس، وأحذية، ورسائل غير مفتوحة، ونشرات إعلانية، وأكياس من النايلون... كان هذا كله مرمياً على أرض الغرفة، مبعثَراً.

لكن الرائحة أسوأ من هذا كله!

ما الذي يمكن أن يطلق هذه الرائحة الكريهة؟

قال إنغفه وهو يهز رأسه بحركة بطيئة: «لقد خرّب كل شيء».

قلت: «وما هذه الرائحة الفظيعة؟ كأنها شيء متعفن!».

قال: «تعال. إن جدتنا تنتظرنا». تحرك في اتجاه السلم.

كانت الزجاجات المرمية تصل حتى منتصف السلم، لعلها خمس أو ست زجاجات، لكننا وجدنا كميات أكبر عندما اقتربنا من فسحة الطابق الأول. حتى تلك الفسحة نفسها عند الباب كانت شبه مغطاة تماماً بالزجاجات والأكياس، ومثلها كل درجة من درجات السلم الصاعد إلى الطابق الثاني حيث كانت غرفتي جدتي. كانت القمامة تملأ المكان كله باستثناء سنتمترات قليلة في الوسط حيث وقفنا. كان أكثرها زجاجات بيرة بلاستيكية من سعة اللتر ونصف اللتر، ومعها زجاجات فودكا. لكن المرء يلمح بعض زجاجات النبيذ أيضاً.

فتح إنغفه الباب ودخلنا غرفة المعيشة. كانت الزجاجات فوق البيانو، وتحته كانت أكياس مليئة بزجاجات أخرى. كان باب المطبخ مفتوحاً. إنها تجلس هناك دائماً. وجدناها جالسة هناك اليوم أيضاً، بالقرب من الطاولة، عيناها تنظران إلى الأرض وفي يدها سيجارة يتصاعد دخانها.

قال إنغفه: «مرحباً!».

رفعت رأسها. لم يظهر في عينيها أول الأمر ما يشير إلى أنها عرفتنا؛ لكنهما أضاءتا بعد ذلك.

«هذا أنتما أيها الولدان! ظننت أنني سمعت أحداً يدخل باب البيت».

ابتلعت ريقي. بدت عيناها غائرتين في محجريهما؛ وكان أنفها ناتئاً كأنه منقار في وجهها الناحل وجلدها أبيض اللون متقلصاً مجعداً.

قال إنغفه: «أتينا فور سماعنا ما حدث».

«أوه، نعم، كان ذلك فظيعاً. لكنكما هنا الآن، جيد».

كان الثوب الذي ترتديه حائل اللون، عليه بقع كثيرة. كان يبدو متهدِّلاً على جسدها الهزيل. وكان الجزء العلوي من صدرها، الجزء الذي يفترض أن يغطيه ذلك الثوب، يكشف عن أضلاع بادية من تحت الجلد. كانت عظام كتفيها ووركيها ناتئة أيضاً. وما عاد ذراعاها أكثر من جلد وعظم. رأيت الأوعية الدموية على ظهر يديها كأنها أسلاك زرقاء دقيقة.

فاحت منها رائحة بول.

سألتنا: «هل تحبان تناول القهوة؟».

قال إنغفه: «نعم، من فضلك. لن تكون تلك فكرة سيئة. لكننا سنصنعها بأنفسنا. أين غلاية القهوة؟»

قالت جدتي وهي تتلفَّت حولها: «اللعنة عليَّ إن كنت أعرف».

قلت مشيراً إلى الطاولة: «إنها هنا». كانت إلى جانب غلاية القهوة ورقة عليها كتابة. ملت برأسي صوبها حتى أقرأها.

«سيأتي الولدان في الثانية عشرة. وسوف أصل في الواحدة تقريباً. غونار».

أخذ إنغفه غلاية القهوة ومضى إلى المغسلة ليفرغها مما فيها من بقايا. كانت هنالك أكوام من الأطباق والكؤوس القذرة. وكانت الطاولة إلى جانب المغسلة مليئة بالصواني البلاستيكية (أكثرها صواني وجبات من النوع الذي يسخَّن في المايكروويف). لا تزال بقايا الطعام فيها. وبين هذه الصواني، تناثرت زجاجات أخرى، أكثرها من سعة اللتر ونصف اللتر، كان في بعض تلك الزجاجات بقايا، وبعضها مليئاً حتى منتصفه، وبعضها الآخر لم يفتح بعد. لكن هنالك أيضاً زجاجات مشروبات كحولية قوية... أرخص أنواع فودكا فينمونوبول، وزجاجتا ويسكي من نوع آبرتن سعة نصف لتر. تناثرت في كل مكان بقايا قهوة جافة وكسرات خبز وبقايا طعام. أزاح إنغفه كومة من تلك البقايا، وأخرج بعض الأطباق من المغسلة ووضعها على الطاولة قبل أن يغسل غلاية القهوة ويملأها ماء.

كانت جدتنا جالسة مثلما وجدناها عندما دخلنا... أنظارها مثبَّتة على الطاولة، وفي يدها سيجارتها التي انطفأت الآن.

قال إنغفه: «أين تضعين البن؟ هل هو في الخزانة؟».

رفعت رأسها وقالت: «ماذا؟».

كرر إنغفه سؤاله: «أين هو البن؟».

قالت: «لا أعرف أين وضعه».

أين وضعه؟ هو؟ هل تقصد أبي؟

استدرت ومضيت إلى غرفة المعيشة. أذكر أنها كانت دائماً مخصصة للاستخدام في أيام العطلات الدينية والمناسبات الخاصة، أما الآن، فقد كان تلفزيون أبي الضخم في وسط تلك الغرفة وأمامه اثنان من كراسي الجلد الكبيرة. كانت الطاولة الصغيرة غارقة في الزجاجات والكؤوس وأكياس التبغ ومنافض السجائر الطافحة الموزعة بينها. تقدمت ونظرت إلى بقية الغرفة.

أمام الخزانة ذات الأبواب الثلاثة عند الجدار، كانت بعض قطع الملابس مرميةً على الأرض. رأيت بنطلونين وسترة وبعض الجوارب والملابس الداخلية. كانت الرائحة مخيفة. وكانت عند الخزانة أيضاً زجاجات أخرى وأكياس تبغ وقطع خبز جافة، وأنواع أخرى من القمامة. سرت في الغرفة أنظر إليها. كانت على الأريكة لطخات وكتل من الغائط. انحنيت فوق الملابس التي على الأرض. كان عليها غائط أيضاً. كان طلاء الأرضية الخشبية متآكلاً في بعض الأماكن على شكل بقع كبيرة غير منتظمة.

أهي بقع بول؟

أحسست بحاجة ملحّة إلى تحطيم شيء ما. رغبت في حمْل الطاولة وقذفها إلى النافذة. أردت تحطيم الرف. لكنني أحسست بضعف كبير جعلني غير قادر تقريباً حتى على المشْي.

أسندت جبيني إلى زجاج النافذة ونظرت إلى الحديقة في الأسفل. كان طلاء أثاث الحديقة المقلوب متقشراً كله تقريباً. بدا لي ذلك الأثاث كأنه نابت من التراب.

قال إنغفه من باب الغرفة: «كارل أوفه؟».

استدرت وعدت إليه.

قلت بصوت منخفض حتى لا تسمعني جدتي: «الوضع هنا مقرف إلى حد فظيع».

هز رأسه.

قال لي: «دعنا نجلس معها قليلاً».

«لا بأس».

عدت، وسحبت كرسياً فوضعته عند الطاولة في الجانب المقابل لجدتي وجلست. ملأ المطبخ صوت تكتكة آت من جهاز التوقيت في الموقد. جلس إنغفه عند رأس الطاولة وأخرج علبة سجائره من جيب سترته التي، لسبب ما، لم يخلعها. اكتشفت أنني لم أخلع سترتي أيضاً.

لم أكن راغباً في التدخين، لأنني أحسست بجفاف في فمي، لكنني كنت في حاجة إلى التدخين فأخرجت سجائري. الظاهر أن جلوسنا مع جدتي قد أعطاها شيئاً من الطاقة. دبَّت الحياة في عينيها من جديد.

قالت: «هل أتيتم بالسيارة هذه المسافة كلها من بيرغن اليوم؟»

قال إنغفه: «أتينا من ستافانغر. حيث أعيش حالياً».

«أما أنا فأعيش في بيرغن».

بدأ الماء الحار في غلاية القهوة على الموقد يصدر صوتاً.

قالت جدتنا: «هكذا إذن!».

صمت.

سألتنا فجأة: «هل تريدان بعض القهوة يا أولاد؟» نظرت إلى إنغفه فرأيته ينظر إليَّ.

قال إنغفه: «لقد وضعت الغلاية على الموقد، وسوف تكون جاهزة بعد قليل».

قالت جدتنا: «آه، نعم... وضعتها إذن». أطرقت برأسها ونظرت إلى يدها فأجفلت قليلاً كما لو أنها اكتشفت الآن فقط أن في يدها سيجارة. أخذت القدَّاحة وأشعلتها من جديد.

قالت: «هل جئتم بالسيارة طيلة الطريق من بيرغن اليوم؟» أخذت عدة أنفاس من سيجارتها قبل أن تنظر إلينا.

قال إنغفه: «جئنا من ستافانغر. استغرقت السفرة أربع ساعات فقط».

قالت: «نعم، إن الطرق جيدة الآن».

ثم تنهَّدت.. تابعت تقول: «أوه، يا إلهي! الحياة آهرة، مثلما كانت تقول تلك العجوز. ما كانت تستطيع لفظ الحرف «ع» ضحكت جدتي بصوت منخفض. ابتسم إنغفه.

قال لها: «سيكون لطيفاً أن نتناول شيئاً مع القهوة. لدينا بعض الشوكولاتة في السيارة. سوف أحضرها».

أحسست برغبة في أن أطلب منه عدم الذهاب، لكنني لم أفعل ذلك بالطبع. نهضت عندما ذهب وتركت سيجارتي التي لم أدخن منها إلّا قليلاً مستندة إلى حافة طبق السجائر، ثم مضيت إلى الموقد وضغطت الغلاية عليه حتى تغلي بسرعة.

كانت جدتي قد غرقت داخل نفسها من جديد. إنها تحدِّق في الطاولة الآن. كانت جالسة في كرسيها محنية الظهر، منكمشة الكتفين، وتهتز إلى الأمام والخلف.

فيمَ تفكر الآن؟

لا شيء! ليس هنالك شيء في عقلها. لا يمكن أن يكون فيه شيء. في داخله برد وظلمة فقط.

تركت الغلاية ونظرت حولي بحثاً عن علبة البُن. لم أجدها على الطاولة قرب البراد، ولا على الطاولة الأخرى، ولا إلى جانب المغسلة. لعلها في الخزانة؟ ربما لا. تذكرت الآن أن إنغفه قد وجدها. أين وضعها إذن؟

أوه! ها هي هناك! لقد وضعها على غطاء شفّاط الهواء حيث اصطفت علب التوابل القديمة. تناولتها ورفعت غطاء الغلاية رغم أن الماء لم يغلي فيها بعد. فتحت غطاء العلبة ووضعت بضع ملاعق من البن. كان البن جافاً. بدا لي قديماً.

رفعت رأسي فرأيت أن جدتي تراقب حركاتي.

سألتني: «أين إنغفه؟ هل ذهب؟ لا أظنه ذهب».

قلت لها: «لا. لقد نزل إلى السيارة فحسب».

قالت: «أوه، لا بأس».

أخذت ملعقة من الدرج وحركت المزيج في الغلاية، ثم ضغطتها على الموقد من جديد.

قلت: «سأتركها تغلي قليلاً، ثم تكون جاهزة».

قالت جدتي: «كان جالساً في الكرسي عندما نهضت في الصباح. كان جالساً تماماً. حاولت إيقاظه، لكنني لم أستطع. كان وجهه أبيض اللون».

أحسست بالغثيان.

سمعت صوت خطوات إنغفه على السلم. فتحت الخزانة بحثاً عن كؤوس لكني لم أجد شيئاً. لم أستطع إجبار نفسي على التفكير في استخدام الكؤوس التي في المغسلة. وهكذا انحنيت ورحت أشرب من الصنبور مباشرة عندما دخل إنغفه.

لقد خلع سترته. رأيت في يده قطعتين من الشوكولاتة وعلبة سجائر. جلس ومزَّق غلاف إحدى قطعتي الشوكولاتة.

سأل جدتي: «ألا تريدين قطعة؟» راحت تنظر إلى الشوكولاتة نظرة متفحّصة.

قالت: «لا، شكراً لك» ثم نظرت إلي... «كلها أنت».

قلت لها: «لا أشعر برغبة في الشوكولاتة. لكن القهوة صارت جاهزة».

وضعت الغلاية على الطاولة وفتحت باب الخزانة من جديد فتناولت ثلاث فناجين. كنت أعرف أن جدتي تضع السكر في القهوة ففتحت الخزانة الطويلة عند الجدار الآخر حيث تضع المواد الغذائية. رأيت فيها رغيفين من الخبز مزرقّين من العفونة، وثلاثة مغلفات من السباغيتي من النوع الذي يجب وضعه في الفريزر. كان فيها أيضاً بضع زجاجات من الكحول، من نوع رخيص.

ليس مهماً... قلت في نفسي وجلست من جديد. رفعت غطاء الغلاية وصببت القهوة. لم تغل القهوة كما يجب. تصاعد منها بخار بني خفيف يحمل حبيبات ضئيلة من البن. سكبت الفنجان في الغلاية من جديد.

قالت جدتي: «أمر حسن أن تكونا هنا».

بدأت أبكي. استنشقت نفساً عميقاً، لكن بحذر، ثم وضعت رأسي بين كفيّ ورحت أدلكه بهما كما لو أنني متعب لا كما لو أنني أبكي. لكن جدتي لم تلاحظ شيئاً على أيّ حال. بدا عليها أنها اختفت داخل نفسها من جديد. هذه المرة، أظن أن الأمر استمر خمس دقائق. لم نقل شيئاً؛ شربنا القهوة ونحن ننظر في الفراغ.

قالت جدتي بعد ذلك: «أوه، يا إلهي! الحياة آهرة، مثلما كانت تقول تلك العجوز. ما كانت تستطيع لفظ الحرف «ع»».

تناولت جدتي آلة لف السجائر الصغيرة الحمراء، ثم فتحت كيس التبغ (كان من

نوع بيتروس منتول)، ورصّت التبغ في الفجوة، ثم وضعت غلافاً في الأنبوب الصغير عند نهاية الآلة وأغلقت الغطاء ثم دفعته بقوة.

قال إنغفه وهو ينظر إليها: «أظن أن علينا إحضار حقائبنا. أين نستطيع النوم؟».

قالت: «إن غرفة النوم الكبيرة في الأسفل خالية. تستطيعان النوم فيها».

نهضنا واقفَيْن.

قال إنغفه: «سوف ننزل لنأتي بحقائبنا من السيارة».

قالت: «هل ستنزلان؟».

وقفت عند باب الغرفة واستدرت إليه: «هل نظرت إلى الغرفة من الداخل؟».

هز رأسه بالإيجاب.

عند نزولنا، غلبتني موجة بكاء قوية. لم يكن إخفاؤها ممكناً أبداً هذه المرة. راح صدري كله يرتجف ويهتز وما عدُت قادراً على التنفُّس. تتالت شهقات البكاء العميقة، وتقلص وجهي. فقدت السيطرة على نفسي تماماً.

«أوووه... أوووه».

أحسست بحركة إنغفه من خلفي فأجبرت نفسي على متابعة النزول والسير عبر الصالة ثم الخروج إلى السيارة. ذهبت إلى فسحة العشب الضيقة بين البيت وسياج الجيران. رفعت رأسي ونظرت إلى السماء وحاولت أن آخذ أنفاساً عميقة منتظمة. خف ارتجافي بعد عدة محاولات.

عندما عدت إلى السيارة، كان إنغفه واقفاً خلف غطاء صندوق الأمتعة المفتوح. رأيت حقيبتي على الأرض إلى جانبه. أمسكت بمقبضها وحملتها صاعداً درجات المدخل، ثم وضعتها في أرض الصالة واستدرت إلى إنغفه الذي كان خلفي مباشرة واضعاً حقيبته الظهرية على كتفيه وحاملاً حقيبته الأخرى بين يديه. بعد قضاء لحظات في الهواء النظيف في الخارج، بدت الرائحة الكريهة في البيت أشد قوة. رحت أتنفَّس من فمي. قلت مشيراً إلى باب غرفة النوم التي ظل جدي وجدتي يستخدمانها بضعة عقود: «هل من المفترض أن ننام في هذه الغرفة؟».

قال إنغفه: «من الأفضل أن نلقي نظرة عليها أولاً».

فتحت الباب ونظرْت إلى داخل الغرفة. كانت محتوياتها مبعثرة كلها... ملابس، وأحذية، وأحزمة، وأكياس، وأمشاط الشعر، ولفافات الشعر، وأدوات التجميل...

كانت مرميَّة في كل مكان، على السرير، وعلى الأرض، وعلى طاولة الزينة. كانت مكسوّة بالغبار. رغم ذلك لم تكن هذه الغرفة قذرة مثلما كانت غرفة المعيشة في الأعلى.

قلت: «ما رأيك؟».

قال: «لست أدري. أين تظن أنه كان ينام؟».

فتح الباب المجاور، باب الغرفة التي كانت غرفة إيرلينغ ذات يوم. دخل تلك الغرفة فلحقت به.

كانت القمامة والملابس متناثرة في أرض الغرفة. وتحت النافذة، رأيت طاولة محطمة. كانت في الغرفة أكوام من الأوراق والرسائل غير المفتوحة. ورأيت شيئاً يمكن أن يكون قيئاً جافاً... كانت تلك بقعة صفراء محمرَّة على الأرض، تحت السرير مباشرة. كانت الملابس ملطخة بالبراز وعليها بقع داكنة أظن أنها بقع دم قديم. كانت قطعة من الملابس الداخلية تبدو سوداء بسبب الغائط الذي في داخلها. فاحت الغرفة كلها برائحة البول.

مضى إنغفه إلى النافذة وفتحها.

قلت له: «تبدو الغرفة كأنها مكان لمدمني المخدرات... كأنها وكر للمدمنين».

قال إنغفه: «هذا صحيح».

من الغريب فعلاً أن طاولة الزينة عند الجدار بين السرير والنافذة كانت على حالها، لم تُمسّ. كانت هنالك صور لأبي وإيرلينغ وكل منهما في قبعة التخرج السوداء. لا بد أن تلك الصور ملتقطة عندما دخلا الجامعة. من غير لحيته، كان لأبي شبه مفاجئ بإنغفه. الفم نفسه، والعينان المدوَّرتان.

قلت: «ماذا علينا أن نفعل الآن؟».

لم يجبني إنغفه. ظل يتفحص الغرفة.

قال لي: «من الأفضل أن ننظفها».

هززت رأسي وخرجت الغرفة. فتحت باب غرفة الغسيل التي كانت في ممر يوازي السلم الصاعد إلى الأعلى، إلى جانب مرآب السيارة. بدأت أسعل عندما استنشقت هواء تلك الغرفة. في وسط أرضها، رأيت كومة مرتفعة من الثياب. كانت الكومة في مثل طولي... تكاد تبلغ السقف. من هنا تأتي رائحة العفونة الرهيبة. أشعلت

الضوء. مناشف، وملاءات، وأغطية الطاولات، وبنطلونات، وكنزات، وفساتين، وملابس داخلية... لقد رموها كلها هنا. لم تكن الطبقة السفلى من هذه الكومة متعفنة فحسب بل كانت متحللة. انحنيت ومسست تلك المنطقة بإصبعي. كانت طرية، دبقة.

صحت: «إنغفه!».

أتى ووقف بالباب.

قلت له: «انظر إلى هذا. من هنا تأتي تلك الرائحة». سمعنا صوت خطوات على السلم. نهضت واقفاً.

قلت: «من الأفضل أن نخرج حتى لا تظن أننا نتطفَّل».

عندما وصلت جدتنا، كنا واقفين أمام حقائبنا في وسط الغرفة.

قالت وهي تفتح الباب وتنظر إلى الداخل: «هل الغرفة مناسبة لكما؟ علينا أن ننظفها قليلاً فيصبح كل شيء على ما يرام».

قال إنغفه: «كنا نفكر في تلك الغرفة في العليّة. ما رأيك؟».

قالت: «أظن أن هذا ممكن. لكنني لم أصعد إليها منذ زمن بعيد».

قال إنغفه: «سوف نصعد ونلقي نظرة عليها».

***

غرفة العليّة التي كانت غرفة نوم جدي وجدتي منذ زمن بعيد إلى حد لا أستطيع تذكره، صارت بعد ذلك غرفة لمبيت الضيوف. إنها الغرفة الوحيدة في البيت التي ظلت من غير أن تُمَسّ. كان كل شيء فيها على حاله. غبار على الأرض، ورائحة بائتة خفيفة تفوح من البطانيات، لكنها ليست أسوأ مما يجده المرء في شاليه جبلي لم يدخله منذ الصيف الماضي. بعد الكابوس الذي رأيناه في الأسفل، كانت هذه الغرفة مصدر راحة حقيقية. وضعنا حقائبنا على الأرض وفتحناها. علّقت بدلتي على باب الخزانة، ووقف إنغفه مستنداً بذراعيه على إطار النافذة. كان ينظر إلى الخارج، إلى المدينة.

قال لي: «نستطيع البدء بإزالة الزجاجات كلها، ما رأيك؟ نأخذها إلى السوبر ماركت ونحصل على مال مقابلها. سنحصل على بعض المال بهذه الطريقة».

قلت: «صحيح، هذا صحيح».

بعد نزولنا إلى المطبخ، سمعنا صوت سيارة أمام البيت. إنه غونار. وقفنا ننتظر صعوده.

قال لنا مبتسماً: «ها أنتما هنا؟ لم أركما منذ وقت طويل».

كان ملوَّح الوجه أشقر الشعر. وكان جسمه قوياً، بارز العضلات. ملابسه جيدة أيضاً.

قال لجدتي: «أليس لطيفاً أن يكون هذان الصبيّان معنا هنا؟» ثم التفت إلينا من جديد.

قال: «إنه أمر فظيع... ما حدث هنا».

قلت: «نعم».

«أظن أنكما ألقيتما نظرة على المنزل. أي أنكما رأيتما ما كان يفعله».

قال إنغفه: «نعم».

هز غونار رأسه وهو يشد فكيه: «لا أعرف ماذا أقول. لكنه كان والدكما. يحزنني أن أموره سارت في ذلك الاتجاه. لكنني أظن أنكما كنتما تعرفان ما يفعله بنفسه».

قلت: «سوف ننظف البيت كله. وسوف نرتب كل شيء من الآن فصاعداً».

«هذا جيد. لقد تخلصت من أسوأ الأشياء في المطبخ هذا الصباح ورميت بعض القمامة. لكن لا يزال هنالك الكثير بالطبع».

كان هنالك ظل من ابتسامة.

تابع يقول: «لقد أتيت بمقطورة. للسيارة. هل يمكنك تحريك سيارتك يا إنغفه؟ سنضع المقطورة على العشب أمام المرآب. لا نستطيع الاحتفاظ بهذا الأثاث المحطم، أليس كذلك؟ والملابس أيضاً، وكل شيء. سوف نأخذها إلى مكَبّ القمامة. أليست هذه هي الفكرة الأفضل؟

قلت: «نعم».

«إن الأولاد مع توفِه في الشاليه الجبلي. وقد أتيت فقط للسلام عليكما. أتيت لأترك المقطورة أيضاً. لكني سأعود صباح الغد. وعند ذلك نستطيع المتابعة من هناك. شيء مخيف. لكنها الحياة. سوف تتدبران أمرَيْكما».

قال إنغفه: «بالطبع، بالطبع! لقد أوقفت سيارتك خلف سيارتي، أليس كذلك؟ هذا يعني أن عليك أن تعود بها قليلاً قبل كل شيء».

كانت جدتي تنظر إلينا عند الثواني الأولى بعد وصول غونار؛ وقد ابتسمتْ له أيضاً. لكنها عادت إلى قوقعتها الآن. جلست محدقة أمامها كما لو أنها وحيدة تماماً.

بدأ إنغفه يهبط درجات السلم. أما أنا فوقفت مفكراً في أن عليَّ البقاء معها.

قال غونار: «عليك أن تأتي معنا أيضاً يا كارل أوفه. لا بد لنا من دفع المقطورة إلى الأعلى قليلاً. إنها ثقيلة».

لحقت بهما.

سألَنا: «هل قالت لكما أي شيء؟».

قلت: «جدتي؟».

«نعم. هل قالت شيئاً عما حدث؟».

«لم تقل شيئاً تقريباً. قالت فقط إنها وجدته في الكرسي».

«كان أبوك معها دائماً. وهي في حالة صدمة الآن».

سألته: «ما الذي نستطيع فعله؟».

«لا شيء! الزمن وحده سيكون مفيداً. لكن عليها أن تذهب إلى بيت من بيوت العجزة بعد إقامة الجنازة. أنت ترى بنفسك كم صارت حالتها سيئة. إنها في حاجة إلى رعاية تخصّصية. يجب أن تذهب فور الانتهاء من الجنازة».

توقف ووضع قدمه على درجة المدخل ثم رفع رأسه إلى السماء المتألقة. كان إنغفه قد صار خلف مقود سيارته.

قال لي غونار من جديد: «تعرف أننا كنا قد رتبنا أمر من يساعدها في البيت. كانوا يأتون كل يوم ويعتنون بها. ثم جاء أبوك وطردهم كلهم. أغلق الباب وحبس نفسه. حتى أنا لم يكن مسموحاً لي بدخول البيت. لكن أمي اتصلت ذات يوم وقالت إنه كسر ساقه. قالت إنه مستلقٍ في غرفة المعيشة. كان قد فعلها في ثيابه. كان مستلقياً على الأرض، وكان يشرب. وكانت تقدم له الشراب. قلت له قبل وصول سيارة الإسعاف: هذا ليس جيداً أبداً! إنك تتخلى عن كرامتك. تماسك واستجمع نفسك الآن! هل تعرف بماذا أجابني أبوك... قال لي: هل تريد أن تدفعني أعمق في هذا الخراء يا غونار؟ ألهذا أتيت؟ لتدفعني أعمق في هذا الخراء؟...».

هزَّ غونار رأسه.

«وها هي أمي كما ترى... جالسة هناك الآن. أمي التي كنا نحاول مساعدتها طيلة هذه السنين. لقد أفسد كل شيء. أفسد هذا البيت، وأفسدها، وأفسد نفسه... كل شيء... كل شيء».

أسرع فوضع يده على كتفي: «لكني أعرف أنكما صبيّان طيِّبان».

بكيت... فأدار وجهه إلى الجهة الأخرى.

قال لي: «لا بأس... من الأفضل الآن أن نضع المقطورة في مكانها». ثم ذهب في اتجاه السيارة وجلس فيها وأدار المحرك. تراجع بالسيارة إلى الأسفل منحرفاً إلى اليسار قليلاً، ثم أطلق البوق عندما صارت المساحة خلف إنغفه حرة. وبعد ذلك، تقدم غونار بسيارته ثم نزل منها وفصل المقطورة عنها. أتيتُ إليهما وأمسكتُ بقضيب القطر وبدأت أجرُّ المقطورة صعوداً بينما دفعها إنغفه وغونار من الخلف.

وبعد أن دفعناها مسافة غير قليلة في الحديقة، تركت قضيب القطر يسقط على الأرض. قال غونار: «مكانها جيد هنا». كانت جدتي تنظر إلينا من نافذة الطابق الأول.

كانت جدتي جالسة في المطبخ بينما رحنا نجمع الزجاجات ونضعها في أكياس كبيرة من النايلون ونحملها إلى السيارة في الأسفل. راحت تنظر إليَّ عندما بدأت أصب بقايا البيرة والكحول في المغسلة، لكنها لم تقل شيئاً. لعلها تشعر بالارتياح للتخلص منها، أو لعلها لا تفهم شيئاً مما يحدث في حقيقة الأمر. امتلأت السيارة بأكياس الزجاجات، فصعد إنغفه ليخبر جدتي بأننا ذاهبان إلى السوبر ماركت. نهضتْ واقفة ونزلتْ إلى مدخل البيت. حسبنا أنها جاءت تودعنا، لكنها خرجت وسارت إلى السيارة، ثم وضعت يدها على مقبض الباب وفتحته وهمَّت بالجلوس.

قال إنغفه: «جدتي!»

توقفت.

«كنا نفكر في الذهاب وحدنا، لا بد من بقاء أحد هنا حتى ينتبه إلى البيت. أظن أن من الأفضل أن تبقي هنا».

قالت وهي تتراجع قليلاً: «أتظن هذا؟».

قال إنغفه: «نعم».

قالت: «لا بأس إذن، سأبقى هنا».

تراجع إنغفه بالسيارة قليلاً ودخلت جدتنا البيت.

قال إنغفه: «يا له من كابوس».

نظر إنغفه في مرآة السيارة التي من جهتي. أعطى إشارة الانعطاف يساراً، ثم انطلق.

قلت: «من الواضح أنها في حالة صدمة. أتساءل إن كان من الأفضل أن أتصل مع والد تونجه لأرى ما يقول. من المؤكد أنه يستطيع أن يصف لها شيئاً مهدِّئاً».

قال إنغفه: «إنها تتناول أدوية بالفعل. هناك علبة مليئة بالأدوية على الرف في المطبخ».

نظر في المرآة من جديد، وانعطف في شارع كوهولمسفين. كانت هنالك ثلاث سيارات آتية في اتجاهنا. نظر إليَّ من جديد.

«لكن من الممكن أن تخبر والد تونجه بالأمر. وعندها يستطيع أن يقرر».

قلت: «سأتصل به عندما نعود».

تجاوزتنا السيارة الأخيرة. كانت واحدة من تلك السيارات الجديدة المنتفخة البشعة. هطلت قطرات مطر على زجاج السيارة، فتذكرت المطر السابق الذي بدأ عند وصولنا قبل أن يغيِّر رأيه سريعاً ويتوقف.

استمر المطر هذه المرة. كانت ماسحات الزجاج قد بدأت تعمل عندما أعطى إنغفه إشارة قبل أن يترك الطريق ويدخل في شارع فرعي منحدر. إنه مطر الصيف.

أوه، إنها قطرات المطر التي تسقط على الإسفلت الحار الجاف ثم تتبخر أو يمتصها الغبار، لكنها تؤدي دورها رغم ذلك لأن قطرات أخرى تسقط بعدها فتجد الإسفلت أكثر برودة وتجد الغبار أكثر رطوبة فتنتشر البقع الداكنة، ثم تتحد، ويصير الإسفلت كله رطباً أسود اللون. أوه، إنه هواء الصيف الحار الذي يصبح فجأة أكثر برودة ويجعل قطرات المطر التي تسقط على وجهك أكثر دفئاً من وجهك نفسه فتميل برأسك إلى الخلف مستمتعاً بالإحساس الخاص الذي تمنحك إياه هذه القطرات.

أوراق الأشجار التي ترتجف تحت اللمسات الخفيفة، وذلك القرع الخافت الذي لا يكاد يُسمع، صوت قطرات المطر تتساقط على كل شيء: على الحافة الصخرية عند الطريق، وعلى أوراق العشب الطويلة في الخندق في الأسفل، وعلى قرميد السقوف على الناحية الأخرى، من الشارع، وعلى مقعد الدراجة المربوطة إلى السياج، وعلى أرجوحة معلقة في الحديقة في الأعلى، وعلى لافتات الطريق، وعلى المزراب عند الرصيف، وعلى أجسام السيارات الواقفة وزجاجها.

توقفنا عند إشارة المرور. صار المطر أكثر غزارة، وصارت القطرات التي تسقط الآن كبيرة ثقيلة. تغير مظهر المنطقة المحيطة بتقاطع الطرق عند روندينغن خلال ثوانٍ

معدودة، تغير كله. جعلت السماء الداكنة الأضواء أكثر وضوحاً، أما المطر المتساقط الذي صار رذاذ قطراته المتساقطة يقفز فوق الإسفلت فقد جعل تلك الأضواء غائمة. ماسحات الزجاج في السيارات تعمل كلها، والمشاة يجرون بحثاً عن ملجأ... حملوا جرائد فوق رؤوسهم أو وضعوا قبعاتهم... إلّا من لديهم مظلات: هؤلاء وحدهم ظلوا سائرين كما لو أن شيئاً لا يحدث.

تغير ضوء إشارة المرور فتابعنا السير نزولاً إلى الجسر، ومررنا بمحل التسجيلات الموسيقية القديم الذي أغلق منذ زمن بعيد. كنت أزوره مع يان فيدار في جولتنا الصباحية كل يوم أحد عندما نجول على محلات التسجيلات كلها. عبرنا جسر لوند. إلى هذا المكان يعود أول ذكريات طفولتي. كنت أسير على الجسر مع جدتي، وهناك رأيت رجلاً عجوزاً جداً له لحية بيضاء وشعر أبيض. كان يسير على عكاز، وكان ظهره محنياً. توقفت لأنظر إليه. لكن جدتي جرتني. وفي مكتب أبي، كان هنالك ملصق على الجدار. عندما وصلت إلى المكتب، وجدت أبي مع جاره (اسمه أولا يان. كان معلماً في مدرسة أبي نفسها، مدرسة رولايدن. وكان يعلم اللغة النرويجية أيضاً). أشرت إلى الملصق وقلت إنني رأيت هذا الرجل الذي في الصورة. كان الرجل نفسه صاحب اللحية البيضاء والشعر الأبيض والظهر المنحني. لم يفاجئني أبداً أن أجد صورته هنا على الملصق في مكتب أبي. كان عمري أربع سنوات، وما كنت أجد شيئاً غير مفهوم في العالم كله... كان كل شيء مترابطاً مع كل شيء آخر. لكن أبي وأولا يان ضحكا. ضحكا معاً، ثم قالا إن هذا مستحيل. قالا إنها صورة هنريك إبسن. لقد مات قبل مائة عام تقريباً. لكنني كنت واثقاً من أنه الرجل نفسه. وهذا ما قلته لهما. هزا رأسَيْهما. لكن أبي ما عاد يضحك الآن. عندما أشرت إلى صورة إبسن من جديد أسكتني بتلويحة من يده.

كان الماء تحت الجسر رمادياً تكسو سطحه حلقات كثيرة تُحدثها قطرات المطر التي تصفع وجهه. كانت في الماء أيضاً مُسحة من الخُضرة يراها المرء دائماً عندما يلتقي نهر أوترا بماء البحر. كم وقفت هنا أراقب التيارات! كانت تفيض أحياناً كأنها نهر بنفسها وترتفع حول الجسر مشكّلة دوَّامات صغيرة. وكانت أحياناً تشكل زبداً أبيض حول دعائم الجسر.

لكن النهر هادئ الآن. رأيت زورقَيْ صيد يتهاديان ماضيين صوْب فم الفيورد،

وكان غطاءاهما المصنوعان من التاربولين مفتوحَيْن. وإلى الجهة الأخرى، كانت سفينتان قديمتان صدئتان موثقتان إلى الرصيف، ومن خلفهما يخت أبيض لامع.

توقف إنغفه عند إشارة المرور من جديد، لكنها سرعان ما صارت خضراء فانعطفنا يساراً صوب مركز التسوق الصغير الذي يقع موقف السيارات فيه على السطح. سرنا عبر الممر الصاعد المزود بإشارات مرورية فبلغنا السطح حيث وجدنا مكاناً للوقوف في آخره. هذا من حسن حظنا لأن اليوم عطلة؛ إنه السبت.

خرجنا من السيارة فأملت رأسي إلى الخلف وتركت المطر الدافئ يغسل وجهي. فتح إنغفه صندوق الأمتعة فحملنا كل ما استطعنا حمله من أكياس الزجاجات الفارغة ونزلنا بالمصعد إلى السوبرماركت الواقع في الطابق الأرضي. كنا قد قررنا أن لا معنى لمحاولة الحصول على مقابل مالي لزجاجات الكحول فألقيناها في حاوية القمامة. وهكذا كان حملنا كله مكوناً من زجاجات بلاستيكية. كانت خفيفة، لكن شكل الأكياس بدا غريباً.

قال إنغفه عندما توقفنا أمام آلة استلام الزجاجات: «ابدأ أنت؛ وسوف أذهب أنا لأجلب المزيد».

بدأت أضع الزجاجات على السير الناقل، واحدة بعد أخرى، وأطوي الأكياس الفارغة وألقيها في سلة القمامة الموضوعة لتلك الغاية. لم أكن مهتماً بأن يراني أحد فيستغرب هذه الكمية الضخمة من زجاجات البيرة الفارغة. كنت غير مبالٍ بأي شيء. تلك المنطقة التي ظهرت إلى حيز الوجود عندما خرجت من مكتب دفن الموتى، والتي بدت كأنها تجعل كل شيء من حولي ميتاً أو عديم المعنى، ازدادت الآن حجماً وقوة. لم ألقِ بالاً إلى المتجر السابح في أضوائه الساطعة، ولا إلى السلع الملونة اللامعة التي فيه. سواء عندي أن أكون الآن هنا، أو في مستنقع أو في أي مكان. كنت شديد الحرص على مظهري دائماً، وكنت أهتم بما قد يظنه الناس في ما يرونه عندي. كنت أنتعش أحياناً وأشعر بالفخر، وأحبط وأكره نفسي في أحيان أخرى، لكنني لم أكن غير مبال بذلك أبداً... لم يحدث لي أبداً أن كانت العين التي تنظر إليَّ عديمة المعنى إلى هذا الحد، ولم يحدث أبداً أن يمّحي ما يحيط بي هذا الامّحاء كله. لكن، هكذا كانت حالتي الآن. كنت مخدراً... امتد هذا الخدر حتى هيمن على كل شيء آخر. كان العالم راقداً كأنه ظل من حولي.

عاد إنغفه حاملاً مزيداً من الأكياس.

قال لي: «هل تريد أن آخذ مكانك قليلاً؟»

«لا، لا مشكلة. يمكنك أن تذهب لتشتري الأشياء التي تلزمنا. إننا في حاجة إلى منظفات وقفّازات مطاطية وأكياس قمامة سوداء. ونريد بعض الطعام أيضاً».

وأضاف: «لا تزال هنالك كمية أخرى في السيارة. سوف أحضرها أولاً».

أجبته: «لا بأس».

بعد أن ابتلعت الآلة آخر زجاجة وأعطتني إيصالاً، لحقت بإنغفه الذي كان واقفاً أمام قسم مواد التنظيف المنزلية. أخذنا علبة جيف من أجل الحمام، وعلبة جيف من أجل المطبخ، وعلبة منظف أجاكس متعدد الاستعمالات، وعلبة أجاكس لتنظيف الزجاج، وزجاجة من الكلوريكس، وعبوة مستر ماسل لإزالة البقع الصعبة، وعبوة من مادة أخرى لتنظيف الفرن، وعلبة من منتج كيميائي خاص لتنظيف الأرائك، ولفافة من الليف المعدني، وإسفنجات، ومناشف للمطبخ، ومماسح للأرض، ودلوين فارغين ومكنسة. ثم أخذنا بعض قطع اللحم الطازج من قسم اللحوم، وبعض البطاطس والقرنبيط من قسم الخضار. وإضافة إلى هذا، اشترينا أشياء تؤكل مع الخبز، وحليباً، وبُناً، وفاكهة، وعبوة فيها عدد من علب اللبن الرائب الصغيرة، وبضع لفافات من البسكويت. عندما كنا نتجول في المتجر، كنت أموت شوقاً إلى ملء المطبخ بهذه المشتريات الجديدة النظيفة اللامعة التي لم يمسها أحد.

عندما صعدنا إلى موقف السيارات على السطح كان المطر قد توقف. تشكّلت بقعة ماء عند عجلات السيارة الخلفية نتيجة انخفاض بسيط في الإسمنت. كان الهواء منعشاً هناك في الأعلى، وكانت فيه رائحة البحر والسماء، لا رائحة المدينة.

قلت ونحن في طريقنا إلى الأسفل عبر موقف السيارات المظلم: «ما الذي تظنه قد حدث؟ تقول جدتنا إنها وجدته في الكرسي. أتظن أنه سقط نائماً فحسب؟».

قال إنغفه: «ممكن جداً».

«هل توقف قلبه؟».

«نعم».

«ممم! قد لا يكون هذا مفاجئاً بالنظر إلى طريقة حياته».

«لا، ليس مفاجئاً».

لم نقل شيئاً طيلة الطريق إلى البيت. حملنا أكياس التسوّق وصعدنا إلى المطبخ. أما جدتي التي كانت تنظر إلينا من النافذة عندما وصلنا فقد سألتنا: «أين كنتما؟».

قال إنغفه: «كنا نتسوَّق. ونحن الآن في حاجة إلى شيء نأكله».

بدأ يفرغ محتويات الأكياس. تناولت زوجاً من القفازات الصفراء ولفافة من أكياس القمامة، ثم نزلت إلى الطابق الأرضي. أول ما يجب فعله هو إزالة جبل الملابس المتعفنة في غرفة الغسيل. نفخت في القفازين، ثم وضعتهما على كفَّيَّ، وبدأت أضع الملابس في الأكياس. كنت أتنفَّس من فمي خلال تلك العملية. وكلما امتلأ عدد من الأكياس، كنت أجرها إلى الخارج وأكوّمها أمام حاويتَيْ القمامة الخضراوين عند باب المرآب. كدت أنتهي من الكومة كلها (لم تبق إلّا الملاءات المتعفنة المتلاصقة في أسفل تلك الكومة) عندما سمعت إنغفه يصيح قائلاً إن الطعام جاهز.

كان إنغفه قد أزال الأوساخ والبقايا عن طاولة المطبخ ونظف الطاولة الأخرى أيضاً. وضع عليها طبقاً من قطع اللحم المقلية وطبقاً كبيراً من البطاطس، وبعض القرنبيط، وإبريقاً صغيراً فيه صلصة اللحم. لقد وضع أفضل أدوات المائدة التي كانت جدتي تستخدمها أيام الأحد، التي لا بد أنها ظلت طيلة السنوات الأخيرة راقدة في خزانة غرفة الطعام.

لم تكن جدتي راغبة في تناول أي شيء. لكن إنغفه وضع قطعة لحم صغيرة وقطعة من البطاطس وقطعة من القرنبيط في طبقها، ثم تمكن من إقناعها بتذوقها. كنت جائعاً مثل ذئب فالتهمت أربع قطع كبيرة من اللحم.

قلت: «هل وضعت حليباً في الصلصة؟».

«نعم، ووضعت أيضاً بعضاً من جبنة الماعز البُنية».

قلت: «هذا جيد! هذا بالضبط ما أحتاجه الآن».

بعد الطعام خرجت إلى الشرفة برفقة إنغفه مع سيجارة وفنجان قهوة. ذكّرني بأن أتصل بوالد تونجه، الأمر الذي كنت نسيته تماماً. أو لعلني تناسيته لأنني لم أكن متحمساً للاتصال به في حقيقة الأمر. إلّا أنه عليَّ أن أتصل. وهكذا صعدت إلى غرفة النوم وأحضرت دفتر التلفونات من حقيبتي وطلبت الرقم من الهاتف في غرفة الطعام بينما كان إنغفه ينظف طاولة المطبخ.

قلت عندما أجابني: «مرحباً، هذا كارل أوفه. لا أدري إن كنت تستطيع مساعدتي في مسألة طبية. لا أدري إن كانت تونجه قد أخبرتك بشيء، لكن أبي قد توفي البارحة...».

قال: «نعم، لقد أخبرتني. لقد اتصلت بي. حزنت لسماع ذلك يا كارل أوفه».

قلت: «حسنٌ، على أية حال، إنني في كريستيانساند الآن. الحقيقة أن جدتي هي من وجده. لقد تجاوزت الثمانين. والظاهر أنها في حالة صدمة. لا تتكلم إلّا قليلاً. ولا تفعل شيئاً إلّا الجلوس. أريد أن أسألك إن كان هنالك دواء مهدّئ أو أي شيء يمكن أن يساعدها الآن. إنها تتناول بعض الأدوية في الحقيقة؛ ولعل من بينها نوع من الأدوية المهدئة. لكنني كنت أفكر... نعم هكذا هو الأمر. إنها في حالة سيئة».

«هل تعرف الأدوية التي تتناولها؟».

قلت: «لا أظن أنني أعرف. لكني أستطيع محاولة اكتشاف ذلك. لحظة واحدة».

وضعت السماعة على الطاولة وذهبت إلى المطبخ، إلى الرف حيث كانت علبة الأدوية. بدا لي أنني أتذكر رؤية أوراق بيضاء وصفراء تحت العلبة... لعلها وصفات طبية.

لم أجد إلّا واحدة.

سألت إنغفه: «هل رأيت أغلفة هذه الأدوية؟ علبها؟ إن والد تونجه على الهاتف معي الآن».

قال إنغفه: «هناك بعض منها في الخزانة إلى جانبك».

سألتني جدتي الجالسة في مقعدها: «عم تبحث؟».

لم أكن أريد إزعاجها، لكني كنت أحس بعينيها مسلطتين عليَّ عندما رحت أبحث. إلّا أنني لم أستطع تجاهلها أيضاً.

قلت لها: «إنني أتحدث مع طبيب على الهاتف»... كأن ذلك يوضح كل شيء! من الغريب تماماً أن هذه الإجابة هدّأتها فخرجت من المطبخ حاملاً الوصفة الطبية وأغلفة الأدوية في يدي.

قلت: «هل أنت معي؟».

قال: «لا أزال هنا».

«وجدت بعض علب الأدوية»، وقرأت له أسماءها.

«آه. إنها تأخذ دواء مهدئاً بالفعل. لكني أستطيع أن أصف لها دواء إضافياً. هذه ليست مشكلة. سوف أتصل لأسجل الوصفة حالما ننهي اتصالنا هذا. هل هنالك صيدلية قريبة منكم؟».

«نعم، هنالك صيدلية في لوند. إنها من ضواحي المدينة».

«سوف أهتم بالأمر. انتبه إلى نفسك الآن».

وضعت السماعة وعدت إلى الشرفة ونظرت في اتجاه فم الفيورد حيث لا تزال السماء مدلهمة بالغيوم. لكن تلك الغيوم بدت مختلفة تماماً الآن، لم تعد داكنة مثلما كانت من قبل. كان والد تونجه شخصاً طيباً، رجلاً قريباً من القلب. إنه لا يسلك سلوكاً عدوانياً أبداً، ولا يبالغ في أي شيء. رجل محترم لائق المظهر والسلوك رغم أنه ليس رسمياً ولا شديد التحفظ. على العكس تماماً: كثيراً ما تأخذه الحماسة وتظهر عليه لمسة صبيانية! وإذا لم يكن يبالغ في أي تصرف فذلك ليس لأنه لا يريد ذلك أو لا يستطيعه... بل لأنه شيء مختلف عنه، شيء ليس موجوداً في طبيعته، شيء مستحيل بالنسبة إليه. هكذا كنت أراه، وكنت أحبه لهذا السبب. كان لديه شيء مما أعتبره سلوكاً لائقاً، أي ذلك الشيء الذي كنت أبحث عنه دائماً وأحب أن أكون قريباً منه حيثما أجده رغم إدراكي في الوقت نفسه أنني أحب هذا النوع من السلوك كثيراً وأحب هذا الرجل كثيراً لأن أبي كان مثله ذات يوم. عندما تزوجت في الخامسة والعشرين، كان ذلك لأنني رغبت في أن تصير لي كينونة مستقرة هادئة منتمية إلى الطبقة الوسطى. لكن ذلك الجانب مني كانت تواجهه، بالطبع، حقيقة أننا لم نعش ذلك النوع من الحياة، نمط حياة أسرة الطبقة الوسطى الروتيني المستقر؛ بل على العكس تماماً. وبما أن أحداً ما عاد يتزوج في هذه السن المبكرة، فقد كان زواجي سلوكاً أصيلاً، وإن لم يكن متطرفاً.

لأن تفكيري كان هذا، ولأنني أحببتها، سقطت على ركبتي ذات مساء عندما كنا وحيدين على شرفة فندق في مابوتو في موزمبيق، تحت سماء سوداء مثل الفحم... كان الهواء مليئاً بأصوات حشرات ليلية وطبول آتية من قرية على مسافة بضعة كيلومترات... وسألتها إن كانت تقبل الزواج مني. قالت شيئاً لم أفهمه. من المؤكد أنه كان قبولاً. سألتها: «ماذا قلتِ؟» أجابتني: «هل تطلب مني الزواج؟ هل تطلب مني هذا حقاً؟ أهذا ما تطلبه؟» قلت: «نعم». فأجابت: «نعم، أريد الزواج منك». تعانقنا وسالت دموع من عيوننا. وفي اللحظة نفسها أرعدت السماء... موجة رعد قوية

عميقة انداحت من حولنا فارتعشت تونجه. ثم انهمر مطر غزير. ضحكنا. وجرت تونجه لتحضر الكاميرا. وعندما عادت بها وضعت ذراعها من حولي والتقطت لنا صورة بيدها الأخرى الممدودة.

كنا طفلين.

عبر النافذة، رأيت إنغفه ذاهباً إلى غرفة المعيشة. سار في اتجاه الكرسيين، وحدَّق فيهما، ثم تحرك وخرج من مجال رؤيتي.

حتى خارج البيت، في الحديقة، كانت هنالك زجاجات متناثرة هنا وهناك. حملت الريح بعضها إلى السياج ذي القضبان، وعلق البعض الآخر تحت مقاعد الحديقة الصدئة التي حال لونها... لا بد أن هذه المقاعد ظلت متروكة هناك منذ الربيع على أقل تقدير.

ظهر إنغفه من جديد. لم أستطع رؤية تعبير وجهه، لكني رأيت ظله يعبر غرفة المعيشة ثم يختفي داخل المطبخ.

نزلت السلم وخرجت إلى الحديقة. لا توجد بيوت تحت هذا البيت لأن هذا الجانب من التل شديد الانحدار، لكن مرسى القوارب موجود في الأسفل، وبعده حوض الميناء الصغير نسبياً. أما إلى جهة الشرق، فإن الحديقة تحاذي حديقة بيت آخر معتنى بها مثلما كانت حال هذه الحديقة ذات يوم. كانت الأناقة وحسن الرعاية ظاهرتان عليها: الأشجار المقلمة، والعشب المشذب، وأحواض الزهور بألوانها المرحة... كان ذلك كله يجعل شكل الحديقة هنا باعثاً على الغثيان. وقفت مكاني بضع دقائق غارقاً في دموعي، ثم سرت ملتفاً حول البيت حتى بلغت الباب الأمامي فدخلت وتابعت عملي في الأسفل. عندما فرغت من إخراج ما بقي من الملابس، سكبت الكلورين على الأرض، سكبت نصف الزجاجة تقريباً، ثم بدأت أفركه بالمكنسة قبل أن أستخدم خرطوم الماء لإزالته ودفعه إلى المصرف. وبعد ذلك، أفرغت بقية عبوة الصابون الأخضر على الأرض من جديد وعدت أفركها، لكن بقطعة قماش هذه المرة. وبعد غسل الأرض مرة ثانية. رأيت أنني أنجزت هنا ما يكفي فصعدت إلى المطبخ. كان إنغفه ينظف واحدة من خزائن المطبخ. وكانت آلة غسل الأطباق تعمل. صارت طاولات المطبخ نظيفة الآن.

قلت: «سوف أستريح قليلاً. هل تريد الانضمام إليَّ؟».

قال إنغفه: «نعم، سوف أنتهي من هذه أولاً. هل تحضّر بعض القهوة ريثما أنتهي؟».

فعلت ذلك؛ ثم تذكرت فجأة وصفة جدتي الطبية. هذا أمر لا يمكن تأجيله.

قلت لإنغفه: «علي أن أذهب إلى الصيدلية سريعاً. أتريد أن أجلب لك شيئاً... من كشك الصحف مثلاً؟».

قال: «لا! ... أو بالأحرى نعم، هات معك زجاجة كولا».

أغلقت أزرار سترتي عندما نزلت السلم. كان سواد كومة أكياس القمامة الموضوعة أمام باب المرآب الخشبي الجميل المصنوع في الخمسينيات يلمع في الضياء الصيفي الرمادي. رأيت المقطورة البنية الداكنة واقفة وقد استند قضيب القَطر على الأرض... كأنها منحنية... هكذا قلت في نفسي: كأنها خادم انحنى لي عندما رآني. أدخلت يدي في جيبي وسرت هابطاً الممر ثم مشيت على الرصيف حتى بلغت الطريق الرئيسي حيث كان المطر قد جف تماماً. أما على الجرف الصخري المرتفع في الجهة المقابلة، فكانت الرطوبة لا تزال ظاهرة على سطوح كثيرة، وكانت خُضرة بقع العشب النامية هناك زاهية كثيفة بالمقارنة مع الألوان الداكنة من حولها. كان مظهرها شديد الاختلاف عنه عندما تكون جافة مغبرّة ويكون التضاد بين الألوان أقل ويبدو كل شيء تحت هذه السماء غير مبالٍ، أو يبدو حروناً، منفتحاً، واسعاً، خاوياً. كم من تلك الأيام الخاوية مرّت عندما كنت أسير هنا، في هذه الأماكن؟ رؤية النوافذ السوداء في البيوت، ورؤية الريح تصفر في هذه الأنحاء، ثم الشمس التي تنيرها، وكل ذلك العمى والموت الذي فيها! أوه، إنه الوقت الذي كنت تعبُده في هذه المدينة... إنه الوقت الذي كنت تراه أحسن أوقات حياتك... عندما تعود المدينة حية. سماء زرقاء، وشمس حارة، وشوارع مغبرة. سيارة ينطلق منها صوت ستيريو يصم الآذان، سقفها مفتوح، وفيها شابان في بنطلونين قصيرين فقط ونظارتين شمسيتين... إنهما ذاهبان إلى الشاطئ... امرأة عجوز في ملابس كاملة، من قمة رأسها إلى قدميها، ومعها كلب، نظارتها الشمسية ضخمة، والكلب يجذب رسنه لأنه يريد أن يتشمم شيئاً عند السياج. طائرة تجر خلفها لافتة طويلة: هنالك مباراة رياضية في الملعب، في اليوم التالي. كل شيء مفتوح، كل شيء خاوٍ، العالم ميت، والمطاعم تغص عند المساء برجال ونساء سعداء لوَّحتهم الشمس... ملابسهم زاهية الألوان.

أكره هذه المدينة!

بعد أن سرت مائة متر في شارع كوهولمسفين، بلغت تقاطع الطرق. تبعد الصيدلية مائة متر الآن. إنها في وسط منطقة المركز التجاري الصغير في هذه الضاحية. هنالك منحدر عشبي خلف الصيدلية على قمته بنايات سكنية من الخمسينيات أو الستينيات. وإلى الناحية الأخرى من الطريق، أعلى من ذلك المنحدر بكثير، تقوم صالات إيليفين للاجتماعات واللقاءات. قد نستأجر واحدة منها من أجل اللقاء الذي يعقب الجنازة.

جعلتني أبكي من جديد فكرة أنه لم يكن ميتاً بالنسبة لي أنا فقط، بل أيضاً بالنسبة لأمه وشقيقيه، وأعمامه وعمّاته. لم أبالِ بأن يأتيني هذا البكاء على الرصيف الذي يسير عليه الناس طيلة الوقت لأني ما كنت أراهم. لكنني مسحت دموعي لأسباب عملية: حتى أتمكن من رؤية ما حولي! وعند ذلك جاءتني فكرة مفاجئة: علينا ألا نقيم ذلك اللقاء في صالات إيليفين، بل في بيت جديّ، البيت الذي خرّبه أبي. سوف نصلحه! أثارتني هذه الفكرة.

علينا أن ننظف كل سنتيمتر، في كل غرفة؛ وعلينا أن نتخلص من كل شيء أتلفه، وأن نستصلح كل ما بقي ونستخدمه؛ علينا أن نستصلح البيت كله ثم ندعو الجميع إليه. صحيح أن أبي خرّب كل شيء، لكننا نستطيع إصلاح ذلك. نحن شخصان محترمان. قد يقول إنغفه إن هذا مستحيل، ولا معنى له، لكني أستطيع الإصرار. إنني أملك الحق نفسه الذي يملكه إنغفه في تقرير كيف يجب أن تكون جنازة أبينا. إن هذا ممكن بكل تأكيد. ليس علينا إلّا أن ننظف، ننظف، ننظف، وننظف.

لم أجد أشخاصاً منتظرين في الصيدلية. وبعد إظهار بطاقة هويتي مضى الموظف الذي يرتدي ثوباً أبيض فبحث بين الرفوف وأحضر أقراص الدواء ثم طبع لصاقة وثبّتها على العلبة، ثم وضعها في كيس صغير وطلب مني التوجه إلى صندوق المحاسبة في الناحية الأخرى لأدفع ثمنها.

أعطاني هذا المكان إحساساً غامضاً بالطيبة... لعل السبب الوحيد لهذا الإحساس هو تلك البرودة اللطيفة على جلدي. جعلني هذا الإحساس أتوقف لحظة على الدرجات في الخارج.

سماء رمادية، رمادية؛ ومدينة رمادية، رمادية.

سيارات لامعة. ونوافذ متألقة. وأسلاك تمتد من عمود إلى عمود... أعمدة المصابيح في الشارع.

لا، لا شيء هنا!

بدأت أمشي بطيئاً في اتجاه كشك الصحف.

كان أبي يتحدث عن الانتحار في مرات كثيرة، لكن ذلك كان حديثاً في العموميات، دائماً، كأنه موضوع للكلام... لا أكثر. كان يرى أن إحصائيات حالات الانتحار كاذبة، ويقول إن الكثير من حوادث تدهور السيارات، بل ربما كلها تقريباً، التي يكون فيها شخص واحد فقط، ليست إلّا حالات انتحار مقنّعة. لقد ذكر هذا الأمر أكثر من مرة. وقال إن من الشائع أن يقود الناس سياراتهم في اتجاه منحدر في الجبل أو باتجاه شاحنة على الجهة الأخرى من الطريق لكي يتجنبوا خزي الانتحار الصريح. لقد انتقل في تلك الفترة مع أوني إلى سورلاند بعد أن عاشا تلك الفترة كلها في النرويج. كانا لا يزالان معاً. كان جلد أبي أسود اللون تقريباً لكثرة ما امتص من أشعة الشمس. وكان بديناً كأنه برميل. يذهب ويستلقي على المقعد الطويل في الحديقة خلف البيت ويشرب، ويجلس في الشرفة أمام البيت ويشرب. ثم يأتي المساء فيكون ثملاً فاقداً اتزانه... هكذا كان الأمر... كان يقف في المطبخ في بنطلونه القصير فقط ويقلي شرائح اللحم. كان ذلك كل ما يأكله، من غير بطاطس، ومن غير خضار. شرائح لحم مُسودّة فحسب. في واحدة من تلك الأمسيات، قال أبي إن جينس بجورنيبوي، وهو كاتب من كريستيانساند شنق نفسه من قدميه. هكذا انتحر ذلك الرجل مقلوباً رأساً على عقب معلقاً من عوارض السقف. لم تفاجئه استحالة ذلك الحدث (فكيف تمكن من فعل ذلك وهو وحده في بيته في فييرلاند؟)، ولم تفاجئني. قال أبي إن الطريقة الأكثر حصافة هي أن يذهب المرء إلى فندق ويبعث برسالة إلى مستشفى يخبرهم فيها أين يمكن أن يعثروا عليه ثم يتناول مشروباً كحولياً قوياً ويأخذ بعض الأقراص ويستلقي في السرير وينام. لا أستطيع تصديق أنني لم أفهم من هذا الكلام شيئاً غير أنه مجرد حديث. هكذا رحت أفكر الآن وأنا أقترب من كشك الصحف خلف موقف الباص. لكن، هكذا كان الأمر. لقد طبع أبي صورته في نفسي بقوة جعلتني لا أرى شيئاً غيرها حتى عندما صار شخصاً شديد الاختلاف عن الشخص الذي كانه عندما طبعها، سواء من

حيث الشكل أو الشخصية، إلى حد زال معه كل شبه بين الاثنين... ظل أبي دائماً الشخص نفسه الذي تعلَّقت به منذ البداية.

ارتقيت الدرجات الخشبية وفتحت باب كشك الصحف. كان خالياً إلّا من البائع. أخذت صحيفة من واجهة عرض الصحف، وفتحت باب البراد فأخذت علبة كولا. وضعتهما معاً على طاولة البيع. قال البائع وهو يرفع الصحيفة والعلبة إلى قارئ الباركود: «صحيفة داغبلادت وكولا. أهنالك شيء آخر؟».

لم ينظر في عيني عندما كلمني. لا بد أنه رآني أبكي عندما دخلت.

قلت له: «لا شيء آخر. هذا كل شيء». أخرجت ورقة نقدية مجعدة من جيبي ونظرت إليها. خمسون كروناً. مسَّدتها قبل أن أقدمها إليه.

قلت له: «شكراً». كان شعر ذراعيه أشقر كثيفاً، وكان يرتدي قميصاً رياضياً ماركة أديداس، وبنطلوناً للجري أزرق اللون، قد يكون ماركة أديداس أيضاً. لم يبدُ لي شخصاً يعمل في هذا الكشك، بل شخص يحل محل صديقه بضع دقائق. أخذت الأشياء واستدرت لأخرج عندما دخل المكان صبيان في العاشرة حاملين نقودهما في كفّيْهما. كانت دراجتيهما ملقاتين كيفما اتفق عند الدرجات في الخارج. وكان صف من السيارات يسير في الشارع الآن، في الاتجاهين. عليَّ أن أتصل بأمي هذا المساء. عليَّ أن أتصل بتونجه أيضاً. سرت على الرصيف، ثم اجتزت الشارع عند معبر المشاة الضيق وتابعت نزولاً في شارع حتى صرت في كوهولمسفين. بالطبع، يجب أن نقيم ذلك اللقاء هناك. بعد... ستة أيام. يجب أن يكون كل شيء جاهزاً بحلول ذلك الوقت. وبحلول ذلك الوقت، يجب أن نكون قد نشرنا إعلاناً في الصحيفة، وخططنا للجنازة، وأبلغنا المدعوّين، وأعدنا البيت إلى وضعه الطبيعي، وأصلحنا الحديقة بعض الشيء، ورتبنا ما يتعلق بتقديم الطعام للمدعوين. إذا صرنا نستيقظ باكراً ونعمل حتى ساعة متأخرة من غير أن ننشغل بشيء آخر، فإن ذلك كله سيكون ممكن التحقيق. المسألة فقط هي جعل إنغفه موافقاً على ذلك، وغونار أيضاً، بالطبع. قد لا يحق له التدخل كثيراً في ما يتعلق بالجنازة، لكن له رأياً في ما يتعلق بالبيت. لكن... إلى الجحيم، يجب أن يكون كل شيء على أحسن ما يرام. سوف يفهم غونار الأسباب.

عندما دخلت المطبخ، وجدت إنغفه ينظف الموقد. وكانت جدتي جالسة على الكرسي. كان على الأرض تحت ذلك الكرسي رذاذ من شيء ما... لعله بول.

قلت: «ها هي الكولا. سوف أضعها على الطاولة».

قال: «جيد».

قالت جدتي وهي تنظر إلى الكيس الورقي الذي أتيت به من الصيدلية: «ماذا لديك في ذلك الكيس؟».

قلت: «إنه من أجلك. والد زوجتي طبيب. وقد شرحت له ما حدث هنا فوصف لك دواء مهِّدئاً. أظن أنها ليست فكرة سيئة لأنك مررت بلحظات صعبة».

أخرجت علبة الكرتون المربعة من الكيس، ثم فتحتها وأخرجت العلبة البلاستيكية منها.

قالت جدتي: «ماذا كُتب عليها؟».

قلت: «قرص واحد في الصباح، وواحد في الليل. ألا تأخذين قرصاً الآن».

قالت جدتي: «نعم، سآخذه إن كان الطبيب يقول هذا». أعطيتها العلبة ففتحتْها وأخرجت منها قرصاً.

نظرت إلى الطاولة ثم قلت: «سوف آتيك ببعض الماء».

قالت: «لا حاجة إلى الماء». ثم وضعت القرص على لسانها وحملت فنجان القهوة البارد إلى فمها ثم ردت رأسها إلى الخلف وابتلعت.

وضعت الصحيفة على الطاولة والتفتّ إلى إنغفه الذي عاد إلى تنظيف الموقد.

قالت جدتي: «أمر طيب أنكما هنا، يا أولاد. لكن، ألا تستريح قليلاً يا إنغفه؟ ليس عليك أن تقتل نفسك بالعمل!»

قال إنغفه: «هذه ليست فكرة سيئة». خلع القفازين وعلقهما على مقبض الفرن، ثم مسح أصابعه بقميصه عدة مرات وجلس.

قلت: «لا أدري إن كان عليَّ أن أبدأ تنظيف الحمام في الأسفل».

قال إنغفه: «لعل من الأفضل أن يكون عملنا الآن في الطابق نفسه. ثم إننا، بهذه الطريقة، نستطيع أن نتحدث قليلاً خلال العمل». استنتجت أنه لا يريد أن يكون وحيداً مع جدتنا. فهززت رأسي.

قلت: «سوف أنظف غرفة المعيشة إذن».

قالت جدتي: «كم أنتما مجدّان في العمل! تعرفان أن هذا ليس ضرورياً!».

لماذا تقول هذا؟ ألا تخجلها حالة البيت وحقيقة أنها لم تستطع المحافظة على النظام فيه؟ أو لعلها تقول هذا لأنها لا تريد أن نتركها وحيدة!

قلت لها: «لا ضرر في شيء من التنظيف».

قالت: «لا... أظنه ليس ضاراً». ثم التفتت إلى إنغفه: «هل تكلمتما مع مكتب الدفن؟».

سرَت قشعريرة في ظهري.

هل كانت صافية الذهن هكذا طيلة الوقت؟

هز إنغفه رأسه: «لقد عرجّنا عليه هذا الصباح. إننا نهتم بكل شيء».

قالت: «هذا جيد»، ثم جلست ساكنة تماماً وغرقت في نفسها لحظة.

لكنها تابعت بعد ذلك: «لم أعرف إن كان ميتاً أم لا عندما رأيته. كنت ذاهبة إلى الفراش. تمنيت له ليلة طيبة فلم يجبني. كان جالساً في الكرسي هناك مثلما يجلس دائماً. لكنه كان ميتاً. كان وجهه أبيض اللون».

نظرت إلى إنغفه فالتقت عيوننا.

قال: «هل كنت ذاهبة إلى الفراش؟».

قالت: «نعم. كنا نتابع التلفزيون طيلة المساء. لكنه لم يتحرك عندما نهضت ونزلت إلى الطابق السفلي.

سألها إنغفه: «هل كان الظلام مخيماً في الخارج؟ هل تذكرين شيئاً عن هذا؟».

قالت: «نعم، أظن هذا».

انقبضت معدتي.

قال إنغفه: «لكن، عندما اتصلت مع غونار، كان ذلك في الصباح، أليس كذلك؟ هل تستطيعين أن تتذكري هذا؟».

قالت: «لعل ذلك كان في الصباح. الآن، وأنت تقول هذا... نعم، كان الوقت صباحاً. صعدت فوجدته على الكرسي، هناك...» نهضَت وخرجت من المطبخ. لحقنا بها. توقفت في وسط غرفة المعيشة وأشارت إلى الكرسي الذي أمام التلفزيون.

قالت: «كان يجلس هنا. لقد مات هنا». غطت وجهها بيديها لحظة، ثم عادت إلى المطبخ بخطوات سريعة.

لا شيء يستطيع تفسير هذا. إنه أمر يستحيل التعامل معه. يمكنني أن أملأ الدلو ماء وأن أبدأ التنظيف؛ ويمكنني أن أنظف هذا البيت اللعين كله، لكن هذا لن يفيد قيد أنملة، بالطبع لن يفيد... ولن تفيد أيضاً فكرة أن علينا إعادة البيت إلى حالته الطبيعية وأن نقيم اللقاء هنا. لا أستطيع أن أفعل شيئاً يساعدني في هذا الأمر، لا مكان أهرب إليه، لا شيء يستطيع حمايتي من هذا.

قال لي إنغفه: «علينا أن نتكلم قليلاً. هل نخرج إلى الشرفة؟».

هززت رأسي وسرت خلفه إلى غرفة المعيشة الثانية، ثم إلى الشرفة. كان الهواء ساكناً تماماً. ظلت السماء رمادية مثلما كانت، لكنها لم تعد قاتمة تماماً فوق المدينة. أتى صوت سيارة تسير بطيئاً في الزقاق الضيق تحت البيت. وقف إنغفه قابضاً بيديه على الدرابزين محدقاً في اتجاه الفيورد. أما أنا فجلست على مقعد التشمس ذي اللون الحائل. لكني نهضت في اللحظة التالية، وجمعت بعض الزجاجات فوضعتها عند الجدار ونظرت من حولي بحثاً عن كيس أضعها فيه، لكني لم أجد كيساً.

نصب إنغفه قامته بعد برهة طويلة وسألني: «هل تفكر في ما أفكر فيه؟».

قلت: «أظن هذا».

قال: «جدتنا هي الشخص الوحيد الذي رآه. إنها الشاهد الوحيد. لم يره غونار. لقد اتصلت به في الصباح فاستدعى الإسعاف، لكنه لم يره بنفسه».

قلت: «هذا صحيح».

«يمكن الاستنتاج من هذه الأشياء الذي نعرفها أنه قد يكون حياً. كيف يمكن لجدتنا أن تكون واثقة من أنه مات؟ لقد وجدته على الكرسي. وهو لم يجبها بشيء عندما كلمته. اتصلت بغونار. جاءت سيارة الإسعاف. ملأ الأطباء ومن معهم هذا البيت. حملوه على نقالة وذهبوا به. هذا كل شيء. لكن، لنفترض أنه لم يكن ميتاً! لنفترض أنه كان فاقد الوعي من السكر فحسب! أو لعله كان في حالة غيبوبة!».

قلت: «نعم. عندما وصلنا قالت إنها وجدته في الصباح. وتقول الآن إنها وجدته في المساء. لكنها لا تعرف شيئاً آخر».

«ثم إنها بدأت تصاب بالخرف. إنها تكرر طرح الأسئلة نفسها. أليس كذلك؟ فما مقدار ما فهمَتْه مما يُجري عندما امتلأ المكان بأفراد طاقم الإسعاف؟»

«وهنالك أيضاً تلك الأدوية الملعونة التي تتناولها».

«صحيح».

«علينا أن نعرف، أقصد أن علينا أن نتأكد».

قال إنغفه: «أوه، اللعنة على هذا! ماذا لو أنه لا يزال حياً؟».

ملأني خوف لم أعرفه منذ كنت صغيراً. رحت أسير على امتداد الشرفة، جيئة وذهاباً، ثم توقفت ونظرت عبر النافذة لأرى إن كانت جدتي هناك. ثم استدرت صوب إنغفه الذي عاد يحدِّق في الأفق البعيد. كان يشد على حافة الدرابزين بكفَّيْه. أوه، اللعنة على هذا! المنطق واضح كالبلور. جدتي هي الشخص الوحيد الذي رأى أبي. وشهادتها هي الشهادة الوحيدة لدينا. وبما أنها في هذه الحالة من التشوش والضياع، فما من سبب يدعونا إلى تصديق أن ما تقوله دقيق. لكن كل شيء كان قد انتهى عندما وصل غونار. كانت سيارة الإسعاف قد أخذته. وبعد ذلك لم يتكلم أحد مع المستشفى أو مع العاملين الذين كانوا هنا. كما أن مكتب دفن الموتى ليس لديه علم بشيء. لم يمض إلّا أربعة وعشرون ساعة منذ أن عثرت عليه. قد يكون في أحد المستشفيات خلال هذا الوقت.

قلت: «هل نتصل بغونار؟».

استدار إنغفه نحوي: «لا يعرف غونار شيئاً أكثر مما نعرف نحن».

قلت: «علينا أن نتحدث مع جدتي ثانية. وبعد ذلك، ربما يكون علينا أن نتصل مع مكتب دفن الموتى. أظن أنهم قادرون على معرفة الأمر».

«كنت أفكر في الشيء نفسه».

«هل ستتصل بهم؟».

«نعم، سأفعل ذلك».

دخلنا معاً فدفعت هبة ريح مفاجئة الستائر المعلقة أمام الباب في غرفة المعيشة. أغلقت الباب ولحقت بإنغفه إلى غرفة الطعام ثم إلى المطبخ. سمعنا صوْت صفْق باب البيت في الأسفل. التقت عينانا. ماذا يجري؟

سألت جدتنا: «من عساه يكون هناك؟».

هل هو أبي؟

هل هو عائد؟

انتابني خوف لم أعرف مثله في حياتي كلها.

سمعنا صوت خطوات على السلم.

إنه أبي. إنني أعرف هذا!

أوه، اللعنة، اللعنة، اللعنة. ها هو قادم.

استدرت ومضيت إلى غرفة المعيشة ثم إلى باب الشرفة. كنت متأهباً للخروج والجري عبر المرج والفرار إلى المدينة، إلى حيث لا أعود أبداً.

أرغمت نفسي على البقاء ساكناً في مكاني. سمعت صوت الخطوات الصاعدة، سمعتها تلتفّ عندما بلغت منعطف السلم. سمعتها تجتاز الدرجات الأخيرة وتدخل غرفة المعيشة.

سيكون في غاية الغضب... ما الذي نفعله بحق الجحيم؟ نعبث بأشيائه على هذا النحو... نأتي فجأة ونقتحم حياته!

تراجعت قليلاً فرأيت غونار يمر أمام باب الغرفة ثم يدخل المطبخ.

غونار... بالطبع!

سمعت صوته في المطبخ: «أرى أنكما أنجزتما عملاً كثيراً!»

ذهبت إليهم. لا أشعر الآن بأنني غبي، بل مرتاح... إذا كان غونار هنا عندما يأتي أبي فسيكون الأمر أكثر سهولة بالنسبة إلينا. كانوا جالسين حول طاولة المطبخ.

قال غونار: «قلت في نفسي إنني أستطيع أن أنقل حملاً لأرميه في مقلب النفايات عصر اليوم. إنه في طريقي إلى الشاليه الجبلي. وسأعود بالمقطورة صباح الغد فأساعدكم قليلاً. أظن أن القمامة الموجودة أمام باب المرآب يمكن أن تملأ المقطورة تماماً.

قال إنغفه: «أظن هذا».

قال غونار: «يمكننا أن نملأ كيسين إضافيين بملابس من غرفته وأشياء من هذا القبيل».

نهض واقفاً: «لنبدأ إذن، لن يستغرق الأمر طويلاً».

توقف في غرفة المعيشة ونظر من حوله: «نستطيع أن نأخذ هذه الثياب بما أننا هنا. سيوفر ذلك عليكما قرف النظر إليها عندما تعملان في هذه الغرفة... شيء مقزز...»

قلت: «سأضعها في الأكياس. من الأفضل أن أضع القفازين على ما أظن».

وضعت القفازين الأصفرَيْن ودخلت، ثم بدأت ألقي كل ما على الأريكة في كيس كبير أسود. أغمضت عيني عندما حملت كفاي الغائط الجاف.

قال غونار: «خذ الوسائد الصغيرة أيضاً، والبساط. لا يبدو لي صالحاً».

فعلت مثلما قال، ثم حملت الأكياس إلى الأسفل فوضعتها أمام البيت. وبعد ذلك، أدار إنغفه المقطورة حتى صارت مؤخرتها في اتجاه الأكياس، وبدأنا نرميها فيها حتى امتلأت. كانت سيارة غونار واقفة على الجانب الآخر، ولهذا لم نسمع صوت محركها عندما وصل. بعد امتلاء المقطورة، كرر إنغفه وغونار مناورة التقدم والتراجع بالسيارتين إلى أن صارت سيارة غونار قادرة على الرجوع خلفاً حتى المقطورة، بحيث لم يبق إلّا تثبيت قضيب القطر. وبعد ذهابه، أوقف إنغفه سيارته أمام المرآب من جديد، أما أنا فجلست عند درجات المدخل. وقف إنغفه مستنداً إلى طوار الباب. كانت حبات العرق تلمع في حاجبيه.

قال لي بعد هنيهة: «كنت واثقاً من أن أبي هو الذي يصعد السلم».

قلت: «وأنا أيضاً».

طار عقعق منحدراً من السطح عند الجهة الأخرى للحديقة وانزلق في الهواء قادماً في اتجاهنا. خفق بجناحيه مرتين بصوت يشبه اصطفاق الجلد على نحو ما، بصوت غير حقيقي.

قال إنغفه: «إنه ميت على الأرجح. إنه ميت. لكن علينا أن نتأكد. سوف نتصل».

قلت: «اللعنة عليَّ إن كنت أعرف كيف يجب أن أفكر. ليس لدينا إلّا رواية جدتي. وفي وجود هذه الفوضى كلها وهذا الشراب كله في البيت فمن الممكن تماماً ألا يكون ما أصابه شيئاً يتجاوز حالة من السكر الشديد. من الممكن تماماً أن يكون الأمر هكذا. وسيكون هذا شيئاً مألوفاً. أليس كذلك؟ يعود فيجدنا ندس أنفينا في شؤونه. وهنالك أيضاً ما قالته عن... كيف حدث أنها لم تكتشفه حتى الصباح؟ ماذا حدث في المساء؟ كيف يمكن أن تختلط الأمور عليها إلى هذه الدرجة؟».

نظر إنغفه إلي: «لعله مات في المساء. لكنها ظنته نائماً فحسب. ثم وجدته ميتاً في الصباح. هذا احتمال. وربما يعذبها ذلك كثيراً إلى درجة تجعلها غير قادرة على الإقرار به. ربما جعلها هذا تخترع قصة موته في الصباح».

قلت: «صحيح. هذا ممكن».

قال إنغفه: «لكن هذا لا يغير النقطة الرئيسية. سوف أصعد وأتصل».

قلت له: «إنني آت معك». ثم لحقت به إلى الطابق الأول. وبينما كان يبحث في محفظته عن بطاقة مكتب الدفن، أغلقت باب المطبخ حيث كانت جدتي جالسة بهدوء تام وعدت إلى غرفة المعيشة الثانية. اتصل إنغفه. كنت غير قادر تقريباً على الإصغاء إلى الكلام، لكنني لم أستطع مقاومة ذلك أيضاً.

«مرحباً، أنا إنغفه كناوسغارد. جئنا لرؤيتك صباح هذا اليوم إن كنت تذكر ذلك... نعم، تماماً. امممم، كنا نتساءل، نعم، نتساءل إن كنت تعرف مكان وجوده الآن. لقد كانت الملابسات غامضة بعض الشيء، أنت تعرف... جدتنا هي الشخص الوحيد الذي كان موجوداً عند أخذه من البيت، وهي كبيرة في السن أيضاً... عقلها ليس صاحياً على الدوام. وهكذا صرنا غير متأكدين مما حدث فعلاً. هل يمكنك أن تتحرى الأمر من أجلنا؟ نعم... نعم... نعم. جيد جداً. أشكرك. أشكرك كثيراً... نعم. إلى اللقاء». نظر إنغفه إليَّ عندما وضع السماعة.

«إن الرجل في الشاليه الجبلي الآن. لكنه سوف يجري بضعة اتصالات، وسيعرف كل شيء. سيتصل بنا في وقت لاحق».

قلت: «هذا جيد».

ذهبت إلى المطبخ وملأت الدلو ماء حاراً ثم سكبت فيه بعض الصابون الأخضر وعثرت على خرقة، ثم أخذت ذلك كله إلى غرفة المعيشة ووقفت لحظة غير قادر على تحديد نقطة البدء. لا معنى للبدء بتنظيف الأرض إلى أن نتخلص من الأثاث الذي يجب رميه. وبعد ذلك، سيكون هنالك بعض التغييرات خلال الأيام القادمة. كما أن تنظيف إطارات النوافذ والباب، وتنظيف الأبواب نفسها ورفوف الكتب، والأفاريز، والطاولات... أمر صغير، وهو عمل كثير التفاصيل أيضاً. كنت راغباً في فعل شيء يظهر أثره سريعاً. الحمام والمرحاض في الأسفل هما الخيار الأفضل؛ هناك حيث يجب فرك كل سنتيمتر. ثم إن العمل هناك هو الخطوة المنطقية الآن لأنني أنهيت تنظيف غرفة الغسيل في الأسفل، وهي قبالة ذلك الحمام. يمكنني هناك أن أكون وحدي أيضاً.

جعلتني حركة إلى يساري أدير رأسي. رأيت نورساً ضخماً واقفاً خارج النافذة ينظر داخل الغرفة. دق الزجاج بمنقاره مرتين، ثم انتظر.

ناديت إنغفه الذي كان في المطبخ: «هل رأيت هذا؟ هنالك نورس ضخم يدق النافذة بمنقاره».

سمعت صوت جدتي تنهض.

قالت: «علينا أن نجد بعض الطعام من أجله».

ذهبت إلى باب المطبخ. كان إنغفه يفرغ محتويات الخزانة الجدارية. رأيت أنه قد كوّم الكؤوس والأطباق على الطاولة في الأسفل. كانت جدتنا واقفة إلى جواره.

قلت: «هل رأيتما النورس؟».

قال إنغفه: «أهو فيلم أم مسرحية؟» ... ثم ابتسم.

قالت جدتي: «إنه يأتي عادة. يريد بعض الطعام. ها هو. سوف أعطيه هذا». وضعت قطعة لحم في طبق صغير، ثم انحنت فوق الطبق فتهدلت خصلة من شعر أسود فوق عينيها. وسريعاً، قطّعتْ اللحم الذي غطته طبقة من الصلصة الجافة. لحقتُ بها إلى غرفة المعيشة.

سألتها: «هل يأتي إلى هنا عادة؟».

قالت: «نعم. يأتي كل يوم تقريباً. وهو يأتي منذ أكثر من سنة. وأنا أعطيه شيئاً ما، دائماً. لقد فهم ذلك. وهذا ما يجعله يأتي باستمرار».

«هل أنت واثقة من أنه النورس نفسه؟».

«بالطبع واثقة. إنني أعرفه. وهو يعرفني أيضاً».

عندما فتحت باب الشرفة، قفز النورس إلى أرض الغرفة ومضى إلى الطبق الذي وضعته. كان يتحرك من غير خوف على الإطلاق. بقيت واقفاً عند الباب ونظرت إليه يلتقط قطع اللحم بمنقاره ثم يميل برأسه إلى الخلف فيبتلعها. كانت جدتي واقفة بالقرب منه تنظر إلى المدينة عبر النافذة.

قالت لي: «ألم أقل لك؟».

رنّ الهاتف. سرت خطوتين حتى أرى من يجيب على الاتصال وأتأكد من أنه إنغفه. كان الكلام قصيراً مختصراً. وعندما وضع إنغفه السماعة، تحركت جدتي فقفز النورس ووقف على حافة الدرابزين حيث انتظر عدة ثوانٍ قبل أن يفرد جناحيه الكبيرين ويقفز في الهواء. خفق بهما مرتين فقط فارتفع عالياً فوق الحديقة. راقبته ينزلق نازلاً صوب الميناء. كان إنغفه واقفاً خلفي. أغلقت الباب واستدرت إليه.

قال: «إنه ميت! لا شك في هذا. وهو في قبو المستشفى. نستطيع رؤيته بعد ظهر يوم الاثنين إن أردنا ذلك. كما أنني حصلت على رقم هاتف الطبيب الذي أتى إلى البيت».

قلت: «سأصدق عندما أرى».

قال: «لا بأس. الآن صرنا نستطيع رؤيته».

بعد عشر دقائق، وضعت دلواً من الماء شديد الحرارة، وزجاجة من الكلورين، وعبوة جيف، على أرض الممر أمام الحمام. نفضت كيس القمامة الذي أحمله حتى ينفتح، ثم بدأت أضع فيه كل ما كان في الحمام. وضعت قبل كل شيء ما وجدته على الأرض. قطع جافة من صابون قديم، وعبوات شامبو دبقة، ولفافات ورق المرحاض المستعملة، وفرشاة عتيقة عليه بقع بنية، وعبوات مواد طبية من الورق الفضي والبلاستيك، وبضعة أقراص دواء متناثرة، وجورب أو اثنان، وأداة غريبة لتمويج الشعر. وبعد الانتهاء من هذا، أفرغت في الكيس كل ما كان في الخزانة الجدارية الصغيرة باستثناء زجاجتي عطر بدا لي أنهما ثمينتان. شفرات حلاقة، وأمواس، ودبابيس شعر، وعدة قطع من الصابون، وأنابيب من الكريمات والمراهم، وشبكة للشعر، وعطر الحلاقة، ومزيل الرائحة، والكحل، وأحمر الشفاه، وبعض علب البودرة (لست أعرف شيئاً عن استعمالها، لكن لا بد أن لها علاقة بالتجميل)، وبعض الشعر الطويل والقصير، ومقص الأظافر، ولفافة من لاصق الجروح، وخيوط تنظيف الأسنان، وأمشاط. عندما صارت الخزانة خالية، ظهرت على رفوفها بقع بقايا بنية صفراء متجمِّدة قررت تأجيل إزالتها حتى أنتهي من الحمام. كانت بلاطات الجدار عند مقعد المرحاض، البلاطات التي كان حامل ورق المرحاض مثبتاً إليها، مغطاة ببقع بنية فاتحة اللون. وكانت الأرض من تحتها دبقة. بدا لي أن هذه المنطقة أشد حاجة إلى الاهتمام. وهكذا، عصرت على تلك البلاطات خطاً من المادة المنظفة وبدأت أفركها... أفركها بطريقة منهجية، من السقف حتى الأرض. نظفت الجدار الأيمن في البداية، ثم جدار المرآة، ثم جدار المغسلة، وأخيراً المنطقة المحيطة بالباب. فركت كل بلاطة بمفردها حتى صارت نظيفة. لا بد أن هذا استغرق ساعة ونصف الساعة. كنت أفكر خلال عملي في أن هذا هو المكان الذي سقط فيه جدي منهاراً في مساء خريفي قبل ست سنوات. لقد نادى جدتي التي اتصلت بالإسعاف ثم جلست هنا ممسكة

يده إلى أن أتوا. لم يخطر في ذهني قبل الآن أن كل شيء هنا ظل مثلما كان في تلك اللحظة. أصيب جدي بنزيف داخلي شديد استمر فترة طويلة، ثم ازداد عندما أخذوه إلى المستشفى. ما كان ليعيش إلّا أياماً قليلة بعد ذلك... ما عاد في جسمه دم تقريباً. لا بد أنه أدرك أن هنالك شيئاً غير طبيعي، لكنه كان متردداً في الذهاب إلى الطبيب من أجل ذلك الشيء. وبعد ذلك انهار فسقط على أرض الحمام، شبه ميت. صحيح أنهم أخذوه سريعاً إلى المستشفى وأنقذوا حياته في تلك اللحظة، من حيث المبدأ، لكنه كان ضعيفاً إلى درجة جعلته يذبل ويتلاشى سريعاً. وفي النهاية مات.

كان هذا الحمام في الأسفل يخيفني عندما كنت صبياً. حوض الماء الذي لا بد أنه موجود هنا منذ الخمسينيات، ذلك النوع الذي له رافعة معدنية وكرة سوداء صغيرة إلى جانبه. كان يعلَق دائماً فيفيض كلما استخدمه أحد. وذلك الصوت الذي كان يصدر من الظلمة على تلك الأرضية التي لا يستخدمها أحد، أرضية الغرفة الفارغة بسجادتها النظيفة الزرقاء الممتدة من الجدار إلى الجدار التي فيها معاطف وسترات معلقة بأناقة، ورفها الذي يحمل قبعات جدي، ورف آخر للأحذية التي كانت مخيلتي تراها كائنات حية... كان كل شيء يبدو لي حياً في ذلك الوقت، وكذلك كان يبدو فراغ السلم الذي ينفتح على الطابق العلوي... كان يخيفني دائماً إلى درجة تجعلني أستخدم كل ما لدي من قدرة على الإقناع حتى أزيح مخاوفي وأدخل ذلك الحمام. كنت أعرف أن ما من أحد هناك، وأن صوت الماء المتدفق ليس إلّا صوت ماء متدفق، والمعاطف ليست إلّا معاطف، والأحذية ليست إلّا أحذية، والسلّم ليس إلّا سلّماً. لكنني أظن أن معرفتي ذلك كله كانت تزيد رعبي لأنني ما كنت أريد البقاء وحيداً مع هذه الأشياء كلها... هذا ما كان يخيفني... إنه الخوف الذي تضخمه الأشياء الميتة. لا أزال أعرف تلك الطريقة في إدراك العالم. كان مقعد المرحاض يبدو كأنه كائن حي، وكذلك المغسلة، وحوض الاستحمام، وسلة المهملات الكبيرة... تلك المعِدة الشرهة الضخمة السوداء الموضوعة على الأرض.

في هذا المساء تحديداً، كان عدم ارتياحي تجاه هذا كله حاضراً أيضاً، لأن جدي سقط هنا، ولأن أبي مات في الأعلى، في غرفة المعيشة، بالأمس فقط. وهكذا امتزج موت هذه الأشياء بموتهما، بموت أبي وبموت أبيه.

فكيف أبقي هذا الشعور بعيداً عني؟

أوه، التنظيف هو كل ما عليَّ فعله. يجب أن أفرك وأدلك وأمسح. أن أرى كيف تصير كل بلاطة نظيفة لامعة. لا بد لي من تخيل أن كل ما أتلف هنا قابل للاستعادة والإصلاح. كل شيء. كل شيء. يجب أن أقنع نفسي بأنني لن أنتهيَ أبداً، أبداً أبداً أبداً، إلى حيث انتهى أبي.

بعد فراغي من تنظيف الأرض والجدران، صببت الماء في المرحاض وخلعت القفازين الأصفرين فقلبتهما وعلقتهما على حافة الدلو الأحمر الفارغ بينما كنت أسجل في عقلي أن عليَّ أن أشتري فرشاة لتنظيف المرحاض في أقرب وقت ممكن، إلّا إذا كانت هنالك فرشاة في المرحاض الثاني، فتحت الباب؛ نعم، هنالك فرشاة. فلأستخدمها الآن، مهما تكن حالتها، ثم أشتري غيرها يوم الإثنين. توقفت في منتصف طريقي إلى السلم، كان باب غرفة نوم جدتي مفتوحاً قليلاً، ولسبب ما ذهبت وفتحته، ثم ألقيت نظرة داخل الغرفة. أوه، لا! كان السرير من غير ملاءات. إنها تنام مباشرة على الفراش الخشن الذي بَقّعه البول. إلى جانب سريرها طاولة صغيرة تحتها دلو. رأيت الملابس مرمية في كل مكان. صف من النباتات الذابلة في النافذة. كانت رائحة البول واخزة في منخري.

ما هذه القذارة كلها؟ اللعنة، اللعنة.

تركت الباب مثلما وجدته وصعدت درجات السلم ببطء حتى الطابق الأول. كان درابزين السلم شبه أسود في بعض الأماكن لكثرة ما تراكم عليه من أوساخ. وضعت يدي عليه فأحسست بلزوجة دبقة. وفي آخر السلم، سمعت صوت التلفزيون. دخلت غرفة المعيشة فوجدت جدتي تشاهد التلفزيون جالسة في كرسي وسط الغرفة. إنها أخبار في القناة الثانية، هذا يعني أن الساعة قد بلغت السادسة والنصف أو السابعة. كيف تستطيع الجلوس هنا إلى جانب الكرسي التي مات عليها؟ تقلصت معدتي، وانهمرت الدموع منفجرة من عيني. تقلص وجهي، ما كنت قادراً على ضبطه، كانت تقلصات فظيعة تبعُد سنوات ضوئية عن التقلصات التي تحدث عند التقيؤ. طغى عليّ هذا الإحساس بفقدان التوازن وخلق في داخلي رعباً. أحسست بأنني أتمزق نتفاً. لو كنت قادراً على ذلك، لسقطت جاثياً على ركبتيَّ وضممت كفيَّ وصليت للرب، وصرخت، لكنني لم أستطع... لا رحمة في هذا... لقد حدث أسوأ شيء وانتهى الأمر.

عندما دخلت المطبخ، وجدته فارغاً. كانت الخزانات مغسولة كلها. ورغم أنه لا يزال الكثير مما يجب فعله: الجدران، والأرضية، والدروج، والطاولة، والكراسي...

فقد بدا المطبخ أحسن حالاً بكثير. وعلى الطاولة إلى جوار المغسلة، كانت هنالك عبوة بيرة بلاستيكية من سعة لتر ونصف الليتر. غطت لصاقتها قطيرات من الماء المتكثِّف. وإلى جانبها رأيت جبناً بنياً مع أداة التقطيع موضوعة فوقه، وجبناً أصفر، وعبوة من زبدة المارغرين مع سكين زبدة مغروس فيها. كان مقبض السكين مسنوداً إلى الحافة. رأيت لوح التقطيع موضوعاً هناك أيضاً، وعليه رغيف كبير من خبز القمح الكامل وقد خرج نصفه من الكيس الورقي الملون بالأبيض والأحمر. وأمام ذلك الرغيف، رأيت سكين الخبز وقطعة من الخبز وبعض الفتات.

أخذت كيساً بلاستيكياً من الدرج الأسفل وأفرغت فيه محتويات طبقي السجائر اللذين كانا على الطاولة، ثم ربطته وألقيته في كيس القمامة الكبير الممتلئ إلى منتصفه. بحث عن خرقة فأزلت بقايا التبغ وفتات الخبز عن الطاولة، ووضعت أكياس التبغ مع آلة لف السجائر فوق علبة أنابيب السجائر الورقية عند نهاية الطاولة تحت إطار النافذة. ثم فتحت النافذة وتركتها في وضع مائل. وبعد ذلك، ذهبت أبحث عن إنغفه. كان جالساً في الشرفة، مثلما توقعت. رأيت في يده كأساً من البيرة وسيجارة في يده الأخرى.

قال لي عندما خرجت إلى الشرفة: «أتريد بعض البيرة؟ هنالك زجاجة في المطبخ؟»

قلت: «لا، شكراً. ليس بعد ما حدث هنا. لن أشرب بعد اليوم بيرة من زجاجات بلاستيكية».

نظر إليَّ وابتسم. قال: «أنت شديد الحساسية. كانت الزجاجة غير مفتوحة. كانت في البراد. لم يشرب منها شيئاً».

أشعلت سيجارة ووقفت مستنداً إلى الدرابزين.

سألته: «ماذا نفعل بخصوص الحديقة؟».

رفع إنغفه كتفيه وقال: «لا نستطيع ترتيب كل شيء هنا».

قلت: «لكنني أريد هذا».

«حقاً؟».

«نعم».

إنها اللحظة المناسبة لكي أخبره بفكرتي. لكني لم أستطع جعل نفسي أفعل ذلك. كنت أعرف إن إنغفه سيأتي بحجج مضادة، وفي المناقشة التي ستلي ذلك، ستقال

أشياء لا أريد رؤيتها ولا عيشها. أوه، إنها أشياء قليلة الأهمية، لكن... هل كانت حياتي مكوَّنة من شيء آخر في يوم ما؟ كنت معجباً بإنغفه عندما كنا طفلين مثلما يعجب الأخ الأصغر بأخيه الأكبر. وما كان هنالك أحد أُفضّل أن أنال اهتمامه أكثر منه. صحيح أنه كان أكبر سناً من أن تلتقي دروبنا عندما نكون في الخارج، لكننا اعتدنا أن نظل معاً عندما نكون في البيت. ليس على قدم المساواة، بطبيعة الحال، فعادة تجري الأمور كما يريدها هو، لكننا كنا قريبين رغم ذلك. كنا قريبين أيضاً لأننا نواجه خصماً مشتركاً... والدنا... هكذا هو الأمر.

لا أستطيع تذكر أشياء محددة كثيرة من طفولتنا، لكن الأشياء القليلة التي أذكرها تعبّر عن كل شيء. أذكر كيف كنا نضحك من أشياء صغيرة حتى تنشق جنوبنا مثلما حدث مرة عندما ذهبنا إلى مخيم في إنكلترا سنة 1976. كان صيفاً حاراً إلى حد غير معتاد. وذات مساء، كنا نسير صاعدين تلاً قريباً من المخيم فمرت بنا سيارة. قال إنغفه إن في السيارة شخصان يتعانقان؛ لكنني سمعتها «يبولان»، فانفجرنا ضاحكين واستمر ضحكنا دقائق كثيرة. ضحكٌ ظل ينفجر من جديد لأدنى سبب طيلة ذلك المساء.

إن كان هنالك شيء أشتاق إليه في طفولتي فهو هذا الشيء: الضحك من غير حدود مع أخي، الضحك من شيء صغير تافه. الوقت الذي لعبنا فيه كرة القدم طيلة المساء على الشاطئ، وكانت خيمتنا في تلك البقعة نفسها. لعبنا مع ولدين إنكليزيين. كان إنغفه يضع قبعة فريق ليدز، أما أنا فوضعت قبعة ليفربول. غربت الشمس فوق تلك المنطقة الريفية، وتنامت الظلمة من حولنا، وتناهت إلينا أصوات خفيضة آتية من الخيام القريبة. لم أفهم أي كلمة مما يقولون، لكن إنغفه كان فخوراً بقدرته على الترجمة. بركة السباحة التي ذهبنا إليها ذات صباح قبل انطلاقنا... هناك اكتشفت، أنا الذي لا أحسن السباحة، أنني قادر على المضي إلى الناحية العميقة من البركة ممسكاً بكرة بلاستيكية بين يدي. لكن الكرة انزلقت من قبضتي فجأة فغطست في الماء، وما كان هنالك أحد بالقرب مني. صرخ إنغفه طالباً النجدة فجاء شاب يجري وأخرجني من الماء. كانت الفكرة الأولى التي لمعت في رأسي، بعد أن خرج من جوفي الماء الذي كانت فيه نكهة الكلور، هي أن أبي وأمي لا يجوز أن يسمعا بشيء مما حدث هنا. لا عَدّ لتلك الأيامْ التي أستمد هذه الذكريات منها، لكن الروابط التي خلقتها بيننا صارت وثيقة جداً.

لم تغيّر في الأمر شيئاً حقيقة أن إنغفه يمكن أن يكون شريراً تماماً في تعامله معي، شريراً أكثر من أي شخص آخر. كان ذلك جزءاً لا يتجزأ مني. وفي مسار حياتنا ذلك، ما كان الكره الذي أحسه تجاهه أحياناً بأكثر من جدول يصب في المحيط أو من مصباح في ظلمة الليل الكبير. كان يعرف تماماً ما الذي يمكن أن يقوله حتى يجعلني في غاية الغضب، وحتى أفقد كل سيطرة على نفسي. كان يجلس هناك، هادئاً تماماً وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة... يسخر مني إلى أن يستولي عليَّ الغضب فأصير غير قادر على الرؤية بوضوح، بل أرى كل شيء أحمر اللون من حولي ولا أعرف ما الذي أفعله. كان يمكن أن أقذفه بفنجان في يدي، بكل قوتي، أو بقطعة خبز إن كانت في يدي قطعة خبز، أو ببرتقالة... هذا إن لم أهاجمه بقبضتيَّ بعد أن تعميني دموعي وتحمرّ عيناي حنقاً. أما هو فيظل متمالكاً نفسه ويمسك برسغي قائلاً: اهدأ، اهدأ، اهدأ أيها الطفل الصغير... هل أنت غاضب الآن أيها المسكين الصغير؟ كان يعرف دائماً تلك الأشياء التي تخيفني. وعندما تكون أمي في نوبة عمل ليلية، ويكون أبي في اجتماع من اجتماعات المجلس، ويعرضون في التلفزيون إعادة لبرنامج «ستوواي» المرعب الذي يعرضونه عادة في وقت متأخر من الليل حتى لا يراه من هم مثلي، كان أسهل شيء في العالم بالنسبة لإنغفه أن يطفئ أنوار البيت كلها ويقفل الباب الأمامي ويأتيني قائلاً: أنا لست إنغفه. أنا ستوواي. فأزعق مذعوراً وأرجوه، بل أتوسل إليه أن يقول إنه إنغفه: قل لي، قل لي، قل لي إنك إنغفه، أعرف أنك إنغفه، أنت إنغفه، إنغفه، أنت لست ستوواي، أنت إنغفه... كان يعرف أيضاً أنني أخاف من الصوت الذي يصدر عن الأنابيب عند فتح الماء الساخن... صوت صرير حاد سرعان ما ينقلب إلى شيء يشبه صوت الطرق... صوت يستحيل عليّ استيعابه فأموت رعباً. وهكذا اتفقنا على ألّا يفرغ حوض المغسلة بعد أن يستخدمه في الصباح، بل يترك الماء فيه من أجلي. كان هذا يعني أنني ظللت، ربما ستة أشهر، أغسل وجهي ويدي كل صباح بالماء القذر الذي استخدمه إنغفه قبلي.

بالطبع، تغيرت علاقتنا عندما صار في السابعة عشر وترك البيت. فمن غير ذلك الاحتكاك اليومي بيننا، صارت صورته في ذهني، وحياته أيضاً، هي تلك الصورة وتلك الحياة التي كانتا له في بيرغن حيث ذهب ليدرس. أردت أن أعيش مثلما يعيش!

وخلال خريفي الأول في المدرسة الثانوية، زرته في مبنى آل ريك هول السكني حيث كانت له غرفة فيه. عندما نزلتُ من باص المطار في مركز المدينة، توجهت مباشرة إلى أقرب كشك واشتريت علبة سجائر برينس، ومعها قداحة. لم أدخن قبل ذلك، لكني كنت أخطط للتدخين منذ زمن بعيد. وعندما صرت وحيداً في بيرغن، رأيت أن الفرصة قد سنحت لي أخيراً. وهكذا، كنت هناك، تحت برج كنيسة القديس يوهان الأخضر وأمامي ساحة بيرغن الرئيسية وحديقة تورغالمينينغن الغاصة بالناس... وسيارات، وزجاج يلمع. كانت السماء زرقاء، وكانت حقيبة الظهر إلى جانبي على الأرض، وسيجارة في زاوية فمي. عندما أشعلت السيجارة بالقداحة الصفراء التي حميتها من الريح بكفي، انتابني إحساس قوي، بل إحساس طاغٍ، بالحرية، كنت وحدي. وكنت قادراً على فعل كل ما أريد. امتدت الحياة كلها تحت قدمَيّ. سعلت وبصقت بالطبع لأن الدخان أحرق حلقي، لكني نجحت نجاحاً مقبولاً في التدخين، ولم يتناقص إحساسي بالحرية. أنهيت سيجارتي، ووضعت علبة السجائر الحمراء والبيضاء في جيب سترتي، ثم ألقيت حقيبتي على ظهري ومضيت إلى لقاء إنغفه. في مدرسة الكاتدرائية في كريستيانساند لا شيء يخصني أنا، لكن إنغفه يخصني، وكل شيء له هو لي أيضاً. لم أكن سعيداً فحسب، بل فخور أيضاً، بعد بضع ساعات عندما جلست راكعاً في غرفته حيث كانت أشعة الشمس تخترق النوافذ ذات الستائر الواقية من التلوث، مضيت أقلب مجموعة التسجيلات لديه الموضوعة في ثلاث صناديق نبيذ فارغة عند الجدار. خرجنا تلك الليلة مع ثلاث فتيات من معارفه. استعرت منه مزيل الرائحة، وكولونيا أولد سبايس، وجِلّ الشعر. وقبل أن نخرج، أوقفني أمام المرآة في المدخل فطوى كمَّيْ قميصي المقلم بالأبيض والأزرق الذي كان يشبه قمصان فرقة «ذا إيدج» في صور كثيرة لهم، ثم أصلح وضع طيات سترتي. قابلنا الفتيات في غرفة واحدة منهن. وجدت تلك الفتيات أن من الطريف تماماً أنني في السادسة عشرة فقط، وهذا ما جعلني مضطراً إلى معانقة واحدة منهن عندما سرنا مجتازَين الموظف الموجود في مدخل البناية. هذا ما فعلته أيضاً عندما دخلت أول مرة مكاناً لا يسمحون بدخوله لمن لم يبلغ الثامنة عشر. ذهبنا في اليوم الذي بعده إلى مقهى أوبرا ومقهى غاليري حيث التقينا أمي أيضاً. كانت تعيش مع خالتها جوانا في سوندرِه سكوجفين في شقتها التي سكنها إنغفه لاحقاً. وفي تلك الشقة زرته عندما أتيت إلى بيرغن مرة أخرى. ذات مرة،

بعد سنة من ذلك، ذهبت مع آلة تسجيل محمولة لأجري مقابلة مع فرقة «وول أوف فودو» الأميركية. كانوا يقدمون أغانيهم في نادي هولن تلك الليلة. ما كان لديَّ موعد معهم، لكني ذهبت إليهم عندما كانوا يُجرون اختبارات الصوت. ذهبت حاملاً بطاقتي الصحافية، فوقفنا عند باب خشبة المسرح ننتظر قدومهم. كنت في قميص أبيض وربطة عنق سوداء وبنطلون أسود. وعندما ظهر أفراد الفرقة، أحسست فجأة بأنني لا أجرؤ على الكلام معهم... بدوا لي مخيفين، مجموعة من الرجال في الثلاثين من لوس أنجلوس. كان إنغفه هو الذي أنقذ الموقف. صاح: هاي، يا سيد! فالتفت أحدهم وجاء إلينا. قال لهم إنغفه: هذا أخي الصغير. لقد جاء مسافراً من كريستيانساند البعيدة في الجنوب حتى يجري مقابلة مع «وول أوف فودو» هل يناسبكم هذا؟

قال الرجل: ربطة عنق جميلة! فتبعته إلى غرفة الفرقة. كان في ملابس سوداء، وكانت له وشوم كبيرة على ذراعيه وشعر طويل أسود وحذاء مرتفع الساق من أحذية رعاة البقر، وكان ودوداً إلى أقصى حد. قدم لي البيرة وأجاب بتفصيل شديد عن أسئلتي الساذجة التي كتبتها، التي كانت مناسبة لصحيفة مدرسية. وفي مرة أخرى في بيرغن أيضاً، أجريت مقابلة مع بلايني رينينغر الذي كان قد ترك فرقة «توكسيديمون» قبل وقت قصير. جلسنا في أريكة جلد ناعمة في مقهى كاليري. لم تساورني لحظة شك في أن هذا هو المكان الذي يجب أن أنتقل لأعيش فيه. يجب أن آتيَ إلى هذه المدينة الكبيرة بمقاهيها الكبيرة ومسارحها ومتاجر التسجيلات الكثيرة... بعد أن أنهي المدرسة.

بعد مقابلتي مع «وول أوف فودو» جلسنا في نادي هولن وقررنا أن ننشئ فرقة عندما أنتقل إلى هذه المدينة: بال، صديق إنغفه، سيعزف الغيتار الجهير، وسيعزف إنغفه الغيتار، أما أنا فأعزف الدرامز. سوف نعثر على مُغنٍّ عندما ننشئ هذه الفرقة. سيكتب إنغفه الموسيقى، وسأكتب الكلمات. قلنا في تلك الليلة إننا سنعزف هنا ذات يوم، في نادي هولن. عندها، كان الذهاب إلى بيرغن بالنسبة إليَّ شيئاً يشبه الخَطو في المستقبل. تركت حياتي الحالية وأمضيت بعض الأيام في حياة المستقبل قبل أن أعود. كنت وحدي في كريستيانساند، وكان عليَّ أن أقاتل من أجل كل شيء. أما في بيرغن، فإنني مع إنغفه، وما يخصّه يخصني. لا أقصد المقاهي والنوادي فقط، ولا المتاجر والحدائق، ولا صالات القراءة والاستماع إلى الموسيقى، بل أصدقاءه كلهم أيضاً لأنهم يعرفون من أكون عندما ألتقيهم، ولأنهم يعرفون ما أفعله. كان لي برنامجي

الخاص في إذاعة محلية. وكنت أقدم استعراضاً للتسجيلات والحفلات الموسيقية التي تقام في فودريلاندسفينن. وبعد تلك اللقاءات، كان إنغفه يخبرني دائماً بما قيل عني. الفتيات عادة هن من يكون لديهن ما يقلنه... يقلن إنني كنت حسن المظهر، أو ناضجاً أكثر من سني، وأشياء من هذا القبيل. لكن الصبيان قالوا بعض الأشياء أيضاً. علِقت إحدى تلك الملاحظات في ذاكرتي. قال واحد اسمه آرفيد إنني أبدو شبيهاً بالشاب في فيلم «موت في البندقية» لفيستكونتي. كان لي معنى في نظرهم، وهذا بفضل إنغفه. كان يأخذني معه إلى فينديلهيتا حيث يأتي أصدقاؤه جميعاً في رأس كل سنة. وذات مرة، عندما كنت أبيع أشرطة التسجيل في الشارع في آريندال، وكان المال وفيراً معي، صرنا نذهب كل ليلة تقريباً. وفي إحدى الليالي، أذكر أن إنغفه فوجئ، لكنه كان فخوراً أيضاً، بأنني أستطيع أن أشرب خمس زجاجات من النبيذ وأظل محافظاً على اتزان سلوكي إلى حد ما. وفي نهاية الصيف نشأت علاقة لي مع أخت صديقة إنغفه. التقط لي إنغفه صوراً كثيرة جداً بكاميرا نيكون التي كانت لديه. كلها صور بالأبيض والأسود، وكلها في وضعيات مصطنعة إلى حد فظيع! وذات مرة ذهبنا إلى أحد محلات التصوير معاً، كانت الفكرة هي أن نقدم إلى جدَّيْنا وجدّتَيْنا صورة لنا في عيد الميلاد. فعلنا ذلك، لكن الصورة نفسها ظهرت بعد فترة في واجهة العرض الخاصة لذلك المصور في ردهة سينما كريستيانساند، بحيث صار في وسع كل يشاء أن يرانا واقفين في ملابس حديثة من طراز الثمانينيات، وبتسريحة شعر حديثة من طراز الثمانينيات. كان إنغفه مرتدياً قميصاً أزرق فاتح اللون وحول رسغه أساور جلدية. كان شعره طويلاً عند رقبته وقصيراً في الأعلى. أما أنا فكنت في قميصي المخطط بالأبيض والأسود، مع سترة سوداء مطوية الأكمام وحزام جلد متقشر وبنطلون أسود. كان الشعر عند رقبتي أطول من شعر إنغفه، وأقصر من شعره في الأعلى. كان عندي أيضاً صليب يتدلى من إحدى أذني. كنت أذهب إلى السينما كثيراً في تلك الأيام؛ أذهب غالباً مع يان فيدار أو مع أولاد آخرين من تفيت. عندما رأيت الصورة معروضة هناك، في واجهة العرض المضاءة، لم أستطع أن أعرف نفسي فيها لأنها شيء مختلف تمام الاختلاف عن الحياة التي أعيشها في كريستيانساند... حياة لها طبيعة خارجية، موضوعية، بمعنى أنها مقيدة إلى أماكن بعينها كالمدرسة والصالة الرياضية ومركز البلدة، ومقيدة إلى أشخاص بعينهم أيضاً... أصدقائي وزملائي في الصف وزملائي في فريق الكرة. أما

الصورة فكانت على صلة مختلفة تماماً، على صلة بشيء حميم، بشيء خبيء... إنه العلاقة الأسرية قبل كل شيء، لكنه متعلق أيضاً بالشخص الذي سأكونه عندما أترك هذا المكان. كان إنغفه يحدث أصدقاءه عني، لكنني ما كنت أذكره أمام أصدقائي أبداً.

من المزعج والمربك أن يكون هذا الفضاء الداخلي مكشوفاً من أجل التقييم الخارجي. لكن، وبمعزل عن بضع ملاحظات قليلة معزولة، لم يشغل الموضوع بال أحد لأنني لم أكن من ذاك النوع من الأشخاص الذين ينشغل بال الآخرين بهم.

لسبب ما، عندما أنهيت المدرسة أخيراً سنة 1987، لم أنتقل إلى بيرغن بل ذهبت إلى قرية صغيرة على إحدى الجزر في شمال النرويج حيث عملت معلماً طيلة عام كامل. وكانت خطتي أن أكتب روايتي في الأمسيات؛ ثم أستخدم المال الذي أوفره لأتجول في أوروبا سنة كاملة. اشتريت كتاباً يتحدث عن مختلف الوظائف الموقتة، الممكنة وغير الممكنة، في البلدان الأوروبية. كان هذا ما تخيلته... أن أرتحل من مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد، فأعمل قليلاً وأكتب قليلاً، وأعيش حراً مستقلاً. لكنني تلقيت قبولاً في الأكاديمية الجديدة للكتابة الإبداعية في هوردالاند، وذلك بسبب عمل أنجزته في تلك السنة. وبما أنني أحسست بإطراء كبير نتيجة هذا القبول، فقد غيرت خططي كلها وتوجهت (كنت في التاسعة عشر) إلى بيرغن التي بقيت فيها تسع سنوات بعد ذلك رغم أحلامي كلها ورغم أفكاري عن حياة الترحال في العالم خارج هذا المكان.

بدأت إقامتي في بيرغن بداية جيدة. كانت الشمس ساطعة عندما نزلت من باص المطار في سوق الأسماك. كان إنغفه آنذاك يعمل موظف استقبال في فندق أوريون أيام العطلات وأيام نهاية الأسبوع، وكان في مزاج طيب عندما دخلت ردهة الاستقبال. كانت قد بقيت له نصف ساعة من العمل عند وصولي، وبعدها صرنا قادرين على الذهاب وشراء الجمبري والبيرة والاحتفال بانطلاقة حياتي الجديدة. جلسنا على درجات المدخل أمام شقته نشرب البيرة ونستمع إلى أغاني فرقة «آندرتونز» آتية من جهاز الستيريو في غرفة الجلوس. كنا قد سكرنا قليلاً عندما حل الليل، فطلبنا سيارة تاكسي وذهبنا إلى بيت أُولا الذي كان من أصدقاء إنغفه حيث شربنا المزيد، ثم ذهبنا إلى مقهى أوبرا وبقينا حتى ساعة إغلاقه جالسين إلى طاولة توافد إليها أشخاص كثر. إنه أخي الأصغر، كارل أوفه!... هذا ما كان إنغفه يقوله مرة بعد مرة... لقد انتقل إلى

بيرغن للدراسة في أكاديمية الكتابة الإبداعية. سوف يصبح كاتباً. رتب إنغفه أمر سكني في شقة من غرفة واحدة في ساندفيكن (ستسافر الفتاة التي تعيش فيها لتمضي سنة في أميركا الجنوبية). لكن، كان عليَّ أن أنام على الأريكة في شقته هو ريثما تسافر تلك الفتاة. وهناك، صار يوبّخني على تجاوزاتي الصغيرة مثلما كان يفعل دائماً في المناسبات القليلة التي عشناها معاً مدة لا تتجاوز عدة أيام... بدأ ذلك أيام إقامته في آلريك حيث كان يوبِّخني لأنني أقطع الجبن إلى شرائح أثخن مما يجب أو لأنني لا أعيد أسطوانات الموسيقى إلى أماكنها... لقيتُ سوية التقريع نفسها الآن: لم أجفف أرض الحمام جيداً بعد استخدامه؛ وأسقطت فتات الخبز على الأرض عندما أكلت؛ ولم أكن حريصاً إلى الحد الكافي في التعامل مع إبرة جهاز تشغيل الأسطوانات... حتى وصل الأمر به إلى أن يقول لي، ونحن واقفين إلى جانب سيارته، إنني صفقت باب السيارة بشدة زائدة في المرة الماضية، فأحسست أنني لم أعد أحتمل ذلك. صحت به غاضباً إن عليه أن يكف عن إملاء ما يجب أن أفعله. لقد كفَّ عن ذلك بالفعل، ولم يعد إليه أبداً! لكن ميزان علاقتنا ظل على حاله: كان ذلك العالم عالمه، وأنا من جاءه من خارجه. كنت في ذلك العالم، وسوف أبقى، شقيق إنغفه الأصغر. كانت حياة الأكاديمية معقدة، ولم أكتسب فيها أي أصدقاء. كان بعض السبب في ذلك أن الجميع كانوا أكبر مني سناً، وكان بعضه الآخر أنني لم أستطع العثور على شيء مشترك معهم. وهكذا، كان معنى ذلك أن أتابع الجري خلف إنغفه، والاتصال به لسؤاله إن كان لديه ارتباط ما في عطلة نهاية الأسبوع. وبالطبع، كانت لديه ارتباطات أغلب الأحيان. فهل أستطيع تدبر أمري وحدي؟ لا بأس، إنني أستطيع! بعد التجول في المدينة طيلة يوم الأحد، أو الاستلقاء في فراشي أقرأ طيلة النهار، يصير إغراء التعريج عليه في المساء أكبر من أن أستطيع مقاومته حتى بعد أن أقول لنفسي إن عليَّ ألا أفعل هذا، وإنه يجب أن أعيش حياتي أنا. غالباً ما كان ينتهي بي الأمر جالساً على أريكته أمام تلفزيونه.

بعد ذلك، انتقل إنغفه للسكن مع عدد من أصدقائه. كان هذا خبراً سيئاً بالنسبة لي لأن اعتمادي عليه سيصبح شديد الوضوح. ما كان يمر يوم تقريباً من غير أن أقرع بابهم. وعندما لا أجده في البيت، أجلس في غرفة المعيشة حيث يجلس معي أحد شركائه في السكن انطلاقاً من إحساسه بالواجب تجاهي، أو أجلس وحدي أتصفح صحيفة أو مجلة موسيقية وكأني كاريكاتور سخيف لكائن بشري فاشل. كنت في

حاجة إلى إنغفه، لكن إنغفه لم يكن في حاجة إلي! هكذا كان الأمر. من الممكن أن أكون قادراً على تجاذب أطراف الحديث مع أحد أصدقائه عندما يكون موجوداً، لأنني أجد إطاراً أستند إليه، لكن ليس عندما أكون وحدي! هل كنت قادراً على الذهاب إلى واحدٍ منهم بنفسي؟ من شأن ذلك أن يبدو غريباً، أن يبدو تطفلاً أو شيئاً مفروضاً... لا يصح هذا! والواقع أن سلوكي لم يكن حسناً تماماً، إن أردت التعبير عن الأمر بطريقة لطيفة، لأنني كنت أسكر كثيراً ولا أتورَّع عن مضايقة أحد ما أو إزعاجه إذا ما عنّ لي ذلك. عادة ما يكون الدافع إلى هذا السلوك شيئاً في مظهر ذلك الشخص أو تصرفاً ما ألاحظه فأعتبره سخيفاً.

رُفضت الرواية التي كتبتها خلال دراستي في الأكاديمية فذهبت للدراسة في الجامعة. درست الآداب من غير حماسة، وما عدت قادراً على الكتابة أبداً... لم يبق من مسيرتي في الكتابة شيء غير الرغبة فيها. كانت رغبة قوية، لكن كم هو عدد الأشخاص الذين لا تداعبهم هذه الرغبة في الجامعة؟ كنت أعزف مع فرقتنا في نادي هولن. أطلقنا عليها اسم كافكاتراكتيرنه؛ وكنا نقدم أغانينا في نادي «جاراج» أيضاً. أذاع الراديو بعض هذه الأغاني، وتلقينا بعض المديح من الصحف التي تهتم بالموسيقى. كان ذلك أمراً حسناً، لكني كنت أعرف طيلة الوقت أن السبب الوحيد لوجودي في هذه الفرقة هو أن إنغفه أخي؛ وذلك لأن عزفي على الدرامز كان بائساً. جاءتني لمحة خاطفة من البصيرة عندما كنت في الرابعة والعشرين: هذه هي حياتي في حقيقة الأمر، وهذا هو أنا بالضبط، وأظن أنني سأكون هكذا دائماً. لم تكن سنوات الدراسة في نظري، أي تلك السنوات التي ينظر إليها الناس نظرة سحرية ويتحدثون عنها كثيراً، المرحلة التي يستعيد كل شخص ذكرياتها مسروراً، إلّا سلسلة من أيام وحدة وكآبة. لماذا لم أر هذا من قبل؟ السبب هو الأمل الذي كنت أحمله في داخلي دائماً، وتلك الأحلام السخيفة كلها التي يمكن أن تثقل على شخص في الثانية والعشرين... فيما يتعلق بالنساء وبالحب، وفيما يتعلق بالأصدقاء والسعادة، وكذلك بالمواهب الخبيئة والنجاحات المفاجئة. لكني صرت في الرابعة والعشرين فرأيت الحياة على حقيقتها. لا بأس في هذا لأن لديَّ مسرّاتي الصغيرة أيضاً. لكن المشكلة ليست هنا... ما كنت قادراً على تحمل أي قدر من الوحدة والإذلال؛ كنت حفرةً لا قرار لها، وكنت أقول في نفسي أحياناً: فليأت المزيد وسوف أتلقاه... إنني بئر... أنا بئر الفاشلين، التعساء،

البائسين، الذين يثيرون الشفقة، الذين يسببون الحرج، الذين لا يأبه أحد بهم، الذين يسببون الخزي. هيا، تعالوا! بولوا علي! ألقوا بخرائكم عليَّ أيضاً إن كنتم تريدون هذا! سوف أتلقى كل شيء! سوف أتحمل كل شيء! إنني التحمل في حد ذاته! ما كان عندي شك أبداً في أن هذا ما رأته الفتيات اللواتي جرّبت حظي معهن، هذا ما رأينه في عينيّ. رغبةٌ أكثر مما يجب، وأملٌ أقل مما يجب. في أثناء ذلك، كان لدى إنغفه أصدقاء كثر طيلة الوقت، وكانت لديه دروسه وعمله وفرقته، إن لم أقل شيئاً عن صديقاته... كان لديه كل شيء أراده!

ما الشيء الذي يملكه إنغفه ولا أملكه؟ كيف يكون محظوظاً دائماً بينما يبدو تعبير الذعر أو الاحتقار على الفتيات اللواتي أتكلم معهن؟ مهما تكن الإجابة، فقد بقيت قريباً منه. كان إيسبن الصديق الحقيقي الوحيد عندي في هذه السنوات. بدأ دراسته في الأكاديمية بعدي بسنة واحدة؛ وقد التقيته في صف الآداب: طلب مني إلقاء نظرة على بعض القصائد التي كتبها. ما كنت أعرف شيئاً عن الشعر، لكنني قرأت تلك القصائد، ثم قلت له كلاماً كبيراً لم ينتبه إلى خلوّه من أي معنى. وبعد ذلك صرنا أصدقاء، شيئاً فشيئاً. كان إيسبن من النوع الذي يقرأ مسرحيات بيكيت في المدرسة ويستمع إلى موسيقى الجاز ويلعب الشطرنج. له شعر طويل ومظهر متوتر قلق على نحو ما. وكان ينطوي على نفسه عند وجود أكثر من شخصين معه، لكنه متفتح العقل. وكانت بدايته الشعرية من خلال مجموعة قصائد كتبها قبل سنة من لقائنا. عانيت بعض الغيرة نتيجة ذلك، فقد كان إنغفه وإيسبن يمثلان جانبين من جوانب حياتي؛ كانا يمثلان جانبين غير متفقين عادة.

لعل إيسبن لم يفطن إلى هذا لأنني كنت أتظاهر دائماً بأنني أعرف كل شيء تقريباً. لكنه شدني صعوداً إلى عالم الأدب المتقدم حيث تكتب مقالات كاملة عن جملة واحدة لدى دانتي، وحيث تستطيع المضي في التعقيد قدر ما تشاء، وحيث يتعامل الفن مع المتسامي، لا بالمعنى المتعالي لهذه الكلمة لأننا كنا على مذهب الحداثة، بل هو المتسامي بمعنى الشيء الذي لا تستطيع الإحاطة به... إنه ما يوضحه أفضل توضيح وصف بلانشو لنظرة أورفيوس... ليل الليل، ونفي النفي، وهو ما كان بالطبع أعلى من الابتذال ببعض المسافة، وهو ما كان شيئاً شقياً بائساً أيضاً... تلك الحياة التي نحياها. لكن ما تعلمته أيضاً هو أن حياتنا ذات الأهمية المنعدمة إلى حد سخيف،

الحياة التي لا نستطيع أن نحقق فيها شيئاً مما نريد، لا شيء أبداً، والتي يكون كل شيء فيها متجاوزاً قدراتنا وإمكاناتنا، هي أيضاً حياة تشغل جزءاً من هذا العالم، وبالتالي فإن لها جزءاً من ذلك المتسامي أيضاً... هذا لأن الكتب موجودة، وليس عليك إلّا أن تقرأ هذه الكتب... لا أحد غيري يستطيع أن يجعلني أبتعد عنها. ليس عليك إلّا أن تمد يدك إلى الأعلى.

كان الأدب الحداثي، بعدّته الواسعة كلها، وسيلة لهذا، كان صيغة للإدراك. وما أن يتشربه المرء حتى يصبح قادراً على نبذ الأفكار التي أتى بها من غير أن يفقد جوهره. بل إن الصيغة نفسها تبقى، ثم يصير ممكناً أن تطبقها على حياتك نفسها، على الأشياء التي تفتنك أنت، فتبدو فجأة في ضوء جديد وتكتسب مغزى مختلفاً تماماً. سلك إيسبن هذا الطريق، وتبعته مثلما تفعل دمية لا عقل لها. كان هذا ما فعله إيسبن، لكني تبعته فعلاً. قرأت كثيراً مما كتبه آدورنو، وقرأت بعض ما كتبه بنيامين، وجلست منكباً على قراءة بلانشو بضعة أيام، وألقيت نظرة على دريدا وعلى فوكو، وسرت شوطاً مع كريستيفا ولاكان وديلوز؛ أما قصائد إيكيلوف وبيورلينغ وباوند ومالارميه وريلكه وتراكل وآشبري وماندلستام، ولوندن، وثومسن، وهوغ، فقد عبرتها عبوراً ولم أمضِ مع أي منها أكثر من دقائق معدودة. قرأتها كأنها كتابات نثرية، كأنها كتاب من كتب ماكلين أو باغلي، ولم أتعلم شيئاً منها، لم أفهم شيئاً، لكنني احتككت بهؤلاء الشعراء، وقادني وجود كتبهم في خزانة الكتب عندي إلى نهوض في الوعي... كان مجرد معرفتي بوجودهم عندي إغناء لي... إن لم يزوِّدني هؤلاء بأفكار فقد جعلوني أكثر غنىً من حيث المشاعر والحدس.

ما كان هذا في الحقيقة شيئاً أستطيع الاستفادة منه في امتحان أو خلال مناقشة من المناقشات؛ لكني ما كنت لأعبأ بهذا الأمر... أنا ملك المعرفة التقريبية! كنت مهتماً بالإغناء الذي يحققه هذا لي. ما يجعلني أشعر بالاغتناء عند قراءة أدورنو، على سبيل المثال، كان كامناً لا في ما أقرأه بل في تصوري عن نفسي عندما أقرأ. كنت أرى نفسي شخصاً يقرأ أدورنو! إن في لغته الثقيلة المتشابكة التفصيلية الدقيقة الهادفة إلى الارتفاع بالتفكير أعلى فأعلى، حيث تكون كل نقطة في نهاية جملة أشبه بالوتد الذي يزرعه متسلق الجبال... إن في تلك اللغة شيئاً آخر أيضاً... إنه تماماً هذه المقاربة لمزاج الواقع، ظلُّ هذه الجُمل الذي كان قادراً على أن يثير في نفسي رغبة غامضة

في استخدام اللغة ضمن هذا الجو نفسه، لكن على شيء حقيقي، على شيء حي. ما كنت أريد استخدامها في محاججة ما، بل على سنّور برّي مثلاً، أو على عصفور أسود أو على آلة خلط الإسمنت. هذا لأن الحالة ليست حالة اللغة التي تخفي الواقع وتلفّه بأجوائها، بل العكس تماماً... إنها حالة الواقع الذي ينبثق من هذه الأجواء.

لم أذهب بعيداً في تفصيل شرح هذا الأمر لنفسي لأنه لم يكن موجوداً على هيئة أفكار، بل لم يكد يوجد حتى على هيئة بذور أفكار... كان شيئاً يشبه إغواء ضبابياً. احتفظت لنفسي بهذا الجانب من نفسي، أبقيته مخفياً عن إنغفه، أولاً لأنه ما كان مهتماً، وثانياً لأنه ما كان يصدق ذلك أيضاً: كان يدرس الإعلام، وكان متفقاً تماماً مع العقيدة التي يقوم عليها موضوعه من أن الموضوعية أمر لا وجود له، وأن الأحكام نسبيةٌ كلها، وأن ما يحظى بشعبية ليس بأفضل مما لا يحظى بتلك الشعبية. لكن هذا الاختلاف بيننا، إضافة إلى كل ما حملته عليه، سرعان ما اكتسب عندي معنى أكبر... بدأ يصير أمراً متعلقاً بنا كشخصين، أمراً متعلقاً بالمسافة التي بين إنغفه وبيني، المسافة الكبيرة في حقيقة الأمر. ما كنت أريد هذا، ما كنت أريد هذا أبداً، فكنت أقلل من شأنه وأحاول إخفاءه دائماً. إذا عانيت هزيمة، إذا فشلت في شيء ما، إذا أخفقت في فهم شيء كبير الأهمية، فإنني لم أكن أتردد في إخباره أبداً لأن كل ما يمكن أن يقلل من شأني في نظره كان جيداً... أما في المناسبات التي أنجح فيها في تحقيق شيء ذي معنى، فإنني أخفي ذلك الشيء عنه أكثر الأحيان. قد لا تكون هذه مسألة هامة في حد ذاتها، لكن الوضع يصبح أسوأ عندما يطل إدراك هذه الحالة برأسه لأنني أفكر في الأمر عندما نكون معاً فأصبح غير قادر على التصرف بطريقة تلقائية طبيعية وغير قادر على الاسترسال في الحديث معه مثلما أفعل دائماً، بل أطيل التفكير، وأحسب، وأراجع كلامي. كان الأمر هكذا مع إيسبن أيضاً، لكنه كان عكسياً لأنني كنت أحاول التقليل من حضور نمط حياتي المتراخي السهل الذي يركز على التسلية. وفي ذلك الوقت أيضاً، كانت لديَّ صديقة لم أكن واقعاً في غرامها أبداً، لم أكن واقعاً في غرامها حقاً. ولا بد أنها كانت تعرف هذا هي أيضاً. كنا قد أمضينا أربع سنوات معاً. إذن، فقد كنت في هذا الوضع، ألعب أدواراً وأتظاهر بهذا وأتظاهر بذاك. ثم، وكما لو أن ذلك كله ليس كافياً، كنت أعمل في مؤسسة للمعاقين عقلياً، وكنت غير مقتنع بالتودد إلى الفتيات العاملات هناك اللواتي كن ممرضات مؤهلات؛ لكنني رحت أنضم إليهن في حفلاتهن

التي تقام في ذلك الجزء من المدينة الذي يتجنبه الطلبة: الحانات البسيطة المتواضعة التي فيها عازفو بيانو ومغنّون... كنت أفعل هذا لكي أصير على إلفة بآرائهن وأفكارهن ومواقفهن. أما ما كان لديَّ من آراء وأفكار ومواقف قليلة فقد كنت أتنكر لها، أو أحتفظ بها لنفسي. كان في شخصيتي دائماً شيء سرّي يدعو إلى الريبة، وما كانت عندي تلك الخصال النقية الواضحة التي صادفتها عند بعض الناس خلال هذه الفترة... أناس أعجبت بهم نتيجة ذلك. أما إنغفه فكان قريباً مني إلى درجة لا تسمح لي بالحكم عليه بهذه الطريقة لأن لأفكار تظل نقطة ضعف كبيرة (مهما تكن الأشياء الطيبة التي يمكن أن يقولها المرء عنها) لأنها في حاجة إلى وجود مسافة فاصلة حتى يصير لها تأثير. أما كل ما يكون أقرب من ذلك فهو خاضع للعاطفة. ونتيجة عواطفي، بدأت أخفي أشياء كثيرة وأحتفظ بها لنفسي. ما كان ارتكاب الأغلاط مسموحاً له. يمكن أن تفعل ذلك أمي فلا أهتم، ويمكن أن يفعله أبي وأصدقائي، وأنا أيضاً، فلا أهتم، لكن إنغفه لا يجوز أن يخفق في شيء وليس له أن يبدو غبياً: ليس له أن يُظهر ضعفاً. أما عندما أراه يفعل ذلك، فإنني أمتلئ خجلاً؛ إلّا أن خجلي بالنيابة عنه ما كان نقطة أساسية لأن النقطة الأساسية هي ضرورة ألّا يلاحظ ما حدث، ألّا يكتشف هذه المشاعر عندي؛ ولا بد أن النظرات المتهربة في هذه الحالات، النظرات التي نستخدمها لإخفاء المشاعر بدلاً من إظهارها، كانت شيئاً يدعو إلى الريبة حقاً رغم صعوبة تفسيرها. إذا قال شيئاً غبياً، أو إذا أخطأ في شيء، فإن هذا لا يغير موقفي منه ولا يجعلني أطلق عليه حكماً مختلفاً لذلك السبب. وهكذا كان ما يجري في داخلي قائماً كله على احتمال أن يظن إنغفه أنني أشعر بالخجل بسببه.

حدث شيء من هذا عندما كنا جالسَيْن في مرآب سيارة لأحد أصدقائه في وقت متأخر من إحدى الليالي، وكنا نناقش المجلة التي نخطط لإطلاقها منذ زمن بعيد. كنا محاطين بأشخاص يستطيعون الكتابة والتقاط الصور، أشخاص على معرفة بفريق ليفربول في الموسم الثالث من سنة 1982، وكذلك بفلاسفة مدرسة فرانكفورت، وبالمجموعات الإنكليزية والكتاب النرويجيين وبالأفلام الانطباعية الألمانية والمسلسلات الأميركية على حد سواء. منذ زمن طويل، كان الإقدام على إصدار مجلة ذات توجه إخباري تتعامل تعاملاً جدياً مع طيف واسع من الاهتمامات - كرة القدم والموسيقى والأدب والأفلام والفلسفة والفن - يبدو لنا فكرة حسنة. كنا تلك

الليلة مع إنغار مايكينغ الذي يقوم على تحرير الصحيفة الطلابية «ستودفيست»، وهانز ميلفا الذي يغني في فرقتنا (كان أيضاً سَلَف إنغار في تحرير الصحيفة). عندما بدأ إنغفه يتحدث عن المجلة، سمعت فجأة كلماته التي يقولها من خلال آذان إنغار وهانز. بدا ما يقوله أخرقَ مُسطَّحاً فأطرقتُ برأسي ناظراً إلى الطاولة. التفت إنغفه صوبي عدة مرات خلال كلامه. هل كان عليَّ قول ما أفكر فيه، أن أصحح كلامه، بتعبير آخر؟ أم كان عليَّ أن أتجاهل كل شيء وأنكر نفسي وأساند ما كان يقوله؟ عند ذلك سيقتنع إنغار وهانز بأنني أشاركه الرأي. ما كنت أريد هذا أيضاً. وهكذا فضلت إجراء نوع من التسوية وعدم قول شيء في محاولة مني لترك الصمت يؤكد ما يقوله إنغفه وكذلك تقييم ما يقوله، وهو ما أظن أن إنغار وهانز كانا يفعلانه.

كنت جباناً هكذا، معظم الأحيان؛ وكنت أحتفظ بأفكاري لنفسي فلا أزعج أحداً. لكن الظروف هذه المرة كانت أشد وطأة لأن الأمر متعلق بإنغفه الذي أريد دائماً أن أضعه في موقع أعلى مني، حيث ينتمي حقاً؛ وأيضاً لأن الوضع كان فيه شيء يرضي بعضاً من غروري أيضاً... كان هنالك من يستمع! لكني لم أستطع الكلام على نحو يجمع الأمرين معاً.

كان معظم ما نفعله، إنغفه وأنا، يتم وفق شروطه هو؛ أما معظم ما أفعله وحدي، كالقراءة والكتابة، فإنني أحتفظ به لنفسي. لكن هذين العالمين كانا يلتقيان من حين لآخر! وقد كان هذا شيئاً لا سبيل إلى تفاديه، لأن إنغفه يحب الأدب أيضاً رغم اهتمامه بالأشياء التي تهمّني. فمثلاً، عندما كان عليَّ إجراء مقابلة مع الكاتب كيارتان فلوغستاد من أجل المجلة الطلابية، اقترح إنغفه أن نذهب إليه معاً فوافقت من غير اعتراض. كان فلوغستاد الكاتب المفضَّل عند إنغفه بذلك المزيج الذي لديه، مزيج من الكلام البسيط والنزعة الثقافية، وقصص عن مختلف الأشياء السامية والوضيعة؛ فضلاً عن آرائه اليسارية المستقلة غير الدوغمائية التي تكاد تكون أرستقراطية، وكذلك تلاعبه بالكلمات. كان من المعروف بأن إنغفه نفسه مولع بالتلاعب بالكلمات وبالتوريات الوقحة؛ وكانت الفكرة الرئيسية في دراسته الأكاديمية هي أن قيمة العمل الفني تُخلَق لدى المتلقي، وأنها ليست موجودة في العمل الفني في ذاته، وأن التعبير الفني الأصيل شيء متعلق بالشكل تماماً مثل التعبير الفني غير الأصيل. أما في نظري، فكان فلوغستاد الكاتب النرويجي الكبير، ولا شيء آخر! كانت الصحيفة الطلابية «TAL»

التي تصدر باللغة الرسمية الثانية في النرويج، نوروسك، قد رتبت لإجراء هذه المقابلة معه. أجريت في السابق مقابلة مع الشاعر أولاف هـ. هوغ ومع كاتب النصوص النثرية كارين مويه. وكانت المقابلتان لصالح هذه الصحيفة. أجريتُ تلك المقابلة مع هوغ بالتعاون مع إيسبن، وكذلك مع آسبجورن صديق إنغفه الذي تولى التقاط الصور. وهكذا كان شيئاً طبيعياً تماماً أن يأتي إنغفه معي إلى هذه المقابلة. جرت المقابلة مع هوغ على نحو طيب بعد بداية سيئة (يجب أن أقول هذا). وذلك لأنني لم أخبره مسبقاً بأننا سنكون ثلاثة أشخاص. وعندما توقفت سيارتنا أمام بيته، كان الرجل يتوقع وصول شخص واحد فرفض لنا السماح بدخول البيت. قال وهو واقف في مدخل البيت: «إنهم يدخلون بالقوة!»... قالها بلهجة الساحل الغربي المنمقة فأحسست من فوري بأنني نرويجي شرقي أحمر الخدين مندفع مفرط الحماسة غبي طائش، وسعيد أيضاً. كان هوغ من سكّان كوكب الثقافة الدائمين، وكان شديد الاستقرار في هذا العالم، أما أنا فكنت سائحاً، بل كنت أيضاً سائحاً أحضر معه أصدقاءه الفضوليين لإلقاء نظرة عن كثب على هذه الظاهرة. هكذا كان إحساسي؛ ومن الواضح أن إحساسه كان هكذا أيضاً بالنظر إلى تعبير وجهه العنيف الذي يكاد يكون عدائياً. لكنه قال في النهاية: «لا بأس. من الأفضل أن تدخلوا». ثم سار متثاقلاً إلى غرفة المعيشة التي كانت أمامنا. وهناك وضعنا حقائبنا ومعدات التصوير. أخرج آسبجورن آلة التصوير واتخذ موقعاً يناسب الإضاءة في المكان، أما أنا وإيسبن فبدأنا تسجيل ملاحظاتنا. جلس هوغ على الأريكة عند الجدار ينظر إلى الأرض. قال له آسبجورن: «هل يمكن أن تقف عند تلك النافذة؟ الإضاءة أفضل هناك. وعند ذلك، يمكنني التقاط بضع الصور». رفع هوغ رأسه ناظراً إليه وقد تدلَّت فوق جبهته خصلة من شعره الرمادي. أجابه: «أنت لن تلتقط أي صور لعينة هنا». قال آسبجورن: «فهمت. إنني أعتذر!» ثم تنحى جانباً ووضع آلة التصوير في حقيبتها بحركات لا تكاد تُلحظ. كان إيسبن جالساً إلى جانبي ينظر في بعض الملاحظات التي سجَّلها. كان قلمه في يده. كنت أعرفه؛ ومن الواضح أن ضرورة التركيز لم تكن السبب الذي يدفعه إلى العودة إلى قراءة ملاحظاته الآن. مر دهر قبل أن يقول أحد شيئاً. نظر إيسبن إلي، ونظر إلى هوغ، ثم قال: «إن لديَّ سؤالاً، هل أستطيع طرحه عليك؟» أومأ هوغ برأسه ودفع خصلة الشعر المتهدلة على جبينه بحركة بدت

خفيفة وأنثوية بشكل مفاجئ بالمقارنة مع سلبيته وصمته الذكوريين. بدأ إيسبن يطرح سؤاله. كان يقرأ من دفتر ملاحظاته. احتوى سؤاله على كلام طويل معقد واشتمل على تحليل موجز لإحدى القصائد. وعندما انتهى قال له هوغ من غير أن يرفع رأسه، إنه لا يريد التحدث عن قصائده.

كنت قد قرأت أسئلة إيسبن وأعرف أنها تتركز كلها على قصائد هوغ. إذا لم يكن هوغ في مزاج مناسب للحديث عن قصائده، فإن هذه الأسئلة كلها لا قيمة لها!

تلا ذلك صمت طويل. صار إيسبن الآن متجهّماً كئيباً مثل هوغ. قلت في نفسي إنهما شاعران... هكذا هما. وبالمقارنة مع كآبتهما الثقيلة، أحسست بأنني خفيف الوزن... كنت هاوياً لا يفهم أي شيء، شخصاً يعوم على السطح، يشاهد كرة القدم، ويعرف أسماء بعض الفلاسفة، ويحب أبسط أنواع موسيقى البوب. كانت إحدى القصائد التي كتبتُها لفرقتنا، وهي القصيدة الأكثر قرباً من الشعر، تدعى «أنت تتمايلين بحلاوة شديدة». كان عليَّ الآن أن أتدارك الموقف لأن من الواضح أن إيسبن لن يقول المزيد في مجرى هذه المقابلة. وهكذا رحت أطرح أسئلة عن منطقة بلدية جولستر، حيث تعيش أمي؛ وذلك لأنها منطقة الفنان آستروب الذي كان هوغ معجباً به، بل إنه كتب قصيدة من أجله أيضاً. من الواضح أن هنالك قرباً بينهما. لكنه لم يرد الحديث عن هذا أيضاً. تحدث بدلاً من ذلك عن رحلة قام بها منذ زمن بعيد، في وقت ما في الستينيات، أو هكذا بدا لي الأمر. نطق الأسماء كلها التي ذكرها في هذه القصة بطريقة تكاد تكون سرية... كما لو أن كل إنسان يعرفها. كان يتأمل الأرض خلال كلامه. لم نسمع بهذه الأسماء من قبل أبداً. وقد بدت لنا كلها كأنها تحمل معنى خاصاً، إن لم يكن معنى خفياً مكنوناً، إلى جانب كونها أسماء أشخاص يعرفهم. طرحت عليه سؤالاً عن الترجمة، ثم طرح عليه آسبجورن سؤالاً آخر، فأجاب عليهما بالطريقة نفسها وبنبرات صوت متراخية لا مبالية كأنه جالس هناك يتحدث مع نفسه فحسب. أو لعله كان يحدّث الأرض! كانت تلك المقابلة كارثة حقيقية. لكن سيارة أخرى وصلت بعد ساعة تقريباً وتوقفت أمام البيت. كان فيها فريق من محطة الراديو والتلفزيون المحلية. طلبوا من هوغ أن يقرأ بضع قصائد. بدأ ذلك بالفعل، لكنهم اكتشفوا أنهم نسوا كابلاً، وأن عليهم أن يعودوا لإحضاره. لكن هوغ تغير عندما استأنفوا المقابلة. صار ودياً معنا، يطلق النكات ويبتسم. ذاب الجليد وصار هوغ ضد فريق الإذاعة والتلفزيون. استمر

سلوكه الودّي عندما انتهوا من التسجيل ومضوا في طريقهم. كان الآن حاضراً بطريقة مختلفة تماماً، بل منفتحاً أيضاً. جاءت زوجته بفطيرة تفاح صنعتها من أجلنا قبل قليل. وبعد أن أكلناها، أخذنا الرجل في جولة في بيته وصعد بنا إلى غرفة المكتبة في الطابق الأول حيث يعمل أيضاً. رأيت على طاولة المكتب دفتراً عليه كلمة «مذكرات» مكتوبة على غلافه. وهناك راح يتناول كتباً عن الرفوف ويتحدث عنها. أذكر أن كتاباً لجوليا كريستيفا كان من بين هذه الكتب. أذكر هذا لأنني قلت في نفسي «من المؤكد أنك لم تقرأ هذا الكتاب». لم يدرس هوغ في الجامعة... «وإذا كنت قد قرأته، فمن المؤكد أنك لم تفهم منه شيئاً». وبعد ذلك، عندما مضينا إلى الأسفل من جديد، قال شيئاً حاراً عميق المعنى عن الموت، وكانت نبرة صوته منقبضة مقتضبة، لكنها لا تخلو من سخرية. قلت في نفسي يجب أن أتذكر هذا الشيء لأنه مهم. يجب أن أتذكره طيلة حياتي، لكنني نسيته عندما كنا عائدين في السيارة على امتداد فيورْد هاردانغر. كان هوغ يسير خلفي بخطوات قليلة. أما إيسبن وآسبجورن فصارا في الخارج. كان ذلك وقت التقاط الصور. جلس هوغ على مقعد حجري واضعاً ساقاً فوق ساق ناظراً إلى البعيد. وراح آسبجورن يلتقط الصور من زوايا مختلفة فيقرفص في لحظة ثم يقف في لحظة أخرى. أما أنا وإيسبن فوقفنا ندخن على مسافة أمتار قليلة. كان يوماً خريفياً رائعاً، بارداً متألقاً. عندما أتينا من بيرغن في الصباح، كان ضباب متجمد ممتد فوق الفيورْد. وكانت الأشجار في التلال تعرض ألوان أوراقها الحمراء والصفراء؛ أما الفيورد من تحتنا فكان مثل بركة عند مطحنة مائية... شلالات كبيرة بيضاء! كنت سعيداً. انتهت المقابلة. وكانت جيدة. لكنني كنت مستثاراً أيضاً لأن شيئاً في هوغ جعل القلق يملأني. كان ذلك إحساساً لا يريد أن يهدأ، وكنت غير متأكد من مصدره. كان هوغ رجلاً متقدماً في السن يرتدي ملابس رجل متقدم في السن. قميص قطنيّ وبنطلون رجل متقدم في السن، وخفٌّ منزلي وقبعة؛ كانت له مشية رجل متقدم في السن. لكن... ما كان فيه شيء يشبه المتقدمين في السن، رغم هذا كله... ما كان فيه شيء مما هو موجود لدى جَدّي أو لدى عم أبي، آلف. على العكس تماماً، عندما انفتح أمامنا فجأة وأراد أن يرينا بعض الأشياء، كان ذلك بطريقة طفولية خرقاء نوعاً ما، طريقة ودية بكل تأكيد لكنها هشة واهية أيضاً... مثلما يمكن أن يتصرف طفل ليس له أصدقاء عندما يُبدي أحد اهتماماً به... هذا ما يمكن أن يتخيله المرء عندما يراه؛ شيء لا يمكن التفكير فيه في

حالة جدّي أو في حالة آلف: لا بد أن ستين سنة انقضت منذ أن انفتح أي منهما بهذه الطريقة، إن كان أحد منهما قد انفتح هكذا في حياته كلها. لكن لا... لم يفتح هوغ نفسه أمامنا حقاً، كان ذلك كأنه ظهور لذاته الطبيعية التي كان جفافه يغلفها ويحميها عندما وصلنا. رأيت شيئاً ما كنت أُريد رؤيته لأن الشخص الذي جعلنا نرى هذا الشيء كان غير واعٍ لذلك المظهر الذي بدا عليه. كان قد تجاوز الثمانين، لكن شيئاً فيه لم يمتْ ولم يتكلّس. هذا ما يجعل عيش الحياة أكثر ألماً بكثير في حقيقة الأمر، هذا ما أظنه الآن. أما في ذلك الوقت فقد جعلني ما جرى مرتبكاً فحسب.

قال آسبجورن: «هل نستطيع التقاط بعض الصور عند شجرة التفاح أيضاً؟».

أومأ هوغ برأسه ثم نهض وتبع آسبجورن إلى الأشجار. انحنيت وأطفأت سيجارتي في الأرض، ثم نظرت حولي بعد أن انتصبتُ واقفاً لأبحث عن مكان أرميها فيها. ما كنت قادراً على رميها هنا كيفما اتفق! لم أر مكاناً مناسباً، فوضعتها في جيبي.

كنا هناك، تحيط بنا الجبال من كل ناحية، فبدا الأمر كما لو أننا واقفون في وادٍ عميق. لا تزال هنالك نسمة هواء لطيفة دافئة؛ هكذا يكون الأمر في خريف فيستلاند معظم الأحيان.

قال إيسبن: «أتظن أننا يمكن أن نطلب منه قراءة بعض القصائد لنا؟».

قلت: «إن كنت تجرؤ على ذلك». لاحظت أن آسبجورن كان مبتسماً. إن كان هوغ شاعراً في نظر إيسبن فهو أسطورة في نظر آسبجورن وهو واقف الآن يصوره وقد أعطاه هوغ كل الوقت اللازم لذلك. وعندما انتهى التصوير، دخلنا غرفة المعيشة لإحضار أشيائنا. أخرجت الكتاب الذي اشتريته من المتجر في طريق قدومنا، مجموعة قصائد هوغ وسألته أن يكتب لي عليه كلمات من أجل أمي.

سألني: «ما اسمها؟».

قلت: «سيسيل».

«وأيضاً؟».

«هاتلوي. سيسيل هاتلوي».

«إلى سيسيل هاتلوي مع أطيب الأمنيات من أولاف هـ. هوغ». كتب هذه الكلمات بيده ثم أعاد لي الكتاب.

قلت له: «أشكرك».

عندما انصرفنا رافقنا حتى الباب. أدار إيسبن ظهره إليه، ثم فتح الكتاب والتفت فجأة بوجه يلمع فيه الإحراج والأمل معاً: «هل تقرأ لنا قصيدة من فضلك؟».

قال هوغ: «لا مشكلة أبداً. أي قصيدة تريد أن تسمع؟».

قال إيسبن: «ربما... تلك القصيدة التي تتحدث عن القط! يمكن أن تقرأها لنا في الممر. سيكون ذلك مناسباً تماما، ها ها ها».

قال هوغ: «دعني أرى».

بدأ يقرأ:

«القط جالس،

مستعد، عندما تأتي.

تحدث مع القط قليلاً. إنه الأرقُّ شعوراً هنا».

كان الجميع مبتسماً، حتى هوغ!

قال لنا: «كانت هذه قصيدة قصيرة. أتحب أن تسمع واحدة أخرى؟».

قال إيسبن: «أتمنى هذا».

قلّب هوغ صفحات الكتاب قليلاً، ثم بدأ يقرأ.

«**وقت لأن نجتمع معاً**

هذه الأيام اللطيفة المشمسة في شهر سبتمبر.

وقتٌ لأن نجتمع معاً.

لا تزال في الغابة خصل من التوت البري،

ولا تزال بقع من الزهور محمرة على امتداد الأثلام الحجرية،

وجوز يتساقط بلمسة واحدة.

تتألق أجمات توت العليق بين الأحراش،

وتحوم طيور السمّان هنا وهناك باحثة عن آخر الثمار الجافة المحمرة

ويمتص يعسوب عصارة خوخات حلوة.

في المساء، وضعتُ السلم جانباً وعلّقت سلّتي تحت السقيفة.

الجليديات الصغيرة صارت عليها طبقة ثلج جديدة منذ الآن[1].

---

(1) الجليدية هي كتلة ضخمة من الجليد المنزلق صوب البحر ببطء شديد عبر وديان ساحلية ضيقة (فيوردات). ومنها تنفصل كتل عائمة كبيرة معروفة باسم «جبال الجليد».

أستلقي في فراشي، وأسمع وقع أقدام الصيادين خارجين إلى عملهم.
طيلة الليل، أعرف هذا،
طيلة الليل يبحرون ومصابيحهم الكاشفة تفتش مياه الفيورد جيئة وذهاباً».

واقفاً هناك، في الممر أمام البيت، مطرقاً برأسه ناظراً إلى الأرض وهو يقرأ القصيدة، رحت أفكر في أن هذه لحظةٌ عظيمة متميزة؛ لكن هذه الفكرة نفسها ما كان لها الوقت الكافي حتى تستقر في رأسي. لأن اللحظات التي شغلتها قراءة القصيدة، بصوت مؤلفها، في مكان ولادته نفسه، كانت لحظة أكبر منا بكثير، كانت لحظة منتمية إلى اللانهاية، فكيف يمكننا نحن... نحن الثلاثة صغار السن، نحن الذين لسنا أذكى من ثلاثة سناجب... كيف يمكننا أن نتلقى هذه اللحظة؟ كان هذا أكثر من قدرتنا... أما أنا فأحسست بأني أتلوّى في داخلي عندما كان يقرأ. كان هذا أكثر مما أستطيع احتماله. لو قال لنا نكتة، لكانت شيئاً مناسباً. لأنها، على الأقل، يمكن أن تمنح حياتنا اليومية شكلاً ما، حياتنا التي نكرّرها عالقين فيها كل يوم. أوه... جمال هذه اللحظة! كيف التعامل معه؟ كيف يستطيع المرء أن يلاقيه؟

رفع هوغ يده بالتحية عندما ذهبنا، ثم دخل البيت عندما أدار آسبجورن محرك السيارة وخرج بها إلى الطريق. كنت أحس مثل من قضى اليوم كله في شمس الصيف: يكون مرهَقاً، متراخياً، رغم حقيقة أنه لم يفعل شيئاً طيلة يومه كله غير الاستلقاء على الصخور في مكان ما مغمضاً عينيه. توقف آسبجورن عند أحد المقاهي ليأخذ صديقته كاري التي كانت تنتظرنا ريثما تنتهي مقابلتنا مع هوغ. وبعد أن تحدثنا بضع دقائق عما حدث، ساد الهدوء السيارة. جلسنا صامتين ننظر من النوافذ، ننظر إلى الظلال التي بدأت تستطيل، وإلى الألوان التي بدأت تزداد قتامة، وإلى الريح الآتية من الفيورد تعبث بشعور الذين في الخارج وتخفق بالجرائد المعلَّقة إلى جانب الكشك، ننظر إلى الأطفال على دراجاتهم، إلى أطفال القرى الأبديين هؤلاء على دراجاتهم. بدأت أستمع إلى التسجيل وأدوّن المقابلة فور عودتي إلى البيت لأنني أعرف من تجربتي أن ترددي إزاء الأصوات والأسئلة وكل ما حدث سوف يزداد سريعاً مع مرور الوقت. إذا أنجزت الأمر الآن، فسوف أظل قريباً منه، نسبياً، وسيكون التعامل مع خجلي وشكوكي أكثر سهولة. كانت المشكلة التي لاحظتها على الفور هي أن الأحاديث

الجيدة حقاً جرت بعيداً عن آلة التسجيل. الحل هو كتابة ما حدث كما حدث، تقديم كل شيء: انطباعاتنا الأولى، والشخص المتحفظ المغمغم الذي كانه في البداية، ثم التغير المفاجئ، وفطيرة التفاح، والمكتبة. كتب إيسبن افتتاحية تحدثت عن مكانة هوغ الأدبية، وأدخل في تلك الافتتاحية فقرات تحليلية صغيرة كانت على تضاد واضح مع كل ما جرى. قال لنا محرر صحيفة «TAL» الذي كان طالباً يدرس فلسفة هانز ماريوس (كان تلميذاً من تلامذة البروفيسور جورج يوهانسن، ويتحدث النونورسك أيضاً) إن هوغ استمتع كثيراً بقراءة المقابلة. قال لجو هانسن إنها من أفضل المقابلات التي أجريت معه. لكني لا أظنها كانت كذلك لأننا في العشرين من عمرنا فقط. إلّا أن هوغ كان شديد اللباقة عند تقييم عمل الآخرين. كانت لباقته تطغى على الدقة والحقيقة دائماً. لكنه أحب تلك المقابلة، وهذا ما جعل زوجته تتصل بالصحيفة وتطلب مزيداً من النسخ حتى تستطيع توزيعها على الأصدقاء والمعارف. عندما قرأت يومياته فيما بعد، توصلت إلى أن تلك المقابلة يمكن أن تكون قد أعطته صورة حقيقية عن نفسه، لأنها لم تكن مديحاً فحسب. بالطبع، كان هوغ يدرك الوجه العجوز الكاره للآخرين في شخصيته، لكن الناس كانوا يتعاملون معه باحترام شديد ويتغاضون عن هذا الجانب الذي كان خبيئاً خلف طبقات من الأدب واللباقة، لكنه كان شخصاً يحب الحقيقة، ولم يكن يستطيع دائماً النظر بعين الرضا إلى هذا الإخفاء لجزء منها.

بعد ستة أشهر من ذلك، جاء دور كيارتان فلوغستاد. لقد قرأ المقابلة مع هوغ، وسوف يسعده أن تجري صحيفة «TAL» مقابلة معه. قال لي ذلك عندما اتصلت به. لو كان الأمر متعلّقاً بي، لقرأت كتبه كلها (انطلاقاً من توتر أعصابي، ومن احترامي له أيضاً)، ولحضّرت أسئلة أنيقة كافية لمقابلة تستمر عدة ساعات أسجل فيها كل شيء. صحيح أن أسئلتي قد تكون حمقاء، إلّا أن إجاباته لن تكون كذلك. وإذا تمكنت من تسجيل تلك الإجابات فإن نبرة صوته وحدها كافية لأن تقف المقابلة على قدميها مهما تكن نواقص مساهمتي الشخصية فيها. لكن إنغفه كان معي، وهذا ما جعلني متوتراً بطريقة مختلفة... اعتمدت عليه، ولم أقرأ الكتب كلها. صغتُ أسئلة أقل إحكاماً، إضافة إلى أنني أدخلت في الحساب العلاقة بين إنغفه وبيني: لم أكن راغباً في أن أكون صاحب الحضور الذي يصحح حضور إنغفه، ولم أرد جعله يظن أنني يمكن أن أفعل هذا أفضل منه! عندما ذهبنا إلى أوسلو لرؤية فلوغستاد (كان يوماً ربيعياً رمادياً في أواخر

آذار/ مارس أو أوائل نيسان/ أبريل؛ جلسنا في مقهى في بيولسن)، كنا أسوأ استعداداً من أي وقت آخر، قبل ذلك أو بعده! وفوق هذا قررنا ـ إنغفه وأنا، عدم استخدام آلة التسجيل وعدم تدوين أية ملاحظات خلال المقابلة لأن فعل ذلك سيجعلها رسمية جامدة... هكذا ظننا... أردنا أن تكون أشبه بمحادثة عادية، شيء انطباعي، شيء يتطور وينمو في اللحظة عينها. ما كنت ممن يستطيعون المباهاة بقوة ذاكرتهم، لكن ذاكرة إنغفه مثل ذاكرة الفيل: إنه لا ينسى أبداً! إذا كتبنا الكلام الذي قيل بعد انتهاء المقابلة مباشرة، فإن كلاً منا سيكون قادراً على ملء ثغرات الآخر إلى أن تكتمل الصورة... هكذا ظننا! دعانا فلوغستاد بأدب جمّ إلى الجلوس في المقهى الذي كان مكاناً مظلماً بعض الشيء، يقدمون فيه البيرة. جلسنا من حول طاولة مستديرة وعلقنا ستراتنا على ظهور كراسينا، ثم أخرجنا أوراق الأسئلة. عندما قلنا إننا سنجري المقابلة من غير تسجيل أو كتابة ملاحظات، قال فلوغستاد إن هذا أمر يدعو إلى الاحترام والإعجاب. قال أيضاً إن مقابلة لصالح صحيفة «داغنز نايهيتر» السويدية أجريت معه قبل فترة. وقد أجراها صحفي لم يسجل أي ملاحظات خلالها. كان ما كتبه ذلك الصحفي ممتازاً؛ وقد كان لذلك بالغ التأثير على فلوغستاد. خلال سير مقابلتنا، كان تركيزي منصباً على ما يقوله إنغفه بقدر ما هو منصب على ردود أفعال فلوغستاد... ليس على إجاباته فحسب، بل على نبرة صوته ولغة جسده وعلى محتوى الكلام أيضاً. تناولتْ أسئلتي التي طرحتها عليه ما كان يجري حول تلك الطاولة بقدر ما تناولت ما كان يجري في كتب فلوغستاد، وذلك بمعنى أنها كانت أسئلة ميَّالة إلى تكملة شيء أو التعويض عن شيء في ذلك الوضع كله. استغرقت المقابلة ساعة كاملة. وبعد مصافحة الرجل وشكره على استعداده للحديث معنا وخروجه متوجهاً إلى حيث يعيش، كما افترضنا، صرنا في غاية السرور والإثارة لأن كل شيء جرى على أحسن ما يرام... ألم يكن كذلك حقاً؟ لقد كنا نتحدث إلى فلوغستاد! كنا مستثارين إلى حد جعلنا غير راغبين في الجلوس وكتابة تقريرنا عما قيل في تلك المقابلة. قلنا إننا نستطيع فعل ذلك في اليوم التالي. اليوم هو السبت، وسرعان ما تعرض مباريات كرة القدم على التلفزيون. يمكننا أن نتابع مباراة في المقهى، ثم نخرج بعد ذلك... نحن لا نأتي كثيراً إلى أوسلو. عاد بنا القطار في اليومْ التالي، وما كان لدينا وقت لكتابة أي شيء في الرحلة، عندما وصلنا إلى بيرغن مضى كل منا إلى بيته. إذا كنا قد انتظرنا ثلاثة أيام حتى الآن، فإن

في وسعنا أن ننتظر ثلاثة أيام أخرى! ثم ثلاثة أيام، ثم ثلاثة أخرى! وأخيراً، عندما جلسنا للكتابة، اكتشفنا أننا لم نعد نتذكر الكثير. كانت الأسئلة لدينا بطبيعة الحال، وقد كانت عوناً كبيراً لنا؛ لكن فكرتنا عن الإجابات التي قيلت كانت غامضة تماماً... كانت مكوَّنة، في جزء منها، من الأشياء التي تذكرناها فعلاً، لكن الجزء الآخر تألف مما ظننا أنه قيل! كانت كتابة المقابلة من مسؤوليتي أنا لأنني أتلقى المال مقابل القيام بالعمل. بعد أن «طبخت» بضع صفحات، أدركت أنها غير صالحة: كانت شديدة الغموض، شديدة البعد عن الدقة. وهكذا اقترحت على إنغفه أن نتصل بفلوغستاد ونسأله إن كان يسمح لنا بطرح بضعة أسئلة إضافية على الهاتف. جلسنا إلى الطاولة في شقة إنغفه في بيليكيباكن وصُغنا بعض الأسئلة الجديدة. كان قلبي يخفق عنيفاً عندما طلبت رقم فلوغستاد، ولم يتحسن الوضع عندما أجابني صوته المتحفّظ. لكنني أفلحت في توضيح ما أريده، فوافق على منحنا نصف ساعة إضافية على الهاتف. لكنني تلمست في نبرة صوته أنه قد بدأ يدرك حقيقة الأمر. كنت أطرح الأسئلة فيجيبني عليها بينما يجلس إنغفه في الغرفة الأخرى واضعاً السماعات على أذنيه، مثل عميل سري، ويدوّن كل ما يقال. حصلنا على ما نريد. وفي ثنايا تقريري الغامض غير الدقيق، أدخلت بضعَ جمل جديدة كانت أصيلة بطريقة مختلفة تماماً وأضفت مسحة من الأصالة على بقية الكلام. وبعد أن أضفت مقدمة عامة تتحدث عن موهبة فلوغستاد الأدبية، إضافة إلى إدراج بعض المعلومات أو الفقرات التحليلية، لم تعد المقابلة شديدة الرداءة. لقد بدت جيدة في حقيقة الأمر! كان فلوغستاد قد طلب منا أن يقرأ المقابلة قبل نشرها، فأرسلتها إليه مرفقة ببضع كلمات ودية. لم تكن لدي فكرة أبداً عما إذا كان يصر على قراءة كل مقابلاته قبل نشرها أو أنه أصر على قراءة مقابلتنا نحن فقط لأن جرأتنا جعلتنا نمتنع عن تسجيل الملاحظات، لكنني لم أبال بهذا الأمر كثيراً ولم أقلق لأنني أفلحت في كتابة مقابلة جيدة آخر الأمر! لكن من المؤكد أنني كنت أعاني إحساساً غامضاً بعدم الارتياح في ما يتعلق بالأجزاء غير الدقيقة، لكنني تجاهلت ذلك الإحساس لأنني كنت أعرف أن لا وجود لقاعدة تستوجب تسجيل المقابلات تسجيلاً حرفياً. كنت مطمئناً عندما حملت بين يدي رسالة من فلوغستاد وجدتها في صندوق البريد بعد عدة أيام. لكن كفَّيَّ تعرقا، وراح قلبي ينبض عنيفاً. لقد جاء الربيع، وازدادت حرارة الشمس. كنت في حذاء رياضي وقميص قصير الكمين وبنطلون جينز. وكنت في طريقي إلى معهد

الموسيقى حيث يعطي جون أولاف، صديق ابن عمي، دروساً في عزف الدرامز. ربما كان من الحكمة أن أترك الرسالة من غير أن أفتحها لأن الوقت كان ضيقاً. لكن الفضول استولى عليَّ ففتحتها وأنا أسير متمهلاً في اتجاه موقف الباص. كان فيها نسخة مطبوعة من المقابلة. وكانت مليئة بإشارات حمراء وملاحظات بالقلم الأحمر مكتوبة في الهامش... رأيت: «لم أقل هذا أبداً»، رأيت: «غير دقيق»، رأيت: «لا، لا، لا»، رأيت: «؟؟؟»، رأيت: «من أين أتيتما بهذا؟» كانت هنالك ملاحظة من هذا النوع على كل جملة تقريباً. وقفت في مكاني، تجمّدت، وتابعت القراءة. أحسست بأنني على وشك السقوط. هويت في الظلمة. وجدت ملاحظة قصيرة ملحقة بالمقابلة فقرأتها بسرعة، بأسرع ما استطعت، بسرعة محمومة... كأن شعوري بالإذلال سوف يزول عندما أصل إلى الكلمة الأخيرة. جاء في تلك الملاحظة: «أظن من الأفضل عدم نشر هذه المقابلة. تمنياتي الطيبة لكما. كيارتان فلوغستاد». كان العذاب يتصاعد في داخلي عندما تابعت سيري مجرجراً قدمَيَّ ناظراً إلى العلامات الحمراء مرة بعد مرة. أحسست بالحر لشدة خجلي، وكنت على وشك الانفجار باكياً. وضعت الرسالة في جيبي الخلفي، وانتظرت الباص الذي وصل في تلك اللحظة، فصعدت وجلست في المقعد الأخير، عند النافذة. ازداد خجلي بينما مضى الباص بسرعة الحلزون متجهاً إلى هاوكيلاند. كانت الأفكار نفسها تدور وتتصادم في رأسي. لم أكن جيداً؛ لست كاتباً ولن أصير أبداً! كان الشيء الذي جعلنا سعداء عندما تحدثنا إلى فلوغستاد قد صار الآن مجرد شيء يثير الضحك... هذا شيء مؤلم! اتصلت بإنغفه عندما وصلت إلى البيت. لكنه فاجأني بخفة تلقّيه هذا النبأ. قال إن الأمر مؤسف! ثم سألني إن كنت قادراً على تغيير بعض الأشياء وإرسال نسخة جديدة من تلك المقابلة! عندما مضت لحظات القنوط الأكثر عنفاً، عدت إلى قراءة الملاحظات فرأيت أن من بينها أشياء كتبها فلوغستاد تعليقاً على أفكار من عندي، من قبيل تشبيهه بالكاتب كورتازار مثلاً. من المؤكد أن ليس من حقه أن يفعل هذا! ليس من حقه أن يعبث برأيي في كتبه! ليس من حقه أن يعترض على تقييماتي! كتبت هذا في رسالة بعثت بها إليه اعترفت فيها أن في المقابلة بضعة مواضع غير دقيقة بالفعل، وبأنه محق في إشارته إليها، لكنه قال بعضاً من تلك الأشياء في حقيقة الأمر. وقلت إنني أعرف هذا لأنني سجلت بعض الملاحظات خلال المقابلة الثانية على الهاتف. لكني قلت له أيضاً إن ملاحظاته تعترض على أشياء قلتها أنا، أي على

تعليقاتي كصحفي. قلت إن ليس من حقه أن يفعل هذا. أخبرته أيضاً بأن من الممكن، إن أراد، أن أستفيد من تصحيحاته واقتراحاته في إجراء مقابلة أخرى معه. وبعد ذلك أُرسل إليه نسخة نهائية مصححة. جاءتني بعد أيام قليلة من ذلك إجابة مهذبة، لكنها حازمة، قال فيها إنه يعترف بأن قسماً من ملاحظاته قد استهدف آرائي وتفسيراتي؛ لكن ذلك لا يغير قراره بعدم نشر هذه المقابلة. وبعد أن نفضت غبار الإذلال عني (استغرق الأمر ستة أشهر تقريباً... فترة كنت فيها غير قادر على رؤية وجه فلوغستاد أو كتبه أو مقالاته من غير أن أشعر بخجل عميق). حولت المسألة كلها إلى حكاية أتندر بها من أجل التسلية. لم يكن إنغفه مسروراً بحقيقة أن هذا التندر كان على حسابنا ولم ير شيئاً فكاهياً في الإذلال الذي أصابنا... بل لعل من الواجب أن أكون أكثر دقة هنا: لم ير في الأمر إذلالاً على الإطلاق. لقد كانت أسئلتنا جيدة. وكانت مقابلتنا مع فلوغستاد كبيرة القيمة. هذا ما أحب إنغفه استخلاصه من هذه التجربة كلها!

مضت حياتي في بيرغن هادئة تماماً إلى هذا الحد أو ذاك مدة أربع سنوات لم يحدث فيها شيء. كنت أريد الكتابة، لكني لم أستطع، هذا كل ما في الأمر! كان إنغفه يُحَصّل نقاطاً في دراسته الجامعية ويعيش الحياة التي أرادها؛ أو هكذا كان الأمر يبدو من الخارج، على أقل تقدير. لكن ذلك أيضاً توقف عند مرحلة ما: بدا كما لو أنه غير قادر على إنهاء أطروحته الجامعية، ولم يكن مجتهداً في العمل عليها. لعل ذلك لأنه كان يعيش أجواء إنجازاته السابقة، أو لعل السبب هو أن حياته ما كانت تشهد شيئاً مهماً. أنهى أطروحته في نهاية المطاف، وكانت تتحدث عن نظام النجومية في السينما. ثم قدم تلك الأطروحة، وظل بعدها عاطلاً عن العمل فترة قصيرة بينما كنت أعمل في إذاعة طلابية (بدلاً من الخدمة العسكرية). وببطء، انتقلت إلى وسط مختلف عن وسطه؛ هذا إذا لم أقل شيئاً عن تونجِه التي التقيتها في ذلك الشتاء فوقعنا في الحب. اتخذت حياتي منعطفاً جذرياً جديداً رغم أنني كنت لا أكاد أفهمه، أنا نفسي. كنت لا أزال عالقاً في الصورة التي نشأت عندي خلال السنوات الأولى في بيرغن عندما ترك إنغفه البيت بشكل مفاجئ وعُرضت عليه وظيفة استشاري ثقافي في مجلس مدينة باليستراند. قد لا تكون تلك الوظيفة العمل الذي كان يفكر فيه؛ لكن ما من أحد في تلك الإدارة كان أعلى مركزاً منه. يعني هذا من الناحية العملية أنه كان أكبر مسؤول عن الثقافة هناك. أقيم في باليستراند مهرجان لموسيقى الجاز، وكان تحت إشرافه وحده.

سرعان ما لحق به صديقه آرفيد فحصل على وظيفة في ذلك المجلس أيضاً. التقى إنغفه كاري آن التي كان يعرفها معرفة سطحية في بيرغن. كانت تعمل معلمة هناك فنشأت بينهما علاقة ثم أنجبا طفلتهما إيلفا وانتقلا إلى ستافانغر بعد سنة من ذلك حيث عمل إنغفه في مهنة غير مألوفة لديه... التصميم الغرافيكي. أسعدني أنه فعل ذلك، لكنني كنت غير مرتاح أيضاً: ملصق إعلاني من أجل أيام هوندفاغ الثقافية، ونشرة مطبوعة من أجل مهرجان محلي... هل كان هذا كافياً؟

لم يكن أحداً منا يلمس الآخر أبداً! لا نتصافح عندما نلتقي، بل نادراً ما ينظر أحدنا في عيني الآخر.

كانت هذه الذكريات كلها في داخلي عندما وقفنا على الشرفة، هناك، في بيت جدتنا في هذا المساء الصيفي اللطيف سنة 1998. كنت واقفاً أدير ظهري صوب الحديقة، وكان جالساً في كرسي قشي كبير عند الجدار. كان من المستحيل أن أخمن من تعبير وجهه إن كان يفكر في ما قلته قبل لحظة... أي في أنني سأتولى مسؤولية هذا كله، ومسؤولية تنظيف الحديقة أيضاً، أو أنه لا يبالي بالأمر كله.

استدرت وسحقت عقب سيجارتي على السطح السفلي للدرابزين المصنوع من الحديد الزهر. تطايرت شرارات وحبيبات رماد صغيرة فسقطت على الأرضية الإسمنتية.

«ألا توجد منافض للسجائر هنا؟».

قال: «لم أر منها شيئاً. استخدم زجاجة».

فعلت مثلما قال لي فألقيت عقب السيجارة في زجاجة بيرة هينيكين خضراء. لو اقترحتُ أن نقيم لقاء الجنازة هنا، وهو ما كنت واثقاً تماماً من أنه سيعتبره أمراً مستحيلاً، فإن الاختلاف بيننا الذي لا أريد أن يكون ظاهراً، سيصبح ظاهراً. سيكون إنغفه الشخص الواقعي، العملي؛ أما أنا فسأكون الشخص المثالي الذي تسوقه عواطفه. كان والدنا أباً لنا كلينا، لكن ليس بالمعنى نفسه. وكانت رغبتي في جعل الجنازة نوعاً من بعث صورة جديدة لأبي، إضافة إلى ميلي إلى البكاء في حين لم يذرف إنغفه دمعة واحدة فقط، يمكن أن يفسَّر باعتباره دليلاً على أن علاقتي بأبي كانت أكثر دفئاً وقرباً. كنت أخشى أن يظهر هذا كأنه نوع من الانتقاد الخفي لموقف إنغفه. لم أكن أرى الأمر هكذا من ناحيتي، لكنني خشيت أن يُفهم بهذا الشكل. ثم إن من شأن هذا الاقتراح أن

يسبب صداماً بين إرادتين، صدامٍ من أجل شيء تافه... هذا صحيح... لكني كنت غير راغب في أن ينشأ بيننا أي شيء ضمن هذا الوضع.

تعالى من الزجاجة عند الجدار خيط رقيق من الدخان. هذا يعني أن السيجارة لم تنطفئ تماماً. نظرت من حولي بحثاً عن شيء أضعه فوق الزجاجة. كان الطبق الصغير الذي استخدمته جدتي لإطعام النورس قريباً مني. هل أستخدمه؟ لا تزال فيه قطعتان صغيرتان من اللحم، وقليل من المرق المتجمِّد. لكني قلت في نفسي إن الطبق يظل وافياً بالغرض فوازنته بحرص فوق فوهة الزجاجة.

نظر إليَّ إنغفه وقال: «ماذا تفعل؟».

قلت: «أصنع منحوتة صغيرة. اسمها بيرة ولحم في الحديقة». ترجمت هذا الاسم إلى الفرنسية بعد ذلك.

انتصبت واقفاً وتراجعت خطوة إلى الخلف. وقلت:

«عنصر المقاومة هنا هو الدخان المتصاعد إلى الأعلى. بطريقة ما فإن هذا يجعل المنحوتة تفاعلية من الناحية البيئية. إنها ليست منحوتة تراها كل يوم. أما بقايا اللحم فتمثل التفكك والانحلال، بالطبع. هذا أمر تفاعلي أيضاً، إنه صيرورة، شيء في حالة تغير دائم. أو هو التغير في ذاته. إنه نقيض الثبات. زجاجة البيرة فارغة، ما عادت لها أي وظيفة، فما معنى وجود حاوية لا تحتوي على شيء؟ إنها لا شيء. لكن لهذا اللاشيء شكلاً، ألا ترى هذا؟ الشكل هو ما أحاول التشديد عليه هنا».

علّق: «أها... هكذا».

أخرجت سيجارة أخرى من العلبة التي وضعتها على الدرابزين رغم أنني لم أشعر برغبة في التدخين.

قلت: «إنغفه!».

«ماذا؟».

«إنني أفكر في شيء ما. أفكر في أشياء كثيرة في حقيقة الأمر. أفكر في أن علينا أن نقيم لقاء الجنازة هنا، في هذا البيت. نستطيع أن نجعل مظهره لائقاً بعد أسبوع... إذا اجتهدنا في العمل. لديَّ إحساس يقول إنه خرَّب كل شيء هنا، وإننا لسنا مضطرين إلى قبول ذلك. هل تفهم ما أعنيه؟».

قال إنغفه: «بالطبع أفهم. لكن، أتظن أننا قادران على هذا؟ عليَّ أن أعود إلى

ستافانغر ليل الاثنين. لا أستطيع العودة قبل الخميس. ربما الأربعاء، لكنني قد أضطر للبقاء حتى الخميس».

قلت: «لا بأس بهذا. هل أنت معي من حيث الفكرة نفسها؟».

«أنا معك. لكن، كيف سيتلقى غونار هذه الأخبار؟».

«هذا ليس من شأنه. والدنا هو الذي مات».

أنهينا التدخين من غير أي كلمة أخرى. وفي الأسفل، كان المساء قد بدأ يُضيّع معالم المشهد المحيط بنا... الحواف الحادة في ذلك المشهد، بما فيه النشاط البشري، بدأت تضمحل شيئاً فشيئاً. كانت بضع مراكب صغيرة ماضية في طريقها إلى دخول الخليج. فكرت في الروائح على متن تلك المراكب: بلاستيك، وملح، وبترول. لقد شكلت هذه الروائح جزءاً هاماً من طفولتي. مرت طائرة ركاب فوق المدينة. كانت شديدة الانخفاض فرأيت شعار شركة الطيران واضحاً عليها. اختفت الطائرة تاركة من خلفها هديراً خفيضاً. وفي الحديقة، كانت طيور تزقزق مختبئة خلف أوراق شجرة تفاح.

أفرغ إنغفه كأسه ونهض واقفاً على قدميه.

قال: «لا تزال أمامنا وجبة عمل واحدة قبل أن يكتمل يومنا». نظر نحوي وسألني: «هل حققت تقدماً في الأسفل؟»

«أنهيت منطقة الغسيل كلها، والحمّامين أيضاً».

قال: «هذا عظيم».

سرت خلفه. سمعت صوت التلفزيون المرتفع، فتذكرت أن جدتي في البيت معنا. ما كنت قادراً على فعل شيء من أجلها؛ ما كان أحد قادراً على فعل شيء. لكني قلت في نفسي إن من الممكن أن تكون رؤيتنا قد جلبت لها بعض الانفراج. وحتى أذكّرها بوجودنا، مضيت إليها ووقفت إلى جانب كرسيها.

قلت لها: «هل أنت في حاجة إلى شيء؟» رفعت رأسها ناظرة إليَّ.

قالت: «آه، هذا أنت. أين إنغفه؟».

«إنه في المطبخ».

«اممم». ثم عادت عي تنظر إلى التلفزيون. لم تفارقها حيويتها، لكنها تحولت إلى شيء هزيل، أو لعلها صارت ظاهرة بطريقة مختلفة... صارت مربوطة بحركاتها لا بشخصيتها كما كان الأمر من قبل. كانت في الماضي نشطة، مبتهجة، حلوة المعشر،

حاضرة الإجابات؛ وغالباً ما كانت تغمز بعينها عندما تريد إظهار شيء من السخرية. أما الآن، فإن في داخلها شيئاً قاتماً. صارت روحها قاتمة. كنت أرى هذا... شيء يفاجئك بشكل مباشر. لكن، هل كانت هذه الظلمة موجودة فيها على الدوام؟ هل كانت مليئة بالظلمة دائماً؟

كانت ذراعاها ممتدَّتين على مسندي الكرسي. وكانت تشد بأصابعها على المسندين كأنها مسافرة بسرعة فائقة.

قلت لها: «إنني نازل إلى الأسفل لأنظف الحمام».

أدارت رأسها صوْبي.

قالت: «آه، هذا أنت، أليس كذلك؟».

أجبتها: «هذا أنا. سأنزل لتنظيف الحمام. هل أنت في حاجة إلى شيء؟».

قالت: «لا، شكراً لك يا كارل أوفه». ثم سألتني: «أنتما لا تشربان في المساء، أليس كذلك؟ أقصد أنت وإنغفه!».

هل تظن أننا سكيران أيضاً؟ أتظن أن أبانا ليس الشخصَ الوحيد الذي يدمر حياته وأن ولديه يفعلان مثله أيضاً؟

أجبتها: «لا. لا نفعل هذا أبداً».

بدت جدتي غير راغبة في قول شيء آخر فمضيت إلى الأسفل، إلى القبو حيث لا تزال الرائحة العفنة مسيطرة رغم أن مصدرها قد أزيل. غسلت الدلو الأحمر، ثم ملأته بماء شديد الحرارة، وبدأت تنظيف الحمام. بدأت بالمرآة التي كانت إزالة البقع الصفراء البنية عنها شديدة الصعوبة فاستخدمت سكيناً لكشطها عنها. صعدت إلى المطبخ لأجلب السكين وإسفنجة خشنة. وبعد ذلك نظفت المغسلة، ثم حوض الاستحمام، ثم إطار النافذة في الأعلى، ثم النافذة المستطيلة الضيقة، ثم كرسي المرحاض، ثم الباب وإطاره. وأخيراً، نظفت الأرض جيداً وسكبت الماء الرمادي الذي صار متسخاً في المرحاض، وحملت كيس القمامة إلى الأعلى حيث وقفت بضع دقائق محدِّقاً في الغسق الصيفي الداكن الذي لم يكن مظلماً تماماً في الحقيقة بل شحيح الضياء فحسب.

تذكرت أنها ليلة السبت عندما سمعت الأصوات المرتفعة التي تعلو وتهبط في الطريق من تحتنا. لعلها مجموعة من الناس في طريقهم إلى المدينة.

لماذا سألتّني إن كنا نشرب؟ هل دفعها مصير أبي إلى طرح هذا السؤال، أم أن خلف سؤالها شيئاً ما!

فكرت في الحفلة التي أقيمت لي عندما أنهيت المدرسة قبل عشر سنوات؛ وتذكرت كم كنت ثملاً آنذاك. كان جدي وجدتي واقفَيْن مع الناس المنتشرين على امتداد الطريق، يصيحان بي. تذكرت وجهيهما المتوترين عندما أدركا حالتي. بدأت أشرب جدياً في عيد الفصح من تلك السنة، في معسكر تدريبي لكرة القدم في سويسرا؛ ثم تابعت الشرب طيلة ذلك الربيع. كانت هنالك مناسبات دائماً، ولقاءات، وأشخاص راغبون في الشرب معي. كان كل شيء مباحاً، وكل شيء مغتفراً، عندما كنت لا أزال في ملابس المدرسة. كانت تلك الأيام فردوساً في نظري، لكن الأمر كان مختلفاً في نظر أمي التي كنت أعيش معها وحدي في ذلك الوقت. طردتني آخر الأمر، لكن هذا لم يزعجني كثيراً، لأن العثور على مكان أنام فيه كان أسهل الأشياء في العالم، سواء نمت على أريكة في غرفة صديق لي أو نمت في باص المدرسة أو تحت أجمة في الحديقة. أما في نظر جدي وجدتي، فقد كانت هذه الفترة الاحتفالية مرحلة انتقال إلى الحياة الأكاديمية، مثلما كان الأمر في أيام جدي وفي أيام أبنائه... كان هنالك شيء داكن مكفهرّ في هذا، لكني اعتدت التخلص منه بأن أشرب حتى أفقد الوعي وأغدو مخدَّراً تماماً. وبما أنني كنت محرر الصحيفة الطلابية التي نشرت قصة رئيسية تحدثت عن ترحيل الناس من فليكيرويا ومعها صورة ليهود ينقلون من الغيتو إلى معسكرات الاعتقال، فقد كان هنالك شيء متعلق بالتقاليد أيضاً، لأن أبي كان بدوره محرراً للصحيفة الطلابية في سنواته المدرسية الأخيرة. هذا يعني أنني مرغّت هذا التاريخ في التراب.

لكني لم أفكر في هذا الأمر لحظة واحدة. هذا ما يتضح تماماً من دفتر يومياتي التي كنت أكتبها في تلك الفترة. كان شعوري العارم بالسعادة الشيء الوحيد الذي حظيَ باهتمامي في تلك اليوميات. أما الآن، فقد أحرقت يومياتي كلها، وكل ما كتبته، ولم يكد يبق أثر من الشخص الذي كنته قبل أبلغ الخامسة والعشرين. الحقيقة أن تلك المرحلة لم تنتج شيئاً جيداً على الإطلاق.

صار الهواء أكثر برودة الآن. أحسست ببرودته لأن جسمي كان حاراً نتيجة العمل. أحاط بي ذلك الهواء البارد، وضغط على جلدي، وتدفق في فمي. أحاط

بالأشجار التي أمامي، وبالبيوت وبالسيارات، وبسفوح الجبال. ومن ذلك الهواء، مع استمرار انخفاض الحرارة، جاءت هذه الانهيارات الثابتة في السماء، التي لم نكن نراها... جاءت مندفعة صوبنا كأنها أمواج عاتية، متدفقة دائماً، منحدرة بطيئاً، مدوّمة سريعاً، داخلة هذه الرئات كلها وخارجة منها، مصطدمة بهذه الجدران والحواف كلها، غير مرئية دائماً، مختفية دائماً، حاضرة دائماً.

لكن أبي ما عاد يتنفس الآن! هذا ما حدث له؛ انقطعت الصلة بينه وبين الهواء. صار الهواء الآن يصطدم به كما يصطدم بأي جسم آخر، كما يصطدم بجذع شجرة مقطوع، أو صفيحة بترول، أو أريكة. ما عاد يعتدي على الهواء، لأن هذا تفعله عندما تتنفس... إنك تنتهكه... مرة بعد مرة، تنتهك الهواء وتنتهك العالم.

إنه راقد الآن في مكان ما من هذه المدينة.

استدرت ودخلت البيت. فتح أحدٌ نافذة على الجانب الآخر من الشارع فانسكبت منها موسيقى وأصوات مرتفعة.

استغرق تنظيف المرحاض الثاني الزمن نفسه رغم أنه أصغر مساحة وأقل اتساخاً. وعندما انتهيت أخذت مواد التنظيف والمماسح والقفازات والدلو، وصعدت إلى الطابق الأول. كان إنغفه وجدتي جالسَيْن إلى طاولة المطبخ. نظرت إلى الساعة الجدارية. إنها التاسعة والنصف مساء.

قالت جدتي: «لا بد أنك أنهيت التنظيف الآن!».

قلت: «صحيح. أنهيت عملي لهذا المساء».

نظرت إلى إنغفه: «هل تحدثت مع ماما اليوم؟».

هز رأسه وقال: «اتصلت بها البارحة».

«وعدتها بأن أتصل بها اليوم. لكن لا أظنني الآن أملك طاقة لفعل ذلك. لعل الوقت صار متأخراً بعض الشيء أيضاً».

قال إنغفه: «اتصل غداً».

«لكن يجب أن أتصل بتونجِه. سأتصل الآن».

ذهبت إلى غرفة المعيشة وأغلقت باب المطبخ من خلفي. جلست على الكرسي لحظة حتى أستجمع أفكاري. ثم طلبت رقم البيت. أجابت على الفور كأنها جالسة عند الهاتف، منتظرة. أعرف تلاوين صوتها كلها. كنت أستمع إلى هذه التلاوين الآن،

لا إلى الكلمات التي تقولها. سمعت فيها الدفء أولاً، والتعاطف، والشوق، ثم بدا صوتها كأنه ينكمش فيصير شيئاً صغيراً، كأنها تريد أن تدس نفسها في الهاتف لتصل إليّ. أما صوتي فكان مليئاً بالبعد، بالمسافة. اقتربتْ مني. كنت في حاجة إلى هذا. لكني لم أقترب منها. لم أستطع. حدثتها باختصار عما يحدث هنا، من غير المضي في ذكر التفاصيل. قلت لها فقط إن الوضع كان فظيعاً، وإنني كنت أبكي طيلة الوقت. ثم تحدثنا قليلاً عما تفعله هي، رغم تمنعها أول الأمر. ثم ناقشنا موعد سفرها إلينا. عدت إلى المطبخ بعد انتهاء المكالمة فوجدته خالياً. شربت كأساً من الماء. لقد عادت جدتي إلى مكانها أمام التلفزيون. مضيت إليها.

«هل تعرفين أين هو إنغفه؟».

قالت: «لا! أليس في المطبخ؟».

قلت: «لا».

لذعت منخري رائحة البول.

وقفت هناك غير عارف ما الذي يجب أن أفعله. كان تفسير ما حدث سهلاً... كان أبي يثمل إلى درجة تجعله يفقد السيطرة على وظائف جسده.

لكن... أين كانت هي؟ ما الذي كانت تفعله؟

أحسست برغبة في الذهاب إلى التلفزيون ورفس شاشته بقدمي.

قالت لي من غير مقدمات ومن غير أن تنظر صوبي: «أنت وإنغفه لا تشربان، أليس كذلك؟».

هززت رأسي نفياً.

«لا، لا نشرب. يحدث هذا في مناسبات قليلة. ونشرب قليلاً فقط. لم نعد نشرب كثيراً».

«لن تشربا الليلة إذن؟».

قلت: «لا، هل جننتِ؟ لن نشرب طبعاً... شيء غير معقول. غير معقول بالنسبة إلى إنغفه أيضاً».

قال إنغفه من خلفي: «ما الشيء غير المعقول بالنسبة إليَّ؟».

استدرت إليه. صَعد الدرجتين الفاصلتين بين غرفة المعيشة السفلى وغرفة المعيشة العليا.

«تسألني جدتي إن كنا نشرب».

قال إنغفه: «هذا يحدث من وقت لآخر. لكنه لا يحدث كثيراً. لديَّ طفلان صغيران الآن؛ تعرفين هذا!».

سألته جدتي: «هل صار لديك طفلان اثنان».

ابتسم إنغفه. وابتسمتُ أيضاً.

قال إنغفه: «نعم. عندي طفلان، إيلفا وتورجِه. لقد رأيت إيلفا، ألا تتذكرين؟ وسوف ترين تورجه في الجنازة؟».

انطفأ ألق الحياة الذي كان قد ظهر في وجه جدتي. نظرت إلى إنغفه.

قلت: «لقد كان يوماً طويلاً. ألم يحن وقت الذهاب إلى الفراش؟».

قال لي: «سأذهب إلى الخارج أولاً. هل تريد أن تأتي معي إلى الشرفة؟».

أومأت برأسي. مضى إنغفه إلى المطبخ.

سألت جدتي: «هل تسهرين إلى ساعة متأخرة عادة؟».

«ماذا؟».

قلت لها: «سوف ننام بعد قليل. وأنت، هل ستسهرين؟».

قالت: «لا. أوه، لا، سأذهب إلى النوم أيضاً».

رفعت رأسها ناظرة إليَّ.

«هل ستنامان في الأسفل، في غرفة نومنا القديمة؟ إنها خالية».

هززت رأسي نفياً وقوّست حاجبي بحركة اعتذار.

قلت: «نعتزم النوم في الأعلى، في العليّة. لقد وضعنا حقائبنا هناك».

قالت: «لا بأس! هذا جيد أيضاً».

قال إنغفه الذي كان واقفاً في غرفة المعيشة السفلية حاملاً في يده كأساً من البيرة: «هل أنت آتٍ؟».

عندما خرجت إلى الشرفة، كان إنغفه جالساً على المقعد الخشبي عند الطاولة القابلة للطيِّ.

قلت له: «أين وجدت هذا المقعد؟».

قال: «كان مخبّأً هنا، تحت الطاولة، أظن أنني أتذكر رؤيته من قبل، في وقت ما».

استندت إلى الدرابزين. كانت أضواء العبّارة «دانمارك» تلمع في البعيد. إنها في

طريق رحلتها عبر البحر. كانت المصابيح مضاءة في القوارب الصغيرة التي استطعت رؤيتها.

قلت: «علينا أن نحصل على واحدة من أدوات جز العشب الكهربائية... لا أعرف ماذا يسمونها. لن تكون آلة جز العشب العادية مفيدة هنا».

قال إنغفه ناظراً إليَّ: «سوف نعثر في الصفحات الصفراء على شركة لتأجير المعدات، يوم الإثنين. هل تحدثت مع تونجه؟».

أومأت برأسي.

قال: «أظن أن عددنا لن يكون كبيراً، نحن الاثنان، وغونار، وإيرلينغ، وآلف، وجدتنا. ستة عشر شخصاً بما في ذلك الأطفال».

«معك حق! لن تكون جنازة ضخمة».

وضع إنغفه كأسه واستند إلى الخلف في مقعده. وعالياً فوق الأشجار، كان خفاشٌ يدور طائراً في السماء الرمادية الظليلة.

سألني إنغفه: «هل فكرت كيف يجب أن نقوم بالأمر؟».

«تقصد الجنازة؟».

«نعم».

«لا... ليس في الحقيقة. لكني لست راغباً بالتأكيد في أي جنازة دنيوية بشعة».

«أنا موافق. في الكنيسة إذاً!»

«نعم، لا أرى أمامنا أي بدائل أخرى! لكنه لم يكن منتمياً إلى كنيسة النرويج».

«ألم يكن كذلك؟ أعرف أنه لم يكن مسيحياً مؤمناً، لكني لم أسمع أنه ترك الكنيسة».

«لقد ذكر هذا مرة. تركتُ الكنيسة يوم عيد ميلادي السادس عشر، وأخبرته بذلك خلال دعوة عشاء أقامها في إلفيغيت. غضب كثيراً، لكن أوني قالت إنه ترك الكنيسة أيضاً، وأن ليس من حقه أن يغضب، فقد فعلت مثله».

قال إنغفه: «لم تكن الاستعانة بالكنيسة لتعجبه. ما كان يريد أي صلة بها».

قلت معترضاً: «لكنه ميت الآن! ثم إني أحب هذا. لا أريد أن أكون مشاركاً في شعائر دفن مختلقة بائسة... مع قراءة أشعار أيضاً! أريد أن تكون جنازة لائقة. أريدها جنازة محترمة».

قال إنغفه: «أوافقك تماماً».

استدرت من جديد وعدت أنظر إلى المدينة. هدير خفيض متواصل في الخلفية يحجبه أحياناً صوت محرك سيارة مرتفع قادماً من ناحية الجسر على الأغلب حيث يسلي بعض الشباب أنفسهم بالمضي صعوداً وهبوطاً بسرعة كبيرة في هذا الوقت من الليل. يفعلون هذا أيضاً في الجزء المستقيم الطويل من الطريق على امتداد درونينغينز غيت.

قال إنغفه: «سأذهب لأنام». دخل غرفة المعيشة من غير أن يغلق الباب من خلفه. سحقت عقب سيجارتي على الأرض ولحقت به. وعندما أدركت جدتنا أننا ذاهبان إلى الفراش، أرغمت نفسها على الوقوف لتعثر لنا على بعض المفارش للسرير.

قال إنغفه: «سوف نتدبر أمرنا. لا مشكلة! اذهبي إلى النوم أنت أيضاً».

سألته: «هل أنت واثق من هذا؟» كانت واقفة عند المنبسط في أعلى السلم، منحنية الظهر، قصيرة.

قال إنغفه: «بالطبع! نستطيع أن نتدبر أمرنا».

قالت: «لا بأس إذن، تصبحان على خير». بدأت تهبط السلم بخطوات بطيئة من غير أي التفاتة إلى الخلف.

ارتجفت تحت وطأة حزني لمظهرها هذا.

لم يكن الماء متوفراً في الطابق العلوي. وهكذا أحضرنا فُرشاتي الأسنان من الأعلى ثم نظفنا أسناننا في مغسلة المطبخ فتناوبنا على الانحناء فوقها لغسل فمينا كأننا عدنا طفلين من جديد... كأننا عدنا طفلين في واحدة من عطلات الصيف.

مسحت معجون الأسنان عن شفتيَّ بكفّي، ثم مسحت يدي بفخذي. إنها الحادية عشرة إلّا ثلثاً. لم أذهب إلى النوم في وقت مبكر هكذا منذ سنين كثيرة. لكن يومنا كان طويلاً. كان الإرهاق يبعث في جسدي خدراً؛ وحل الصداع برأسي لكثرة بكائي. لكن هذا صار ذكرى بعيدة الآن. ربما صرت منيعاً. وربما أكون قد اعتدت الأمر.

بعد أن صعدنا إلى الأعلى، فتح إنغفه النافذة وثبتها بالزاوية الحديدية، ثم أضاء المصباح الصغير فوق رأس السرير. فعلت مثله من ناحيتي أنا. أطفأت مصباح السقف. كانت في الغرفة رائحة راكدة... ليست في الهواء بل من الأثاث والسجاد، لأن الغبار يتجمَّع هنا منذ سنتين، أو أكثر.

جلس إنغفه على حافة السرير المزدوج وبدأ يخلع ملابسه. فعلت مثله فجلست على ناحيتي من السرير وبدأت أخلع ملابسي. إن النوم في سرير واحد يفرض قرباً أكثر مما يجب. لم نفعل هذا منذ كنا صبيين، منذ كنا قريبين... منذ كنا متقاربين بطريقة مختلفة كثيراً. لكن، الآن، لكل منا لحاف خاص على الأقل!

سألني إنغفه وهو يستدير ناحيتي: «هل يفاجئك أن أبانا لم تسنح له فرصة لقراءة روايتك؟».

قلت: «لا! ... لم أفكر في هذا الأمر قبل الآن».

لقد أرسلت المخطوط إلى إنغفه عندما انتهيت منه. كان ذلك في بداية شهر يونيو. وكان أول ما قاله بعد قراءة الرواية هو أن أبي سيقاضيني. استخدم هذه الكلمات تماماً. كنت أكلمه من كشك الهاتف في المطار في طريقي إلى تركيا لقضاء العطلة هناك مع تونجه. لم أكن قد فكرت في احتمال أن يغضب مني أو أن يتخذ موقفاً مسانداً لأنني لم أكن قد فكرت أبداً في أن ما كتبته يمكن أن يكون له أي أثر على الأشخاص القريبين مني. قال لي إنغفه: «لا أعرف إن كان هذا جيداً أو سيئاً. لكن أبي سوف يقاضيك. إنني واثق من هذا».

تذكرت حديثنا في تلك اللحظة. قلت له: «لكن هنالك جملة في الكتاب تتكرر كثيراً... أبي ميت... هل تذكر هذه الجملة».

أزاح إنغفه اللحاف جانباً ورفع ساقيه إلى الفراش ثم تمدد. نهض من جديد وصحح وضع وسادته.

قال لي وهو يستلقي مجدداً: «لا أتذكرها بوضوح».

«ذلك عندما هرب هنريك. كان في حاجة إلى مبرر، ولم يخطر في باله غير هذا: أبي ميت»

قال إنغفه: «هذا صحيح».

خلعت بنطلوني وجواربي، وتمددت باحثاً عن وضع مريح. استلقيت على ظهري في البداية عاقداً كفيّ على بطني إلى أن فطنت إلى أنني مستلقٍ مثل جثة فانقلبت على جانبي مذعوراً ناظراً إلى كومة ملابسي على الأرض. لمت نفسي على هذه الفوضى فأنزلت قدمي إلى الأرض وطويت بنطلوني وقميصي، ثم وضعتهما على الكرسي المجاور. وضعت الجوارب فوقهما. أطفأ إنغفه المصباح الذي من ناحيته.

سألني: «هل ستقرأ قبل النوم؟».

قلت: «لا، أنا متعب»، ثم بحثت عن مفتاح المصباح. لم أجده حيث بحثت عنه. هل هو عند المصباح؟ نعم، ها هو.

ضغطت المفتاح بقوة لأنه كان قديماً متيبساً. لا بد أن هذين المصباحين موجودان هنا منذ الخمسينيات عندما انتقل جدي وجدتي إلى هذا البيت.

قال إنغفه: «تصبح على خير».

«تصبح على خير».

كم كنت سعيداً بوجوده معي! لو كنت وحدي لامتلأ رأسي بصور أبي بعد أن صار جثة هامدة. كنت سأفكر في الجانب المادي للموت... سأفكر في جسده وأصابعه وساقيه وعينيه غير المبصرتين وشعره وأظافره المستمرة في النمو. سأفكر في الغرفة التي يرقد فيها الآن... لعله راقد في ذلك الشيء الذي يشبه دُرجاً، الشيء الذي أراه في المشرحة في الأفلام الأميركية. أما الآن، فإن صوت تنفس إنغفه وحركات جسده الصغيرة الكثيرة كان لها تأثير مهدّئ. ما كان عليّ إلّا أن أغمض عيني وأسمح للنوم بأن يأتي.

استيقظت بعد ساعتين فرأيت إنغفه واقفاً في وسط الغرفة. راح ينظر من حوله أول الأمر، غير واثق، ثم أمسك باللحاف فطواه وحمله فعبر الغرفة وخرج من الباب ثم استدار وعاد من جديد. عندما أوشك أن يفعل ذلك مرة أخرى، قلت له: «أنت تسير في نومك يا إنغفه. استلقِ وعد إلى النوم».

نظر إليَّ وقال: «لست أمشي في نومي. يجب أن يعبر اللحاف عتبة الباب ثلاث مرات».

قلت: «لا بأس. إن كان هذا ما تقوله فلا بأس».

عبر عتبة الباب مرتين إضافيتين. ثم استلقى وفَرَد اللحاف فوقه. تقلَّب رأسه يميناً وشمالاً وهو يقول شيئاً غير مفهوم. إنها ليست أول مرة يسير في نومه. اشتهر إنغفه بفعل ذلك عندما كنا صبيَّيْن. وجدته أمي مرة في حوض الاستحمام. كان عارياً والماء يجري. وفي مرة أخرى، أمسكتْ به على الطريق خارج البيت متجهاً إلى منزل رولث ليسأله إن كان يحب أن يخرج للعب كرة القدم. كان من الممكن أن يرمي لحافه من النافذة فجأة ويستلقي على سريره متجمِّداً برداً بقية الليل من غير معرفة

السبب. كان أبي يمشي في نومه أيضاً. دخل غرفتي مرة عند منتصف الليل وهو في سرواله الداخلي فقط. فتح الخزانة وبال فيها ثم نظر إليَّ من غير أن يبدو في عينيه ما يشير إلى أنه يراني.

وكنت أحياناً أسمع أبي يسير في غرفة المعيشة ويحرك الأثاث. مضى لينام تحت طاولة غرفة المعيشة ذات مرة، واصطدم رأسه بها صدمة شديدة عندما جلس. كانت الصدمة شديدة إلى حد جعله ينزف. أما عندما لا يسير في نومه فقد كان يتكلم أو يصيح، أو يصر على أسنانه بقوة. كانت أمي تقول إن حالها تشبه حال زوجة بحار. أما أنا، فقد تبولت في الخزانة ذات ليلة. وفيما عدا ذلك، لم تتجاوز نشاطاتي الليلة الكلام خلال نومي إلى أن بلغت سن المراهقة حيث صرت أفعل أشياء كثيرة في بعض الفترات. عندما كنت أبيع الكاسيتات في شوارع آريندال وأعيش في غرفة إنغفه، أخذت محفظة أقلامه وسرت في الحديقة عارياً أتوقف أمام كل نافذة وأنظر منها إلى الداخل إلى أن أفلح إنغفه في اللحاق بي. أنكرت أنني أسير في نومي. وكان برهاني أنني كنت أحمل محفظة الأقلام. قلت له: «انظر إلي. ها هي محفظتي. إنني ذاهب للتسوق». كثيرة هي المرات التي وقفت فيها عند النافذة أنظر إلى الأرض تختفي أو ترتفع، وأنظر إلى الجدران تسقط أو المياه تندفع صاعدة! وقفت مرة ممسكاً بالجدار، ورحت أصبح بتونجه قائلاً لها إن علينا أن نهرب قبل أن ينهار البيت فوقنا. وفي مرات أخرى، تخيلتُ أنها موجودة في خزانة الملابس، ورميت الملابس كلها وأفرغت الخزانة باحثاً عنها. عندما يكون عليَّ أن أمضي الليل مع أي شخص غيرها فإنني أحذّر ذلك الشخص مسبقاً... تحسّباً لحدوث أي شيء. سافرت منذ سنتين مع صديقي توريه الذي كان قد استأجر ما يدعونه «شقة كاتب» في بيت ريفي كبير في ضواحي كريستيانساند حتى يكتب هناك مسرحية. لقد أنقذتْ تدابيري الاحتياطية الموقف في ذلك اليوم: كان سريرانا في غرفة واحدة. نهضت في منتصف الليل، ومضيت إليه فانتزعت بطانيته من فوقه، ثم أمسكت بكاحليه وقلت له عندما استيقظ ونظر إليَّ مذعوراً: «أنت مجرد دمية». لكن الحالة التي تأتيني أكثر من أي شيء آخر هي تخيل أن ثعلباً قد زحف فدخل تحت لحافي. أرمي اللحاف إلى الأرض وأدوس عليه بعنف حتى أصبح مقتنعاً بأن ذلك الحيوان قد مات. من الممكن أن تمر سنة كاملة من غير حدوث شيء. ثم تأتيني فترات لا تكاد تخلو ليلة فيها من سير خلال النوم. أستيقظ فأجد نفسي في عليّة

البيت، أو في الممر، أو في الحديقة؛ وأكون دائماً منشغلاً بفعل شيء ما يبدو لي في غاية الأهمية، لكنني أستيقظ فأجد ذلك الشيء من غير معنى على الإطلاق.

أغرب ما في حياة إنغفه الليلية هو سماعه، بعض الأحيان، يتكلم بلهجة شرق النرويج في نومه. انتقلت الأسرة من أوسلو عندما كان في الرابعة، ولم يتكلم بتلك اللهجة أكثر من ثلاثين عاماً بعد ذلك. لكن من الممكن أن تنطقها شفتاه عندما يكون نائماً. كان في هذا شيء مخيف.

رحت أنظر إليه. كان مستلقياً على ظهره. وقد خرجت إحدى ساقيه من تحت اللحاف. كان يقال لنا دائماً إننا متشابهان تماماً؛ لكن لا بد أن هذا كان انطباعاً إجمالياً... كأنه هالة تحيط بكل منا... لأن التشابه بيننا كان محدوداً تماماً إذا نظر المرء إلى تفاصيل ملامحنا. لعل التماثل الوحيد موجود في العينين: ورثنا عيوننا عن أمنا. لكني انتقلت إلى بيرغن وصرت ألتقي بعض معارف إنغفه، فكان هؤلاء يسألونني أحياناً: «هل أنت إنغفِه؟» كان واضحاً من صيغة ذلك السؤال أنهم لا يظنونني إنغفه: لو ظنوا أنني إنغفه فلن يسألوا شيئاً! كانوا يطرحون هذا السؤال لأنهم يجدون تشابهاً شديداً بيننا.

أزاح رأسه حتى حافة الوسادة كأنه أحس بأن هنالك من يراقبه. فأغمضت عيني. لقد قال لي ذات مرة إن والدنا قد حطم تقديره لذاته عدة مرات وأذلّه مثلما لا يستطيع أحد غير أبينا أن يفعل، وإن ذلك لوَّن فترات من حياته بإحساسه أنه غير قادر على فعل شيء وأنه عديم القديمة. ثم جاءت فترات أخرى مضى كل شيء فيها على ما يرام ولم تكن فيها مضايقات ولا شكوك مزعجة. أما من الخارج، فما كان المرء يرى غير تلك المضايقات، وغير تلك الشكوك.

بطبيعة الحال، كان لأبي أيضاً تأثير سلبي على صورتي عن نفسي، لكني أظن أن ذلك حدث بطريقة مختلفة. على الأقل، لم تكن عندي فترات من الشك تعقبها فترات من الثقة بالنفس؛ كان كل شيء مختلطاً عندي. وكانت الشكوك التي تصبغ جزءاً كبيراً من تفكيري غير منطبقة على الصورة الكبيرة بل على صورة صغيرة دائماً، على الصورة المرتبطة دائماً بمحيطي المباشر: أصدقائي ومعارفي وفتياتي الذين كانوا يحملون عني صورة سيئة على الدوام، هذا ما كنت مقتنعاً به... يعتبرونني غبياً أحمق. كان هذا يحز في نفسي، كان يحز في نفسي كل يوم! أما فيما يتعلق بالصورة الكبيرة فإنني لم أحمل

في أي يوم من الأيام شكاً في أنني قادر على نيل ما أريد. كنت أعرف أنني أملك هذه القدرة في داخلي، لأن تطلعاتي كبيرة دائماً، ولأن تلك التطلعات لم تهدأ أبداً. كيف يمكن أن تهدأ؟ كيف أستطيع من غيرها أن أحطم كل شيء؟

عندما استيقظت في المرة الثانية، رأيت إنغفه أمام المرآة يزرِّر قميصه.

قلت له: «كم الساعة؟».

«السادسة والنصف. هل هذا وقت مبكر بالنسبة إليك؟».

«نعم. يمكنك أن تقول هذا».

كان قد ارتدى بنطلوناً قصيراً كاكي اللون من ذلك النوع الذي يصل حتى ما تحت الركبتين؛ وفوقه قميص رمادي مخطط.

قال لي: «سأنزل الآن. هل أنت آتٍ؟».

قلت: «نعم».

«ألن تعود إلى النوم؟».

«لا».

عندما ابتعد وقْع خطاه، أنزلت قدميَّ على الأرض والتقطت ملابسي عن الكرسي. نظرت إلى بطني منزعجاً لأنني رأيت طيتين من الدهن بارزتين على الجانبين. شددت جذعي فاختفت الطيَّتان، لحسن الحظ. رغم ذلك، سوف أبدأ الجري عندما أعود إلى بيرغن. وسوف أؤدي تمرينات شد البطن كل صباح.

حملت قميصي إلى أنفي وشممته.

هممم... لعله لم يعد صالحاً ليوم آخر.

فتحت الحقيبة وأخرجت قميصاً آخر يحمل شعار فرقة «بو رادليز» اشتريته عندما قدموا عرضاً في بيرغن منذ سنتين. أخرجت معه بنطلوناً قصيراً من الجينز الأزرق. قد لا يكون الجو مشمساً في الخارج، لكن الهواء دافئ هنا، والبيت مغلق.

نزلت فوجدت أن إنغفه قد وضع القهوة على النار. وضع أيضاً على الطاولة خبزاً وشرائح لحم مقطّعة، وأشياء أخرى من البراد. كانت جدتي جالسة إلى الطاولة في فستان الأمس نفسه. كانت تدخن. كنت جائعاً فأكلت، ثم شربت فنجان القهوة ودخنت سيجارة على الشرفة قبل أن أجمع أدواتي لأبدأ العمل في الطابق السفلي: الدلو، والمماسح، ومواد التنظيف. مضيت إلى الحمام أول الأمر لأتفقد عمل الأمس.

بمعزل عن ستارة الدوش المبقّعة التي قررت عدم رميها، لسبب ما، بدا كل شيء جيداً... قديماً، متداعياً بالطبع، لكنه نظيف.

نزعت القضيب المعدني الممتد فوق حوض الاستحمام من الجدار إلى الجدار. نزعت الستارة عنه ورميتها في كيس القمامة، ثم غسلت القضيب والحلقتين اللتين تثبّتانه إلى الجدار. أعدت القضيب إلى مكانه. كان السؤال الآن: ماذا بعد هذا؟ لقد انتهيت من غرفة الغسيل والحمامين. لدي في هذا الطابق غرفة جدتي، والصالة، والممر، وغرفة أبي، وغرفة النوم الكبيرة. لن أمسّ غرفة جدتي الآن، لأن ذلك سيبدو نوعاً من الاعتداء: سيكون واضحاً لها أننا نرى بؤس حالتها، إضافة إلى أن هذا سيسلبها استقلاليتها... حفيدٌ ينظف غرفة جدته! لم أستطع حمل نفسي على البدء بغرفة أبي هي الأخرى، وذلك أيضاً لأن فيها أوراقاً وأشياء كثيرة علينا أن ننظر فيها أولاً. كما أن على الممر وسجادته الممتدة من الجدار إلى الجدار أن ينتظرا إلى أن نجد شركة لتنظيف السجاد. إذن، عليَّ أن أبدأ تنظيف السلم.

ملأت الدلو بالماء وأخذت زجاجة كلوريكس وزجاجة من الصابون الأخضر، وكذلك عبوة جيف المزيل للبقع، ثم بدأت بدرابزين السلم الذي يمكن أن يكون قد مر عليه خمس سنوات كاملة من غير تنظيف. كانت بين قضبانه أنواع كثيرة من الأوساخ: أوراق أشجار متحللة، وحشرات جافة، وحجارة صغيرة، وشباك عنكبوت قديمة. وكانت الأعمدة نفسها قاتمة اللون، بل تكاد تكون سوداء تماماً في بعض الأماكن، كانت دبقة هنا وهناك أيضاً. رششت مادة التنظيف عليها، ثم عصرت الممسحة وبدأت أفرك القضبان سنتيمتراً بعد سنتيمتر. وبعد أن صار قسم من الدرابزين نظيفاً واستعاد شيئاً من لونه الذهبي الداكن القديم، أشبعت خرقة أخرى بالكلوريكس وتابعت الفرك. حملتني رائحة الكلوريكس ورؤية الزجاجة الزرقاء إلى سنوات السبعينيات، ولأكون أكثر تحديداً عليَّ القول إنها أعادتني إلى الخزانة تحت المجلى في المطبخ حيث كانت توضع مواد التنظيف. لم تكن عبوات جيف موجودة في ذلك الوقت، لكن كان لدينا مسحوق التنظيف أجاكس في تلك الخزانة: عبوة حمراء بيضاء زرقاء. كان لدينا صابون أخضر أيضاً. وكان هنالك كلوريكس. لم يتغير منذ ذلك الوقت هذا التصميم لزجاجة الكلوريكس البلاستيكية الزرقاء ذات الرأس المشقوق المصمم لحماية الأطفال. كان هنالك أيضاً نوع من المنظفات اسمه أومو! وكان في الخزانة عبوة من مسحوق الغسيل

عليها صورة طفل يحمل عبوة مماثلة. وعلى تلك العبوة، بالطبع، كانت هنالك صورة الطفل نفسه يحمل العبوة نفسها، وهكذا دواليك، وهكذا دواليك. هل كان اسم ذلك المسحوق بليندا؟ كائناً ما كان اسمه، فقد كان عقلي ينشغل بذلك التكرار للصورة التي تغدو أصغر فأصغر التي لا نهاية لها من حيث المبدأ... كأنها موجودة في مكان آخر مثلما يرى المرء صورته في مرآة الحمام عندما يحمل مرآة أخرى خلف رأسه فتنعكس الصور على المرآتين جيئة وذهاباً، بينما تبتعد وتبتعد في الخلفية وتصبح أصغر فأصغر إلى آخر ما تستطيع العين رؤيته. لكن، ماذا يحدث بعد آخر ما تستطيع العين رؤيته؟ هل تتابع الصور تضاؤلها هذا في مكان لا نراه؟

هنالك عالم كامل ممتد بين العلامات التجارية في ذلك الوقت والعلامات التجارية الآن. عندما كنت أفكر في ذلك، في أصوات الماضي وفي طعومه وروائحه التي تظهر لي الآن من جديد، أصير غير قادر على مقاومتها مثلما يفعل بك كل شيء فقدته، كل شيء مضى. رائحة العشب القصير المروي حديثاً عندما تكون جالساً في ملعب كرة القدم ظهيرة يوم صيفي بعد التدريب، والظلال الطويلة لأشجار ساكنة، وزعيقٌ وضحكات أطفال يسبحون في البحيرة إلى الناحية الأخرى من الطريق، والطعم الحاد الحلو لمشروب الطاقة. أو طعم الملح الذي يدخل فمك عندما تغوص في البحر حتى إذا ضغطت على شفتيك عندما يمضي رأسك تحت سطح الماء وتصير في فوضى التيارات والمياه المندفعة في الأسفل، وفي وسط الضوء المتراقص على الأعشاب البحرية وسطوح الصخور العارية وتجمعات القواقع البحرية وحقول من أسماك قشرية صغيرة تبدو كلها كأنها تشع ألقاً لطيفاً ساكناً لأنه يوم صافٍ في أواسط الصيف ولأن أشعة الشمس تنسكب في السماء الزرقاء العالية وفي البحر. يتدفق الماء منصبّاً عن جسدك عندما ترتفع من جديد مستعيناً بفجوات في الحافة الصخرية، وتظل قطرات من الماء على كتفيك بضع ثوان إلى أن تتبخر في حرارة الشمس، ويظل الماء زمناً طويلاً يقطر من ثوب السباحة بعد أن تلف نفسك بمنشفة كبيرة. ينطلق زورق سريع قافزاً فوق الأمواج متعثراً في مسار مضطرب، وتشرئب مقدمته إلى الأعلى فتسمع صوت اصطفاق الأمواج عليه مختلطاً بهدير المحرك... تحس ذلك كله شيئاً غير واقعي لأن ما يحيط بك متسع كثيراً ومفتوح إلى حد يجعل حضور القارب فيه غير قادر على إحداث أي تأثير.

لا يزال هذا كله موجوداً. لا تزال الصخور المستوية الملساء على حالها تماماً، ولا يزال البحر يضربها بالطريقة نفسها. وكذلك المنظر الذي تحت الماء بوديانه وخلجانه الصغيرة وشقوقه ومنحدراته الحادة التي تتناثر عليها الأسماك النجمية وقنافذ البحر لا تزال على حالها... والسرطانات والأسماك لا تزال كما هي. لا تزال قادراً على شراء مضارب تنس ماركة سلازنجر، وكرات تريتورن، وزلاجات روسيغنول، ورباطات تيروليا، وأحذية كوفلاتش. لا تزال البيوت قائمة حيث كنا نعيش، البيوت كلها. الفارق الوحيد، الذي هو الفارق بين الواقع في عين الطفل والواقع في عين الكبير، هو أن هذه الأشياء كلها ما عادت تحمل معنى الآن. صار زوج من أحذية لوكوك لكرة القدم مجرد زوج من أحذية كرة القدم. وإذا كنت أحس بأي شيء الآن عندما أحمل هذا الحذاء بين يدي الآن فهو ليس أكثر من شيء باقٍ من طفولتي... لا شيء آخر، لا شيء في نفسه! الأمر نفسه فيما يتعلق بالبحر. نفسه فيما يتعلق بالصخور. نفسه فيما يتعلق بطعم الملح الذي كان يملأ أيام صيفك حتى الإشباع فصار الآن ملحاً فحسب... انتهت الحكاية! لا يزال العالم نفسه، لكنه ليس نفسه لأن معناه قد زال، ولأنه لا يزال يُزال... لأنه يقارب انعدام المعنى أكثر فأكثر.

عصرت الممسحة وعلقتها على حافة الدلو ورحت أنظر إلى ثمار عملي. عادت لمعة الطلاء إلى حالها رغم أنها لا تزال تحمل بقعاً متناثرة من الأوساخ التي لم أستطع إزالتها كأنها محفورة في الخشب. أظن أنني أنجزت نحو ثلث الدرابزين الخشبي. لكنه هذا ليس إلّا ثلث المسافة حتى الطابق الأول. وبعد ذلك تأتي التتمَّة حتى الطابق الثاني أيضاً.

سمعت وقْع أقدام إنغفه في الممر، في الأعلى.

ظهر حاملاً دلواً في يده ولفافة أكياس القمامة تحت ذراعه.

سألني عندما رآني: «هل أنهيت الطابق الأول؟».

«لا، لم أنهه. هل جننت؟ لم أنجز إلّا الحمامين وغرفة الغسيل. كنت أفكر في الانتظار قبل تنظيف ما تبقى».

قال لي: «سوف أبدأ تنظيف غرفة أبي الآن. أظن أنها أصعب غرفة».

«هل انتهيت من المطبخ؟».

«نعم انتهيت. فعلت ما يمكن فعله. لا يزال عليَّ تنظيف خزانتين فيه؛ وما عدا ذلك يبدو وضْعه جيداً الآن».

قلت: «لا بأس. سوف أستريح قليلاً. وسآكل شيئاً. هل جدتي في المطبخ؟».

هز رأسه وتجاوزني ماضياً. مسحت يديّ اللتين صارتا ناعمتين مجعدتين بفعل الماء، مسحتهما ببنطلوني وألقيت نظرة أخيرة إلى الدرابزين ثم صعدت إلى المطبخ.

كانت جدتي جالسة في كرسيها ساهمة. لم ترفع رأسها لتنظر إليَّ عندما دخلت. تذكرت الأدوية المهدئة. هل تناولتْ الدواء؟ أظنها لم تتناوله.

فتحت الخزانة وأخرجت علبة الدواء.

قلت لها وأنا أحمل العلبة في يدي: «هل تناولتِ هذا اليوم؟».

قالت: «ماذا هذا؟ هل هو دواء؟».

«نعم، إنها الأقراص التي أخذتها بالأمس».

«لا، لم أتناول شيئاً منها اليوم».

أخرجت كأساً من الخزانة وملأتها بالماء، ثم قدمتها إليها مع قرص من الدواء. وضعت القرص على لسانها وابتلعته. لم تبْدِ رغبة في قول أي شيء بعد ذلك. وحتى لا يجبرني الصمت على الكلام، تناولت تفاحتين بدلاً من الشطائر التي كنت أعتزم أكلها وشربت كأساً من الماء وفنجاناً من القهوة. كان الطقس لطيفاً، رمادياً مثل الأمس. هب نسيم خفيف من جهة البحر، وكانت النوارس تزعق في الهواء فوق الميناء. سمعت أصواتاً معدنية آتية من مكان قريب. جاء هدير شوارع المدينة المتواصل صاعداً من الأسفل. ظهر ذراع رافعة طويل مرتفع متحركاً فوق الأسطح على مسافة قريبة من الرصيف. كانت رافعة صفراء لها غرفة قيادة بيضاء... لا أعرف الاسم الذي يطلقونه على تلك الغرفة التي يجلس فيها السائق. غريب أنني لم أر هذه الرافعة من قبل! يعجبني منظر الرافعات كثيراً، وتعجبني بنيتها التي تشبه هيكلاً عظمياً، وتلك الحبال الفولاذية المتدلية من الذراع الممتدة، والخطّاف الضخم، وكيف تتدلى تلك الأجسام الثقيلة عندما تسبح ببطء منتقلة في بحر الهواء... يعجبني منظر السماء التي تصير كأنها خلفية لهذا المنظر الميكانيكي.

أنهيت تناول تفاحة واحدة، بلبّها وبذورها وكل ما فيها، وكنت على وشك غرْس أسناني في التفاحة الثانية عندما رأيت إنغفه يسير في الحديقة. كان في يده مغلَّف كبير.

قال وهو يناولني المغلف: «انظر إلى ما وجدت».

فتحت المغلف. كان محشواً بأوراق نقدية من فئة ألف كرون.

قال لي: «إن فيه ما يقارب مائتي ألف».

قلت مستغرباً: «واو! أين كان؟».

«كان تحت السرير. لا بد أنه المال الذي حصل عليه من بيع البيت في إيلفيغيت».

قلت: «أوه، اللعنة! هذا كل ما بقي إذاً؟»

«أظن هذا. لم يضع المال في المصرف. اكتفى بوضعه تحت سريره. ثم راح ينفقه على الشراب، ألفاً بعد ألف».

قلت: «لست أبالي بالمال. كانت الحياة التي عاشها هنا في غاية السوء».

قال إنغفه: «يمكنك أن تقول هذا».

جلس. أما أنا فوضعت المغلف على الطاولة.

سألني: «ماذا نفعل بالمال؟».

قلت: «لا فكرة عندي. أظن أننا سنقتسمه!».

قال: «سألتك لإنني أفكر في ضريبة الإرث، وهذه الأشياء».

رفعت كتفي وقلت: «نستطيع أن نسأل أحداً ما. يمكن أن نسأل جون أولاف على سبيل المثال. إنه محامٍ».

تناهى إلينا صوت محرك سيارة قادماً من الشارع الضيق تحت البيت. صحيح أننا ما كنا قادرين على رؤية السيارة، لكني عرفت أنها آتية إلينا من طريقة توقفها وتراجعها ثم تقدمها من جديد.

سألته: «من يمكن أن يكون هذا؟».

نهض إنغفه وتناول المغلف عن الطاولة.

سألني: «من منا سيكون مسؤولاً عن المال الآن؟».

قلت: «إنه أنت».

قال: «على أية حال، إن النفقات المتعلقة بالجنازة قد حلت الآن». تحرك فتجاوزني. تبعته إلى الداخل. سمعنا أصواتاً آتية من المدخل، في الأسفل. إنهما غونار وتوفِه. كنا واقفين بين بابي الصالة والمطبخ. عندما صعدا السلم، كان شكلنا كأننا فوجئنا ونحن نفعل شيئاً خاطئاً... كأننا لا نزال أطفالاً. كان المغلَّف في يد إنغفه.

كانت توفه ملوَّحة بالشمس، متحفظة، مثل غونار.

قالت مبتسمة: «مرحباً أنتم!».

قلت: «مرحباً توفه! لم نرك منذ زمن طويل».

أجابتني: «نعم، هذا صحيح. من المؤسف أننا نلتقي الآن في ظل هذه الظروف».

قلت: «هذا صحيح للأسف».

كم يمكن أن يكونا قد بلغا من العمر؟ أواخر الأربعينيات؟

نهضت جدتي وجاءت من المطبخ. قالت: «هذان أنتما إذن!»

قال غونار: «اجلسي يا أمي. لقد فكرنا في أن نأتي لنساعد إنغفه وكارل أوفه قليلاً».

غمز صوْبنا بعينه.

تساءلت جدتي: «أليس لديكما وقت لفنجان من القهوة؟».

أجابها غونار: «لا نريد قهوة. سوف نذهب بعد قليل. إن الأولاد وحدهم في الشاليه الجبلي».

قالت جدتي: «لا بأس».

مد غونار رأسه عبر باب المطبخ وقال: «لقد أنجزتما الكثيرة. هذا شيء ممتاز!»

قلت له: «إننا نفكر في إقامة لقاء ما بعد الجنازة هنا».

نظر إليَّ وقال: «لن تستطيعا إنجاز الترتيب اللازم لهذا».

قلت: «بل نستطيع. إن لدينا خمسة أيام. سوف يكون كل شيء على ما يرام».

أشاح بوجهه. ربما فعل ذلك لأنه رأى الدموع في عينَيّ.

قال: «لا بأس، إنه قراركما. إن كنتما تظنان أن الأمر مناسب هكذا، فهكذا سيكون. لكن علينا أن نستعجل».

استدار ودخل غرفة المعيشة فتبعته.

«من الأفضل أن تتخلصا من كل ما هو غير صالح للاستخدام. لا معنى للاحتفاظ بأي شيء هنا. هاتان الأريكتان، ما وضعهما؟».

أجبته: «واحدة منهما لا بأس بها. نستطيع أن نغسلها. أما الأخرى، فأظن...».

قال: «سنأخذها إذاً».

وقف أمام أريكة الجلد السوداء الكبيرة التي تتسع لجلوس ثلاثة أشخاص. ذهبت إلى نهايتها الأخرى، ثم انحنيت وأمسكت بها.

قال غونار: «نستطيع حملها عبر باب الشرفة، ثم إلى الحديقة. هل يمكنكِ فتح الباب يا توفه؟».

كانت جدتي واقفة بباب الغرفة عندما حملنا الأريكة عبر غرفة المعيشة.

صاحت تقول: «ماذا تفعلون بأريكتي؟».

قال غونار: «إننا نرميها».

قالت: «هل جننتما؟ لماذا ترمون الأريكة خارجاً؟ لا تستطيعون أن ترموا أريكتي هكذا».

قال غونار: «إنها تالفة».

قالت له: «هذا ليس من شأنك! إنها أريكتي!».

توقفت. نظر غونار إليَّ.

قال لها: «علينا أن نتخلص منها، ألا تفهمين هذا! هيا يا كارل أوفه! فلنخرجها!».

تقدمت جدتي منا وقالت: «لا تستطيعان فعل هذا! البيت بيتي أنا».

قال غونار معترضاً: «أوه، بل نستطيع».

كنا قد بلغنا الدرجتين الهابطتين إلى غرفة المعيشة. مررت بجدتي من غير أن أنظر إليها. كانت واقفة إلى جانب البيانو. أحسست بإرادتها الحديدية. لم يلاحظ غونار شيئاً. أو لعله لاحظ؟ هل يقاوم تلك الإرادة أيضاً؟ إنها أمه!

نزل غونار الدرجتين الفاصلتين بين الغرفتين وهو يسير إلى الخلف، ثم تحرك عبر الغرفة ببطء.

صاحت جدتي: «هذا ليس صحيحاً!». لقد تغيرتْ خلال الدقائق الأخيرة، تغيرت تماماً. صارت عيناها تقذفان شرراً. أما جسدها الذي كان منسحباً، منغلقاً على نفسه، فقد انفتح الآن. وقفت واضعة يديها على ردفيها، وقفت مزمجرة.

ثم استدارت قائلة: «لا، لا أريد أن أرى هذا». عادت إلى المطبخ.

ابتسم لي غونار. نزلتُ الدرجتين، ثم سرت بشكل جانبي حتى بلغت الباب. كان تيار هواء يدخل منه، أحسست به على الجلد العاري في ساقي وذراعي ووجهي. كان الهواء يلعب بالستارة.

سألني غونار: «هل أنت على ما يرام؟».

أجبته: «أظن هذا».

وضعنا الأريكة في الشرفة واسترحنا بضع ثوان قبل أن نحملها المسافة الباقية وننزل درجات الشرفة فنعبر الحديقة في اتجاه المقطورة عند باب المرآب. وضعناها على المقطورة فظل أحد طرفيها بارزاً مسافة متر تقريباً. أتى غونار بحبل أزرق من سيارته وبدأ يربط الأريكة لتثبيتها. لم أجد ما أفعله فبقيتُ واقفاً أنظر إليه... قد يحتاج إلى مساعدة.

قال لي وهو يربط الأريكة: «لا تُعِرها اهتماماً. إنها لا تعرف مصلحتها الآن».

أجبته: «هذا صحيح».

«أظن أنكما صرتما الآن تعرفان الوضع هنا أكثر مني. هل هناك أشياء أخرى يجب التخلص منها؟»

«هنالك بعض الأشياء في هذه الغرفة. وفي غرفتها أيضاً. وفي غرفة المعيشة. لكنها كلها أشياء صغيرة. ليست مثل هذه الأريكة».

قال متسائلاً: «فراشها... ربما؟».

قلت: «نعم. وفراشه أيضاً. لكن، إذا تخلصنا من فراشها فعلينا أن نجد لها فراشاً آخر».

قال: «نستطيع أن نأخذ فراشاً من غرفة النوم القديمة».

قلت موافقاً: «نستطيع أن نفعل هذا».

«إذا راحت تتذمر، فلا تلقيا إليها بالاً. افعلا ما يجب فعله. هذا من أجلها».

قلت له: «حسن».

لفّ ما بقي من الحبل ثم ربطه بإحكام إلى المقطورة.

قال لي وهو ينصب قامته بعد أن انتهى: «لقد صارت ثابتة تماماً». نظر نحوي وأضاف: «بالمناسبة، هل ألقيتما نظرة على المرآب».

أجبته: «لا، هل يجب أن ننظر فيه؟»

«لقد وضع أشياءه كلها هناك. حمولة شاحنة تقريباً. عليكما أن تأخذا تلك الأشياء معكما. لكن، ألقيا نظرة عليها فمن المحتمل أن من الممكن رمي معظم تلك الأشياء».

قلت: «لا بأس».

«لم يبق في المقطورة متسع لأشياء كثيرة أخرى. لكننا سنأخذ الآن ما نستطيع أخذه بها ونذهب لتفريغها. عليكما أن تخرجا مزيداً من الأشياء ريثما نعود. نستطيع أن ننجز نقلة ثانية اليوم. أظن أن ذلك سيكون كافياً لكل شيء. وإذا بقي ما يجب التخلص منه، فأظن أنني قادر على المجيء مجدداً خلال الأسبوع».

أجبته: «شكراً لك».

قال: «ليس الأمر سهلاً عليكما... أفهم هذا».

عندما التقت أعيننا، نظر في عينيَّ بضع ثوانٍ قبل أن يدير وجهه. بدت عيناه في وجهه الذي لوَّحته الشمس صافيتين زرقاوين مثل عيني أبي تقريباً.

هنالك أشياء كثيرة لا يريد أن يعرفها. كل تلك المشاعر التي تعصف بي... مثلاً.

وضع يده على كتفي.

انكسر شيء في داخلي. بدأت أبكي.

قال: «أنتما شابان طيبان».

كان عليَّ أن أستدير مبتعداً. انحنيت وأخفيت وجهي بين يدي. ارتعد جسدي. ثم انتهى الأمر. وقفت ثم أخذت نفساً عميقاً.

«هل تعرف مكاناً لتأجير الآلات؟ أقصد... آلات تلميع الأرضية، والآلات الصناعية لجز العشب، وأشياء من هذا القبيل».

«هل تعتزمان تلميع الأرضية؟».

«لا، لا، لكنني أفكر في جز هذا العشب. لا تستطيع فعل ذلك بآلة جز العشب العادية».

«أليس هذا مبالغة في الطموح؟ أليس من الأفضل أن تركزا على داخل البيت؟».

«صحيح... قد يكون الأمر هكذا. لكن، إذا بقيَ معنا وقت...».

خفض رأسه وحك جمجمته بإصبعه.

«هنالك شركة تأجير للمعدات في غريم. لا بد أن لديهم أشياء مناسبة. لكن، انظر في الصفحات الصفراء أيضاً».

بدأتْ زاوية قاعدة البيت تلمع في الشمس. رفعت رأسي. كانت هنالك انفراجة في الغيوم. تألقت الشمس عبر تلك الثغرة. صعد غونار الدرجات ودخل البيت. لحقت به. كان اثنان من أكياس القمامة موضوعين عند باب الصالة خارج غرفة أبي.

كانا مليئين بالملابس وسقط المتاع. كان الكرسي الملوث إلى جانبهما. كان إنغفه واقفاً داخل الغرفة ينظر إلينا. كان في يديه قفازَان أصفرَان.

قال: «ربما علينا أن نرمي الفراش. هل بقي مكان؟».

قال غونار: «ليس في هذه النقلة. نستطيع أخذه في النقلة التالية».

قال إنغفه وهو يمسك بالمغلف الذي تركه على الرف الجداري يقدمه إلى غونار: «بالمناسبة، وجدنا هذا تحت سريره».

فتح غونار المغلف ونظر بداخله. قال: «كم هو المبلغ؟».

قال إنغفه: «نحو مائتي ألف».

قال: «حسن، إنه مالكما الآن. لكن، لا تنسيا أختكما عند القسمة».

قال إنغفه: «بالطبع، لن ننساها».

هل تذكرها حقاً؟

أنا لم أتذكرها!

قال غونار: «عند ذلك، عليكما أن تقرر إن كنتما تريدان التصريح عن المال أو لا».

عندما انطلق غونار بالمقطورة المليئة بعد ربع ساعة من ذلك، ظلت توفه في البيت لتقوم ببعض التنظيف. كانت أبواب البيت ونوافذه مفتوحة كلها. سمح هذا، مع حركة الهواء في الداخل وضوء الشمس الساقط على الأرض ورائحة المنظفات الطاغية في الطابق الأرضي على الأقل، بأن ينفتح البيت أخيراً ويصبح مكاناً يستطيع العالم أن يدخله... انتبهت إلى هذا في غمرة كآبتي العميقة... لاحظته وأحببته. تابعت عملي في تنظيف السلم بينما ظل إنغفه يعمل في غرفة أبي، وبدأت توفه تنظف غرفة المعيشة العلوية... حيث عُثر عليه. إطارات النوافذ، والألواح، والأفاريز، والأبواب، والرفوف. صعدتُ إلى المطبخ بعد قليل لتبديل ماء الدلو. نظرت جدتي إليَّ عندما أفرغت الماء منه، لكن عينيها كانتا خاليتين من التعبير، غير مهتمتين؛ سرعان ما عادتا إلى النظر إلى الطاولة أمامها. دَوّم الماء بطيئاً في المغسلة وهي تبتلعه؛ كان ماء عكراً رمادياً، بنياً. ذهب الماءِ ولم يبق إلّا بعض الرواسب... طبقة من الرمل والشعر وأجسام صغيرة متنوعة كامدة اللون ملتصقة بمعدن الحوض اللامع. فتحت الماء وجعلت التيار ينسكب على جوانب الدلو إلى أن أزلت عنه

الأوساخ كلها وملأته بماء نظيف حار. عندما دخلت غرفة المعيشة بعد ذلك، التفتت إليَّ توفه مبتسمة.

قالت: «يا إلهي... كيف يبدو هذا كله!».

توقفت وقلت: «الوضع في تحسُّن رغم كل شيء».

وضعتْ الممسحة التي في يدها على الرف ومرَّرت أصابعها في شعرها.

قالت: «لم تكن شديدة الاهتمام بالتنظيف في يوم من الأيام».

قلت متسائلاً: «ألم يكن البيت يبدو في حالة طيبة في ما مضى؟».

ابتسمت وهزت رأسها: «أوه، لا! قد يكون لدى الناس هذا الانطباع، لكن لا... هذا البيت قذر منذ عرفته. ليس في كل مكان طبعاً، بل في الزوايا، وتحت الأثاث، وتحت السجاد. أنت تفهم هذا... حيث لا يراه أحد».

«هل هذا صحيح؟».

«أوه، نعم. لم تكن جدتك ربة منزل حقيقية في يوم من الأيام».

«ربما لم تكن!».

«لكنها كانت تستحق ما هو أحسن من هذا. ظننا أنها يمكن أن تستمتع ببعض السنوات السعيدة بعد وفاة جدك. أتينا بمن يساعدها في البيت. تعرف هذا، وكانوا يهتمون بالبيت كله من أجلها».

أومأتُ برأسي وقلت: «سمعت عن هذا».

«كان ذلك مفيداً لنا نحن أيضاً. من قبل، كنا وحدنا من يساعدهما... في مختلف الأشياء. إنهما عجوزان منذ زمن بعيد، بالطبع. وبما أن أباك كان كما كان، ولأن إيرلينغ يعيش في تورندهيم، فقد وقع كل شيء على عاتقنا».

«أعرف هذا»... قلت هذا وأنا أرفف حاجبي وكفّيَّ بحركة تظهر تعاطفي معها إلى جانب عدم قدرتي على فعْل شيء بنفسي.

«والآن، رغم ذلك، فإن عليها أن تذهب إلى أحد بيوت العجزة لكي يعتنوا بها هناك. أمر مخيف أن يراها المرء في هذا الوضع».

قلت: «هذا صحيح».

ابتسمت لي من جديد: «كيف حال سيسيل؟».

«بخير! إنها تعيش في جولستر. وأظنها تحب ذلك المكان. وهي تعمل في مدرسة تمريض في فورده».

قالت توفه: «أبلغها سلامي وحبّي عندما تراها».

قلت مبتسماً: «سأفعل هذا». التقطت توفه الممسحة من جديد، أما أنا فعدت إلى حيث كنت أعمل على السلم، عند منتصفه تقريباً، ووضعت الدلو وعصرت الممسحة ثم عصرت خطّاً من جيف على الدرابزين.

ناداني إنغفه: «كارل أوفه!».

«ماذا؟».

«انزل! تعال هنا دقيقة».

كان واقفاً أمام المرآة الطويلة. وعلى المدفئة النفطية إلى جانبه كانت كومة كبيرة من الأوراق. كانت عيناه برّاقتين.

قال لي: «انظر إلى هذا». ثم ناولني مغلّفاً. كان المغلف موجهاً إلى إيلفا كناوسغارد في ستافانغر. وفي داخل المغلف، وجدت ورقة كتب عليها عزيزتي إيلفا. لكن الورقة كانت فارغة بعد هاتين الكلمتين.

سألته: «هل أراد أن يكتب إليها؟... من هنا؟».

قال إنغفه: «يبدو لي هذا. لا بد أن هذا كان في يوم عيد ميلادها، أو شيء من هذا القبيل. لكنه لم يواصل الكتابة بعد ذلك. انظر، لم يكن لديه عنواننا».

قلت: «لم أتخيل أنه كان منتبهاً لوجودها».

قال إنغفه: «لكنه كان منتبهاً. لا بد أنه كان يفكر فيها أيضاً».

قلت: «إنها حفيدته الأولى».

قال إنغفه: «صحيح. لكنه والدنا هذا الذي نتحدث عنه. قد لا يعني الأمر كله شيئاً».

قلت: «يا للبؤس! الأمر كله حزين جداً».

قال إنغفه: «وجدت شيئاً آخر. انظر إلى هذه!».

ناولني في هذه المرة رسالة مطبوعة تبدو رسمية المظهر. كانت خطاباً من الصندوق الحكوميْ للقروض التعليمية. كانت تقول إن قرضه الدراسي قد سُدّد بالكامل.

قال إنغفه: «انظر إلى التاريخ!»
كانت الرسالة مؤرخة في التاسع والعشرين من يونيو.
قلت: «قبل وفاته بأسبوعين». التقت نظراتنا. بدأنا نضحك.
قال ضاحكاً: «ها ها ها».
ضحكت بدوري: «ها ها... كم من الحرية! ها ها ها!».
«ها ها ها».

بعد أن غادرَنا غونار وتوفه بعد ساعة من ذلك، تغير جو البيت كله من جديد. عند بقائنا وحدنا مع جدتنا في البيت، بدت الغرف كأنها تنغلق حولنا مرة أخرى، تنغلق على ما حدث كأننا أضعف من أن نقدر على فتحها. أو... لعلنا كنا قريبين كثيراً إلى ما حدث، لعلنا كنا جزءاً منه أكثر من غونار وتوفه. انحسر تيار الحياة في البيت، وعاد كل شيء يبدو مثلما كان... التلفزيون، والكراسي، والأريكة، والباب الجرّار بين غرفتَيْ المعيشة، والبيانو الأسود، واللوحتان الباروكتان المعلقتَيْن على الجدار من فوقه... عادت الأشياء كلها ثقيلة، ساكنة، محملة بثقل الماضي. وفي الخارج، عادت السماء غائمة من جديد. صارت هذه السماء البيضاء الرمادية تمحو ألوان المشهد كله. مضى إنغفه في تقليب الأوراق، وعدت إلى تنظيف السلم. أما جدتنا فكانت جالسة في المطبخ، غارقة في كآبتها. وعندما ناهزتْ الساعة الرابعة، ذهب إنغفه بالسيارة ليشتري بعض الطعام للعشاء. أحسست بثقل البيت كله من حولي، ورجوت بحرارة ألا تنطلق جدتي في جولة من جولاتها وتأتي إليَّ فقد أحسست كما لو أن روحي (... أو ذلك الشيء الذي ترتسم عليه الانطباعات لدى الناس الآخرين في أحوال كهذه) أضعف وأكثر حساسية من أن تستطيع احتمال ما يفرضه حضورها الحزين الكئيب من توتُّر. لكن رجائي خاب، لأنني سمعت بعد برهة صوت انزلاق قوائم الكرسي في الأعلى. سرعان ما سمعت وقع خطواتها أيضاً. سمعتها تدخل غرفة المعيشة أولاً، ثم تأتي إلى السلم.

أمسكتْ بالدرابزين وشدت عليه بقوة كأنها موشكة على السقوط.
سألتني: «هل هذا أنت؟».
أجبتها: «نعم. لكني سأنتهي سريعاً».
«أين هو إنغفه؟».

أجبتها: «ذهب للتسوق».

قالت: «نعم، هذا صحيح، نعم». وقفت تنظر إلى يدي التي تقبض أصابعها على الممسحة وتتحرك جيئة وذهاباً فوق الدرابزين. ثم نظرت إلى وجهي، فالتقت نظراتنا. سرَت قشعريرة في ظهري. بدت كأنها تكرهني.

تنهَّدت جدتي. أزاحت خصلة الشعر التي تسقط فوق إحدى عينيها دائماً.

قالت: «أنت تعمل بجد. أنت تعمل بجد حقيقي».

قلت: «نـعم. لكننا بدأنا العمل، ومن الأفضل أن ننجزه، أليس كذلك؟».

سُمع صوت محرك سيارة في الخارج.

قلت: «ها هو. لقد عاد».

قالت متسائلة: «من هو؟ غونار؟».

قلت: «إنه إنغفه».

«لكن... أليس إنغفه هنا؟».

لم أجبها.

قالت: «أوه... هذا صحيح. لقد بدأت أدرك الأمر أيضاً. إنني أدرك الأمر!» ابتسمتُ وألقيت بالممسحة في ماء الدلو الفاتر ثم أمسكت بمقبض الدلو.

قلت لها: «من الأفضل أن نحضّر شيئاً من أجل العشاء».

أفرغتُ ماء الدلو في المطبخ وعصرت الممسحة بشدة ثم علقتها على حافة الدلو؛ أما جدتي فكانت جالسة في مكانها. أخذتُ منفضة السجائر عن الطاولة، وأزحت طرف الستارة جانباً ونظرت إلى الخارج. أفرغت طبق السجائر وعدت فأخذت الفناجين ووضعتها في المغسلة، ثم بللت منشفة المطبخ قليلاً ورششت الطاولة بمادة منظفة وبدأت أمسحها عندما دخل إنغفه حاملاً كيسَيْ تسوق. وضعهما وبدأ يخرج محتوياتهما. أخرج في البداية ما سوف نتناوله الآن. وضع تلك الأشياء على الطاولة: أربع شرائح سالمون في عبوة من النايلون مفرغة من الهواء، وكيس من البطاطس التي انتشرت على حباتها بقع داكنة من التراب، ورأس من القرنبيط، وكيس من الفاصولياء المجمدة. وبعد ذلك أخرج بقية المشتريات التي وضع قسماً منها في البراد، ووضع القسم الآخر في الخزانة المجاورة له. زجاجة سبرايت من سعة لتر ونصف اللتر، وزجاجة بيرة مثلها، وكيس برتقال، وعلبة حليب، وعلبة من عصير البرتقال، ورغيف

كبير من الخبز. شغّلت الموقد وأخذت المقلاة من الخزانة تحت طاولة المطبخ، ثم أتيت بالزبدة من البراد وقطعت منه شريحة كبيرة فوضعتها في المقلاة. وبعد ذلك ملأت قدراً صغيرة بالماء ووضعتها على الموقد، ثم فتحت كيس البطاطس فأفرغته في المغسلة وفتحت الماء وبدأت أغسل الحبات بينما راحت شريحة الزبدة تنزلق في المقلاة السوداء بحركة بطيئة. فاجأني من جديد كم كان وجود هذه المشتريات أمراً نظيفاً، أمراً منعشاً للقلب، لأنها زاهية الألوان... الأخضر والأبيض على كيس الفاصولياء المجمدة، والكتابة الحمراء وشعار الشركة الأحمر، أو الورق الأبيض الذي يغلف القسم الأكبر من الرغيف لكنه يترك نهايته الداكنة المدورة المحمَّصة خارجة منه قليلاً مثل حلزون يطل برأسه من قوقعته (هكذا بدا لي)، أو كوجه راهب ظاهر من تحت غطاء رأسه. لمسة اللون البرتقالي للثمرات الضاغطة على الكيس البلاستيكي الأبيض. كلها معاً، شكل مكوَّر مختف خلف شكل مكوّر آخر... تكاد تشبه نموذجاً للجزيئات يراه المرء في كتاب تعليمي. الرائحة التي يبثها البرتقال في الغرفة فور تقشيره تذكّرني دائماً بأبي. هكذا كانت رائحة الغرف التي يكون فيها: رائحة البرتقال ودخان السجائر. كنت أدخل مكتبي وأشم الهواء فيه فيغمرني إحساس طيب.

لكن لماذا؟ ما الذي كان «طيباً»؟

طوى إنغفه كيسَيْ التسوق الفارغين ووضعهما في الدرج السفلي. بدأت الزبدة تهسهس في المقلاة. كان الماء المندفع من الصنبور يصطدم بحبات البطاطس التي أغسلها تحته، ثم يجري على جوانب الحوض فيصير موزَّعاً ضعيفاً غير قادر على إزالة التراب المتساقط عن تلك الحبات. تشكلت طبقة من الطين حول المصرف إلى أن صارت حبات البطاطس نظيفة كلها وتحرر تيار الماء منها فجرف كل شيء في ثانية واحدة كاشفاً من جديد عن قاعدة الحوض المعدنية النظيفة اللامعة.

قالت جدتي من مكانها عند الطاولة: «همم».

مِحجرا عينيها العميقان، والبقعتان المظلمتان في عينيها اللامعتين، وعظامها الظاهرة في جسدها كله.

كان إنغفه واقفاً وسط المطبخ يشرب كأساً من الكولا.

سأل: «هل أستطيع أن أفعل شيئاً لمساعدتك؟».

وضع الكأس على الطاولة وتجشَّأ بهدوء.

قلت له: «لا، لا حاجة إلى ذلك».

«سأخرج لأمشي قليلاً».

نظرت نحوه وقلت: «اذهب!»

وضعت البطاطس في الماء الذي بدأ الغليان؛ فقاعات صغيرة تصعد من قعر القدر. بحثت عن الملح. كان على الرف فوق الموقد في مملحة فضية صغيرة على شكل سفينة من سفن الفايكينغ فيها ملاعق صغيرة كأنها مجاذيف. نثرت بعض الملح في الماء، ثم قطعت القرنبيط وملأت قدراً أخرى بالماء فوضعته فيها. فتحت كيس شرائح السالمون بالسكين وأخرجت الشرائح الأربع فملّحتُها ووضعتها في طبق.

قلت: «سنتناول سمك سالمون اليوم».

قالت جدتي: «أوه، نعم! لا بد أنه سيكون لذيذاً».

شعرُها في حاجة إلى غسل؛ وهي في حاجة إلى الاستحمام. يجب أن تغير ملابسها أيضاً. أكاد أموت رغبة في أن يحدث هذا. لكن، من الذي يستطيع القيام بهذا الأمر؟ الظاهر أنها لن تفعل شيئاً بمبادرة منها. لا نستطيع أن نقول لها هذا! لا مجال للتفكير في أن نقول لها شيئاً. ثم... ماذا لو أنها لا تريد؟ لا نستطيع إجبارها أيضاً!

علينا أن نطلب ذلك من توفه. على الأقل، لن يكون الأمر مهيناً كثيراً بالنسبة إليها إذا جاءت من واحدة من بنات جنسها، واحدة أقرب إلى جيلها.

وضعت شرائح السالمون في المقلاة وشغلت ساحبة الهواء. ابيضَّ لون الشرائح من الأسفل بعد لحظات قليلة، ثم تحول من اللون الوردي المحمر الداكن إلى وردي شاحب. رُحت أنظر إلى ذلك اللون الجديد يتخلل اللحم صعوداً. خففت الحرارة تحت البطاطس التي بدأت تغلي.

قالت جدتي: «أوووه».

نظرت إليها. رأيتها جالسة مثلما كانت تماماً. لعلها لم تنتبه إلى الآهة التي أفلتت من شفتيها.

لقد كان أول أبنائها.

ليس من المفترض أن يدفن الآباء أبناؤهم... لا يجوز هذا! ليس هذا ما يجب أن يحدث.

أما أنا... ماذا كان أبي بالنسبة لي؟

شخص أردته أن يموت!

ما سبب هذه الدموع كلها إذاً؟

فتحت كيس الفاصولياء المجمدة. كانت عليها طبقة من جَمَدٍ زغبي مُخضرّ قليلاً. بدأ القرنبيط يغلي أيضاً. خففت الحرارة تحته وألقيت نظرة على الساعة الجدارية. إنها الخامسة إلّا ثماني عشرة دقيقة. يصبح القرنبيط ناضجاً بعد أربع دقائق، أو ست دقائق. ولعل البطاطس في حاجة إلى ربع ساعة من الآن. كان عليَّ أن أقطعها أنصافاً. لا مشكلة في تقطيعها... هذه ليست وليمة نقيمها.

نظرت جدتي إليَّ.

قالت لي: «هل تشربان البيرة مع الوجبات؟» لقد جلب إنغفه زجاجة بيرة.

هل رأتها؟

هززتُ رأسي نفياً.

قلت لها: «يحدث هذا أحياناً. لكنه شيء نادر. نادر تماماً في الحقيقة».

قلبت شرائح السالمون. ظهرت على لحمها الشاحب بقع بنية مسودّة صغيرة، هنا وهناك. لكنها لم تحترق.

أفرغت بعض الفاصولياء في القدر وأضفت إليها الملح، ثم سكبت الماء الزائد. انحنت جدتي ونظرت من النافذة. رفعت المقلاة عن الموقد وخفضت حرارته، ثم انضممت إلى إنغفه في الشرفة. كان جالساً في الكرسي يحدِّق في البعيد.

قلت: «سيكون الطعام جاهزاً بعد لحظات. خمس دقائق».

قال: «جيد».

سألته: «البيرة التي اشتريتها، هل أتيت بها لنشربها مع الطعام؟».

أومأ برأسه والتفتَ صوبي: «لماذا تسأل؟».

قلت: «إنها جدتنا! سألتني إن كنا نشرب البيرة مع الوجبات. أظن أننا... ربما أن علينا أن نمتنع عن الشرب أمامها. كان في هذا البيت شُرب كثير. ليست في حاجة إلى رؤية المزيد حتى إذا كان ذلك كأساً واحدة مع الطعام. هل تدرك ما أعنيه؟».

«بالطبع. لكنك تبالغ كثيراً».

«ربما أكون مبالغاً. لكن هذه ليست تضحية كبيرة».

قال إنغفه: «لا، ليست تضحية كبيرة».

«هل أنت موافق إذاً؟».

«لا بأس!».

كان في صوته انزعاج لا تخطئه الأذن. لم أحب الذهاب وترك هذا الانزعاج معلقاً في الهواء. وفي الوقت نفسه، لم أستطع العثور على شيء أقوله لتطرية الموقف. وقفت متردداً بضع ثوانٍ وقد تدلت ذراعاي خائرتين واحتبس بكاءٌ في حلقي، ثم عدت إلى المطبخ فأعددت الطاولة وأفرغت الماء من قدر البطاطس، ثم تركتها قليلاً حتى تجف. نقلت شرائح السالمون إلى الطبق بالمعلقة الخشبية المسطحة، ثم قطعت القرنبيط إلى شرائح ووضعته في الطبق نفسه مع الفاصولياء. بحثت عن وعاء عميق قليلاً لأضع البطاطس فيه، ثم وضعت كل شيء على الطاولة. وردي، أخضر، أبيض، أخضر داكن، بني ذهبي. ملأت إبريق الماء وكنت أضعه على الطاولة مع ثلاث كؤوس عندما جاء إنغفه عائداً من الشرفة.

قال وهو يجلس: «يبدو منظراً شهياً. لكننا في حاجة إلى شوكات وسكاكين».

أحضرت أدوات الطعام من الدرج فوضعتها أمامهما، ثم جلست وبدأت أقشّر حبة بطاطس. أحرق جلدها الحار أصابعي.

قال إنغفه: «هل تقشرها؟ إنها بطاطس جديدة!».

قلت: «أنت على حق». تناولت حبة بطاطس أخرى بشوكتي فوضعتها بطبقي. تهشمتْ عندما ضغطت عليها بالسكين. وضع إنغفه قطعة سالمون في فمه. وكانت جدتي جالسة تقطع شريحتها إلى لقمات صغيرة. نهضت وأتيت بالزبدة من البراد، ثم وضعت قطعة صغيرة منه على البطاطس في طبقي. بقوة العادة، تنفّست من فمي عندما بدأت أمضغ أول لقمة من السالمون. بدا لي أن لإنغفه علاقة طبيعية أكثر مع لحم السمك، علاقة ناضجة. بل إنه صار يأكل أسماك لوتفيسك الآن!... تلك الأسماك التي كانت ذات يوم أسوأ شيء في العالم! أستطيع تخيله يقول: في الواقع، إنها لذيذة فعلاً مع شرائح اللحم وبقية الإضافات!... كان جالساً إلى جانبي يتناول طعامه صامتاً. وجبات أسماك لوتفيسك مع الأصدقاء... حسنٌ، لم يكن هذا عالمي المألوف. ليس لأنني لم أكن قادراً إجبار نفسي على أكل هذه الأسماك بل لأنني لم أكن أُدعى إلى هذا النوع من اللقاءات. لم لا؟... لا فكرة عندي! لكني ما عدت أبالي بهذا! إلّا أن زمناً مرّ

عليَّ كنت فيه أبالي حقاً... كانت أياماً أجد نفسي خلالها في الخارج، فأُعاني. أما الآن، فإنني في الخارج... فقط!

قلت لإنغفه: «قال لي غونار إن هنالك شركة لتأجير المعدات في غريم. هل نذهب إليها غداً بعد زيارة مكتب الدفن؟ من الأفضل أن ننجز هذا قبل أن تذهب. ما أقصده أن من الأفضل أن نذهب عندما تكون السيارة هنا».

قال إنغفه: «لا بأس».

جدتنا أيضاً تأكل الآن. ظهر على وجهها تعبير يوحي بحيوان قارض مدبب الفم. تأتيني نفحة من رائحة البول كلما تحركت. أوه، إن علينا أن نجعلها تستحم وترتدي ملابس نظيفة. علينا أن نجعلها تأكل... عصيدة وحليباً وخبزاً!

رفعت كأسي إلى شفتي وشربت. كان للماء البارد مذاق معدنيّ خفيف. قعقعت سكين إنغفه عندما اصطدمت بصحنه. جاء أزيز نحلة أو دبور من خلف النافذة نصف المفتوحة، تنهدت جدتي. تحرك جسدها ملتوياً في الكرسي كأن الفكرة التي جاءتها فجعلتها تتنهد لم تكتفِ بعبور ذهنها... مرت في جسدها أيضاً.

في هذا البيت، كانوا يأكلون لحم الأسماك حتى في ليلة الميلاد. كان هذا يبدو لي أمراً فظيعاً عندما كنت صغيراً. لحم الأسماك ليلة عيد الميلاد! لكن كريستيانساند مدينة ساحلية لها تقاليدها الراسخة... كانوا يختارون أسماك القُدّ بعناية من أجل عرضها للبيع في السوق قُبيل عيد الميلاد. ذهبت إلى تلك السوق مرة مع جدتي. أذكر الجو الذي كان في تلك الصالة: ظلمة بعد ضياء الشمس الذي يعمي الأبصار على الثلج في الخارج، وأسماك القُدّ الضخمة تسبح بهدوء في أحواضها. جلدها البني، المصفر في بعض الأماكن، المخضر في أماكن أخرى، وأفواهها التي تنفتح ثم تغلق ببطء، واللحية تحت الحنك الأبيض الناعم، والعيون الصفراء الجامدة. كان الرجال العاملون هناك في مآزر بيضاء وجزمات مطاطية. كان واحد منهم يقطع رأس السمكة بسكين ضخمة شبه مستطيلة. وفي اللحظة التالية، بعد إزاحة الرأس الثقيل جانباً، يشق بطن السمكة. تندفع الأحشاء خارجة بين أصابعه. أحشاء رطبة شاحبة اللون يرميها في سلة كبيرة إلى جانبه. لماذا كانت الأحشاء شاحبة هكذا؟ يلف رجل آخر السمكة بالورق وينقر على آلة المحاسبة بإصبع واحد. لاحظت أنه يتعامل مع مفاتيح الآلة بطريقة مختلفة عن تعاملهم معها في متاجر أخرى... كأننا في عالمين مختلفين: عالم مرتب نظيف،

وعالم خشن؛ عالم في الداخل وعالم في الخارج. كأنهما عالمان اجتمعا معاً في أصابع بائع الأسماك الفظة غير المدرَّبة. رائحة الملح في الصالة. أسماك وجمبري في الجليد على طاولات البيع. وقفت جدتي في الصف أمام إحدى طاولات البيع. كانت مرتدية قبعة من الفراء ومعطفاً داكناً طويلاً يبلغ الأرض. أما أنا فتجولت في المكان حتى وصلت إلى حوض خشبي فيه سرطانات حية. كان لونها من الأعلى بنياً قاتماً مثل أوراق الشجر المتعفنة؛ أما من الأسفل فكان أصفر مُبيضاً مثل العظام، وعيونها السوداء الشبيهة برؤوس الدبابيس، ومجسّاتها، ومخالبها التي تصدر عنها أصوات طقطقة عندما تزحف تلك السرطانات واحداً فوق الآخر. كنت أراها شيئاً يشبه العُلب، علب من اللحم. كانت عجيبة من العجائب أن هذه السرطانات قادمة من البحر. لقد حملوها إلى هنا، مثلما أتوا بالأسماك الحية كلها. كان رجل يغسل الأرض الإسمنتية مستخدماً أنبوب الماء المطاطي؛ وكان الماء يتدفق صوب موقد الشَّيّ. انحنت جدتي مشيرة إلى سمكة مسطحة تماماً. كان لون السمكة مائلاً إلى الخُضرة مع بقع حمراء بلون الصدأ. رفعها مساعد البائع من حوض الجليد فوضعها على الميزان ثم وضعها على قطعة ورقية كبيرة ولفها بها. وضع الحزمة في كيس، ثم ناوله لجدتي التي ناولته بدورها ورقة نقد أخرجتها من محفظتها الصغيرة. لكن ذلك الإحساس بالمغامرة الذي كان محيطاً بالسمكة في ذلك المكان اختفى تماماً عندما صارت أمامي في الطبق الكبير، عندما صارت لحماً أبيض متشقّقاً قليلاً، لحماً مالحاً فيه عظام كثيرة... تماماً مثل السمكة التي اصطدتها مع أبي في البحر قبالة ترومويا، أو مثل السمكة التي اصطدناها في خليج صغير داخلٍ في البر... الفارق بين السمكتين هو زوال ذلك الإحساس بالمغامرة نفسه عندما صارتا جاهزتين للأكل على الطاولة، عندما صارتا في أطباق الطعام البنية في بيتنا في تيباكن في السبعينيات.

متى رافقتُ جدتي إلى صالة بيع الأسماك؟

خلال طفولتي، لم أكن أوجد في بيت جدي وجدتي خلال أيام المدرسة. لا بد إذاً أن يكون ذلك قد حدث في عطلة الشتاء التي أمضيتها عندهما مع إنغفه. كان ذلك عندما سافرنا بالباص وحدنا إلى كريستيانساند. يعني هذا أن إنغفه يجب أن يكون موجوداً معنا في ذلك اليوم أيضاً. لكنه ليس موجوداً في ذاكرتي. ثم إن السرطانات لا يمكن أن تكون موجودة في ذلك الوقت لأن عطلة الشتاء تكون في

شهر فبراير/ شباط عادة. لا يبيعون سرطانات حية في شهر فبراير. لو كان ذلك في فبراير لما رأيتها في الحوض الخشبي. من أين أتت هذه الصورة التفصيلية الواضحة؟

يمكن أن تكون آتية من أي مكان. إن كانت طفولتي مليئة بشيء فإنها مليئة بالسرطانات والأسماك والجمبري والكركند. في مرات كثيرة، كنت أرى أبي يتناول بقايا السمك من البراد فيأكلها واقفاً في المطبخ خلال الليل أو في صباحات عطلات نهاية الأسبوع. لكنه كان يحب السرطان أكثر من أي شيء آخر. عندما تأتي نهاية الصيف وتخرج السرطانات من البحر، كان يذهب إلى رصيف الأسماك في آريندال بعد المدرسة فيشتري بعضاً منها إن لم يذهب لاصطيادها بنفسه، في المساء أو في الليل، على واحدة من الجزر الصغيرة عند الجروف الصخرية أو قرب الصخور التي في نهاية الجزيرة. كنا نذهب معه أحياناً. هنالك مناسبة خاصة باقية في ذاكرتي: في الليل، عند منارة تورونجن، تحت سماء شهر آب السوداء المُزرقّة، عندما انقضّت النوارس في اتجاهنا وكنا ننزل من القارب لنسير في الجزيرة الصغيرة. كان معنا دلوان مليئان بالسرطانات فأشعلنا ناراً في حفرة في الصخور. تعالت ألسنة اللهب إلى السماء. كان البحر من حولنا واسعاً. وكان وجه أبي مشعّاً.

وضعت كأسي، وقطعت جزءاً من الشريحة التي في طبقي ثم غرست شوكتي فيها. كان اللحم الزيتي الرمادي الداكن الذي اخترقته الشوكة شديد الطراوة. كنت قادراً على سحقه بلساني في ذلك الصحن.

تابعنا التنظيف بعد فراغنا من الطعام. انتهيت من الدرج فتابعت ما بدأته توفه، بينما بدأ إنغفه العمل في غرفة الطعام. كانت تمطر في الخارج. ظهرت طبقة رقيقة من حبيبات الماء الصغيرة على النوافذ، وصار جدار الشرفة داكناً بعض الشيء. أما عند البحر، حيث يفترض أن يكون هطول المطر أكثر شدة، فقد كانت خطوط المطر ترتسم على الغيوم في الأفق. كنت أمسح الغبار عن القطع التزيينية الصغيرة والمصابيح واللوحات والتذكارات المتناثرة على الرفوف، ثم أضعها على الأرض، قطعة فقطعة، حتى أنظف الرفوف نفسها. كان هنالك مصباح زيتي يبدو كأنه آتٍ من ألف ليلة وليلة... مصباح رخيص الثمن، لكنه ثمين... عليه تزيينات ذهبية مزخرفة. جندول من البندقية يتوجَّه شيء كأنه مصباح. وصورة لجدي وجدتي أمام هرم مصري. عندما كنت أنظر

إلى تلك الصورة، سمعت صوت نهوض جدتي في المطبخ. مسحت زجاج الصورة وإطارها، ثم وضعتها ومددت يدي إلى الحامل الصغير الذي تقف عليه أسطوانات غرامافون قديمة الطراز، 45 دورة في الدقيقة. وقفت جدتي واضعة يديها خلف ظهرها. كانت تنظر إلي.

قالت لي: «لا، ليس من الضروري أن تفعل هذا. لا حاجة إلى هذا التنظيف الشامل».

قلت: «لن يستغرق الأمر أكثر من ثانية. بما أنني بدأت تنظيفه، فسوف أنهيه».

قالت: «هذا معقول. يبدو شكله لطيفاً».

فرغت من مسح الحامل فوضعته على الأرض، ثم وضعت الأسطوانات إلى جانبه، ثم فتحت الخزانة وأخرجت منها آلة تسجيل قديمة.

سألتني: «أنت لا تشرب جرعة صغيرة في المساء، أليس كذلك؟».

أجبتها: «لا! لا أشرب شيئاً خلال أيام الأسبوع».

قالت لي: «هذا ما ظننته».

في المدينة، على ضفة النهر الأخرى، بدأت الأنوار تظهر أكثر تألقاً. كم يمكن أن يكون الوقت الآن؟ الخامسة والنصف؟ السادسة؟

نظفت الرفوف في الخزانة وأعدت آلة التسجيل. أما جدتي التي لا بد أنها أدركت أن لا عمل لها هنا فقد استدارت متنهدة ومضت إلى غرفة المعيشة الثانية. سمعت صوتها بعد ذلك مباشرة، ثم صوت إنغفه. وعندما دخلت المطبخ لأحضر بعض الجرائد مع سائل تنظيف الزجاج، رأيت عبر الباب المفتوح أنها قد جلست تتحدث مع إنغفه خلال عمله.

لقد استولى الشُّرب على تفكيرها، هكذا قلت في نفسي عندما تناولت عبوة سائل تنظيف الزجاج من الخزانة واقتطعت بضع صفحات من الجريدة التي كانت على الكرسي تحت الساعة الجدارية ثم عدت إلى غرفة المعيشة. ليس هذا مفاجئاً في حقيقة الأمر. لقد كان يشرب باستمرار، يشرب حتى الموت... ليس لذلك تفسير آخر... وهي كانت هنا، تراه. كل صباح، وكل ظهر، وكل أمسية، وكل ليلة. كم من الوقت استمر ذلك؟ هل استمر سنتين؟ ثلاث سنوات؟ هما الاثنان فقط. الأم وابنها!

رششت باب خزانة الكتب الزجاجي بسائل التنظيف، ثم أخذت صفحة من صفحات الجريدة ومسحت السائل عدة مرات إلى أن صار الزجاج نظيفاً لامعاً. نظرت من حولي بحثاً عن زجاج آخر أنظفه لكنني لم أجد غير النوافذ التي كنت قد قررت تركها إلى وقت لاحق. تابعت العمل في خزانة الكتب فنظفتها ورتبت محتوياتها.

كانت حبال المطر ترتسم في سماء الميناء عند ذلك. وفي اللحظة التالية، بدأ المطر يقرع النافذة التي أمامي. قطرات ثقيلة ضخمة جرت على النافذة في خطوط متراقصة. أحسست بجدتي تمر من خلفي. لم أستدر صوْبها. لكن حركتها ظلت تشغل ذهني إلى أن توقفت وأمسكت بجهاز التحكم الخاص بالتلفزيون فضغطت على المفتاح وجلست على الكرسي. وضعتُ منفضة الغبار على الرف وذهبت لرؤية إنغفه.

قال لي: «إنها مليئة بالزجاجات أيضاً». كان يشير برأسه صوب صف الخزانات الذي يشغل الجدار كله... «لكن هنالك زجاجات خزفية جميلة».

قلت: «هل سألتك جدتنا إن كنا نشرب عادة؟ لا بد أنها سألتني عشر مرات منذ وصولنا؛ عشر مرات على الأقل».

قال: «نعم، سألتني طبعاً. السؤال هو ما إذا كان يمكنها أن تشرب قليلاً. هي ليست في حاجة إلى إذن منا، لكنها تطلب هذا الإذن. وهكذا... ماذا تظن؟».

«ماذا؟».

سألني ناظراً إليَّ من جديد: «ألم تفهم الأمر؟» قال هذا مع ابتسامة غير مرحة على شفتيه.

أجبته: «أفهم ماذا؟».

«إنها تريد أن تشرب. تموت رغبة في ذلك».

«جدتي؟».

«نعم! ماذا تظن؟ أتظن أن من المناسب أن تشرب قليلاً؟».

«هل أنت واثق من أن الأمر هكذا؟ كنت أظن العكس».

«أنا أيضاً ظننت ذلك في البداية. لكن الأمر واضح عندما تفكر فيه. لقد عاش هنا زمناً طويلاً. كيف كانت قادرة على احتمال الأمر من غير أن تشرب هي أيضاً؟».

«هل تقول إنها مدمنة على الكحول؟».

رفع إنغفه كتفيه: «المسألة هي أنها تريد أن تشرب الآن. وهي في حاجة إلى إذن منا».

قلت: «اللعنة على هذا! ما هذه الحالة!».

«أنت محق، لكن من المؤكد أن ليس في الأمر شيء ضار إذا شربت قليلاً الآن. ألا تظن هذا؟ إنها في حالة صدمة، نوعاً ما».

«ماذا سنفعل إذن؟»

«حسن، نستطيع سؤالها إن كانت تريد بعض الشراب! ثم نستطيع أن نشرب كأساً معها».

«لا بأس، لكن ليس الآن... بالتأكيد!»

«دعنا أولاً ننهي عملنا لهذا المساء. وبعد ذلك نسألها. فيحدث ذلك كأنه شيء عادي».

انتهيت من خزانة الكتب بعد نصف ساعة من ذلك. خرجت إلى الشرفة. كان المطر قد توقف وامتلأ الهواء عبيراً منعشاً قادماً من الحديقة. كانت على الطاولة طبقة رقيقة من الماء؛ وكانت أغطية المقاعد داكنة بفعل البلل. وأما الزجاجات البلاستيكية المستلقية على الأرض القرميدية، فكانت منقَّطة بحبات المطر. ذكرتني أعناق تلك الزجاجات بفوهات المدافع... كأنها مدافع صغيرة تمتد مواسيرها في كل اتجاه. كانت قطرات المطر مصطفة معلقة على امتداد الناحية السفلية من قضيب الدرابزين الحديدي. ومن وقت لآخر، تفلت واحدة منها فتسقط على الأرض في الأسفل مصدرة صوت اصطدام لا يكاد يسمع. كان صعباً عليّ تصديق أن أبي كان هنا قبل ثلاثة أيام فقط، وأنه كان يرى ما أراه الآن قبل ثلاثة أيام، ويتجول في البيت نفسه، ويرى جدتي مثلما نراها وتدور في رأسه أفكار... قبل ثلاثة أيام فقط! كان هذا شيئاً صعب التصديق. هكذا هو الأمر... يمكنني استيعاب أنه كان هنا منذ فترة وجيزة. لكنني لا أفهم أنه لا يستطيع أن يرى هذا الآن، الشرفة، والزجاجات البلاستيكية، والضوء في نوافذ الجيران. طبقة الطلاء الأصفر التي تقشرت وسقطت أجزاء منها على أرضية الشرفة الحمراء قرب ساق الطاولة الصدئة. المزراب وماء المطر الذي لا يزال يجري فيه ويصب في العشب. لا أستوعب أنه لا يرى شيئاً من هذا؛ لا أستطيع استيعاب ذلك مهما حاولت. أفهم أنه لن يراني ولن يرى إنغفه بعد

الآن... هذا شيء له صلة بعواطفنا، شيء متشابك مع الموت بطريقة مختلفة تماماً عن هذا الواقع الملموس المحيط بي.

لا شيء، فقط لا شيء! لن يرى حتى هذه الظلمة.

أشعلت سيجارة ومسحت مقعد الكرسي الرطب بيدي مرتين، ثم جلست. ما عادت في العلبة إلّا سيجارتان. هذا يعني أن عليَّ أن أذهب إلى كشك الجرائد قبل أن يغلق.

انسلّت قطة تسير عند السياج في آخر الحديقة. كان فراؤها رمادياً مموجاً. بدت لي قطة عجوزاً. وقفت رافعة إحدى قائمتيها الأماميتين، وحدقت في العشب برهة، ثم تابعت سيرها. تذكرت قِطّنا، ناسين، الذي تحبه تونجه كثيراً. لم يكد عمره يبلغ شهور قليلة. كان يدس نفسه تحت لحافها فلا يبقى ظاهراً منه غير رأسه.

لم أفكر في تونجه أبداً خلال اليوم كله. ولا مرة واحدة! ما معنى هذا؟ لا أريد الاتصال بها لأن ليس لدي شيء أقوله، لكني يجب أن أتصل من أجلها هي. إن كنت لم أفكر بها، فلا بد أنها فكرت بي... أعرف هذا.

في الهواء فوق الميناء، كان نورس بحري يطير في اتجاهنا متجهاً إلى الشرفة فأحسست بأنني أبتسم: إنه نورس جدتي قادم لتناول العشاء. لكنه رآني هنا فلم يجرؤ على الاقتراب بل حط على السقف بدلاً من ذلك. مال إلى الخلف وأطلق صرخته النورسية، صرخة تشبه النهيق.

لن تذهب قطعة من السالمون خسارة إن قدمتها له... بالتأكيد!

سحقت السيجارة على أرض الشرفة ووضعتها في زجاجة ثم مضيت إلى جدتي التي كانت تشاهد التلفزيون.

قلت لها: «نورسك هنا من جديد، هل أعطيه شيء من السالمون؟».

قالت وهي تستدير صوبي: «ماذا قلت؟».

قلت: «النورس هنا. هل أعطيه شيء من السالمون؟».

قالت: «أوه! سأفعل هذا بنفسي».

نهضت على قدميها وسارت إلى المطبخ مطرقة الرأس. التقطتُ جهاز التحكم

وخفضت صوت التلفزيون. ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس التي كانت خالية فجلست عند الهاتف. اتصلت بالبيت.

«مرحباً. هذه تونجه».

«مرحباً تونجه. أنا كارل أوفه».

«أوه، مرحباً...».

«مرحباً».

«كيف تسير الأمور؟».

قلت: «إنها ليست رائعة! الوضع صعب هنا. إنني أبكي طيلة الوقت تقريباً. لكنني لا أعرف حقاً السبب الذي يجعلني أبكي. مات أبي، بالطبع، لكن الأمر ليس ذلك فحسب...».

قالت لي: «كان عليَّ أن أذهب معك. اشتقت إليك كثيراً».

«إنه بيتُ الموت! إننا نخوض في موته هنا. مات على الكرسي الذي في الغرفة المجاورة. لا يزال الكرسي هناك. ثم... هنالك أيضاً كل ما حدث هنا. أقصد... منذ وقت بعيد، عندما كنت صغيراً، كل ذلك موجوداً أيضاً، وهو يعود الآن. هل تفهمين؟ أحس على نحو ما أنني صرت شديد القرب من كل شيء. شديد القرب من الشخص الذي كنته عندما كنت أصغر سناً. شديد القرب من الشخص الذي كانه أبي. تأتيني الآن المشاعر كلها التي كانت في ذلك الوقت».

قالت: «مسكين يا كارل أوفه!».

دخلت جدتي من الباب الذي أمامي حاملة طبقاً فيه قطع من السالمون. لم ترني. انتظرتُ حتى صارت في الغرفة الأخرى.

قلت: «لا، لا تشعري بالأسف علي! إنه هو من يجب أن نكون آسفين عليه. كانت حياته مخيفة عند النهاية، مخيفة إلى حد لا يمكنك تصديقه».

«وكيف تتعامل جدتك مع الأمر؟».

«لا أعرف حقاً. إنها في حالة صدمة. وتبدو خَرِفَة أيضاً. ثم إنها نحيلة بشكل فظيع. كانا يجلسان هنا ويشربان فقط. هو وهي».

«هي أيضاً! جدتك؟».

«بالتأكيد. لن تستطيعي تصديق هذا. لكننا قررنا أن ننظف كل شيء. وأن نقيم لقاء الجنازة هنا بعد الدفن».

من خلال باب الشرفة الزجاجي، كنت أرى جدتي تضع الطبق على الأرض. تراجعت قليلاً وراحت تنظر من حولها.

قالت تونجه: «تبدو هذه فكرة حسنة».

«لست أدري. لكن هذا ما نعتزم فعله الآن. سننظف هذا البيت الفظيع كله، ثم نزيِّنه قليلاً. سنشتري مفارش للطاولات، وسنشتري زهوراً، و...».

مد إنغفه رأسه عند الباب، وعندما رآني أتحدث على الهاتف رفع حاجبيه وانسحب. وفي تلك اللحظة دخلت جدتي عائدة من الشرفة. وقفت عند النافذة تنظر إلى الشرفة.

«كنت أفكر في تبكير مجيئي إليك يوماً واحداً. عندها أستطيع مساعدتك».

قلت لها: «سيكون الدفن يوم الجمعة. هل تستطيعين أن تتغيبي عن العمل يوماً واحداً؟»

«أستطيع. وهكذا سأصل في الصباح. لقد اشتقت إليك كثيراً».

«ماذا فعلتِ اليوم؟».

«آ... لا شيء خاص. تناولت طعام الغداء مع أمي ومع هانز. يرسلان إليك تحياتهما. إنهما يفكران فيك».

أجبتها: «هذا لطيف منهما. وماذا كان لديكم على الغداء؟».

كانت والدة تونجه طباخة رائعة؛ وكانت الوجبات في بيتها تجربة لا تنسى... إن كنتَ شخصاً يحب الطعام. أما أنا فلم أكن كذلك؛ لم أكن أحفل بالطعام أبداً. لا فرق عندي بين تناول أصابع السمك المجمدة أو سمك الهلبوت، أو بين السجق ولحم البقر؛ لكن تونجه كانت تحب الطعام، وكانت عيناها تلمعان عندما تبدأ الحديث عنه. كانت طباخة موهوبة أيضاً، وكان العمل في المطبخ متعة لها. وحتى إذا كانت تحضّر البيتزا، فإنها تضع قلبها وروحها فيها. إنها أكثر الناس الذين أعرفهم استمتاعاً بالملذات الحسية. وقد جاءت لتمضي حياتها مع شخص يعتبر الوجبات والمسرّات البيتية والقرب الشديد من جملة الشرور التي لا بد منها!

«كانت لدينا سمكة فلاوندر. هذا يعني أنك لم تخسر شيئاً لأنك لم تكن هناك».

أستطيع سماع ابتسامتها العريضة.

«لكن... أوه، كانت رائعة».

قلت: «لا أشك في هذا. هل كان كجيتيل وكارين هناك أيضاً؟».

«كانا موجودين. وآتلِه أيضاً».

لقد حدثت أشياء كثيرة في أسرتها، كما يحدث في كل أسرة. لكن هذا ما كان شيئاً يتحدثون عنه. فإذا صار ظاهراً في مكان ما، فإن ظهوره يكون من خلال كل واحد منهم ومن خلال الجو الذي يخلقونه معاً. أظن أن من أكثر ما أحبته تونجه عندي هو أنني كنت مسحوراً بذلك الشيء تحديداً، بمسارات العلاقات بين الناس كلها، وباحتمالاتها الكثيرة. لم تكن قد اعتادت هذا الأمر، ولم تكن تأملاتها تذهب في هذا الاتجاه أبداً. ولذلك، عندما فتحتُ عينيها على ما كنت أراه، كانت تجد نفسها شديدة الاهتمام دائماً. لقد اكتسبتُ هذا من أمي؛ ومنذ بدء ذهابي إلى المدرسة، كنت أتابع أحاديث طويلة معها عن الناس الذين التقيناهم أو عن الناس الذين نعرفهم... ما قالوه، والسبب الذي يمكن أن يكون قد جعلهم يقولون تلك الأشياء، والأماكن التي جاؤوا منها، وآباؤهم وأمهاتهم، والبيوت التي يعيشون فيها، كل ذلك مختلطاً بأسئلة لها علاقة بالسياسة والأخلاق وعلم النفس والفلسفة. هذه الأحاديث التي لا تزال مستمرة إلى اليوم هي ما أكسب نظرتي اتجاهاً محدداً... أرى دائماً ما يحدث بين الناس وأحاول تفسيره. وقد ظللت زمناً طويلاً مقتنعاً بأنني ماهر في قراءة الآخرين، لكني لست كذلك لأنني لا أرى إلّا نفسي، كيفما نظرت. لكن، لعل هذا الأمر لم يكن يحتل الموقع الأول في أحاديثنا لأن هنالك دائماً شيء آخر... كانت أحاديث عن أمي وعني، وهكذا صرنا متقاربين كثيراً في اللغة والتفكير. كانت هذه نقطة الاتصال بيننا؛ وكانت أيضاً النقطة التي سعيتُ إلى أن تكون نقطة اتصالي بتونجه. وكان هذا حسناً لأنها كانت في حاجة إليه، تماماً مثل حاجتي إلى حسّيتها الشديدة.

قلت لها: «إني مشتاق إليك. لكني سعيد لأنك لست هنا».

قالت: «يجب أن تعدني بأنك لن تجعلني بعيدة عما يحدث لك الآن».

قلت: «أعدك بهذا».

قالت: «أحبك».

قلت: «وأنا أحبك أيضاً».

كلما قلت هذا، أتساءل في نفسي إن كان صحيحاً حقاً! وبعد ذلك يزول هذا الإحساس عني. بالطبع أحبها!... أحبها طبعاً.

«هل ستتصل بي غداً؟».

«هذا طبيعي! إلى اللقاء الآن».

«إلى اللقاء. أبلغ إنغفه سلامي وحبي».

أغلقت الهاتف وذهبت إلى المطبخ حيث كان إنغفه واقفاً عند الطاولة.

قلت له: «كنت أتحدث مع تونجه. إنها تهديك سلامها وحبها».

قال: «شكراً! وأنا أحبها أيضاً».

جلست على حافة الكرسي: «هل نعتبر أننا أنهينا عملنا لهذا اليوم؟».

«نعم، أنهيناه. ما عدت أقوى على فعل شيء أصلاً».

«فقط يجب أن أذهب إلى كشك الجرائد. وذلك حتى نستطيع... نعم، أنت تعرف. هل تريد شيئاً من هناك؟».

«هل تجلب لي كيساً من التبغ؟ ربما كيس من البطاطس المقلية، أو شيء من هذا القبيل».

أومأت برأسي ونهضت، ثم نزلت إلى الأسفل وارتديت معطفي الذي كان معلقاً في الخزانة وتأكدت من وجود بطاقتي المصرفية في الجيب الداخلي، ثم ألقيت نظرة سريعة على نفسي في المرآة وخرجت. كنت أبدو منهكاً. ورغم أن ساعات غير قليلة مرت على بكائي، فإنه لا يزال ظاهراً في عيني. لم تكونا محمرّتين... كانتا منتفختين، مبللتين.

توقفت لحظة على الدرجات التي أمام البيت. فاجأني أن هنالك أشياء كثيرة ينبغي أن نسأل جدتي عنها. لقد كان حرصنا مبالغاً فيه حتى الآن. فمثلاً، متى وصلت سيارة الإسعاف؟ هل جاءت سريعاً؟ وهل كانت هنالك حياة باقية لإنقاذها عندما وصلوا؟ هل كانت تلك حالة إسعاف فعلاً؟ لا بد أن السيارة جاءت من هذا الطريق، بأنوارها الوامضة وصفارتها الزاعقة. قفز السائق والطبيب من السيارة

واندفعا صوب الباب حاملين معداتهما. لا بد أن الباب كان مقفلاً. لقد كان هذا الباب مقفلاً على الدوام. هل كان لديها حضور الذهن الكافي لأن تنزل وتفتح الباب قبل وصولهم؟ أم لعلهم وقفوا هنا وقرعوا الجرس وانتظروا؟ ماذا قالت لهم لهم عندما دخلوا؟ «إنه هناك في الأعلى»؟ وهل تقدمتهم إلى غرفة المعيشة؟ هل كان جالساً على الكرسي؟ هل كان مستلقياً على الأرض؟ هل حاولوا إنعاشه؟ هل أجروا تدليكاً للقلب؟ وهل أعطوه الأوكسجين؟ هل أجروا له تنفساً اصطناعياً؟ أم أنهم تأكدوا فوراً من أنه ميت وأن لا مجال لتقديم أي مساعدة فوضعوه على الحمالة وذهبوا به بعد أن تبادلوا كلمات قليلة معها؟ ما مقدار ما فهمته منهم؟ وماذا قالت لهم؟ ثم... متى حدث هذا: في الصباح، في وسط النهار، أم في المساء؟

من البدهي أننا لا نستطيع مغادرة كريستيانساند من غير معرفة ظروف موته!

تنهدت، وبدأت السير. كانت السماء من فوقي قد انفتحت. ما كان غطاء كثيفاً من الغيوم قبل ساعات معدودة صار الآن تشكيلاً يشبه منظراً طبيعياً: وادٍ مع سهولٍ طويلة، وجدران شديدة الانحدار، وقمم تظهر فجأة، بيضاء في بعض الأماكن كأنها الثلج، ورمادية في أماكن أخرى، قاسية المظهر كأنها صخور؛ وتلك السطوح الهائلة كلها التي لا ينيرها ضوء الشمس الغاربة... لم تكن سطوحاً لامعة ولا مضيئة ولا كان لها ألق محمر مثلما يمكن أن يرى المرء وقت المساء، بل بدت كأنها مغمورة في سائل ما. كانت معلقة فوق المدينة، حمراء كامدة، وردية قاتمة، محاطة بكل تدرجات اللون الرمادي التي يمكن تخيلها. كان مشهداً برياً، بديعاً. قلت في نفسي إن كل إنسان يجب أن يكون في الشارع الآن، ويجب أن تتوقف السيارات وتنفتح أبوابها وينزل سائقوها وركابها رافعين رؤوسهم، وتلتمع عيونهم دهشة وتوقاً إلى الجمال... فما هذا الذي يحدث هناك، فوق رؤوسنا؟

لكن، قلة هم الناس الذين رفعوا رؤوسهم ونظروا. وربما أعقبت ذلك ملاحظات معزولة هنا وهناك عن جمال تلك الأمسية. هذا لأن هذه المشاهد ما كانت استثنائية؛ بل على العكس تماماً إذ لا يكاد يمر يوم من غير أن تملأ السماء تشكيلات الغيوم المذهلة التي يتخلل الضياء كل واحدة منها بطريقة فريدة لا تتكرر أبداً. وبما أن ما تراه كل يوم شيءٌ لا تراه أبداً، فإننا نعيش حياتنا تحت هذه السماء

المتغيِّرة دائماً من غير أن نخصها بالتفاتة أو بلحظة من تفكير. ثم... لماذا نفعل ذلك أصلاً؟ لو أن لهذه التشكيلات المختلفة معنى ما، لو أنها تكشف مثلاً علامات ورسائل من أجلنا فمن المهم أن نفسرها تفسيراً صحيحاً. وفي تلك الحالة، سيكون الانتباه المستمر إلى ما يحدث هناك أمر لا مفر منه وسيكون سلوكاً مفهوماً تماماً. لكن الأمر ليس كذلك، بالطبع؛ وهذه السحب متعددة الأشكال والألوان لا تعني شيئاً لأن ما تبدو عليه في هذه اللحظة أو تلك ليس إلّا مسألة مصادفة. وهكذا، إن كان هنالك شيء تعبر عنه هذه الغيوم فهو انعدام المعنى، انعدام المعنى الجميل في أنقى وأكمل صورة له.

بلغت الشارع الرئيسي الذي كان مقفراً من الناس والسيارات. سرت فيه حتى التقاطع حيث كان مناخ يوم العطلة سائداً أيضاً. رأيت رجلاً وامرأة متقدمَيْن في السن يسيران على الرصيف الآخر، ومرت بي بضع سيارات تمضي بطيئة في اتجاه الجسر. ظلت إشارة المرور خضراء أمامها. كانت سيارة جولف سوداء متوقفة عند موقف الباص إلى جانب كشك الصحف. خرج منها سائقها الذي كان شاباً يرتدي بنطلوناً قصيراً. كانت محفظته في يده. ترك محرك سيارته عاملاً ودخل الدكان مسرعاً. التقيته عند الباب، لحظة خروجه. كان يحمل آيس كريم في يده. أليس هذا طفولياً بعض الشيء؟ أن يترك محرك السيارة يعمل ليدخل ويشتري آيس كريم؟

كان البائع ذو الملابس الرياضية الذي رأيته في اليوم السابق غير موجود. حلت محله الآن فتاة في بداية العشرينيات. فتاة ممتلئة الجسم، سوداء الشعر. ومن تقاطيع وجهها التي لمحت فيها شيئاً فارسياً، خمنت أنها من إيران، أو لعلها من العراق. لكنها كانت جذابة رغم خديها المدوَّرين المنتفخين قليلاً، ورغم امتلاء جسدها. لم تكد تلتفت إليَّ. كان انتباهها منصبّاً على مجلة مفتوحة على طاولة أمامها. فتحتُ باب البراد وأخذت ثلاث زجاجات سبرايت سعة نصف لتر، ثم بحثت عيناي عن رقائق البطاطس على الرفوف. وجدتها، فأخذت كيسين منها ووضعتهما مع الزجاجات على الطاولة.

قلت لها: «أعطني أيضاً كيساً من تبغ تيدمانز جول، مع الورق».

استدارت ومدت يدها إلى رف التبغ خلفها، في الأسفل.

قالت تسألني: «هل تريد ورق ريزلا؟».

لم تنظر في عينَي.

أجبتها: «نعم، من فضلك».

أدخلتْ حزمة ورق السجائر البرتقالية تحت طية كيس التبغ الأصفر الذي وضعته على الطاولة بعد ذلك بينما كانت تسجل الأسعار على آلة المحاسبة بيدها الأخرى.

قالت بلهجة كريستيانساند العريضة: «مائة وخمسة وسبعون كروناً ونصف كرون».

ناولتها ورقة من فئة مائتي كرون. سجلتْ المبلغ وتناولت البقية من الدرج الذي انفتح. وضعت بقية المال على طاولة البيع رغم أنني مددتُ يدي مفتوحة لأخذها منها.

لماذا؟ هل رأت فيّ شيئاً؟ هل لاحظت شيئاً لم يعجبها؟ أم أن ردود أفعالها بطيئة فحسب؟ من المعتاد أن ينظر البائع في عيني المشتري في لحظة ما خلال عملية البيع، أليس كذلك؟ وإذا كانت يدك ممدودة لتلقي النقود، فمن المؤكد أن وضعها في مكان آخر شيء يكاد يكون إهانة! من حيث المظاهر على الأقل.

نظرت إليها: «هل يمكنك إعطائي كيساً أيضاً؟».

قالت: «بالطبع».

انحنت وتناولت كيساً من النايلون من تحت طاولة البيع.

«ها هو، تفضل!».

قلت: «شكراً لك»، ثم جمعت الأشياء ووضعتها في الكيس. رافقتني الرغبة في النوم معها طيلة طريق عودتي إلى البيت، رغبة تبَدَّت كأنها نوع من الانفتاح الجسدي الرقيق، نوع من اللطف، أكثر مما هي رغبة نابعة عن الشهوة بصورتها المعتادة (تكون الرغبة في تلك الحالة أكثر خشونة وأكثر حدة، تكون نوعاً من تجمُّع وانقباض للحواس)، لكنها لم تكن رغبة مسيطرة تماماً لأن حالة الحزن التي كنت فيها غلفتها هذه السماء الرمادية المشوشة... حزني الذي أحسست أنه يمكن أن يطغى عليَّ في أي لحظة.

كانا جالسين في غرفة المعيشة يشاهدان التلفزيون. كان إنغفه جالساً في كرسي أبي. التفت برأسه عندما دخلت، ثم نهض.

قال لجدتي: «أظن أننا سنتناول بعض الشراب الليلة. أمضينا النهار كله في العمل. هل تحبين أن تشربي كأساً أنت أيضاً؟».

قالت جدتي: «سيكون هذا شيئاً لطيفاً».

قال إنغفه: «سوف أُعدّ لك كأساً. أظن من الأفضل أن نجلس في المطبخ».

قالت جدتي: «جيد».

هل اجتازت الغرفة بخطوات أسرع من خطواتها التي كانت من قبل؟ وهل شعّ ضياء صغير في عينيها اللتين كانتا قاتمتين؟ نعم، حدث هذا!

وضعتُ واحداً من كيسي رقائق البطاطا على الطاولة قرب المغسلة، ثم أفرغت محتويات الثاني في طبق عميق وضعته على الطاولة، بينما تناول إنغفه زجاجة «آبسولوت بلو» من الخزانة (كانت موضوعة بين المواد الغذائية عندما سكبنا الكحول الذي وجدناه كله في المغسلة فلم نرها). أتى بثلاث كؤوس من الرف، وبعلبة العصير من البراد، ثم بدأ يُعد الكؤوس. جلست جدتي في مكانها تنظر إليه.

قالت: «إذن... أنتما تحبان تناول رشفة من الشراب في المساء أيضاً».

قال إنغفه: «نعم! كنا نعمل طيلة اليوم. علينا الآن أن نسترخي قليلاً».

ابتسم وقدم إليها الكأس. وهكذا، جلسنا من حول الطاولة، نحن الثلاثة، جلسنا نشرب. بدأ الظلام يحل في الخارج. لا شك في أن الكحول كان له بعض التأثير الحسن على جدتي. سرعان ما استعادت عيناها تألقهما، واكتسبت وجنتاها الذابلتان الكامدتان بعض اللون، وصارت حركاتها أكثر رقة. وبعد أن أنهت كأسها الأولى وسكب لها إنغفه كأساً ثانية، بدت كأنها صارت قادرة على التخفف من أثقالٍ على كاهلها لأنها سرعان ما بدأت تثرثر وتضحك مثلما كانت تفعل في أيامها القديمة. أما أنا، فظللت خلال نصف الساعة الأول شبه مشلول. جمّدني شيء من الانزعاج لأنها كانت أشبه بمصاصة دماء تذوقت طعم الدم أخيراً... هكذا كان الأمر: كانت الحياة تعود إليها وتملأ أعضاءها واحداً تلو الآخر. كان أمراً فظيعاً، فظيعاً! لكني شعرت بأثر الكحول بعد ذلك، ولانَت أفكاري، وتفتح ذهني، وما عاد يبدو لي مخيفاً أن أراها جالسة هنا تشرب وتضحك بعد أن عثرت على ابنها ميتاً في غرفة المعيشة. لا مشكلة في هذا؛ فمن الواضح أنها في حاجة إليه! بعد أن أمضت نهارها كله جالسة، ساكنة في هذا الكرسي سكوناً لم تقطعه إلّا جولاتها القليلة في البيت... بعد أن كانت جالسة قلقة،

مضطربة، صامتة دائماً، استيقظت الآن وانتعشت. شيء حسن أن يحدث هذا. ثم إننا كنا في حاجة إليه، نحن أيضاً. وهكذا، جلسنا هناك، نستمع إلى قصص ترويها جدتنا، ونضحك، ويضيف إنغفه شيئاً من عنده فنضحك أكثر. كان ميلهما المشترك إلى اللعب بالكلمات يجمع بينهما دائماً، لكني لم أره أبداً يجمع بينهما مثلما يحدث الآن. من حين لآخر، كانت جدتي تمسح دموع الضحك عن عينيها، وكانت نظرتي تلتقي عينَيْ إنغفه فأرى فيهما فرحة كانت ممزوجة بشيء من الحرج أول الأمر لكنها سرعان ما تحررت وعادت إلى حالتها الطبيعية. كان ما نشربه دواء سحرياً! هذا السائل اللامع قوي الطعم رغم خلطه بعصير البرتقال... لقد غير حالة وجودنا هنا فحجب عنا إدراكنا لما حدث أخيراً وأفسح مكاناً للأشخاص الذين نكونهم في الحالة الطبيعية، أفسح مجالاً لما نفكر فيه عادة؛ كان كأنه شيء يُشعّ علينا بنوره من الأسفل لأن ما كناه، وما كنا نفكر فيه، صار مشعّاً على نحو مفاجئ. صار متألقاً دافئاً وما عاد يعترض طريقنا. لا تزال رائحة البول تفوح من جدتي، ولا يزال فستانها مبقعاً بالدسم وبقايا الطعام، ولا تزال هزيلة إلى حد مخيف... لا تزال هي نفسها التي عاشت شهورها الأخيرة في جحر الجرذان هذا مع ابنها، أبينا، الذي مات هنا لإفراطه في تناول الكحول. الذي مات ولم يبرد جسمه تماماً بعد. لكن عينيها كانتا متألقتين. كان فمها مبتسماً، ويداها اللتان كانتا حتى الآن ترقدان في حجرها ساكنتين إلّا حين تكونان منشغلتين بتدخينها الذي لا يتوقف، بدأتا تتحركان الآن. كانت تتغير أمام أعيننا فتصير الشخص الذي كانته دائماً... تصير حلوة المعشر، حادة الطبع، كثيرة الابتسام وكثيرة الضحك. كنا نعرف القصص التي ترويها الآن، سمعناها كثيراً من قبل، لكن هذا هو معنى تلك القصص (بالنسبة إليَّ أنا على الأقل)، لأن سماعها يعيدني إلى الجدة التي كنت أعرفها وإلى الحياة التي كانت تُعاش هنا. ما كانت هذه القصص مسليّة في حد ذاتها، بل إن طريقة رواية جدتي لها هي ما يجعلها طريفة، وكذلك حقيقة أنها تجدها قصصاً مسليّة. كانت على الدوام تعرف كيف تعثر على المرح في الحياة اليومية، وتضحك لذلك كل مرة. كان أبناؤها جزءاً من هذا عندما يروون نتفاً مما جرى في حياتهم، وكانت تضحك وتضم مروياتهم إلى مخزونها عندما توافق ذوْقها. كان أبناؤها، إيرلينغ وغونار خاصة، ميالَيْن إلى اللعب بالكلمات، مثلها. ألم يرسلوا غونار إلى الدكان ذات يوم ليشتري «شحم المرفق»؟ ... وليشتري «كابلاً مرتفعاً»؟ ألم يخدعوا إنغفه ويجعلونه يظن أن

«أنبوب العادم» و«المفحم» من أوسخ الكلمات في العالم فجعلوه يعدهم بألّا يقولها أبداً؟ كان أبي يشاركهم هذه السخافات أيضاً، لكني لم أكن أعتبرها جزءاً منه أبداً. كان يفاجئني كلما فعل ذلك. ما كنت قادراً على استيعاب فكرة أنه يمكن أن يقص القصص ويضحك هكذا مثلما تفعل جدتي.

رغم أنها كررت هذه القصص مئات المرات من قبل، فقد كانت روايتها لها حية بشكل يجعلها تبدو كأنها تقصها أول مرة. هذا ما جعل الضحك الذي يأتي بعد كل قصة شيئاً محرِّراً فعلاً: لا شيء مصطنَعاً فيه أبداً! بعد أن شربنا قليلاً وأنار الكحول كل ما لعله كان فينا من ظلمة وأعفانا من الانتباه المستمر، ما عادت لدينا مشكلة في الانضمام إلى هذا المرح. عاصفة من الضحك تفضي إلى عاصفة أخرى بعدها. كانت جدتي تغرف من مخزون القصص والطرائف الذي جمعته خلال خمسة وثمانين عاماً من عمرها، لكنها لم تتوقف هناك لأن الثمالة أضعفت دفاعاتها وجعلتها تستفيض في بعض القصص المألوفة لنا وتتحدث أكثر عما جرى حينها بطريقة تُغيّر معناها. فعلى سبيل المثال، عملت سائقة سيارة في أوائل الثلاثينات. كنا نعرف هذا، لأنه كان جزءاً من تراث العائلة الأسطوري. كانت النساء اللواتي يحملن رخصة قيادة السيارة قلة في ذلك الزمان، فكيف بمن يعملن سائقات! لقد استجابت لأحد الإعلانات، هكذا قالت لنا... قرأت إعلاناً في صحيفة آفتنبوستن في بيتها في آسجاردستاند فبعثت إلى أصحاب الإعلان برسالة تبلغهم بقبولها تلك الوظيفة ثم انتقلت إلى أوسلو. بدأت العمل لدى امرأة ثرية غريبة الأطوار متقدمة في السن. كانت جدتنا في أوائل العشرينيات آنذاك، ولها غرفتها في بيت تلك المرأة الواسع. ومهمتها أن تأخذها بالسيارة حيثما تريد الذهاب. وكان للمرأة كلب يمد رأسه من النافذة وينبح على المارة. ضحكت جدتي عندما وصفت مدى إحراجها في تلك المواقف. لكن، كانت هنالك حادثة أخرى تذكرها عادة لتبين مدى غرابة أطوار تلك المرأة المتقدمة في السن، بل مدى خرفها أيضاً. كانت تحتفظ بنقودها في كل أنحاء البيت، وكان المرء يجد حزماً من الأوراق النقدية في خزانات المطبخ، وفي القدور والأطباق، وتحت السجاد والوسائد. كانت جدتي تضحك وتهز رأسها عندما تتكلم، وذكّرتنا بأنها كانت من بلدة صغيرة وقد تركت بيت أهلها للمرة الأولى، وكانت تلك تجربتها الأولى لا في العالم الخارجي فحسب، بل في عالم الأثرياء أيضاً. وهذه المرة عند جلوسنا حول طاولة المطبخ

المضاءة وظلال وجوهنا منعكسة على النوافذ المظلمة، وزجاجة فودكا أبسولوت بيننا، سألتنا جدتي فجأة سؤالاً افتراضياً «ماذا كان يجب أن أفعل؟ كانت فاحشة الثراء أيها الأولاد، ونقودها متناثرة هنا وهناك. كانت النقود في كل مكان. لم تكن لتلاحظ شيئاً إذا اختفى قسم منها. لو أخذت بعضها فلن يكون لهذا أي أثر على الإطلاق، أليس كذلك؟» قلت محاولاً أن أستحثها على متابعة الكلام: «هل أخذت مالها؟».

«نعم، بالطبع أخذت! لم آخذ كثيراً، ولم يكن لما أخذته أي معنى بالنسبة إليها. إذا لم تلاحظ الأمر، فما المشكلة؟ ثم إنها كانت سيئة في الدفع. نعم، كانت سيئة. كنت أتلقى منها أجراً هزيلاً. أقول هذا لأنني لم أكن سائقة لديها فقط. كنت مسؤولة عن كل شيء آخر أيضاً. كان حقاً وصواباً أن تدفع لي أجراً أكبر».

دقت على الطاولة بقبضة يدها عندما قالت ذلك، ثم ضحكت.

«أما ذلك الكلب الذي كان لديها!... كان منظرنا عجيباً عندما ننطلق بالسيارة في شوارع أوسلو. كانت السيارات قليلة تلك الأيام، تعرفان هذا! هذا يعني أن الناس كانوا يلاحظوننا في كل مكان. كانوا يلاحظوننا حقاً».

ابتسمت ابتسامة عريضة. وبعد ذلك تنهَّدت.

قالت: «أوه، حسنٌ. الحياة آهرة، مثلما كانت تقول تلك المرأة العجوز. ما كانت تستطيع لفظ حرف «ع». ها ها ها».

رفعت كأسها إلى شفتيها وشربت. فعلتُ مثلها. وبعد ذلك أمسكت بالزجاجة وملأت الكأس الفارغة ملقياً نظرة صوب إنغفه الذي أومأ برأسه فسكبت له الشراب.

قلت وأنا أنظر إلى جدتي: «هل تريدين المزيد؟».

قالت: «نعم، من فضلك. إصبعاً واحدة فقط».

بعد أن سكبت الشراب في كأسها، سكب فيه إنغفه بعض العصير، لكن علبة العصير فرغت قبل أن تمتلئ الكأس إلى منتصفها. هز إنغفه علبة العصير عدة مرات.

قال وهو ينظر إلي: «لقد فرغت! ألم تأت معك بزجاجات سبرايت من الدكان؟».

قلت: «نعم، سوف أحضرها».

نهضت وذهبت إلى البراد. إضافة إلى الزجاجات الثلاث التي اشتريتها، كانت في البراد زجاجة من سعة الليتر ونصف الليتر أتى بها إنغفه في وقت سابق من ذلك اليوم.

قلت وأنا أرفعها بيدي: «هل نسيت هذه؟».

قال إنغفه: «أوه... نعم، لقد نسيتها!».

وضعت الزجاجة على الطاولة، ثم خرجت من المطبخ لأنزل إلى المرحاض. مررت بالغرف التي بدأت الظلام يلفها. كانت كبيرة، خاوية. لكن شعلة الكحول المضطرمة في دماغي جعلتني لا ألقي بالاً إلى هذا الجو المحيط بي الذي كان يمكن أن يكون له أثر سيء من غيرها. رغم عدم كوني سعيداً بالضبط، فإنني كنت مسروراً، مبتهجاً، تدفعني رغبة في مواصلة هذا الشيء الذي لا يمكن لذكرى وفاة أبي المباشرة أن تهزه. كان ذلك ظلاً شاحباً لا أكثر، كان حاضراً لكن من غير أن يترتب على حضوره شيء لأن الحياة احتلت مكانه... تلك الصور كلها، والأصوات، والأفعال التي يستطيع الكحول أن يأتي بها فجأة من غير سبب منحتني إحساساً بأنني في مكان ما، بأنني محاط بالناس والبهجة. كنت أعرف أن الأمر غير حقيقي، لكن هذا ما أحسسته: كان إحساساً يقودني، يوجّهني، حتى عندما خطوت فوق السجادة المبقّعة على أرض الممر الذي ينيره ضوء واهٍ متسرِّب عبر زجاج الباب الأمامي، وحتى عندما دخلت المرحاض الذي يصفر ويهسهس مثلما ظل يفعل طيلة أربعين عاماً مضت. وعند خروجي، سمعت صوتيهما في الأعلى، فأسرعت صاعداً. خطوت بضع خطوات داخل غرفة المعيشة لأرى المكان الذي مات أبي فيه، لأراه وأنا في هذه الحالة المختلفة، وأنا خليّ البال. جائني إحساس مفاجئ بالشخص الذي كانه أبي. لم أره... ما كان الأمر هكذا... لكني استطعت أن أحسه، أن أحس وجوده كله وكيف كان خلال أيام حياته الأخيرة في هذه الغرف. كان ذلك خارقاً للطبيعة. لكني لم أرد التلكؤ هناك، بل ربما لم أكن قادراً على التلكؤ، لأن هذا الإحساس استمر لحظات معدودة فحسب قبل ينشب مخالبه في عقلي وقبل أن أذهب إلى المطبخ، حيث وجدت كل شيء مثلما تركته باستثناء لون الشراب الذي صار الآن مشعاً مليئاً بفقاعات تكاد تكون رمادية اللون.

كانت جدتي تحكي المزيد عن السنين التي عاشتها في أوسلو. كانت هذه القصة جزءاً من تراث العائلة الأسطوري، لكنها أضافت إلى آخرها شيئاً غير متوقع، شيئاً جديداً بالنسبة إلينا. كنت أعرف من قبل أن جدتي كانت على علاقة مع آلف، شقيق جدنا الأكبر. كانا معاً في البداية. كان الشقيقان يدرسان في أوسلو: درس آلف العلوم الطبيعية في حين درس جدنا علوم الاقتصاد. عندما انتهت علاقتها بآلف

تزوجت جدتي من جدي وانتقلا إلى كريستيانساند. وكذلك فعل آلف، لكنه تزوج من سولفي. أصيبت سولفي بالسل في صباها؛ وكانت إحدى رئتيها تالفة مما أبقاها عليلة طيلة حياتها. لم تكن قادرة على الإنجاب أيضاً، وهكذا فقد تبنيا بنتاً آسيوية عندما بلغا سناً متأخرةً بعض الشيء. وخلال صباي، كان القسم الأكبر من لقاءاتنا العائلية يجري في حضور آلف وأسرته وجدي وجدتي وأبناؤهما. كان هؤلاء هم الأشخاص الذين يزورننا. وكثيراً ما كانت تجري الإشارة أن آلف وجدتي كانا على علاقة فيما مضى. ما كان هذا سراً! وعندما توفي جدي وتوفيت سولفي، صار آلف وجدتي يلتقيان كل أسبوع. كانت تزوره كل صباح سبت في البيت في غرْيم؛ وما كان أحد يعتبر هذا الأمر غريباً... فيما عدا بعض الابتسامات اللطيفة. ألا يجب أن يكون الأمر هكذا؟

أخبرتنا جدتي عن أول لقاء لها مع الأخوين. كان آلف الشخصية التلقائية المنفتحة، أما جدي فكان أكثر انغلاقاً. لكن من الواضح أن الاثنين أظهرا اهتماماً بهذه الفتاة القادمة من بلدتها الريفية. وعندما أدرك جدي اتجاه هبوب رياح أخيه الذي كان يفتنها بنكاته وظُرفه، همس لها: «إن الخاتم جاهز في جيبه». كانت جدتي تضحك وهي تتكلم.

قالت: «سألتُه رغم أنني سمعت ما قاله لي: ماذا قلت؟ فأجابني: إن الخاتم جاهز في جيبه! سألته: أي خاتم هذا؟ أجابني: خاتم الخطبة! أوه، يا أولاد! ظن أنني لم أفهم!».

سألها إنغفه: «هل كان آلف وسولفي مخطوبين في ذلك الوقت؟».

«كانا مخطوبين، وكانت تعيش في آريندال، ولم تكن حالتها الصحية على ما يرام كما تعرف. لم يكن يتوقع أن يستمر الأمر. لكنهما وصلا إلى الزواج في النهاية!».

أخذت رشفة أخرى من كأسها، ثم لعقت شفتيها. سادت فترة من الصمت انسحبت خلالها إلى داخل نفسها مثلما فعلت مرات كثيرة في الأيام القليلة الماضية. جلست مصالبة ذراعيها محدقة في البعيد. أفرغت كأسي وصببت لنفسي كأساً أخرى. ثم أخذت ورقة من أوراق ريزلا ومددت عليها خطاً من التبغ وزعته بانتظام حتى أحصل على أفضل نتيجة ممكنة، ثم لففت الورقة وأغلقتها بعد أن لعقت حافتها ثم

أزلت فتات التبغ الذي تناثر منها فأعدته إلى الكيس. وضعت هذه السيجارة المرتجلة في فمي وأشعلتها بقداحة إنغفه شبه الشفافة.

قالت جدتي: «كنا نعتزم السفر جنوباً، إلى الشمس، في الشتاء الذي شهد وفاة جدكما. لقد اشترينا تذاكر السفر، وكل شيء». نظرت إليها وأنا أنفث دخان سيجارتي.

«عندما وقع في الحمام، تعرفان هذا... سمعت صوت اصطدام في الداخل فنهضت وذهبت فرأيته على الأرض. طلب مني أن أتصل بالإسعاف. اتصلت، ثم جلست ممسكة بيده خلال انتظارنا. قال لي وقتها: ما زلنا ذاهبين إلى الجنوب. لكني كنت أقول في نفسي: إنه جنوب آخر ذلك الذي ستذهب إليه». ضحكتْ، لكن عينيها ظلتا مسبلتين.

قالت تكرر عبارتها: «إنه جنوب آخر ذلك الذي ستذهب إليه».

خيم علينا صمت طويل.

قالت مكررة: «أوه، يا إلهي! الحياة آهرة، مثلما كانت تقول تلك العجوز. ما كانت تستطيع لفظ الحرف 'ع'».

ابتسمنا. أزاح إنغفه كأسه وأطرق برأسه ناظراً إلى الطاولة. لم أكن أريدها أن تفكر في موت جدي أو في موت أبي. حاولتُ تغيير الموضوع بالعودة إلى محور حديثها السابق.

سألتها: «لكن، هل أتيتما إلى هذا المكان بعد انتقالكما إلى كريستيانساند».

أجابت: «أوه، لا. كنا نقيم في مكان أبعد في كوهولمسيفين. اشترينا هذا البيت بعد الحرب. كان موقعاً رائعاً. واحداً من أفضل المواقع في لوند لأن له إطلالة، بالطبع. له إطلالة على البحر وعلى المدينة. ثم أنه مرتفع بحيث لا يستطيع أحد أن ينظر إلى الداخل. لكن كان هنا بيت آخر عندما اشترينا هذه الأرض. أقول هذا رغم أن من المبالغة أن أعتبره بيتاً. ها ها ها. كان زريبة حقيقية. الناس الذين عاشوا فيه... رجلان بقدر ما تسعفني الذاكرة، نعم، كانا... تفهمان هذا، كانا يشربان. عندما أتينا أول مرة لرؤية البيت، أذكر هذا، كانت الزجاجات في كل مكان. في صالة المدخل، وعلى السلم، وفي غرفة المعيشة، وفي المطبخ. في كل مكان! كانت زجاجات كثيرة في بعض الأماكن إلى حد يجعلك غير قادر على السير. وهكذا حصلنا عليه بسعر

رخيص. هدمناه ثم بنينا هذا البيت. لم تكن هنالك حديقة أيضاً، مجرد صخور... زريبة على الصخور... هذا ما اشتريناه آنذاك».

سألتها: «وهل عملتم كثيراً في الحديقة؟».

«أوه، نعم بالطبع، لك أن تتخيل هذا، أوه، نعم، نعم، نعم، لقد اشتغلتُ كثيراً. أشجار الخوخ التي هناك، تعرف هذا، أتيت بها من بيت والدي في آسجاردستارند. إنها أشجار عتيقة حقاً. لم تعد شائعة كثيراً هذه الأيام».

قال إنغفه: «أذكر أننا كنا نأخذ معنا أكياساً من الخوخ عندما نعود من البيت».

قلت: «وأنا أيضاً أذكر هذا».

سأل إنغفه: «لا تزال أشجار الخوخ تثمر حتى الآن، أليس كذلك؟».

قالت جدتي: «نعم، أظن هذا. لعلها لم تعد تثمر مثلما كانت، لكن...» مددت يدي إلى الزجاجة التي فرغت الآن حتى منتصفها. صببت لنفسي كأساً أخرى. لعل جدتي غير منتبهة تماماً إلى أن العجلة دارت دورة كاملة فتكرر ما حدث في البداية. هكذا فكرت في نفسي متأملاً. مسحت بإبهامي قطرة سالت على عنق الزجاجة ثم لعقتها بينما فتحت جدتي الجالسة إلى الناحية الأخرى من الطاولة كيس التبغ من جديد، ووضعت بعض التبغ في آلة لف السجائر. مهما تكن قسوة الحياة عليها في السنوات الأخيرة، فإنها لا تكاد تشكل إلّا جزءاً صغيراً من الأشياء الكثيرة التي مرت بها في حياتها. عندما نظرتْ إلى أبي، رأت فيه رضيعها، وطفلها، ورأت فيه المراهق والرجل الشاب، اجتمعت في تلك النظرة الأخيرة شخصيته وصفاته كلها؛ وإذا كان في حالة سكر جعلته يفعلها في ثيابه مستلقياً على أريكتها، فإن تلك اللحظة كانت لحظة قصيرة عابرة فحسب، وكانت جدتي عجوزاً، بحيث إن تلك اللحظة، إن قورنت بالزمن المديد الذي عاشاه معاً فاختزلته في ذاكرتها، لا يمكنها أن تملك الوزن الكافي لتصير هي الصورة الراجحة. يصح الأمر نفسه على البيت أيضاً، هكذا أظن. صار البيت الأول بزجاجاته «بيت الزجاجات»، بينما كان هذا البيت بيتها، وكان المكان الذي أمضت فيه السنوات الأربعين الأخيرة. وأما كونه مليئاً بالزجاجات الآن فليس بالشيء الذي يحدد معنى هذا البيت بالنسبة إليها.

أم لعلها بلغت منَ السكر حداً جعلها غير قادرة على التفكير الواضح؟ حتى إن كان الأمر كذلك، فإنها ناجحة فيه لأن علامات السكر في سلوكها كانت قليلة جداً،

بصرف النظر عن تورّدها الواضح الآن. أما من ناحية أخرى، فأنا لست بالشخص الذي يحق له أن يطلق أحكاماً على أي كان. كنت مدفوعاً بضياء الكحول الذي يزداد تألقاً والذي يترك أثره على أفكاري أكثر فأكثر؛ وبدأت أبتلع الشراب كأساً بعد كأس كأنه عصير تقريباً. كانت تلك حفرة لا قرار لها!

صببت السبرايت في كأسي، ثم أمسكت بزجاجة الفودكا التي كانت تحجب عني جدتي فوضعتها على حافة النافذة.

سألني إنغفه: «ماذا تفعل؟».

صاحت جدتي: «لقد وضعت الزجاجة في النافذة!».

احمرّ وجهي وارتبكت وأعدت الزجاجة إلى الطاولة.

بدأت جدتي تضحك.

«لقد وضع زجاجة الشراب في النافذة».

ضحك إنغفه أيضاً وقال: «بالطبع! يجب أن يرانا الجيران جالسين نشرب هنا».

قلت لهما: «لا بأس، لا بأس... لم أكن أفكر في الأمر».

قالت جدتي وهي تمسح دموع الضحك عن عينيها: «لا، لم تكن تفكر. تستطيع أن تكون متأكداً من أنك لم تكن تفكر، ها ها ها».

في هذا البيت، حيث كنا نحرص دائماً على منع الآخرين من التلصص، وحيث كنا حريصين على أن نكون في منآى عن الانتقاد في كل شيء يمكن أن يُرى، من الملابس إلى الحديقة، ومن الباب الأمامي إلى السيارة إلى سلوك الأطفال، كان شيئاً لا يمكن التفكير فيه أبداً أن يعرض المرء زجاجة الشراب في هذه النافذة المضاءة بقوة. هذا ما جعلهما يضحكان، وهذا ما جعلني أنا أيضاً أضحك آخر الأمر.

الضياء الذي في السماء فوق التلال وفوق الطريق، الضوء الذي يمكن فقط أن يلمحه المرء لمحاً في انعكاسه على زجاج نافذة المطبخ فنبدو نحن الثلاثة فيه كأننا أشخاص تحت الماء... كان ضوءاً أزرق رمادياً. هذا أقصى ما تصله عتمة السماء هذه الأيام. بدأ إنغفه يتلعثم قليلاً في كلامه. بالنسبة لشخص لا يعرفه، يمكن أن يكون هذا شيئاً يستحيل الانتباه إليه. لكنني لاحظته لأن هذا ما يصيبه كلما شرب: يكون غير واضح في البداية، ثم يزداد ويزداد إلى أن تأتي تلك اللحظة قبل النهاية، قبل أن يفقد الوعي، فيصير كلامه غير مفهوم تقريباً. أما في حالتي أنا، فكانت قلة الوضوح التي تسير

مع الشرب يداً بيد ظاهرةً داخلية. كانت شيئاً لا يظهر إلّا هناك، في الداخل. وكانت هذه مشكلة لأن المرء لا يستطيع أن يرى من الخارج كم أكون متهاوياً في تلك اللحظات لأنني أمشي وأتكلم بطريقة تكاد تكون طبيعية فلا يكون هنالك مبرر، وفق المعايير كلها، لأن أنزلق في الحظة التالية، سواء في الكلام أو في السلوك. ثم إن حالتي البرية المنفلتة تزداد سوءاً لذلك السبب نفسه. كنت لا أتوقف عن الشرب نتيجة السقوط في النوم أو نتيجة مشكلات في تناسق الحركات أو الكلام، بل أتابع إلى ما بعد ذلك. أتابع حتى أصل تلك الحالة البدائية الفارغة من أي شيء. كنت أحب هذا. كنت أحب هذا الإحساس. كان الإحساس المفضل عندي. لكن نتيجته لم تكن حسنة أبداً. وفي اليوم التالي، أو في الأيام التي تلي ذلك، كان يظل على صلة مباشرة بالإفراط من غير حدود وبالحماقة والغباء... أشياء أكرهها كثيراً. أما عندما أكون في تلك الحالة، فإن المستقبل لا يكون موجوداً، ولا الماضي أيضاً... إنها اللحظة الحاضرة وحدها. اللحظة التي أريد كثيراً أن أكون فيها، وأن أبقى فيها، لأن عالمي، بما فيه من ابتذال لا يُحتَمل، يصير متألقاً.

استدرت لأنظر إلى الساعة الجدارية. خمس وعشرون دقيقة حتى منتصف الليل. التفتّ إلى إنغفه بعد ذلك. بدا لي متعباً. كانت عيناه ضيقتين محمرتين قليلاً عند أطرافهما وكأسه فارغة. رجوْت ألا يكون قد اعتزم الذهاب إلى النوم. ما كنت أريد الجلوس هنا وحدي مع جدتي.

سألته مشيراً برأسي صوب الزجاجة على الطاولة: «هل تريد المزيد؟».

قال لي: «لا بأس... ربما أشرب قطرة أيضاً. لكن يجب أن تكون الكأس الأخيرة. علينا أن نستيقظ في وقت مبكر غداً».

قلت: «أوه! ... لماذا نستيقظ في وقت مبكر؟».

«لدينا موعد في التاسعة؛ ألا تذكر هذا؟».

ضربت بيدي على جبهتي. أظن أنني لم أقم بهذه الحركة منذ تركت المدرسة.

قلت له: «سيكون كل شيء على ما يرام. ليس علينا إلّا أن نذهب».

نظرت جدتي إلينا.

أتمنى ألا تسألنا عن المكان الذي سنذهب إليه! هكذا قلت في نفسي. من المؤكد أن كلمتَيْ «مكتب الدفن» ستفسدان هذا السحر الذي نحن فيه. وعندها سنجد نفسَيْنا من جديد جالسَين معها... ستصير أماً فقدت ابنها وولدين فقدا أباهما.

لكني لم أجرؤ على سؤالها إن كانت تريد أن أسكب لها المزيد. هنالك حد... هنالك حد متعلق باللياقة، وقد تجاوزنا هذا الحد منذ زمن! مددت يدي إلى الزجاجة وسكبت منها مقدار بسيطاً في كأس إنغفه. ثم صببت القليل في كأسي أيضاً. لكن عينيها لاقتا عينيّ بعد أن فعلت ذلك. سمعت نفسي أسألها: «أتريدين كأساً أخرى؟»

أجابتني: «ربما أتناول كأساً أخرى. لقد تأخر الوقت».

قلت: «نعم... تأخر الوقت بحق الأرض».

قالت متسائلة: «ماذا تقصد؟».

قال إنغفه موضحاً: «قال إن الوقت متأخر بحق الأرض. هذا قول مقتطف من قصيدة شهيرة في السويد».

«لماذا قال هذا؟ هل أراد أن يُلزمني حَدّي؟» أوه، يا اللعنة. أظن أن ما قلته كان شيئاً غبياً... «متأخر، بحق الأرض».

قال إنغفه: «سوف ينشر كارل أوفه كتاباً عما قريب».

سألتني جدتي: «هل هذا صحيح؟».

أومأت برأسي.

«نعم... الآن بعد أن قلتما هذا تذكرت أن أحداً قاله لي من قبل. هل كان غونار من قاله؟ لست أدري! يا ربي! كتاب!».

حملت كأسها إلى فمها وشربت. فعلتُ مثلها. هل أتخيل هذا، أم أن عينيها أظلمتا من جديد؟

قلت قبل أن آخذ رشفة أخرى: «ألا يعني ما قلته لنا أنك عشت هنا خلال الحرب».

قالت وهي تشير إلى مكان خلفها: «لا! كانت عدة سنوات قد مضت عندما انتقلنا إلى هذا المكان. عشنا هناك خلال الحرب»، وأشارت إلى مكان ما خلفها.

سألتها: «كيف كان الأمر في الواقع؟ أقصد... كيف كان الوضع خلال الحرب؟»

«لقد كان مثلما كان قبل الحرب تقريباً، هل تدرك هذا؟ صار الحصول على الطعام أصعب قليلاً، أما ما عدا ذلك فلم تكن هنالك اختلافات ضخمة. كان الألمان أناساً عاديين، مثلنا. لقد تعرفنا على بعضهم. ثم ذهبنا لزيارتهم بعد الحرب أيضاً».

«في ألمانيا؟».

«نعم، في ألمانيا. عندما كانوا على وشك الذهاب في مايو 1945، اتصلوا بنا وقالوا إننا نستطيع الذهاب لأخذ بعض الأشياء التي تركوها خلفهم... إن أردنا ذلك. لقد أعطونا مشروبات ممتازة. أعطونا جهاز راديو أيضاً، وأشياء أخرى كثيرة».

لم أسمع من قبل أنهم تلقوا هدايا من الألمان قبل انسحابهم. لكن الألمان عادوا إلى ديارهم في ذلك الوقت.

كررت قولها: «أشياء تركوها خلفهم؟ أين تركوها؟»

قالت جدتي: «عند الجرف. اتصلوا وأخبرونا بالضبط عن المكان الذي نستطيع العثور عليها فيه. وهكذا ذهبنا في ذلك المساء فوجدناها حيث قالوا لنا تماماً. لقد كانوا لطيفين، لا شك في هذا».

هل ذهب جدي وجدتي في الليل إلى الجرف في أمسية في مايو 1945 بحثاً عن مشروبات تركها الألمان؟

تسرب ضوء مصباحَيْ سيارة عبر الحديقة فسقط بضع ثوان على الجدار الذي تحت النافذة، ثم انعطفت السيارة وتجاوزت البيت ببطء صاعدة الزقاق الذي في الأسفل. مالت جدتي صوْب النافذة.

قالت متسائلة: «من يمكن أن يكون في السيارة عند هذا الوقت من الليل؟».

تنهدت واستندت بظهرها إلى الخلف واضعة يديها في حجرها. نظرت إلينا وقالت: «أمر حسن أنكما هنا يا أولاد».

جاء صمت بعد ذلك. تناولت جدتي جرعة أخرى.

قالت فجأة وهي تنظر إلى إنغفه وقد ظهر دفء في عينيها: «هل تذكر عندما كنت تعيش معنا هنا؟ جاء أبوك ليأخذك، وكانت له لحية. أما أنت جريت تصعد السلم صائحاً «إنه ليس أبي»! ها ها ها! «إنه ليس أبي» لقد أمضينا أوقاتاً ممتعة معك. لقد كانت ممتعة حقاً».

قال إنغفه: «أذكر هذا جيداً».

«وذات مرة، كنا نستمع إلى الراديو. كانوا يتحدثون مع مالك أكبر الجياد سناً في النرويج. هل تذكر هذا؟ لقد قلت لأبيك: «أبي، إن عمرك من عمر أكبر الجياد في النرويج... هكذا قلت له»». انحنت إلى الأمام وضحكت، ثم فركت عينيها بأصابعها.

قالت وهي تركز نظرها عليَّ: «وأنت؟ هل تذكر يوم أتيت إلينا في الشاليه الجبلي، وكنت وحدك؟».

أومأت بالإيجاب.

«وجدناك ذات صباح جالساً على درجات السلم تبكي. وعندما سألناك عن سبب بكائك قلت لنا: «أشعر بوحدة شديدة». كنتَ في الثامنة آنذاك».

حدث هذا خلال الصيف الذي ذهب فيه أبي وأمي في عطلة إلى ألمانيا. كان إنغفه في سوربوفاغ عند أهل أمي؛ وكنت أنا هنا، في كريستيانساند. ما الذي أذكره من ذلك؟ هل أذكر أن المسافة بيني وبين جدي وجدتي كانت كبيرة جداً؟ هل أذكر أنني صرت فجأة جزءاً من حياتهما اليومية؟ كانا غريبين بالنسبة إليَّ أكثر من أي وقت مضى لأنه لم يكن هنالك أحد أو شيء يجسر الهوة بيننا. ذات صباح، وجدت حشرة في الحليب فرفضت شربه. لكن جدتي قالت لي ألّا أكون كثير المشاكل... عليَّ فقط أن أخرجها من الحليب، لأن هذا ما يحدث في الطبيعة. كان صوتها حاداً. شربت الحليب وقد أصابني الغثيان لشدة تقززي. لماذا علقت هذه الذكرى برأسي من دون غيرها؟ لماذا لم يبق غيرها؟ لا بد أن هنالك أشياء أخرى. نعم: وصلتني بطاقة بريدية من أبي وأمي عليها صورة فريق بايرن ميونخ لكرة القدم. كم كنت أتوق لهذا!... وكم كنت سعيداً عندما وصلت تلك البطاقة أخيراً! ثم كانت هنالك هدايا عندما عادا آخر الأمر. كرة قدم حمراء وصفراء لإنغفه. وكرة قدم حمراء وخضراء لي أنا. الألوان... أوه، إحساس السعادة الذي خلقته هذه الألوان...

قالت جدتي وهي تنظر إلى إنغفه: «وفي مرة أخرى، وقفت هنا على السلم تصيح بي: ’جدتي، هل أنت في الأعلى أم في الأسفل‘ أجبتك: ’إنني في الأسفل‘ فقلت صائحاً: ’لماذا لستِ في الأعلى؟‘» ضحكت جدتي.

«نعم، كان هنالك مرح كثير... عندما انتقلتم إلى توباكن، رحتَ تقرع أبواب الجيران وتسألهم إن كان لديهم أطفال في تلك البيوت. كنت تقول لهم: ’هل لديكم أطفال يعيشون هنا؟‘... ها ها ها!»

بعد انتهاء ضحكتها، ظلت جالسة مبتسمة وهي تلف سيجارة أخرى بآلتها. ظلت نهاية السيجارة فارغة من التبغ. توهّجت تلك الناحية عندما أشعلتها بالقداحة. سقطت

قطعة رماد صغيرة، طفت سابحة في اتجاه الأرض. ثم بلغ اللهب التبغ فتقلص، اختفى وصار وَهْجاً خافتاً يتألق كلما سحبت نفساً.

قالت: «لكنكما كبرتما الآن. إن هذا غريب تماماً! يبدو لي أنكما كنتما صبيَّين هنا بالأمس فقط».

ذهبنا إلى النوم بعد نصف ساعة من ذلك. نظفنا الطاولة، أنا وإنغفه. ووضعنا زجاجة الفودكا في الخزانة التي تحت مغسلة المطبخ، ثم أفرغنا منفظة السجائر ووضعنا الكؤوس آلة غسل الأطباق بينما ظلت جدتنا تنظر إلينا. وعندما انتهينا نهضت لتذهب أيضاً. كان شيء من البول يقطر من كرسيها. لكنها لم تعر ذلك التفاتاً. استندتْ إلى إطار الباب عندما خرجت، ثم استندتْ إلى الجدار في فسحة السلم.

قلت لها: «تصبحين على خير».

قالت مبتسمة: «تصبحان على خير يا أولاد». نظرت إليها فرأيت ابتسامتها تخبو لحظة استدارت وبدأت تهبط السلم.

وبعد دقيقة واحدة، عندما صرنا في الأعلى، قلت لإنغفه: «أوه، حسن... هكذا هو الأمر».

قال إنغفه: «نعم». خلع سترته ووضعها على ظهر الكرسي، ثم خلع بنطلونه. رغبت في قوْل شيء لطيف له تحت تأثير الدفء الذي أشاعه الكحول. اختفت اختلافات الرأي كلها، وما عادت هناك أي مشاكل... صار كل شيء بسيطاً.

قال لي: «يا لهذا اليوم!».

«ممم... معك حق».

استلقى في السرير وجذب اللحاف فوقه. قال مغمضاً عينيه: «تصبح على خير».

قلت: «تصبح على خير. ليلة طيبة».

ذهبت إلى مفتاح المصباح عند الباب فأطفأت الضوء الرئيسي، ثم جلست على السرير. لم أشعر برغبة في النوم. مرت بي لحظة مجنونة فكرت فيها أنني أستطيع الخروج. لا تزال هناك ساعتان قبل أن تغلق البارات أبوابها. ثم إن الوقت صيف، والناس يملأون المدينة. قد أعرف أحداً منهم.

لكن التعب استولى علي. فجأة، ما عدت راغباً إلّا في النوم. وفجأة، صرت غير قادر تقريباً حتى على رفع ذراعي. كانت فكرة أن عليَّ خلع ملابسي فكرة لا أستطيع

احتمالها فاستلقيت في السرير بثيابي كلها وغرقت في الضياء الداخلي اللطيف. كانت كل حركة ضيئلة أقوم بها، حتى تحريك إصبعي الصغير، تبعث في بطني شعوراً بالدغدغة. عندما غرقت في النوم بعد ذلك، كانت ابتسامة تعلو وجهي.

حتى في أعمق مراحل نومي، كنت أعرف أن شيئاً فظيعاً ينتظرني. وعندما اقتربت من حالة شبه الصحو، حاولت أن أعود إلى النوم، ومن المؤكد أنني كنت سأنجح في ذلك، لولا صوت إنغفه المُلِح ولولا معرفتي بأن لدينا موعداً في ذلك الصباح.

فتحت عينَيّ.

سألت إنغفه: «كم الساعة؟».

كان إنغفه واقفاً في باب الغرفة مرتدياً ملابسه كلها. بنطلوناً أسود، وقميصاً أبيض، وسترة سوداء. بدا لي وجهه منتفخاً، وبدت عيناه ضيقتين. كان شعره مشعثاً أيضاً.

قال: «إنها العاشرة إلّا ثلثاً. انهض».

قلت: «اللعنة على هذا!»

تحاملت على نفسي فجلست في السرير. لا أزال أحس الكحول في جسدي.

قال: «سأكون في الأسفل. هيا، أسرع!».

انزعجت عندما اكتشفت أنني مازلت مرتدياً ملابس البارحة. ثم زاد انزعاجي عندما تذكرت ما كنا نفعله. خلعت تلك الملابس. كان هنالك ثقل في حركاتي كلها. وكان النهوض والوقوف على قدمَيَّ يقتضي بذل طاقة، فكيف برفع ذراعي وتناول القميص الذي على المشجب المعلق على باب الخزانة! لكن، لا خيار آخر أمامي... لا بد من فعل هذا. أدخلت ذراعي اليمنى في القميص، ثم ذراعي اليسرى، ثم زرَّرت الكمَّين وبعدها الأزرار الأمامية. لماذا فعلنا هذا؟ كيف أمكننا أن نكون بهذا الغباء؟ لم يكن هذا ما أردته، بل كان آخر شيء أريده في حقيقة الأمر. ما كنت أريد الجلوس والشرب معها، هنا في هذا المكان تحديداً. لكن هذا ما حدث بالضبط، هذا ما فعلته. بحق الجحيم! كيف كان هذا ممكناً؟

كان شيئاً مخزياً!

ركعت أمام حقيبتي وأزحت طبقات من الملابس قبل أن أعثر على البنطلون الأسود. ارتديته وأنا جالس على السرير. كم كان الجلوس لذيذاً! لكني كنت مضطراً

للنهوض على قدمَيَّ من جديد حتى أرفع البنطلون وحتى أعثر على سترتي وأرتديها، وحتى أنزل إلى المطبخ. صببت لنفسي كأساً من الماء. شربت الماء. كان جبيني رطباً بفعل العرق. انحنيت فوق المغسلة ورششت الماء على رأسي من الصنبور المفتوح. أشعرني هذا بشيء من الراحة والبرودة، وبدا شعري أفضل حالاً. كان قصيراً، لكنه مشعثاً.

سرت والماء يقطر من ذقني فأحسست بأن جسدي ثقيل ككيس كبير. سرت مترنّحاً ونزلت حتى صالة المدخل فبلغت إنغفه الذي ينتظرني مع جدتي. كان يخشخش بمفاتيح السيارة في يده.

قلت: «هل لديك علكة أو شيء من هذا القبيل؟ لم يكن لدي وقت لتنظيف أسناني».

قال إنغفه: «لا تستطيع تجاوز تنظيف الأسنان هذا اليوم تحديداً. وسيكون من الأفضل أن تسرع».

كان محقاً. لعل رائحة الكحول تفوح مني. لا يجوز أن يذهب المرء بهذه الرائحة إلى مكتب الدفن! لكني ما كنت قادراً على الاستعجال. وجدت نفسي مضطراً للتوقف قليلاً في فسحة السلم في الطابق الأول. استندت إلى الدرابزين وبدا لي أن إرادتي قد نضبت تماماً. جلبت فرشاة الأسنان ومعجون الأسنان من مكانهما على الطاولة التي إلى جانب السرير، ثم نظفت أسناني بأسرع ما استطعت في مغسلة المطبخ. كان يجب أن أترك الفرشاة ومعجون الأسنان هنا وأسرع نازلاً، لكن شيئاً في عقلي قال لي إن هذا غير مناسب. لا تنتمي هذه الأشياء إلى المطبخ؛ وتجب إعادتها إلى غرفة النوم. هكذا ضاعت دقيقتان إضافيتان. بلغت الساعة العاشرة وأربع دقائق عندما صرت عند باب البيت من جديد.

قال إنغفه مستديراً صوب جدتي: «سنذهب الآن. لن نتأخر. سنعود سريعاً».

أجابت: «لا بأس في هذا».

جلست في السيارة ووضعت الحزام. ألقى إنغفه بنفسه في مقعده وأدخل المفتاح في مكانه، ثم أداره والتفت إلى الخلف ليتراجع بالسيارة هابطاً المنحدر الصغير. كانت جدتي واقفة على الدرجة العليا عند الباب. لوحت لها بيدي فلوحت بيدها. وعند تراجعنا في الزقاق حتى لم نعد قادرين على رؤيتها، تساءلت في نفسي إن كانت منتظرة

هناك مثلما اعتادت أن تفعل دائماً، عندما نتحرك إلى الأمام من جديد، يمكن أن يرى كل منا الآخر للمرة الأخيرة ويلوح بيده تلويحة وداع أخيرة. وبعد ذلك تستدير جدتي وتدخل البيت، أما نحن فنصير في الشارع.

كانت لا تزال واقفة هناك. لوَّحتُ لها فلوّحتْ لي، ثم استدارت ودخلت.

سألت إنغفه: «هل كانت تريد أن تأتي معنا أيضاً؟».

هز إنغفه رأسه.

«علينا أن نفعل ما قلناه. وعلينا أن نفعله سريعاً. هذا رغم أنني لا أمانع في أن نجلس في أحد المقاهي قليلاً أو نزور بعض محلات التسجيلات».

أشار بإصبعه الأيسر إلى الساعة التي في لوحة العدادات في السيارة بينما كانت يده الأخرى تحرك عصا القيادة. نظر إلى اليمين. لا توجد سيارات قادمة.

سألته: «كيف تحس الآن؟».

قال إنغفه: «وضعي جيد تماماً. ماذا عنك أنت؟».

قلت: «لا أزال أشعر بذلك. أظنني لا أزال ثملاً بعض الشيء في الحقيقة».

ألقى في اتجاهي نظرة سريعة وهو ينطلق في السيارة. قال: «أوه، يا عزيزي!»

قلت: «لم يكن ذلك فكرة جيدة».

ابتسم ابتسامة واهية، ثم خفض السرعة وتوقف عند الخط الأبيض. اجتاز الشارع أمامنا كهل أبيض الشعر كبير الأنف نحيل كالعصا. كانت زاويتا فم الرجل متهدِّلتين. وكانت شفتاه حمراوين داكنتين. نظر أولاً صوب التلال التي في جهة اليمين، ثم إلى صف المتاجر على الناحية الأخرى من الطريق قبل أن يخفض بصره إلى الأرض. أظنه فعل ذلك ليعرف إن كان قد اقترب من الرصيف. فعل ذلك كله كأنه وحيد تماماً، كأنه غير منتبه إطلاقاً إلى وجود أعين أخرى تراه. هكذا كان جيوتو يرسم الناس. لا يبدون في لوحاته أبداً منتبهين إلى وجود من ينظر إليهم. كان جيوتو الرسام الوحيد الذي يُظهِر هالة الهشاشة والضعف التي تمنحها هذه الأعين للناس. لعل ذلك له صلة بزمانه لأن أجيال الرسامين الإيطاليين الذين جاءت بعده، أجيال الرسامين العظام، كانت تدخل في لوحاتها دائماً عنصرَ إدراكِ وجودِ أعين تنظر إلى شخوص اللوحة. كان هذا يجعل شخوص تلك اللوحات أقل سذاجة، لكنه أيضاً يقلل ما تكشف عنه تلك الشخوص.

من الناحية الأخرى من الشارع، جاءت امرأة شابة حمراء الشعر تدفع أمامها عربة أطفال. كانت إشارة معبر المشاة الخضراء قد تغيرت في تلك اللحظة، لكن المرأة كانت تنظر إلى الإشارة الخاصة بالسيارات التي لا تزال حمراء. بدأتْ عبور الشارع فمرت أمامنا في اللحظة التي أعقبت ذلك. كان في العربة طفل عمره سنة تقريباً؛ كان خداه ممتلئين وفمه صغيراً، وكان جالساً في العربة ينظر من حوله وقد بدا عليه بعض التشوش بينما كانت أمه تجتاز به الشارع.

تحركت السيارة متسارعة بحذر عبر التقاطع.

قلت: «تأخرنا دقيقتين حتى الآن».

قال إنغفه: «أعرف هذا. إذا استطعنا أن نعثر سريعاً على مكان لوقوف السيارة فلن يكون هذا سيئاً كثيراً».

عندما وصلنا إلى الجسر، رفعت رأسي ونظرت إلى السماء فوق البحر. كانت الغيوم تغطيها كلها، غيوم خفيفة كثيراً في بعض الأماكن إلى حد جعل بياضها يكتسب مسحة من اللون الأزرق كما لو أنها غشاء شبه شفاف ممدود في السماء. أما في أماكن أخرى فكانت غيوماً ثقيلة داكنة، ورقعاً رمادية ابيضت حوافها كأنها دخان. وحيث كانت الشمس، كانت الغيوم مصفرّة بعض الشيء، رغم أن ذلك الاصفرار لم يكن قوياً... كان ضوء الشمس من تحت الغيوم مكتوماً، وكان يبدو كأنه آت من كل اتجاه. كان ذلك واحداً من تلك الأيام التي لا ظل فيها لأي شيء. كان يوماً يُكسب الأشياء صلابة فلا تفصح عن أنفسها.

قلت: «ستسافر الليلة، أليس كذلك؟»

هز إنغفه رأسه وقال: «آه... ها هو مكان للوقوف!»

وفي اللحظة التالية كان يقف عند الرصيف ويطفئ المحرك ويشد فرامل اليد. إن مكتب الدفن على الناحية الأخرى من الشارع. كنت أفضّل انتقالاً أبطأ من هذا بحيث أستطيع إعداد نفسي لما ينتظرنا؛ لكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً. علينا أن نقتحم الأمر اقتحاماً.

نزلت من السيارة وأغلقت الباب ثم تبعت إنغفه الذي بدأ يجتاز الشارع. وفي غرفة الانتظار منحتنا السيدة التي خلف طاولة الاستقبال ابتسامةً وهي تشير لنا بأننا نستطيع الدخول مباشرة.

كان باب الغرفة مفتوحاً. نهض مدير مكتب الدفن الممتلئ من خلف مكتبه عندما رآنا وجاء إلينا فصافحنا مع ابتسامة مجاملة على شفتيه... ابتسامة ليست ودية تماماً بالنظر إلى ظروف اللقاء.

قال لنا وهو يشير بيده إلى الكرسيين: «إذن، ها نحن هنا! اجلسا من فضلكما!».

أجبته: «شكراً لك».

قال: «أنا واثق من أنكما فكرتما في تفاصيل الجنازة في نهاية الأسبوع». جلس ومد يده إلى كدسة من الأوراق أمامه على المكتب. راح يقلب تلك الأوراق.

قال إنغفه: «نعم، لقد فكرنا. وقررنا إقامة مراسم الدفن في الكنيسة».

قال الرجل: «أفهم هذا. يمكنني أن أعطيكما رقم مكتب كاهن الكنيسة. نحن نتعامل مع الجوانب العملية، لكن من المستحسن أيضاً أن تكلماه بشكل مباشر. تعرفان أن عليه أن يلقي كلمة قصيرة عن والدكما. ومن المفيد أن تعطياه بعض المعلومات».

رفع رأسه ونظر إلينا. تدلت طيات الجلد حول رقبته فذكرتني بجلود السحالي... تدلت فوق رقبة قميصه. أومأنا برأسينا.

تابع كلامه: «هنالك طرق كثيرة لفعل هذا. ولديّ هنا قائمة بعدد من الخيارات. أشياء من قبيل الموسيقى مثلاً، إن كنتما تفضلان وجود موسيقى، وكذلك خيارات في ما يتعلق بنوع هذه الموسيقى. يحب بعض الناس أن تكون هناك موسيقى حية، بينما يفضل بعضهم موسيقى مسجلة. لكننا لدينا منشد في الكنيسة نستطيع الاعتماد عليه تماماً، كما أنه قادر على العزف على عدة آلات موسيقية... بالطبع، إن الموسيقى الحية تعطي جواً خاصاً، تعطي وقاراً ومهابة... لست أدري... هل فكرتما في ما تفضلانه؟».

نظرت إلى أنغفه فالتقت عيوننا.

قلت: «قد يكون هذا جيداً!».

أجاب إنغفه: «صحيح».

«إذن، هل تريدان الموسيقى الحية؟».

«أظن هذا».

قال مدير مكتب الدفن: «لقد اتفقنا إذاً».

أومأنا برؤوسنا.

انحنى فوق مكتبه ليناول إنغفه ورقة مطبوعة.

قال: «ها هي بضع خيارات في ما يتعلق بالموسيقى. لكن، إن كان لديكما أي رغبة خاصة غير موجودة على القائمة فلا مشكلة إذا عرفنا بها قبل بضعة أيام من الموعد».

ملتُ في اتجاه إنغفه فحرك الورقة حتى أستطيع رؤيتها.

قال إنغفه مقترحاً: «قد يكون باخ جيداً!».

قلت: «نعم، كان يحب موسيقى باخ كثيراً».

للمرة الأولى منذ أربع وعشرين ساعة تقريباً بدأت دموعي تنهمر من جديد.

اللعنة عليَّ إن كنت سأستخدم منديلاً ورقياً من العلبة التي على طاولة هذا الرجل هكذا قلت في نفسي وأنا أضغط بباطن مرفقي فوق عينيّ. أخذت نفساً عميقاً ثم أطلقته ببطء. لاحظت أن إنغفه ألقى في اتجاهي نظرة سريعة.

هل أحرجته دموعي؟

لا، هذا غير ممكن. لا.

قلت: «إنني بخير. أين كنا؟».

قال إنغفه وهو ينظر إلى مدير مكتب الدفن: «ستكون موسيقى باخ خياراً جيداً. سوناتا التشيلو، مثلاً...».

ونظر إليَّ: «هل أنت موافق؟».

هززت رأسي بالإيجاب.

قال مدير مكتب الدفن: «اتفقنا على هذا الأمر إذن. عادة يتم تقديم ثلاث قطع موسيقية. وكذلك ترنيمة أو ترنيمتان ينشدهما الجميع».

قلت: «ترنيمة 'الأرض السعيدة'... هل يمكننا تسجيل ذلك؟»

قال الرجل: «أمر طبيعي».

أوووه. أوووه. أوووه.

سألني إنغفه: «هل بك شيء يا كارل أوفه؟ هل أنت بخير؟».

هززت رأسي.

اخترنا أغنيتين لكي يؤديهما منشد الكنيسة، إضافة إلى ترنيمة يغنيها الجميع، وكذلك مقطوعة التشيلو 'الأرض السعيدة'. اتفقنا أيضاً على عدم إلقاء كلمة عند

التابوت. وهكذا تم التخطيط للجنازة لأن بقية العناصر ليست إلّا جزءاً من الطقوس المعتادة. إنها أمر ثابت.

«هل تريدان زهوراً؟ أقصد، بالإضافة إلى الأكاليل وهذه الأشياء! يظن أناس كثيرون أنها تضفي جواً خاصاً. لدي بعض الخيارات هنا إن أردتما رؤيتها...».

انحنى فوق الطاولة وناول إنغفه ورقة أخرى. أشار إنغفه إلى أحد الخيارات، ثم نظر إليّ فأومأت برأسي.

قال مدير مكتب الدفن: «اتفقنا إذن. يبقى لدينا موضوع التابوت. لدينا مجموعة من الصور هنا».

عَبرتْ المكتب ورقة أخرى.

قلت: «أبيض! هل تجد هذا مناسباً؟ هذا التابوت؟».

قال إنغفه: «أراه مناسباً».

استعاد مدير مكتب الدفن ورقته وسجل ملاحظة في دفتره. وبعد ذلك نظر إلينا: «لقد طلبتما معاينة اليوم، أليس كذلك؟»

قال إنغفه: «هذا صحيح. نفضل أن تكون بعد ظهر اليوم إن كان هذا ممكناً».

«لا بأس في هذا، بالطبع، لكن... أنتما تدركان ظروف وفاة أبيكما، أليس كذلك؟ تدركان أن وفاته كانت... على صلة بالكحول؟».

أومأنا برأسينا.

قال الرجل: «جيد! أحياناً، يكون من الأفضل أن يستعد المرء لما سيراه في هذه الحالات».

قلب أوراقه من جديد ثم وضعها على الطاولة.

«أخشى أنني لن أكون قادراً على استقبالكما بنفسي بعد ظهر اليوم. لكن زميلي سيكون هناك. في مصلّى كنيسة أوديرنز، هل تعرفان موقعها؟».

قلت له: «أظن هذا».

«الرابعة بعد الظهر، هل هذا مناسب؟».

«هذا مناسب».

«اتفقنا على هذا أيضاً».

«الرابعة بعد الظهر في مصلى كنيسة أوديرنز. وإذا فكرتما في أي شيء جديد، أو أردتما تغيير أي شيء، فليس عليكما إلّا أن تتصلا بي. أظن أن رقم هاتفي لديكما».

قال إنغفه: «نعم، لدينا رقم هاتفك».

«ممتاز! أوه، هناك أمر آخر. هل تريدان نشر إعلان عن الجنازة في الصحف؟».

قلت وأنا أنظر إلى إنغفه: «أظن أننا نريد هذا، ما رأيك؟».

قال إنغفه: «نعم. علينا أن ننشر إعلاناً».

قلت: «لكن قد يكون من الأفضل أن نفكر في كلمات الإعلان بعض الشيء، وذلك حتى نقرر ما نريد قوله، وحتى نحدد الأسماء التي نريد ذكرها في الإعلان، وأشياء من هذا القبيل».

قال مدير مكتب الدفن: «لا مشكلة في هذا. يمكنكما المجيء مرة أخرى أو الاتصال بي بعد أن تفكرا في الإعلان. لكن لا تتركا هذا الأمر إلى وقت متأخر كثيراً. إن الصحيفة في حاجة إلى مهلة يومين على الأقل».

قلت له: «يمكنني الاتصال بك غداً، هل يناسبك هذا؟».

قال الرجل وهو يقف حاملاً ورقة أخرى في يده: «ممتاز! ها هو رقم هاتفنا، وكذلك عنوان كاهن الكنيسة. من منكما يحب أن يحتفظ به؟».

قلت: «سآخذه أنا».

وقفنا على الرصيف في الخارج. أخرج إنغفه علبة السجائر وقدم لي واحدة. أخذتها منه. في الحقيقة، كانت فكرة التدخين كريهة في تلك اللحظة مثلما يكون الأمر دائماً في اليوم الذي يعقب سهرة شراب لأن الدخان (لا أقصد الطعم أو الرائحة في حد ذاتهما) يخلق صلة بين اليوم الحاضر واليوم الذي قبله، ينشئ نوعاً من جسر حسّي تمر عبره أنواع مختلفة من الأشياء فيصير كل ما يحيط بي... الإسفلت الأسود الضارب إلى الرمادي، ولون حجارة الرصيف الرمادي الخفيف، والسماء الرمادية، والطيور التي تطير تحت تلك السماء، والنوافذ السوداء في صفوف البيوت، والسيارة الحمراء التي نقف إلى جانبها، وهيئة إنغفه المشتتة... تصير كلها مخترقة وتتخللها صور داخلية مخيفة. وفي الوقت نفسه، كان هنالك شيء من الإحساس بالدمار

والخراب يمنحني إياه الدخان عندما يدخل رئتيّ... إحساس كنت في حاجة إليه، أو كنت راغباً فيه.

قلت: «جرى الأمر على نحو جيد».

قال إنغفه: «هنالك بضعة أشياء علينا أن نهتم بنا الآن، وإلا صرت مضطراً إلى الاهتمام بها بنفسك. إعلان الجنازة على سبيل المثال. لكنك تستطيع الاتصال بي في طريق عودتي».

قلت: «حسناً».

سألني إنغفه: «بالمناسبة، هل لاحظت تلك الكلمة التي استخدمها الرجل؟»

«كلمة معاينة؟».

ابتسمت، ثم قلت: «نعم، لكن هنالك شيئاً في عمل هذا الرجل يشبه عمل سماسرة العقارات. مهمته أن يجعل الأشياء تبدو جيدة إلى أقصى حد ممكن، وأن يجني أكبر كمية ممكنة من المال. هل رأيت أسعار التوابيت؟»

هز إنغفه رأسه وقال: «صحيح. لكن، لا يمكنك أن تكون بخيلاً عندما تجلس هناك».

قلت: «هذا يشبه قليلاً شراء النبيذ في المطعم. أقصد... إذا لم يكن المرء خبيراً. إذا كان لديك مال كثير فإنك تأخذ ثاني أعلى نوع. أما إذا كان لديك مال قليل فإنك تأخذ ثاني أرخص نوع. لا يطلب المرء النوع الأغلى أبداً، ولا النوع الأرخص. أظن أن الأمر هكذا في ما يتعلق بالتوابيت أيضاً».

قال إنغفه: «بالمناسبة، لقد عبّرتَ عن رأي قاطع هناك... أقصد، أن يكون التابوت أبيض اللون».

رفعت كتفيَّ محتاراً، ورميت السيجارة المشتعلة على الأرض.

قلت: «النقاء!... أظن أن هذا ما كنت أفكر فيه».

رمى إنغفه سيجارته، ثم داسها وفتح باب السيارة وجلس فيها. لحقت به.

قال لي: «إنني فزع من رؤيته». وضع حزام المقعد بإحدى يديه وهو يدخل المفتاح باليد الأخرى... «هل أنت مثلي؟».

«نعم! لكن عليَّ أن أفعل هذا وإلا فإنني لن أكون قادراً أبداً على استيعاب أنه قد مات حقاً».

قال إنغفه وهو ينظر في مرآة السيارة: «وأنا مثلك». ثم أضاء الإشارة وانطلق.

سألني: «هل نعود إلى البيت الآن؟».

قلت: «الآلات! لدينا آلة تنظيف السجاد وآلة جز العشب. سيكون من الأفضل كثيراً أن نأتي بهما قبل ذهابك».

«هل تعرف مكان ذلك المتجر؟».

«لا، لا أعرفه. قال غونار إن هنالك شركة لتأجير الآلات في غريم، لكني لا أعرف العنوان الدقيق».

قال إنغفه: «لا بأس! سيكون علينا أن نجد دليلاً للهاتف أولاً لكي نبحث في الصفحات الصفراء. هل تعرف إن كان هنالك كشك هاتف قريب».

هززت رأسي نفياً، ثم قلت: «لكن هنالك محطة وقود في نهاية إيليفيغيت. يمكننا محاولة العثور على دليل الهاتف هناك».

قال إنغفه: «فكرة حسنة! عليَّ أيضاً أن أزود السيارة بالبنزين قبل أن أسافر الليلة».

بعد دقيقة من ذلك، دخلنا تحت سقف ساحة محطة الوقود. توقف إنغفه إلى جانب المضخة. وبينما كان يملأ خزان السيارة، دخلت المتجر. كان هنالك هاتف بحصّالة على الجدار، ومن تحته ثلاثة أدلة هاتف مثبّتة. عثرت على عنوان شركة تأجير الآلات، فحفظته في ذهني وذهبت إلى الصندوق لأشتري تبغاً. استدار الرجل الواقف في الصف أمامي عندما اقتربت منه.

قال لي: «كارل أوفه؟ هل هذا أنت؟».

عرفته. كنا معاً في المدرسة الثانوية. لكني لم أستطع تذكر اسمه.

أجبته: «مرحباً! لقد مر زمن طويل. كيف حالك؟»

قال لي: «ممتاز! كيف حالك أنت؟».

أدهشتني نبرة كلامه الصادقة. خلال مرحلة السكن الطلابي، أقمت ذات يوم حفلة كان هذا الرجل واحداً ممن أتوا إليها. لكن سلوكه كان في غاية السوء... رفس باب الحمام فأحدث فيه حفرة. ثم رفض بعد ذلك أن يدفع تكلفة إصلاحه، وما كان هنالك شيء أستطيع فعله. وفي مرة أخرى، كان يقود باص السكن الطلابي، وكنت جالساً فوق سطح الباص... مع بجورن على ما أذكر... كنا ذاهبين إلى «مركز الألعاب». وعلى نحو

مفاجئ تماماً، فوق المرتفع الذي بعد تقاطع تيمينيز، ازدادت سرعة الباص كثيراً فكان علينا أن ننبطح فاتحين أيدينا وأرجلنا وأن نتمسك بشدة بالقضبان. قاد الباص بسرعة سبعين كيلومتر على الأقل، بل ربما ثمانين. وراح يضحك منا عندما وصلنا، حتى بعد أن وبخناه كثيراً.

فما هذه الهيئة الودية الآن؟

التقت أعيننا. ربما كان وجهه أكثر امتلاء بقليل مما كان أيام دراستنا معاً. أما غير ذلك فإنه لم يتغير أبداً. لكني رأيت في ملامحه شيئاً متيبساً، نوعاً من الجمود الذي زادته الابتسامة ظهوراً بدلاً من تخفيفه.

سألته: «ماذا تفعل الآن؟».

أجابني: «أعمل في بحر الشمال».

قلت له: «آه... هذا يعني أنك تجني مالاً كثيراً!».

«هذا صحيح. ولديَّ إجازات كثيرة أيضاً. ووضعي جيد. ماذا عنك؟».

بينما كان يحدثني، نظر إلى البائعة وأشار إلى النقانق المشوية، ثم رفع إصبعاً واحداً في الهواء.

أجبته: «لا أزال أدرس».

«ما موضوع دراستك؟».

«الأدب».

قال: «ممم، لقد كنت تحب الأدب دائماً».

قلت: «نعم. هل ترى إيسبن؟ أو تروند؟ أو جيزلِه؟».

رفع كتفيه وأجاب: «يعيش تروند في المدينة. وهكذا فإنني أراه من حين لآخر. وأرى إيسبن عندما يأتي في عيد الميلاد. وماذا عنك أنت؟ هل لديك أي صلة مع أحد من زملائنا الآخرين؟».

«مع باسين فقط».

وضعت البائعة إصبع النقانق داخل قطعة من الخبز، ثم وضعتها على منديل ورقي.

سألَته: «هل تريد الكاتشب والخردل؟»

«نعم من فضلك، كليهما... مع بصل أيضاً».

«أتريد بصلاً طازجاً أم مقلياً؟»

«أريده مقلياً. لا، بل أريده نيئاً».

«بصل نيء؟».

«نعم».

بعد حصوله على ما طلبه، صارت شطيرة النقانق في يده فاستدار في اتجاهي قائلاً: «أمر لطيف أن أراك مجدداً يا كارل أوفه. أنت لم تتغير».

أجبته: «وأنت لم تتغير أيضاً».

فتح فمه وقضم قطعة من شطيرته وهو يناول البائعة ورقة نقدية من فئة خمسين كروناً. سادت لحظة من الحرج وهو ينتظر بقية النقود لأنه أنهى الحديث بيننا. ابتسم لي ابتسامة باهتة.

قال وهو يطبق يده على بقية النقود: «لا بأس... قد أراك مرة أخرى!»

أجبته: «نعم، آمل أن نلتقي». وبعد ذلك اشتريت التبغ ووقفت أمام رف الصحف متظاهراً بأنني مهتم بها لأنني لم أكن راغباً بمصادفته من جديد في الخارج. جاء إنغفه ليدفع ثمن الوقود. فعل ذلك بورقة من فئة ألف كرون. أشحت بوجهي عندما أخرج تلك الورقة من محفظته لأنني لم أكن راغباً في إظهار أنني أعرف أنها من نقود أبي. غمغمت شيئاً عن الخروج، ثم سرت في اتجاه الباب.

رائحة الوقود والإسمنت في الضوء الخافت تحت سقف ساحة محطة الوقود... أهنالك شيء محمل بالدلالات أكثر من هذا؟ المحركات، والسرعة، والمستقبل.

لكن أيضاً... شطائر النقانق، وأسطوانات سيلين ديون وإيريك كلايتون.

فتحت باب السيارة وجلست. جاء إنغفه بعد ذلك بلحظة فشغل محرك السيارة وانطلقنا من غير أي كلمة.

كنت أسير في الحديقة جيئة وذهاباً، أجز العشب. كانت الآلة التي استأجرناها مؤلفة من قطعة يعلقها المرء على ظهره وقضيب منتهٍ بنصل دوار. أحسست كأنني إنسان آلي عندما رحت أسير في الحديقة واضعاً واقيتي الأذن الصفراوين الضخمتين ومربوطاً إلى تلك الآلة المهتزة المزمجرة. سرت أجز النباتات كلها والزهور كلها والعشب كله. وكنت أبكي من غير توقف. كانت تأتيني نوبة بعد نوبة من النشيج وأنا أعمل. لكنني لم أعد أقاومها. تركت تلك الدموع تجري. ناداني إنغفه من الشرفة عندما

بلغت الساعة الثانية عشرة، فدخلت لآكل معهما. كان قد أعد الشاي والسندويتشات مثلما اعتادت جدتي أن تفعل دائماً. لقد سخن السندويتشات على شبكة الشيّ التي وضعها فوق الموقد فصار سطحها الذي يكون طرياً عادة صلباً بعض الشيء تتناثر منه قطع صغيرة عندما يغرس المرء أسنانه فيها. لكنني لم أكن جائعاً، وسرعان ما خرجت لمتابعة العمل. أشعر بالحرية لأنني في الخارج، ولأنني وحدي؛ وأشعر بالرضا أيضاً لأنني أستطيع أن أرى نتائج عملي سريعاً. كانت الغيوم قد غطت السماء تماماً. سحب رمادية مبيضة كأنها غطاء ممتد فوقي، وتأثير سطح البحر الداكن على الضد من صفاء تلك الغيوم... والمدينة التي عادة ما تبدو صغيرة تحت سماء صافية، تبدو تجمعاً من البيوت لا أهمية له أو شذرة غبار على الأرض... صارت الآن تبدو أكثر وزناً وأكثر صلابة. هذا ما كنت فيه، وهذا ما كنت أراه. كانت أنظاري مركزة معظم الوقت على الشفرة الدوارة وعلى العشب الذي يتساقط مثل جنود يحصدهم الرصاص. كان أكثر العشب مصفراً رمادياً، وليس أخضر؛ وكان ذلك اللون ممتزجاً بحمرة نباتات ذيل الثعلب وصفرة السوسن ذي العين السوداء. لكني كنت أرفع عيني من وقت لآخر صوب السماء الكبيرة الرمادية الشاحبة وصوب سطح البحر الرمادي الداكن، وأنظر إلى حشد السفن والقوارب والصواري والحاويات والخردة الصدئة عند الرصيف، وإلى المدينة التي تضج بألوانها ونشاطها كأنها آلة كبيرة. وكانت الدموع تنسكب على خدي من غير توقف، لأن أبي الذي ترعرع هنا كان ميتاً الآن. أو... لعل ذلك لم يكن سبب بكائي... ربما كنت أبكي لسبب مختلف تماماً. ربما كنت أبكي كل ما راكمتُه من بؤس وحزن منذ خمسة عشر عاماً وأنفّس عنه الآن. لا أهمية لهذا، لا أهمية لشيء، لأنني أمشي وأمشي في الحديقة وأحصد العشب الذي طال أكثر مما ينبغي له أن يطول.

أوقفت الآلة الجهنمية في الساعة الثالثة والربع فوضعتها في الفسحة التي تحت الشرفة، ودخلت البيت من أجل حمام سريع قبل الخروج. أحضرت الثياب والمنشفة والشامبو من العلية ووضعتها كلها على كرسي المرحاض، ثم أقفلت الباب وخلعت ملابسي ودخلت حوض الاستحمام ووجهت رأس الدوش بعيداً عني، ثم فتحت الماء. وعندما صار الماء دافئاً أدرت رأس الدوش في اتجاهي من جديد فانهمر الماء الحار فوقي. عادة ما يعقب هذا إحساس طيب، لكن ليس هذه المرة، ليس هنا! وهكذا غسلت شعري بسرعة، ثم أزلت الصابون عنه، وأغلقت الماء وخرجت من الحوض

فجففت جسمي وارتديت ملابسي. دخنت سيجارة عند درجات المدخل منتظراً نزول إنغفه. كنت في ذعر من المرحلة التالية، وعندما فتح السيارة رأيت في وجهه، من فوق سطحها، أنه كان مذعوراً مثلي.

كان مصلّى الكنيسة مجاوراً لمدرستي الثانوية، خلف صالة الرياضة الكبيرة، بشكل قطري. وكنا منطلقين بالسيارة في الطريق نفسه الذي ظللت أسير فيه طيلة الشهور الستة التي عشتها في بيت جدي وجدتي في إيلفيغيت. لكن رؤية هذه الأماكن المألوفة لم تثر شيئاً في نفسي، بل ربما كنت أراها على حقيقتها للمرة الأولى... أشياء لا معنى لها، أشياء مفرغة من أجوائها. سياج من الأوتاد هنا، وبيت أبيض من القرن التاسع عشر هناك، وبضع شجرات، وبضع أجمات، وبعض العشب، وحاجز إلى جانب الطريق، ولوحة تشير إلى الاتجاهات. حركة الغيوم في السماء. حركة البشر على الأرض. ريح ترفع أغصان الأشجار وتجعل آلاف الأوراق تهتز وترتجف راسمة أشكالاً لا يمكن توقعها ولا يمكن منعها.

قلت عندما اجتزنا المدرسة فرأيت الكنيسة خلف الجدار الحجري أمامنا: «تستطيع الدخول من هنا. هذا هو الشارع».

قال إنغفه: «لقد كنتُ هنا من قبل».

قلت له: «حقاً؟» .

«كان احتفال تعميد. أنت كنت هنا أيضاً، ألا تذكر هذا؟».

قلت: «لا أذكر أنني حضرت تعميداً هنا».

قال إنغفه: «أما أنا فأذكره». وانحنى إلى الأمام ليتمكن من الرؤية بشكل أفضل.

«هل هو خلف موقف السيارات؟».

أجبته: «أظن أنه يجب أن يكون هناك».

قال إنغفه: «لقد وصلنا أبكر مما يجب. لا يزال أمامنا ربع ساعة».

خرجت من السيارة وأغلقت الباب. جاءت آلة جز عشب متقدمة في اتجاهنا في الناحية الأخرى خلف الجدار الحجري. كان يدفعها رجل عاري الصدر. وبعد أن تجاوزتنا الآلة بخمسة أمتار، رأيت أن الرجل يضع حول عنقه سلسلة فضية فيها شيء معلق بها يشبه شفرة حلاقة. وإلى الشرق، فوق الكنيسة، صارت السماء أكثر ظلمة. أشعل إنغفه سيجارة وسار بضع خطوات عبر موقف السيارات.

قال لي: «نعم، نعم. إننا هنا أخيراً».

نظرت إلى مصلّى الكنيسة. كان فوق المدخل مصباح مضاء لا يكاد يرى في ضوء النهار. رأيت أيضاً سيارة حمراء واقفة بالقرب منا.

أسرعت ضربات قلبي.

قلت: «إننا هنا فعلاً».

حلقت طيور فوقنا، في الأعلى، تحت السماء التي لا تزال رمادية شاحبة هناك. كان الرسام الهولندي رويسديل يرسم الطيور عالياً في السماء حتى يخلق عمقاً. يكاد يكون ذلك توقيعه الشخصي. على الأقل، هذا ما رأيته في صور كثيرة في كتاب عنه اشتريته منذ فترة.

كان باطن الأشجار التي في الخلف أسود اللون.

سألت إنغفه: «كم الوقت الآن؟».

مد إنغفه ذراعه إلى الأمام حتى ينزلق كم سترته قليلاً فيتمكن من رؤية ساعته.

«بقي خمس دقائق. هل ندخل؟».

أومأت برأسي.

انفتح الباب عندما صرنا على مسافة عشرة أمتار من مدخل المصلّى. نظر إلينا شاب يرتدي بذلة داكنة. كانت الشمس قد لوحت وجهه، أما شعره فكان أشقر اللون.

قال لنا: «كناوسغارد؟».

أشرنا بالإيجاب.

صافحَنا. كان الجلد حول منخريه محمراً منتفخاً قليلاً. وكانت عيناه الزرقاوان شاردتين.

قال مقترحاً: «هل ندخل؟».

سرنا خلفه فدخلنا الصالة أولاً. توقف هناك.

قال موضحاً: «إنه هنا. لكن، قبل أن ندخل، أريد أن أجعلكما مستَّين قليلاً. ليس المنظر ساراً في حقيقة الأمر. كان هنالك دم كثير، أنتما تعرفان، وهكذا... حسن، فعلنا ما استطعنا فعله، لكن الدم لا يزال ظاهراً».

الدم؟

نظر الرجل إلينا. ارتعدت.

«هل أنتما مستعدان؟»

قال إنغفه: «نحن مستعدان».

فتح الباب فسرنا خلفه إلى غرفة أكثر اتساعاً. كان أبي راقداً على نعش في منتصف الغرفة. كانت عيناه مغمضتين وقسمات وجهه منفرجة، مرتاحة.

أوه، يا إلهي!

وقفت إلى جانب إنغفه، وقفت أمام أبي. كان خدّاه أرجوانيين، مشبعَيْن بالدم. لا بد أن الدم ظل عالقاً في المسام عندما حاولوا مسحه وإزالته. وأنفه أيضاً... كان مكسوراً. لكن، ومع أنني كنت أراه، فإنني لم أره لأن التفاصيل كلها غابت في شيء آخر، في شيء أكبر، في الهالة المنبعثة عنه... هالة الموت التي لم أرها من هذه المسافة القريبة قبل الآن، وأيضاً في ما كانه هذا الرجل بالنسبة إليَّ... في كونه أبي وفي الحياة الكامنة في ذلك الأمر.

لم أتذكر الدم إلّا عندما عدت فدخلت بيت جدتي بعد أن ودعت إنغفه الذي انطلق إلى ستافانغر. كيف انتهى الأمر بهذا الشكل؟ قالت جدتي إنها وجدته ميتاً في الكرسي. وكان من الطبيعي، انطلاقاً من هذه المعلومات، افتراض أن قلبه قد توقف بينما كان جالساً هناك؛ ولعله كان نائماً آنذاك. لكن مدير مكتب الدفن قال لنا إن هنالك دم، كمية كبيرة من الدم. لقد كان أنف أبي مكسوراً أيضاً. لا بد إذن أن يكون قد جرى صراع عنيف انتهى بالموت! هل نهض واقفاً لشدة ألمه، ثم سقط فاصطدم بالمدفأة؟ هل سقط على الأرض؟ لكن، إن كان هذا ما حدث، فلماذا لم يكن هنالك دم على الجدار، أو على الأرض؟ وكيف حدث أن جدتي لم تقل شيئاً عن الدم؟ لا بد أن شيئاً ما قد حدث؛ ولا يمكن أن يكون قد مات بسلام في نومه... ليس مع وجود هذا الدم كله. هل نظفت جدتي ذلك الدم ثم نسيت أن تقول عنه شيئاً؟ لماذا تنظفه؟ لم تنظف أي شيء آخر. ولا يبدو أن التنظيف واحدٌ من الأشياء التي كانت تفعلها. كان أمراً غريباً أنني نسيت الأمر بهذه السرعة. أو، لعله ليس غريباً تماماً، لأنني كنت مضطراً إلى الاهتمام بأشياء كثيرة أخرى! على أية حال، سيكون عليَّ أن أتصل مع إنغفه حال عودتي إلى بيت

جدتي. علينا أن نصل إلى الطبيب الذي أشرف على نقل الجثة. وسيكون الطبيب قادراً على تفسير ما حدث.

سرت صاعداً المنحدر الخفيف بأسرع ما استطعت فعبرت سياجاً أخضر نَمَت خلفه نباتات كثيفة؛ سرت مسرعاً كأنني أخشى ألا أكون قادراً على الوصول في الوقت المناسب. وكان هناك دافع آخر يعمل في داخلي... شيء يدفعني إلى إطالة الوقت الذي أمضيه وحدي، إلى إطالته بقدر ما أستطيع. بل ربما أجد مقهى فأجلس فيه وأقرأ صحيفة. أن أكون في بيت جدتي مع إنغفه أمر مختلف تمام الاختلاف عن كوني فيه وحدي. يعرف إنغفه كيف يتعامل معها. لكن نغمة الثرثرة الخفيفة التي يستخدمانها، التي يتقنها إيرلينغ وغونار أيضاً، لم تكن جزءاً من طبيعتي في يوم من الأيام... هذا إذا أردت التعبير عن الأمر بطريقة معتدلة. وخلال السنة التي أمضيتها في المدرسة في كريستيانساند عندما كنت أمضي وقتاً كثيراً مع جدي وجدتي، لأنني كنت أعيش في مكان قريب منهما، بدا لي أن طباعي غير مواتية لهما وكأن هنالك شيء في طبعي لا يريدان معرفته. تأكد هذا الشك عندي بعد شهور قليلة بعدما أخبرتني أمي ذات مساء بأن جدتي اتصلت وقالت لها إن عليَّ ألا أذهب إليهما كثيراً. أستطيع تقبل معظم حالات الرفض، لكن ليس هذه الحالة... إنهما جدي وجدتي! كانت فكرة أنهما لا يريدان صلة بي أمراً ساحقاً جعلني غير قادر على ضبط نفسي فانفجرت باكياً أمام أمي. كانت في غاية الغضب، لكن ما الذي تستطيع أمي فعله؟ لم أكن أفهم شيئاً من هذا في ذلك الوقت فظننت، ببساطة، أنهما لا يحبانني. لكني بدأت، بعد ذلك، أحس الشيء الذي يجعل حضوري غير سار: كنت غير قادر على المراءاة، غير قادر على أن ألعب دوراً؛ وكان من غير الممكن، على المدى البعيد، تنحية الإخلاص المدرسي الذي أتيت به إلى البيت؛ وما كان جدي وجدتي قادرَيْن، حتى هما، على البقاء بمعزل عنه أو بمعزل عن الخلل الذي ينتج عنه لأن مزاجهما ما كان يطالبني بشيء أبداً. لا بد أن هذا ما جعلهما يتصلان بأمي آخر الأمر. لكن وجودي كان يطالبهما بأشياء كثيرة دائماً... بطرق ملموسة، كالطعام مثلاً، لأنني أذهب إليهما بعد المدرسة قبل موعد تدريبات كرة القدم فيكون عليَّ أن آكل شيئاً حتى لا أظل من غير طعام حتى الثامنة أو التاسعة؛ أو المال مثلاً. لأن الباصات لم تكن مجانية بالنسبة لتلاميذ المدارس إلّا في فترة بعد الظهر. وغالباً ما كنت غير قادر على دفع تذكرة الباص من جيبي. من حيث الجوهر،

وبقدر ما كان الأمر متعلقاً بالطعام والمال، فإنهما لم يكونا يمانعان في إعطائي ما أريد، لكني أظن أن ما أزعجهما هو أنني كنت في حاجة إلى الاثنين معاً وأن الأمر لم يكن خياراً بالنسبة إليهما: لم يعد طعامي والمال اللازم من أجل الباص هدايا يقدمانها من قلبيهما، بل صار ذلك شيئاً آخر. كان لهذا الشيء الآخر أثر ضار على علاقتنا... خلقَ بيننا رابطة لم يكونا يقبلانها. لم أكن قادراً على فهم الأمر في ذلك الوقت، لكني أفهمه الآن. وأما طبعي أنا، وقربي منهما بحياتي وأفكاري، فقد كان جزءاً من المسألة نفسها. لم يكونا قادرين على مبادلتي هذا القرب، وأظن أنهما ما كانا راغبَيْن في ذلك: هذا أيضاً شيء كنت آخذه منهما أخذاً. والمفارقة هي أنني كنت، خلال هذه الزيارات إليهما، أراعيهما دائماً وأقول ما أظن أنهما يحبان سماعه... حتى أكثر الأشياء خصوصية كنت أقولها أمامها، لأنني أظن أن سماعها يسرهما، لا لأنني كنت في حاجة إلى قولها!

إلا أن الشيء الأسوأ في هذا كله (بينما رحت أمشي في الشارع الطويل في اتجاه لوند وأمر بصف من السيارات في زحام بعد الظهر، وأعبر شجرةً بعد شجرةٍ اسودّ جذعها من غبار الإسفلت ودخان السيارات فصار قاسي المظهر، كالصخر، إن قورن بكتلة الضياء والأوراق الخضر على الأغصان في الأعلى) كان أنني اعتبرت نفسي في ذلك الوقت قادراً على إطلاق أحكام صحيحة فيما يتعلق بالشخصية. ظننت أن لديّ الموهبة اللازمة لذلك، أو أوهمت نفسي بهذا الظن. القدرة على فهم الآخرين!... في حين كنت، أنا نفسي، سراً غامضاً.

كم يمكن أن يكون المرء غبياً!

ضحكت ورفعت رأسي على الفور لأنظر إن كان أحد من الناس الجالسين على تلك السيارات الواقفة في الطريق قد رآني. لم يرني أحد. كان كل منهم غارقاً في أفكاره الخاصة به. لعلي صرت أكثر ذكاء خلال هذه السنوات الاثنتي عشر، لكني لا أزال غير قادر على المراءاة. لا أستطيع أن أكذب أيضاً، ولا أستطيع أن أمثّل أدواراً. لهذا السبب، كنت سعيداً بأن أترك لإنغفه مسألة التعامل مع جدتنا. لكن عليَّ أن أعتمد على نفسي الآن.

توقفت لكي أشعل سيجارة. وعندما تحركت من جديد، أحسست بشيء من الارتياح. هل أحسستُ هذا بسبب واجهات البيوت التي على يساري، الواجهات التي كانت بيضاء ذات مرة، لكنها صارت ملوثة الآن؟ أم هي الأشجار في هذا

الشارع؟ هذه الكائنات التي لا تتحرك، الكائنات التي تحمل خضرة كثيفة، التي تتنفس الهواء فتنتج عدداً لا يحصى من الأوراق؟ أقول هذا لأنني أحسّ السعادة تملأ نفسي كلما رأيتها.

أخذت نفساً أعمق من المعتاد، ونفضت رماد السيجارة الفضّي الرمادي خلال سيري. الذكريات النائمة التي استحضرتها مع كل ما كان يحيط بي عند ذهابي إلى الكنيسة مع إنغفه... جاءتني الآن من جديد، بقوَّتها كلها. أتذكر هذا المحيط في فترتين اثنتين: الأولى عندما كنت صغيراً أزور جدي وجدتي في كريستيانساند فيبدو لي كل تفصيل صغير في المدينة مغامرة كبرى، والثانية عندما عشت هنا خلال مراهقتي. تركت المدينة منذ سنوات كثيرة؛ ومنذ أن عدت إليها الآن، لاحظت كيف أن تيار الانطباعات التي تركتها في نفسي كان مرتبطاً بعالم الذكريات الأول في جزء منه، ومرتبطاً بعالم الذكريات الثاني في جزء آخر. ومن هنا فقد كان موجوداً في ثلاث مراحل زمنية في الوقت عينه. رأيت الصيدلية فتذكرت يوم ذهبت إليها مع إنغفه وجدتي. كانت أكوام الثلج كبيرة في الخارج، وكان الثلج يتساقط. جدتي في معطف وقبعة من الفرو. وقفتُ في الصف أمام نافذة البيع؛ وكان العاملون في الصيدلية يذهبون ويأتون في الداخل مرتدين أثوابهم البيضاء. كانت جدتي تلتفت من حين لآخر حتى ترى ما كنا نفعله. وبعد التفاتاتها المستطلعة الأولى، حين كانت عيناها حياديتين، أو حتى باردتين، ابتسمت لنا فامتلأت العينان دفئاً كأنما بفعل إشارة من عصا سحرية. رأيت التل الذي يصعد فيه الشارع حتى جسر لوند، وتذكرت كيف كان جدي يأتي من ذلك الاتجاه على درّاجته بعد الظهر. كم كان يبدو شخصاً مختلفاً خارج البيت! كأن تمايل الدراجة البسيط عند صعودها ذلك المنحدر كان يقول شيئاً لا عن الدراجة التي يقودها بل عن شخصه، هو نفسه: يبدو تارة مثل أي كهل من الكهول في كريستيانساند في معطفه وقبعته الخفيفة؛ ثم يصير جدي أنا في لحظة أخرى. رأيت سقوف البيوت في المنطقة السكنية ممتدةً تحت الطريق فتذكرت كيف كنت أمشي بينها عندما كنت في السادسة عشر، عندما كانت مشاعري تملؤني. في ذلك الوقت، كان كل شيء أراه... حتى آلة تجفيف صدئة في حديقة خلفية، أو تفاحات متعفنة على الأرض تحت شجرة، أو زورق مغطى بمشمع من التاربولين بمقدمته البارزة الرطبة والعشب الأصفر المسحوق تحتها... كان ذلك كله يشعّ جمالاً. رأيت التل الذي يكسوه العشب خلف البنايات

على الناحية الأخرى فتذكرت السماء الزرقاء واليوم الشتائي البارد عندما ذهبنا للتزلج مع جدتي. كان انعكاس الشمس متلألئاً على الثلج ذلك اليوم إلى حد جعل الضياء يبدو مثلما يكون في الجبال المرتفعة؛ وبدت لنا المدينة من تحتنا مفتوحة إلى حد جعل كل ما يحدث فيها يظهرُ غيرَ متصل بأي شيء كأنه عائم تحت تلك السماء... الناس والسيارات العابرة في الشوارع، والرجل الذي يجرف الثلج في باحة صالة الاجتماعات إلى الناحية الأخرى من الطريق، والأطفال الآخرون على زلاجاتهم. كان هذا كله حياً في داخلي عندما مضيت أسير وجعلني أنتبه حقاً إلى ما يحيط بي. لكن ذلك كان على السطح فقط. كان في الطبقة العليا من طبقات وعيي، لأن أبي قد مات ولأن الحزن الذي سببه موته يخترق كل شيء ويتخلل ما أفكر فيه وما أحسه فتنكمش تلك الطبقة السطحية. أبي حاضر في هذه الذكريات أيضاً، لكنه ليس مهماً فيها. من الغريب حقاً أن وجوده فيها لا يثير شيئاً! أبي سائر على الرصيف أمامي في أوائل السبعينيات. كنا قد ذهبنا إلى كشك الصحف حيث اشترى أدوات تنظيف الغليون ثم ذهبنا إلى بيت جدي وجدتي. كيف رفع ذقنه ورأسه مبتسماً لنفسه، وسروري برؤيته هكذا! أو ذكرى أبي في المصرف... كيف أمسك محفظته بإحدى يديه وجرت يده الأخرى في شعره وراح ينظر إلى انعكاس صورته في الزجاج أمام الصندوق، أو أبي في طريقه خارجاً من المدينة: لا أحس وجوده هاماً في أي ذكرى من هذه الذكريات. كان حضوره مهماً عندما عشت هذه اللحظات، لكن ليس عندما أفكر فيها الآن. الفارق الآن هو أنه قد مات. في ما يتعلق بالموت، هو كل شيء... بالطبع، لكن الموت هو كل شيء أيضاً لأنني، عندما صرت تحت ذلك المطر الخفيف، أحسست أنني أجد نفسي في منطقة محددة لا معنى لكل ما هو واقع خارجها. كنت أرى، وكنت أفكر، لكن ما أراه وأفكر فيه كان منسحباً، متراجعاً: لا أهمية له. لا أهمية لشيء. لقد مات أبي، الحقيقة أنه مات، هذا ما له أهمية!

خلال فترة سيري كلها، كنت أفكر في المغلف البني الذي يحتوي على الأشياء التي كانت مع أبي عندما مات. توقفت عند محل البقالة مقابل الصيدلية، ثم استدرت صوب الجدار وأخرجت المغلف من جيبي. نظرت إلى اسم أبي عليه. بدا اسماً غريباً. توقعت أن يكون «كناوسغارد»، لكنه كان صحيحاً رغم ذلك... هذا الاسم الطنان إلى حد مضحك... إنه الاسم الذي قرر حمله ومات عليه.

خرجت من باب المحل امرأة متقدمة في السن تجر بإحدى يديها حقيبة تسوق ذات عجلتين وباليد الأخرى كلباً... نظرت إلي. سرت بضع خطوات مقترباً من الجدار وأفرغت محتويات المغلف في يدي. خاتم أبي، وسلسلة عنق، ودبوس، وبضع قطع من النقود المعدنية. هذا كل شيء. إنها، في حد ذاتها، ليست إلّا من جملة الأشياء اليومية. لكن حقيقة أنها كانت معه، أن الخاتم كان في إصبعه، وأن السلسلة كانت حول عنقه عندما مات، منحت هذه الأشياء هالة خاصة. الموت والذهب! قلّبتها في يدي، قطعة بعد قطعة، فامتلأت اضطراباً. كنت واقفاً هناك، أخافني الموت مثلما كان يخيفني عندما كنت طفلاً. ليس خوفاً من الموت نفسه، بل من الموتى!

أعدت الأشياء إلى المغلف، وأعدت المغلف إلى جيبي. وجريت فاجتزت الشارع بين سيارتين عابرتين ومضيت إلى كشك الصحف فاشتريت صحيفة وقطعة من الشوكولاتة أكلتها وأنا أمشي المئات الأخيرة من الأمتار في طريقي إلى البيت.

حتى بعد حدوث هذا كله، لا تزال في البيت أصداء الرائحة التي أذكرها من طفولتي. عجبت دائماً لهذه الظاهرة عندما كنت صبياً: كيف كان لكل بيت دخلته، لبيوت الجيران كلها، ولبيوت أفراد العائلة، رائحةٌ خاصة تميز كلاً منها، رائحة لا تتغير أبداً. البيوت كلها، إلّا بيتنا! ما كانت له رائحة خاصة به! ما كانت له رائحة أي شيء. كلما أتى جدي وجدتي تأتي رائحة بيتهما معهما. أذكر مناسبة بعينها عندما فاجأتنا جدتي بزيارة. لم أكن أعرف شيئاً عن تلك الزيارة؛ وعندما دخلت البيت عائداً من المدرسة. أحسست برائحة في مدخله فظننت أنني أتخيلها لأنني لم أرَ دليلاً آخر يدعمها. لم أرَ سيارة أمام البيت، ولم أرَ ملابس أو أحذية في المدخل. إنها الرائحة فقط. لكني لم أكن أتخيل شيئاً: عندما مضيت إلى الأعلى وجدت جدتي جالسة في المطبخ. لقد أتت بالباص... أرادت أن تفاجئنا. هذا يخالف طبعها. من الغريب أن عشرين سنة مرت على ذلك، وتغيرت أشياء كثيرة، لكن الرائحة في البيت تبقى مثلما كانت. يمكن استيعاب أن يكون هذا الأمر ناتجاً عن العادة... استخدام أنواع الصابون نفسها، والمنظفات نفسها، والعطور نفسها، وكولونيا الحلاقة أيضاً، وطهي الطعام نفسه بالطريقة نفسها، والعودة إلى البيت من العمل نفسه، وفعل الأشياء نفسها بعد الظهر وفي المساء. إن كنت تعمل في السيارات، فستكون هنالك آثار للزيوت والوقود والمعدن وعوادم السيارات في رائحة البيت؛ وإذا كنت تجمع الكتب القديمة، فستكون

هنالك آثار للورق المصفَرّ وللأغلفة الجلدية العتيقة. أما في بيت توقفت فيه العادات القديمة كلها، ومات الناس، وصار الباقون منهم أكبر سناً من أن يفعلوا ما اعتادوا فعله في حياتهم... ماذا عن الرائحة في هذه البيوت؟ كيف يمكن أن تبقى من غير تغير؟ هل تكون الجدران مشبعة بأربعين سنة من العيش بينها؟ أهذا ما أشمه كلما خطوت داخلاً؟

بدلاً من الذهاب مباشرة لرؤيتها، فتحت باب القبو ونزلت هابطاً السلم الضيق. كان الهواء البارد المظلم الذي لاقاني كأنه عيّنةٌ مركزة من الهواء المعتاد في البيت، الهواء الذي كنت أذكره. كانوا يخزّنون هنا صناديق من التفاح والإجاص والخوخ أيام الخريف فتفوح كلها برائحة ممتزجة بنتانة القرميد القديم والتراب وتستقر الرائحة الناتجة كأنها رائحة أساسية في البيت تضاف إليها الروائح الأخرى كلها، وتخالفها. لم أنزل إلى هذا القبو أكثر من ثلاث أو أربع مرات لأنه كان من الأماكن الممنوعة عليها، مثل الغرف الموجودة في عليّة البيت. لكنني وقفت في مدخل البيت مرات كثيرة أنظر إلى جدتي تخرج من القبو حاملة أكياساً ملأتها بالخوخ الأصفر الريّان أو بتفاحات حمراء تجعدت قليلاً لكنها مترعة بعصير رائع!

كان الضوء الوحيد في القبو آتياً من نافذة تشبه فتحة صغيرة في الجدار. وبما أن الحديقة منخفضة عن شرفة البيت، فقد كنت قادراً على رؤيتها من تلك النافذة. كان هذا المنظور مضللاً لأنه يعطي إحساساً بالانقطاع المكاني عن البيت. وللحظة وجيزة، أحسست أن الأرض قد اختفت من تحتي. لكني أمسكت بالدرابزين فعاد كل شيء واضحاً من جديد. إنني هنا، والنافذة هناك، والحديقة خلفها، ومدخل البيت هناك.

وقفت أنظر من النافذة من غير أن أرى شيئاً أو أفكر في شيء محدد. ثم استدرت وصعدت إلى مدخل البيت فعلّقت سترتي على واحدة علّاقات الملابس في الخزانة وألقيت نظرة على نفسي في المرآة عند بداية السلم. كان التعب جاثماً مثل غشاوة على عينَيّ. وعندما صعدت السلم، جعلت وقع خطواتي ثقيلاً حتى تسمعه جدتي فتعرف أنني آتٍ.

كانت جالسة مثلما تركتها عندما ذهبت قبل بضع ساعات، جالسة في مكانها عند طاولة المطبخ. وكان أمامها فنجان من القهوة وطبق السجائر وطبق آخر فيه كسرات تساقطت من قطعة الخبز التي أكلتها.

عندما دخلت المطبخ، التفتتْ إليَّ بطريقتها التي تشبه التفاتة عصفور حذر.

قالت لي: «آه، إنه أنت! هل جرى كل شيء على نحو حسن؟».

أظنها نسيت أين كنت، لكني لم أكن واثقاً فأجبتها بالجدية التي تقتضيها هذه المناسبة.

هززت رأسي: «نعم. جرى الأمر على نحو حسن».

قالت وهي تُطرق برأسها: «هذا جيد».

دخلت المطبخ ووضعت الصحيفة التي اشتريتها على الطاولة.

سألتني: «هل تريد بعض القهوة؟».

أجبتها: «نعم، من فضلك».

«غلاية القهوة على المدفأة».

جعلني شيء في نبرة صوتها أنظر إليها. لم تكلمني هكذا من قبل. والغريب أن تلك النبرة لم تغير شيئاً فيها بقدر ما غيرتني أنا. لا بد أنها كانت تتحدث كهذا مع أبي في الفترة الأخيرة. إنها تتحدث الآن معه وليس معي. وهي ليست الطريقة التي يمكن أن تتحدث بها مع أبي لو كان جدي حياً. إنها النبرة التي تكون بين الأم وابنها عند عدم وجود أحد غيرهما.

لم أظن أنها خلطت بيني وبين أبي؛ كان ذلك بفعل العادة... مثلما تتابع السفينة انزلاقها عبر الماء بعد توقف المحركات. جعلني هذا أشعر بصقيع بداخلي. لكني ما كنت قادراً على السماح له بترك أثر عليّ فذهبت إلى الخزانة، وأخرجت منها فنجاناً، ثم مضيت إلى المدفأة ولمست غلاية القهوة بإصبعي. لقد بردت منذ وقت طويل. كانت جدتي تصفر وتنقر بأصابعها على الطاولة. كانت معتادة على فعل ذلك طيلة الوقت الذي أذكره. هنالك شيء حسن في رؤيتي هذا لأن هنالك غيره الكثير مما تغير فيها.

رأيت فيما مضى صوراً لها في الثلاثينيات. كانت جذابة، لا أقول إنها كانت جذابة كثيراً بل إلى الحد الكافي لجعلها متميزة وفق معايير ذلك الزمن: عينان داكنتان متوقدتان، وفم صغير، وشعر قصير. وفي صورة أخرى لها التقطت أمام مواقع سياحية خلال أسفار الأسرة في أواخر الخمسينيات عندما كانت أماً لثلاثة أطفال، كانت تلك السمات لا تزال موجودة وإن صارت أخف وأقل تميزاً. يظل المرء قادراً على استخدام

كلمة «جذابة» لوصفها في تلك الصور. عندما كنت يافعاً، وكانت في أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات، ما كنت قادراً على رؤية شيئاً من هذا بطبيعة الحال، لأنها كانت جدتي فحسب. ما كنت أعرف شيئاً عن السمات التي تميز شخصيتها، عن الأشياء التي تقول لك من هي. امرأة متقدمة في السن من الطبقة الوسطى محافظة بعض الشيء ترتدي ملابس أنيقة... لا بد أن هذا الانطباع الذي كانت تعطيه في أواخر السبعينيات عندما قامت بتلك الخطوة غير المألوفة فأتت بالباص لتزورنا وجلست في مطبخنا في توباكين. كانت نشطة، يقظة العقل، وفي صحة جيدة. ظلت هكذا حتى قبل سنتين من الآن، ثم حدث شيء لها. لم يكن التقدم في السن هو ما استولى عليها، ولا المرض... كان شيئاً آخر. وما كان انفصالها هذا يشبه ما يراه المرء عند كبار السن من القناعة الراضية أو التعلق بالعالم الآخر، بل كان شيئاً قاسياً نحيلاً مثل الجسد الذي يسكنه.

لقد رأيت هذا، لكني لم أكن أستطيع فعل شيء، وما كنت قادراً على بناء جسر ولا على مساعدتها أو مواساتها. ما كنت قادراً إلّا على مراقبة ما يحدث لها. وكنت أتوتر في كل دقيقة أمضيها معها. الشيء الوحيد الذي أسعفني هو الحركة المستمرة وعدم ترك شيء مما كان حاضراً، فيها أو في البيت، يجد لنفسه موضع قدم لديَّ.

مسحت بيدها نثرة تبغ وقعت في حجرها، ثم نظرت إليَّ.

سألتها: «هل أعدُّ لك فنجاناً من القهوة؟»

قالت: «ألم تكن تلك القهوة جيدة؟»

قلت وأنا أحمل غلاية القهوة إلى المجلى: «ليست ساخنة. سوف أصنع قهوة جديدة».

«هل تقول إنها لم تكن ساخنة؟»

كأنها توبخني!

لا! ليست توبّخني... لأنها ضحكت بعد ذلك ونفضت فتات الخبز من حضنها.

قالت لي: «أظن أن دماغي يتفكك. كنت واثقة من أنني صنعتها قبل قليل».

قلت وأنا أفتح صنبور الماء: «لم تكن باردة كثيراً. لكنني أحب أن تكون القهوة حارة تماماً».

أفرغت رواسب القهوة ورششت المجلى بالماء فنظفته منها. ثم ملأت الغلاية

التي كانت سوداء من الداخل، كلها تقريباً، وكان سطحها الخارجي مغطى بآثار أصابع دبقة.

كانت كلمة «التفكك» هي الكلمة التي تستخدمها العائلة للإشارة إلى الخَرَف. ليف، شقيق جدي، «تفكك» عقله عندما خرج عدة مرات من بيت العجزة إلى البيت الذي عاش فيه خلال طفولته وتركه قبل أكثر من ستين عاماً ووقف فوق الدرجات هناك يصرخ ويطرق الباب طيلة الليل. أما شقيقه الثاني، آلف، فقد بدأ «تفككه» في السنوات الأخيرة. كان ذلك «التفكك» أكثر ظهوراً في خلطه بين الحاضر والماضي. بدأ عقل جدي «يتفكك» أيضاً في أواخر حياته عندما بدأ يجلس في الليل ويخشخش بحزمة مفاتيح ضخمة لم يعرف أحد قبل ذلك أنها موجودة عنده ولم يعرف أحد سبب خشخشته بها. كان هذا شيئاً في العائلة: تفكك عقل أمهم في آخر حياتها، إذا صدقنا ما كان يقوله أبي عنها. من الظاهر أن آخر شيء فعلته كان الصعود إلى علية البيت بدلاً من النزول إلى القبو عند انطلاق صفارة الإنذار. يقول أبي إنها سقطت عن سلم العلية ذي الانحدار الشديد في بيتها وماتت. لا أعرف إن كان هذا صحيحاً أم غير صحيح. لأن أبي كان قادراً على مختلف أنواع الكذب. قال لي حدسي إن هذه الرواية غير صحيحة، لكني لم أجد طريقة لمعرفة الحقيقة.

حملت الغلاية إلى الموقد فوضعتها عليه. امتلأ صمت المطبخ بتكتكات آلية الأمان في الموقد. ثم بدأت الغلاية المبللة تقرقع على السطح الحار. وقفت عاقداً ذراعيَّ على صدري أنظر عبر النافذة إلى قمة التل ذات الانحدار الشديد وإلى البيت الأبيض المرتفع. فاجأتني حقيقة أنني كنت أنظر إلى هذا البيت طيلة حياتي لكني لم أرَ أحداً فيه أو من حوله.

سألتني جدتي: «أين ذهب إنغفه؟».

قلت مستديراً صوبها: «كان عليه أن يذهب إلى ستافانغر اليوم، إلى أسرته. سوف يعود من أجل الجـ... الجمعة».

هزت رأسها وقالت تخاطب نفسها: «نعم، هكذا هو الأمر. كان عليه أن يذهب إلى ستافانغر».

وعندها مدت يدها وأمسكت بآلة لف السجائر ذات اللونين ذات الأحمر والأبيض. قالت لي من غير أن ترفع رأسها: «لكنك باقٍ هنا».

قلت لها: «نعم، وسأكون هنا طيلة الوقت».

سررت لأن من الواضح أنها تريد وجودي هنا رغم إدراكي أنها لا تريدني أنا تحديداً. وجود أي كان يكفيها.

أدارت مقبض الآلة بقوة مفاجئة وأخرجت منها السيجارة، ثم أشعلتها، ومن جديد، أزالت من حضنها نثرات التبغ وجلست محدقة في الفراغ. قلت لها: «أظن أنني سأتابع التنظيف الآن. وبعد ذلك سأعمل لوقت متأخر هذا المساء، وأُجري عدة اتصالات هاتفية».

قالت: «هذا حسن». ثم رفعت رأسها ونظرت إليَّ: «لكنك لست مشغولاً إلى حد يجعلك لا تملك بعض الوقت لتجلس هنا معي!»

أجبتها: «لا، لست مشغولاً إلى هذه الدرجة».

هسهست غلاية القهوة. ضغطتها على الموقد بقوة فازداد هسيس البخار، ثم رفعتها فوضعت فيها بعض القهوة وحركتها بشوكة. ضغطتها على الموقد من جديد، ثم وضعتها على الحامل الشبكي على الطاولة.

قلت: «إنها جاهزة. يجب الآن أن نتركها تتخمَّر قليلاً».

لا بد أن آثار الأصابع على غلاية القهوة التي لم نغسلها بعد تشتمل على آثار أصابع أبي. تخيلت بقع النيكوتين على أصابعه. كان هنالك شيء غير لائق في تذكري تلك البقع، لأن الحياة التافهة التي توحي بها غير منسجمة مع الجلال الذي يثيره الموت.

... أو مع الجلال الذي أردت أن يثيره!

تنهَّدت وقالت: «أوه، يا إلهي! الحياة آهرة، مثلما كانت تقول تلك العجوز. ما كانت تستطيع لفظ الحرف 'ع'».

ابتسمت. ابتسمت جدتي أيضاً. ثم غامت عيناها من جديد. فتشت في ذهني عن شيء أقوله فلم أجد شيئاً. سكبت القهوة في الفنجان رغم أنها لا تزال أقرب إلى اللون الذهبي من الأسود. عامت على السطح نثرات صغيرة من البن.

سألتها: «هل أسكب لك قليلاً؟ إنها خفيفة بعض الشيء، لكن...»

قالت وهي تدفع فنجانها بضعة سنتيمترات صوبي عبر الطاولة: «نعم، من فضلك».

عندما امتلأ الفنجان إلى منتصفه قالت لي: «شكراً» ثم أمسكت بعلبة كريما القهوة الصفراء وصبَّت منها في فنجانها.

سألتني: «أين ذهب إنغفه؟».

أجبتها: «ذهب إلى ستافانغر. ذهب إلى بيته من أجل أسرته».

«هذا صحيح. كان عليه أن يذهب. ومتى يعود؟».

قلت: «أظن أنه سيعود يوم الجمعة».

***

أفرغتُ الدلو في المغسلة، ثم فتحت الماء وسكبت شيئاً من الصابون الأخضر ووضعت قفازَيْ التنظيف، ثم أمسكت بالممسحة الموضوعة على الطاولة بإحدى يدي، وحملت الدلو باليد الأخرى ومضيت إلى الجهة الخلفية من غرفة المعيشة. بدأ الظلام يحل في الخارج. كانت لمعة زرقاء خفيفة ظاهرة في الضياء عند مستوى الأرض ومن حول أوراق الأشجار وجذوعها والأجمات الصغيرة الممتدة حتى السياج عند بداية أرض الجيران. كانت هذه الزرقة خافتة، واهية، بحيث إن الألوان الأخرى لم تتلاش بشكل تدريجي مثلما يحدث عادة عند حلول المساء، بل على العكس تماماً. كانت تبدو أقوى من المعتاد، لأن الضوء ما عاد مبهراً الآن ولأن الخلفية المعتمة سمحت بظهور تلك الألوان واضحة تماماً. أما إلى جهة الجنوب الغربي، حيث ما كان يظهر شيء غير المنارة التي في البحر، فقد ظل ضوء النهار مسيطراً. ظهر ألق محمرّ على بعض الغيوم كأنها منارة بطاقة نابعة منها لأن الشمس كانت مختفية.

جاءت جدتي بعد قليل. شغلت التلفزيون وجلست في الكرسي. ملأ غرفة المعيشة صوت الإعلانات التجارية (إنه أعلى من صوت بقية البرامج)، وترددت أصداؤه عبر الجدران أيضاً.

سألتها: «هل هو موعد الأخبار الآن؟».

قالت: «أظن هذا، ألا تريد متابعة الأخبار أيضاً؟».

قلت: «نعم، أريد هذا. لكنني سأنجز العمل هنا أولاً».

بعد تنظيف الألواح الممتدة على طول الجدار، عصرت الممسحة وذهبت إلى المطبخ فرأيت انعكاس صورتي في النافذة مرتسماً على شكل مساحات وبقع داكنة وأقل دكنة. سكبت الماء في المغسلة وعلقت الممسحة على الدلو، ثم وقفت لحظة من غير حركة، وبعدها فتحت الخزانة وأزحت لفافات مناديل المطبخ جانباً وأخرجت زجاجة الفودكا.

أتيت بكأسين من الخزانة التي فوق المغسلة، وفتحت البراد فأخرجت زجاجة السبرايت. ملأت إحدى الكأسين منها، ثم مزجت الفودكا والسبرايت في كأس أخرى وحملت الكأسين إلى غرفة المعيشة.

قلت مبتسماً: «أظن أننا نستطيع السماح لأنفسنا بكأس صغير من الشراب».

أجابتني مع ابتسامة: «هذا شيء لطيف! أظن أننا نستطيع ذلك».

ناولتها الكأس التي وضعت فيها الفودكا، ثم مضيت حاملاً كأس السبرايت وجلست في الكرسي المجاور لها. شيء مخيف... كان شيئاً مخيفاً! مزقني هذا! لكني لم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً. إنها في حاجة إلى الشراب. هكذا هو الأمر.

فقط... لو كان نبيذاً... أو كونياك!

لو كان كذلك لاستطعت تقديم الشراب على صينية مع فنجان من القهوة. وحتى إذا كان هذا غير قادر تماماً على إضفاء طابع عادي، فإن الأمر لن يكون في مثل وضوح كأس من الفودكا الشفافة الممزوجة مع السبرايت.

نظرت إليها تفتح فمها العجوز وتبتلع شرابها. كنت قد صممت على أن هذا الأمر لن يحدث من جديد، وأما الآن فهي جالسة هناك وفي يدها كأس من الكحول. أزعجني هذا كثيراً. من حسن حظي أنها لم تسألني المزيد.

نهضت واقفاً.

«سوف أذهب لإجراء بعض الاتصالات الهاتفية».

التفتت صوبي وقالت متسائلة: «بمن ستتصل في هذا الوقت من الليل؟».

أحسست من جديد كأنها تخاطب شخصاً غيري.

قلت لها: «لا تزال الساعة الثامنة مساء».

«أليست أكثر من ذلك؟».

«لا! سوف أتصل بإنغفه. وبعد إنغفه سأتصل بتونجه».

«هل تقول إنك ستتصل بإنغفه؟».

«نعم».

قالت: «أليس إنغفه هنا؟ لا... إنه ليس هنا، بالطبع»، ثم عاد انتباهها فتركز على التلفزيون كأنني صرت خارج الغرفة.

سحبتُ أحد الكراسي من تحت الطاولة. جلست، ثم طلبت رقم إنغفه. لقد وصل الآن. إنه عند باب بيته. جرى كل شيء على ما يرام خلال رحلته. وفي الخلفية كنت أسمع صوت ابنه تورجِه يزعق باكياً وصوت كاري آن تحاول تهدئته.

قلت: «كنت أفكر في الدم».

قال: «صحيح... ما سبب هذا الدم؟ لا بد أن ما حدث كان أكثر مما أخبرتنا جدتنا».

قلت: «لا بد أنه وقع، أو شيء ما!... على سطح صلب لأن أنفه كان مكسوراً. هل لاحظت هذا أنت أيضاً؟».

«رأيت ذلك، بالطبع».

«علينا أن نتحدث مع أحد الأشخاص الذين كانوا هناك، من الأفضل أن نتحدث مع الطبيب».

قال إنغفه: «أظن أن مدير مكتب الدفن يعرف اسمه. هل تريد أن أتصل به؟».

«نعم، هل تستطيع الاتصال؟»

«سأتصل به غداً. تأخر الوقت الآن. وبعد ذلك أن نتحدث عن الأمر».

كنت أعتزم التحدث أكثر عن مختلف الأشياء التي حدثت هنا، لكني لاحظت في صوت إنغفه شيئاً من نفاد الصبر. ما كان هذا مفاجئاً في الحقيقة! إن ابنته إيلفا في انتظاره... عمرها سنتان فقط. وعلي أن أتذكر أيضاً أنه لم تنقض أكثر من ساعات معدودة منذ كنا معاً هنا. لكنه لم يبادر إلى إنهاء المكالمة فكان عليَّ أن أنهيها بنفسي. بعد أن وضعت السماعة، رفعتها من جديد وطلبت رقم تونجه. كانت في انتظار اتصالي... استطعت سماع هذا الانتظار في صوتها. قلت لها إنني في غاية

التعب، وإننا نستطيع أن نتحدث من جديد في اليوم التالي، إضافة إلى أنها ستكون معي بعد يومين على أية حال. استمرت المكالمة لحظات قليلة، لكني شعرت بعدها بأن حالتي قد تحسَّنت. بحثت عن سجائري وأخذت قداحة كانت على الطاولة في المطبخ، ثم خرجت إلى الشرفة. كان الخليج مزدحماً بالقوارب العائدة. وكان الهواء اللطيف مليئاً بالرائحة التي تميز المدينة، رائحة احتراق الحطب، مثلما يحدث دائماً عندما تأتي الريح من جهة الشمال. جاءني أيضاً عبير النباتات من الحديقة تحتي ومعه نكهة ملح البحر الخفيفة، غير الظاهرة تقريباً. كان الضوء الصادر عن التلفزيون يتراقص داخل الغرفة. وقفت عند البوابة التي في آخر الشرفة. البوابة المصنوعة من الحديد الأسود. وقفت أدخن. وعندما أنهيت سيجارتي أطفأتها على الجدار فتساقط رمادها المتوهج مثل نجوم صغيرة انهمرت في الحديقة. تأكدت من جديد أن جدتي جالسة في غرفة المعيشة، ثم صعدت إلى غرفة النوم في العلية. كانت حقيبتي مفتوحة على الأرض إلى جانب السرير. أخرجت علبة الورق المقوّى التي تحتوي على مخطوط كتابي. وجلست على حافة السرير، ثم فتحت العلبة. فاجأتني، بقوتها كلها، فكرة أن هذا المخطوط قد صار كتاباً في الواقع وأنه سوف يُنشر قريباً... فاجأتني هذه الفكرة عندما رأيت صفحة العنوان التي اتخذت شكلاً مختلفاً تماماً عما كانت عليه في نسخة المراجعة التي اعتدت رؤيتها. سرعان ما وضعت صفحة العنوان هذه في الأسفل لأنني لا أستطيع إنفاق الوقت مفكراً فيها، ثم بحثت عن قلم رصاص في جيب حقيبتي، وأخرجت من الحقيبة أيضاً ورقة عليها قائمة بهوامش الكتاب. انزلقت في السرير، وأسندت ظهري إلى لوح الخشب عند رأسه، ووضعت المخطوط في حجري. هذه مهمة عاجلة! وهكذا، كنت أعتزم إنجاز أقصى قدر ممكن منها خلال أمسياتي هنا. لم يتح لي وقت لفعل ذلك حتى الآن. لكن إنغفه في ستافانغر الآن، ولا يزال الليل في أوَّله. إن أمامي أربع ساعات على الأقل، أو أكثر من ذلك.

بدأت القراءة.

شوشتْ تركيزيَ البذلتان السوداوان المعلقتان على باب خزانة الملابس نصف المفتوح عند الجدار. كان جزء من انتباهي منصبّاً عليهما أثناء قراءتي. ورغم معرفتي

أنهما بذلتان فحسب، فإن فكرة أنهما جسدان حقيقيان ظلت تلقي بظلها على وعيي. بعد بضع دقائق، نهضت لإبعادهما. وقفت حاملاً بدلة في كل يد ورحت أنظر من حولي بحثاً عن مكان لتعليقهما.

هل أعلقهما على قضيب الستارة فوق النافذة؟ ستكونان هناك أكثر ظهوراً من قبل. هل أعلقهما على إطار الباب؟ لا، إنني مضطر إلى المرور عبر هذا الباب. وفي النهاية، ذهبت إلى العلية المجاورة المخصصة لتجفيف الملابس فعلقت البدلتين هناك. علقت كل واحدة على حبل من حبال الغسيل. تدلت البذلتان من الحبلين فصارتا أكثر شبهاً بالبشر من قبل، لكنني أغلقت الباب حتى تصيرا بعيدتين عن أنظاري.

عدت إلى غرفتي فجلست على السرير وتابعت القراءة. عبرت الشارع في الأسفل سيارة مسرعة. وجاء صوت التلفزيون من الطابق الذي تحتي. لكن، ما عدا ذلك، ظل كل شيء هادئاً... بيت فارغ يحسه المرء ممتلئاً بالجنون... هنالك جنون في غرف هذا البيت.

رفعت رأسي.

لقد كتبت هذا الكتاب من أجل أبي. لم أعرف هذا، لكنه كان من أجل أبي. لقد كتبته من أجله.

وضعت المخطوط ونهضت واقفاً وسِرتُ إلى النافذة.

هل كان يعني الكثير حقاً بالنسبة لي؟

أوه، نعم، لقد كان يعني الكثير.

كنت أريده أن يراني.

كانت المرة الأولى التي أدرك فيها أن ما أكتبه شيء حقيقي وليس مجرد كتابة هدفها أن أكون شخصاً بارزاً، أو لكي أتظاهر بأنني كذلك، عندما كتبت فقرة عن أبي ورحت أبكي خلال الكتابة. لم أبك قبل ذلك أبداً، بل لم أقترب من البكاء. كنت أكتب عن أبي ودموعي منهمرة على وجنتيّ؛ ولا أكاد أرى لوحة المفاتيح ولا الشاشة لكني تابعت النقر على تلك المفاتيح. ما كنت أعرف شيئاً عن الحزن الموجود في داخلي الذي كان يخرج في تلك اللحظة... ما كنت أرى أي إشارة توحي بوجوده. كان أبي شخصاً أحمق. وما كنت أريد أي علاقة معه، وما كان البقاء بعيداً عنه ليكلفني

شيئاً. لم تكن مسألة أن أبقى بعيداً عن شيء ما، بل هي مسألة شيء لا وجود له... ما كان فيه شيء يمسني. هكذا كان الأمر، لكنني جلست لأكتب فتدفَّقت دموعي.

جلست على السرير من جديد ووضعت المخطوط في حجري.

لكن... كان هنالك المزيد!

لقد أردت أيضاً أن أريه أنني أحسن منه. أردت أن أريه أنني أكبر منه أو... لعلني أردت فقط أن أجعله فخوراً بي؟ هل أردته أن يعترف بي؟

لم يكن يعرف حتى أن لدي كتاباً على وشك الصدور. عندما رأيته وجهاً لوجه آخر مرة قبل أن يموت، منذ ثمانية عشر شهراً، سألني عمَّا كنت أفعله بحياتي فأجبته أنني بدأت كتابة رواية. كنا نسير في درونينغينز؛ وكنا نعتزم تناول الطعام في الخارج. كان العرق يتصبب على خديه رغم برودة الطقس في الشارع. ومن غير أن ينظر إليَّ... ومن الواضح أن ذلك كان لمجرد الكلام... سألني إن كانت تلك الرواية ستأتيني بشيء. أجبته بأن هذا سيحدث، وبأن أحد الناشرين أظهر اهتمامه بها. كان ينظر إليَّ خلال سيرنا كما لو أنه ينظر من مكان لا يزال فيه الشخص الذي كانه من قبل، بل ربما الشخص الذي يمكنه أن يكونه من جديد.

قال لي: «أمر جيد أن أعرف أن أمورك تسير على ما يرام يا كارل أوفه».

لماذا أتذكر ذلك بهذا الوضوح؟ عادة ما أنسى كل ما يقوله الناس لي، حتى أقرب الناس؛ وما كان في الموقف آنذاك أي شيء يوحي بأننا نلتقي للمرة الأخيرة. لعلي أتذكر ذلك لأنه خاطبني باسمي. لا بد أن أربع سنين مرت منذ أن نطق اسمي آخر مرة. ولهذا السبب، كانت الكلمات التي قالها قريبة من قلبي قرباً لم أكن أتوقعه. ربما أتذكر ذلك، لأنني كنت قد كتبت عنه قبل بضعة أيام فقط، ولأنني كتبت بانفعالات مناقضة تماماً لما يثيره أبي في نفسي عندما يكون ودياً معي. أو لعلي أتذكر لأنني أكره تأثيره الشديد عليَّ، ذلك التأثير الذي تثبته حقيقة أنني أصير شديد السعادة إزاء أشياء صغيرة. لا شيء في العالم كله يجعلني أرفع إصبعاً واحداً من أجله... لا يمكن إجباري على فعل شيء من أجله، لا بالمعنى الإيجابي ولا بالمعنى السلبي!

أما الآن، فإن هذا التأكيد على قوة الإرادة ما عاد يساوي شيئاً!

وضعت المخطوط على السرير، ثم أعدت القلم إلى جيب الحقيبة وانحنيت

فالتقطت صندوق الورق المقوّى عن الأرض إلى جواري وحاولت إدخال المخطوط فيه، لكني لم أستطع فوضعته في مكانه السابق في قعر الحقيبة وغطيته بالملابس. ظل الصندوق على السرير. حدقت فيه زمناً طويلاً... سيذكّرني بالرواية كلما رأيته. كانت فكرتي الأولى أن آخذه إلى الأسفل وأضعه في سهلة المهملات في المطبخ. لكنني فكرت في الأمر فقررت أنني لا أريد فعل ذلك... لا أريد أن يصبح هذا الصندوق جزءاً من البيت. وهكذا، أزحت الملابس التي في الحقيبة من جديد ووضعت الصندوق إلى جانب المخطوط وغطيتهما معاً وأغلقت الحقيبة، ثم خرجت من الغرفة.

كانت جدتي في غرفة الجلوس، تشاهد التلفزيون. إنه برنامج حواري. أظنها ليست مهتمة بطبيعة البرنامج. لا فرق عندها. كانت تتابع برامج الأطفال على «TV2» وعلى «TV Norg» بعد الظهر بالسرور نفسه الذي تتابع فيه البرامج الوثائقية في وقت متأخر من الليل. لم أفهم أبداً ما يجذبها إلى برامج تلفزيون الواقع الشبابية المجنونة بعواطفها التي لا تنتهي... تلك البرامج التي تبدو الأخبار والبرامج الحوارية أمراً هيناً بالمقارنة معها. هي... هي المولودة قبل الحرب العالمية الأولى، القادمة من أوروبا القديمة الحقيقية... من المحيط الخارجي لأوروبا تلك. هذا صحيح، لكن ما أهمية هذا؟ هي التي عاشت طفولتها في العقد الأول من القرن العشرين، وعاشت مراهقتها في العشرينات، وبداية شبابها في الثلاثينات، وأمومتها في الأربعينات والخمسينات، ثم كانت في عمر الكهولة سنة 1968! لا بد أن هنالك شيئاً ما في هذه البرامج... أقول هذا لأنها تجلس أمام التلفزيون وتتابعها كل مساء.

كانت على الأرض تحت كرسيها بقعة عجينية صفراء بنية. وكانت بقعةٌ قاتمة أخرى على جانب الكرسي تبين مصدرها.

قلت لها: «إنغفه يهديك تحياته. لقد وصل إلى بيته».

التفتت إليَّ التفاتة سريعة وقالت: «هذا جيد».

سألتها: «هل يلزمك أي شيء؟».

قالت متسائلة: «يلزمني؟».

«نعم... أقصد الطعام، أو شيء من هذا النوع. أستطيع بسهولة أن أحضّر لك شيئاً إذا أردت».

قالت: «لا، شكراً. لكنك تستطيع أن تأكل إن أردت».

جعلتني رؤية جسد أبي الميت غير قادر على التفكير في الطعام. لكن، لا علاقة لفنجان من الشاي بالموت! وضعت وعاء الماء على الموقد ليسخن، ثم سكبت الماء الغالي فوق كيس الشاي في الفنجان ورحت أنظر إلى اللون ينطلق منه وينتشر في دوائر بطيئة عبر الماء كله إلى أن اكتسب الماء كله مسحة ذهبية. حملت الفنجان وخرجت إلى الشرفة. على مسافة بعيدة، عند فم الفيورْد، كانت العبّارة الدانماركية تقترب من المدينة. كانت السماء صافية من فوقها. لا تزال هنالك آثار من الزرقة في السماء المظلمة؛ وهذا ما جعل تلك السماء تبدو ملموسة، محسوسة، كأنها خيمة قماش هائلة، وكأن النجوم التي أراها آتية من ضوء خلفها يتسرَّب عبر آلاف من الثقوب الصغيرة.

تناولت رشفة من الفنجان، ثم وضعته على حافة النافذة. تذكرت المزيد عن تلك الأمسية مع أبي. كانت هنالك طبقة سميكة من الجليد على الرصيف؛ وكانت ريح شرقية تكتسح الشوارع المهجورة. ذهبنا أولاً إلى مطعم في أحد الفنادق فعلقنا معطفينا وجلسنا إلى إحدى الطاولات. كان تنفُّس أبي ثقيلاً. مسح حاجبه بيده، ثم تناول قائمة الطعام وبدأ ينظر إليها. رفع نظره ثم عاد ينظر إليها مرة أخرى.

قال: «يبدو أنهم لا يقدمون النبيذ هنا»، ثم ذهب ومضى فقال شيئاً للنادل. وعندما هز الرجل رأسه، استدار أبي على عقبيه وعاد فانتزع معطفه عن الكرسي انتزاعاً وبدأ يرتديه وهو متجه إلى الباب. لحقته به مسرعاً.

سألته عندما صرنا في الخارج، على الرصيف من جديد: «ما الذي جرى؟».

قال لي: «ليس لديهم كحول. يا إلهي... إنه فندق خالٍ من الكحول!»

وبعد ذلك، نظر إليَّ وابتسم.

«يجب أن نتناول نبيذاً مع طعامنا، أليس كذلك؟ لكن، لا بأس. يوجد مطعم آخر قريب».

انتهينا بالجلوس في مطعم فندق كاليدونيان. جلسنا إلى طاولة عند النافذة وتناولنا شريحتي لحم. أنا من تناول الطعام في واقع الأمر! عندما انتهيت، رأيت أن طبق أبي

لا يزال مثلما كان في البداية. أشعل سيجارة وشرب آخر ما في كأس النبيذ الأحمر واستند بظهره في الكرسي وقال إنه يخطط لأن يصبح سائق شاحنة مسافات طويلة. لم أعرف كيف يجب أن تكون استجابتي لهذا الخبر. أومأت برأسي من غير أن أقول كلمة واحدة. قال إن سائقي الشاحنات يمضون أوقاتاً عظيمة. قال إنه أحب قيادة السيارات دائماً، وأحَبَّ السفر، فإذا استطاع أن يفعل ذلك ويتلقى مالاً أيضاً، فلماذا التأخير؟ ألمانيا، إيطاليا، فرنسا، بلجيكا، هولندا، إسبانيا، البرتغال... هكذا قال. قلت له إنها مهنة جيدة. لكنه قال إن الوقت قد حان لأن يذهب كل منا في طريقه. قال إنه سيدفع الحساب. وإن عليَّ أن أذهب فقط. وقال إنه واثق من أن لدي ما أفعله، ثم أضاف أنه سُرّ برؤيتي. فعلت مثلما قال فنهضت وأخذت سترتي وودعته، ثم خرجت عبر ردهة الاستقبال في الفندق وسرت حتى الرصيف متسائلاً عما إذا كان يجب أن آخذ سيارة تاكسي أم لا. ثم قررت أنني لن آخذ سيارة تاكسي، وسرت ببطء صوْب موقف الباص. رأيته مرة أخرى من خلال النافذة. كان يسير عبر المطعم في اتجاه الباب الموجود في النهاية الأخرى من الصالة، في الاتجاه المؤدي إلى البارات. ومن جديد، رأيت حركته مستعجلة نافدة الصبر رغم جسده الضخم الثقيل.

كانت تلك آخر مرة أراه فيها حياً.

كان لدي انطباع واضح يقول لي إنه يتحامل على نفسه. وأدركت أنه استجمع خلال هاتين الساعتين كل ما لديه من قوة حتى يظل متماسكاً، حتى يظل حاضر الذهن سريع الاستجابة، حتى يظل مثلما اعتاد أن يكون.

آلمني التفكير في هذا الأمر عندما رحت أمشي في الشرفة جيئة وذهاباً وأنظر إلى المدينة وإلى البحر، فكرت في أن أذهب لأمشي في المدينة قليلاً، أو أذهب إلى الصالة الرياضية، لكني ما كنت قادراً على ترْك جدتي وحدها. وبعد ذلك أحسست أنني غير راغب في المشي أيضاً. ثم إن كل شيء سيبدو مختلفاً في الغد. يأتي النهار معه بما هو أكثر من الضياء. مهما تكن مشاعرك مضطربة، فمن المستحيل ألا تتأثر ببداية نهار جديد. وهكذا، أخذت الفنجان إلى المطبخ فوضعته في آلة غسل الأطباق، ثم وضعت فيها بقية الكؤوس والفناجين والأطباق والصحون وزوَّدتها ببعض المسحوق، ثم شغّلتها ومسحت الطاولة بقطعة قماش عصرتها بعد ذلك وعلقتها على الصنبور رغم

وجود شيء غير لائق في هذا اللقاء بين الممسحة الرطبة المجعَّدة ومعدن الصنبور اللامع الصقيل. ذهبت إلى غرفة المعيشة ووقفت إلى جانب كرسي جدتي.

قلت لها: «أظن أنني ذاهب لأنام. لقد كان نهاراً طويلاً».

سألتني: «هل تأخر الوقت حقاً؟ ... وأنا أيضاً سوف أنام بعد قليل».

قلت لها: «ليلة طيبة».

«ليلة طيبة».

تحركت لأذهب.

نادتني: «كارل أوفه!».

استدرت نحوها.

«لا أظنك تعتزم النوم في الأعلى الليلة أيضاً! سيكون من الأفضل لك أن تنام في الأسفل. نم في غرفة نومنا القديمة. أنت تعرفها. وهناك، يكون الحمام قريباً منك».

قلت: «هذا صحيح. لكن، أظنني أفضل البقاء حيث أنا. إن أشيائي كلها موجودة في الأعلى».

قالت لي: «لا بأس، افعل ما تريد. ليلة طيبة».

«ليلة طيبة».

لم أدرك إلّا بعد أن صرت في الأعلى، في غرفة النوم، وبدأت أخلع ملابسي، أنها لم تقترح أن أنام في الأسفل من أجلي أنا، بل من أجلها. لبست قميصي من جديد، ورفعت ملاءة السرير وجمعت اللحاف على شكل كرة فوضعتهما تحت ذراعي وحملت حقيبتي باليد الأخرى وعدت إلى الأسفل. صادفتها في فسحة السلم.

قلت لها: «لقد غيَّرت رأيي. سيكون من الأفضل أن أنام في الأسفل مثلما قلتِ لي».

قالت: «صحيح، سيكون هذا أفضل».

تبعتها إلى الأسفل. وفي الصالة، استدارت صوبي وقالت: «هل لديك كل ما يلزمك؟».

أجبتها: «لدي كل ما يلزمني».

فتحت باب غرفتها الصغيرة بعد ذلك، ودخلت.

كانت الغرفة التي سأنام فيها واحدة من الغرف التي لم ننظفها بعد، لكن وجود أشياءها فيها: الأمشاط، ولفافات الشعر، والحليّ وعلبها، وعلاقات الملابس، وأثواب النوم، والقمصان، والملابس الداخلية، وحقائب لوزام الزينة، ومواد التجميل، كانت مبعثرة كلها على الطاولتين اللتين إلى جانبَيْ السرير، وعلى الفراش والرفوف في الخزانة المفتوحة، وعلى الأرض أيضاً، وعلى حافة النافذة... لم يزعجني هذا الشيء إطلاقاً. أزلت ما على الفراش بأن جرفته بحركتين من يدي، ثم بسطت الملاءة واللحاف، وخلعت ثيابي وأطفأت المصباح ودخلت تحت اللحاف.

لا بد أنني غفوت على الفور لأنني لا أذكر بعد ذلك لكنني استيقظت فأضأت المصباح الذي إلى جانب السرير ونظرت إلى ساعتي فرأيتها تشير إلى الثانية صباحاً. سمعت صوت خطوات على السلم خلف الباب. كان أول ما خطر في ذهني الذي لا يزال نصف نائم (وهذا ما أفترض أنه له علاقة بشيء كنت أحلم به)، هو أن أبي قد عاد. لم يعد شبحاً، بل عاد بلحمه ودمه. لم يعارض عقلي هذه الفكرة فأصابني الذعر. وبعد ذلك، ليس على الفور، لكن بشيء من المتابعة لتلك الفكرة، أدركت أنها فكرة سخيفة فخرجت إلى الصالة. رأيت باب غرفة نوم جدتي نصف مفتوح. نظرت إلى داخل الغرفة. كان فراشها خالياً. صعدت السلم. لعلها ذهبت تشرب كأساً من الماء، أو لعلها لم تتمكن من النوم فصعدت لتشاهد التلفزيون. لكن يجب أن أتأكد من أن كل شيء على ما يرام. نظرت في المطبخ أولاً فلم أجدها. ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة. لم أجدها هناك أيضاً. لا بد أنها ذهبت إلى غرفة المعيشة الأخرى التي كانت مخصصة للمناسبات.

نعم... كانت هناك، عند النافذة.

لسبب ما، لم أجعلها تلاحظ وجودي. توقفت في الظل عند الباب الجرّار ذي اللون القاتم. رحت أنظر إليها.

كانت كأنها ذاهلة عن نفسها. واقفة من غير حركة تحدق في الحديقة. وكانت شفتاها تتحركان من وقت لآخر كأنها تهمس بشيء لنفسها. لكني لم أسمع صوتاً يخرج من بين شفتيها.

وعلى نحو مفاجئ استدارت وجاءت صوْبي. لم تكن لدي أي استجابة... ظللت واقفاً أنظر إليها وهي تتقدم مني. مرت على مسافة نصف متر؛ ورغم أن نظرة عينيها مرت بوجهي، فإنها لم ترني. تجاوزتني كأنني لست أكثر من قطعة أثاث.

انتظرت، ولم أتحرك إلى أن سمعت صوت إغلاق باب غرفتها. وعندما عدت إلى غرفتي، أحسست بالخوف. إن الموت في كل مكان هنا. الموت في السترة المعلقة على الجدار حيث يقبع المغلف الذي يحتوي على أشياء أبي؛ والموت في الكرسي في غرفة المعيشة حيث وجدته ميتاً؛ والموت على السلم حيث حملوه؛ والموت في الحمام حيث انهار جدي وسقط وقد امتلأت معدته دماً. لو أغمضتُ عينيّ، فمن المستحيل أن أستطيع الإفلات من فكرة أن الموتى يمكن أن يعودوا، تماماً مثلما كنت أحلم في طفولتي. لكني كنت مضطراً إلى إغماض عينَيّ. ورغم أنني نجحت في تسخيف هذه الأفكار الطفولية، فإنني لم أستطع تجاوز الصورة المفاجئة التي أتتني، صورة جسد أبي الميت. الأصابع المتشابكة بأظافرها الصفراء، والجلد المصفر، والوجنتان الغائرتان. ظلت هذه الصور ترافقني خلال نومي الخفيف، ظلت ترافقني بطريقة لا أستطيع معها تحديد إن كانت منتمية إلى عالم الواقع أو إلى عالم الأحلام. ما إن انفتح إدراكي بهذه الطريقة حتى صرت واثقاً من أن جسده موجود في خزانة الملابس. نهضت فتفقدت الخزانة، وبحثت بين الفساتين المعلقة هناك. ثم بحثت في الخزانة التي بعدها، والتي بعدها. وبعد الفراغ من ذلك، عدت إلى السرير وتابعت النوم. في أحلامي، كان ميتاً بعض المرات، وحياً بعض المرات... كان في الحاضر بعض المرات، وفي الماضي بعض المرات. كان كأنه استولى عليَّ تماماً، كأنه صار متحكماً بكل شيء بداخلي. وعندما استيقظت آخر الأمر، نحو الساعة الثامنة تقريباً، كانت فكرتي الأولى هي أن ذلك كان زيارة ليلية؛ وكانت فكرتي الثانية، أن عليَّ أن أذهب وأراه من جديد.

بعد ساعتين من ذلك، أغلقت باب المطبخ حيث كانت جدتي جالسة، وذهبت إلى الهاتف وطلبت رقم مكتب دفن الموتى.

«مكتب أندنياس لدفن الموتى!».

«آه، مرحباً، هذا كارل أوفه كناوسغارد. كنت في مكتبكم يوم أمس، مع أخي. الأمر متعلق بأبي. لقد مات منذ أربعة أيام، و...».

«أوه، طبعاً، مرحباً...».

«لقد ذهبنا لرؤيته يوم أمس، مثلما تعلم. لكنني كنت أتساءل الآن إن كان من الممكن أن أراه مجدداً! زيارة أخيرة... إن كنت تدرك ما أقصده...».

«نعم، بالطبع. متى يكون الوقت مناسباً لك؟».

قلت: «نعم... ربما... بعد الظهر! الثالثة؟ الرابعة؟».

«هل يناسبك القدوم في الساعة الثالثة؟».

«في الثالثة... جيد».

«أمام مصلّى الكنيسة!»

«جيد».

«لا بأس... اتفقنا إذن».

«أشكرك جزيل الشكر».

«لا حاجة إلى الشكر».

أحسست بالارتياح لأن المكالمة جرت من غير أي مشكلة، فخرجت إلى الحديقة وتابعت جزّ العشب. كانت الغيوم كثيفة في السماء، والضياء لطيفاً، والهواء دافئاً. أنهيت العمل عند الساعة الثانية تقريباً، وبعد ذلك عدت لأرى جدتي وقلت لها إنني سأخرج لأرى صديقاً، ثم غيَّرت ثيابي واتجهت إلى الكنيسة. كانت السيارة الحمراء نفسها واقفة أمام الباب. وكان الرجل نفسه هو من فتح الباب عندما قرعته. حياني بهزة من رأسه. وفتح باب الغرفة التي كنت فيها من قبل، لكنه لم يدخلها بنفسه. وقفت أمام أبي من جديد. كنت هذه المرة مستعداً لما ينتظرني، ولم يثر جسده أي مشاعر من تلك التي عذبتني في المرة الماضية (لا بد أن لون جلده صار داكناً أكثر خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية). رأيته الآن في حالة الموت. ورأيت أن لا فرق بعد الآن بين هذا الذي كان أبي ذات مرة وبين الطاولة التي يرقد عليها، أو الأرض التي تقف تلك الطاولة فوقها، أو الفتحة في الجدار تحت النافذة، أو السلك الكهربائي الذاهب إلى مصباح الطاولة القائم إلى جانبه. هذا لأن البشر ليسوا أكثر من صيغة بين

صيغ كثيرة ينتجها العالم مرة بعد مرة، لا في الأشياء التي تعيش فحسب بل في كل شيء غير حي أيضاً... صيغة مرسومة في الرمل، وفي الحجارة والماء. والموت، الموت الذي اعتبرته دائماً أعظم أبعاد الحياة على الإطلاق، اعتبرته شيئاً مظلماً، مفروضاً... لم يعد أكثر من شيء يشبه أنبوباً يتسرَّب منه الماء، أو غصناً ينكسر في الريح، أو سترة تنزلق عن عَلاَّقة الملابس وتسقط إلى الأرض.

كانت رواية كارل أوفه كناوسغارد الأولى، «خارج العالم»، أول «عمل أول» يفوز بجائزة النقاد النرويجيين. وقد حظيت روايته الثانية، «زمنٌ من أجل كل غاية تحت السماء»، باعتراف وتقدير واسعين. وقد نالت رواية «موت في العائلة» جائزة براغِه المرموقة، وما زالت تحظى باهتمام كبير حيثما نُشرت باعتبارها تحفة أدبية متميزة.

كارل أوفه كناوسغارد

كِفاحي

«يُنظر إلى هذه الرواية كحدث عالمي، إذ يجري الحديث عنها كتحفة أدبية في كل مكان تُنشَر فيه... حارقة في صدقها... تجعل قارئها مدمناً عليها». **(الناشر)**

«الكتاب الأول من كفاحي: موت في العائلة، يصيب المرء بالإدمان ويجعله غير قادر على تركه... تحفة أدبية على غرار تحفة مارسيل بروست.. أصالة أدبية مدهشة لا سبيل إلى مقاومتها.. كاتب لا يهاب القضايا الكبرى -الموت والحب والفن والخوف-. يكتب كناوسغارد التفاصيل الحميمة في الحياة مثلما تُعاش فعلاً. إن «كفاحي» عمل أساسي من أعمال الأدب المعاصر». فيليب لوبّات

«رواية حيوية شديدة الكثافة... جمل هادئة بسيطة واضحة بالغة الأثر... يريدنا كناوسغارد أن نألف اعتيادية الحياة التي تكون مشرقة أحياناً، مبتذلة أحياناً، وهائلة في أحيان أخرى، لكنها كلها اعتيادية تحدث في مجرى الحياة ولكل إنسان، وإن بطرق مختلفة... فيها ما دعاه وولتر بنجامين «الوجه الملحمي للحقيقة، الحكمة»». **جيمس وود، ذا نيو يوركر**

«هذا السيل الأدبي النروجي يشبه انهياراً ثلجياً. كتاب «كفاحي» كتلة ضخمة من سرد روائي ينطلق حراً فكِهاً بارعاً مثيراً ولا يتوقف». **نيك ديمارتينو، شِلف أويرنِس**

«هي بين مارسيل بروست والغابات... كالصخر الأصم، محكَمَة، بالغة القوة. حقيقية أكثر من الحقيقة نفسها». **لا ريبوبليكا**

«لا أستطيع التوقف، أريد أن أتوقف لكنني لا أستطيع... صفحة أخرى فقط، وبعدها سأحضّر طعام العشاء، صفحة أخرى فقط...». **فاستر بوتنز- كوريرن (السويد)**

«شيء لا يصدَّق! لم أقرأ بعد إلا مئتي صفحة من الجزء الأول، لكني أريد الجزء التالي بأي ثمن». **زيدي سميث**


ISBN 978-977-828-002-9

